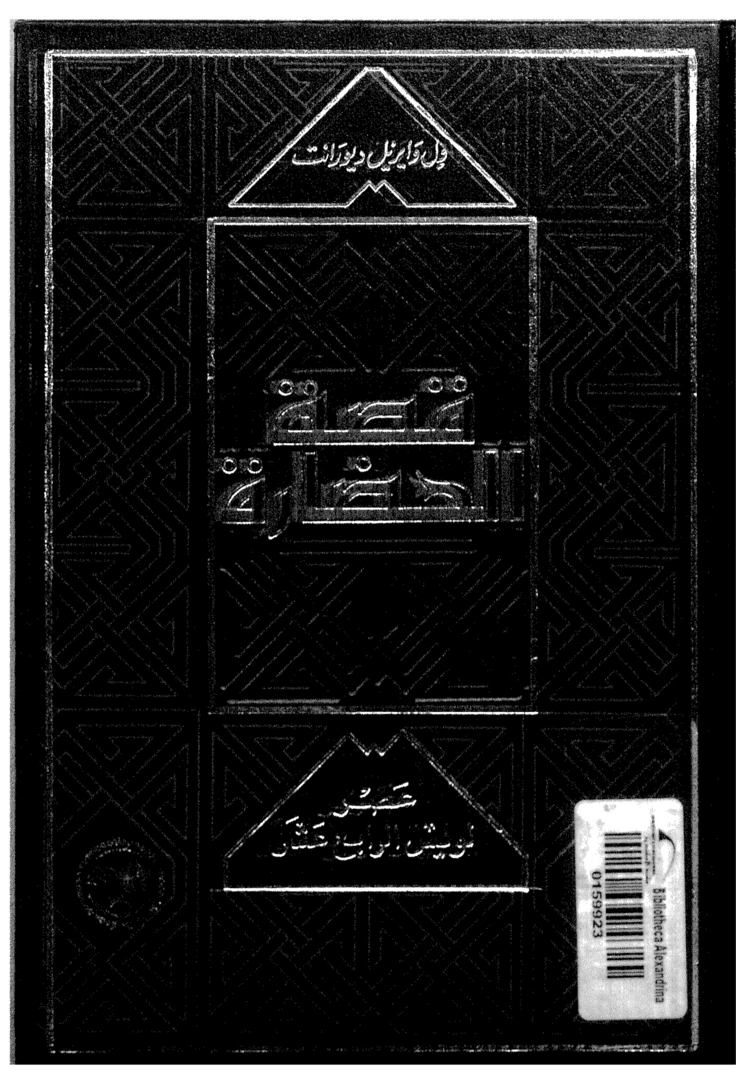
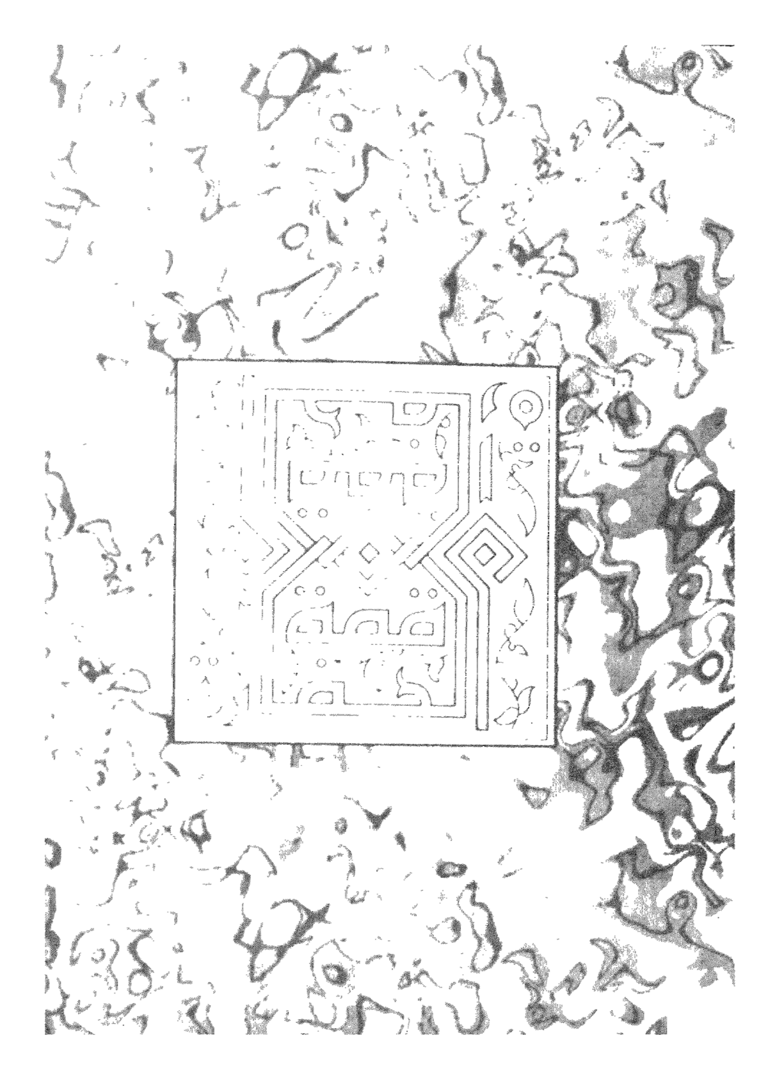
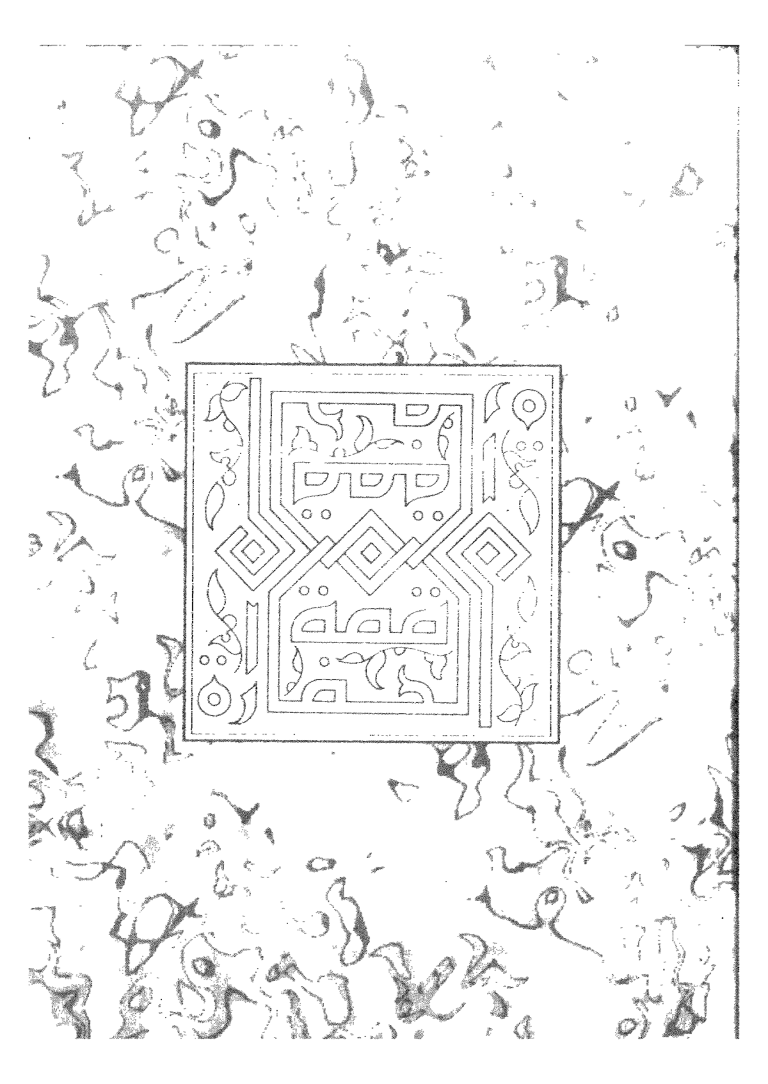


ول وايريل ديورانت
قصة الحضارة
ترجمة
لويس الرابع عشر





قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

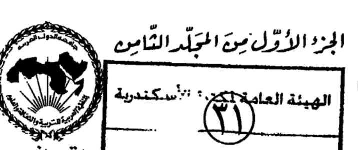
عصر لويس الرابع عشر

تاريخ الحضارة الأوروبية
في عصر
بسكال وموليير وكرومول وملتن
وبطرس الأكبر ونيوتن وسبينوزا
١٦٤٨ - ١٧١٥

ترجمة
فؤاد أندراوس

مراجعة
علي أدهم

الجزء الأول من المجلد الثامن





بيروت
تونس

دار الجيل : ص.ب ٨٧٣٧ - ت: ٢٦٦١٥٨ - ٢٦٠٤٦٥ - تلكس: ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي : دار جيلاب - بيروت - لبنان

إلى القارىء العزيز

هذا المجلد هو الجزء الثامن فى تاريخ نسيت بدايته ، ولن ندرك نهايته أبدا . موضوعه الحضارة ، وتعريفنا لها أنها ذلك النظام الاجتماعى الذى يدعم الإبداع الثقافى ، فهو إذن ينظم أبواب الحكم ، والاقتصاد (أى الزراعة والصناعة والتجارة والمالية) ، والأخلاق ، وآداب السلوك ، والدين ، والفن ، والأدب ، والموسيقى ، والعلم ، والفلسفة . وهدفه التاريخ المتكامل - أى تغطية جميع نواحى النشاط لشعب ما فى منظور واحد ورواية موحدة . وقد حققنا هذا الهدف ولكن فى قصور شديد . ومسرحه أوربا ، وزمانه يمتد من معاهدة وستفاليا (١٦٤٨) إلى وفاة لويس الرابع عشر ، الذى غلب حكمه (١٦٤٣ — ١٧١٥) على العصر وسماه باسمه .

أما الموضوع الغالب على هـذا الجزء فهو « المناظرة الكبرى » بين الإيمان والعقل . لقد كان الإيمان متربعا على العرش إبان هذه الحقبة ، ولكن العقل كان يجـد أصواتا جديدة تفصح عنه فى هوبز ، ولوك ، ونيوتن ، وبيل ، وفونتنيل ، وسبينوزا ، و « كان هذا العصر الكلاسيكى من أوله إلى آخره ما أطلقه على ذاته فى ختامه ، أى عصر العقل » (*) وقد خصصنا ثلث الكتاب تقريباً لتلك المغامرة الفكرية التى انطلقت من الخرافة والظلامية والتعصب إلى الدرس والعلم والفلسفة . وقد بذل المؤلفان محاولة لرواية هذا النقاش فى إنصاف رغم انحيازهما الواضح إلى أحد الجانبين ، ومن ثم كان تناولهما المستفيض ، المتعاطف ، لنفر من المنافحين الأكفاء عن الإيمان ، أمثال بسكال ، وبوسويه ، وفنيلون ، وباركلى ، ومالبرانش ، وليبنتز . وسوف يعيش أبناؤنا فصلا جديدا فى صراع المثل هذا ، وهو صراع لابد لكل انتصار فيه أن يكسب من جديد المرة بعد المرة .

وأملنا أن تقدم للقراء الجزء التاسع الذى يتناول « عصر فولتير »

(*) البيرجيرار : The Life and Death of an Ideal

فى ١٩٦٥ ، والجزء العاشر « روسو والثورة » فى ١٩٦٨ ، ولقد اعترضتنا عقبات ، بعضها نجم عن ضخامة المادة التى أتاحها لنا القرن الثامن عشر ، وكلها يتطلب الدرس والحيز الكافى . وإنا خلال ذلك رنا كسناان إلى « القوى العظمى » فى ألا تدمر موضوعنا هذا قبل أن تدمرنا .

مايو ١٩٦٣ — ول وايريل ديورانت

إقرار بالفضل

لقد لقى ربه أحد الناشرين المشاركين اللذين بدأنا معهما « مشروع الكلام » هذا فى ١٩٢٦ ، ولن ننسى أبدا روحه النيرة المتألقة . وما زال الثانى صديقا لنا ، وهو لايفتأ متحمسا ، سمحا ، غفوراً . إنه ناشر لم يطغ عمله على شاعريته .

وعسى ألا يفسر انتهازنا هذه الفرصة — التى قد تكون الأخيرة — للإعراب عن عرفاننا بجميل النقاد الكثيرين الذين أتونا بقراء لهذه المجلدات — نقول عسى ألا يفسر هذا بأنه « إحساس قوى بأفضال قادمة » ، فما كنا بغير معونتهم إلا صوتين صارخين فى البرية .

ونحن مدينان دينا كبيرا لابنتنا إيثل لما بذلت من جهد مخلص فى نسخ مسودتنا الثانية ، التى لم تكن واضحة تمام الوضوح ، على الآلة الكاتبة نسخا قارب الكمال ، ولما أدخلت عليها من تنقيحات صائبة ؛ ولاخواتنا وأخينا — ساره ، وفلورا ، وماري ، وهارى كاوفان — لما قاموا به من تصنيف صابر لنحو أربعين ألف جزازة تحت اثنى عشر ألف عنوان ، وللسيدة آن روبرتس بمكتبة لوس أنجيليس العامه ، والآنسة داجنى ولمز بمكتبة هوليوود الإقليمية ، لما قدمتا من معونة قيمة فى توفير الكتب النادرة لنا من جميع أرجاء أمريكا ، فما كان لهذه المجلدات أن تكتب لولا مكتباتنا السخيه العظيمة ، والسيدة فيرا شنيدر ، عضو هيئة التحرير بمؤسسة سيمون وشوستر ، لما لقى هذا المجلد وسابقه على يدها من تحقيق علمى دقيق لم يظفر بمثله فى أغلب الظن إلا القليل من المخطوطات .

الكتاب الأول

فرنسا فى أوج عظمتها

١٦٤٣ — ١٧١٥

الفصل الأول

الشمس تشرق

١٦٤٣ — ٨٤

١ - مازاران والفروند: ١٦٤٣ - ٦١

ترى ما الذى أعان فرنسا على أن تفرض على أوربا الغربية منذ ١٦٤٣، سلطانا فيه ما يشبه قوة التنويم، اتصل فى ميدان السياسة حتى ١٧٦٣، وفى ميادين اللغة والأدب والفن حتى ١٨١٥؟

إن العالم لم يشهد قط منذ أيام أوغسطس ملكية إزدانت بمثل هذا العدد من أفذاذ الكتاب والمصورين والمثالين والمعماريين، أو حظيت بمثل الإعجاب والمحاكاة الواسعين، سواء فى آداب المجتمع أو الأزياء أو الأفكار أو الفنون، اللذين حظيت بهما حكومة لويس الرابع عشر من ١٦٤٣ إلى ١٧١٥. لقد كان الأجانب يؤمون باريس وكأنهم يؤمون مدرسة تهذيبية تصقل كل ألوان الجمال فى الجسم والعقل. وكان الألوف من الايطاليين، والألمان، وحتى الإنجليز، يؤثرون باريس على أوطانهم.

أن من أسباب هيمنة فرنسا آنئذ ضخامة قواها البشرية. فقد بلغ سكانها عشرين مليونا من الأنفس فى ١٦٦٠، فى حين لم يزد سكان كل من أسبانيا وانجلترا على خمسة ملايين، وإيطاليا على ستة، والجمهورية الهولندية على مليونين. أما الامبراطورية الرومانية المقدسة، التى شملت ألمانيا، والنمسا، وبوهيميا، والمجر، فقد سكنها واحد وعشرون مليونا تقريبا، ولكنها لم تكن إمبراطورية إلا بالاسم وقد أفقرتها قبيل هذه الحقبة حرب الثلاثين، وانقسمت إلى نيف وأربعمائة دويلة، شديدة الحرص على «سيادتها»،

جلها صغير مستضعف ، ولـكل منها حا كمها ، وجيشها ، وعملتها ، وقوانينها، ولا يزيد سكان الواحدة منها على المليونين — وعلى نقيض هذا كانت فرنسا بعد ١٦٦٠ أمة متماسكة جغرافيا، متحدة تحت حكومة مركزية قوية واحدة، وهكذا تمخضت جهود ريشليو الألمعية عن مولد « القرن العظيم » .

ولقد فاز البوربون حيث أخفق الفالوا فى ذلك الصراع الطويل الذى نشب بين الهابسبورج والملوك الفرنسيين . وأخذت أجزاء من الإمبراطورية، عقداً بعد عقد ، تقع فى قبضة فرنسا ، ثم نزلت أسبانيا الهابسبورجية عن كبريائها وزعامتها فى روكروا (١٦٤٣) وصلح البرانس (١٦٥٩) . وبعدها عقد لواء القوة للدولة الفرنسية فى العالم المسيحى ، دولة مطمئنة إلى مواردها الطبيعية ، ومهارات شعبها وولائه ، وخطط قادتها العسكريين ، ومصير ملـكها . كذلك كان من الأهمية بمكان ما كتب لهذا الفتى من حكم سيتصل قرابة ثلاثة أرباع القرن ، مضيفاً بذلك وحدة الحـكومة والسياسة إلى وحدة العرق والأرض ، وهـكذا سنرى فرنسا طوال خمسين عاما ترعى وتستقدم عباقرة العلم والأدب ، تشيد القصور الشامخة ، وتجيش الجيوش الضخمة ، وترهب نصف الدنيا وتلهمها . لقد قدر لهذه الصورة أن تـكون صورة عظمة لم تـكد تضارعها من قبل عظمة ، ترسم بـكل ضروب الفن وألوانه ، وبدم الرجال أيضاً .

لم تـكن فرنسا قد توحدت بعد يوم ارتقى لويس الرابع عشر العرش وهو لا يجاوز الخامسة (١٦٤٣) ، وكان على كردينال ثان أن يتم العمل الذى بدأه سلفه ريشليو . ذلك هو جول مازارن الذى كان يسمى فى إيطاليا جوليو مازارينى ، وقد ولد فى « الأبروتزى » لأبوين صقليين فقيرين ، وتولى اليسوعيون تعليمه فى روما ، وخدم البابوات موظفا دبلوماسيا ، ثم لفت أنظار أوربا فجأة يوم أنهى الحرب المانتوية (١٦٣٠) بمفاوضة لبقة حرجة . فلما أوفده البابا مبعوثا له فى باريس ، ربط مصيره بعبقرية

ريشليو المسيطرة، فكافأه هذا على إخلاصه بقبعة الكردينالية . وحين حضرت المنية ريشليو، «أكد للملك أنه لايعرف غير مازاران رجلا كفؤا لملء مكانه» (١). واستمع لويس الثالث عشر إلى النصيحة .

فلما مات هذا الملك المطيع (١٦٤٣) ظل مازاران متواريا بينما اضطلعت الملكة الأم، آن النمساوية، بالوصاية على ولدها، واحتال لوى دكونديه وجاستون دورليان، الأميران الملكيان، ليصبحا القوة الفعالة وراء العرش ولم يغتفرا للملكة قط أنها تخطتهما واستوزرت ذلك الإيطالى الوسيم، الذى بلغ الآن الحادية والأربعين . وفى غداة تقلده الوزارة هشت باريس لنبأ انتصار روكروا الحاسم، وبدأ حكم مازاران بهذا الاستهلال الميمون، ودعمته الانتصارات الكثيرة سواء فى الدبلوماسية والحرب . وقد تبين ذكاؤه فى حسن تخيره للسياسات، والقواد العسكريين، والمفاوضين . وبفضل إرشاده وقيادته وطد صلح وستفاليا (١٦٤٨) تفوق فرنسا الذى أكسبته إياها الحرب .

على أن مازاران لم يوهب وحدة الإرادة وقوتها اللتين أوتيهما ريشليو، ومن ثم فقد اعتمد على صبره ودهائه وسحره . وقام أصله الأجنبى عقبة فى طريقه . ومع أنه أكد لفرنسا أن قلبه فرنسى وإن كان لسانه إيطاليا، إلا أن تأكيداته لم تحظ قط بالتصديق التام، فلقد كان رأسه إيطاليا، وقلبه ملكا له . ولا علم لنا كم من هذا القلب اختص به الملكة، إنه خدمها وخدم أطماعه بغيرة، واكتسب ودها، وربما حبها . وكان على يقين من أن سلامته وسلامتها فى مواصلة سياسة بناء قوة الملكية تدريجيا ضد أشراف الاقطاع . وفى سبيل الأثراء تحسباً للمستقبل إن سقط، جمع المال بحرص الرجل الذى يذكر الفقر أو يخشاه، فحكمت عليه فرنسا، التى بدأت تعجب بفضيلة الاعتدال، بأنه محدث نعمة، وساءتها لكنته الإيطالية، وأقرباؤه الذين كلفوا الدولة غاليا : لاسيما بنات أخيه، اللاتى تطلب حسنهن جهازا مترفا من الخدم والحشم . وقد احتقره الكردينال رتز، مع أن رتز هذا لم

يكن ركناً ركيناً للفضيلة ، فزعم أنه « إنسان قذر ... ومحتال أصيل ... وشرير لئيم(٢) » . على أن رتز - بعد أن هزمه مازاران - لم يكن في وضع يعينه على إنصاف غريمه. وإذا كان الوزير الماكر قد جمع المال دون اكتراث للكرامة ، فإنه أنفقه بذوق رفيع ، فملأ حجراته بالكتب والتحف التي أوصى بها بعد ذلك لفرنسا وكان ذا أسلوب مرح مهذب يلذ السيدات ويحير الرجال . وقد وصفته امرأة منصفة تدعى مدام دموتفيل ، بأنه : « يفيض رقة ، بعيد كل البعد عن صرامة » ريشليو(٣) . وكان سريع العفو عن معارضيه ، سريع النسيان لفضل ذوى الفضل عليه . وأجمع الكل على أنه لم يدخر جهداً في حكم فرنسا ، ولكن حتى هذا التفاني كان يسيء إلى بعض الناس ، لأنه كان أحيانا يترك كبار زواره ينتظرون على مضض في حجرات انتظاره . وكان كل إنسان في رأيه قابلا للرشوة ، وكان عديم الإحساس بالنزاهة . أما أخلاقه الشخصية فلم يكن بها بأس إذا ضربنا صفحا عن الشائعات التي أرجفت بأنه جعل من مليكته خليلة له . وقد صدم الكثيرين في البلاط بدعاباته الشكاكة عن الدين(٤) ، لأن مثل هذه السخرية لم تكن قد فشت بعد في المجتمع الفرنسي ، ومن ثم عزوا تسامحه الديني إلى افتقاره للإيمان(٥) . وكان من أول أعماله توكيد مرسوم نانت ، فسمح للهيجونوت بأن يعقدوا مجامعهم في سلام . ولم يكابد أي فرنسي الاضطهاد الديني من الحكومة المركزية في عهد وزارته .

ومن عجب أنه احتفظ بسلطته كل هذا الزمن برغم كراهية الناس له لقد كرهه الفلاحون لما أثقل به كواهلهم من ضرائب يستعين بها على خوض غمار الحرب ، وكرهه التجار لأن المكوس التي فرضها أضرت بالتجارة ، وكرهه الأشراف لأنه اختلف معهم حول مزايا الاقطاع . وكرهته « البرلمانات » لأنه وضع نفسه والملك فوق القانون . وزادت الملكة من كره الناس له بحظرها توجيه النقد لحكمه . وقد أيدته لأنها ألفت نفسها في وضع تتحداها فيه جماعتان رأتا في طفولة الملك ، وفي ضعف المرأة الموهوم ، منفذاً إلى

السلطة : الأشراف الذين علو أنفسهم باسترجاع امتيازاتهم الإقطاعية السابقة على حساب الملكية و « البرلمانات » التي تطلعت لإحالة الحكومة إلى أوليجاركيه من المحامين . إزاء هاتين القوتين — « أرستقراطية السيف » العريقة ، و « أرستقراطية الرداء » الأحدث عهداً — التمست الملكية درعاً لها في عناد مازاران المقترن بالمرونة و لدهاء . وقد بذل أعداؤه محاولتين عنيفتين لخلعه والسيطرة عليها ، والمحاولتان تؤلفان حرب الفروند .

بدأ برلمان باريس حرب الفروند الأولى (١٦٤٨ — ٤٩) محاولا أن يكرر في فرنسا تلك الحركة التي كانت لتوها قد رفعت البرلمان الإنجليزي فوق الملك مصدراً للقانون وحكماً فيه . وكان برلمان باريس ، بعد الملك ، المحكمة العليا لفرنسا ، وقد قضت التقاليد ألا يقبل الشعب قانونا أو ضريبة إلا إذا سجل هؤلاء الموظفون القضائيون (وكلهم تقريبا محامون) القانون أو الضريبة . وكان ريشليو قد اختزل هذه السلطات أو تجاهلها ، فصمم البرلمان الآن على تأكيدها . وأحس أن قد آن الأوان لجعل الملكية الفرنسية ملكية دستورية ، خاضعة للإرادة القومية يعبر عنها مجلس نيابي . ولكن برلمانات فرنسا الاثنى عشر لم تكن مجالس تشريعية انتخبتها الأمة كما كانت الحال في برلمان انجلترة ، بل هيئات قضائية وإدارية ورث أعضاؤها مقاعدهم أو وظائفهم القضائيه عن آبائهم ، أو عينهم الملك فيها . ولو أن حرب الفروند الأولى كتب لها الفوز لاستحالت فرنسا إلى أرستقراطية من المحامين . وكان في الأمكان تطوير مجلس طبقات الأمة ، المؤلف من مندوبين عن الطبقات الثلاث — النبلاء ورجال الدين وباقي الشعب — إلى مجلس نيابي يكبح جماح الملكية ، ولكن مجلس الطبقات لم يكن يملك دعوته للانعقاد إلا الملك ، ولم يدعه أي ملك منذ ١٦١٤ ، ولن يدعوه حتى ١٧٨٩ ، ومن هنا اندلاع الثورة الفرنسية .

على أن برلمان باريس تحول إلى هيئه نيابية بصورة غير مباشرة ، مؤقتاً ، يوم اجترأ أعضاؤه على الكلام نيابة عن الأمة . فنرى أومير تالون ، في

أوائل ١٦٤٨، يندد بالضرائب التى أفقرت الشعب على عهد ريشليو ومازاران إذ يقول :

« لقد ألحق الخراب بفرنسا طوال عشرة أعوام . فاضطر الفلاحون أن يناموا على القش بعد أن بيعت أمتعتهم وفاء للضرائب . وتمكينا لنفر من الناس من أن ينعموا فى باريس بحياة البذخ أكرهت جماهير لا حصر لها أن تعيش على الخبز القفار .. فافقده كل شىء إلا نفوسها — وهذه لم تترك لها إلا لأن أحدا لم يجد سبيلا لعرضها للبيع [٦].

وفى ١٢ يوليو، انعقد البرلمان فى قصر العدالة مع غيره من محاكم باريس ووجهوا إلى الملك وأمه مطالب عدة لا بد أنها بدت لهما ثورية . فقد طالبوا بخفض ربع الضرائب الشخصية كلها ، وبألا تفرض ضرائب جديدة دون موافقة البرلمان بالتصويت الحر ، وبطرد النظار الملكيين intendants الذين حكموا الأقاليم دون اكتراث للحكام والقضاة المحليين ، وبألا يحبس شخص أكثر من أربع وعشرين ساعة دون أن يمثل أمام القضاة المختصين . ولو أن هذه المطالب اجيبت لأصبحت حكومة فرنسا ملكية دستورية ، ولسارت فرنسا جنبا إلى جنب مع انجلترة فى تطورها السياسى .

بيد أن للملكة الأم ربطتها بالماضى جذور أقوى من الحصر بالمستقبل ، إذ لم يكن لها عهد قط بأى شكل من أشكال الحكم سوى للملكية المطلقة ، وقد أحست أن التخلى عن السلطة الملكية على هذا النحو المقترح الآن مفض لا محالة إلى صدوع لا رأب لها فى صرح الحكومة الوطيد ، وإلى تقويض تلك الركيزة السيكولوجية التى يستمدها من التقاليد والعرف ، والنزول بها إن عاجلا أو آجلا إلى فوضى الجماهير المتسيدة . ثم يالها من سبة أن تسلم ولدها سلطة دون تلك التى تمتع بها أبوه (أو ريشيليو) ! ذلك تقاعس عن واجبها سوف يوقفها موقف الإدانة أمام محكمة التاريخ . ووافقها مازاران لما رأى من قضاء مبرم عليه فى هذه المطالب الوقحة من هؤلاء القانونيين المتبطعين.. ومن ثم أمر فى ٢٦ أوغسطس بالقبض على بيير بروسيل وغيره

من زعماء البرلمان . بيد أن بروسيل العجوز كان قد اكتسب محبة الناس بهذا الشعار الذى أذاعه : « لا ضرائب » فاحتشد جمهور من الغوغاء أمام الباليه — رويال وتعالى صياحهم بطلب الإفراج عنه . وقد أطلق عليهم اسم الرماة Frondeurs لما كان يحمل الكثيرون منهم من مقاليع أو مراجيم ، كما أطلق اسم « الفروند » على هذا التمرد . على أن جان فرانسوا بول دجوندى — الملقب درتز فيما بعد — مساعد رئيس أساقفة باريس وخليفته المنتظر ، نصح الملكة بالإفراج عن بروسيل . فلما أبت انسحب غاضبا ، وعاون على استعداء الشعب على الحكومة ، وكان خلال ذلك يستخدم نفوذه خفية فى محاولة الظفر بقبعة الكردينالية ، ويعاشر ثلاث خليلات .

وفى ٢٧ أغسطس اتخذ أعضاء البرلمان وعددهم ١٦٠ طريقهم إلى القصر الملكى مخترقين الحشود والمتاريس ، تشد أزرهم هتافات تصيح « يحيى الملك ! إلى الموت يا ما زاران ! » ورأى الوزير الحذر أن اللحظة تتطلب الحكمة لا الشجاعة ، فنصح للملكة بأن تأمر بالإفراج عن بروسيل ، فوافقت ، ثم إذ أحفظها هذا النزول على رغبة الجماهير اعتكفت هى والملك الصبى فى ضاحية رويل وأجاب ما زاران البرلمان إلى مطالبه مؤقتا ، ولكنه طاوله فى تنفيذها . وظلت المتاريس فى الشوارع . فلما غامرت الملكة بالعودة إلى باريس صاحت الجماهير بها صيحات الازدراء ، وسمعت بأذنيها تندرها بعلاقتها بما زاران . ثم عاودت الهروب من المدينة فى ٦ يناير ١٦٤٩ ، مصطحبة فى هذه المرة الأسرة المالكة والبلاط إلى سان جرمان ، حيث توسد الحرير القش ، ورهنت الملكة جواهرها لتشترى الطعام . أما الملك الصغير فلم يغتفر قط لهذا الحشد فعلته ، ولم يحب عاصمة ملكه قط .

وفى ٨ يناير أصدر البرلمان فى أوج تمرده مرسوما طرد به مازاران من حماية القانون واستعدى عليه كل الفرنسيين الصالحين ليطاردوه ويقبضوا عليه باعتباره مجرما . وقضى مرسوم آخر بالاستيلاء على كل الأموال

الملكية واستعمالها فى أغراض الدفاع العام . ورأى كثيرون من النبلاء فى هذا التمرد فرصة لاستمالة البرلمان إلى قضيتهم — قضية استردادهم امتيازات الاقطاع ، ولعلهم أيضاً خشوا أن يفلت زمام الحركة إذا لم يتزعمها ذوو الألقاب الرفيعة . وانضم إليها كبار الاقطاعيين أمثال أدواق لونجفيل ، وبوفور ، وبويون ، وحتى أمير كونتى البوربونى الدم ، وأمدوها بالجند والمال وحرارة العاطفة . فأقبلت دوقة بويون ودوقة لونجفيل — الرائعة الحسن برغم إصابتها بالجدرى — مع أطفالهما للعيش فى الأوتيل دفيل رهائن مختارة لضمان ولاء زوجيهما للبرلمان والشعب . وبينما كانت باريس تنقلب إلى معسكر مسلح ، كانت حاملات الألقاب يرقصن فى قاعة المدينة ، وواصلت دوقة لونجفيل غرامها بأمير مارسياك ، الذى لم يكن قد أصبح بعد الدوق دلاروشفوكو ، ولا اعتنق بعد فلسفته الكلبية . وفى ٢٨ يناير رفعت الدوقة من معنوية المتمردين إذ ولدت ابناً لمارسياك (٧) ، وارتبط كثير من الفروندين بكرائم النبيلات فرساناً تابعين لهن ، فكن يشترين دماءهم بابتسامة متلطفة من ثغورهن .

ثم حالف الحظ الملكة فأنقذ الموقف عداء بين أمير كونتى وأخيه الأكبر لويس الثانى البوربونى ، أمير كونديه — وهو « كونديه العظيم » ذاته الذى قاد الجيوش الفرنسية من قبل إلى النصر فى روكروا ولنز . وإذ شمخ بأنفه القوى على تمرد المحامين والغوغاء ، فإنه عرض خدماته على الملكة والملك . فوكلت إليه فى ابتهاج قيادة جيش ضد باريس المتمردة — أى ضد أخيه ، وضد أخته دوقة لونجفيل — والعودة بالأسرة المالكة فى أمان إلى الباليه — رويال . وجمع كونديه الجند ، وحاصر باريس ، واستولى على شارنتون ، المخفر الأمامى الحصين . أما النبلاء المتمردون فقد طلبوا المعونة من أسبانيا والإمبراطورية . وكان الطلب غلطة ، ذلك أن عاطفة الوطنية كانت عند البرلمان والشعب أقوى من الإحساس الطبقى . وأبى معظم أعضاء البرلمان أن يلغوا أعمال ريشليو وانتصاراته بإعادة تفوق الهابسبورج على فرنسا ،

وبدأوا يتبينون أنهم إنما يستعملون بيادق في محاولة لاسترجاع نظام إقطاعي من شأنه أن يقسم فرنسا ثانية إلى أقاليم مستقلة فرادى ، مستضعفة جماعة . وفي نوبة تواضع مفاجئة أرسلوا وفداً إلى الملكة للقترية ، وعرضوا الخضوع لها ، مؤكدين أنهم كانوا على الدوام يكنون لها الحب . أما الملكة فقد منحت جميع المتمردين عفواً تاماً ، شريطة أن يضعوا السلاح . وسرح البرلمان جنوده ، وأبلغ الشعب أن طاعة الملك هي واجب الساعة . وأزيلت المتاريس . وعادت آن ، ولويس ، ومازاران إلى قصبة الملك (٢٨ أوغسطس ١٦٤٩)، والتأم شمل البلاط من جديد ، وانضم إليه النبلاء المتمردون كأن شيئاً لم يقع ، اللهم إلا سحابة قد انقشعت . واغتفر كل شيء ، ولم ينس شيء . ووضعت حرب الفروند الأولى أوزارها .

ولكن حرباً ثانية مالبثت أن نشبت . ذلك أن كونديه أحس أن خدماته تخول له الترؤس على مازاران . فتشاجر الاثنان ، واتصل كونديه بالنبلاء المتذمرين يجس نبضهم ، أما مازاران ففي أجرأ لحظات حياته أمر بحبس كونديه وكونتي ولونجفيل في فانسين (١٨ يناير ١٦٥٠) . وهرولت مدام لونجفيل إلى نورمنديا ، وأثارت حركة تمرد فيها ، ثم مضت منها إلى الأراضي المنخفضة الأسبانية ، وفتنت تورين حتى ارتضى خيانة العرش . فوافق القائد العظيم على أن يقود جيشاً أسبانياً ضد مازاران . يقول فولتير : «واصطدمت كل الأطراف بعضها ببعض ، وأبرموا المعاهدات ، ثم خان كل منهم الآخر واحداً إثر واحد ... ومامن رجل لم يغير ولاءه غير مرة»(٨) وقال ريتز ذاكراً تلك الفترة «كنا على استعداد لقطع رقاب بعضنا البعض عشر مرات كل صباح »(٩) . وكان هو نفسه على وشك أن يقتل بيد لاروشفوكو . على أن الكل أعلنوا ولاءهم للملك ، الذي لابد قد سأل نفسه : أي نوع من الملكية ذاك الذي استحال هشيماً بين يديه ؟

وقامت قوة ملكية بمناورة في بوردو انتهت باستسلامها ، وقاد مازاران جيشاً إلى فلاندر وهو يلعب دور إله الحرب مارس ، وهناك هزم تورين

الذى لايقهر . أما ريتز ، التواق إلى الحلول محل وزير الملكة وعشيقها ، فقد أقنع البرلمان بأن يجدد مطلبه بنفى مازاران . وفقد الكردينال جرأته ، فأمر بالإفراج عن الأمراء المسجونين (١٣ فبراير ١٦٥١) ، ودفعه الخوف على حياته إلى الهرب إلى برول القريبة من كولونيا . أما كونديه المتحرق للثأر من الوزير والملكة جميعا فقد ربط بين أخيه كونتى ، وأخته لونجفيل ، ودوق نامور ولاروشفوكو ، فى حلف جديد . وفى سبتمبر أعلنوا الحرب ، واستولوا على بوردو ، وأحالوها معقلا للثورة من جديد . ووقع كونديه تحالفا مع أسبانيا ، وتفاوض مع كرومويل ، ووعد بأن يقيم جمهورية فى فرنسا .

وفى ٨ سبتمبر أعلن لويس الرابع عشر أنه منه وصاية أمه عليه وآخذ مقاليد الحكم فى يده ، وكان يومها قد بلغ الثالثة عشرة . ورغبة فى تهدئة البرلمان أيد نفى مازاران ، ولكنه استجمع شجاعته فى نوفمبر ، فاستدعى الوزير ثانية ، وعاد هذا إلى فرنسا على رأس جيش . أما جاستون أورليان فقد لعب الآن دور الحياد ، ولكن تورين انحاز إلى صف الملك . وفى مارس ١٦٥٢ أوفد لويس حامل أختامه موليه ليطالب بولاء مدينة أورليان . فبعث قضاتها برسالة عاجلة إلى جاستون هددوه فيها بتسليم المدينة إلى الملك مالم يعد هو أو ابنته ليستنفرا أهلها .

هنا ظهرت على مسرح الأحداث امرأة من أشهر نساء فرنسا الشهيرات ، وما أكثرهن ، وكأنى بها « جان دارك » ثانية أقبلت لتنقذ أورليان . هذه المرأة — آن مارى لويز دورليان — كانت قد رفعت راية العصيان فى طفولتها حين نفى ريشليو أباها . وكان جاستون يلقب رسميا بـ « المسيو » باعتباره شقيق لويس الثالث عشر ، أما زوجته مارى بوربوز ، دوقة مونبانسييه ، فهى « مدام » ذلك العهد ، وابنتهما إذن هى « المدموازيل » ، ولما كانت هذه الفتاة قوية البنية فارعة القوام فقد سميت « الجراند مدموازيل دمونبانسييه » . وإذ كانت ذات ثراء عريض فقد شبت على كبرياء للتال

والنسب، وكانت تقول «انني أنتمى إلى بيت لايفعل إلا ماهو جليل نبيل»(١٠).
وقد تطلعت إلى الزواج من لويس الرابع عشر رغم أنه ابن عمها ، فلما لم تلق
تشجيعاً احتضنت التمرد . وحين سمعت استغاثة مدينتها ورأت أباها يكره
أن يخوض المعمعة ، حصلت على رضاه بأن تنوب عنه . ولقد طالما غاظتها
القيود التى فرضها العرف على بنات جنسها ، ولشد ما أنكرت حرمان
النساء من الانخراط فى سلك الجندية . ومن ثم فقد لبست الآن درعا وخوذة،
وجمعت من حولها لفيفا من كرائم النساء المسترجلات وقوة صغيرة من الجند
زحفت بها فى مرح وابتهاج على أورليان . وأبى القضاة أن يدخلوها المدينة
خشية إغضاب الملك ، فأمرت بعض رجالها أن ينقبوا ثغرة فى الأسوار ،
ومنها تسللت ورفقتها كونتيستان بينما الحراس يغفون أو يغضون . وما إن
أفلحت فى دخول المدينة حتى استطاعت أن تلهب مشاعر أهلها بسحر خطبها
النارية . وهكذا رد موليه عن المدينة خاوى الوفاض ، وأقسمت أورليان
يمين الولاء لـ « عذارء » الجديدة .

وبلغت حرب الفروند الثانية ذروتها على أبواب باريس . فقد زحف
كونديه عليهـــا من الجنوب ، وهزم جيشاً ملكيا ، وأوشك أن يأسر
الملك ، والملكة ، والكردينال ، ولو فعل لـ « مات الشاه » حقيقة
لامجازا . وبينما كان جيشه يدنو من باريس ، حملت الجماهير — وهم
« الفروندبون » هنا أيضاً ، رفات القديسة جنفييف راعية المدينة وطافت
الشوارع فى موكب ضارعة إلى الله أن ينصر كونديه ويسقط مازاران . أما
الجراند مدموازيل فقد هرعت من أورليان إلى قصر لكسمبورج حيث
كان أبوها لايزال على تذبذبه ، وطلبت إليه أن يؤيد كونديه ، ولكنه
أبى . واقترب الآن تورين وجيش الملك ، والتقيا بقوات كونديه خارج
الأسوار قرب بوابة سانت انطوان (ميدان الباستيل الآن) . وكاد تورين
يكسب المعركة ، لولا أن المدموازيل اندفعت إلى الباستيل وحرضت

مأموره على تصويب مدافعه على جنود الملك . ثم أمرت القوم داخل الأسوار ، باسم أبيها الغائب ، أن يفتحوا الأبواب برهة ريثما يدخل جيش كونديه ، ثم يغلقوها فى وجه جيش الملك (٢يوليو١٦٥٢) . وهكذا كانت المدموازيل بطلة الساعة .

وغدا كونديه سيد باريس ، ولكن الرءوس المتزنة أخذت تنقلب عليه . ولم يستطع أن يدفع رواتب جنده ، فبدأوا يهجرونه ، وأفلت زمام الجماهير . وفى ٤ يوليو هاجم الغوغاء قاعة المدينة مطالبين بأن يسلم إليهم جميع مؤيدى مازاران ، وإظهارا لسخطهم اشعلوا النار فى المبنى ، وقتلوا ثلاثين من المواطنين . وتعطلت العمليات الاقتصادية ، وعمت الفوضى إمداد المدينة بالطعام ، وخشى نصف أسرات باريس الموت جوعا . وتساءلت الطبقات المالكة : أليست الأوتقراطية الملكية . بل أليس حكم مازاران ، أهون من حكم الرعاع . وأعان مازاران الموقف حين ارتضى لنفسه النفى طوعا ، تاركا الفروندين بغير قضية توحد بين صفوفهم . أما ريتز فقد رأى أن الوقت قد حان لدعم مكاسبه بعد أن تم له الظفر بقبعة الكردينالية الحمراء التى طالما اشتهاها ، فاستخدم الآن نفوذه ليشجع الولاء للملك .

وفى ٢١ أكتوبر عادت الأسرة المالكة إلى باريس دون أن يمسها سوء . وافتتن الباريسيون بمنظر الملك الصغير ، البالغ من العمر آنئذ أربعة عشر ربيعا ، وسحرهم حسنه وشجاعته ، ورددت الشوارع هتاف الجماهير « يحيى الملك » وما لبث هياج الشعب أن هدأ بين عشية وضحاها ، وأعيد النظام لا بفضل القوة ، بل بهالة الملكية ، وهيبة الشرعية ، وإيمان الشعب — الإيمان نصف اللاشعورى — بحق الملوك الإلهى . وما وافى ٦ فبراير ١٦٥٣ حتى استشعر لويس فى نفسه من القوة ماشجعه على دعوة مازاران للعودة وتثبيته مرة أخرى فى جميع سلطاته السابقة . ووضعت حرب الفروند الثانية أوزارها .

وفر كونديه إلى بوردو ، وخضع البرلمان فى بطء ووقار ، واعتكف

النبلاء المتمردون فى قصورهم الريفية . والتمست مدام لونجفيل العزاء بين راهبات البور — رويال بعد أن ذهب رواء حسنها . ونفيت الجراند مدموازيل إلى إحدى ضياعها ، حيث راحت تأكل قلبها حسرة وهى تذكر ملاحظة نسبت إلى مازاران ، قال فيها إن إطلاقها المدافع من الباستيل قتل زوجها - أى قضى على أملها فى الزواج من الملك . وفى عامها الأربعين أحبت أنطوان كومون ، كونت لوزان ، وكان أصغر وأقصر منها كثيرا ، ولكن الملك رفض أن يأذن لهما بهذا الزواج ، فلما عزما عليه برغم هذا الحظر سجنه لويس عشر سنوات (١٦٧٠ — ٨٠) . وظلت المدموازيل وفية له فى شجاعة طوال سجنه ، ولما أفرج عنه تزوجته ، وعاشت معه عيشة مضطربة صاخبة حتى ماتت (١٦٩٣) . وأما ريتز فقد قبض عليه ، ولكنه فر ، ثم نال العفو ، وخدم الملك مبعوثا دبلوماسيا فى روما ، واعتكف فى ركن باللورين ، وألف مذكرات تمتاز بتحليلها الموضوعى للخلق ، بما فى ذلك خلقه هو يقول فيها :

« لم ألعب دور الناذر نفسه للدين ، لأننى لم استطع أن أعرف على وجه اليقين كم من الزمن سأستطيع لعب دور المزيف ، وحين أعجزنى العيش دون صلة غرامية محرمة ، اتصلت بمدام بومرو ، وكانت شابة لعوبا ، لها العدد الكبير من العشاق ، لا فى بيتها فحسب ، بل فى مكان عبادتها أيضاً ، بحيث كانت صلات غيرى المكشوفة معها ستارا لصلتى بها . . . واستقر رأيى على التمادى فى خطاياى . . . ولكنى كنت مصمما كل التصميم على القيام بواجبات مهنتى (الدينية) بأمانة ، وعلى بذل قصاراى فى تخليص نفوس غيرى وإن لم أكترث لخلاص نفسى » (١١).

أما مازاران فقد هبط على قدميه دون أن يضار ، وعاد سيداً على المملكة ، وخادما للملك ما زال راغبا فى التعلم . وقد روع فرنسا أن يبرم الوزير معاهدة مع إنجلترا البروتستنتية وكرومويل قاتل ملكها (١٦٥٧) ، التى أعان على محاربة كونديه والأسبان بإرساله ستة آلاف جندى ،

وأحرز الفرنسيون والإنجليز معا النصر فى « معركة الكثبان » (١٣ يونيو ١٦٥٨) . وبعد عشرة أيام سلم الأسبان دنكرك ، فدخلها لويس فى احتفال رسمى مهيب ، ثم نزل عنها لانجلترة طبقا للمعاهدة. وأبرمت أسبانيا مع فرنسا صلح البرانس (٧ نوفمبر ١٦٥٩) بعد أن استنزف القتال مالها ورجالها، فأنهت بذلك ثلاثة وعشرين عاما من حرب واحدة ، وأرست أساس حرب أخرى . ونزلت أسبانيا عن روسيون ، وأرتوا ، وجرافلين ، وتيونفيل ، لفرنسا ، وتخلت عن جميع مطالبها فى الالزاس ، وزوج فيليب الرابع ابنته ماريا تريزا للويس الرابع عشر ، بشروط ورطت فيما بعد غرب أوربا كله فى حرب الوراثة الأسبانية . ذلك أنه تعهد بأن يبعث إليها ، خلال ثمانية عشر شهرا ، بصداق قدره ٥٠٠،٠٠٠ كراون ، ولكنه انتزع منها ومن لويس تنازلا عن حقوقها فى ولاية العرش الأسبانى . وأصر ملك أسبانيا على أن يكون العفو عن كونديه شرطا من شروط الصلح ، فلم يكتف لويس بالصفح عن الأمير المنيف ، بل رد إليه كل ألقابه وأملاكه ، ورحب به فى بلاطه .

كان صلح البرانس الدليل على إنجاز برنامج ريشليو — وخلاصته كسر شوكة الهابسبورج ، وحلول فرنسا محل أسبانيا أمة متسلطة فى أوربا . واعترف الفرنسيون بفضل مازاران فى الوصول بهذه السياسة إلى ختامها الظافر ، ومع أنه لم يظفر إلا بحب القليلين منهم ، فإنهم رأوا فيه رجلا من أكفأ الوزراء فى تاريخ فرنسا . ولكن فرنسا التى سرعان ما نسيت خيانة كونديه ، لم تغتفر قط لمازاران جشعه وحرصه . ففى وسط الفاقة التى كابدها الشعب جمع ثروة طائلة قدرها فولتير بمائتى مليون من الفرنكات[١٢] . وكان يحول المخصصات الحربية إلى خزائنه الشخصية ، ويبيع وظائف التاج لمنفعته الخاصة ، ويقرض الملك بالربا ، وقد أهدى إحدى بنات أخيه قلادة مازالت تعد من أغلى الحلى فى العالم[١٣] .

ولما حضرته الوفاة أشار على لويس بأن يكون وزير نفسه الأول ، وألا يترك مسائل السياسة العليا لأى من مساعديه إطلاقا[١٤] وبعد موته (٩ مارس

١٦٦١) كشف كولبير للملك عن المخبأ الذى أخفى فيه ثروته . فصادرها لويس ، وأثلج بذلك صدر شعبه ، وغدا أغنى ملوك زمانه . وهتف ظرفاء باريس لجينو ، طبيب مازاران ، لأنه رجل أحسن إلى الشعب كله ، وقالوا «أفسحو الطريق لنبالته . إنه الطبيب الطيب الذى قتل الكردينال » (٢٥).

٢ — الملك

لم يكن أشهر ملوك فرنسا فرنسياً إلا بربع دمه . فقد كان نصف أسبانى من ناحية أمه آن النمساوية ، وربع إيطالى من ناحية جدته مارى مديتشى . وقد أولع بالفن والحب الإيطاليين دون تردد وبعد ذلك بالتدين والكبرياء الأسبانيين ، وفى أخريات عمره كان أكثر شبها بجده لأمه ، فيليب الثالث ملك أسبانيا ، منه بجده لأبيه ، هنرى الرابع ملك فرنسا ،

سمى عند ولادته (٥ سبتمبر ١٦٣٨) ديودونيه Dieudonné أى «عطية الله » ، ولعل الفرنسيين لم يستطيعوا أن يصدقوا أن لويس الثالث عشر قد حقق أبوته فعلا دون عون من الله . وقد أضر بنمو الصبى وتطوره ما كان بين أبويه من تنافر ، وموت أبيه الباكر ، واضطرابات الفروند الطويلة الأمد . وكثيراً ما لقى الإهمال وسط نضال آن ومازاران المرة بعد المرة للاحتفاظ بالسلطة . وفى تلك الأيام التى لم تكن ظروفها مواتية لأى ملك ، ذاق مرارة الفقر أحيانا فى الملبس الرث والطعام القليل . ويبدو أن أحدا لم يهتم بتعليمه ، وحين تولاه المدرسون الخصوصيون كان همهم الأكبر أن يقنعوه بأن فرنسا بأسرها ميراثه الذى سيحكمه بالحق الإلهى ، ولا يسأل عنه إلا أمام الله . ووجدت أمه الوقت لتدريبه على العقيدة والعبادة الكاثوليكيتين ، اللتين سترتدان إليه فى قوة بعد أن أنهكت فيــه الشهوات وتضاءل سناء المجد . ويؤكد لنا سان — سيمون أن لويس « لم يكد يعلمه أحد القراءة أو الكتابة ، وأنه ظل جاهلا كل

الجهل حتى أنه لم يلم بأشهر حقائق التاريخ وغيرها من الحقائق » . ولكن لعل هذه إحدى مبالغات الدوق المفرطة . وما من شك فى أن لويس لم يظهر ميلا يذكر للكتب ، وإن كانت رعايته للمؤلفين وصداقته لموليير وبوالو وراسين تشير إلى تقدير صادق للأدب . وقد أعرب فيما بعد عن أسفه لأنه لم يصل إلى دراسة التاريخ إلا متأخراً جداً ، وكتب يقول « إن الإلمام بالأحداث العظيمة التى وقعت فى العالم على مدى القرون الكثيرة ، والتى هضمتها العقول القوية النشيطة ، هذا الإلمام يفيد فى دعم الحجة فى جميع المداولات الهامة » (١٧) وقد جهدت أمه لتربى فيه الإحساس بالشرف والشهامة لا مجرد آداب السلوك ، وبقى الكثير من هذا فيه وإن لوثته إرادة طائشة للقوة . كان فتى جاداً ممتثلا ، يبدو أطيب من أن يصلح للحكم ، ولكن مازاران صرح بأن فى لويس « من الأصالة والكفاءة ما يصنع أربعة ملوك ورجلا شريفا » (١٨).

فى ٧ سبتمبر ١٦٥١ أطل جون إيفلين من مسكن توماس هوبز فى باريس على الموكب الذى رافق الملك الصبى ، البالغ الثالثة عشرة ، متجها إلى الحفل المقام بمناسبة إنهاء سن قصوره . وقال هذا الإنجليزى فى وصفه « مضى أبوللو الصغير هذا أكثر الطريق وقبعته فى يده يحيى السيدات والمعجبات اللائى ازدانت النوافذ بهائهن وملأ الجو هتافهن « يحيى الملك » (١٩) وكان فى إمكان لويس يومئذ أن يتسلم زمام الأمر كله من مازاران ، لولا أنه كان يحترم ذلك الدهاء المهذب الذى طبع عليه وزيره ، فسمح له بأن يحتفظ بالزمام تسع سنوات أخرى . ومع ذلك فقد اعترف بعد موت الكردينال قائلا « لست أدرى ماذا كنت صانعاً لو عمر طويلا » (٢٠) فلما مات مازاران أقبل رؤساء الإدارات على لويس سائلين إلى من يأتون ليتلقوا تعليماتهم ، فأجاب ببساطة قاطعة « إلى » (٢١) ومنذ ذلك التاريخ (٩ مارس ١٦٦١) حتى أول سبتمبر ١٧١٥ تولى حكم فرنسا بنفسه . وبكى الشعب فرحا إذ أصبح له ملك فعال لأول مرة فى نصف قرن .

ولقد تهللوا فرحاً وتيهاً بحسنه. قال جان دلافونتين حين رآه فى ١٦٦٠، ولم يكن بالرجل الذى يخدع بسهولة، « أتظنون أن فى الدنيا ملوكاً كثيرين وهبوا هذا الوجه المليح وهذا السمت الرائع؟ لا أظن، ويخيل إلى حين أراه أنني أرى العظمة مجسمه»(٢٢) لم تكن قامته تزيد على خمسة أقدام وخمس بوصات، ولكن السلطة جعلته يبدو أطول. وإذ كان قوى البدن، متين البنية، فارساً وراقصاً ماهراً، ومثاقفاً بارعاً وراوية خلاب العبارة. فقد ملك جماع الصفات التى تفتن المرأة وتفتح مغاليق قلبها. كتب سان - سيمون وكان يكرهه، « لو أنه كان فرداً عادياً لا أكثر لجلب نفس الدمار بغرامياته »(٢٣). على أن هذا الدوق (الذى لم يستطع قط أن يغفر للويس حرمانه الأدواق من سلطة الحكم) اعترف بكياسته وآدابه الملوكية التى أصبحت الآن مدرسة للبلاط، ولفرنسا عن طريق البلاط، ولأوربا عن طريق فرنسا. قال:

« لم يعط أحد قط بأرق وألطف مما أعطى لويس الرابع عشر، ولا ضاعف أحد بهذه الطريقة من قيمة عطائه كما ضاعف لويس... لم تكن الألفاظ الجافية لتند عنه قط، فإذا اضطر أن يلوم، أو يوبخ، أو يقوم، وهو أمر نادر، ففى لطف دائماً تقريباً، لا فى غضب أو صرامة قط... إلا فى مناسبة واحدة وما عرف الناس رجلا طبع على مثل هذا الأدب الجم... أما مع النساء فلم يكن لتأدبه نظير. ما مر بامرأة مهما قل شأنها إلا رفع لها قبعته، حتى الخادمات اللاتى يعرف أنهن خادمات. فإذا خاطب سيدات المجتمع لم يغطِ رأسه إلا بعد أن يفارقهن »(٢٤).

على أن ذهنه لم يرق إلى مستوى سلوكه. لقد كاد يضارع نابليون فى حكمه الثاقب على الرجال، ولكنه قصر كثيراً دون ذكاء قيصر الفلسفى، أو سياسة أوغسطس الإنسانية البعيدة النظر. وفى هذا يقول سانت - بوف «لم يؤت أكثر من الادراك السليم، ولكن حظه منه كان موفوراً»(٢٥) ولعله خير من الذكاء. ولنستمع إلى سان — سيمون ثانية « كان بطبعه حصيفاً،

معتدلا ، حذرا ، سيدا على حركاته ولسانه »(٢٦). ويقول مونتسكيو « كانت نفسه أعظم من ذهنه »(٢٧) وقد وهب قوة انتباه وإرادة عوضت إبان عزه عن قصور أفكاره . أما علمنا بعيوبه فيأتينا من فترة حكمه الثانية على الأخص (١٦٨٣ — ١٧١٥) ، حين ضيق التعصب أفقه ، وأفسده النجاح والتملق . هنا نجده مغرورا غرور للمثلين متكبرا كبرياء الآثار الضخمة . وإن كان بعض كبريائه ربما أضفاه عليه الرسامون ممن صوروه ، وبعضه راجعا إلى فكرته عن منصبه . فإذا كان قد مثل دور « الملك العظيم » فلعل عذره أنه خال هذا ضرورة لا يستغني عنها أسلوب الحكم ودعم النظام ، إذ لا بد من وجود مركز للسلطة ، ولا بد من أن تدعم الأبهة والمراسم هذه السلطة . قال لولده مرة « يبدو لي أن من واجبنا أن نكون متواضعين من أجل ذواتنا ، متكبرين من أجل المركز الذي نشغله »(٢٨) ولكنه قل أن تواضع — ربما مرة واحدة ، حين لم يجد غضاضة في أن يصحح بوالو له غلطه في أمر يتصل بالذوق الأدبي . وتقرأ مذكراته فتراه يتأمل فضائله في اتزان كثير . وعنده أن خير سجاياه حبه للمجد . قال إنه « يؤثر الصيت البعيد على كل الأشياء ، بل على الحياة نفسها »(٢٩) ولكن ولعه هذا بالمجد خدم أعداءه لأنه غالى فيه . كتب يقول « أن تحمسنا للمجد la gloire ليس شهوة من هذه الشهوات المزيلة التي تنطفئ بمجرد تملك النفس لما تشتهيه ، فإن عطاياه التي لا تنال إلا بالجهد لا تورث السأم أبدا ، ومن كف عن اشتهاء المزيد منها لا يستحق كل ما ناله من عطاء(٣٠) .

بيد أنه أوتي حظاً من الفضائل الجليلة ، إلى أن جر ولعه بالعظمة والمجد الدمار على خلقه وعلى بلده . فلقد أعجب بلاطه بعدالته ، وتسامحه ، وكرمه ، وضبطه لنفسه . قالت مدام موتفيل التي كانت تراه كل يوم تقريبا خلال هذه الفترة « في هذا يجب أن تعترف كل العهود الملكية السابقة . . لهذا العهد بتقدمه عليها في استهلاله السعيد »(٣١) وقد لاحظ القريبون منه ذلك الوفاء الذي كان يحمله على زيارة جناح أمه مراراً كل يوم على كثرة

شواغله ، ثم شهدوا بعد ذلك حنانه على أبنائه ، وحرصه على صحتهم وتربيتهم — أياً كانت أمهم . كان أكثر عطفا على الأفراد منه على الأمم ، فى وسعه أن يشن الحرب على الهولنديين الذين لم يؤذوه ، وأن يأمر بتدمير البالاتينات ، ولكنه يحزن لموت رويتر أمير البحر الهولندى ، الذى أوقع الهزائم بالبحرية الفرنسية ، وقد كلفته الشفقة على الملكة المخلوعة ، زوج جيمس الثانى ، وعلى ولده ، حربا كانت أسوأ حروبه .

ويلوح أنه آمن حقيقة بأنه مبعوث العناية لحكم فرنسا ، ولحكمها بسلطان مطلق . وكان فى استطاعته بالطبع أن يستشهد بآيات من الكتاب المقدس سنداً لهدفه هذا ، وأسعد بوسويه أن يريه أن العهدين القديم والجديد يدعمان حق الملوك الإلهى . وقد أخبر ولده فى مذكراته(*) التى أعدها لإرشاده أن « الله يجعل من الملوك الحفاظ الوحيدين لصالح العام » وأنهم « خلفاء الله على هذه الأرض » . ولابد لهم ، لكى يمارسوا وظائفهم المقدسة على الوجه الصحيح ، من سلطة لا حدود لها ، ومن ثم وجب أن يكون لهم « الحرية الكاملة المطلقة فى التصرف فى جميع الممتلكات سواء ممتلكات رجال الدين أو العلمانيين »(٣٢). أنه لم يقل (أنا الدولة) L'état, c'est moi ولكنه آمن بهذا القول ببساطة مطلقة . أما الشعب فيلوح أنه لم تسؤه هذه الدعاوى ، التى حببها هنرى الرابع إليه انتقاضا على الفوضى الاجتماعية ، لا بل إن أفراده تطلعوا إلى هذا الملك الفتى فى ولاء دينى ، واستشعروا عزة الجماعة فى أبهته وجبروته ، فما من بديل عرفوه لهما غير ما رافق الاقطاع من تفتت وغطرسة . وبعد طغيان ريشليو ، وفوضى الفروند ، واختلاسات

(*) واصل لويس على فترات كتابة « ملاحظات يستعان بها فى المذكرات » التى بدأها فى ١٦٦١ و حتى ١٦٧٩ حين أضاف إليها « تأملات فى حرفة الملك » وفيها الكثير مما يتسم بسلامة الادراك على الرغم من إيمانها بنظرية الحكم المطلق ، وقد تبدو أمامها بحوث الفلاسفة فى هذا الموضوع قاصرة . والظاهر أنه أملاهــا على سكرتيرين كسوها ثوبا أدبيا قشيبا . وهى لا تقل جــدارة بالقراءة عن أى أدب فى العصر الذى نحن بصدده .

مازاران ، رحبت الطبقتان الوسطى والدنيا بالسلطة والزعامة المركزتين في حاكم « شرعى » بدا لهم واعداً بالنظام ، والأمن ، والسلام .

وقد أفصح عن مذهبه في الحكم المطلق حين أراد برلمان باريس عام ١٦٦٥ أن يناقش بعض مراسيمه . ركب من فالنسين في ثياب الصيد ، ودخل قاعة البرلمان في حذائه العالى وسوطه بيده ، ثم قال : « إن الكوارث التى جرتها مجالسكم معروفة مشهورة . لذلك آمركم بأن تفضوا هذا المجلس الذى اجتمع ليناقش مراسيمى . سيدى الرئيس الأول ، إنى أمنعك من السماح بهذه الاجتماعات ، وأمنع أى فرد منكم بالمطالبة بها.(٣٣)» ثم نقلت وظيفة البرلمان بوصفه محكمة عليا إلى « مجلس خاص » ملكى ، خاضع للملك على الدوام .

وأدخل لويس على مركز النبلاء في الحكومة تغييرا جذريا . لقد زودوا البلاط والجيش بأبهة المظهر وبريقه ، ولكن ندر أن شغلوا الوظائف الإدارية ذلك أن كبار النبلاء دعوا إلى مغادرة ضياعهم معظم العام والإقامة في البلاط - أكثرهم في « أوتيلاتهم » أو قصورهم الباريسية ، وعظماؤهم في القصور الملكية ضيوفا على الملك ، ومن هنا هذه الأجنحة الشاسعة التى خصصت لهم في فرساى . فإذا رفضوا قبول الدعوة فليس لهم أن يتوقعوا أى فضل يؤثرهم به الملك . وأعفى النبلاء من الضرائب ، ولكن فرض عليهم في الأزمات أن يهرعوا إلى قصورهم الريفية ، وينظموا ويجهزوا أتباعهم ، ويقودوهم للانضمام إلى الجيش . وقد استطابوا الحرب تخففاً من سأم الحياة في البلاط . حقا كانوا عاطلين كثيرى النفقة ، ولكن بسالتهم في ساحة القتال أصبحت فرضا ملزما لطبقتهم . ومنعهم العرف والإتيكيت من الاشتغال بالتجارة أو بشئون المال — وأن جبوا الرسوم على التجارة المارة بأملاكهم ، واقترضوا في غير تحرج من أصحاب المصارف . وكانت ضياعهم يزرعها محاصصون (métayers) يدفعون لهم جزءا من المحصول ويؤدون لهم مختلف الخدمات والمكوس الإقطاعية . ويفترض

فى السيد الاقطاعى أن يحافظ فى اقليمه على النظام والعدالة ويرعى أعمال البر . وكان فى بعض الأقاليم يؤدى هذه المهمة أداء لا بأس به ، فيكون محل احترام الفلاحين ، وفى بعضها الآخر لايبذل لقاء امتيازاته إلا عطاء تافها ، فضلا عن أن فترات غيابه الطويلة فى البلاط كانت تقوض تلك الألفة المهذبة بين السيد وتابعه . وقد حظر لويس الحروب الخاصة التى كانت تنشب بين الأحزاب الإقطاعية ، وأنهى — إلى أجل — عادة المبارزة التى انتعشت خلال حرب الفروند ، وتفاقم خطرها لأن شهود المبارزين ، لا المبارزين الأصليين فحسب ، كانوا يقتتلون ، ويقتـــلون ، ويحرمون مارس إله الحرب من فرائسه . وقد أحصى جرامون عـدد من أودت المبارزات بهم فى تسع سنوات (١٦٤٣–٥٢) فكانوا تسعمائة[٣٤]. ولعل احد أسباب الحروب المتكررة تلك الرغبة فى ايجاد منفذ لولع الفرنسيين بالقتال ، ولكبريائهم داخل وطنهم ، على حساب الأجانب .

أما الإدارة الفعلية لشئون الحكومة فقد آثر لويس لها كبار رجال الطبقة الوسطى ممن أثبتوا كفايتهم بالارتقاء إلى مراكزهم وممن كان فى وسعه أن يركن إليهم فى دعم سلطة الملك المطلقة[٣٥] . واختصت ثلاثة مجالس كبرى بتصريف شئون الحكم ، يجتمع كل منها برئاسة الملك ، ويعمل فى إعداد المعلومات والتوصيات التى يبني عليها الملك قراراته . فكان « مجلس الدولة » المؤلف من أربعة رجال أو خمسة يجتمع ثلاث مرات فى الأسبوع ليعالج أهم مسائل العمل أو السياسة ، وكان « مجلس الرسائل » يصرف شئون الأقاليم ، و « مجلس المالية » ينظر فى الضرائب والإيراد والمنصرف . واضطلعت مجالس اضافية أخرى بشئون الحرب ، والتجارة ، والدين ، وانتزع الحكم المحلى من أيدى النبلاء المستهترين ونيط به النظار الملكيون ، وسخرت الانتخابات البلدية لتأتى بعمد يرضى عنهم الملك . ولو أننا سئلنا اليوم رأينا فى حكومة شديدة التمركز كهذه لقلنا إنها ظالمة ، وكذلك كانت ، ولكن أغلب الظن أنها أقل ظلما مما سبقها من حكم الأوليجاركيات البلدية أو النبلاء

الإقطاعيين . وآية ذلك أنه حين دخلت لجنة ملكية اقليم أوفرن (١٦٦٥) للتحقيق فى استغلال السادة لسلطتهم الإقطاعية فى الإقليم ، رحب الناس بهذا الاستجواب العظيم Lesgrands Jours d, Auvergne محرراً لهم من الظلم ، وأثلج صدورهم أن يروا « إقطاعيا كبيرا » يضرب عنقه لأنه قتل فلاحا ، وأشرافا ، أقل منه شأنا يلقون جزاءهم على ما اقترفوا من أفعال محظورة أو قاسية (٣٦). ويمثل هذه الاجراءات حل القانون الملكى محل القانون الإقطاعى .

ثم نقحت القوانين لتبلــغ من النظام والمنطق قصارى ما يتفق والارستقراطية ، فحكم « قانون لويس » الذى تكون على هذا النحو (١٦٦٧—١٦٧٣) فرنسا إلى أن جاء « قانون نابليون » (١٨٠٤ ١٨١٠) وكان القانون الجديد أرقى من كل قانون سبقه منذ عهد جستنيان ، وقد « أسهم بقوة فى تقدم الحضارة الفرنسية (٣٧) » وأنشىء جهاز شرطة ليكبح إجرام باريس وقذارتها . فــقرى مارك رينيه ، مركيز دوابيه دارجنسون ، الذى خدم الدولة إحدى وعشرين سنة قائدا عاما للشرطة ، يترك سجلا مشرفا من الأداء العادل الدؤوب لوظيفة عسيرة . وبإشرافه رصفت شوارع باريس ، ونظفت تنظيفا معتدلا ، وأضيئت بخمسة آلاف مصباح ، وأمنت تأمينا لا بأس به للمواطنين ، وأصبحت باريس الآن فى هذا كله متقدمة جداً على أى مدينة أخرى فى أوربا . ولكن القانون أباح الكثير من أعمال الهمجية والطغيان . ونشرت شبكة من المخبرين فى أرجاء فرنسا ، يتجسسون على الكلام كما يتجسسون على الأفعال . وأبيح اعتقال الأشخاص اعتقالا تعسفيا بمقتضى الأوامر السرية Lettres de cachet التى يصدرها الملك أو وزراؤه ، وسجنهم سنين دون محاكمة ، ودون أن يحاطوا علما بجريرتهم . وحظر القانون الاتهامات بالسحر ، وأبطل حكم الإعدام عقابا للتجديف ، ولكنه احتفظ باستخدام التعذيب أداة لانتزاع الاعترافات من المتهمين . وأجاز القانون عقــاب عدد كبير من الذنوب بالحكم

على مرتكبيها بتشغيلهم فى سفن أسرى الحرب ـ وكانت سفنا كبيرة وطيئة يسيرها بالمجاذيف المذنبون موثقين بالسلاسل إلى المقاعد . وخصص ستة رجال لكل مجذاف طوله خمسة عشر قدما . وكانت صفارة المشرف تلزمهم الاحتفاظ بالسرعة التى يحددها ، وأجسادهم عارية إلا من وزرة ، وشعورهم ولحاهم وحواجبهم محلوقة ، وأحكامهم طويلة الأمد ، ومن الجائز مدها تعسفا إذا لم يذعنوا للأوامر إذعانا تاما ، فيفرض عليهم رقهم أعواما بعد أن يقضوا مدة عقوبتهم . ولم يخف عنهم عذابهم إلا ما سمح لهم به إذا بلغوا الميناء من بيع التوافه أو استجداء الصدقات وهم يسيرون أزواجاً فى أغلالهم .

أما لويس نفسه فوضع فوق القانون ، حراً فى أن يأمر بأى عقوبة لأى ذنب . ففى ١٦٧٤ قضى بأن تجدع أنوف جميع البغايا وتصلم آذانهن إذا ضبطن مع الجنود فى نطاق خمسة أميال من فرساى . وكثيراً ما كان رحيما ولكنه كثيراً ما كان صارما قال لولده : « إن مقداراً محدوداً من الصرامة كان أعظم ما استطعته من ترفق بشعبى ؛ ولو انى اتبعت سياسة عكس هذه السياسة لجرت شروراً متعاقبة لا نهاية لها . ذلك أنه ما إن يضعف الملك فى إنفاذ ما أمر به ، حتى ينهار السلطان وينهار معه السلام العام ... فيقع كل العبء على كواهل الطبقات الدنيا ، التى يظلمها عندئذ ألوف من صغار الطغاة بدلا من الملك الشرعى[٣٩] » .

وكان دائم العكوف على ما سماه « حرفة الملك » le métier de roi . يطلب إلى وزرائه أن يوافوه بالتقارير الكثيرة المفصلة ، ولا يدانيه رجل فى مملكته اطلاعاً على أحوالها . ولم يسؤه أن يشير عليه وزراؤه بما يناقض آراءه ، وقد نزل أحياناً على رأى مستشاريه . ثم أنه احتفظ بأوثق العلاقات الودية مع مساعديه ، شريطة ألا يغيب عنهم أنه الملك ـ قال مرة لفوبان : « ثابر على أن تكتب إلى بكل ما يعن لك ولا تفتر لك همة ولو لم أفعل دائماً ما تشير به »[٤٠] . وكانت عينه على كل شىء ـ الجيش والبحرية ، والحاكم ، وبيته ، والمالية ، والكنيسة ، والدراما ، والأدب ، والفنون ، ومع أنه فى

النصف الأول من حكمه كان يسنده وزراء أكفاء مخلصون ، فإن السياسات والقرارات الخطيرة ، والجمع بين شتى نواحى الحكم المعقد فى وحدة متسقة — كل هذا كان من صنعه هو . لقد كان ملكا كل ساعة من ساعات يومه .

ولقد كلفه هذا من أمره عنتاً . كان هناك من يقوم على خدمته فى كل خطوة يخطوها ، ولكنه دفع ثمن هذا برقابة الغير له فى كل حركة وسكنة فكانت مبارحته لفراشه وذهابه إليه (إذا كان منفردا) بعض وظائف الدولة . فإذا تم هذا الاستيقاظ الرسمى (lever) استمع إلى القداس ثم أفطر ، ثم مضى إلى قاعة المداولة ، وخرج منها حوالى الواحدة ، فتناول وجبة كبيرة ، يأكلها عادة على مائدة صغيرة لشخص واحد ، تحيط به بطانته وخدمه . فإذا فرغ من طعامه تمشى عادة فى الحديقة ، أو خرج للصيد ، يرافقه أثراؤه فى ذلك اليوم . فإذا عاد أنفق ثلاث ساعات أو أربعا فى اجتماعات مجلسه ، ثم لحق بحاشيته فى ملاهيهم من السابعة إلى العاشرة ـ حيث الموسيقى ، ولعب الورق ، والبليارد ، والغزل ، والرقص ، والاستقبالات ، وحفلات الرقص ، وفى فترات من هذا الروتين اليومى « يتحدث إليه من شاء »(٤١) وإن لم يجرؤ على هذا إلا القليلون . « لقد أعطيت رعاياى كلهم ، دون تفرقة ، حرية مخاطبتى فى جميع الساعات ، سواء بأشخاصهم أو بملتمساتهم »(٤٢) وحوالى الساعة العاشرة مساء ، كان الملك يتناول العشاء رسميا مع أبنائه وحفدته ، وأحيانا مع الملكة .

ولقد كان من أسباب التهذيب والتثقيف لفرنسا أن نلاحظ كيف يفرغ مليكها لمهام الحكم مواظباً عليها ساعات سبعاً أو ثمانى طوال ستة أيام فى الأسبوع . كتب السفير الهولندى يقول : (لا يصدق المرء أى سرعة ، وأى وضوح ، أى قدرة على التمييز ، وأى ذكاء يصرف به هذا الملك الشاب أعماله ويفرغ منها ، وذلك فى تلطف كثير مع جميع من يتعامل معهم ، وفى طول أناة وهو يستمع إلى ما يريد مخاطبه أن يقول ، الأمر الذى حبب فيه كل القلوب)(٤٣) ولقد ثابر على هذا التفانى فى تصريف شئون

الحكم طوال أربعة وخمسين عاما ، لا يكف عنه حتى وهو يلازم فراش المرض . وكان يحضر المجالس والمؤتمرات وقد أعد نفسه لها إعدادا وافياً . « فما كان ليحسم فى أمر عفو الساعة، ولا دون مشورة»(٤٥) ثم أنه يختار مساعديه بفطنة عجيبة ، ولقد ورث بعضهم ـ ككولبير ـ من مازاران ، ولكنه كان له من سلامة الذوق ما جعله يحتفظ بهم ، حتى موتهم عادة . وكان يبذل لهم كل لطف ومجاملة ، وكل ثقة معقولة، ثم لا تغفل عينه عن مراقبتهم» . كنت بعد أن اختار وزرائى لا يفوتنى أن أدخل مكاتبهم على غير توقع منهم .. وهكذا أحطت بآلاف الأشياء التى أفادتنى فى تحديد طريقى(٤٦) »

وحكمت فرنسا ، فى أيام شمسها الصاعدة تلك ، خيرا مما حكمت فى أى عهد مضى برغم تركيز السلطة والإدارة ، أو بفضل هذا التركيز ، وبرغم تحكم يد واحدة فى خيوط الحكم كلها ، أو بفضل هذا التحكم .

٣ ـ نيقولا فوكيه : ١٦١٥ - ٨٠

كان هم الملك الأول أن يعيد تنظيم مالية الدولة بعد أن استنزفتها الاختلاسات فى عهد مازاران . وكان نيقولا فوكيه ، الذى شغل منصب « ناظر المالية » منذ ١٦٥٣ ، يدير شئون الضرائب والمصروفات بأصابع حريصة ويد قديرة . فقد قلل من عوائق التجارة الداخلية ، ونشط نمو التجارة الفرنسية فيما وراء البحار ، واقتسم فى احساس بالواجب غنائم منصبه مع ملتزمى الضرائب ومع مازاران . وكان هؤلاء الملتزمون العموميون من كبار الرأسماليين الذين أقرضوا الدولة مبالغ كبيرة لقاء تخويلهم حق جباية الضرائب نظير أدائهم مبلغاً محددا . وقد جبوها بكثير من الجشع الفعال الذى جعلهم أبغض الأشخاص إلى الناس فى المملكة ، وقد أعدم من أمثالهم أربعة وعشرون ملتزما خلال الثورة الفرنسية . وجمع فوكيه بالتواطؤ مع الملتزمين العموميين أضخم ثروة اقتناها فرد فى جيله .

وفى سنه ١٦٥٧ كلف المعمارى لوى لفو ، والمصور شارل لبرون ،

ورسام المناظر الطبيعية أندريه لنوتر ، بأن يصمموا ، ويبنوا ، ويزخرفوا له قصر فو — لو — فيكونت الريفى الفخم المترامى الأطراف ، وأن يخططوا حدائقه ، ويزينوها بالتماثيل . وقد استخدم للشروع مرة ثمانية عشر ألف رجل(٤٠)، وكلف ثمانية عشر مليون من الجنيهات الفرنسية ، وغطى مساحة ثلاث قرى . هنالك جمع فوكيه الصور والتماثيل والتحف ، ومكتبة قوامها ٢٧٫٠٠٠ مجلد حوت فيما حوت عدة نسخ من الكتاب المقدس والتلمود والقرآن دون تفريق . وروى أن هذه القاعات الأنيقة « كانت تتسلل إليها نساء من أنبل الأسر ليؤنسنه بثمن غال »(٤١). وبمثل هذا الذوق ، ولكن بثمن أقل ، جلب فوكيه الشعراء أمثال كورنى ، وموليير ، ولافونتين ، ليجمل بهم صالونه .

ونظر لويس بعين الحسد إلى هذه الأبهة وخامرته الظنون فى مصدرها . فطلب إلى كولبير أن يفحص أساليب ناظر المالية وحساباته ، وأنهى كولبير إلى الملك أن الأساليب والحسابات فاسدة إلى حد لا يصدق . وفى ١٧ أغسطس ١٦٦١ دعا فوكيه الملك الشاب إلى مهرجان أقامه فى فو . وقدم الطعام لضيوفه الستة الآلاف فى ستة آلاف طبق من الفضة أو الذهب . ومثل موليير فى حدائق القصر ملهاته (Les Fâcheux) (الثقلاء) وقد كلفت السهرة فوكيه ١٢٠٫٠٠٠ جنيه وكلفته إلى ذلك حريته . ذلك أن لويس أحس أن الرجل « يسرق فوق ما يسمح له به مركزه » ولم يعجبه شعار (Quo non ascendam ?) (إلام لا يجوز لى أن أرقى ؟) — الذى شفعه بصورة سنجاب يصعد شجرة ، وخيل إلى لويس أن إحدى اللوحات التى رسمها لبرون تشمل صورة للآنسة دلافاليير ، وكانت إذ ذاك خليلة الملك . وكاد يأمر باعتقال فوكيه للتو والساعة ، لولا أن أقنعته أمه بأن فى ذلك إفسادا لسهرة رائعة .

وتربص الملك بالوزير حتى تكاثرت الأدلة على اختلاساته . وفى ٥ سبتمبر أمر قائد مشاته حملة البنادق بالقبض عليه (وهذا القائد

ورسام المناظر الطبيعية « اندريه لنوتر » ، بأن يصمموا ، ويبنوا ، ويزخرفوا له قصر فو — لو — فيكونت الريفي الفخم المتراى الأطراف ، وأن يخططوا حدائقه ، ويزينوها بالتماثيل . وقد استخدم المشروع مرة ثمانية عشر ألف رجل ، وكلف ثمانية عشر مليونا من الجنيهات الفرنسية ، وغطى مساحة ثلاث قرى . هنالك جمع فوكيه الصور والتماثيل والتحف ، ومكتبة قوامها ٢٧٫٠٠٠ مجلد حوت فيما حوت عدة نسخ من الكتاب المقدس والتلمود والقرآن دون تفريق . وروى أن هذه القاعات الأنيقة « كانت تتسلل إليها نساء من أنبل الأسر ليؤنسنه بثمن غال » . وبمثل هذا الذوق ، ولكن بثمن أقل ، جلب فوكيه الشعراء أمثال كورنيي ، وموليير ، ولافونتين ، ليجمل بهم صالونه .

ونظر لويس بعين الحسد إلى هذه الأبهة وخامرته الظنون في مصدرها . فطلب إلى كولبير أن يفحص أساليب ناظر المالية وحساباته ، وأنهى كولبير إلى الملك أن الأساليب والحسابات فاسدة إلى حد لا يصدق . وفي ١٧ أغسطس ١٦٦١ دعا فوكيه الملك الشاب إلى مهرجان أقامه في فو . وقدم الطعام لضيوفه الستة الآلاف في ستة آلاف طبق من الفضة أو الذهب ، ومثل موليير في حدائق القصر ملهاته « Les Facheux » (الثقلاء) وقد كلفت السهرة فوكيه ١٢٠٫٠٠٠ جنيه وكلفته إلى ذلك حريته . ذلك أن لويس أحس أن الرجل « يسرق فوق ما يسمح له به مركزه » ولم يعجبه شعار « Quo non ascendam ? » (إلام لا يجوز لي أن أرقى ؟) — الذي شفعه بصورة سنجاب يصعد شجرة ، وخيل إلى لويس أن احدى اللوحات التي رسمها لبرون تشمل صورة للانسة دلافاليير ، وكانت إذ ذاك عظية الملك . وكاد يأمر باعتقال فوكيه للتو والساعة ، لولا ان أقنعته أمه بان في ذلك إفسادا لسهرة رائعة .

وتربص الملك بالوزير حتى تكاثرت الأدلة على اختلاساته . وفي ٥ سبتمبر أمر قائد مشاته حملة البنادق بالقبض عليه (وهذا القائد « mousquetaire » هو شارل دباتز ، السيد دارتنيان ، بطل قصة دوماس الأب) . وأصبحت

المحاكمة التى اتصلت ثلاث سنين أشهر القضايا فى تاريخ العهد . وكافحت مدام دسفينيه ، ولافونتين ، وغيرهما من أصدقاء فوكيه ، وتوسلوا إلى الملك ليبرئ ساحته ، غير أن الأوراق التى عثر عليها فى قصره الريفى أدانته . فحكمت عليه المحكمة بالنفى ومصادرة أملاكه ، وعدل الملك الحكم إلى السجن مدى الحياة . وظل الوزير الذى كان من قبل رجلا مرحا ، ستة عشر عاما ، يذوى فى سجنه بقلعة بنيرول بييدمونت ، ولا يسرى عنه إلا صحبة زوجه الوفية . لقد كان حكما قاسيا ، ولكنه قلم أظفار الفساد السياسى ، وأنذر الناس بأن الاستيلاء على الأموال العامة للمتعة الخاصة امتياز لا يختص به غير الملك .

٤ ـ كولبير يعيد بناء فرنسا

كتب لويس يقول : « لقد أشركت كولبير .. مفتشا مع فوكيه لكى أراقبه .. وهو رجل منحته ما استطعت من ثقة ، لأننى كنت عليما بذكائه وجده وأمانته(٥٠) » وظن أصحاب فوكيه أن كولبير تعقبه مدفوعا بالرغبة فى الانتقام منه ، ولعل كولبير استشعر شيئاً من الحسد للرجل ، ولكن فرنسا ذلك العهد لم تنجب ضريباً لكولبير فى تفانيه الدءوب فى خدمة الصالح العام . روى أن مازاران قال للملك وهو على فراش الموت « مولاى ، إنى مدين لك بكل شيء ، ولكنى أدفع دينى .. باعطائك كولبير(٥١) » .

كان جان باتيست كولبير ابن قماش فى رامس ، وابن أخى تاجر غنى ، وإذ كان بورجوازيا بدمه ، اقتصاديا بمحيطه ، فقد درب على كراهية الفوضى والعجز ، وأعد بفطرته وبطول المرانة لتغيير اقتصاد فرنسا من جمود الفلاحة والتفتت الاقطاعى إلى نظام موحـــد قومياً ، يشتمل الزراعة والصناعة والتجارة والمال ، يواكب ملكية ممركزة ، ويهيء لها الأساس المادى لعظمتها وسطوتها

دخل كولبير ديوان الحربية سكرتيراً صغيراً فى العشرين (١٦٣٩) ومالبث أن شق طريقه بجهده إلى حيث استرعى نظر رؤسائه ، فنقل إلى خدمة مازاران ، وأصبح المدير الناجح لثروة الكردينال . فلما سقط فوكيه ، وكل إلى كولبير مهمة خطيرة هى إعادة تنظيم مالية الأمة . وفى ١٦٦٤ أضيفت إليه مهمة الإشراف على المبانى ، والمصانع الملكية ، والتجارة ، والفنون الجميلة ؛ وفى ١٦٦٥ عين مراقبا عاما للمالية ، وفى ١٦٦٩ عين وزيراً للبحرية ، ثم وزيراً للخاصة الملكية . ولم يرق رجل آخر فى عهد لويس الرابع عشر بمثل هذه السرعة ، ولا اشتغل بمثل هذه المهمة ، ولا حقق مثل ماحققه من أعمال . بيد أنه لوث ارتفاعه بمحاباته أقرباءه ، إذ أغدق الوظائف والأموال على الكثيرين من آل كولبير ، وغالى فى مكافأة نفسه مكافأة كادت تعدل ثروته . وكان نهبا للغرور ، يتشبث بانحداره المزعوم من ملوك اسكتلنده ، وقد يعبث عبثاً منكراً بالقوانين القائمة تعجلا لقضاء المصالح ، ويتغلب على المعارضة بالرشا يبذلها فى الجهات العليا . فلما استفحل سلطانه غدا مستبداً ، وأحفظ عليه النبلاء إذ داس على أقدام تنزف الدم الأزرق . وقد استخدم فى إعادة تشكيل الاقتصاد الفرنسى نفس الأساليب الدكتاتورية التى استخدمها ريشليو من قبل فى إعادة تشكيل الدولة الفرنسية . وهكذا لم يكن خيراً من هؤلاء الكرادلة .

بدأ بفحص أساليب الماليين الذين يجبون الضرائب ، ويزودون الجيش بالسلاح ، والملابس ، والطعام ، ويقدمون القروض للاقطاعيين أو لخزانة الدولة . وكان بعض هؤلاء للصرفيين يعدلون الملك ثراء . فبلغت ثروة صموئيل برنار مثلا ٣٣,٠٠٠,٠٠٠ جنيه(٥٢) . وقد أثار الكثيرون منهم حنق النبلاء بالزواج من طبقتهم ، وبشراء ألقاب الشرف أو اكتسابها ، وبالعيش فى ترف لايقوى عليه من لايملكون غير عراقة النسب . وكانوا يتقاضون فائدة على قروضهم تصل إلى ١٨٪ حسب درجة الشك فى الوفاء بالقروض . وبناء على طلب كولبير شكل الملك « غرفة عدالة » للتحقيق

فى جميع المخالفات المالية التى ارتكبت منذ ١٦٣٥ ، والتى اقترفها « أى شخص أيا كانت صفته أو حالته(٥٣) » وطلب إلى جميع موظفى الخزانة ، وجباة الضرائب ، وأصحاب الدخول أن يقدموا سجلاتهم ويبينوا شرعية مكاسبهم ، وفرض على كل منهم أن يثبت نظافة يده وإلا كان جزاؤه المصادرة وغيرها من العقوبات . وبثت الغرفة موظفيها فى طول فرنسا وعرضها وشجعت المخبرين . وأودع السجن عدة رجال أغنياء ، وأرسل البعض إلى مراكب تشغيل الأسرى ، وشنق البعض الآخر . وصعقت الطبقات العليا لهـــذا « الأرهاب الكولبيرى » ، أما الطبقات الدنيا فصفقت له استحسانا . ونظم رجال المال فى برجنديا حركة تمرد على الوزير ، ولكن جماهير الشعب شهروا السلاح فى وجوههم ، ولقيت الحكومة عنتا فى إنقاذهم من غضب الشعب . ورد للخزانة نحو ٠٠٠ر٠٠٠ر١٥٠ من الفرنكات ؛ وخفف خوف العقاب فساد المالية جيلا كاملا(٥٤) .

ومضى كولبير يعمل منجل الوفر فى خزانة الدولة . فرفت نصف الموظفين فى وزارة المالية وأغلب الظن أنه هو الذى اقترح على لويس ما قام به من إلغاء جميع مناصب الخاصة الملكية التى تدفع عنها الرواتب دون أن يؤدى أصحابها واجبات . فطرد عشرون من « سكرتيرى الملك » ليكسبوا قوتهم بطريق آخر . وخفض تخفيضا قاسيا عدد المحامين العامين ، وضباط النظام ، والمستقبلين ، وغيرهم من صغار الموظفين فى البلاط الملكى . وأمر كل موظفى الخزانة بأن يمسكوا حسابات دقيقة واضحة ويقدموها للفحص . وحول كولبير جميع الديون الحكومية القديمة إلى ديون جديدة بسعر فائدة أقل . ثم بسط جباية الضرائب . ولما تبين صعوبة جمع المتأخرات أقنع الملك بالغاء كل الضرائب التى لم تسدد عن المدة ١٦٤٧ — ٥٨ . ثم خفض معدل الضريبة فى ١٦٦١ ، وحزن حين اضطر إلى رفعه ثانية فى ١٦٦٧ لكى يمول « حرب الأيلولة » وإسراف فرساى .

بيد أن أسوأ ما منى به من إخفاق كان فى احتفاظه بنظام الضرائب

القديم . ولعله لو قلبه من أساسه لأحدث من الاخلال بالنظام ما يهدد تدفق إيراد الدولة . ذلك أن الدولة كانت تمولها أساساً ضريبتان ــ التاى (الرءوس) والجابيل (الملح) . وكانت ضريبة التاى تقدر فى أقاليم من واقع الأملاك الحقيقية ، وفى غيرها على أساس الدخل . وقد أعفى منها الأشراف والكهنة ، فوقعت كلها على كواهل « الطبقة الثالثة » ــ التى تنتظم باقى السكان وكان يطلب إلى كل إقليم أن يجبى مبلغا محدداً ، ويسأل كبار المواطنين عن جباية المبلغ المقرر . أما الجابيل فضريبة على الملح . فقد احتكرت الدولة بيعه ، وألزمت جميع الرعايا أن يشتروا دوريا كمية مقررة بأسعار تحددها الحكومة . وإلى هاتين الضريبتين الأساسيتين أضيفت مختلف الرسوم الصغيرة ، وعشر محصول الفلاح الذى يجب أداؤه للكنيسة . على أن هذه الضريبة كانت عادة دون العشر بكثير(٥٥) ، وكانت تراعى الرأفة فى جبايتها .

وكانت الزراعة أقل المرافق تأثرا باصلاحات كولبير . إذ بقيت طرق الفلاحة بدائية جداً بحيث عجزت عن إعاشة عشرين مليونا من الأنفس يتكاثرون بغير حساب . وكان لكثير من الأزواج عشرون ولدا . ولولا الحرب ، والمجاعة ، والمرض ، وارتفاع نسبة الوفيات فى الأطفال ، لتضاعف السكان مرة كل عشرين سنة(٥٦) . ومع ذلك منح كولبير الاعفاءات الضريبية للزواج المبكر ، وللمكافآت للأسر الكبيرة (ألف جنيه فرنسى للاباء إذا كان لهم أبناء عشرة ، وألفين إذا كانوا اثنى عشر ولدا (٥٧) .) وذلك بدلا من أن يعمل على زيادة خصوبة التربة . وقد احتج على تكاثر الأديار لأنه يهدد القوى البشرية لفرنسا(٥٨) . على أن نسبة المواليد فى فرنسا انخفضت رغم ذلك خلال حكم لويس ، لأن الحرب زادت الضرائب وعمقت الفقر . ولكن حتى فى هذه الحال لم تقتل الحرب ما يكفى لحفظ التوازن بين المواليد والطعام ، وكان على الطاعون أن يتعاون مع الحرب . وكان نقص المحصول سنتين متعاقبتين كفيلا بإحداث المجاعة ، لأن وسائل النقل لم ترق بحيث تستطيع بكفاية سد العجز فى إقليم من الفائض فى آخر . ولم تخل سنة من مجاعة فى

مكان ما بفرنسا(٥٩) وكانت السنوات ١٦٤٨ ـ ٥١ ، ١٦٦٠ ، ١٦٦١ ـ ٦٢ ، ١٦٩٣ ـ ٩٤ ، و ١٧٠٩ ـ ١٠) فترات انتشر فيها الرعب من الموت جوعا ، حين بلغت نسبة الموتى من السكان فى بعض الأقاليم ثلاثين فى المائة . وفى ١٦٦٢ استورد الملك القمح وباعه للفقراء بثمن بخس أو وهبه لهم وأعفاهم من ثلاثة ملايين فرنك من الضرائب المستحقة (٦٠) .

وخفف التشريع بعض مآسى الريف ، إذ حظر الاستيلاء على بهائم الفلاح أو عرباته أو أدواته وفاء للدين ولو كان دينا للتاج . وأنشئت مزارع للاستيلاد تتعهد أفراس الفلاح مجانا ، ومنع الصيادون من اختراق الحقول المبذورة بالحب ، وقدمت الاعفاءات الضريبية لمن يصلحون الأراضى المهجورة ويزرعونها . ولكن هذه الملطفات ما كانت لتنفذ إلى صميم المشكلة — مشكلة اختلال التوازن بين خصوبة الإنسان وخصوبة التربة ، والافتقار إلى الاختراعات الآلية . على أن فلاحى أوربا على بكرة أبيهم كانوا يلقون مثل هذا العنت ، ولعل الفلاحين الفرنسيين كانوا أيسر حالا من نظرائهم فى انجلترا أو ألمانيا (٦١).

لقد ضحى كولبير بالزراعة قربانا للصناعة ولكى يطعم سكان المدن المتكاثرين ، وجيوش الملك المتعاظمة ، حظر رفع سعر الغلال عما يتناسب وغيرها من الخامات . وكان من الأوليات عنده أن على الحكومة التى تبتغى القوة أن تملك موارد كافية وجيشا من الجند الأشداء المجهزين تجهيزا حسنا ، فطبقة الفلاحين المتمرسة بالمشاق تزود البلاد بمشاة أقوياء ، والصناعة والتجارة الناميتان لا بد أن توفرا الثروة والأدوات . ومن هنا كان هدف كولبير الذى لم ينثن دونه هو أن يشجع الصناعة ، لا بل إن التجارة يجب إخضاعها لهذا الهدف ، فلا بد أن تحمى الصناعات الوطنية بالرسوم الجمركية التى تبعد المنافسة الخطرة من خارج البلاد . وجريا على السياسات الاقتصادية التى انتهجها صلى وريشليو ، أخضع كولبير جميع الصناعات الفرنسية — إلا أقلها شأنا — لسيطرة الدولة النقابية : فكانت كل صناعة ، بطوائفها ، وماليتها

ومعلميها ، وصبيتها ، وعمالها اليوميين ، تؤلف نقابة تنظمها الحكومة من حيث المعاملات ، والأسعار ، والأجور والبيوع . وأرسى المعايير الرفيعة لكل صناعة أملا فى كسب الأسواق الأجنبيه بجودة التصميم والصقل فى المنتجات الفرنسية . وقد آمن هو ولويس بأن التذوق الأرستقراطى للاناقة يدعم الحرف الكمالية ويحسنها ، ومن ثم وجد الصاغة ، والنقاشون . ونجارو الأثاث ، ونساجو الأقمشة المرسومة ، كلهم وجدوا العمل والحافز والصيت البعيد .

وأمم كولبير مصنع جوبلان فى باريس تأميما تاما ، وجعله نموذجا فى الأسلوب والتنظيم . وشجع المشروعات الجديدة بالاعفاءات الضريبية ، والقروض التى تمنحها الدولة ، وخفض سعر الفائدة إلى ٥٪ ، وسمح باحتكار الصناعات الجديدة إلى أن ترسخ أقدامها . وقدم الحوافز لمهرة الصناع الأجانب حتى يجلبوا مهاراتهم إلى فرنسا ، فاستوطن صناع الزجاج البنادقة فى سان ـ جوبان ؛ وجلب صناع المشغولات الحديدية من السويد ؛ وأنشأ بروتستنتى هولندى فى أبفيل صناعة القماش الرفيع بعد أن كفل له حرية العبادة ورأس المال الذى اقرضته إياه الدولة . فما وافى عام ١٦٦٩ حتى بلغ عدد الأنوال فى فرنسا ٤٤٫٠٠٠ ، وكان فى تور وحدها ٢٠٫٠٠٠ نساج . وقد زرعت فرنسا أشجار توتها ، وكانت آنئذ مشهورة بأقمشتها الحريرية . وتضاعفت مصانع النسيج لتلبى حاجة جيوش لويس الرابع عشر المتزايدة . وهكذا اتسمت الصناعات الفرنسية سريعا بفضل هذه الحوافز . وأنتج الكثير منها لسوق قومية أو دولية ، وبلغ بعضها مرحلة رأسمالية فى الاستثمار ، والتجهيز ، والإدارة . وصادفت رسالة التصنيع التى آمن بها كولبير هوى فى نفس الملك ، فتفقد الورش ، وسمح بأن تختم المنتجات الفاخرة بخاتم السلاح الملكى ، ورفع من قدر رجال الأعمال الاجتماعى ، وخلع ألقاب الشرف على كبار المقاولين .

وشجعت الدولة التعليم الملمى والتقنى أو وفرته للشعب . وغدت الورش

فى اللوفر ، والتويلرى ، ومصانع الجوبلان ، وأحواض سفن البحرية ، مدارس يتتلمذ فيها الصبية من الصناع . وسبق كولبير موسوعة ديدرو ، إذ احتضن موسوعة الفنون والحرف، ووصفا مصورا لكل الآلات المعروفة(٦٢). ونشرت أكاديمية العلوم بحوثا عن الآلات والفنون الميكانيكية ، وسجلت « صحيفة العلماء » تقنيات صناعية جديدة . وقد أخذ العجب بيرو — وهو يبنى الواجهة الشرقية للوفر — حين رأى آلة ترفع كتلة من الحجر تزن ١٠٠,٠٠٠ كيلو (١٠٠ر١ طن) (٦٣). على أن كولبير عارض إدخال الآلات التى ينجم عنها تعطل العمال (٦٤) .

وإذ كان شديد الولع بالنظام والكفاية ، فقد أمم تنظيم الصناعة بوساطة الكومونات أو الطوائف الصناعية . وتوسع فى هذا التنظيم توسعا أوشك أن يكون خانقا . وراحت مئات من الأوامر تصف أساليب الصناعة ، وحجم المنتجات ولونها ونوعها ، وساعات العمل وظروفه ؛ وأنشئت اللجان فى جميع قاعات المدن لفحص العيوب فى إنتاج الحرف والمصانع المحلية . وعرضت علانية عينات من الصنعة المعيبة وإلى جوارها اسم الصانع أو المدير . فإذا عاد المخالف إلى مخالفته وبخ فى اجتماع الطائفة فإن عاد ثالثة شد إلى عمود تشهيرا به وتنكيلا(٦٥). وشغل كل ذكر قادر على العمل ، وجند الأيتام من ملاجئهم ليخدموا فى المصانع ، وأخذ المتسولون من الشوارع إلى المصانع ، وقال كولبير للملك فى اغتباط إنه حتى الأطفال يستطيعون الآن كسب بعض المال فى المصانع .

وأخضع العمال لنظام يقرب من النظام العسكرى . فالكسل وعدم الكفاية ، والشتم ، والأحاديث الداعرة ، والعصيان ، والسكر ، والاختلاف إلى الحانات ، ومعاشرة الخليلات ، وعدم الخشوع فى الكنيسة — كل أولئك يجب أن يعاقب بالضرب ، وبالجلد أحيانا . أما ساعات العمل فطويلة — وقد تبلغ اثنتى عشرة أو أكثر تتخللها فترات من ثلاثين أو أربعين دقيقة لتناول الطعام . وأما الأجور فضئيلة ، يدفع جزء منها أحيانا سلعا بحدد

روب العمل أسعارها . وقد حسب فوبان متوسط الأجر اليومى الذى يتقاضاه مهرة الصناع فى المدن الكبيرة فكان اثنى عشر سوا (ثلاثين سنتا) فى اليوم ، ولكن السو الواحد كان يشترى رطلا من الخبز(٦٦) . واختزلت الحكومة عدد أيام الأعياد الدينية التى تعفى العمال من العمل ، وبقى من هذه العطلات ثمانية وثلاثون يوما ، فكان مجموع أيام الراحة فى السنة تسعين(٦٧) . وحرمت الاضرابات ، وحظرت اجتماعات العمال لتحسين أحوالهم ، وقد سجن بعض العمال فى روشفور لأنهم شكوا ضآلة أجورهم . ونمت ثروة طبقة رجال الأعمال ، وارتفعت موارد الدولة ، ولكن لعل حال العمال كانت على عهد لويس الرابع عشر أسوأ منها فى العصور الوسطى(٦٨) . لقد أخضعت فرنسا للنظام الصارم فى الصناعة كما أخضعت فى الحرب .

أما فى مجال التجارة ، فقد آمن كولبير كما آمن معظم رجال الدولة فى جيله بأن اقتصاد الأمة ينبغى أن ينتج أقصى ما يمكن من ثروة واكتفاء ذاتى داخل الأمة ، وأنه ما دام الذهب والفضة عظيمى القيمة بوصفهما وسيطين فى المبادلة ، فلا بد من تنظيم التجارة بحيث تكفل للامة « توازنا تجاريا فى صالحها » أى زيادة فى الصادرات على الواردات ، ومن ثم تدفقا للفضة والذهب إلى البلاد . وبهذه الطريقة وحدها استطاعت فرنسا ، وانجلترا ، والأقاليم المتحدة — وكلها لم تكن تربتها تحوى ذهبا ، أن تحصل على حاجاتها ، وأن تمون جيوشها زمن الحرب . وهذه هى « المركنتلية » mercantilism ومع أن بعض الاقتصاديين سخروا منها ، فقد كان وسوف يكون هناك الكثير من المبررات لها فى عصر كثير الحروب . ولقد طبقت على الأمة نظام التعريفات والترتيبات الحامية التى كانت فى العصور الوسطى تطبق على الكومون . ونمت وحدة الحماية حين حلت الدولة محل الكومون وحدة للانتاج والحكم . إذن فبمقتضى نظرية كولبير يجب أن تكون أجور العمال منخفضة تمكينا لمنتجاتهم من أن تنافس نظيرها فى الأسواق الأجنبية وبذلك تجلب الذهب إلى البلاد ، ويجب أن يكون جزاء أرباب العمل وفيرا

حفزا لهم على الاضطلاع بالمشروعات الصناعية لصنع السلع ، لاسيما الكماليات ، التى لا نفع لها فى الحرب ولكن يمكن تصديرها بتكلفة قليلة لقاء عائد كبير ؛ ثم يجب أن تكون أسعار الفائدة منخفضة إغراء للمقاولين باقتراض رأس المال . وهكذا نرى طبيعة التنافس التى فطر عليها الإنسان ، فى تلك الغابة التى لا تخضع لقانون والتى تصطرع فيها الدول ، قد كيفت اقتصادها الوطنى وفق فرص الحرب وحاجاتها . فالسلام ليس إلا حربا بوسائل أخرى .

إذن فوظيفة التجارة فى رأى كولبير (بل فى رأى صلى وريشليو وكرومويل أيضاً) تصدير السلع المصنوعة نظير المعدن النفيس أو الخامات . ومن ثم نراه فى ١٦٦٤ ، ثم فى ١٦٦٧ ، يرفع الرسوم على الواردات التى هددت بأن تنافس فى فرنسا منتجات الصناعات الوطنية المعتبرة ضرورية فى الحرب ، فلما استمر جلب هذه الواردات حظرها بتاتا . وفرض رسوم تصدير باهظة على المواد الضرورية ، ولكنه خفض الضريبة على تصدير الكماليات .

ثم حاول تحرير التجارة الوطنية من المكوس الداخلية . وقد وجد أن التجارة الفرنسية تعترض سيرها المعوقات من الحواجز والتعريفات الاقليمية والبلدية والعزبية . من ذلك أن السلع المنقولة من باريس إلى المانش ، أو من سويسرة إلى باريس ، كانت تدفع عنها مكوس عند ست عشرة نقطة ، ومن أورليان إلى نانت عند ثمان وعشرين . وربما كان هناك مبرر لهذه المكوس يوم كان كل إقليم يطمح إلى الاكتفاء الذاتى ويجاهد فى حماية صناعاته ، وذلك بسبب صعوبات النقل واحتمالات الصراع الإقطاعى أو تنازع الكومونات . أما وقد توحدت فرنسا سياسياً الآن ، فقد غدت هذه المكوس الداخلية عقبة كؤودا فى طريق الاقتصاد القومى وحاول كولبير بمرسوم أصدره فى ١٦٦٤ أن يلغى جميع المكوس الداخلية . ولكن المقاومة كانت عنيدة ، ففى نصف فرنسا استمرت المكوس ، وظل بعضها إلى عهد الثورة الفرنسية وكان أحد أسبابها الصغيرة . وكاد كولبير أن يقضى على

الجهد الذى بذله للتوسع التجارى بإصداره اللوائح المعقدة التى استهدفت اصلاح مافسد ولكنها عرقلت التجارة إلى حد تعطيلها أحيانا . قال (هو أو أحد نقاده) « أن الحرية روح التجارة ، فعلينا أن نترك الناس ليختاروا أنسب الطرق لهم » .

(Il faut Laisser faire les hommes) [٦٩] ،هنا عبارة قدر لها أن تصنع التاريخ .

وقد جاهد ليفتح مسالك جديدة للنقل الداخلى . فبدأ مجموعة من الطرق الرئيسية الملكية ، وكانت حربية فى هدفها الأول ، ولكنها كانت إلى ذلك نعمة على التجارة عامة . كان السفر بالبر لا يزال شاقا بطيئا . مثال ذلك أن مدام دسفينيه استغرقت ثمانية أيام فى رحلة بالمركبة من باريس إلى ضيعتها فى فيتريه ببريتانى وبناء على اقتراح من بيير بول دريكيه، استخدم كولبير اثنى عشر ألف رجل فى حفر قناة لانجدوك الكبرى ، التى بلغ طولها ١٦٢ ميلا ، وارتفعت أحيانا إلى ٨٣٠ قدما فوق سطح البحر ، ولم يحل عام ١٦٨١ إلا وقد اتصل البحر المتوسط بخليج بسكاى عن طريق الرون والقناة والجارون ، واستطاعت تجارة فرنسا أن تتجنب المرور بالبرتغال وأسبانيا .

وكان كولبير ينظر بين الحسد إلى الهولنديين الذين ملكوا خمسة عشر ألف سفينة تجارية من بين الالآف العشرين التى تمخر العباب ، على حين لم تملك فرنسا منها سوى ستمائة . ومن ثم بنى شيئا فشيئا البحرية الفرنسية حتى بلغت سفنها ٢٧٠ بعد أن كانت لاتتجاوز العشرين ، وأصلح المرافىء وأحواض السفن ، وألزم الرجال فى غير هوادة بالانخراط فى سلك البحرية ، ونظم أو أصلح الشركات التجارية بجزر الهند الغربية ، والشرقية ، وبحر الشرق ، والبحار الشمالية . ومنح هذه الشركات امتيازات الحماية ، ولكن هنا أيضاً عطلتها اللوائح التى فرضها عليها تعطيلا مدمرا . ومع ذلك نمت التجارة الخارجية ، ونافست البضائع الفرنسية المنتجات الهولندية أو الإنجليزية فى البحر الكاريبى ، والشرق الأدنى ، والأوسط ، والأقصى . وغدت مارسليه

أكبر ثغور البحر المتوسط بعد ماأصابها من اضمحلال لقلة السفن الفرنسية. وبعد عشر سنين من الخبرة والتشاور والعمل الشاق أصدر كولبير (١٦٨١) قانونا بحريا للسفن والتجارة الفرنسيتين ، ما لبثت الأمم الأخرى أن طبقته. ثم نظم التأمين على الرحلات التجارية الخطرة وراء البحار. وبارك اشتراك فرنسا فى تجارة الرقيق، ولكنه جاهد ليلطف من قسوتها باللوائح الرحيمة(٧٠).

وقد شجع الارتياد الجغرافى وإنشاء المستعمرات ، أملا فى أن يبيعها السلع المصنوعة نظير خاماتها ، ويستخدمها روافد لبحرية تجارية قد تكون ذات نفع فى الحرب. وكان المستعمرون الفرنسيون منتشرين فعلا فى كندا، وغرب أفريقيا ، وجزر الهند الغربية ، وفى طريقهم إلى داخل مدغشقر ، والهند ، وسيلان. وارتاد كورسيل وفونتناك البحيرات العظمى (١٦٧١ — ٧٣). وأسس كادياك مستعمرة فرنسية كبيرة فيما هو الآن ديترويت. واستكشف لاسال المسسبى فى ١٦٧٢ (بعد أن منح احتكار تجارة الرقيق فى الأقاليم التى يفتتحها) ، وهبط فيه فى مركب هزيل ، فوصل إلى خليج المكسيك بعد شهرين من رحلة حافلة بالمغامرات. واستولى على الدلتا وأطلق عليها اسم الملك. فسيطرت فرنسا على واديى السانت لورنس والمسسبى فى قلب أمريكا الشمالية.

جملة القول — ونحن لم نسجل غير جزء من نشاط كولبير ، وقد أغفلنا الحديث عن جهوده فى سبيل العلم والأدب والفن — أن حياة هذا الرجل كانت من أعظم ماسجله التاريخ تفانيا فى العمل وسعة فى الإنتاج. فلم يعرف الناس منذ شارلمان ذهنا واحدا مثل ذهنه صنع من جديد على هذا النحو دولة بهذه العظمة فى نواح بهذه الكثرة. صحيح أن هذه اللوائح والنظم كانت مزعجة ، وقد نفرت الناس من كولبير ، ولكنها شكلت القالب الاقتصادى لفرنسا الحديثة ، ولم يقتل نابليون أكثر من مواصلة جهود

كولبير ومراجعتها سواء فى الحكم أو القانون . وعرفت فرنسا طوال عشر سنوات من الثراء مالم تعرفه من قبل . ثم انحسر هذا الثراء لعيوب النظام، وأخطاء الملك . وقد احتج كولبير على أسراف الملك والبلاط ، وعلى آفة الحرب التى كانت تنخر فى جسد فرنسا فى شيخوخته ، ولكن التعاريف العالية التى فرضها ، شأنها فى هذا شأن ولع لويس بالسطوة والمجد — هى التى التى أفضت إلى بعض هذه الحروب . وندد غرماء فرنسا البحريون بإقفال موانيها فى وجه بضائعهم . ووقع على كواهل الفلاحين ومهرة الصناع عبء اصلاحات كولبير ، بل أن رجال الأعمال الذين أثرتهم هذه الاصلاحات اتهموه بأن لوائحه عوقت التطور . قال أحدهم للوزير « لقد وجدت العربة مقلوبة على أحد جنبيها ، فقلبتها على الآخر » (٧١) فلما مات (فى سبتمبر ١٦٨٣) رجلا محطما مهزوما ، اضطر ذووه إلى دفن جثمانه ليلا مخافة أن يسبه الناس فى الشوارع (٧٢) .

٥ ـ الآداب والأخلاق

كان العهد عهد الآداب الصارمة والأخلاق المنحلة . وكان اللباس شعيرة للمركز الاجتماعى . فهو فى أوساط القوم غاية فى البساطة — سترة سوداء تغطى فى تواضع القميص والسراويل والسيقان . أما فى الصفوة فهو بهى فاخر ، وهو فى الرجال أبهى وأفخر منه فى النساء . فكانت القبعات كبيرة لينة ، لها حاشية عريضة مزركشة بجديلة من ذهب ، تمال إلى أعلى فى جانب أو ثلاثة جوانب ، وتختال بحزمة من الريش يضمها مشبك معدنى . وحين ارتقى لويس العرش نبذ — ونبذ من بعده البلاط — تلك الباروكات التى أشاع زيها أبوه الأصلع ، فقد كانت تلافيف شعر الملك الشاب الكستنائى أروع وأبهى من أن تخبأ ، ولكن حين بدأ شعره ينحل بعد ١٦٧٠ ، اتخذ الشعر المستعار ، وما لبث أن توج كل رأس — أيا كان طموح حامله — وسواء فى فرنسا أو انجلتره أو ألمانيا ، بمقوس مستعارة مبدرة تنسدل

إلى الكتفين أو ما تحتهما، وتجمل كل الرجال يبدون سواسية إلا لضجائهم. أما اللحى فحلقت ، وأما الشوارب فاحتفل بها ، ومدت القفازات إلى مافوق الرسغ وزينت ، وارتدى الجنسان فراء اليدين في الجو البارد . واستعيض عن طوق الرقبة المكشكش العالي بلفاع حريري يعقد هينا حول العنق . وأخذ يحل محل الصدرة ثوب طويل مزخرف ، وزين الفخذان بسراويل « كيلوت » تمتد إلى الركبتين وتقفل بمشابك أو تعقد بأشرطة عندهما ، ثم تغطى هذه الثياب — إلا من أمام — بسترة ملتفة تنتهي أكمامها بأساور واسعة تحف بها حاشية من الدانتللا . واختص القانون النبلاء بتحلية ثيابهم بوشي من الذهب أو بالأحجار الكريمة ، ولكن ذوي اليسار من أي طبقة تجاهلوا هذا القانون . أما الجوارب الطويلة فكانت عادة من الحرير ، وكان الذكور يلبسون الأحذية الطويلة الرقبة حتى لحفلات الرقص .

أما النساء المهذبات فكانت ثيابهن فضفاضة منسدلة تتفق وفضائلهن . وكانت صدارتهن ذات أربطة ولكن من أمام كما ناشدهن بانورج في كتاب رابليه ، فكانت النهود البارزة تثب للعيون البصاصة . وأما التنورة المطوقة والأكمام المنفوخة فولت مع ريشليو . وحفلت الأرواب بالتطريز والألوان المشرقة ، وكست الأحذية العالية المبهجة الأقدام المتعبة ، وربط الشعر بالأشرطة ، ورصع ، وعطر ، وجعد ، في تأنق . . وظهرت أولى مجلات الأزياء في ١٦٧٢ .

أما آداب السلوك فكان طابعها الجلال والفخامة ، وإن بقيت جلافات كثيرة تحت أبهة القبعة المرفوعة للتحية والثوب الجرار . فكان الرجال يبصقون على أرض الحجرة ، ويبولون على سلم اللوفر[٧٣] . وقد ينقلب المزاح وحشيا أو بذيئا . ولكن الحديث كان رشيقا مهذبا ، ولو دار حول الفسيولوجيا والجنس . وكان الرجال يأخذون عن النساء آداب السلوك

والحديث ، فيتكلمون فى عبارة واضحة سليمة ، ويتنكبون الحشو والحذلقة ، ويتناولون جميع الموضوعات مهما اشتد عمقها بمرح خفيف روحا وعبارة . وكان الاحتداد فى الجدل من سوء الأدب . وأما آداب المائدة فأخذت تتحسن . كان الملك يأكل بأصابعه طوال حياته ، ولكن استعمال الشوك كان قد راج . وشاع استعمال نحو ١٦٦٠ فوطة للمائدة . ولم يعد من المستساغ أن يمسح الضيوف أصابعهم فى غطاء المائدة .

أما الفضائل الإجتماعية فلم تكن ممتازة فى هذا العصر — عصر الاتيكيت والبروتوكول . وتضاءل الإحسان بازدياد ثراء الطبقات العليا . وكانت الأخلاق أسلم ما تكون فى الطبقات الوسطى حيث يسر الشعور بالأمن حسن السلوك ، وحفزته الرغبة فى الارتقاء . وكان المثل الأعلى عند جميع الطبقات هو L'honnête homme وليس المقصود بالعبارة الرجل الأمين ، بل الرجل الشريف ، الذى يجمع بين كرم النشأة والعادات وبين حسن السلوك . أما الأمانة فقلما كان يتوقعها القوم من إنسان . فقد استشرت الرشوة فى المناصب على الرغم من لوائح كولبير ونظام الجاسوسيه الملكى ، وشجع عليها بيع الوظائف الحكومية مصدرا من مصادر إيراد الدولة . وانبعثت الجريمة من جشع الأغنياء ، وفقر الفقراء ، والتفجرات الغاضبة فى جميع الطبقات . وآية ذلك أن من السيدات العريقات النسب من أفدن من خدمات كاترين مونفوازان أو المركيزة برانفلييه ، وكلتاهما حذقت تحضير السموم الطويلة المفعول ، وشاع القتل بالسم شيوعا اقتضى إنشاء محاكم خاصة لتفصل فى قضاياه(٢٤) . أما كاترين مونفوازان فقد مارست الطب ، والتوليد ، والسحر ، وساعدت كاهنا مرتداً فى ترتيل « القداس الأسود » التماسا لمعونة الشيطان ، وكانت تدبر اجهاض النساء وتبيع السموم وأشربة الغرام . ومن زبائنها أوليمب مانتشينى ، ابنة أخت مازاران ، والكونتيسة جرامون ، ومدام دمونتيسبان خليلة الملك وفى ١٦٧٩ فحصت لجنة نشاط « لافوازان » ووجدت الأدلة على اشتراك العدد العديد من كبار أفراد الحاشية ، الأمر

الذى حدا بلويس إلى حظر إذاعة التحقيق[٧٥] . وأحرقت لافوازان حية (١٦٨٠) .

ويدخل فى أخلاق الأفراد انحرافاتهم العادية . وقد نص القانون على عقاب اللواط بالإعدام ، وما كانت أمة تتخذ أهبتها للحرب ، وتدفع الإهانات على الأطفال ، لتسمح بانحراف الغرائز الجنسية عن جادة الإنسال ، ولكن مطاردة أمثال هؤلاء المنحرفين كانت عسيرة فى وقت كان فيه شقيق الملك لوطيا يشار إليه بالبنان ، يأنف القوم من ازدرائه ولكنهم يرونه فوق القانون . أما الحب بين الجنسين فقد تقبلوه على أنه تخفف ورومانسى من أعباء الزواج ، لامبرر يدعو للزواج . وقد رأوا أن اقتناء الثروة ، أو حمايتها ، أو نقلها ، أهم فى الزواج من محاولة الإبقاء على عواطف الساعة العابرة طوال العمر ولما كانت معظم زيجات الطبقة الارستقراطية لاتعدو أن تكون ترتيبات لتنظيم الملكية ، فان المجتمع الفرنسى أغضى عن التسرى ، فكان لكل قادر تقريبا خليلة ، وكاد الرجال يفاخرون بغرامياتهم مفاخرتهم بمعاركهم الحربية . أما المرأة فتشعر أنها مهجورة منبوذة إذا لم يلاحقها من الرجال سوى زوجها ، وكان بعض الخائنين من الأزواج يغضون عن خيانات زوجاتهن . يقول شخص فى مسرحية لموليير : « أفى الدنيا كلها بلد آخر يبلغ فيه صبر الأزواج مبلغه فى هذا البلد[٧٦] ؟ » فى هذا المناخ الكلبى نشأت أمثال لاروشفوكو وكان القوم يحتقرون البغاء إذا تجرد من الكياسة ، ولكن امرأة كنينون دلانكلو ، جملته بالأدب والظرف ، استطاعت أن تحظى بشهرة تدانى شهرة الملك .

كان أبوها نبيلا حر الفكر ، ومبارزا بارعا . وكانت أمها شديدة الحرص على الفضيلة ، ولكنها (إذا صدقنا ابنتها) « مجردة من مشاعر الحس . . . . وقد ولدت ثلاثة أطفال وهى لاتكاد تلحظ الأمر[٧٧] » . ومع أن نينون لم يتح لها التعليم المنهجى ، فإنها التقطت من المعارف قدرا

لايستهان به ، فتعلمت الكلام بالإيطالية والأسبانية ، ربما لتستعين بهما في هذه التجارة الدوليه ، وقرأت مونتيني وشارون ، بل قرأت ديكارت ، وأخذت عن أبيها تشككه . وقدجملت مناقشتها حول الدين في فترة لاحقة مدام دسفينييه ترتعد(٧٨) . قالت نينون « إذا احتاج إنسان إلى دين ليسلك في هذه الدنيا كما ينبغي ، فتلك علامة إما على ضيق عقله ، أو على فساد قلبه» (٧٩) . وكان من الجائز أن تخلص من ذلك إلى ضرورة الدين لجميع الناس تقريبا ، ولكنها بدلا من هذا انزلقت إلى البغاء وهي لاتتجاوز الخامسة عشرة (١٦٣٥) . وقالت في استهتار « إن الحب عاطفة لاتنطوى على أي التزام خلقي(٨٠) » فلما خلعت العذار وجهرت بفوضاها الجنسية ، أمرت آن النمساوية بحبسها في دير للنساء . وروى أنها فتنت راهبات الدير بظرفها وحيويتها ، واستمتعت بحبسها كأنها فرصة للاستجمام . وفي ١٦٥٧ أفرج عنها بأمر الملك .

لقد كان فيها ما هو أكثر كثيراً من مجرد الحظية ، حتى إنها سرعان ما ضمت إلى لفيف المعجبين بها عدداً كبيراً من أبرز الرجال في فرنسا ، ومنهم نفر من الحاشية(٨١) ، من الملحن لولي إلى كونديه العظيم ذاته . وكانت تجيد العزف على الهاربسيكورد ، وتحسن الغناء ، يقصدها لولي ليجرب ألحانه الجديدة . وقد حوت قائمتها ثلاثة أجيال من آل سفينيه — زوج كاتبة الرسائل اللطيفة ، وابنها ، وحفيدها(٨٢) . وأقبل الرجال من خارج فرنسا يلتمسون ودها . قالت « لم يتشاجر على عشاق قط ، فقد كانوا يثقون في قلبي ، وكان كل منهم ينتظر دوره(٨٣) » .

وفي ١٦٥٧ افتتحت صالونا ، ودعت إليه رجال الأدب والموسيقى والفن والسياسة والحرب ، وأحيانا زوجاتهم ، وأذهلت باريس بما أبدت من ذكاء لا يقل عن ذكاء أي امرأة في جيلها أو ذكاء أكثر الرجال ، فلقد طالعهم فيها عقل مينيرفا من خلف وجه فينوس . يقول فيها ناقد صارم هو سان — سيفرون :

« كان من المفيد لإنسان أن تستقبله في صالونها نظراً إلى الاتصالات التي يكونها عن هذا الطريق . ولم يدر في صالونها أي لعب للقمار ، ولا ضحك عال ، ولا مجادلات ، ولا حديث في الدين أو السياسة ، بل دار الكثير من الحديث الذكي الرشيق .. وأنباء الغرام ، ولكن دون فضح أو تشهير. كان كله حديثا مهذبا خفيفا محسوبا ، وكانت هي نفسها تغذو الحديث بذكائها وعلمها الغزير (٨٤) » .

وأخيراً أثارت فضول الملك نفسه ، فطلب إلى مدام دمانتينون أن تدعوها إلى القصر ، واستمع إليها من وراء ستار ، فافتتن بها ، وكشف لها عن وجوده وقدم نفسه إليها . وكانت في هذه الفترة (١٦٧٧ ؟) قد كسبت ما يشبه الاحترام ، وخلعت عليها أمانتها البسيطة وأياديها الكثيرة سمعة أشرف ، فكان الرجال يودعون لديها المبالغ الكبيرة مطمئنين ، واثقين دائما من إمكان استردادها حين يشاءون ، ولاحظت باريس كيف كانت نينون تزور الشاعر سكارون كل يوم تقريبا حين أقعده الشلل ، وكيف كانت تأتيه بأطايب الطعام التي يعجز عن دفع ثمنها .

ولقد عمرت بعد أصدقائها كلهم تقريباً ، حتى سانت إفريمون التسعيني ، الذي كانت رسائله التي يبعث بها من انجلترا عزاء لشيخوختها . كتبت له تقول : أحياناً أضيق بعمل نفس الأشياء دائما ، ويعجبني السويسريون الذين يلقون بأنفسهم في النهر لهذا السبب (٨٥) . » وكانت تضيق بالتجاعيد . « إذا كان لزاما أن يبتلى الله المرأة بالغضون ، فأولى به على الأقل أن يضعها على باطن قدمها (٨٦) » . فلما دنت منيتها ، تنافس اليسوعيون والجانسنيون على شرف هدايتها للإيمان ، فاستسلمت لهم في لطف ، وماتت في أحضان الكنيسة (١٧٠٥) (٨٧) . ولم تترك في وصيتها سوى عشرة إيكوات لجنازتها ، حتى تكون أبسط ما يستطاع ، ولكن « أطلب في تواضع إلى المسيو آرويه » — وهو وكيلها — « أن يسمح لي بأن أترك لابنه ، الذي

يتلقى العلم عند اليسوعيين ، ألف فرنك ليشترى بها كتباً(٨٨) » . واشترى الابن الكتب ، وقرأها ، وأصبح فولتير .

إن أروع السحر الذى توج هامة المجتمع الفرنسى هو أن حافز الجنس امتد إلى الذهن ، وأن النساء تنبهن ليضفن الذكاء إلى الجمال . وأن الرجال روضهن النساء على السلوك المؤدب ، والذوق السليم ، والحديث المهذب ، وفى هذا كان القرن (الممتد من ١٦٦٠ إلى ١٧٦٠) فى فرنسا أوج الحضارة . فى ذلك المجتمع كثرت النساء الذكيات كثرة لم تعهد من قبل ، فإذا جمعن إلى الذكاء فتنة الوجه أو الجسد ، أو سحر الاهتمام الناشىء عن الرقة واللطف ، أصبحن قوة تهذيب عارمة . وكانت الصالونات تدرب الرجال على الحساسية لرقة الأنثى ، والنساء على التجاوب مع عقل الذكر . وفى هذه اللقاءات طور فن الحديث حتى بلغ شأوا لم يبلغه من قبل ولا من بعد — فن تبادل الأفكار دون مغالاة أو خصومة ، بل فى مجاملة ، وتسامح ، ووضوح ، وخفة ، ورشاقة . ولعل هذا الفن كان أقرب إلى الكمال فى عهد لويس الرابع عشر منه فى أيام فولتير — أقل ألمعية وظرفا ، ولكن أكثر مادة ومودة . كتبت مدام دسفينيه إلى ابنتها تقول « بعد الغداء مضينا إلى السمر فى ألطف غابات الدنيا ، وظللنا هناك إلى السادسة ، مشتغلين بمختلف ألوان الحديث ، البالغ العطف ، والرقة ، واللطف ، والكرم ، مما مس شغاف قلبي(٨٩) » وقد عزا كثير من الرجال الفضل فى تسعة أعشار تعليمهم إلى مثل هذا التبادل والاتصال الاجتماعى بين الجنسين (٩٠) .

وفى الغرفة الزرقاء بالأوتيل درامبوييه كان أول الصالونات يسطع ببهائه الأخير . أمه كونديه وإن لم يلمع فيه ، وأمه كورنيى ، ولاروشفوكو ، والسيدتان لافاييت ودسفينيه ، ودوقة لونجفيل ، والجراند مدموازيل . هناك أرست النساء المتحذلقات les femmes précieuses قواعد السلوك الدقيق والحديث المصقول . ولكن حرب الفروند قطعت هذه اللقاءات ، ورحلت مدام درامبوييه إلى الريف ، ومع أن « أوتيلها » (قصرها) فتح بعد

ذلك أبوابه ثانية لعبقرى فرنسا (موليير) ، فإن باكورة تمثيلياته Les Précieuses ridicules (المتحذلقات المضحكات) (١٦٥٩) كانت ضربة قاضية عليه . وطوى أول الصالونات المشهورة بموت مؤسسته فى ١٦٦٥ .

وواصلت هذا التقليد صالونات أخرى ، فى بيوت السيدات دلا سابلير ، ودلامبير ، ودسكوديرى — وآخرهن أشهر كتاب الرواية فى هذا العصر ، وأولاهن امرأة جذبت الرجال بحسنها رغم حبها للفيزياء ، والفلك ، والرياضة ، والفلسفة . فى صالونات كهذه زكت النساء العالمات femmes savantes اللائى أثرن سخرية موليير فى ١٦٧٢ . ولكن كل هجاء ليس إلا نصف الحقيقة ، ولعل موليير فى لحظاته الفلسفية كان يقر بحق النساء فى أن يشاركن فى حياة جيلهن الفكرية . فنساء فرنسا ، أكثر حتى من كتابها وفنانيها ، هن تاج حضارتها ، والمفخرة العظمى لتاريخها .

٦ - بلاط الملك

لقد عاون الملك وبلاطه على تحضير فرنسا . وفى ١٦٦٤ كان البلاط يضم نحو ستمائة شخص : الأسرة المالكة ، وكبار النبلاء ، والمبعوثين الأجانب ، والخدم والحشم . وقد زاد العدد فى أوج اكتمال فرساى إلى عشرة آلاف من الأنفس(٩١) ، ولكن هذا العدد شمل الأعيان الذين اختلفوا إلى القصر بين الحين والحين ، وجميع المرفهين والأتباع ، والفنانين والمؤلفين الذين وقع عليهم اختيار الملك ليكافئهم . وأصبحت الدعوة إلى البلاط شهوة لا تفوقها غير شهوة الطعام والجنس ، لا بل إن قضاء يوم واحد فيه كان نشوة لا تنسى ، جديرة بأن يبذل فى سبيلها نصف مدخرات العمر .

وبعض السر فى بهاء البلاط كان فى الأثاث المترف الذى ازدانت به الغرف ، وبعضه فى لباس الحاشية ، وبعضه فى حفلات الترفيه البالغة الفخامة ، وبعضه فى جمال النساء وصيت الرجال الذين اجتذبهم بريق المال ، والشهرة ، والسلطان . ومن النساء الشهيرات — كالسيدتين دسفينيه ودلافاييت — من لم يختلفن

إلى البلاط إلا نادرا لانحيازهن إلى قضية الفروند ، ولكن بقى منهن عدد يكفى لإبهاج ملك بالغ الحساسية لمفاتن المرأة . وتبدو المرأة فى اللوحات التى وصلت إلينا من هذا العصر على شىء من البدانة ، يبرز لحمها من صدارها ، ولكن من الواضح أن الرجال كان يعجبهم دفء الشحم واللحم فيمن يعشقون من النساء .

أما أخلاقيات البلاط فكانت الزنا المحتشم ، والإسراف فى اللباس والقمار ، والدسائس العنيفة جريا وراء الصيت والمنصب ، وهذا كله يخطو على إيقاع من السلوك الخارجى الدمث ،والآداب الرشيقة ، والمرح الإلزامى. وضرب الملك المثل فى بدعة اللباس الغالى ، لا سيما فى استقبالات السفراء ، فتراه وهو يستقبل مبعوثى سيام يرتدى عباءة موشاة بالذهب ومرصعة الأطراف بالماس ، بلغت تكاليفها ١٢٫٥٠٠٫٠٠٠ جنيه فرنسى (٩٢) ، ومثل هذا المظهر كان جزءا من سيكولوجية الحكم . وأفنى الأشراف ونساؤهم نصف دخل ضياعهم فى الثياب والخدم والأثاث ، وكان على أقلهم شأنا أن يستخدم أحد عشر خادما ومركبتين ، أما الأثرياء فكان لهم من الاتباع خمسة وسبعون فى بيوتهم ، ومن الخيل أربعون فى مرابطهم(٩٣) . وفقد الزنا سحره بعد أن لم يعد محظورا ، فغدا لعب الورق للمقامرة أهم ضروب الترفيه فى البلاط .وهنا أيضاً كان لويس القدوة لحاشيته ،فقامر بمبالغ كبيرة ، تستحثه إلى ذلك خليلته مونتسبان ، التى خسرت وكسبت أربعة ملايين من الفرنكات فى لعب ليلة واحدة(٩٤) . وسرى هذا الهوس من البلاط إلى الشعب . كتب لابروبير يقول : « إن الألوف يخربون بيوتهم بالقمار ، وهو لعبة رهيبة ... ينوى لاعبها القضاء المبرم على غريمه ، وينتشى بشهوة الكسب (٩٥) » .

وقد أفضى التنافس على الحظوة عند الملك ، أو على وظيفة مجزية ، أو على مكان فى الفراش الملكى ، إلى جو من الشبهات ، والافتراءات ، وتبادل الخصومات الحادة . قال لويس « فى كل مرة أعين إنسانا فى وظيفة

شافرة ، أسخط مائة شخص ، وأجعل شخصاً ما كرا للجميل(٩٦) ». وكان القوم يتشاحنون على أمكنة الصدارة فى المائدة ، أو على القيام على خدمة الملك ، وحتى سان — سيمون أقلقه الخوف من أن يتقدمه دوق لكسمبور خمس خطوات فى أحد المواكب ، وقد اضطر لويس إلى نفى ثلاثة أدواق من البلاط لأنهم أبوا أن يقدموا على أنفسهم أمراء أجانب . وكان الملك شديد الاحتفال بالبروتوكول ، وقد عبس مرة حين وجد على مائدة الغداء سيدة عاطلا من اللقب تتقدم دوقة فى مجلسها(٩٧) . ولا ريب فى أن ضربا من الترتيب المقرر كان ضروريا لمنع ستمائة من الأنفس المغرورة المزهوة بأسباب التشريف من أن يدوس بعضها على أقدام بعض ، وقد أثنى الزوار على ذلك المظهر المتسق الذى بدت فيه الحاشية الضخمة . ومن قصور الملك واستقبالاته ، وحفلات ترفيهه ، سرى دستور للإتيكيت ، ومعايير للسلوك والذوق ، إلى الطبقتين العليا والوسطى ، وأصبحت هذه كلها جزءا من التراث الأوربى .

وأراد الملك أن يمنع الملل من أن يتطرق إلى نفوس هؤلاء النبلاء والنبيلات ، ذلك الملل الذى قد يحمل البعض على قتل الملك ، فناط الفنانين على مختلف أنواعهم بإعداد ألوان الترفيه — من مباريات بين الفرسان ، ورحلات صيد ، ومباريات تنس وبليارذو ، وجماعات سباحة أو نزهة فى الزوارق ، وحفلات غداء أو عشاء ، ورقص وحفلات راقصة ، وحفلات تنكرية ، ومراقص باليه ، وأوبرات ، وحفلات موسيقية ، وتمثيليات . وبدت فرساى وكأنها جنة الله فى أرضه حين كان الملك يتقدم حاشيته إلى الزوارق الراسية فى القناة ، والأصوات والآلات تغدو بالموسيقى ، والمشاعل تعين القمر والنجوم على إضاءة المشهد . وهل فى الدنيا أفخم ولا أكتم للأنفاس من حفلات الرقص الرسمية ، حين تعكس قاعة المرايا فى مراياها الهائلة رشاقة الرجال والنساء وخفتهم وهم يخطرون فى رقصات فخمة تحت آلاف الأضواء ؟ لقد أراد الملك أن يحتفل بمولد ابنه البكر ، الدوفان ،

(١٦٦٢) فأقام حفلة باليه فى الميدان المنبسط أمام التويلرى ، حضرها خمسة عشر ألف شخص . وقد دمر كومون ١٨٧١ القصر ، ولكن موقع هذا المهرجان الأشهر ما زال يسمى قصر كاروزل Carrousel (أى ساحة الرقص الدائرى السريع) .

لقد أحب لويس الرقص ، وأشاد به « واحداً من أفضل وأهم الرياضات لتدريب الجسم(٩٨) » ، وأسس فى باريس (١٦٦١) الأكاديمية الملكية للرقص . وكان يشارك بشخصه فى رقصات الباليه ويحذو النبلاء حذوه . وشغل الملحنون فى بلاطه بإعداد الموسيقى لحفلات الرقص والباليه ، وهناك تطورت المتتالية التى حذق استخدامها بيرسيل فى إنجلتره وآل باخ فى ألمانيا . ولم يبلغ الرقص صورا رشيقة متسقة كهذه منذ أيام روما الإمبراطورية .

وفى ١٦٤٥ استقدم مازاران المغنين الإيطاليين ليرسوا أساس الأوبرا فى باريس . وقطع موت الكردينال هذا الاستهلال ، ولكن حين شب الملك أنشأ أكاديمية الأوبرا (١٦٦٩) ، وكلف بيير بيران بتقديم أوبراته فى عدة مدن فرنسية ، ابتداء من باريس فى ١٦٧١ . فلما أفلس بيران من جراء إنفاقه المسرف على المناظر والآلات ، نقل لويس « امتياز أكاديميات الموسيقى » إلى جان باتيست لولى Lully ، فما لبث هذا الرجل أن رقص البلاط بأسره على أنغامه .

وكان هو أيضا هبة من هبات ايطاليا . فقد أتى به الشفاليه جيز صبيا فلاحا فى السابعة من فلورنسة إلى فرنسا فى ١٦٤٦ ، « هدية » لابنة أخته ، الجراند مدموازيل ، التى استخدمته فى مطبخها مساعداً صغيراً (Sousmarmiton) . وهناك ضايق زملاءه الخدم بالتمرين على الكمان ، ولكن المدموازيل تبينت موهبته وأتته بمعلم . وما لبث أن عزف فى فرقة الموسيقى الملكية ذات الأربع والعشرين كمانا . واستلطفه لويس ، فأعطاه

مجموعة صغيرة من الموسيقيين يقودها . وبفضل هذا الأوركسترا الوترى الصغير تعلم القيادة والتلحين — لموسيقى الرقص ، والأغانى ، والكمان المنفرد والكنتاتات ، والموسيقى الكنسية ، ولثلاثين لحنا أوركستريا للباليه ، وعشرين أوبرا . وقد صادق موليير ، وتعاون معه فى عدة باليهات ، ولحن فواصل موسيقية قصيرة لبعض تمثيليات موليير .

وكان نجاحه رجل بلاط يضارع انتصاراته موسيقيا . ففى ١٦٧٢ ، وفق بنفوذ مدام دمونتسبان فى الحصول على احتكار الأوبرا فى باريس . وقد وجد فى فيليب كينو Outnault مؤلفا لكلمات الأوبرا وشاعرا أيضا . فأخرجا معا سلسلة من الأوبرات كانت ثورة فى الموسيقى الفرنسية . ولم يقتصر نجاح هذه الحفلات على الترفيه على البلاط فى فرساى ، بل إنها اجتذبت صفوة الباريسيين إلى المسرح الذى بنى من قبل للولى فى شارع سانت — أونوريه ، واجتذبتهم فى كثرة جعلت الشوارع تختنق بالمركبات ، فاضطر الرواد فى كثير من الأحيان إلى الخروج منها والسير على الأقدام ، وفى الوحل غالبا ، خشية أن يفوتهم الفصل الأول ، وقد استهجن بوالو الأوبرا زاعما أنها ضرب من التخنث المضعف(٩٩) ، ولكن الملك منح أكاديمية الموسيقى مرسوما (١٦٧٢) ، وأذن لـ « سادة والسيدات بالغناء فى عروض الأكاديمية المذكورة دون أن يكون فى ذلك غض » من أقدارهم(١٠٠) . ورفع لويس لولى إلى مقام النبالة سكرتيراً للملك ، وشكا سكرتيرون آخرون من أن الوظيفة أرفع من أن تخلع على موسيقى ، ولكن لويس قال للولى ، « لقد شرفتهم لا أنت بوضعى عبقرياً بين زمرتهم(١٠١) » . وحالف التوفيق لولى فى كل شىء حتى ١٦٨٧ ، حين ضرب قدمه صدفة — وهو يقود فرقته — بعصا القيادة ، وأساء طبيب دجال علاج جرحه ، فتعفن ، ومات المؤلف الفوار فى الثامنه والأربعين . ومازالت الأوبرا الفرنسية تشعر بتأثيره إلى اليوم .

بقى اسم آخر خلفته موسيقى ذلك العهـــد الفخم ، وهو اسم أسرة كوبران ، التى كانت مثلا آخر على الوراثة فى الفن ، والتى أنجبت مؤلفين لفرنسا طوال قرنين من الزمان ، واحتكرت من ١٦٥٠ إلى ١٨٢٦ الأرغن العظيم فى كنيسة سان جرفيه ، وقد شغل فرنسوا كوبران « الكبير » ذلك المنصب ثمانية وعشرين عاماً ، كذلك كان « عازف أرغن الملك » فى كنيسة الملك الصغيرة بفرساى ، وكان أشهر عازفى الماربسيكورد فى ذلك « القرن العظيم » . وقد درس يوهان سبستيان باخ ألحانه التى وضعها لهذه الآلة دراسة دقيقة ، وأثر البحث الذى وضعه باسم L,art de toucher le clavecin (وهو الاسم الفرنسى لمقابله الانجليزى Clavichord) فى بحث ذلك الألمانى العظيم المسمى « الكلافير المعتدل » ... ترى ، أ كانت للوسيقى فى دم آل كوبران ، أم فى بيتهم فقط ، لعل الوراثة الاجتماعية ، لا البيولوجية ، هى التى تصنع الحضارة .

٧ ــ نساء الملك

لم يكن لويس بالرجل الخليع الفاجر ، وعلينا أن نذكر دائماً ونحن فى معرض الحديث عن الملوك حتى إلى قرننا هـذا ، أن العرف اقتضاهم أن يضحوا بميولهم الشخصية ليعقدوا زيجات تجلب منفعة سياسية للدولة ، ومن ثم كان المجتمع — والكنيسة أحيانا كثيرة — يغضيان إذا التمس الملك متعة الجنس وشاعرية الغرام بعيـداً عن الرباط الزوجى . ولو كان الأمر بيد لويس لبدأ حياته بزاوج حب ، فقد استهواه جمال مارى مانشينى ابنة أخت مازاران ، وظرفها ، فرجا أمه والكردينال أن يسمحا له بالزواج منها (١٦٥٨) ، ولـكن آن النساوية وبختته لأنه سمح للعاطفة بأن تتدخل فى شئون السياسة ، أما مازاران فقد أبعد مارى آسفا لتتزوج رجلا من آل كولونا ، ثم راح الوزير الداهية يستخدم نفوذه الخفى ليحصل على

عروس للويس هى ماريا تريزا ، ابنة فيليب الرابع . أفليس من الجائز ، إذا انقطع نسل الذكور فى الملوك الأسبان ، أن تأتى هـذه الأميرة بأسبانيا كلها مهراً لملك فرنسا ؟ وهكذا زف لويس إلى ماريا فى ١٦٦٠ ، وكلاهما فى الثانية والعشرين ، فى كل البهاء والبذخ الذى سحر دافعى الضرائب .

أما مارى تريز فكانت امرأة متكبرة ، ورعة فاضلة ، وقد أعانت قدوتها ونفوذها على إصلاح أخلاقيات البلاط ، على الأقل بين حاشيتها ، ولكن النظام الصارم الذى نشئت عليه جعلها مكتئبة متبلدة ، وكانت شهيتها القوية تزيدها حجما فى الوقت الذى ترمق فيـــه حسناوات باريس زوجها الوسيم بنظرات الغرام وقد أنجبت له ستة أطفال ، لم يتجاوز الطفـولة منهم غير واحد هو الدوفن ، وكان من سوء طالعها أن يكتشف لويس ، فى نفس سنة زواجهما ، فى زوجة أخيه هنريتا آن ، جميع المفاتن التى تجمل الأنوثة الغضة .

أما هنرييتا هذه فهى ابنه تشارلز الأول ملك انجلتره ، وكانت أمها هنريتا ماريا « ابنة هنرى الرابع ملك فرنسا » قد قاسمت زوجها مأساة الحرب الأهلية ، فلما دنا جيش البرلمان من مقر قيادة تشارلز فى أكسفورد ، فرت ملـكة إنجلتره إلى أكستر ، وهناك ، حين اشتد بها المرض حتى أشرفت على الموت ، ولدت (١٦٤٤) « أميرة صغيرة جميلة » . وراح أعوان البرلمان يتعقبون الأم المريضة ، ففرت ثانيـــة ، وتسللت إلى ساحل البحر ، حيث استقلت سفينة هولندية إلى فرنسا بعد أن أفلتت بالجهـد من المدافع الانجليزية . أما الطفلة التى تركتها أمها فى رعاية الليدى آن دولـكيت ، فقد عاشت عامين فى مخبئها بانجلتره قبل أن تهرب هى أيضاً عبر المانش فى

---

(١) روت مدام دمونتسبان ، التى لم تخل من تحيز فى مذكراتها ، كيف أهدى أمير أفريقى قزماً زنجياً لمارى ، وكيف ولدت مارى « بنتاً جميلة صحيحة الجسم ، سوداء من قمة رأسها إلى أخمص قدمها » وعزت الملكة هذا اللون إلى خوفها من القزم خلال حملها ، وأذاعت « فاريته » بباريس أن الفتاة ماتت عقب ولادتها ، ولـكن يبدو أنها عاشت ، وربتها أسرة ملونة ، وأصبحت راهبة .(١٠٧)

أمان ، وما لبثت أن أكرهتها الظروف على معاناة التقلبات التى جاءت بها حرب الفروند . ففى يناير ١٦٤٠ شاركت أمها وآن النمساوية فى هروبهما من باريس المملوءة بالمتاريس إلى سان — جرمان ، وفى ذلك الشهر جاء نبأ — أخفى عنها ولا ريب حيناً — بأن أباها ضرب عنقه أنصار كرومويل « ذوو الرءوس المستديرة » المنتصرون فلما خفت حدة الفروند ، قامت أم الأميرة هنرييتا على تربيتها فى جو من الدعة والتقوى ، وعاشت كلتاهما حتى رأتا تشارلز الثانى يرد إلى العرش الإنجليزى (١٦٦٠) ، وبعد عام حين بلغت السادسة عشرة ، تزوجت شقيق لويس الرابع عشر ، « مسيو » فيليب دوق أورليان ، وأصبحت تلقب بالـ « مدام » .

أما « المسيو » فكان رجلا قصيراً مكور البطن ، يلبس حذاءاً عالياً ، ولوعاً بحلى الأناث ، وأجساد الذكور ، شجاعا كأى فارس فى ساحة الوغى ، ولكنه مزوق ، معطر ، موشح ، مرصع بالجواهر كأشد النساء غروراً ، فى هذا البلد الذى كان أكثر بلاد الله غروراً . وقد أحزن هنرييتا وأخجلها أن ترى زوجها يؤثر على صحبتها صحبة شفالييه اللورين ، وشفالييه شاتيون . ووقع فى غرامها كل إنسان تقريباً ، لا لجمالها الهش فحسب — مع أنها عدت أجمل مخلوق فى البلاط(١٠٣) — ، بل لما هو أكثر من ذلك ، لروحها الرقيقة اللطيفة ، وحيويتها ومرحها الشبيهين بحيوية الأطفال ومرحهم . وللنسيم النضر المنعش الذى حملته أينما ذهبت ، وقد وصفها راسين بـ « الحكم فى كل جيل (١٠٤) » — وكان واحداً من كثيرين ممن ألهمتهم ومدت لهم يد المعونة .

ووجدها لويس الرابع عشر لأول وهلة أضعف وأنحف من أن تسيغها فتوته وذوقه ، ولكنه حين أحس آخر الأمر بما فى خلقها من « حلاوة وضياء »(١٠٥) استشعر المتعة المتزايدة فى وجودها ، وأبهجه أن يراقصها ويمازحها ، ويدير الألعاب معها ، ويصاحبها فى المشى فى البستان فى فونتنبلو

أو ركوب الزورق فى القناة ، حتى زعمت باريس كلها أنها غدت خليلته ، ورأت فى هذا انتقاما عادلا من « ملك سدوم » [١٠٦] ولكن أغلب الظن أن باريس أخطأت الحكم . فلقد أحبها لويس واشتهاها من جانبه ، أما هى ، التى بذلت إخلاصها فى الحب لأخويها تشارلز وجيمس ، فقد قبلت الملك أخاً آخر ، واتخذت من ربط الثلاثة جميعاً برباط التحالف أو المودة رسالة لها فى الحياة .

ففى سنة ١٦٧٠ ، وبنـــاء على طلب لويس ، عبرت المانش إلى انجلترة لتقنع تشارلز بالانضمام إلى فرنسا ضـد هولندة ، لا بل لتحضه على الجهر بكثلكته . وقد وعد بهذا فى معاهدة دوفر السرية (١ يونيو ١٦٧٠) ، وعادت هنرييتا إلى فرنسا محملة بالهدايا مكللة بالنصر . ولكن مامضت أيام على وصولها إلى قصرها فى سان — كلو حتى أصابها مرض شديد ، فظنت أنها سممت ، وكذلك اعتقدت باريس كلها ، وهرع الملك والملكة إلى فراشها . وكذلك فعل « المسيو » النادم ، وكونديه ، وتورين ، ومدام دى لافاييت ، ومدموازيل دمونبانسييه ، وأبى بوسويه ليصلى معها ، وأخيراً فى ٣٠ يونيو ، انتهى عذابها ، وكشف فحص جثتها عن أن موتها لم يكن بالسم بل بالالتهاب البريتونى [١٠٧] ، وشيعها لويس بمشهد لا يشيع بمثله غير أصحاب الرءوس المتوجة ، وألقى بوسويه فوق جثمانها فى كنيسة سان — دنى عظة جنائزية رجعت أصداءها القرون .

وهنرييتا هى التى أعطت للملك أولى خليلاته الأكثر علانية . وقد ولدت هذه المرأة ، واسمها لويز دى لا فاليير ، فى مدينة تور عام ١٦٤٤ ، وتلقت فى إيمان مستسلم ذلك التعليم الدينى الذى قامت عليه أمها وخالها الكاهن ، الذى أصبح فيما بعد أسقفا لنانت ، وما أن بلغت سن التناول الأول حتى مات أبوها ، فتزوجت أمها من جديد ، وكان الزوج رئيساً لخدم جاستون دوق أورليان ، فحصل للويز على وظيفه وصيفة لبنات الدوق ، فلما

مات جاستون ، وتزوج ابن أخيه وخليفته فيليب ، أخذ لويز معه وصيفة شرف لهنرييتا (١٦٦١) . وبهذا الوصف كانت ترى الملك مراراً كثيرة . وبهرها بهاؤه وسلطانه وسحر شخصيته ، فوقعت فى غرامه كما وقعت عشرات النساء ، ولكنها لم تحلم بالتحدث إليه يوماً .

كان جمالها جمال الخلق أكثر منه جمال الجسد ، كانت رقيقة الصحة وبها عرج خفيف ، « وليس لها صدر يؤبه به » على حد قول أحد ناقديها ، وكانت نحيفة إلى حد مخيف ، ولكن ضعفها هذا كان فى ذاته فتنة ، لأنه أورثها تواضعاً ودماثة فى الطبع أسر الجميع حتى النساء ، ولفتت هنرييتا نظر الملك إلى لويز لتصرف الناس عن الشائعات التى أرجفت بأنها هى ذاتها خليلته ، وأفلحت الخطة فوق ما أرادت ، فقد جذبت لويس هذه الفتاة الخجول ذات السبعة عشر ربيعاً ، التى كان البون شاسعاً بينها وبين النبيلات المتغطرسات العدوانيات اللائى يحطن به فى بلاطه . وذات يوم وجدها وحيدة فى حدائق فونتنبلو ، فقدم نفسه إليها ، مضمراً نيات ليست بالشريفة جداً . وفاجأته بالاعتراف بأنها تحبه ، ولكنها قاومت إلحافه طويلا ، وناشدته ألا يحملها على خيانة هنرييتا والملكة ، ولكن ما وافى شهر أغسطس ١٦٦١ حتى كانت قد غدت خليلته ، لقد كان كل شىء يبدو حسنا مادام يرضى مشيئة الملك .

ثم وقع الملك بدوره فى غرامها ، فما كان يستشعر السعادة كما يستشعرها مع هذا الفرخ الخجول ، وخرجا فى نزهات خلوية كالأطفال ، ورقصا فى المراقص ، وطفرا مرحا فى حفلات الباليه ، وكانت إذا خرجت إلى جواره فى الصيد تنسى ما فى طبعها من إحجام وتردد ، وتركب فى تهور واندفاع « فيعجز حتى الرجال عن اللحاق بها »(١٠٨) على حد قول الدوق دانجيان . على أنها لم تستغل انتصارها ، فأبت قبول الهدايا أو الاشتراك فى الدسائس ، وظلت متواضعة رغم زناها ، وكانت تخجل من وضعها ، وقد تعذبت حين

قدمها الملك إلى الملكة ، وولدت له عدة أطفال ، مات اثنان منهم فى تاريخ مبكر ، أما الطفلان الثالث والرابع ، اللذان تقررت شرعيتهما بمرسوم ملكى ، فقد أصبحا الكونت دفيرماندوا ، والمدموازيل دبلوا الرائعة الجمال . وخلال أزمات الولادة هذه كانت ترى وجوهاً أجمل من وجهها تجتذب الملك ، ولم تحل سنة ١٦٦٧ حتى تعلق قلبه بمدام دمونتسبان ، وبدأت لويز تفكر فى التكفير عن آثامها بقضاء ما بقى من عمرها فى دير للراهبات .

وآنس لويس هذا الميل فيها ، فبذل لها الكثير من علامات حبه الباقى ، وفكر فى الحفاظ عليها فى دنياه بخلع لقب الدوقية عليها ، ولكنه بين اشتغاله بحب مونتسبان ، واستغراقه فى الحرب ، قل شيئاً فشيئاً ما منحها من وقته ، أما هى فلم تأبه فى البلاط بإنسان غيره . وفى ١٦٧١ تخلت عن ثروتها ، وارتدت أبسط ما وجدت من ثياب ، وتسللت من القصر صباح يوم من أيام الشتاء ، وهربت إلى دير القديسة مارى — د — شايو ، وأرسل لويس من يبحث عنها مؤكداً حبه وعذابه ، وإذ كانت لا تزال عذراء غريرة بعقلها ، فقد ارتضت أن تعود إلى البلاط . وظلت هناك ثلاث سنين أخرى ، ممزقة بين حبها للملك وشوقها للتطهر والسلام الدينيين ، وكانت تمارس فى القصر تقشف الحياة الديرية ، وأخيراً أقنعت الملك بأن يفرج عنها ، ودخلت ديراً للراهبات الكرمليات الحافيات فى شارع دانفير (١٦٧٤) ، وتسمت الأخت لويز دلا ميزيريكورد ، وعاشت هناك فى توبة الزهاد ما بقى لها من عمر طوال ستة وثلاثين عاماً ، قالت : « إن نفسى شديدة القناعة ، بالغة السكينة ، لأننى أعبد جود الإله » (١٠٩) .

أما خليفتها فى الحظوة لدى الملك فلا تظفر من الناس بمثل هذا الغفران العام . فقد قدمت فرنسواز أتيناييس روشوار البلاط فى ١٦٦١ ، وخدمت للملكة وصيفة شرف ، وتزوجت المركيز دمونتسبان (١٦٦٣) . ويزعم

فولتير أنها إحدى ثلاث كن أجمل نساء فرنسا ،أما الأخريان فاختاها(١١٠).
وكان لها غدائر مجعدة شقراء مرصعة باللآلىء ، وعينان أبيتان ناعستان ،
وشفتان شهوانيتان ، وثغر ضاحك ، ويدان ملاطفتان ، وبشرة فى لون
الزنبق ونسيجه — كذلك وصفها معاصروها وهم مبهورون ، وكذلك
صورها هنرى جاسكار فى لوحة مشهورة . وكانت تقية ، تحفظ أيام الصوم
دون تهاون ، وتختلف إلى الكنيسة فى تعبد وتكرار ، لها طبع حاد وذكاء
بتار ، ولكن هذا كان أول الأمر من قبيل التحدى .

روى عنها ميشليه قولها إنها قدمت باريس مصممة علـى اقتناص
الملك(١١١) . ولكن سان ـ سيمون يذكر أنها حين رأت أنها أخذت تزيد
من سرعة نبض الملك رجت زوجها فى أن يعود بها فورا إلى بواتو (١١٢) .
ولكنه أبى ، واثقا من سلطانه عليها ، متعلقاً بعبير البلاط . وذات ليلة فى
كومبيين ، ذهبت لتنام فى حجرة مخصصة عادة للملك . وحاول برهة أن ينام
فى حجرة مجاورة ، ولكنه وجدفى هذا مشقة ، وأخيراً استولى على حجرته
وعليها (١٦٦٧) . أما المركيز فحين بلغه الأمر لبس ثوب الترمل ، وجلل
مركبته بالسواد ، وزين أركانها بالقرون . وكتب لويس بيده وثيقة الطلاق
بين المركيز والمركيزة ، وأرسل إليه ١٠٠٫٠٠٠ ايكو ، وأمره بالرحيل عن
باريس ، وابتسم البلاط الذى تجرد تماما من الخلق الكريم .

وظلت مدام دمونتسبان حظية للملك سبعة عشر عاما . وقد أعطت
لويس مالم تستطعه لاقاليير ـ أعطته الحديث الذكى والحيوية المثيرة .وكانت
تفاخر بأنها هى وتبلد الحس لا يمكن أن يجتمعا فى مكان واحد وزمان
واحد ، وهو قول صحيح . وقد أنجبت للملك ستة أطفال — أحبهم
وشكر لماصنيعها ،ولكنه لم يستطع أن يقاوم إغراء النوم من حين إلى حين
مع مدام دسوبيز أو مع الآنسة الشابة دسكوراى دروسيل ، التى خلع عليها
لقب دوقة فونتانج . وقد حدث هذه الانحرافات بمدام دمونتسبان إلى

التماس نصيحة المشعوذات فى أمر الأشربة السحرية أو غيرها من الوسائل للاحتفاظ بحب الملك ، ولـكن القصة التى زعمت أنها دبرت تسميمه أو تسميم غريماتها هى فى أغلب الظن أسطورة روجها أعداؤها (١١٣) .

وقد جنى عليها أطفالها . ذلك أنها احتاجت إلى شخص يرعاهم ، وزكى لها بعضهم مدام سكارون ، فاستخدمتها ، ولاحظ لويس حسن المربية وهو يختلف لرؤيه أطفاله . أما مدام سكارون هذه ، واسمها قبل الزواج فرنسواز دوبينيه ، فـكانت حفيدة تيودور أجريبا دوبينيه ، المساعد الهيجونوتى لهنرى الرابع ، وقد ولدت بسجن بنيور فى بواتو ، حيث كان أبوها يقضى فترة من فترات سجنه الـكثيرة عقاباً له عـــلى جرائم مختلفة ، وعمدت كاثوليكية ، وربيت بين الفوضى والفقر المخيمين على أسرة منقسمة . وعطف عليها بعض البروتستنت وأطعموها وثبتوها فى العقيدة البروتستنتية تثبيتا جعلها تولى ظهرها للمذبح الـكاثوليكى . فلما بلغت التاسعة أخذها أبواها إلى المارتنيك حيث أشرفت على الموت لصرامة التأديب الذى أدبته به أمها . ومات الأب بعد عام (١٦٤٥) ، فعادت الأرملة وأطفالها الثلاثة إلى فرنسا . وفى ١٦٤٩ أودعت فرنسواز ديرا للراهبات بعد أن عادت إلى الـكاثوليكية ، وكانت تناهزت الرابعة عشرة آنئذ ، وتـكسب قوتها بأداء الأعمال الحقيرة . ولعلنا ما كنا لنسمع بها قط لولا أنها تزوجت بول سكارون .

وأما بول هذا فـكان كاتبا مشهوراً ، وظريفاً لامعا ، مشلولا شللا كاد يكون تاما ، مشوها تشويها بشعا . وإذ كان ابنا لمحام نابه ، فقد توقع النجاح فى حياته العملية ، ولـكن أباه الأرمل تزوج ثانية ، ونبذت الزوجة الجديدة بول ، فلم يظفر من أبيه إلا بمعاش ضئيل لا يكفيه إلا للترفيه ليلة عن ماريون ديلورم وغيرها من النبيلات . ثم أصيب بالزهرى ، وأسلم نفسه لأحد الدجالين ، وتعاطى العقاقير القوية التى أتلفت جهازه العصبى . وأخيرا اشتد به الشلل حتى كاد يعجزه إلا عن تحريك يديه . وقد وصف نفسه فى هذه

العبارات : « سأصف لك نفسي أيها القارئ على قدر استطاعتي . لقد كان جسمي حسن التكوين رغم قصر قامتي . ولكن العلة قصرتني بقدم كامل . ورأسي أكبر قليلا مما يناسب جسمي . ووجهي ممتلئ ، أما جسدي فهيكل عظمي . وبصري لا بأس به ، ولكن عيني بارزتان ، وإحداهما منخفضة عن الأخرى . وقد كونت ساقاي وفخذاي أول الأمر زاوية منفرجة ، ثم قائمة ، وأخيرا حادة ، وتكون فخذاي وجسمي زاوية حادة أخرى ، وانحناء رأسي فوق معدتي يجعلني أقرب إلى حرف Z . وقد انكمش ذراعاي كما انكمش ساقاي ، وكذلك فعلت أصابعي . جملة القول أنني خلاصة التعاسة البشرية(١٤٤) » .

وقد نمزي عن تعاسته تلك بتأليفه « رواية مضحكة » من منشرد (١٦٤٩) لقيت نجاحا كبيرا ، وبعرضه هزليات ساخرة صاخبة الفكاهة ، فاضحة النكتة . وأكرمته باريس لأنه احتفظ بمرحه وسط آلامه ، وأجرى عليه مازاران وآن النمساوية معاشين فقد الحق فيهما لتأييده للفروند . كسب كثيرا ، وأنفق أكثر ، وتورط غير مرة في الدين . وكان — وهو مسنود داخل صندوق يطل منه رأسه وذراعاه — يرأس في حيوية وعلم غزير صالونا من أشهر صالونات باريس . فلما تكاثرت ديونه ، كان يتقاضى ضيوفه ثمن طعامهم ، ومع ذلك كانوا يأتون .

ترى من يتزوج رجلا كهذا ؟ في سنة ١٦٥٢ ، كانت فرنسواز دوبينيه التي بلغت السادسة عشرة من عمرها تعيش مع قريبة بخيلة ضنت بالإنفاق عليها حتى لقد اعتزمت أن ترد فرنسواز إلى أحد أديار الراهبات . وقدم صديق هذه الفتاة إلى سكارون ، فاستقبلها في كرم مؤلم ، وعرض أن يدفع نفقات طعامها وسكناها في الدير ، لكي يعفيها من نذر الرهبنة ، ولكنها أبت . وأخيراً عرض أن يتزوجها ، وأوضح لها بجلاء أنه لا يستطيع أن يطالبها بحقوق الزوج . فقبلته ، وخدمته ممرضة وسكرتيرة ، وقامت بدور للضيفة

فى صالونه ، وتظاهرت بأنها لا تسمع توريات الضيوف . وكان ذكاؤها يدهشهم حين تشترك فى الحديث . وقد خلعت على اجتماعات سكارون درجة من الاحترام كفت لجذب الآنسة دسكودرى ، ومدام دسفينيه بين آن وآخر ، وكان من زوار الصالون قبل ذلك نينون ، وجرامون ، وسانت — إفرمون . وفى رسائل نينون الماع إلى أن مدام سكارون لطفت من عذاب هذا الزواج البرىء من الجنس بعلاقة غرام ، ولـكن نينون ذكرت أيضاً أنها « كانت فاضلة لضعف عقلها . لقد أردت شفاءها ،ولـكنها كانت تخاف الله أكثر مما يجب(١١٥) » وكان وفاؤها لسكارون حديث باريس ، المتعطشة دون وعى منها لأمثلة السلوك الـكريم . ولما اشتد عليه شلله تيبست حتى أصابعه وامتنعت حركتها ، فعجز عن أن يقلب صفحة أو يمسك قلما . فـكانت تقرأ له ، وتـكتب مايمليه عليها ، وتقوم على كل حاجاته . وقبل أن يموت (١٦٦٠) كتب قبريته التى قال فيها :

« إن الراقد الآن هنا قد أثار من الشفقة أكثر مما أثار من الحسد ، وعانى ألف مرة عذاب الموت قبل أن يفقد الحياة . فيا أيها العابر لا تحدث ضجيجاً ، وإياك إياك أن توقظه ، فهذه أول ليلة ينام فيها سكارون المسكين » .

ولم يخلف لزوجته غير الدائنين . وألقيت « الأرملة سكارون » فى خضم الفقر مرة أخرى وهى بعد شابه فى الخامسة والعشرين . والتمست من الملـكة الأم أن تجدد معاشها الذى ألغى ، فرتبت لهـــا آنى ألف جنيه فى العام . واتخذت فرانسواز حجرة فى دير ، وتواضعت فى عيشها وملبسها ، وارتضت القيام بشتى المهام الصغيرة فى البيوت الميسورة(١١٧) . وفى ١٦٦٧ أرسلت إليها مدام دمونتسبان وهى على وشك الوضع رسولا يطلب إليها أن تتلقى الوليد المنتظر وتربيه . ورفضت فرنسواز ، ولـكنها قبلت حين أيد لويس الطلب . وظلت سنوات عديدة بعد ذلك تتلقى أطفال الملك وهم يخرجون إلى النور .

وتعلمت أن تحبهم ، وكانوا يرون فيها أما لهم ؛ أما الملك الذى ضحك منها أول الأمر لفرط احتشامها ، فقد انتهى إلى الإعجاب بها ، وأثر فيه مابدا من حزنها حين مات أحد الأطفال رغم حدبها للتصل عليه . وقال إنها تعرف كيف تحب ، وإنها لمتعة أن يكون إنسان موضع حبها(١١٨) » . وفى ١٦٧٣ قررت شرعية الأطفال ، ولم يعد فرضا على مدام سكارون أن تتستر ، فقبلت فى البلاط وصيفة لمدام دمونتسبان . ووهبها الملك ٢٠٠,٠٠٠ جنيه دعما لمركزها الجديد . فاشترت بالمال ضيعة فى مانتنون قرب شارتر . ولم تعش فيها قط ، ولكن الضيعة أعطتها لقبا جديدا ، وهو المركيزة دمانتنون .

وكانت طفرة عنيفة لمن كانت تشكو الإملاق منذ عهد قريب جداً ، ولعلها أدارت رأسها حينا . وآلت على نفسها أن تنصح مدام دمونتسبان بأن تكف عن حياة الإثم التى تحياها . وساءت النصيحة مونتسبان ، وظنت أن مانتنون تكيد لها للحلول محلها ، والحق أن لويس كان آنئذ ، فى ١٦٥٧ ، قد أخذ يضيق بغضبات مونتسبان ، ويجد لذة فى التحدث إلى المركيزة الجديدة ولعل الأسقف بوسويه ، بالتواطؤ مع الملك ، أنذره بأنه سيحرم من تناول قربان القيامة مالم يطرد محظيته . فأمرها بأن تبرح القصر ، ففعلت ، وتناول لويس القربان ، وتعفف حينا واستحسنت مدام دمانتنون مسلكه ، دون أن يكون لها قصد أنانى فيما يبدو(١١٩) ، لأنها رحلت بعد قليل مع صبى عليل (من أبناء مونتسبان) هو الدوق دمين تلتمس له الشفاء فى حمامات باريج الكبريتية باقليم البرانس . وانطلق لويس إلى حروبه ، ثم عاد وقد اشتد به الجوع ، وضرب بإنذار بوسويه عرض الحائط ، ودعا مونتسبان لتعود إلى جناحها فى فرساى . وهناك ارتمى بين ذراعيها المشتاقتين ، فحبلت ثانية .

أما مانتنون فقد رحب بها الملك ومحظيته عند عودتها من البرانس مع الدوق الذى شفى مما ألم به ، ولكن راعها أن تراه غارقا فى عدة علاقات

آثمة فى وقت واحد . وفى ١٦٧٩ اختتم آثامه مع مونتسبان بتعيينها مشرفة على بيت المللكة — وكانت تلك أحدى القطاظات الكثيرة التى جرح بها شعور مارى تريز . وثارت مونتسبان وبكت ، ولكنه عزاها بالهبات السخية . وبعد عام تسلمت مانتنون وظيفة مماثلة — هى الوصيفة لمخدع زوجة ابنه البكر (الدوفينه) ، وكان الوحيد الباقى على قيد الحياة من أبنائه الشرعيين . وكثر تردد الملك الآن على الدوفينة للتحدث إلى مانتنون . وما من شك فى أنه أراد أن يجعل الركيزة خليلة له ، وأنها ردته عن نفسها — لا بل إنها ناشدته أن يكف عن جنوحه ويعود تائباً إلى الملكة(١٢٠) . فأذعن لها ولبوسويه ، وفى ١٦٨١ ، وبعد عشرين عاما من مغازلة النساء ، أصبح زوجاً مثالياً . أما الملكة التى وطنت نفسها منذ أمد بعيد على تقبل خياناته ، بل على تقبل خليلاته ، فقد حظيت برضاء الملك ولكن لعامين فقط ، لأنها ماتت عام ١٦٨٣ .

وظن لويس أن مانتنون سترضى الآن بأن تكون خليلته ، ولكنها قابلته بصد لبق ، فهو الزواج وإلا فلا(١٢١) . وفى تاريخ لا يعرف على التحديد ، ولكنه على الأرجح فى ١٦٨٤ ، تزوجها ، وكان فى السابعة والأربعين ، وهى فى الخمسين . وكان ارتباطا غير متكافئ ، لا يصيب الطرف الأدنى فيه أى رتبة جديدة ولا حقوق وراثية . ولقى مستشارو الملك عنتا فى ثنيه عن إعطاء زوجه الحقوق الكاملة وتتويجها ملكة ، وذكروا له ما سيكون من تذمر الأسرة المالكة والحاشية إذا وجدوا أنهم ينحنون احتراماً لمربية . وعليه لم يعلن نبأ الزواج ، وهناك من يظنون أن الزواج لم يتم قط . أما سان — سيمون ، المتشبث أبدا بالنظام الطبقى ، فرأى أنه زواج مخيف(١٢٢) ، ولكنه كان خير رباط وأسعده للملك ، والوحيد الذى رعى عهوده فيما يبدو . ولقد اقتضاه نصف قرن تقريباً أن يكتشف أن فى حب المرأة لزوجها ما يكفيه عن غيرها من النساء .

٨ ـ الملك يمضى إلى الحرب

كانت انتصارات ريشليوه ومازاران قد خلفت فرنسا أقوى دولة فى أوربا . فالأمبراطورية أوهنها ما أصاب ألمانيا من إعياء وانقسام فضلا عن الخطر المتجدد عليها من العثمانيين . وأسبانيا أضعفها نضوب ذهبها ورجالها فى ثمانين عاما من الحرب العقيم التى خاضتها فى الأراضى المنخفضة . وانجلترة، بعد ١٦٦٠ ، ربطتها بعجلة فرنسا المعونات السرية لملكها. كذلك كانت فرنسا فيما مضى بلداً منقسما أصابه الضعف ، ولكن ما أتت سنة ١٦٦٧ حتى كانت جراح الفروند قد برئت ، وغدت فرنسا أمة موحدة . وقام أثناء ذلك رجال أفذاذ اضطلعوا باعادة بناء الجيوش الفرنسية ، كلوفوا ، عبقرى التنظيم والضبط العسكريين ، وفوبان عبقرى التحصين وحرب الخنادق والحصار ، وكالقائدين للغوارين كونديه وتورين . وبدا للملك الشاب الذى يتملقه رجاله أن قد آن الأوان لتبلغ فرنسا حدودها الجغرافية الطبيعية — وهى الراين ، والألب ، والبرانس ، والبحر .

فليبدأ بالراين إذن . لقد كان الهولنديون يتسلطون عليه ، فلا بد إذن من إخضاعهم ، ثم ردهم بعد قليـــل إلى العقيدة التى كانت حليفا للملوك طوال ألف عام . فإذا بسطت فرنسا سلطانها على مصاب النهر العظيم الكثيرة دانت لها كل أرض الراين ، وبسطت سلطانها على نصف التجارة الألمانية . ولكن الأراضى المنخفضة الأسبانية (بلجيكا) تقف عقبة فى الطريق ، فلا بد إذن من فتحها . وكان فيليب الرابع عند موته فى ١٦٦٥ قد خلف الأراضى المنخفضة الأسبانية لشارل الثانى ، ولده من زواجه الثانى . ورأى لويس ثغرة دبلوماسية ينفذ منها إلى هدفه . فاستند إلى عرف قديم أخذت به أينو وبرابانت ، يقضى بتفضيل أبناء الزوجة الأولى فى الميراث على أبناء الثانية . وكانت زوجة لويس بنت فيليب الرابع من زوجته الأولى ، وبمقتضى حق الأيلولة أو الوراثة هذا — Ius devolutionis — ترث مارى تريز الأراضى

المنخفضة الأسبانية . صحيح ان ماری نزلت عند زواجها عن حقها فى الوراثة ، ولكن هذا التخلى كان مشروطاً بأداء أسبانيا صداقها لفرنسا ، وهو ٥٠٠,٠٠٠ كراون ذهبى(١٢٣) . وهذا الصداق لم يؤد ، إذن . . . ورفضت أسبانيا هذا القياس المنطقى ، وعلى ذلك أعلن لويس حرب الأيلولة (الوراثة الأسبانية) . فلنترك مذكرات الملك لاعب الشطرنج هذا يميط اللثام عن دوافعه :

« لقد أتاح لى موت ملك أسبانيا وحرب الأنجليز مع الهولنديين (١٦٦٥) فى وقت واحد فرصتين هامتين لخوض الحرب : محاربة أسبانيا سعياً وراء حقوق آلت الى ، ومحاربة انجلترة دفاعاً عن الهولنديين . . . وسرنى أن أرى فى خطة هاتين الحربين ميداناً فسيحاً قد يتيح لى فرصاً عظيمة للتفوق . وكان الكثيرون من الرجال البوأسل ، الذين آنست فيهم التفانى فى خدمتى ، يتوسلون إلى على الدوام أن أهيىء لهم الفرصة لإظهار بسالتهم . . . يضاف إلى هـذا أننى مادمت مضطرا على أية حال للاحتفاظ بجيش كبير ، فإنه انفع لى ان القى به فى الأراضى المنخفضة من أن أطعمه على حسابى . . وتحت ستار الحرب مع إنجلترة أستطيع ترتيب قواتى وهيئة مخابراتى (أى جهاز الجاسوسية) لأبدأ مغامرتى فى هولندة بنجاح أعظم (١٢٤) » .

تلك هى النظرة الملكية إلى الحرب ، فقد تجعل الحرب بلد الملك أعظم مساحة أو أكثر أمنا أو أوفر دخلا ، وقد تفتح طرق الشهرة والمنعة ، وقد تتيح منصرفات للغرائز المتصارعة ، وقد تيسر للجيش الغالى النفقة أن يطعم على غذاء بلد أجنبى ، وقد تحسن موقف الدولة فى الحرب القادمة . أما عن أرواح البشر التى ستحصدها الحرب ، فإن الناس لابد أن يموتوا على أية حال وما أسخف أن يموت الرجل حتف أنفه ، ويقضى بعلة بطيئة طويلة ، وأى ميتة أفضل للرجال من الموت فى خدار المعركة على ساحة المجد ، وفى سبيل الوطن ؟

وعليه ففى ٢٤ مايو ١٦٦٧ عبرت الجيوش الفرنسية إلى الأراضى المنخفضة الأسبانية . فلم تصادف مقاومة فعالة ، وكان عـدد الفرنسيين ٥٥,٠٠٠

مقاتل ، والأسبان ٨٠٠٠٠ وما لبث الملك أن دخل شارلروا ، وتورنيه ، وكورتريه ، ودويه ، وليل ، وكأنه يدخلها فى موكب نصر ؛ وحصن فوبان المدن المفتوحة ، أما لوفوا فقد جهز المؤن فى كل خطوة ؛ حتى الصحاف الفضية للضباط فى معسكراتهم أو خنادقهم . وضمت إلى فرنسا أرتوا ، وإينو ، وفلاندر الولونية ، واستغاثت أسبانيا بالامبراطور ليوبولد الأول ، فعرض لويس على ليوبولد قسمة الامبراطورية الأسبانية فيما بينهما ، ووافق ليوبولد ، فأمسك أى معونة عن أسبانيا . وبلغ من سهولة فتح فلاندر أن لويس هرع للاستيلاء على فرانش — كونتيه أيضاً ، وهو الإقليم الواقع حول بزانسون ، بين برجندية وسويسرا . وكان ولاية تتبع أسبانيا ، ولكنه شوكة فى جنب فرنسا . وفى فبراير ١٦٦٨ هبط جيش فرنسى عدته عشرون ألف مقاتل على فرانش — كونتيه بقيادة كونديه ، وحالفه النصر فى كل مكان ، لأن الرشا الفرنسية كانت قد ألانت القواد المحليين . وقاد لويس بنفسه حصار دول ، فسقطت بعد أربعة أيام . ولم تنقض ثلاثة أسابيع حتى استسلمت فرانش - كونتيه كلها . فقفل إلى باريس مكللا بالغار .

ولكنه كان قد أفسد على نفسه الأمر بتجاوزه الحـــدود ، ذلك أن « الأقاليم المتحدة » أقنعت السويد وانجلترة بالانضمام إليها فى حلف ثلاثى ضـد فرنسا (يوليو ١٦٦٨) وتبينت الدول الثلاث أن حريتها السياسية أو التجارية ستذوى إذا امتد سلطان فرنسا إلى الراين . ورأى لويس أنه تعجل السير إلى هدفه ؛ ذلك أن الاتفاق السرى الذى أبرمه مع ليوبولد كان ينص على أن تؤول إلى فرنسا كل الأراضى المنخفضة وفرانش — كونتيه عند موت شارل الثانى ملك أسبانيا ، وبدا أنه لن ينقضى عام أو نحوه حتى يموت شارل العليل ، فلعله كان خـيراً لفرنسا أن تتريث حتى تقع الثمرة فى حجرها بهدوء . وعرض لويس شروط الصلح على الحلف وأقنع دبلوماسيوه المحنـكون انجلترة والسويد ، فأنهيت حرب الوراثة الأسبانية بمقتضى معاهدة إكس — لا — شابل (٢ مايو ١٦٦٨) وردت فرنسا فرانش — كونتيه إلى أسبانيا ، ولـكنها احتفظت بشارلروا ، ودويه ، وتورنيه ،

وأودينارد ، وليل ، وآرمانتيير ، وكورتريه . وهكذا استبقى لويس لنفسه نصف الغنيمة .

ولكنه فى ١٦٧٢ عاود زحفه على الراين ، وتكشف الآن هدفه الحقيقى — وهو هولندة لا فلاندر . وسنلقى بنظرة على هذه المأساة فى فصل لاحق من زاوية الهولنديين ، وحسبنا القول بأن الهجوم كاد يصل إلى أمستردام ولا هاى قبل أن يقفه فتح سدود البحر . ولكن أوربا ثارت مرة أخرى على هذا التهديد الجديد لتوازن القوى . ففى أكتوبر ١٦٧٢ انضم الامبراطور ليوبولد إلى الأقاليم المتحدة وبراندنبورج فى « حلف عظيم » ، وانضمت إليه أسبانيا واللورين فى ١٦٧٣ ، ثم الدنمرك والبالاتينات ودوقية برنزويك — لونيبورج فى ١٦٧٤ ؛ وفى ذلك العام أكره البرلمان الانجليزى ملكه الموالى لفرنسا على إبرام الصلح مع الهولنديين .

وواجه لويس ببسالة هذا الانتقام الذى عوقبت به كبرياؤه . فجبى المزيد من الضرائب برغم شكاوى كولبير من أنه يفقر بذلك فرنسا ، وبنى أسطولا ، وزاد جيوشه إلى ١٨٠،٠٠٠ مقاتل . وفى يونيو ١٦٧٤ وجه قوة منها لمحاصرة بيزانسون ثانية ، وما مضت ستة أسابيع حتى فتحت فرانش — كونتيه من جديد . وخلال ذلك قاد تورين فى حملة من أروع حملاته وأقساها عشرين ألفاً من جنوده إلى النصر على سبعين ألفاً من جنود الامبراطورية . ودمر البالاتينات واللورين وجزءاً من الإلزاس ليحول بين العدو وبين إطعام جنده ، وتكرر على طوال الراين ذلك الخراب الذى أحدثته من قبل حرب الثلاثين . وفى ٢٧ يوليو قتل تورين وهو يستطلع الأرض قرب سولزباخ فى بادن ، ودفن بأمر لويس فى كنيسة سان — دنى باحتفال أشبه بالاحتفال بدفن الملوك ، وهو عليم بأن تلك الميتة الواحدة تعدل عشر هزائم . وحل « كونديه العظيم » محل تورين بعد ما حقق من انتصارات دامية فى الأراضى المنخفضة ، فطرد جيوش الامبراطورية من الالزاس ، ثم اعتكف ذلك « الأمير » بعد أن دوخته سنون من الشهوات والحرب ، مؤثراً حياة الفلسفة

والحكم فى شانتى . واضطلع لويس الآن بالحملة فى الأراضى المنخفضة ، فحاصر فالنسيين ، وكامبرى ، وسانتومير ، وغنت ، وإيبر ، واستولى عليها كلها (١٦٧٧ — ٧٨) . وهللت فرنسا لملكها قائداً مظفراً .

ولكن العبء الذى أثقل به كاهل شعبه لم يعد محتملا . فنشبت الثورات فى بوردو وبرتنى ، وكان الفلاحون فى جنوب فرنسا يتضورون جوعاً ، والشعب فى الدوفينيه يقتات على الخبز المصنوع من ثمر البلوط والجذور(١٢٥) فلما عرض الهولنديون على لويس الصلح وقع معهم معاهدة (١١ أغسطس ١٦٧٨) ردت بمقتضاها للأقاليم المتحدة جميع الأراضى التى استولت عليها فرنسا منها ، وخفضت الرسوم التى أقصت المنتجات الهولندية عن فرنسا . وقد عوض عن هذه التنازلات بإلزام أسبانيا ، التى تفككت الآن أوصالها ، بأن تتخلى له عن فرانش — كونتيه ، واثنتى عشرة مدينة دفعت بحدود فرنسا الشمالية الشرقية إلى داخل الأراضى المنخفضة الأسبانية . واحتفظت فرنسا بمقتضى معاهدة مع الامبراطور بمدينتين استراتيجيتين هما برايزاخ وفرايبورج — ايم — برايسجاو ، وبقيت الالزاس واللورين فى قبضتها . وكانت هاتان المعاهدتان — نيميجن (١٦٧٨ — ٧٩) وسان — جرمان — آن — ليه (١٦٧٩) نصراً للأقاليم المتحدة ، ولكنهما لم تكونا هزيمة للويس ، فلقد فاز على الامبراطورية وأسبانيا ، ووصل فى أماكن — هنا وهناك — إلى الراين الذى طالما اشتهى الوصول إليه .

على أنه احتفظ بجيشه الضخم رغم هذا الصلح ، موقناً أن الجيش القائم قوة تعزز الدبلوماسية . واستناداً إلى تلك القوة من ورائه ، واستغلالا مخزياً لانصراف الامبراطور إلى قتال العثمانيين الزاحفين ، أنشأ فى الالزاس ، وفرانش — كونتيه ، وبرايسجاو « غرفاً لإعادة الاتحاد » ، تطالب ببعض مناطق الحدود التى كانت تمتلكها فيما مضى ، واحتل الجنود الفرنسيون هـــذه المناطق ، وأغريت مدينة ستراسبورج العظيمة ، التى لين موظفيها إغداق الرشا عليهم ، بأن تعترف بلويس ملكا عليها (١٦٨١) . وفى نفس

العام ، وبوسائل مماثلة ، أغرى دوق ميلانو بأن ينزل لفرنسا عن مدينة كازالى وحصنها ، وكانت تتحكم فى الطريق بين سافوا وميلانو (*) . فلما تلكأت أسبانيا فى تسليم مدن الأراضى المنخفضة ، أرسل لويس جيوشه من جديد إلى فلاندر ويرابانت ، وتغلب على المقاومة بقذفه البلاد بالمدافع دون تمييز ، وابتلع فى طريقه دوقية لكسمبورج (يونيو ١٦٨٤) . واعترفت أسبانيا والامبراطور مؤقتاً بهذه الفتوح بمقتضى هدنة ريجنسبورج (١٥ أغسطس) ، لأن العثمانيين كانوا يحاصرون فيينا آنئذ . وبفضل تحالفه مع ناخب كولونيا مد لويس فى الواقع سلطته إلى الراين . فيتحقق بهذا جزء من طموح فرنسا للوصول إلى حدودها الطبيعية .

ذلك كان الأوج الذى بلغه « الملك الشمس » فلم يحدث أن ظفرت فرنسا بمثل هذا الاتساع فى الرقعة ولا بمثل هذه السطوة منذ عهد شارلمان . وأقيمت المهرجانات الضخمة الغالية احتفالا بانتصارات الملك . ولقبه مجلس باريس رسمياً بلويس المظيم . (١٦٨٠) ورسمه لبرون فى صورة إله على أقبية فرساى ، وزعم لاهوتى أن انتصارات لويس أثبتت وجود الله (١٢٧) . أما جماهير الشعب فقد مجدت حاكمها وسط فقرها المدقع ، وتاهت فخراً بعظمته الواضحة ، وأطراه حتى الأجانب ، لأنهم رأوا فى حملاته شيئاً من المنطق الجغرافى ، وحياه الفيلسوف لايبنتز « ذلك الأمير العظيم الذى هو مفخرة زماننا غير منازع ، والذى ستتوق الأجيال القادمة إلى نظيره عبثاً (١٢٨) » ، وإلى الشمال من جبال الألب والبراس ، وإلى الغرب من الفستولا ، بدأت كل أوربا المثقفة تتحدث بلغته وتقلد بلاطه وفنونه وأساليبه . لقد بلغت الشمس الأوج .

(*) لعل « الرجل ذا القناع الحديدى » هو الكونت ماتيولى الذى باع لأسبانيا (١٦٢٩) سر المفاوضات بين لويس ودوق ميلانو . وقد تكهن البعض بأنه هو ذاته ماركيولى ، السجين الغامض الذى أخفى وجهه خلف قناع من المخمل (لا الحديد) ، والذى مات فى الباستيل فى ١٧٠٣ (١٢٦)

الفصل الثانى

بوتقة الإيمان

١٦٤٣ — ١٧١٥

١ — الملك والكنيسة

ينزع المؤرخ — كما ينزع الصحفى — إلى فقدان الخلفية العادية للعصر وسط الواجهة المثيرة للصورة التى يرسمها ، لأنه يعلم أن قراءه سيستطيبون الشاذ ويحبون تجسيد العمليات والأحداث . ولكن وراء حكام فرنسا ، ووزرائها ، وحاشيتها ، وحظياتها ، ومقاتليها ، كان هناك رجال ونساء يتنافسون على الرزق والرفقاء ، يزجرون أبناءهم ويحبونهم ، يأثمون ويعترفون بإثمهم ، يلهون ويتشاجرون ، يذهبون إلى أعمالهم متثاقلين وإلى المواخير متسترين ، وإلى الصلاة متواضعين متذللين. وكان طلب الخلاص الأبدى يقطع بين الحين والحين كفاح البقاء اليومى ، والحلم بالجنة ينتعش كلما ذبلت شهوة الحياة ، وصحن الكنيسة الظليل يريح هنيهة من وطيس الصراع . وكانت أساطير المعجزات شعر الجماهير ، والقداس مسرحية خلاصهم المعزية ، وسمت الرسالة التى يحملها الكاهن بقلوب الفقراء المهزومين ولو كان هو ذاته رجلا دنيويا جشعا . وظلت الكنيسة المنافس للدولة ركيزة للمجتمع والسلطة ، لأنه بالرجاء أذعن الناس فى صبر للعمل الشاق ، والقانون ، والحرب .

وعرف كبار الأكليروس الكاثوليك أهميتهم فى معجزة النظام، وشاركوا النبلاء والملك موارد الأمه وبهاء البلاط . وخالط الأساقفة ورؤساء الأساقفة فى ألفة مهذبة أعلام القوم من طراز كونديه ، ومونبنسييه ،

وسفينييه ، وداعب المثات من الآباء — أنصاف المكرسين ، أنصاف المتزوجين — داعبوا النساء والأفكار . على أنه يمكن القول بوجه عام أن عقلية رجال الأكليروس الكاثوليك وأخلاقهم كانت خيراً مما عهدناه خلال قرون قبل ذلك ، ربما بحافز من منافسة القساوسة الهيجونوت[1] .

لم تكن أديار الراهبات « مراتع الرذيلة » التى صورها جنون خالق الأساطير ، المنبعث من الكراهية للدين . فالكثير منها كان صوامع للورع الصادق ، الزاهد أحياناً ، كدير الكرمليات الذى اعتكفت فيه لويزدلافاليير ، وبعضها الآخر كان ملاذا لشابات الأسر الكريمة اللاتى لم يجد آباؤهن لهن أزواجاً أو مهوراً ، أو اللاتى اقترفن إثما ، أو أسأن إلى حاكم أو ملك . فى أديار كهذه لم ير نزيلاتها حرجا فى استقبال زائر من العالم الخارجى ، أو فى مراقصة بعضهن البعض ، أو فى قراءة الأدب الدنيوى ، أو فى تخفيف سأمهن بلعب البلياردو أو الورق . وبإصلاح دير من هذه جعلت جاكلين آرنو دير البور — رويال أشهر دير فى تاريخ فرنسا .

على أننا لا نستطيع مثل هذا الحديث المترفق عن الطرق الديرية ، فالكثير منها أرخى نظمه ، وعاش حياة التبطل ، والعبادة الصورية ، والالحاف فى التسول . وقد أصلح « أرمان جان درانسيه » دير نوتردام دلاتراب بنورمنديا ، وأسس الطريقة الترابية الصارمة التى مازالت حية فى صمت . ودخل اليسوعيون دخولا أنشط فى حياة فرنسا وتاريخها . كانوا فى بداية القرن السابع عشر موضع توجس وريبة باعتبارهم مدافعين عن قتل الملك ، أما فى نهاية القرن فقد كانوا كهنة اعتراف ومرشدين للملك — ثم أنهم كانوا خبراء فى علم النفس . فحين أسست الراهبة مارجريت مارى ألاكوك بوحى من رؤيا صوفية تراءت لها (١٦٧٥) جمعية منقطمة للعبادة العلنية لـ « قلب يسوع المقدس » ، شجع اليسوعيون الحركة باعتبارها منفذاً وحافزا لتقوى الجماهير . وفى الوقت نفسه يسروا الدين للخطاة إذ سلموا بأن

الخطيئة فى طبيعة البشر ، ووضعوا علم « الإفتاء » سبيلا للتخفيف من عسر الوصايا العشر والتلطيف من عصاب تأنيب الضمير ، وما لبث أن اشتد الطلب عليهم آباء اعتراف للخطاة ، واكتسبوا سلطة «مرشدى الضمائر» ، لاسيما بين النساء اللاتى سدن المجتمع الفرنسى ، واللاتى أثرن أحيانا فى السياسة القومية للبلاد .

ولم يكن لكلمة « الافتاء » فى القرن السابع عشر ذلك المدلول المهين الذى الصقته بها رسائل بسكال الأقليمية . فقد كان يفترض فى كل قسيس ، بوصفه أب اعتراف أو مرشدا روحياً ، أن يعرف بالضبط ما الذى يجب أن يعتبر خطيئة مميتة ، أو خطيئة هينة ، أو لا خطيئة على الأطلاق ، وكان عليه أن يستمد لتطبيق علمه ، والملاءمة بين حكمه ، ونصحه ، والعقوبة الكنسية التى يشير بها ، وبين الحالة الماثلة أمامه (Casus) . وكان معلمو الناموس اليهود قد طوروا هذا الفن ، فى التمييزات الخلقية ، بتفصيل مستفيض فى الأجزاء القانونية من التلمود ، وحذا حذوهم التشريع والطب النفسى العصريان . وقبل أن تنشأ جماعة اليسوعيون بزمن مديد ، وضع اللاهوتيون الكاثوليك الأبحاث الضخمة فى الافتاء لإرشاد الكاهن فى أمر المبدأ الخلقى والتطبيق الاعترافى . ففى أى الحالات مثلا يجوز أن يبدى على حرفية القانون الخلقى روحه أو قصده ؟ ومتى يجوز للإنسان أن يكذب أو يسرق أو يقتل ، أو يحنث بوعد حنثا معقولا ، أو ينتهك يمينا ، أو حتى ينكر العقيدة ؟

وطالب بعض المفتين بتفسير القانون الخلقى تفسيراً صارما ، ورأوا أن الصرامة أجدى فى المدى الطويل من التساهل . ولكن غير هؤلاء — ولا سيما اليسوعيين مولينا ، وإسكوبار ، وتوليدو ، وبوزنباوم — حبذوا دستورا أخلاقيا متسامحا ، وحضوا على ضرورة التماس العذر للطبيعة البشرية ، ومؤثرات البيئة ، والجهل بالقانون ، والمشقة البالغة فى الامتثال الحرفى للقانون ، وعنف سورات العاطفة عنفا شبيها بالجنون ، وسائر الظروف

التى تعطل حرية الإرادة.وتيسيرا لهذه الأخلاقيات الهينة،وضع اليسوعيون مبدأ الترجيح — ومؤداه أنه إذا استحسن حجة معروف فى اللاهوت الخلقى رأيا بعينه ، جاز لكاهن الاعتراف أن يحكم طبقاً لهذا الرأى إذا استصوب ذلك ، ولو عارضته كثرة الخبراء . (وكانت كلمة Probabilis تعنى فى ذلك الوقت المستحسن ، أو الذى يسمح بالاستحسان[٢]) . يضاف إلى هذا ، فى رأى بعض المفتين اليسوعيين ، أنه من المباح أحيانا أن يكذب الإنسان ، أو يمسك عن قول الحق بـ « تحفظ عقلى » ، مثال ذلك أن للمسيحى الأسير ، إذا أكره على الخيار بين الإسلام والموت ، أن يتظاهر بقبول الإسلام دون أن يحسب ذلك خطيئة عليه . ثم إن أخلاقية عمل ما ، فى رأى إسكوبار ، ليست فى الفعل نفسه ، الذى ليس فى ذاته أخلاقيا أولا أخلاقى ، بل فى نية الفاعل الخلقية ، فليس هناك خطيئة مالم يكن هناك خروج واع ، مختار ، عن القانون الخلقى .

والكثير من إفتاء اليسوعيين كان توفيقا معقولا رحيما بين القواعد التى يغلب عليها زهد العصر الوسيط ، وبين مجتمع اكتشف مشروعية اللذة . ولكن اليسوعيين فى فرنسا بصفة خاصة ، وفى إيطاليا بدرجة أقل ، طوروا الافتاء حتى بلغوا به من التسامح مع ضعف الطبيعة البشرية ما حمل رجالا جادين كبسكال فى باريس ، وساربى فى البندقية ، وكثيراً من اللاهوتيين الكاثوليك ، ومنهم عدة يسوعيين[٣] — حمل هؤلاء جميعا على الاحتجاج على ما رأوا فيه استسلاما من المسيحية للخطيئة . وصدم هذا التراخى اليسوعى مع العالم والجسد مشاعر هيجونوت فرنسا الذين ورثوا دستور كالفن الخلقى الصارم . وقامت حركة قوية داخل الكاثوليكية ذاتها — وهى الجانسنية — فرفعت فى دير البور — رويال لواء أخلاقية شبه كالفنية ، فى حرب مناهضة لليسوعيين أهاجت فرنسا والأدب الفرنسى قرنا كاملا . وجرت هذه الحرب لويس الرابع عشر إلى المعركة ، لأن كهنة اعترافه كانوا يسوعيين وتطبيقه للدين لم يكن متزمتا . وفى ١٦٧٤ اضطلع الأب لاشيز بالأشراف

على ضمير الملك ، وقد وصفه فولتير بأنه « رجل هادئ الطبع يسهل عنده التوفيق دائماً . »[٤] وقد شغل المركز اثنين وثلاثين سنة ، غفر خلالها كل شيء وحظى بمحبة كل إنسان . وقد قال لويس عنه « بلغ من طيبته أنني كنت أحياناً ألومه عليها[٥] » . ولكنه بطريقته الهادئة الصابرة كان له تأثير بالغ على الملك ، وأعان على توجيهه إلى الاقتصار على امرأة واحدة آخر المطاف ، وإلى طاعة البابا .

ذلك أن لويس لم يكن دائماً « بابوياً » صادقاً . كان متديناً على طريقته الرسمية ، وندر أن قصر فى حضور القداس اليومى[٦] . قال لولده فى مذكراته :

« . . . واصلت تدريبات التقوى التى نشأتنى عليها أمى ، من جهة لأشكر الله على كل الحظ الطيب الذى نلته ، ومن جهة لأكسب محبة شعبى . . . والحق يابنى أننا لا نفتقر إلى عرفان الجميل والأنصاف فحسب ، بل إلى الحكمة والفطنة أيضاً ، حين نقصر فى عبادته تعالى ، الذى لسنا إلا نواباً له . وما خضوعنا له إلا القاعدة والمثل للخضوع الذى نستحقه[٧] » .

على أن هذا لم يشمل الخضوع للبابوية . ذلك أن لويس ورث التقليد « الغالى » بمقتضى تفويض بورج البرجماتى (١٤٨٣) وكونكوردا فرنسوا الأول (١٥١٦) — ذلك التقليد الذى أقر حق ملوك فرنسا فى تعيين أساقفه فرنسا ورؤساء أديارها ، وتحديد دخولهم ، والتعيين فى جميع الوظائف الكنسية ذات الدخول فى الفترة بين موت الأسقف وتنصيب خلفه . وقد آمن لويس أنه خليفة لله أو ممثله فى فرنسا ، وأن خضوعه للبابا (بوصفه هو أيضاً خليفة لله) يجب أن يقتصر على شئون العقيدة والأخلاق ، وأن على رجال الأكليروس الفرنسيين أن يطيعوا الملك فى كل أمر يتصل بالدولة الفرنسية .

واستنكر فريق من الأكليروس هذه الدعوى — وهم المناصرون للسيادة

البابوية المطلقة — وأيدوا سلطان البابوات المطلق على الملوك والمجامع وتعيين الأساقفة ، ولكن الغالبية — وهم الحزب الغالى — دافعوا عن استقلال الملك الكامل فى الأمور الزمنية ، وأنكروا عصمة البابا إلا إذا وافق عليها مجمع مسكونى ، ورأوا فى الوغان من سيطرة روما منقمة للاكليروس الفرنسى . وصرح أمير كونديه أن من رأيه أنه لو طاب للملك أن يتحول إلى المذهب البروتستنتى لكان رجال الأكليروس الفرنسى أول من يتبعه(٨). وفى ١٦٦٣ أصدرت السوربون — وهى كلية اللاهوت فى جامعة باريس — ست مواد تؤكد الموقف الغالى . واتخذت « البرلمانات » الفرنسية ذات الموقف ، وأيدت لويس فى دعواه بحقه فى أن يقرر أى المراسيم البابوية ينبغى نشره وقبوله فى فرنسا . وفى ١٦٧٨ احتج البابا أنوسنت السادس على هذه النزعة الغالية ، وحرم رئيس أساقفة تولوز لأنه عزل أسقفا قاوم هذه النزعة . ودعا الملك مجمعا من الأكليروس ، كلهم تقريبا من اختياره . وفى مارس ١٦٨٢ أعاد المجمع تأكيد مواد السوربون الست ، ووضع لنفسه المواد الأربع الشهيرة ، التى كادت تفصل الكنيسة الفرنسية عن روما :

١ — للبابا سلطان فى الأمور الروحية ، وليس له سلطان عزل الأمراء أو حل رعاياهم من طاعتهم .

٢ — للمجامع المسكونية سلطان فوق سلطان البابا .

٣ — الحريات التقليدية للكنيسة الفرنسية لا يجوز انتهاكها .

٤ — لا عصمة للبابا إلا بموافقة مجمع الأساقفة .

وأعلن أنوسنت بطلان قرارات المجمع ، ورفض التنصيب القانونى لجميع الأساقفة الجدد الذين وافقوا على المواد . وإذ كان لويس لا يعين إلا أمثال هؤلاء المرشحين ، فقد شغرت فى ١٦٨٨ نحو خمس وثلاثين أسقفية من أساقفتها القانونيين . على أن الشيخوخة ومدام دمانتنون كانا قد الانا جانب الملك ، ثم أراحه الموت من ذلك البابا العنيد . وفى ١٦٩٣ صمح لويس

لمرشحيه إن ينكروا المواد ، وأقر البابا أنوسنت الثانى عشر حق الملك فى التعيينات الأسقفية ، وأصبح لويس من جديد « الملك المسيحى جـــداً » Rex Christianissimus .

٢ – البور – رويال : ١٢٠٤ – ١٦٢٦

كانت الحرب القديمة بين الكنيسة والدولة أهون الدرامات الدينية الثلاث التى اضطرم بها حكم لويس . فقد فاقها عمقا ذلك الصراع الذى احتدم بين الكاثوليكية السنية التى دانت بها الدولة والأكليروس ، وكاثوليكية الجانسنيين والبور — رويال القريبة من البروتستنتية ، وكان أعمق هذه المسرحيات وأشدها فجيعة هو القضاء على الهيجونوت فى فرنسا . ولكن ما هو البور — رويال هذا ، ولم هذا الضجيج الكثير من حوله فى التاريخ الفرنسى ؟ لقد كان ديراً لراهبات الطريقة السسترسية Cistercian على نحو ستة عشر ميلا من باريس وستة أميال من فرساى ، فى مكان وطىء تكتنفه المستنقعات ، وصفته مدام دسفينييه بأنه « واد رهيب ، هو بالضبط المكان الذى يجد فيه الإنسان خلاصة(٩) » . أسس حوالى ١٢٠٤ ، ونجا بشق الانفس من التقلبات الكثيرة التى تعرض لها فى حرب مائة العـــام والحروب الدينية . وقد اضمحل نظامه وتناقصت راهباته ، ولعل الدير كان يختفى عن الانظار لولا أنه خضع لرآسة جاكلين آرنو ، وجرد المدافع عنه قلم بليز بسكال .

لقد صنع أنطوان آرنو الأول (١٥٦٠ — ١٦١٩) التاريخ ببلاغته ووفرة ذريته . ففى ١٥٩٣ ، بعد أن حاول باربير اغتيال هنرى الرابع ، وجه آرنو إلى برلمان باريس خطابا غاضبا طالب فيه بطرد اليسوعيين من فرنسا . ولم يصفحوا عنه بعدها ، وكانوا ينظرون بعين نقادة منذرة بالشر إلى ما تقوم به أسرته فى البور — رويال . وكان لأربعة على الأقل من بين أبنائه — البالغين نيفا وعشرين — دور فى قصة ذلك الدير . فقد عينت جاكلين آرنو

مساعدة لرئيسة دير البور — رويال وهى فى السابعة (١٥٩٨) وبعد عام أصبحت شقيقتها جان ، البالغة ستة أعوام ، رئيسة لدير سان — سير . وكان التعيينان بأمر هنرى الرابع ، وثبتهما مرسومان بابويان أمكن الحصول عليهما بتزييف عمر الفتاتين(١٠) . ولعل أباهما التمس لابنتيه هاتين الوظيفتين بديلا عن العثور على زوجين ومهرين لهما .

فلما أصبحت جاكلين ، بوصفها الأم آنجليك ، رئيسة إسمية البور — رويال (١٦٠٢) لم تجد غير أرخى النظم بين راهباته الثلاث عشرة ، فقد كانت كل منهن تحتفظ بثروتها ، وتكشف شعرها ، وتستعمل مستحضرات التجميل ، وتتبع أحدث الأزياء . وقل أن تناولن الأسرار المقدسة ، ولم يستحممن لأكثر من سبع عظات خلال ثلاثين عاما(١١) . فلما ازداد وعى الرئيسة الشابة بالحياة التى ألزمها إياها أبواها ، سخطت ونوت الهروب (١٦٠٧) . « فكرت فى مغادرة البور — رويال والعودة إلى العالم — دون إحاطة أبى أو أمى بنيتى ، لأهرب من هذا النير الذى لا يطاق ، ولأتزوج » . (١٢) ومرضت ، فحملت إلى بيتها ، وهناك مرضتها أمها بكثير من الرعاية الحانية حتى عادت إلى البور — رويال عقب إبلالها وهى مصممة على الوفاء بنذورها الديرية حبا فى أمها . على أنها أوصت بمشد من عظم الحوت لتحفظ لقوامها نحافته(١٣) . وظلت تخفى نفورها من الحياة الدينية إلى أن سمعت فى عيد القيامة عام ١٦٠٨ عظة ألقاها راهب كبوشى عن آلام المسيح ، وكانت يومها فى ميعة الصبا . قالت تروى الحدث فيما بعد « خلال هذه العظة لمسني الله لمسة جعلتنى أحس منذ تلك اللحظة بأنى أسعد حالا فى حياة الرهبنة ... ولا أدرى أى شيء كنت أحجم عن فعله لله إذا واصل تعالى هذه الحركة التى منحتني إياها نعمته(١٤) » . ذلك ، فى لغتها ، كان « أول عمل للنعمة » (أى اللطف الإلهى) .

وفى أول نوفبر من ذلك العام ملأتها عظة أخرى — هى « ثانى أعمال

النعمة » شعورا بالخزى من شدة تراخيها وتراخى راهباتها فى الوفاء بما نذرن من فقر وعزلة . وإذ كانت ممزقة بين حبها للراهبات ورغبتها فى فرض نظام الطريقة السسترسية ، فقد رانت عليها الكآبة ، ومارست ألوانا من التقشف لم يقو عليها جسدها ، فأصابتها الحمى . ولا بد أنها كانت لطيفة محببة إلى النفوس ، وآية ذلك أنه حين ســـألها الراهبات عن السر فى حزنها ، وصارحتهن برغبتها فى أن يرجعن إلى التزام نظام رهبتهن بحذافيره ، ارتضين حكمها ، وجمعن كل ممتلكاتهن الخاصة ، وأخذن العهد على أنفسهن بالفقر الدائم .

أما الخطوة الثانية ، وهى اعتزال العالم ، فكانت أشد إيلاما . فقد حظرت الأم أنجليك على الراهبات أن يغادرن الدير ، أو يستقبلن الزوار — حتى أقرب الأقرباء — دون إذن صريح ، فإذا استقبلنهم ففى قاعة الاستقبال دون غيرها . وشكون مما سيكلفهن هذا من عنت شديد . ولكى تعطيهن القدوة الحسنة المشددة لعزائمهن صممت ألا ترى أبويها فى زيارتهما التالية إلا من نافذة ذات شباك أو « شيش » فى الباب الفاصل بين قاعة الاستقبال وحجرات الدير . فلما حضر أبواها راعهما أنها لا تريد التحدث إليهما إلا من خلال هذا الشباك . . وأصبح « يوم الشباك » journee du guichet (٢٥ سبتمبر ١٦٠٩) يوما مشهورا فى الأدب الدائر حـول البور — رويال .

وهدأ غضب الأسرة المقصاة ، وتأثر أفرادها بورع الأم أنجليك (التى بلغت الآن الثامنة عشرة) تأثرا حمل الفتاة تلو الفتاة من بيت آرنو على دخول البور — رويال . ففى ١٦١٨ ، أخذت شقيقتها آن أوجنى على نفسها عهد الرهبنة . ولحقتها شقيقات أخريات بعد قليل — كاترين ، ومارى ، ومادلين . وفى ١٦٢٩ ، جثت أمهن الأرملة عند قدمى الأم أنجليك ملتمسة قبولها مبتدئة فى الرهبنة ثم أخذت العهد فى الوقت المناسب ، وعاشت فى تواضع وسعادة

تحت رئاسة ابنتها ، وراحت تدعوها منذ الآن بالأم . وقد حمدت الله وهى محتضر (١٦٤١) لأنها قدمت ستاً من بناتها للحياة الدينية . ودخلت خمس من حفيداتها البور — رويال فى فترة لاحقة . وأصبح ابنها روبير وثلاثة من حفدتها « متوحدين » هناك ، وأصبح ألمع أبنائها ، وهو انطوان آرنو الثانى ، عضو السوربون ، فيلسوف البور — رويال ولا هوتيه . وإنا ليأخذنا العجب لهذه الخصوبة ، ولا نملك غير الاحترام لمثل هذا العمق فى التعبد والولاء والإيمان(*) .

وقادت الأم أنجليك قطيعها خطوة بخطوة عـــودا إلى نظام الرهبنة السترسية الكامل . حفظت الراهبات ، اللائى بلغ عددهن الآن ستا وثلاثين ، جميع الأصوام بدقة تامة ، ومارسن الصمت فترات طويلة ، واستيقظن فى الثانية صباحا لترتيل تسبحة الصباح ، ووزعن الصدقات على فقراء الجيران من مالهن المشترك. وسرت الإصلاحات من البور — رويال ، وأرسلت الراهبات اللائى درن فيه الأديار فى جميع أرجاء فرنسا لحضها على العودة إلى سابق نظمها . من ذلك أن ديرا فى موبويسون كان شديد الإنحلال ، وقد استعمله هنرى الرابع من قبل مكان لقاء مع خليلته جابرييل دستريه ، وكانت رئيسته عاطلة ببناتها غير الشرعيات ، وكان الراهبات يغادرن ديرهن دون قيد ليلقين ويراقصن رهبان دير مجاور(١٦) . وفى ١٦١٨ طلب رؤساء الأم انجليك إليها أن تحل محل رئيسة دير موبويسون ، ومكثت هناك خمس سنوات ، فلما عادت إلى البور — رويال تبعتها اثنتان وثلاثون راهبة إلى الدير الأم الذى انبعث منه نور الإصلاح .

وفى ١٦٢٦ ظهر وباء الملاريا فى البور — رويال . وإذ نبه بعضهم أنجليك

(*) لاحظ سانت — بيف أن « عدة شابات ممن بينهن راهبات البور — رويال كن قد أصبن بالجدرى فتشوهت وجوههن فى سن مبكرة » ، وأضاف فى خبث « لا أريد أن أقول أننا لا نهب الله إلا ما فقد قيمته فى هذه الدنيا » (١٥) .

إلى مأوى جوالدير الرطب من خطر ، فإنها انتقلت مع راهباتها إلى منزل بباريس . وهناك ، وتحت تأثير الجانسنية ، دخلن معركتهن التاريخية مع اليسوعيين والملك . وسرعان ما احتل « المتوحـــدون » المباني المهجورة المتهدمة في البور — رويال — دي — شان ، وكانوا رجالا رغبوا في أن يحيوا حياة أقرب إلى الحياة الديرية وإن لم ينذروا أنفسهم الرهبنة . ووفد على المكان نفر من آل آرنو — أنطوان الثاني ، وأخوه روبير آرنو داندي ، وابنا أختيه أنطوان لوميتر وسيمون لوميتر دسريكور ، وحفيده إسحاق لوى سامى ، وانضم إليهم بعض رجال الكنيسة ، أمثال بيير نيكول وأنطوان سانجلان ، لا بل بعض النبلاء أمثال الدوق دلون والبارون ديرنشانو . وراحوا يصرفون مياه المستنقعات ، ويحفرون الخنادق ، ويرممون المباني ، ويمنون بالبساتين والحدائق . وكانوا — جماعة أو فرادى — يمارسون ألوانا من الفنون ، ويصومون ، ويرتلون ، ويصلون ، ويلبسون لباس الفلاحين ، ويمتنعون عن تدفئة غرفهم في البرد القارس . وكانوا يدرسون الكتاب المقدس وكتابات آباء الكنيسة ، وقد ألفوا كتبا فيها تعبد وتفقه ، وأحد هذه الكتب ، واسمه « فن التفكير » ، وهو من تأليف نيكول وآرنو الصغير ، ظـل كتيبا محببا في المنطق حتى القرن العشرين .

وفي ١٦٣٨ افتتح المتوحدون « مدارس صغيرة » دعوا إليها أطفالا اختاروهم من سن التاسعة أو العاشرة ، وعلموهم الفرنسية ، واللاتينية ، واليونانية ، والنواحي السنية في فلسفة ديكارت . وطلب إليهم أن يجتنبوا الرقص والمسرح (وكلاهما وافق عليه اليسوعيون) ، وأن يصلوا كثيراً ، ولكن ليس للقديسين ، ولم تكن هناك صور دينية في الكنيسه الصغيرة التي يسمعون فيها القداس . وفي البور — رويال — دي — شان ، والبور — رويال — د — باري ، أصبح اعتراض تقوى آل آرنو على فساد البلاط ،

اعتراضاً آخر من اللاهوت والأخلاق الجانسنية الصارمة على تيسير اليسوعيين المسيحية حتى توائم الطبيعة البشرية .

٣ ـ الجانسنيون واليسوعيون

كان كورنيليس جانسن هولنديا ، ولد فى ولاية أوترخت لأبوين كاثوليكيين ، ولكنه تأثر تأثرا عميقا باللاهوت الأوغسطيني الذى دان به جيرانه الكالفنيون . فلما التحق بجامعة لوفان الكاثوليكية (١٦٠٢) وجدها مضطرمة بجدل عنيف بين الحزب اليسوعى أو السكولاستى ، وشيعة تتبع الآراء الأوغسطينية التى نادى بها ميخائيل بايوس فى الجبرية والنعمة الإلهية . وانحاز جانسن إلى الأوغسطينيين . وفى الفترة بين دراسته السابقة للتخرج وعمله أستاذا ، قبل جانسن دعوة وجهها إليه زميل يدعى جان دوفرجييه دهوران ليعيش معه فى بايون . وقد درسا القديس بولس والقديس أوغسطين ، واتفقا على أن خير سبيل للدفاع عن الكاثوليكية ضد الكالفنيين الهولنديين والهيجونوت الفرنسيين هو الاقتداء بأوغسطين فى تشديده على النعمة الإلهية والجبرية ، وتأصيل دستور أخلاق صارم بين الاكليروس والعلمانيين الكاثوليك ، يفضح الانحلال المنتشر فى البلاط والأديار ، كما يفضح أخلاقيات اليسوعيين الهينة اللينة .

وفى ١٦١٦ ، بينما كان جانسن رئيسا لبيت للطلاب الهولنديين فى لوفان ، هاجم لاهوت اليسوعيين فى حرية الإرادة ، وبشر بيوريتانية صوفية قريبة من التقوية التى كانت بسبيل التشكل فى هولندة ، وانجلترة ، وألمانيا . ثم واصل الحرب أستاذا لتفسير الكتاب المقدس بلوفان ، وأسقفا لأيبر . وترك عند موته (١٦٣٨) رسالة كبيرة — لم ينجزها تماما — عنوانها «أوغسطينوس» مالبثت بعد نشرها فى ١٦٤٠ أن أصبحت البرنامج العقائدى

البور — رويال ، ومثار الجدل فى اللاهوت الكاثوليكى الفرنسى طوال قرن تقريبا .

ومع أن الكتاب اختتم بلغة خضوع لكنيسة روما ، فإن كالفنيى الأراضى المنخفضة رحبوا به بوصفه لب الكالفنية وجوهرها(١٧) . فقد قبل جانسن الجبرية قبولا تاما كما قبلها أوغسطين ولوثر وكالفن من قبل . فحتى قبل أن يخلق الله العالم ، اختار تعالى أولئك الرجال والنساء الذين ينبغى أن يخلصوا ، وقرر من ينبغى أن يهلكوا ؛ وأعمال البشر الصالحة ، وإن تكن ذات قيمة ، لا يمكن إن تكسبهم الخلاص دون معونة من النعمة الإلهية ، وقليلون هم الذين سيخلصون حتى بين القلة الصالحة . أما الكنيسة الكاثوليكية فلم تكن أنكرت صراحة جبرية القديس بولس والقديس أوغسطين ، ولكنها تركتها تتوارى فى خلفية تعليمها ، لصعوبة التوفيق بينها وبين حرية الإرادة ، التى بدا أنها شرط لاغنى عنه — منطقيا — للمسئولية الخلقية ولفكرة الخطيئة . ولكن إرادة الإنسان فى رأى جانسن ليست حرة ، فقد فقدت حريتها بخطيئة آدم . وأصبحت طبيعه الإنسان الآن فاسدة فسادا يعجزه عن تخليص نفسه ، ولا يمكن أن يخلصه غير نعمة الله التى اكتسبها بموت المسيح . أما دفاع اليسوعيين عن حرية الإرادة فقد بدا لجانسن أنه يغالى فى دور الأعمال الصالحة فى نيل الخلاص ، ويجعل موت المسيح ، ذلك الموت الذى افتدى الخطاة ، أمراً لاضرورة له تقريبا . ثم نبه إلى أننا يجب ألا نأخذ المنطق مأخذ الجد الشديد ، فالعقل ملكة أدنى بكثير من الإيمان الواثق المسلم ، تماما كما أن للممارسات الطقسية ضرب من الدين أدنى من اتصال النفس المباشر بالله .

وقد وصلت هذه الأفكار إلى البور — رويال بطريق دوفرجييه ، الذى كان أثناء ذلك قد أصبح رئيسا لدير سان — سيران . وقد وفد مسيو دسان — سيران ، كما سمى الآن ، على باريس وهو يتقد غيرة وتحمسا

لاصلاح اللاهوت والأخلاق ، وليستبدل التقوى الباطنة بالتدين الظاهر وسرعان ما قبل مرشدا روحيا للراهبات فى البور — رويال — دبارى ، وللمتوحدين فى البور — رويال دى — شان (١٦٣٦) ، وغدت هذه المؤسسة المزدوجة صوت الجانسنية ونموذجها الأمثل فى فرنسا . أما ريشليو فقد رأى فى هذا المصلح رجلا متعصبا مثيرا للقلاقل ، فاعتقله فى فانسين (١٦٣٨) . وفى ١٦٤٢ أفرج عن سان — سيران ، ولكنه مات بالفالج بعد سنة .

وقد ظل يلهم الكثيرين من آل آرنو حتى وهو فى سجنه . فنشر آرنو الثانى « آرنو الكبير » فى ١٦٤٣ رسالة فى « كثرة تناول الأسرار المقدسة » واصلت حرب أبيه مع اليسوعيين . ولم يذكر اسمهم صراحة ، ولكنه ندد بفكرة أحس بأن بعض الكهنة الاعتراف يتسامحون فيها ، وهى أن فى قدرة الخاطىء أن يكفر عن خطيئته المتكررة إذا أكثر من الاعتراف وتناول القربان . وشعر اليسوعيون بأنهم المقصودون بهذا الهجوم ، فشددوا النكير على آل آرنو . وتوقع أنطوان المتاعب ، فرحل عن باريس إلى البور — رويال — دى — شان . وفى ١٦٤٨ رحلت الراهبات أيضا عن العاصمة وقد روعتهن حرب الفروند وعدن إلى مقرهن القديم . وأخلى المتوحدون المكان وانتقلوا إلى مزرعة قريبة تدعى ليجرانج .

كان البابا أوربان الثامن قد أدان (١٦٤٢) العقيدة العامة التى انطوى عليها كتاب جانسن « أوغسطينوس » . وفى ١٦٤٩ طلب أستاذ فى السوربون إلى الكلية أن تدين سبع قضايا فى الكتاب رغم أنها تحظى برواج شديد . وأحيل الأمر إلى إنوسنت العاشر ، وانتهز اليسوعيون الفرصة ليقنعوا البابا بما تنطوى عليه الجانسنية من أخطار بوصفها لاهوتا كالفنيا يتخفى فى فى ثوب كاثوليكى . وأخيرا حملوه على إصدار مرسوم Cum occasione (٣١ مايو ١٦٥٣) ، حكم بالهرطقة على خمس قضايا زعم أنها مأخوذة من كتاب « أوغسطينوس » :

١ — هناك تعاليم الهية يعجز الصالحون عن طاعتها عجزا مطلقا رغم إرادتهم .

٢ — لايستطيع إنسان أن يقاوم تأثير النعمة الإلهية .

٣ — لكى تكون أعمال البشر أهلا أو غير أهل للمكافأة والتقدير لايشترط أن تكون خلوا من الضرورة القاهرة ، بل يكفى أن تكون بلا ضغط أو كبت .

٤ — هذه الهرطقة ، الشبيهة بهرطقة بيلاجيوس ، مؤداها السماح لارادة الإنسان بأن تمنح قوة مقاومة النعمة ، أو الامتثال لتأثيرها .

٥ — كل من زعم أن المسيح مات ، أو سفك دمه ، للبشر جميعا ، هو شبيه ببيلاجيوس(١٨) .

هذه القضايا لم تؤخذ حرفيا من كتاب « أوغسطينوس » ، ولكنها صيغت بقلم أحد اليسوعيين تلخيصا لتعليم هذا الكتاب . وهى كخلاصة فيها قدر لابأس به من الانصاف(١٩) ، ولكن الجانسنيين احتجوا بأن القضايا ، بهذا الوصف ، لاتوجد عند جانسن — وإن كان آرنو قد ألمع فى خبث إلى أنه يمكن العثور عليها كلها عند القديس أوغسطين . وفى غضون ذلك لم يقرأ الكتاب أحد فيما يبدو .

وكان أنطوان آرنو مقاتلا بالفطرة . فأقر بعصمة البابا فى أمور الإيمان والأخلاق ، لافى الأمور المتصلة بالحقيقة الواقعة ؛ ومن الحقائق الواقعه أنه أنكر أن جانسن قرر هذه القضايا المحكوم بإدانتها . وفى ١٦٥٥ عاد إلى مقاتلة اليسوعيين فى عقر دارهم بنشره « رسائل إلى دوق ونبيل » ، وقد هاجم فيها الأساليب التى زعم أنها أساليب اليسوعيين فى كرسى الاعتراف ورحبت السوربون باقتراح بطرده . فأعد دفاعه ، وقرأه على أصحابه فى البور — رويال . فلم يقنع من شيوخهم موقفا ذا بال ، وكان أحدهم

مريدا جديدا يدعى بليز بسكال، فاتجه إليه آرنو وأهاب به قائلا : « أنت أيها الشاب ، لم لا تكتب شيئا(٢٠) ؟ » واعتكف بسكال فى حجرته ، وكتب أول « رسائله الإقليمية » وهو من عيون الأدب والفلسفة الفرنسيين . وينبغى أن نستمع إلى بسكال فى شىء من الإسهاب ، لأنه لم يكن أعظم كتاب النثر الفرنسى فحسب ، بل ألمع المدافعين عن الدين فى عصر العقل بأكمله .

٤ - بسكال : ١٦٢٣ - ٦٢

١ — بسكال الإنسان

كان أبوه إتيين بسكال رئيسا لمحكمة المعاونين بكليرمون — فيران فى وسط فرنسا الجنوبى . وماتت أمه بعد مولده بثلاث سنين ، مخلفة فضلا عنه أختا أكبر منه تدعى جلبيرت وأخرى أصغر تدعى جاكاين . وانتقلت الأسرة إلى باريس حين بلغ بليز الثامنة . وكان إتيين يدرس الهندسة والفيزياء ، وقد اتاح له تفوقه فيهما أن يصادق جاسندى ، وميرسين ، وديكارت . وكان بليز يسترق السمع لبعض لقاءاتهم ، فأصبح فى الفترة الأولى من حياته عاشقا للعلم . فلما بلغ الحادية عشرة ألف رسالة قصيرة عن أصوات الأجسام المتذبذبة . وخيل للأب أن ولع الصبى بالهندسة سيلحق الأذى بدراساته الأخرى ، فحظر عليه حينا أن يمضى فى عكوفه على الرياضيات . ولكن حدث يوما — فيما روى — أن إتيين وجده يكتب على الحائط بقطعة من الفحم البرهان على أن زوايا المثلث الثلاث تساوى زاويتين قائمتين(٢١) ، وبعدها سمح للغلام أن يدرس اقليدس . وقبل أن يبلغ السادسة عشرة كتب بحثا فى القطاعات المخروطية فقد أكثره ، ولكن إحدى نظرياته كانت مساهمة خالدة فى ذلك العلم ، وما زالت تحمل اسمه . وحين عرضت مخطوطة البحث على ديكارت أبى أن يصدق أنه من وضع الابن لا الأب .

فى ذلك العام (١٦٣٩) لعبت أخته الجميلة جاكلين دوراً مثيراً فى حياة الأسرة ، وكانت آنئذ فى الثالثة عشرة . ذلك أن الأب كان قد استثمر بعض المال فى السندات البلدية ، وخفض ريشليو نسبة الفائدة التى تؤدى عن هذه السندات ، فانتقده إتيين ، وهدد الكردينال بالقبض عليه ، فاختبأ فى أوفرن . ولكن الكردينال كان يحب التمثيليات والبنات ، وقامت بعض الفتيات — ومنهن جاكلين — بتمثيل مسرحية سكوديرى « الحب الظالم » أمامه ، فشرح تمثيلها صدره ، واغتنمت هى الفرصة وتوسلت إليه أن يصفح عن أبيها ، ففعل ، وعينه ناظراً ملكياً فى روان عاصمة نورمنديه ، وإليها انتقلت الأسرة فى ١٦٤١ .

وهناك اخترع بليز أول آلاته الحاسبة العديدة المحفوظ بعضها إلى الآن فى كونسرفتوار الفنون والصنائع بباريس ، وكان يومها فى التاسعة عشرة . أما المبدأ الذى قامت عليه فهو سلسلة من التروس ينقسم كل منها إلى تسعة أرقام وصفر ، ويحرك كل منها ليدور عشر دورة نظير كل دورة كاملة للترس الذى إلى يمينه ، ويظهر كل منها رقمه الأعلى فى ثقب عند القمة . ولم تكن الآلة تستطيع غير الجمع ، ولا كانت عملية من الناحية التجارية ، ولكنها قربت من بداية تطور يثير اليوم دهشة العالم . وأهدى بسكال إحدى آلاته الحاسبة إلى كرستينا ملكة السويد ، مشفوعة بخطاب اطراء بليغ جداً ، فدعته إلى قصرها ، ولكنه أحس بأنه أضعف من أن يحتمل ذلك المناخ الرهيب .

وكان العالم الشاب المتحمس شديد الاهتمام بالتجارب التى نشرها تورتشيللى عن وزن الهواء ، وطرأت على خاطر بسكال فكرة كان فيها مستقلا عن تورتشيللى ، ولكن ربما استوحاها من اقتراح لديكارت(٢٢)، ومؤداها أن الزئبق فى أنبوبة تورتشيللى يرتفع إلى مستويات مختلفة فى أماكن مختلفة ، حسب اختلاف الضغط الجوى . فطلب إلى زوج أخته فى أوفرن أن يحمل أنبوبة زئبق إلى قمة جبل ، ويلاحظ أى فرق — على مختلف

المستويات — فى ارتفاع الزئبق فى الجزء المقفل من أنبوبة فتح طرفها الآخر لضغط الهواء. وفعل فلوران بيرييه كما طلب إليه، ففى ١٩ سبتمبر ١٦٤٨ ارتقى مع بعض أصحابه « بوى ددوم »؛ الذى يرتفع خمسة آلاف قدم فوق مدينة كليرمون — فيران، وهناك ارتفع الزئبق إلى ثلاث وعشرين بوصة فى الأنبوبة، بينما ارتفع عند سفح الجبل إلى ست وعشرين، وهللت أوربا كلها للتجربة لأنها أثبتت نهائياً مبدأ البارومتر وقيمته.

وتلقى بسكال بفضل شهرته عالماً (١٦٤٨) نداء مثيراً من مقامر طلب إليه أن يضع قانوناً لرياضيات الحظ أوالصدفة، فقبل التحدى، واشترك مع فيرما فى وضع حساب الاحتمالات، الذى ينتفع به الآن كثيراً فى جداول التأمين من المرض والموت. ولم تبد عليه فى هذه المرحلة من عمره أى بادرة بأنه سينقل يوماً ما ولاءه من العلم إلى الدين، أو يفقد إيمانه فى المنطق والتجريب، وواصل العمل عشر سنين فى المعضلات العلمية لاسيما الرياضية منها، وفى تاريخ متأخر (١٦٥٨) عرض جائزة من مجهول فى تربيع الدورى — وهو الخط المنحنى الذى تحدثه نقطة على دائرة تدحرج على خط مستقيم فوق سطح مستو. وتقدم بالحلول واليس، وهويجنز، ورن، وغيرهم، ونشر بسكال بعد ذلك حله، تحت اسم مستعار، وأعقب ذلك جدل سلك فيه المتنافسون، ومنهم بسكال، مسلكاً لم يتسم بالكثير من الفلسفة.

وتسلط على حياته خلال ذلك مؤثران أساسيان، المرض والجانسنية. ذلك أنه منذ كان فتى فى الثامنة عشرة عانى من علة عصبية قل أن تركته يوماً بغير ألم. وفى ١٦٤٧ أقعدته إصابة بالشلل لم يستطع بسببها المشى إلا إذا توكأ على عكازين. كان رأسه يصدع، وأمعاؤه تلتهب، وساقاه وقدماه دائمة البرودة والحاجة إلى الوسائط المرهقة لتنشيط دورته الدموية، وكان يلبس الجوارب الطويلة المنقوعة فى البراندى التماساً لدفء قدميه.

وكان مما حمله على الانتقال إلى باريس مع جاكلين أن يجد علاجاً طبياً أفضل ، وتحسنت صحته ، ولكن جهازه العصبي كان قد لحق به أذى مستديم . فأصبح منذ ذلك الحين عرضة لأوهام ازداد عمقها على الأيام حتى أثرت فى خلقه وفلسفته ، فبات سريع الإنفعال ، فريسة لنوبات من الغضب المتكبر العاتى ، وقل أن أشرق وجهه بابتسامة(٢٣) .

وكان أبوه طيلة حياته كاثوليكياً تقياً بل صار ماسوسط شواغله العلمية ، وقد علم أبناءه أن الإيمان الديني أثمن ما يملكون ، وأنه شيء بعيد كل البعد عن متناول أو عن حكم قوى التفكير الضعيفة التى يملكها البشر . وفى روان أصيب الأب بجرح خطير فعالجه طبيب جانسنى بنجاح ، ومن هذا الاتصال اتخذ إيمان الأسرة مسحة جانسنية ، فلما انتقل بليز وجاكلين إلى العاصمة كثر اختلافهما إلى القداس فى البور — رويال — د — بارى ، ورغبت جاكلين فى دخول الدير راهبة ، ولكن أباها لم يستطع أن يروض نفسه على السماح لها بالخروج من حياته اليومية ، ولكنه مات عام ١٦٥١ ، وما لبثت جاكلين أن ترهبت فى البور — رويال — دى — شان ، بعد أن حاول أخوها عبثاً أن يثنيها عن عزمها .

وتنازعا حيناً على تقسيم ميراثهما ، فلما سوى النزاع وجد بليز نفسه رجلا غنياً حراً - وتلك حال مجافية لحياة التقوى ، فاتخذ لنفسه بيتاً فاخر الأثاث ، واستكثر من الخدم ، وجاب باريس فى مركبة تجرها خيول أربعة أو ستة(٢٤) . وأعطاه شفاؤه المؤقت شعوراً خداعا بالنشاط والخفة حرفه من التقوى إلى اللذة . وعلينا ألا نقسه على تلك السنوات القليلة التى قضاها « فى العالم » (١٦٤٨ — ٥٤) ، يستمتع بصحبة ظرفاء باريس وألعابها وحسانها ، ويطارد فى برهة مثيرة بأوفرن سيدة ذات جمال وثقافة ، وصفها بـ — « سافو الريف(٢٥) » . وحوالى هذه الفترة كتب « أحاديث فى آلام الحب » ويلوح أنه فكر فى الزواج — الذى سيصفه فى تاريخ لاحق بأنه « أحط ظروف الحياة المباحة لمسيحى(٢٦) » . وكان بعض أصحابه

ـفرة جمعوا بين الحريتين ، حرية الأخلاق وحرية الفكر ، ولعلهم هم الذين أثاروا اهتمام بسكال بمونتيني ، الذى تغلغلت الآن « مقالاته » فى حياته . وأكبر الظن أن تأثيرها الأول عطفه نحو التشكك الدينى .

وبخته جاكلين حين نمى إليها نبأ عبثه الجديد ، وصلت لأجل صلاح حاله. وكان من خصائص طبيعته العاطفية أن تستجيب لصلواتها إثر حادث وقع له. ذلك أنه بينما كان ذات يوم يركب عربته فوق البون دو نوبى جسر نيللى ، جمحت الخيل واندفعت فوق الحاجز إلى نهر السين . وكادت العربة أن تتبع الخيل ، ولكن العنان انقطع لحسن الحظ ، وتعلقت المركبة بنصفها فوق الحافة . وخرج منها بسكال وأصحابه ، ولكن الفيلسوف المرهف الحس أغمى عليه لفرط خوفه من الموت الداهم ، وظل برهة غائباً عن رشده . فلما أفاق شعر بأنه رأى الله فى رؤيا . وفى نشوة من الخوف والندم وعرفان الجميل سجل رؤياه على رق راح يحمله منذ تلك اللحظة مخيطا فى بطانة سترته : « السنة ١٦٥٤ بعد الميلاد ، الأثنين ٢٣ نوفمبر ... من نحو السادسة والنصف مساء إلى النصف بعد منتصف الليل . أن الاله القديم ، إله إبراهيم ، وإله إسحق ، وإله يعقوب ، لا إله الفلاسفة والعلماء . اليقين ، اليقين ، الوجدان ، الفرح ، السلام . إله يسوع المسيح ... لن يجده الإنسان إلا بالطرق التى يعلمها الإنجيل . ياسمو النفس الإنسانية ، أيها الآب العادل ، أن العالم لم يعرفك قط ، ولكنى عرفتك . إنه الفرح ، الفرح ، دموع الفرح ... يا إلهى ، هل أنت تاركى ؟ يسوع المسيح ... لقد فصلت عنه ، وهربت منه ، وتخليت عنه ، وصلبته . ليتنى لا أفارقه أبداً ، إنها المصالحة الحلوة الكاملة(٢٧) » .

وعاود زياراته للبور — رويال ولجاكلين ، وشرح صدرها بحالته النفسية الجديدة ، حالة التواضع والتوبة . واستمع إلى عظات أنطوان سانجلان . وفى ديسمبر ١٦٥٤ أصبح عضوا فى جماعة البور — رويال(٢٨). وفى يناير كان له هناك حديث طويل مع ساسى ، الذى آلى على نفسه أن

يقنعه بسطحية العلم وعقم الفلسفة . وآنس آرنو ونيكول من العضو الجديد حماسة فى الاهتداء وبراعة فى التعبير الأدبى تبدوان وكأنهما اداة وضعتها العناية فى أيدى الجماعة للدفاع عن البور — رويال ضد اعدائه . فطلبا إليه أن يخصص قلمه للرد على اليسوعيين الذين كانوا يحاولون تصوير الجانسنية على انها خطيئة . وأستجاب للطلب فى ذكاء وقوة بلغا مبلغا جعل جماعة اليسوعيين تشكو إلى اليوم من وخز بسكال الأليم .

ب ـ الرسائل الأقليمية

فى ٢٣ و ٢٦ يناير ١٦٥٦ نشر بسكال الرسالتين الأولى والثانية مما سماه « رسائل كتبها لوى دمونتالت » (وهو اسم مستعار) « إلى صديق فى الأقاليم » وإلى الآباء اليسوعيين المبجلين » عن أخلاقياتهم وسياساتهم » . وكان إطارها ذكيا ، فقد زعم إنها تقرير من باريس إلى صديق فى الأقاليم عن المسائل الخلقية واللاهوتية التى كانت يومئذ تثير الأوساط الفكرية والدينية فى العاصمة . وقد زود آرنو ونيكول بسكال بالحقائق والمراجع . أما هو فقد أبدع ذلك الأسلوب الأدبى الذى استشرف مستوى جديداً فى النثر الفرنسى ، فقــد توافرت لبسكال حماسة المؤمن الجديد وذكاء رجل الدنيا وتهذيبه .

أما الرسائل الأولى فقد التمست التأييد العام لآراء الجانسنيين فى النعمة الالهية والخلاص ، وهى الآراء التى دافع عنها آرنو من قبل ، وقد قصد بها أن تؤثر فى السوربون لتعارض الاقتراح بطرد آرنو . وقد فشلت فى هذا ، إذ جرد آرنو رسميا من لقبه وطرد (٣١ يناير) . وحفز الفشل بسكال وآرنو إلى الهجوم على اليسوعيين لأنهم يقوضون الفضيلة بما يعيب آباء اعترافهم من تحلل ، وما يشوب فتاواهم من ثغرات . وقد نقبا فى مؤلفات إيسكوبار وغيره عن اليسوعيين ونددا بمبادىء « الاحتمالية » و « التوجيه بالنيه » و « التحفظ العقلى » ، وحتى بتوفيق المرسلين اليسوعيين بين

اللاهوت المسيحى وعباده الصينيين لأسلافهم(٢٩) . وإن لم يتهما اليسوعيين صراحة بتبرير الوسائط لبلوغ الغايات . وكان هذا المهدى يزداد حماسة كلما توالت الرسائل وكشف له آرنو عن المزيد من فتاوى إيسكوبار . وبعد الرسالة العاشرة أقلع عن أكذوبة الباريسى كاتب الرسائل للإقليمى ، وأماط اللثام عن شخصه ، ووجه الخطاب إلى اليسوعيين رأساً فى بلاغة تضطرم سخطا ، وذكاء يفيض تهكما . وكان ينفق أحيانا عشرين يوماً فى تحرير رسالة واحدة ، ثم يهرع بها إلى المطبعة قبل أن يفتر اهتمام الجمهور . وقد اعتذر عن طول الرسالة السادسة عشرة بعذر فريد فى بابه ، إذ قال «لم يتسع لى الوقت لاختصارها(٣٠) » . وفى الرسالة الثامنة عشرة والأخيرة (٢٤ مارس ١٦٥٧) تحدى البابا نفسه . ذلك أن البابا الإسكندر السابع أصدر (١٦ أكتوبر ١٦٥٦) تنديدا آخر بالجانسنية ، فذكر بسكال قراءه بأن حكم البابا عرضة للخطأ ، كما أخطأ فى حالة جاليليو (٣١) (وذلك شعور بسكال) . وأدان البابا الرسائل (٦ سبتمبر ١٦٥٧) ولكن فرنسا المثقفة كلها قرأتها .

أكانت الرسائل منصفة لليسوعيين ؟ أنقلت المختارات عن الكتاب اليسوعيين نقـــلا أمينا ؟ قال عقلانى مثقف « صحيح ولا ريب أن بعض العبارات المعدلة حذفت أحيانا دون موجب ، وأن عبارات أخرى ترجمت ترجمة خاطئة ، وأن ضغط الفقرات الطويلة فى جمل قصيرة يشعرك فى بعض الحالات بأن فى هذا إجحافا بالمؤلف » ثم يقول « ولكن هذه الحالات قليلة وغير هامة نسبيا »(٣٢) وهناك الآن إجماع على أن المختارات دقيقة فى جوهرها (٣٣) على أنه لابد من التسليم بأن بسكال انتزع أشد فقرات بعض المفتين إزعاجاً وشبهة من سياقها ، وقاد شطراً من الجمهور إلى رأى فيه غلو كثير ، مؤداه أن هؤلاء الفقهاء اللاهوتيين يتآمرون على هدم أخلاق العالم المسيحى . وقد أطرى فولتير براعة الرسائل بوصفها أدبا ، ولكنه رأى أن « الكتاب كله مبنى على أساس زائف . فقد نسب للمؤلف فى حذق إلى الجماعة اليسوعية

كلها الآراء المتطرفة التى قال بها بعض اليسوعيين الأسبان والفلمنك(٣٤) » ، الذين خالفهم كثير من اليسوعيين . وأسف دلمبير لأن بسكال لم يتهكم بالجانسنيين أيضا ، لأن « تعاليم جانسن وسان سيران المروعة كانت تتيح على الأقل مجالا للسخرية لا يقل عما أتاحته التعاليم الطيعة التى نادى بها موليا وتامبوران وفاسكويز(٣٥) » .

وكان تأثير « الرسائل » هائلا . صحيح أنها لم تخضد لتوها شوكة اليسوعيين — ومن المؤكد أنها لم تنتقص من سلطانهم على الملك — ولكنها فضحت شطط المفتين فضحاً حمل الاسكندر السابع نفسه على إدانة « التحلل » ، رغم مواصلته معارضة الجانسنية ، وعلى الأمر بمراجعة نصوص الفتاوى (١٦٦٥ — ٦٦)(٣٦) . و « الرسائل » هى التى أضفت على كلمة الافتاء الدينى « Casuistry » مدلول التشقيقات الخداعة المظهر التى تدافع عن الأفعال أو الأفكار الخاطئة . ثم إنها أضافت آية من آيات الأسلوب إلى ذخيرة الأدب الفرنسى . وكأن فولتير قد عاش قرنا قبل فولتير . فهنا ذكاء فولتير المرح ، وتهكمه البتار ، وفكاهته الشكاكة ، وقدحه العنيف ، وفى الرسائل اللاحقة ذلك الاستنكار الحار للظلم ، الذى أنقذ فولتير من أن يكون موسوعة سخرية وتهكم . وقد وصف فولتير نفسه الكتاب بأنه « خير ما كتب وظهر فى فرنسا إلى الآن »(٣٧) ، وكان رأى أنقد النقاد قاطبة وأكثرهم رهافة وتمييزا أن بسكال « ابتكر النثر الرائع فى فرنسا(٣٨) » وحين سئل بوسويه أى كتاب كان يؤثر أن يؤلف لو لم يؤلف كتابه قال ، إنه رسائل بسكال الإقليمية(٣٩) .

ح — فى الدفاع عن الإيمان

عاد بسكال إلى باريس فى ١٦٥٦ ليشرف على نشر « الرسائل » ، وعاش هناك طوال السنوات الست الباقية من عمره . على أنه لم يهجر العالم ، ففى سنة

موته ذاتها شارك فى تنظيم خدمة منتظمة بالمركبات فى العاصمة ـ وهى البذرة لشبكة الأمنوبيسات الحالية . ولكن حدثين وقعا له جددا تقواه ، وحملاه على أن يتوج أعماله بكتاب جديد أسهم به فى الأدب والدين . ذلك أنه فى ١٥ مارس ١٦٥٧ حصل اليسوعيون من الملكة الأم على أمر بإغلاق مدارس الموحدين وحظر قبول المزيد من الأعضاء فى البور ـ رويال . وأطيع الأمر فى هدوء ، وأرسل الأطفال ـ وكان من بينهم راسين ـ إلى بيوت الأصدقاء ، وتفرق الملعون محزونين . وبعد تسعة أيام (وهو تاريخ صدور آخر الرسائل الإقليمية) وقع مابدا معجزة فى كنيسة دير الراهبات الذى تكدر صفوه . ذلك أن ابنة أخت بسكال البالغة من العمر تسع سنوات ، واسمها مارجريت بيرييه ، كانت تشكو من ناسور دمعى مؤلم يرشح صديدا كريها من العينين والأنف . وأهدى أحد أقرباء الأم أنجليك البور ـ رويال شوكة زعم هو وغيره أنها أخذت من إكليل الشوك الذى عذب به المسيح . وفى ٢٤ مارس وضعت الراهبات الشوكة على مذبحهن فى احتفال مهيب وسط ترتيل المزامير . ولثمت كل منهن الأثر المقدس بدورها ، ولما رأت إحداهن مارجريت بين العابدات أخذت الشوكة ولمست بها قرحه الفتاة . وروى أن ما جريت أعربت ذلك المساء عن دهشتها لأن عينها لم تعد تؤلمها ، وأدهش أمها ألا ترى أثرا للناسور ، وقرر طبيب دعى لفحص الفتاة أن الصديد والورم قد اختفيا . وأذاع هو ، لا الراهبات ، نبأ هذا الذى سماه شفاء معجزا . ووقع سبعة أطباء آخرون كانوا على علم سابق بناسور مارجريت بيانا قرروا فيه أن معجزة ـ فى رأيهم ـ قد حدثت . وبحث موظفو الاسقفية الأمر ، وانتهـــوا إلى نفس النتيجة ، وأذنوا بإقامة قداس شكر لله فى البور ـ رويال . وتقاطرت جماهير المؤمنين على الدير ليروا الشوكة ويقبلوها ، وهللت باريس الكاثوليكية كلها للمعجزة ، وأمرت الملكة الأم بالكف عن كل اضطهاد للراهبات . وعاد المتوحدون إلى ليجرانج . (فى عام ١٧٢٨ أشار البابا بندكت الثالث عشر إلى هذا الحدث على أنه دليل

على أن عصر المعجزات لم ينته) . أما بسكال فقد صنع لنفسه شعار نبالة كان عبارة عن عين يحيط بهـا إكليل من الشوك ، وقد كتب عليه Scio cui credidi — « أعرف من صدقت(٤٠) ».

وعكف الآن على كتابة دفاع مفصل عن الإيمان الديني يكون بمثابة وصيته الأخيرة . ولكن قصارى ما وجد فى نفسه القدرة عليه هو أن يدون فى إيجاز خواطر منفصلة يجمع بينها فى ترتيب اجتهادى ولكنه قوى . ثم عاودته أوجاعه القديمة (١٦٥٨) ، فى شدة أعجزته إلى النهاية عن أن يضفى على هذه المذكرات تسلسلا متماسكا أو شكلا بنائيا . فلما مات قام صديقه الدوق دروانيه وعلماء البور — رويال بتحرير ونشر هـذه المادة وسموها « خواطر المسيو بسكال عن الدين وغيره من المسائل (١٦٧٠) » . وقد خشوا أن تفضى هذه « الخواطر » المبتورة التى خلفها بسكال إلى التشكك لا إلى التقوى ، ومن ثم أخفوا الأجزاء المتشككة ، وأدخلوا تعديلا على بعض ما بقى مخافة أن يسىء إلى الملك أو الكنيسة لأن اضطهاد البور — رويال كان قد توقف فى تلك الفترة ، وكره المحررون تجدد الجدل . ولم تنشر « خواطر » بسكال Pensées فى نصها الكامل الموثوق إلا فى القرن التاسع عشر .

ولو شئنا أن نغامر بفرض ترتيب عليها لجعلنا نقطة بدايتها فلك كوبرنيق . ونحن نشعر ثانية — إذ نصغى إلى بسكال — بالطمة الهائلة التى كان فلك كوبرنيق وجاليليو يكيلها للمسيحية التقليدية :

« ليتأمل الإنسان الطبيعة كلها فى جلالها الكامل السامى ، ليقص عن بصره الأشياء الوضيعة التى تحيط به ، ولينظر إلى ذلك النور المتوهج الذى وضع كأنه مصباح ابدى ينير العالم ، ولتبد الأرض له مجرد نقطة داخل الدائرة الشاسعة التى يرسمها ذلك النجم ، وليأخذه العجب من أن هذا المحيط الهائل إنما هو نقطة ضئيلة من زاوية النجوم التى تتحرك فى قبة السماء .

فإذا توقف بصرنا عند هذا الحد ، فليجاوزه الخيال ... فكل هذا العالم المرئى ليس إلا عنصرا لايدرك فى صدر الطبيعة العظيم . ولا يستطيع أى تفكير أن يمتد إلى هذا المدى ... إنها كرة لانهائية مركزها فى كل مكان ، ومحيطها فى غير مكان(٤٢). هذا أكثر مظهر قابل للإدراك من مظاهر قدرة الله ، حتى أن خيالنا يتوه فى هذا الخاطر » .

ثم يضيف بسكال فى سطر شهير مطبوع بحساسيته الفلسفيه ، « ان الصمت الأبدى الذى يلف هذا الفضاء اللانهائى يخيفنى(٤٣) » .

ولكن هناك لانهائية أخرى — وتلك هى لانهائية صغر الذرة « التى لاتقبل الانشطار ، وقبولها النظرى للانقسام قبولا لاحد له ، فمهما كانت ضآلة الحد الأدنى الذى نختزل به أى شىء ، فإننا لانملك إلا الاعتقاد بأنه هو أيضا له أجزاء أصغر منه . وعقلنا يتذبذب فى حيرة وارتياع بين الشاسع غير المحدود ، والدقيق غير المحدود .

« إن من يتأمل نفسه على هـذا النحو تخيفه نفسه ، وإذا أدرك أنه معلق ... بين هاويتى اللانهائية والعدم ، ارتعد فرقا ... وبات أميل إلى تأمل هذه العجائب فى صمت منه إلى ارتيادها بغرور . فما الإنسان فى الطبيعة ، بعد كل شىء ....؟ انه العدم إذا قيس بغير المحدود ، وهو كل شىء إذا قيس بالعدم ، إنه وسط بين العدم والكل . وهو بعيد كل البعد عن إدراك الطرفين ، فنهاية الأشياء وبدايتها أو أصلها ، يلفهما سر لاسبيل إلى استكناهه ، وهو عاجز على السواء عن رؤية العـــدم الذى أخذ منه ، واللانهائى الذى يغمره(٤٤). (*)

(*) يقول سانت بيف « ليس فى اللغة الفرنسية صفحات أروع من الخطوط البسيطة الصارمة التى تحتويها هذه السورة التى لانظير لها »(٤٥) .

فالعلم إذن ما هو إلا ادعاء غبى . فهو مبنى على العقل ، المبنى على الحواس ، التى تخدعنا بعشرات الطرق . وهو محدود بالحدود الضيقة التى تعمل حواسنا داخلها ، وبقصر عمر الجسد قصراً قابلا للفساد . وإذا ترك العقل لذاته لم يستطع أن يفهم — أو يعطى أساساً مكينا للفضيلة ، أو الأسرة ، أو الدولة ، فكيف بادراك طبيعة العالم ونظامه الحقيقيين ، فضلا عن فهمه لله . وفى العرف ، لا بل فى الخيال والأسطورة ، حكمة أكثر مما فى العقل و « أحكم العقول يتخذ تلك المبادىء ، التى أدخلها خيال الإنسان بتعجل فى كل مكان ، مبادىء له(٤٦) » وهناك نوعان من الحكمة : حكمة الجماهير البسيطة « الجاهلة » ، التى تعيش بحكمة التقاليد الموروثة والخيال (أى الطقوس والأساطير) ، وحكمة الحكيم الذى نفذ إلى صميم العلم والفلسفة ليدرك جهله(٤٧) . إذن « لاشىء أروح للعقل من أن ينبذ العقل » و « الاستخفاف بالفلسفة ملاك الفيلسوف الأصيل(٤٨) » .

ومن ثم رأى بسكال أنه ليس من الحكمة إقامة الدين على العقل ، كما حاول حتى بعض الجانسنيين ، أن يفعلوا . فالعقل لايستطيع أن يثبت وجود الله ، ولا الخلود ، لأن الأدلة فى الحالين شديدة التناقض . كذلك لا يصلح الكتاب المقدس أساسا نهائياً للإيمان ، لأنه حافل بالفقرات الملتبسة أو الغامضة ، وربما كان للنبوءات التى يفسرها الأتقياء على أنها تشير إلى المسيح دلالة مختلفة(٤٩) . أضف إلى ذلك أن الله فى الكتاب المقدس يتكلم بالأرقام ، التى يضللنا مدلولها الحرفى ، والتى لايدرك معناها الحقيقى إلا من وهبوا النعمة الألهية . « أننا لن نفهم شيئاً من أعمال الله مالم نؤمن بهذا المبدأ ، وهو أنه تعالى يشاء أن يعمى البعض وينير بصائر البعض(٥٠) . (وهنا يبدو أن بسكال يقبل حرفياً قصة يهوه وهو يقسى قلب فرعون) .

ولو اعتمدنا على العقل لوجدنا غير المفهوم أينما تلفتنا . فمن ذا الذى يستطيع أن يفهم ، فى الإنسان ، ذلك الاتحاد والتفاعل بين جسد واضح

المادة وذهن واضح اللامادية ؟ «فليس هناك شيء أشد استحالة على التصور من أن تعى المادة نفسها(٥١) » . إنهم الفلاسفة الذين ملكوا أهواءهم — « وأى مادة تستطيع أن تفعل هذا (٥٢)؟ » . وطبيعة الإنسان ، التى يمتزج فيها الملاك بالوحش امتزاجاً شديداً (٥٣)، تـكرر التناقض بين العقل والجسد ، وتذكرنا بالـكيمير الذى زعمت الأساطير اليونانية أنه عنزة لها رأس أسد وذيل ثعبان .

« يا لهذا الإنسان من كيمر! ياله من بدعة ، ووحش ، وفوضى ، وتناقض ، ومعجزة ! هذا الحـكم فى كل الأشياء ، ونموذج الغباء فى الأرض ؛ مستودع الحق ، وبالوعة الضلال والشك ؛ مفخرة الـكون ونفايته . فمن ذا الذى يحل لنا هذا اللغز المعقد(٥٤)؟ » .

ان الإنسان — من الناحية الخلقية — لغز غامض . فـكل ضروب الاثم تبدو مستقرة فيه . «ما الإنسان إلا مخلوق خداع للظهر ، كذوب ، منافق ، مع نفسه ومع غيره(٥٥) » . «كل الناس بطبيعتهم يكره بعضهم بعضاً ، ولن تجد أربعة أصدقاء فى العالم(٥٦) » . « ما أفرغ قلب الإنسان وما أحفله بالقذر »(٥٧) ثم يا لغروره الذى لا قرار له ولا شبع ، «ما كنا لنركب البحر أبداً لولا حلمنا بأننا سوف نروى قصتنا . . . أننا نفقد الحياة مغتبطين شريطة أن يتحدث الناس بما فعلنا . . . وكل الناس ، حتى الفلاسفة ، يتمنون أن يكون لهم معجبون(٥٨) » . ومع ذلك فإن من جوانب عظمة الإنسان أنه من شره ، وكرهه ، وغروره ، أنشأ دستوراً من القوانين والأخلاق ليسيطر على شره ، واشتق من شهوته مثلا أعلى فى الحب(٥٩) .

وشقاء الإنسان لغز آخر . فلم شقى الـكون هذا الشقاء الطويل لينجب نوعاً من الخليقة شديد الهشاشة فى سعادته ، كثير التعرض للألم فى كل عصب ، وللحزن فى كل حب ، وللموت فى كل حياة؟ ومع ذلك فإن «جلال الإنسان عظيم فى معرفته أنه شقى(٦٠) » .

«ما الإنسان إلا قصبة ، وهى أوهى ما فى الطبيعة ، ولـكنه قصبة مفـكرة .

والـكون كله لا حاجة به لأن يتسلح لـكى يسحقه ، فنفخة بخار ، أو قطرة ماء ، تـكفى لقتله — ولـكنه ، بعد أن يسحقه الـكون ، لا يزال أنبل من هذا الذى يقتله ، لأنه يعرف أنه مفارق الحياة ، أما الـكون فلا يعرف شيئاً عن انتصاره على الإنسان(٦١) » .

وليس من هذه الألغاز لغز يجد فى العقل جواباً له . ولو ركنا إلى العقل وحده لحـكمنا على أنفسنا بـ « بيروونية » تتشـكك فى كل شىء إلا الألم والموت ، والفلسفة لا تستطيع على أحسن الفروض إلا أن تـكون تبريراً عقلانياً للهزيمة . ولـكننا لا نستطيع أن نؤمن بأن قدر الإنسان هو كما يراه العقل — أن يـكافح ، ويتعذب ، ويموت ، بعـــد أن ينجب آخرين ليـكافحوا ، ويتعذبوا ، ويموتوا ، جيلا بعد جيل ، فى افتقار للهدف ، وغباوة ، وحقارة هائلة . فنحن فى قرارة نفوسنا نشعر بأن هذا لا يمـكن أن يكون صحيحاً ، وبأنه تجديف ما بعده تجديف أن نظن أن الحياة والـكون بلا معنى . فالله ومعنى الحياة يجب أن يشعر بهما القلب لا العقل . « فإن للقلب مبرراته التى لا يعرفها العقل(٦٢) . » ، وخيراً نفعل أن أصغينا إلى قلوبنا وإن « وضعنا إيماننا فى الوجدان(٦٣) » . ذلك أن كل إيمان ، حتى بالأمور العملية ، إنمـــا هو ضرب من الإرادة ، وتوجيه للانتباه والرغبة» (إرادة الإيمان) . والتجربة الصوفية أعمق من شهادة الحواس أو حجج العقل .

أى جواب إذن عند الوجدان يجيب به عن ألغاز الحيـاة والفـكر ؟ الجواب هو الدين . فالدين وحده يستطيع أن يرد للحياة معناها ، وللإنسان نبله ، وبدونه نتخبط أعمق حتى من تخبطنا الأول فى إحباط عقلى وعقم مميت . فالدين يعطينا كتابا مقدساً ، والـكتاب ينبئنا بسقوط الإنسان من النعمة ، وهذه الخطيئة الأصلية هى دون غيرها التى تستطيع أن تفسر ذلك الجمع الغريب فى الطبيعة البشرية بين الـكره والحب ، وبين الشر الوحشى واشتياقنا للخلاص ولله . فاذا سمحنا لأنفسنا بأن نؤمن (مهما بدت سخافة

هذا الإيمان للفلاسفة) بأن الإنسان بدأ بالنعمة الإلهية ، وأنه فقدها بالخطيئة ، وأنه لا خلاص له إلا بالنعمة الإلهية عن طريق المسيح المصلوب ، وجدنا بعد هذا سلاماً عقليا لا يوهب للفلاسفة أبدا . والذى لا يستطيع الإيمان ملعون ، لأنه يعلن بكفره أن الله لم يشأ أن يمنحه النعمة .

والإيمان رهان حكيم . وهب أن الإيمان لا يمكن إثباته ، فأى ضير إن قامرت على حقيقته ثم اتضح بطلانه ؟ « لزام عليك أن تراهن ، وليس لك فى هذا خيار ... فلتوازن بين المكسب والخسارة فى الرهان على وجود الله ... أنك إن كسبت كسبت كل شىء ، وان خسرت لم تخسر شيئاً . فراهن إذن دون تردد على أنه تعالى موجود(٦٤) » . فاذا وجدت أول الأمر أن الإيمان صعب عليك فاتبع عادات وطقوس الكنيسة كأنك تؤمن حقا . « تبرك بالماء المقدس ، واطلب تلاوة القداديس ، وهلم جرا ، وهذا كفيل بأن يجعلك تؤمن بطريقة بسيطة طبيعية ، وبأن يهدئك » — سيهدىء من عقلك المغتر بقدرته النقادة(٦٥) . واعترف وتناول القربان ، وستجد فى هذا راحة وقوة(٦٦) .

ونحن نظلم هذا الدفاع التاريخى إذا تركناه يختتم على هذه النغمة غير البطولية . فلنا أن نثق بأن بسكال حين آمن لم يؤمن كأنه مقامر يلكنفس حيرتها ود وخنها الحياة ، كانسان أدرك فى تواضع أن عقله الذى أذهل ذكاؤه الصديق والعدو ، ليس كفؤا للكون ، ووجد فى الإيمان السبيل الوحيد ليضفى على ألمه المعنى والمغفرة . يقول سانت — بيف « ان بسكال رجل مريض ، وعلينا أن نذكر هذا على الدوام ونحن نقرؤه(٦٧) » ولكن بسكال لو ووجه بهذا الراى لأجاب : السنا كلنا مرضى ؟ فليرفض الإيمان كل من اكتملت له السعادة . ليرفضه كل من لم يقتنع بمعنى فى الحياة اكثر من انها مسار عاجز من ميلاد قذر إلى موت إليم .

« تصور نفرا من الناس يرسفون فى الأغلال وقد حكم عليهم جميعا

بالموت ، وفى كل يوم يشنق بعضهم على مرأى من الباقين، والباقون يتبينون حالهم فى حال زملائهم ، ويتبادلون نظرات الحسرة واليأس ، وينتظر كل منهم دوره . هذه صورة لحالة الإنسان(٦٨) » .

فكيف السبيل إلى التعويض عن هذه المذبحة البشعة التى نسميها التاريخ إلا بالإيمان بأن الله سيصحح الأخطاء كلها فى النهاية ، سواء استند هذا الإيمان إلى دليل أو لم يستند ؟ .

وقد تحمس بسكال فى محاجته لأنه لم يفق قط إفاقة حقيقية من الشكوك التى أوحى بها إليه موتتينى ، وملحدو « السنوات التى قضاها فى العالم » ، وحياد الطبيعة القاسى بين « الشر » و « الخير » .

« ذلك ما أراه وما يقض مضجعى . فأينما تلفت لم أجد غير الغموض والابهام . ولا تقدم لى الطبيعة إلا ما يحتمل الشك والقلق . فلو أننى لم أر علامات على وجود إله لثبت على الإنكار . ولو رأيت آثار الخالق فى كل مكان لسكنت إلى الإيمان فى هدوء وسلام . ولكنى فى حالة يرثى لها لأننى أرى أكثر كثيراً مما يبرر إنكار وجوده تعالى ، وأقل كثيراً مما يطمئننى على وجوده . ولقد طالما تمنيت أن تعلن الطبيعة عن وجوده دون لبس أو غموض ما دام هذا الإله حافظها(٦٩) » .

وحالة القلق العميق هذه ، والقدرة المعطلة على رؤية الجانبين ، هى التى تجعل بسكال يستهوى المؤمنين والشاكين على السواء . فلقد شعر هذا الرجل بغيظ الملحد من الشر ، وبثقة المؤمن فى انتصار الخير ، ولقد عبر من تدويمات موتتينى وشارون الذهنية إلى التواضع المغتبط الذى أحس به القديسان فرانسيس الأسيسى وتوماس أكمبيس . وهذه الصرخة المنبعثة من أعماق الشك ، وهذه الصياغة لإيمان ضد الموت ، هما اللذان يجعلان « خواطر » بسكال أبلغ الكتب قاطبة فى النثر الفرنسى . لقد أصبحت الفلسفة أدبا للمرة الثالثة فى القرن السابع عشر، لا فى تركيز بيكون المادى،

ولا فى ألفة ديكارت السارة ، بل فى القوة العاطفية لشاعر يحس بالفلسفة ، ويكتب لقلبه بدمه . فى قمة العصر الكلاسيكى علا هذا النداء الرومانسى ، وبلغ من القوة ما أتاح له أن يعمر بعد بوالو وفولتير ، وأن يسمعه عبر قرن من الزمان روسو وشاتوبريان . فهنا ، فى صبيحة عصر العقل ، وفى عقود هوبز وسبينوزا ذاتها ، وجد العقل منازلا له فى رجل محتضر .

روت مدام بيربيه ، شقيقة بسكال ، أنه كان فى سنيه الأخيرة يعانى من « علل مستديمة متفاقمة(٧٠) » وانتهى به الأمر إلى الرأى بأن « المرض هو الحالة الطبيعية للمسيحيين(٧١) » . وكان أحيانا يرحب بآلامه لأنها تصرفه عن المغريات . قال « إن ساعة من الألم تعلم أفضل من كل الفلاسفة مجتمعين(٧٢) » . وقد هجر كل اللذات ، وعكف على ممارسة النسك ، وجلد نفسه بحزام ثبتت فيه مسامير من حديد(٧٣) . ووبخ مدام بيربيه لأنها تسمح لأبنائها بعناقها . وعارض فى زواج ابنتها قائلا : « إن حالة الزوجية ليست خيرا من الوثنية فى نظر الله(٧٤) » . ولم يسمح لإنسان فى حضرته أن يتحدث عن جمال المرأة .

وفى عام ١٦٦٢ ، آوى أسرة فقيرة فى بيته صدقة من صدقاته الكثيرة . فلما أصيب أحد الأطفال بالجدرى انتقل بسكال إلى بيت شقيقته بدلا من أن يطلب إلى الأسرة أن تغادر بيته . ولم يمض طويل وقت حتى لزم فراشه وقد حطمته الآلام المعوية . وكتب وصيته ، فترك نصف ثروته تقريبا للفقراء . واعترف لكاهن ، وتناول القربان الأخير ، ثم لفظ أنفاسه إثر تقلصات عنيفة ، فى ١٩ أغسطس ١٦٦٢ وهو لا يجاوز الأربعين . ولما شرحت جثته وجد أن معدته وكبده مريضتان ، وأن فى أمعائه قرحا(٧٥) . وقال الأطباء أن مخه « ضخم الحجم جدا ، وأن مادته جامدة مكثفة » ولكن خطا واحدا فقط من خطوط الاتصال بين عظام الجمجمة هو الذى كان مقفلا قفلا سليما ، ولعل هذا هو السر فى نوبات الصداع الرهيبة التى ابتلى بها .

ووجد على لحاه المخ منخفضان « كبيران كأنهما صنعا بأصابع وضعت فى الشمع »(٧٦) وقد دفن فى كنيسة أبرشيه سانت اتيين — دومون .

٥ — البور - رويال : ١٦٥٦ — ١٧١٥

شددت « الرسائل الاقليمية » من عزم اليسوعيين والأساقفة على قمع الجانسنية باعتبارها بروتستنتية مقنعة . فأصدر البابا الاسكندرية السابع (١٦ أكتوبر ١٦٥٦) استجابة لإلحاح الأساقفة الفرنسيين مرسوماً بابوياً يلزم جميع رجال الكنيسة الفرنسيين بالتوقيع على الصيغة التالية :

« إنى أخضع بإخلاص لدستور البابا أنوسنت العاشر ، المؤرخ ٣١ مايو ١٦٥٣ ، حسب معناه الحقيقى الذى حـــدده دستور أبينا الأقدس البابا الإسكندر السابع المؤرخ ٦ أكتوبر ١٦٥٦ ، وأقر بأنى ملتزم فى ضميرى بطاعة هذين الدستورين ، وأدين بقلبى وفى التعليم الوارد فى قضايا كورنيلس جانسن الخمس المحتواة فى كتابه المعنون « أوغسطينوس » .

وامتنع مازاران عن فرض التوقيع على هذه الصيغة ، ولكن فى ١٣ أبريل ١٦٦١ ، عقب موت مازاران ، أذاع لويس الرابع عشر الأمر ، وقدم وكيل أسقفية من أصدقاء الجماعة لهذه الصيغة ببيان توفيقى ، فوقعها آرنو والمتوحدون فى هـــذه الصورة ، ونصحوا راهبات البور - رويال بالحذو حذوهم ، ولكن الأم أنجليك — التى كانت طريحة الفراش لإصابتها بالاستسقاء — رفضت التوقيع وثبتت على الرفض إلى أن ماتت فى السبعين فى ٦ أغسطس ١٦٦١ ، وكذلك رفض بسكال وشقيقته جاكلين ، التى أصبحت وكيلة الدير . وقالت جاكلين : مادام الأساقفة لا يملكون من الشجاعة إلا شجاعة الفتيات ، فلابد أن يكون للفتيات شجاعة الأساقفة(٧٧)» وأخيراً وقعت كل الراهبات الباقيات على قيد الحياة ، ولكن جاكلين

التى أضلتها مقاومتها الطويلة ماتت فى ٤ أكتوبر وهى لا تجاوز السادسة والثلاثين ، وتلاها بسكال بعد عام واحد .

واستنكر الملك خلال ذلك الديباجة الموفقة وأصر على أن يوقع الراهبات الصيغة دون أى إضافة أو تغيير ، ونقل القليلات اللاتى وقعن إلى البور — رويال فى باريس ، ولكن أغلبية الراهبات ، تتزعمهن الأم آنييس ، صرحن بأنه ليس فى وسعهن التوقيع بضمير خالص على وثيقة تناقض معتقداتهن أشد مناقضة . وفى أغسطس ١٦٦٥ حرم رئيس الأساقفة الراهبات السبعين وأخواتهن العلمانيات الأربع عشرة من تناول الأسرار المقدسة ، وحظر عليهن أى اتصال بالعالم الخارجى . وخلال السنوات الثلاث التالية ، كان أحد الكهنة المتعاطفين مع الراهبات يتسلق أسوار البور — رويال — دى شان ليناول الراهبات المحتضرات قربانهن الأخير . وفى ١٦٦٦ قبض على ساسى ، ولوميتر ، وثلاثة آخرين من المتوحدين بأمر الملك ، أما آرنو الذى تنكر وراء شعر مستعار وسيف ، فقد آوته الدوقة لونجفيل ، التى كانت تخدمه بنفسها أثناء اختبائه (٧٨) . وتبنت هى وغيرها من النبيلات قضية الراهبات ، وأقنعن لويس بأن يلين ، وفى ١٦٦٨ أصدر البابا كلمنت التاسع مرسوماً جديداً صيغ فى لبس حكيم يسمح لجميع الأطراف بقبوله ، وأفرج عن السجناء ، وردت الراهبات المنشقات إلى البور — رويال — دى شان ، وعادت الأجراس تدق فى الدير بعد أن صمتت ثلاث سنين . واستقبل الملك آرنو استقبالا ودياً ، وكتب هذا كتاباً ضد الكلفنيين ، ولكن نيكول كتب كتاباً آخر ضد اليسوعيين .

ودام «سلام الكنيسة» أحد عشر عاماً ، ثم ماتت مدام لونجفيل ، ومات معها السلام . وإذ بدأ الملك يشيخ ، وانقلبت انتصاراته هزائم ، استحال دينه خليطا من التعصب والخوف ، وساءل نفسه ، أكان الله يعاقبه على تسامحه مع الهرطقة ؟ واتخذ بغضه للجانسنية طابعاً شخصياً ، ومن الأمثلة على هذا

التحول أن لويس رفض تعيين رجل يدعى فونيبرتوى فى احدى الوظائف لشبهته فى أنه جانسنى ، ولكنه وافق على التعيين حين أكدوا له أن الرجل ملحد فقط(٧٩). ولم يستطع قط أن يغتفر للراهبات تحديهن لأمره بالتوقيع على الصيغة المشددة . وضمانا للقضاء على مركز سخطه هذا فى وقت مبكر حظر عليه قبول أعضاء جدد . ووجه نداء للبابا كلمنت الحادى عشر لكى يصدر إدانة صريحة للجانسنية . وبعد عامين من الإلحاح أطلق البابا مرسوم Vineam Domini (١٧٠٥) ولم يكن باقيا على قيد الحياة فى البور — رويال آنئذ سوى خمس وعشرين راهبة ، أصغرهن فى الستين . وترقب الملك موتهن بفارغ الصبر .

وفى عام ١٧٠٩ خلف الأب اليسوعى ميشيل تيلييه البالغ من العمر ستة وستين عاما ، الأب لاشيز ، كاهن اعتراف للملك . فأقر فى ذهن لويس — وكان الملك قد بلغ الحادية والسبعين — أن مصير روحه الأبدى رهن بالإبادة الناجزة الكاملة للبور — رويال . وقد احتج كثيرون من الأكليروس العلمانيين على هذه العجلة وفيهم أنطوان دنواى ، رئيس أساقفة باريس ، ولكن الملك تغلب على معارضتهم . وفى ٢٩ أغسطس ١٧٠٩ أحاط الجند بالدير ، وأطلع الراهبات على رسالة ملكية مختومة تأمر بتفريقهن فورا ، وسمح لهن بخمس عشرة دقيقة يجمعن فيها أمتعتهن . ولم يجد بكاؤهن ولا دموعهن . فدفعن داخل مركبات وشتتن فى مختلف الأديار المتمثلة التى تبعد من ستين إلى مائة وخمسين ميلا . وفى ١٧١٠ هدمت مبانى الدير الشهير وسويت بالتراب .

ولكن الجانسنية عاشت . لقد مات آرنو ونيكول فى منفاهما بفلاندر (١٦٩٤ — ٩٥) ، ولكن كاهنا فى مصلى باريس يدعى باسكييه كينيل ، دافع عام ١٦٨٧ عن اللاهوت الجانسنى فى كتابه « تأملات أخلاقية فى العهد الجديد » . وقد زج به فى السجن (١٧٠٣) . ولكنه هرب إلى أمستردام .

حيث أسس كنيسة جانسنية . وإذ اكتسب كتابه التأييد الكثير من الأكليروس العلماني الفرنسي ، فقد أقنع لويس البابا كلمنت الحادي عشر بأن يصدر مرسوم Unigenitus (٨ سبتمبر ١٧١٣) الذي أدان ١٠٤ قضية نسبت إلى كينيل . وقد استاء كثير من الأحبار الفرنسيين من المرسوم لأنه تدخل بابوي في شئون الكنيسة ، واتحدت الجانسنية مع أحياء للحركة الغالية . فلما مات لويس الرابع عشر ، كان في فرنسا من الجانسنيين أكثر مما كان فيها في أي عهد مضى(٨٠) .

ويصعب علينا اليوم أن نفهم لم انقسمت أمة ، وثارت ثائرة ملك ، حول مشاكل عويصة تتصل بالنعمة الآلهية ، والجبرية ، وحرية الإرادة ، ولكننا ننسى أن الدين كان له يومها ما للسياسة الآن من أهميــــة وخطر . وكانت الجانسنية الجهد الأخير الذي بذلته النهضة الأوربية في فرنسا ، والانتفاضة الأخيرة للعصور الوسطى . ونحن إذا تأملناها في منظور التاريخ بدت لنا رجعية لا تقدما . بيد أن تأثيرها في عدة نواح كان تقدمياً . فقد كافحت حينا في سبيل قسط من الحرية — وإن كنا سنجدها في أيام فولتير أشد تعصباً من البابوية(٨١) . وحدت من شطط الإفتاء الديني . وكانت غيرتها على الأخلاق ثقلا نافعاً أمام سياسة التراخي في أمور الاعتراف ، تلك السياسة التي ربما شاركت في تدهور الأخلاق الفرنسية . كذلك كان تأثيرها التعليمي طيباً ، وكانت « المدارس الصغيرة » التي أسستها خير المدارس في زمانها . وظهر تأثيرها الأدبي لا في بسكال وحده بل في كورايي باعتدال، وفي راسين بحيوية ، وهو تلميذ البور — رويال ومؤرخه . أما تأثيرها الفسلفي فكان غير مباشر وغير مقصود ، ففكرتها عن الله قاضياً بالعذاب الأبدي على الشطر الأكبر من النوع الإنساني — بما فيهم جميع الأطفال غير المعمدين ، وجميع المسلمين وجميع اليهود — لعل هذه الفكرة شاركت في دفع رجال كفولتير وديدرو إلى التمرد على اللاهوت المسيحي بأسره .

٦ - الملك والهيجونوت : ١٦٤٣ - ١٧١٥

لم يكن الملك قد خلص روحه بعد ، فقد بقى فى فرنسا ٠٠٠ر٥٠٠ر١ من البروتستنت . وكان مازاران قد واصل وطور سياسة ريشليو فى حماية حرية الهيجونوت الدينية ما داموا مطيعين سياسياً . أما كولبير فقد أدرك قيمتهم فى تجارة فرنسا وصناعتها . وفى ١٦٥٢ أكد لويس مرسوم نانت (١٥٩٨) الذى أصدره جده هنرى الرابع ، وفى ١٦٦٦ أعرب عن تقديره لولاء الهيجونوت خلال حرب الفروند ، ولكن كان يحزنه ألا تتحق وحدة فرنسا الدينية كما تحققت وحدتها السياسية ، وحوالى ١٦٧٠ كتب فى مذكراته فقرة تنذر بالسوء :

« أما عن ذلك العدد الكبير من رعاياى الذين يدينون بما يسمونه المذهب الأصلاحى ، وهو شر ٠٠٠٠ انظر إليه بحزن ٠٠٠ فيخيل إلى أن أولئك الذين أرادوا استعمال ضروب عنيفة من العلاج لم يفطنوا إلى طبيعة هذا الشر ، الذى نجم بعضه عن حرارة فى العقول ، والذى يجب أن يترك ليذوى ويموت دون أن يحس به أحد ، بدلا من أثارته من جديد بمثل هذه المقاومات العنيفة . ٠٠٠ وقد آمنت بأن خير سبيل للخفض من عدد الهيجونوت فى مملكتى تدريجياً هو أولا عدم الضغط عليهم اطلاقا بأى قيد صارم جديد ، والأمر بمراعاة ما حصلوا عليـــه من أسلافى دون منحهم أكثر منه ، وحتى قصر تنفيذه داخل أضيق الحدود التى تجيزها العدالة واللياقة(٨٢) » .

وفى هذه الفقرة رائحة التعصب المخلص . وهذا رأى ملك مطلق السلطة ، أخذ عن بوسويه شعار « ملك واحد ، وقانون واحد ، وعقيدة واحدة » . فلم يعد ذلك التسامح الذى دان به ريشليو الذى كان يعين لمناصب الدولة الرجال الأكفاء أيا كانت عقيدتهم . ويواصل لويس حديثه فيقول إنه لن يعين فى هذه المناصب سوى الكاثوليك الصالحين ، آملا بذلك أنه سيشجع المرتدين على الرجوع إلى حظيرة الكاثوليكية .

أما الكنيسة نفسها فلم تكن قد وافقت قط على التسامح الذى كفله مرسوم نانت ، ففى ١٦٥٥ طالب مجمع اكليريكى بتفسير أشد صرامة للمرسوم. وفى ١٦٦٠ طلب مجمعهم إلى الملك أن يغلق جميع الكليات والمستشفيات الهيجونوتية ، وأن يحرم الهيجونوت من الوظائف العامة ، وفى ١٦٧٠ أوصى المجمع بأن يعتبر الأطفال الذين بلغوا السابعة من عمرهم قادرين قانوناً على إنكار الهرطقة الهيجونوتية ، وأن الذين ينكرونها على هذا النحو ينبغى فصلهم عن آبائهم ، وفى ١٦٧٥ طالب المجمع بأن يعلن بطلان الزيجات المختلطة ، وأن يعتبر نسل هذه الزيجات غير شرعى(٨٣) . وكان رأى بعض رجال الدين الورعين اللطفاء مثل الكردينال ديبرول أن استخدام الدولة لوسائل المنع بالإكراه هو السبيل العملى الوحيد فى التعامل مع البروتستنتية (٨٤) ، وألح الحبر تلو الحبر على الملك بهذه الحجة ، وهى أن استقرار حكومته يرتكز على النظام الاجتماعى ، الذى يرتكز على الفضيلة ، التى تنهار إذا لم يدعمها دين الدولة . وشارك العلمانيون الكاثوليك فى هذه الحجة ، وأباح القضاة الحكومة عن صدامات مكدرة للأمن بين المذهبين المتنافسين فى المدن — هجمات كاثوليكية على المدارس والجنازات والبيوت البروتستنتية ، وأعمال انتقام بروتستنتية من نفس النوع .

وشيئاً فشيئاً أذعن لويس لهذه الحملة مخالفاً فى ذلك فطرته الأميل إلى الخير ، وإذ كان على الدوام فى حاجة للمال ينفقه على الحرب والأناقة ، فقد وجد رجال الدين يقدمون له منحاً كبيرة شريطة أن يقبل آراءهم . ودفعته عوامل أخرى فى نفس الاتجاه ، فلقد كان يشجع — بل يرشو — تشارلز الثانى لكى يحول انجلترة إلى الكاثوليكية ، فكيف يتأتى فى الوقت ذاته أن يسمح بالبروتستنتية فى فرنسا ؟ ألم يوافق البروتستنت فى صلح أوجزبورج (١٥٥٥) وبعده على المبدأ القائل بأن دين الحاكم يجب أن يفرض على رعاياه؟ وألم ينف الحكام البروتستنت فى ألمانيا وفى الأقاليم المتحدة الأسر التى رفضت ديانة الأمير ؟

وكان لويس ، منذ أن بدأ حكمه الفعلى قد أصدر — أو أصدر وزراؤه بموافقته — سلسلة من المراسيم التى اتجهت إلى إلغاء مرسوم التسامح إلغاء تاماً . ففى ١٦٦١ حرم على البروتستنت العبادة فى معظم مقاطعة جكس ، قرب الحدود السويسرية ، بحجة أن جكس ضمت إلى فرنسا بعد صدور المرسوم ، وكان يعيش فى هذا الاقليم سبعة عشر ألف بروتستنتى ، وأربعمائة كاثوليكى فقط[٨٥] . وفى ١٦٦٤ جعلت الترقية إلى طبقة معلمى الحرف فى الطوائف الصناعية عسيرة إلا على الكاثوليك[٨٦] ، وفى ١٦٦٥ سمح للصبيان فى الرابعة عشرة والبنات فى الثانية عشرة بقبول اعتناق الكاثوليكية وترك آبائهم ، الذين يلزمون عندها بأن يدفعوا لهم راتباً سنوياً لإعالتهم[٨٧] . وفى ١٦٦٦ حظر على الهيجونوت إنشاء كليات جديدة ، أو الاحتفاظ بمعاهد لتعليم أبناء الأشراف ، وفى ١٦٦٩ تقرر اعتبار هجرة الهيجونوت جريمة يعاقب عليها المهاجر بالاعتقال إذا وقع فى قبضة السلطات ومصادرة بضائعه[٨٨] . وكان كل من ساعد هيجونوتيا على الهجرة عرضة للحكم بتشغيله فى سفن الأسرى مدى الحياة[٨٩] . وفى ١٦٧٧ سمح لويس بوقف « صندوق للمهتدين » تصرف منه مبالغ ، متوسطها ستة جنيهات للفرد ، لكل هيجونوتى يقبل اعتناق الكاثوليكية . وضماناً لثبات المهتدين على الكاثوليكية أصدر مرسوماً (١٦٧٩) يقضى بنفى جميع المرتدين ومصادرة أملاكهم[٩٠] . ثم قطع هذا السيل من التحريمات احتجاج ناخب براندنبورج وشكاوى كولبير مما تحدثه هذه القوانين بالتجارة من كساد ، واشتغال الملك بحملاته الحربية ، ولكن تصالحه فى ١٦٨١ مع الكاثوليكية ، الآمرة بالاقتصار على امرأة واحـــدة ، رده من جديد إلى الحرب المقدسة على الهيجونوت ؛ فقال لأحد مساعديه إنه يشعر « بالتزام لامناص منه بهداية جميع رعاياه واستئصال شأفة الهرطقة[٩١] » . وفى ١٦٨٢ أصدر خطاباً — وأمر جميع الرعاة البروتستنت بأن يقرءوه على شعبهم — يهدد فيه الهيجونوت « بويلات لا تقاس بما سبقها هولا وفتكا[٩٢] » . وخلال السنوات الثلاث

التالية أغلقت ٥٧٠ كنيسة من كنائس الهيجونوت البالغ عددها ٨١٥ ، وهدم الكثير منها ، وحين حاول الهيجونوت المبادة على أنقاض كنائسهم للهدمة عوقبوا باعتبارهم عصاة متمردين على الدولة .

وكانت حملات الخيالة dragonnades قد بدأت خلال هذا ، فقد كان من العادات القديمة فى فرنسا أن يسكن الجنود فى الكومونات أو البيوت وعلى حسابها . واقترح لوفوا وزير الحرب على الملك (١١ أبريل ١٦٨١) إعفاء معتنقى الكاثوليكية الجدد عامين من هذا الإيواء للجند ، فأصدر الملك الأمر ، وعلى ذلك أمر لوفوا المديرين العسكريين لإقليمى بواتو وليموزان بأن ينزلوا خيالتهم مساكن الهيجونوت ، لاسيما الأثرياء منهم . وفى بواتو سمح المرشال مارياك لجنوده بأن يفهموا أنه لن يسوءه أن يعاملوا مضيفيهم البواسل بشىء من الغيرة الرسولية ، وراح الجند يسرقون الهيجونوت ويضربونهم ويهتكون أعراضهم ، فلما سمع لويس بهذا الشطط وبخ مارياك ، ولما استمر طرده من وظيفته(٩٣). وفى ١٩ مايو أمر بوقف هداية الهيجونوت بطريق إيواء الخيالة ، وشجب أعمال العنف التى ارتكبت فى بعض الأماكن ضد دعاة الإصلاح البروتستنتى(٩٤) . وأبلغ لوفوا المديرين الإقليميين بأن لهم أن يواصلوا حملات الخيالة ، ولكنه نبههم إلى ضرورة حجب كل معلومات عن هذا الأمر عن الملك . وانتشرت حملات الخيالة فى أرجاء كثيرة من فرنسا ، فأدخلت فى الكاثوليكية آلافاً من المهتدين . وأنكرت مدن وأقاليم ـ كمونبلييه ، ونيم ، وبيارن ـ مذهبها الكالفنى على بكرة أبيها ، وتظاهر أغلب الهيجونوت باعتناق الكاثوليكية بعد أن أرهبهم الأمر ، ولكن الألوف هجروا بيوتهم وأملاكهم وهربوا عبر الحدود أو وراء البحر متحدين القوانين . وأبلغ لويس أنه لم يبق بفرنسا غير قلة قليلة من الهيجونوت ، وأن مرسوم نانت أصبح بلا معنى . وفى ١٦٨٤ التمست الجمعية العامة للاكليروس من الملك إلغاء المرسوم كلية ، وتوطيد ملك يسوع المسيح غير منازع من جديد فى فرنسا(٩٥) .

وفى ١٧ أكتوبر ١٦٨٥ ألغى الملك مرسوم نانت باعتباره مرسوماً لا لزوم له الآن فى فرنسا التى تدين كلها تقريباً بالكثلكة . فحظر منذ ذلك التاريخ على الهيجونوت إقامة شعائرهم أو فتح مدارسهم ، وصدر الأمر بهدم كل أمكنة العبادة الهيجونوتية وتحويلها كنائس كاثوليكية ، وأمر رجال الدين الهيجونوت بالرحيل عن فرنسا فى ظرف أربعة عشر يوماً ، ولكن هجرة غيرهم من الهيجونوت حرمت وإلا كان عقاب المهاجرين تشغيلهم فى سفن الأسرى مدى الحياة . ووعد المخبرون بنصف بضائع المهاجرين العلمانيين[٩٦] ، وقضى بأن يعمد جميع الأطفال المولودين فى فرنسا بواسطة القساوسة الكاثوليك وأن يربوا على المذهب الكاثوليكى ، ووعدت فقرة أخيرة بالسماح للقلة الباقية من الهيجونوت بأن يسكنوا بعض المدن آمنين . ونفذت المادة فى باريس وضواحيها ، وحمى رئيس الشرطة التجار الهيجونوت هناك وطمأنهم ، ولم يكن هناك حملات خيالة فى باريس أو قربها ، وكان فى وسع المراقص أن تمضى فى فرساى ، وفى وسع الملك أن ينام مطمئناً مرتاح الضمير ، ولكن حملات الخيالة استمرت فى كثير من الأقاليم بتحريض من لوفوا[٩٧] ، وتعرض الهيجونوت المعاندون للنهب والتعذيب . يقول الحجة الفرنسى الأكبر فى إلغاء مرسوم نانت :

« لقد أذن للجنود أن يقترفوا كل جريمة إلا القتل . فكانوا يكرهون الهيجونوت على الرقص حتى يدركهم الإعياء ، ويقذفون بهم فى البطاطين إلى أعلى ، ويصبون الماء المغلى فى حلوقهم ... ، ويضربون بطون أقدامهم ، وينتفون لحاهم ... ، ويحرقون أذرع مضيفيهم وسيقانهم بلهيب الشموع ... ، ويكرهونهم على أن يقبضوا على الجمر الملتهب بأيديهم ... ، ويحرقون أرجل الكثيرين بإمساكها طويلا أمام نار كبيرة ... ويلزمون النساء بأن يقفن عرايا فى الطريق يحتملن هزء المارة وإهاناتهم . وقد أوثقوا مرة أماً مرضعاً إلى عمود سرير وأمسكوا رضيعها بعيداً عنها وهو يصرخ فى طلب ثديها ، فلما فتحت فاها لتتوسل إليهم بصقوا فيه[٩٨] » .

ويرى ميشليه أن إرهاب ١٦٨٥ المقدس هذا كان أشنع كثيرا من إرهاب عصر الثورة فى ١٧٩٣(٩٩). وقد أكره نحو ٤٠٠,٠٠٠ من « المهتدين » على حضور القداس وتناول القربان ، وحكم على الذين بصقوا قطع القربان المكرسة بعد مغادرتهم الكنيسة بالحرق احياء(١٠٠). وزج بالذكور من الهيجونوت المعاندين فى سجون تحت الأرض أو زنزانات غير مدفأة . أما نساء الهيجونوت الممعنات فى العناد فقد حبسن فى الأديار حيث لقين على غير توقع المعاملة الرحيمة من الراهبات(١٠١).

على أن إقليمين قاوما الإرهاب ببسالة ملحوظة . وسنسمع أنباء الفودوا فى الدوفينيه الفرنسية وبيدمونت السافووية فى مكان لاحق من هذا الكتاب. وفى أودية سلسلة جبال السيفين فى اللانجدوك احتفظ الألوف من الهيجونوت « المهتدين » بإيمانهم سرا ، مترقبين الوقت والفرصة للتحرر . وقد أكد لهم « أنبياؤهم » الذين أدعوا الوحى الإلهى بأن الوقت قد اقترب ؛ فلما بدا أن حرب الوراثة الأسبانية تستوعب الأسلحة الفرنسية ، شكل الفلاحون جماعات متمردة من « الكاميزار Camisards » الذين ارتدوا القمصان البيض ليميز بعضهم بعضا فى الليل . وفى إحدى المعارك قتلوا الأب شيلا الذى كان يضطهدهم بغيرة شديدة ، ففاجأهم فوج من الجند وذبحهم دون تمييز ، وهدم بيوتهم وخرب محاصيلهم (١٧٠٢) . وردت بقية منهم على هذا الهجوم بضراوة ، إلى أن اقنعتهم بالصلح وسائل المرشال فيلار التوفيقية .

ومن بين الهيجونوت الذين سكنوا فرنسا فى ١٦٦٠ والبالغ عددهم ١,٥٠٠,٠٠٠ ، فر نحو ٤٠٠,٠٠٠ فى العقد الذى تخلله إلغاء مرسوم نانت عبر الحدود المخفورة مغامرين بحياتهم . وعاشت مئات قصص البطولة قرنا بأكمله بعد تلك السنين اليائسة . ورحبت الدول البروتستنتية بالمهاجرين فأفسحت جنيف مكانا لأربعة آلاف من الهيجونوت برغم أن سكانها لم يزيدوا على ستة عشر ألفا . وقدم تشارلز الثانى وجيمس الثانى المعونة المادية

للهيجونوت على الرغم من كثلكتهما ، وسهلا استيعابهم فى الحياة السياسية والاقتصادية الإنجليزية . واستقبلهم ناخب براندنبورج استقبالا وديا حتى أن أكثر من خمس سكان برلين فى ١٦٩٧ كانوا فرنسيين وفتحت لهم هولندة أبوابها وبنت مئات البيوت لأيواء الوافدين واقرضتهم المال ليقيموا مصالحهم وكفلت لهم كل حقوق المواطنة ، وانضم الكاثوليك الهولنديون إلى البروتستنت واليهود فى جمع المال لإعانة الهيجونوت . ولم يكتف اللاجئون الشاكرون بإثراء الصناعة والتجارة فى الأقاليم المتحدة ، بل إنهم تطوعوا فى الجيوش الهولندية والإنجليزية التى خاضت القتال ضد فرنسا ، ورافق بعضهم وليم الثالث أو تبعه إلى انجلترة ليساعدوه على جيمس الثانى . أما المرشال شومبيرج الكلفنى الفرنسى الذى أحرز انتصارات للويس الرابع عشر من قبل فقاد جيشا إنجليزيا ضد الفرنسيين ومات وهو يهزمهم فى معركة البوين (١٦٩٠) . وفى كل بلد من هذه البلاد المضيافة جلب الهيجونوت مهاراتهم فى الحرف والتجارة والمال،وأفادت أوربا البروتستنتية كلها من انتصار الكاثوليكية فى فرنسا . وشغل صناع الحرير الفرنسيون حيا بأكمله من أحياء لندن ، وأصبح المنفيون الهيجونوت فى إنجلترة شراح الفكر الإنجليزى ومترجميه لفرنسا ، فمهدوا بذلك لغزو بيكون ونيوتن ولوك للعقل الفرنسى .

واستنكرت قلة من الكاثوليك الفرنسيين سرا تلك المذابح التى رافقت إلغاء المرسوم ، وأمدوا كثيرا من الضحايا بالمؤونة وقدموا لهم الملجأ خفية . ولكن الكثرة العظمى هللت للقضاء على الهيجونوت باعتباره قمة إنجازات الملك ، وقالوا أن فرنسا أصبحت الآن ، فى النهاية ، بلدا كاثوليكيا موحدا . وأثنى كبار الكتاب أمثال بوسويه وفنيلون ولافونتين ولا برويير ، وحتى الأب الجانسني آرنو ، على شجاعة الملك فى تنفيذ ما خالوه إرادة الأمة . وكتبت مدام دسفينييه تقول « ليس هناك أبدع ولا أروع . ولم يصنع

ملك ولن يصنع شيئا أخلد من هذا(١٠٢) » . أما لويس نفسه فأسعده أن يكل – كما خيل إليه – عملا ثقيلا ولكنه مقدس . يقول سان سيمون : –

« لقد آمن أنه جدد عهد تبشير الرسل الأولين . وكتب الأساقفة المدائح التى تشيد به ، وجعل اليسوعيون المنابر تتغنى بالثناء عليه ... ولم يكن يسمع غير الاطراء بينما كان الكاثوليك والأساقفة الاتقياء الصادقون يئنون بالروح إذ يرون الكاثوليك السنيين ينحرفون إلى الخطأ ، والمهرطقين يسلكون مسلك الطغاة الخوارج ، والوثنيين يحاربون الحق والمؤمنين الجاهرين بإيمانهم والشهداء . ولم يستطيعوا أن يطيقوا هذا السيل من الحنث وتدنيس المقدسات(١٠٣) » .

وكان سان — سيمون وفوبان من الفرنسيين القلائل الذين أدركوا منذ البداية تلك الخسارة الاقتصادية التى ألحقها بفرنسا نزوح هذا العدد الكبير من المواطنين الكادحين . وفقدت كان صناعة نسيجها ، وتور ثلاثة أرباع أنوال الحرير فيها . ومن بين الستين مصنعا للورق فى إقليم أنجوموا لم يبق سوى ستة عشر ، ومن بين ١٠٩ متجرا فى مدينة ميزيير لم يبق سوى ثمانية ، ومن بين أربعمائة مصبغة فى تور لم يبق سوى أربع وخمسين(١٠٤) . واضمحلت ثغور كرسيليا لفقدها الأسواق فى بلاد أصبحت الآن بفضل جهود الهيجونوت وإرشادهم تنتج ما كانت من قبل تستورده من فرنسا . وقضى جزئياً على حركة التعمير الكبرى التى أدخلها كولبير على الاقتصاد الفرنسى ، ونزحت الصناعات التى جاهد فى سبيل تنميتها فى فرنسا لتغذى منافسيها . ولما هبطت إيرادات الدولة من الصناعة هبوطاً حاداً وقعت الحكومة من جديد فى أيدى المرابين الذين انقذها كولبير من براثنهم . وفقدت البحرية الفرنسية تسعة آلاف بحار ، والجيش ستمائة ضابط واثنى عشر ألف جندى ، ولعل نضوب البحرية والجيش على هذا النحو كان من عوامل الهزائم التى أوشكت أن تحطم فرنسا فى حرب الوراثة الأسبانية .

كذلك شددت همجية الاضطهاد الرهيبة واستغاثات المهاجرين من عزيمة أوربا البروتستنتية على الاتحاد ضد فرنسا .

على أن إلغاء المرسوم ربما كان معيناً غير مباشر للفنون والعادات ولطائف الحياة فى فرنسا . ذلك أن الروح الكلفنية المتشككة فى الزينة والصور المنحوتة والمرح الطائش تبطت الفن والأناقة والظرف . ولو أن فرنسا أصبحت بيوريتانية لكانت شذوذاً وخطأ . ولكن إلغاء المرسوم كان كارثة على الدين الفرنسى . لقد لاحظ بيكون من قبل أن مشهد الحروب الدينية كان خليقاً بأن يجعل لوكريتوس — لو رآه — « سبعة أضعاف ما كان أبيقورية » وإلحاداً(١٠٥) . « فماذا تراه كان قائلا الآن ؟ لم تبق نقطة توقف للعقل الغالى بين الكاثوليكية والإلحاد . وبينما أفادت البروتستنتية فى سويسرة وألمانيا وهولندة وانجلترة فى الإعراب عن التمرد على الكنيسة ، لم يبق فى فرنسا أداة استنكار كهذه . فوجدت حركة الانتقاض على الرومانية أنه أيسر لها أن تكون شكاكة خالصة من أن تكون بروتستنتية سافرة . وانتقلت النهضة الفرنسية ، غير المعوقة من البروتستنتية ، رأساً إلى حركة التنوير بعد موت الملك .

٧ - بوسويه : ١٦٢٧ - ٨٨

بيد أن الكنيسة الفرنسية كانت ظافرة ولو مؤقتاً ، وتربعت على عرش بهائها وسلطانها . وكانت رغم ماشاب روحها الجماعية من تعصب ، وما عاب سلطتها من قسوة ، تضم أرقى نخبة من الرجال فى أوربا تعليما ، وكان قديسوها ينافسون طغاتها . وكان من أساقفتها نفر ذوو نزعة إنسانية ، عاكفون فى إخلاص على الخير العام كما رأوه . ودخل اثنان منهم الأدب الفرنسى دخولا شارف فى سنائه دخول بسكال ، وكان فى زمانهما أكثر بروزاً . وقلما تجد بين رجال الكنيسة الفرنسيين من ضارع فى سمعته بوسيويه ، أو فنيلون فى شعبيته .

أما جاك بنين بوسويه (واسمه الأوسط Bénigne — أى اللطيف — كان أنسب لفنيلون) فقد ولد فى أسرة ثرية لمحام بارز وعضو فى برلمان ديجون (١٦٢٧) . نذره أبواه للقسوسية ، وجز شعر رأسه فى الثامنة ، وحين بلغ الثالثة عشرة عين كاهناً فى كاتدرائية متز . وفى الخامسة عشرة أرسل إلى كلية نافار بباريس . وفى السادسة عشرة كان قد بلغ من الفصاحة منزلة حملت نساء الأوتيل درامبوبيه المثقفات على إقناعه بأن يلقى عليهن عظة فى منتصف سهرة الصالون رغم ماطبع عليه من كبرياء مقترنة بالخجل . وبعد أن تخرج بمرتبة الشرف عاد إلى متز ورسم قسيساً وتقدم بعد قليل لنيل درجة الدكتوراه فى اللاهوت . وقد راعه أن يجد أن عشرة آلاف من بين الثلاثين ألف نفس فى متز كانوا من البروتستنت الهالكين . ودخل فى جدل مهذب مع بول فيرى الزعيم الهيجونوتى ، وقد سلم له ببعض المفاسد فى الممارسات الكاثوليكية ، ولكنه زعم أن الانشقاق رغم ذلك شر أعظم . وظل على علاقات ودية مع فيرى اثنتى عشرسنة ، تماما كما سنراه فى فترة لاحقة يجاهد جهاداً حبياً مع ليبنتز فى سبيل إعادة توحيد العالم المسيحى . ولما سمعته آن النمساوية يعظ فى متز خيل إليها إنه أرقى من تلك البيئة التى لاتليق بمواهبه ، وأقنعت الملك بأن يدعوه إلى باريس ، فانتقل إليها فى ١٦٥٩ .

ووعظ أول الأمر جماهير بسيطة فى دير سان لازار برعاية فانسان دبول . وفى ١٦٦٠ وعظ جمهوراً عصريا فى كنيسة « لى مينيم » قرب البلاس رويال . وسمعه الملك ، فتبين فى الخطيب الشاب مزيجا متوازنا من البلاغة ، واستقامة العقيدة ، وقوة الخلق . فدعاه لإلقاء عظات الصوم الكبير فى ١٦٦٢ باللوفر ، واختلف إلى هذه الخطب فى تقوى واضحة ، اللهم إلا فى ذلك الأحد الذى انطلق فيه على جواده مسرعا ليسترد لويز دلا فاليير من الدير . وحفز حضور الملك هذه العظات بوسويه على أن ينقى أسلوبه من الخلافات الرينية ، والاستشهادات السكولاستية ، والحجج الجدليه .

ذلك أن أناقة البلاط انتقلت إلى كبار الأكليروس ، فأثمرت عهداً من البلاغة المنبرية ينافس البلاغــه القانونية التى اشتهر بها ديموستين وشيشرون . وفى أثناء السنوات الثمانيه التالية وفق بوسويه فى أن يكون الخطيب المفضل فى كنائس القصر ، ثم أصبح المرشد الروحى لعدد من كبريات النبيلات مثل هنرييتا «مدام» دورليان، ومدام دلو نجفيل، ومدموازيل دمو نبانسيه(١٠٦) وكان فى بعض عظاته يوجه الخطاب إلى الملك مباشرة ، مغالياً فى تملقه عادة، ولـكنه دعاه مرة بحرارة إلى أن يهجر زناه وفجوره ويعـود إلى زوجته . ففقد برهة رضاء الملك، ولـكنه استرده حين هدى تورين إلى الـكاثوليكيه. وفى ١٦٦٧ اختاره لويس ليؤبن آن النمساوية فى مأتمها ، وبعد عامين ألقى عظه فوق جثمان هنرييتا ماريا ملـكة انجلترة الأرملة ، وفى ١٦٧٠ اضطلع بواجب أليم هو تأبين هنرييتا الصغرى ، تائبته المحبوبة التى فاضت روحها بين ذراعيه فى فتنة صباها التى لم يكتب لها بقاء طويل .

والعظتان اللتان أبن بهما تشارلز الثانى ملك انجلترة وأخته هما أشهر العظات قاطبة فى الأدب الفرنسى — لأن خطاب البابا أوربان الثـانى الذى مازال يفوقهما شهرة ، والذى استنفر فيه أوروبا إلى الحرب الصليبيـة الأولى (١٠٩٥) — هذا الخطاب كان باللاتينية وإن ألقى على أرض فرنسية. واستهل بوسويه أول هذين التأبينين بموضوعه الجرىء المفضل ، وهو أن على الملوك أن يتعلموا من دروس التاريخ ، وأن الانتقام الإلهى سوف يحل بهم إن لم يسـتعملوا سلطتهم لخير الشعب ، ولـكنه بدلا من أن يرى فى تشارلز الأول ملك انجلتره مثالا على هذا العقاب ، لم يجد فيه عيباً سوى فرط رأفته ، ولم يجد عيباً على الاطلاق فى زوجته الوفية ، فصور الملـكة المتوفاة قديسة جاهدت لتهدى زوجها وانجلترة إلى الـكاثوليكية . ثم استطرد بإسهاب فى موضوع آخر حبب إلى نفسه ، وهو تـكاثر الملل والنحـل البروتستنتية التى لا حصر لهـا ، وفوضى الأخلاق المنبعثة من اضطراب العقيدة ، وقال : إن « التمرد الـكبير » كان عقاباً إلهياً على مروق انجلتره

من كنيسة روما ، ولكن ما كان أروع سلوك الملكة بعد إعدام زوجها على هذا النحو الإجرامي الرهيب ! لقد تقبلت أحزانها كفارة وبركة ، وحمدت الله عليها وعاشت أحد عشر عاماً في صلاة متواضعة صابرة، وأخيراً أثيبت على تمها ، فرد ابنها إلى عرشه ، وكان في وسع الملكة الأم أن تسكن القصور من جديد ، ولكنها آثرت عليها ديراً في فرنسا ، ولم تستعمل ثروتها الجديدة إلا في الاستكثار من أعمال البر .

وكان أشد من هذه تأثيراً وأوثق قرباً للتاريخ وللذكريات الفرنسية تلك العظة التي ألقاها بوسويه بعد عشرة شهور فوق جثمان هنريتا آن . وكان قد رسم قبيل ذلك أسقفاً لكوندوم في جنوب غربي فرنسا ، ومن أجل هذا الخطاب جاء إلى كنيسة دير سان — دني في كل بهائه الأسقفي ، يتقدمه المنادون ، وعلى رأسه تاج الأسقفية، وفي أصبعه تتألق الزمردة الكبيرة التي أهدته إياها الأميرة المتوفاة . وفي مثل هذه العظات كان يحد من انفعال الخطيب تفكيره في الموت في صورة عامة ، أما الآن فقد كان الموت موت واحدة كانت حتى الأمس القريب مسرة الملك وبهاء البلاط ، وأجهش الحبر الجليل بالبكاء وهو يذكر كيف فوجيء القوم مفاجأة أليمة بهذه اللطمة التي جعلت فرنسا كلها تنوح وتتعجب من طرق الله . ثم وصف هنريتا لا بموضوعية فاترة ، بل بتحيز المحبة — « لقد كانت على الدوام لطيفة مسالمة سمحة خيرة (١٠٧) » — واكتفى بالإلماع في إيجاز حكيم إلى أن سماحتها لم تتكافأ مع فضائلها . ثم تجاسر حتى هذا الأسقف الأريب ركن السنية الركين وحارسها الأمين — تجاسر لحظة على أن يسأل الله لم يزدهر كل هذا الشر والظلم على الأرض (١٠٨) . ثم عزى نفسه وجمهوره بذكرى تقوى هنريتا في احتضارها ، وبالأسرار المقدسة التي طهرتها من كل علاقاتها الأرضية ، فلا ريب إذن أن روحاً رقيقة مطهرة كروحها تستحق الخلاص ، بل إنها لتزين الفردوس نفسه !

وبسبب خطأ نادر في الحكم على الأخلاق عين لويس بوسويه (١٦٧٠)

معلما للدوفان ، متأثراً فى ذلك ببلاغته تلك — وعهد إليه بتدريب ذلك الصبى المتخلف ، المتبلد الحس ، على المعرفة والخلق اللازمين لحكم فرنسا . وانصرف بوسويه مخلصا لهذه المهمة . فاستقال من أسقفيته ليكون قريباً من تلميذه القاصر ومن البلاط ، وكتب للويس الصغير كتيبات جادة فى تاريخ العالم والمنطق والإيمان المسيحى والحكم وواجبات الملك ، مما كان خليقاً بأن يجعل من الصبى هولة من الكمال والقوة.

وفى إحدى هذه المقالات المسماة « السياسة مستقاة من كلام الأسفار المقدسة » (١٦٧٩ — ١٧٠٩) دافع بوسويه عن الملكية المطلقة وحق الملوك الإلهى بغيرة فاقت غيرة الكردينال بيلارمين فى تأييده لسيادة البابوات. ألم يكتب فى العهد القديم أن « الله أعطى لكل شعب حاكمه »(١٠٩) وفى العهد الجديد بكل سلطان القديس بولس « إن السلاطين مرتبة من الله (١١٠) ، أجل ، ولقد أضاف الرسول قوله « إذن فكل من يقاوم السلطة يقاوم ترتيب الله ، والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة » . واضح إذن أن كل من يقبل الكتاب المقدس كلمة الله يجب أن يكرم الملك باعتباره خليفة لله ، أو كما قال أشعياء النبى عن كورش إنه « مسيح الرب (١١١) » . إذن فشخص الملك مقدس، وسلطة الملك مقدسه ومطلقة ، والملك لا يسأل إلا أمام الله . ولكن هذه المسئولية تضع على عاتقه التزامات قاسية . فعليه فى كل لفظ وعمل أن يطيع قوانين الله ، ومن حسن حظ لويس أن إله التوراة كان عطوفاً على تعدد الزوجات .

كذلك كتب بوسويه للدوفان (١٦٧٩) كتابه الشهير « حديث عن تاريخ العالم » . ذلك أنه حين روعه إلماع ديكارت إلى أن جميع الأحداث فى العالم الموضوعى — إذا افترضنا لها دفعة مبدئية من الله — يمكن أن تفسر آليا بأنها منبعثة من قوانين الطبيعة ودستورها ، رد عليه بأن كل حدث كبير فى التاريخ إنما هو — على النقيض من ذلك — جزء

من خطة إلهية ، وعمــل من أعمال العناية الإلهية أفضى إلى ذبيحة المسيح ونمو المسيحية لتصبح « مدينة متسمة لله » . وتناول الـكتاب المقدس ثانية باعتباره موحى من الله ، فركز التاريخ كله على سيرة يهود العهد القديم والأمم التى أثارتها المسيحية . « لقد استخدم الله الأشوريين والبابليين ليعاقب شعبه المختار ، والفرس ليردهم إلى وطنهم ، والاسكندر ليحميهم ، وأنطيوخس ليمتحنهم ، والرومان ليصونوا حرية اليهود ضد ملوك سوريا » . فإذا بدا لنا فى هذا الرأى حماقة ، فان علينا أن نذكر أنه كان أيضا رأى كتاب التوراة الذين وحد بوسويه بينهم وبين الله فى ثقة . ومن ثم فقد بدأ بخلاصة لتاريخ العهد القديم ، وقام بهذه المهمة بمـا عرف عنه من ولع بالنظام والإيجاز وقوة البلاغة . واعتمد ترتيبه الزمنى على تقويم أوشير رئيس الأساقفة ، فأرخ الخليقة بسنة ٤٠٠٤ ومر بوسويه مرور الـكرام بتلك الأمم التى لم يشر إليها الـكتاب المقدس ، ولـكنه وصفها وصفا مجملا ينم على بصيرة وقوة ملحوظتين ، وأبدى فيهما عطوفا للفضائل والإنجازات الوثنية . وقد رأى بعض التقدم خلال مشكال الإمبراطوريات الصاعدة والساقطة ؛ واتخذت فـكرة التقدم جسدا ولحما فى كتاباته ، وكذلك فى كتابات شارل بيرو وغيره من المدافعين المعاصرين عن المحدثين ضد القدامى ، ومهدت الطريق من بعيــد لطورجو وكوندرسيه . وخلق الـكتاب رغم كل عيوبه الفلسفة الحديثة للتاريخ ، وحسب رجل واحد أن يحقق انجازا كهذا .

على أن الأمير تلميذ بوسويه لم يقدر شرف تأليف الـكتب العظيمة لتعليمه . فقد كان فى روح بوسويه من الجد والصرامة ما لا يجمله المعلم العاطف المرضى . وكان أنسب لطبيعته أن يرشد فى رفق لويز دلافاليير لتهرب من حياة الزنا إلى الدير ، وقد ألقى العظة حين قطعت على نفسها عهد الرهبنة . وفى ذلك العام (١٦٧٥) جاهر ثانية بلوم للملك الزير ، واستمع إليه لويس فى صبر نافد ، ولـكنه أعاده لمنصب الأسقفية وعينه أسقفاً على مو (١٦٨١)

على قرب من فرساى يتيح له أن يتذوق فخامة البلاط وبهاءه . وكان طوال ذلك الجيل المتكبر ، الشارح والقائد العمدة للاكليروس الفرنسى . وقد وضع لأجلهم « المواد الأربع » التى أكدت من جديد « الحريات الغالية » للكنيسة الفرنسية إزاء السيطرة البابوية . ولقد أفقده عمله هذا قبعة الكردينالية ، ولكنه أصبح بابا فرنسا .

ولم يكن بالبابا السيئ . فهو مع إصراره على كرامة الأسقفية ورعاية مراسمها ظل رحيما لطيفا ، وبسط عباءته فوق ألوان كثيرة من المعتقد الكاثوليكى . وقد وافق بسكال على إدانة الشطط الذى تورط فيه الإفتاء الدينى دون أن يغتفر له السخط والاحتقار اللذين ألهبا رسائله الإقليمية . ففى ١٧٠٠ أقنع جمعية الاكليروس العامة باستنكار ١٢٧ قضية أخذت من فتاوى المفتين اليسوعيين ، وقد ظل على علاقات ودية مع آرنو وغيره من الجانسنيين . وذاع عنه أنه كان متسامحا فى كرسى الاعتراف ، وأنه استنكر مظاهر التقشف فى العلمانيين ، ولكنه أطرى بحرارة نسك رانسيه ، وكان يختلف بين الحين والحين إلى خلوة فى لاتراب ، ويتمنى أحيانا أن يظفر بسلام صومعة الراهب . ولكن بريق البلاط غلب طموحه للقداسة ، ولوث لاهوته بأطماع الارتقاء فى مراتب الكنيسة والدولة . وقد توسل مرة إلى رئيسة الدير فى مو قائلا : « صلى لأجلى لكيلا أحب العالم(١١٢) » . وقد أصبح أشد صرامة فى أخريات أيامه . وعلينا أن نغتفر له تنديده بالمسرحيه وبموليير فى كتابه « حقائق عامة عن الملهاة » (١٦٩٤) لأن موليير لم يعرض الدين إلا فى صورته المتزمتة المناقضة ، ولم ينصف رجالا مثل فانسان ديول .

كان بوسويه أشد تعصبا نظرياً منه عمليا . فقد رأى أن من السخف أن يظن أى ذهن فردى مهما عظم ذكاؤه أنه يستطيع أن يكتسب فى عمر واحد من المعرفة والحكمة ما يؤهله للجلوس فى كرسى القضاء ليحكم على

تقاليد ومعتقدات الأسرة والمجتمع والدولة والكنيسة . فالحس المشترك « Sens commun » أجدر بالثقة من التفكير الفردى ، ولا يعنى الحس أو الإدراك المشترك فكر الأشخاص العاديين ، بل الذكاء الجماعى لأجيال علمتها قرون من الخبرة ، الذكاء الذى يتمثل فى أعراف النوع الإنسانى ومعتقداته. فمنذا الذى يستطيع أن يزعم أنه يعرف خيرا من هؤلاء جميعا حاجات النفس البشرية والإجابات عن الأسئلة التى لا تستطيع المعرفة وحدها أن تجيب عنها؟ ويترتب على هذا أن الذهن البشرى فى حاجة إلى سلطة تعطيه السلام، والتفكير الحر لا يستطيع إلا أن يدمر ذلك السلام ، والمجتمع البشرى فى حاجة إلى سلطة تعطيه الأخلاق ، ولكن التفكير الحر بتشككه فى المصدر الإلهى للقانون الخلقى إنما يهدم النظام الأخلاقى برمته . فالهرطقة إذن خيانة للمجتمع والدولة كما أنها خيانة للكنيسة ، و« الذين يؤمنون بأن الملك ينبغى ألا يستعمل القوة فى أمور الدين ... يرتكبون خطأ مجانبا للتقوى(١١٣) » ولقد آثر الأسقف الإقناع على الإكراه فى هداية المهرطقين ، ولكنه دافع عن الإكراه باعتباره الملاذ الأخير ، ورحب بإلغاء مرسوم نانت لأنه « المرسوم الورع الذى سيكيل للهرطقة الضربة القاضية » . ونفذ القانون فى إقليمه بكثير من التسامح ، حتى لقد كتب الناظر الملكى يقول « ليس فى الإمكان عمل شىء فى أسقفية مو ، لأن ضعف الأسقف يقف عقبة فى سبيل هداية الهيجونوت(١١٤) ». وقد ثبت معظم الهيجونوت فى تلك المنطقة على مذهبهم .

وكان إلى النهاية يملل نفسه بأن الحجة قادرة أن تكسب حتى هولنده وألمانيا وإنجلترة وتردها للإيمان القديم . وسنراه يفاوض لايبنتز سنوات عديدة على خطة الفيلسوف التى اقترحها لإعادة توحيد القطاعات المنشقة من المسيحية . وفى ١٦٨٨ كتب رائعته « تاريخ ملل الكنائس البروتستنتية » — وهو الذى قال « بكل » إنه « ربما كان أخطر كتاب وجه ضد البروتستنتية(١١٥) . وقد تميزت مجلداته الأربعة بالدراسة الشاقة ، وكانت كل صفحة فيها تدعم بالمراجع ، وهو لون من الأمانة كان بدأ يتجسد .

وبذل الأسقف فى كتابه محاولة ليكون منصفا . فسلم بمفاسد الكنيسة التى تمرد عليها لوثر ، ورأى الكثير مما يستحق الإعجاب فى خلق لوثر ، ولكنه لم يستطيع أن يسيغ الفظاظة المبتهجة التى اختلطت فى لوثر بالبسالة الوطنية والتقوى الرجولية . ثم صور ملانكتون بصورة تكاد تكون صورة الحب . غير أنه كان يأمل فى تفكيك ولاء أتباع هؤلاء المصلحين لهم باظهار مواطن ضعفهم الشخصى وخلافاتهم اللاهوتية وقد هزأ بالفكرة التى زعمت أن لكل إنسان الحريه فى تفسير الكتاب المقدس لنفسه وتأسيس دين جديد على قراءة جديدة له ، فكل من خبر الطبيعة البشرية يستطيع أن يتنبأ بأنه لو ترك لهؤلاء الحبل على الغارب لأسفر هذا عن تفتيت المسيحية إلى متاهة من الملل والنحل ، وتفتيت الأخلاق إلى فردية لا يستطيع أن يكبح جماح غرائز الغاب فيها سوى الاستكثار من الشرطة استكثاراً لانهاية له . فمن لوثر إلى كالفن إلى سوكينوس — من رفض البابوية ، إلى رفض سر القربان إلى رفض المسيح — ثم من التوحيد (رفض التثليث) إلى الإلحاد ، تلك هى الدرجات الهابطة شيئاً فشيئاً إلى انحلال الإيمان . ومن الثورة الدينية إلى الثورة الاجتماعية ، ومن رسائل لوثر إلى حرب الفلاحين، ومن كالفن إلى كرمويل إلى « المسوين » إلى قتل الملك ؛ تلك درجات منزلقة فى تحلل النظام الاجتماعى والسلام . ولا يستطيع سوى دين ذى سلطان أن يعطى الوازع للأخلاق ، ويمنح الاستقرار للدولة ، ويسلح الروح البشرية بالقوة وهى تواجه الحيرة وفقد الأحباء والموت .

لقد كان الكتاب حجة قوية، شديدة التأثير بما حوت من ثقافة وبلاغة، محتوية على صفحات لاضريب لها فى نثر ذلك العصر الفرنسى إلا فى جدليات بسكال المنيفة و « خواطره » ، ولولا أن التجاهه للعقل قد أحبطه التجاؤه للقوة فى فظاعات إلغاء المرسوم لحقق نجاحاً أعظم . فقد ظهرت فى الدول البروتستنتية عشرات الردود المفندة لحجج الكتاب تشجب بقوة ذلك

التظاهر بالاحتكام إلى العقل فى رجل حبذ النهب والسلب والنفى والمصادرة. والاسترقاق فى سفن تشغيل الأسرى حججا للدفاع عن المسيحيه الكاثوليكيه. وتساءل أصحاب الردود ألم يكن هناك ملل مختلفه فى الكاثوليكيه أيضاً ؟ وأى قرن خلا من الانقسامات فى الكنيسه — من الكاثوليك الرومان ، والكاثوليك اليونان ، والكاثوليك الأرمن ، والكاثوليك الشرقيين ؟ وألم يكن جانسنيو البور — رويال فى تلك اللحظه يقتتلون مع إخوانهم من الكاثوليك أعضاء جماعة يسوع ؟ وألم يكن الأكليروس الغالى بزعامة بوسويه نفسه فى نزاع مر مع دعاة سلطان البابوية المطلق كاد يبلغ حد الانشقاق على روما ؟ وألم يكن بوسويه يقاتل فنيلون ؟

٨ - فنيلون . ١٦٥١ - ١٧١٥

كان فرانسوا دسالنياك دلا موت — فنيلون ، النبيل المولد ، الثلاثى الاسم ، كبوسويه سنياً طموحاً ، أسقفا ورجل بلاط ، ومعلما لأمير من البيت المالك ، وكاتباً من فحول النثر . ولكنه فى غير ذلك كان بينه وبين بوسويه مابين السماء والأرض من تباين . كتب سان — سيمون معرباً عن إعجابه بالرجل يقول :

« رجل فارع القوام نحيل الجسد قوى البنية شاحب الوجه كبير الأنف له عينان تقدحان الشرر والذكاء . فى سحنته ما يوحى بأنها تتألف من متناقضات ، ومع ذلك، فإن هذه المتناقضات على نحو ما لا تؤذى الناظر . فوجهه أنيق ووقور ، رزين مرح ، يطالعك منه اللاهوتى والأسقف والنبيل على السواء ، وفى هيئته كما فى شخصه يرى الناظر قبل كل شىء رقة وتواضعاً وقدراً فائقاً من رفعة الذهن . لقد كان عسيراً على الناظر إليه أن يحول عينيه عن وجهه(١١٦) » .

وعند ميشليه أن « فيه شيئاً من الشيخوخة منذ ولادته(١١٧) » —

لأنه كان ثمرة الازدهار الأخير لإقطاعى مكتهل فى بيريجوز تزوج آنسة نبيلة رغم فقرها ، ضارباً صفحا عن تذمر أبنائه الكبار ، وأقصى الابن الجديد عن المال بنذره للكنيسة . وربته أمه ، فنشب على أناقة فى الحديث ورهافة فى الحس أشبه بأناقة حديث النساء ورهافة حسهن . وقد أحسن تثقيفه فى الآداب القديمة على يد معلم خاص ويسوعيى باريس ، فأصبح أديباً لا قسيساً فحسب . وكان فى استطاعته أن يبارى أى مهرطق فى الاستشهاد بأقوال الوثنيين ، ويكتب الفرنسية بأسلوب حساس مرهف مهذب هو نقيض أسلوب بوسويه الخطابى ، الفحل ، الجزل

رسم كاهنا فى الرابعة والعشرين (١٦٧٥) ، وسرعان ما رقى رئيساً لدير «الكاثوليك الجدد» . وهناك اضطلع بمهمة شاقة هى رد الشابات اللاتى أبعدن عن البروتستنتية حديثاً إلى حظيرة الإيمان الكاثوليكى . وقد استمعن إليه أول الأمر على مضض ، ثم فى استسلام ، ثم فى محبة ، لأنه كان يسيراً على المرء أن يقع فى غرام فنيلون ، ثم إنه الرجل الوحيد المتاح لهن . وفى ١٦٨٦ أرسل إلى إقليم لاروشل ليعاون على هداية الهيجونوت . وقد حبذ مرسوم الإلغاء ، ولكنه استنكر العنف ، وأنذر وزراء الملك بأن هداية الناس بالإكراه لن تكون إلا سطحية ومؤقتة . ولما عاد إلى الدير بباريس نشر (١٦٨٧) « رسالة فى تعليم البنات » تكاد تستشف فيها روح روسو فى دفاعها عن الوسائل اللينة فى التربية . ولما عين الملك الدوق دبوفيلييه مربياً لحفيده دوق برجنديه ، البالغ من العمر ثمانية أعوام ، طلب إلى فنيلون أن يتولى تعليم الصبى (١٦٨٩) .

أما الدوق الصغير فكان متكبراً عنيداً مشبوب العاطفة ، فى طبعه أحياناً شراسة وقسوة ، ولكنه أوتى ذهناً متألقا وذكاء متوقدا . وأحس فنيلون أن الدين وحده هو الكفيل بترويضه ، فأشربه مخافة الله ومحبته معاً ، واكتسب فى الوقت نفسه احترام تلميذه بأخذه بنظام حازم خفف

من شدته فهم عطوف لدور المراهقة . وقد راودته الأحلام باصلاح فرنسا عن طريق تربية ملكها للمستقبل . فعلم الغلام سخافة الحرب ، وضرورة النهوض بالزراعة بدلا من تثبيط همم الفلاحين بالضرائب تجبى لبناء المدن الباذخة ولتمويل الحروب العدوانية . وفى كتابه « حوارات الموتى » الذى ألفه لتلميذه ، وسم بالهمجية « تلك الحكومة التى لاقوانين فيها غير ارادة رجل واحد ... فالحاكم ينبغى أولا وقبل كل شىء أن يكون مطيعاً القانون ، فاذا ابتعد عن القانون لم يعد لشخصه قيمة » . وكل الحروب حروب أهلية ، لأن الناس جميعاً أخوة ، يدين كل منهم للنوع الإنسانى — وهو الدولة الكبرى — بدين أعظم كثيراً من دينــه للبلد الذى ولدفيه(١١٨) » . أما الملك ، الذى لم يكن ضالعا فى هذا التعليم الذى لا تفهمه غير القلة ، والذى رأى تحسنا عجيباً فى خلق حفيده ، فقد كافأ فنيلون برئاسة أسقفية كامبريه (١٦٩٥) . وأخجل فنيلون أحباراً كثيرين باقامته تسعة أشهر من كل عام فى مقر رئاسته الدينية . أما الشهور الباقية فكان ينفقها فى البلاط تواقا للتأثير فى السياسة ، مواصلا أحياناً تعليم الدوق .

وخلال ذلك كان قد التقى بالمرأة التى قدر لها أن تكون « المرأة القاضية عليه » بمعنى الكلمة . هــذه المرأة ، واسمها مدام جان مارى دلا موت — جويون ، التى تزوجت فى السادسة عشرة ، وترملت فى الثامنة والعشرين وهى جميلة غنية ، تهافت الخطاب على طلب يدها ، ولكنها كانت قد تلقت تدريباً دينيا مكثفا ليحصنها ضد الرجال الطامعين ، ولم تجد لتقواها منصرفا كافيا فى المراعاة الصورية لشعائر العبادة الكاثوليكية ، فاستمعت فى تجاوب لمتصوفة زمانها الذين وعدوا بسلام النفس — لا بالاعتراف والتناول والقداس بقدر ما هو بالاستغراق فى تأمل إله كلى الوجود ، وفى استسلام النفس لله استسلاماً كاملا محبا . فى مثل هذه المحبة الالهية لم يعد لأمور الدنيا وزن ، وفى مثل هذا التسامى الروحى يجوز للمرء أن يهمل كل الطقوس

الدينية ومع ذلك يرق إلى السماء ، لا بعد الموت فحسب بل فى الحياة أيضاً .
وكانت محكمة التفتيش قد أدانت القس الأسبانى ميجويل دى مولينوس (١٦٨٧) لأنه بشر بـ « هدوئية » كهذه فى ايطاليا ، ولكن الحركة كانت تنتشر فى جميع أرجاء أوربا ـ فى «تقوية» ألمانيا والأراضى المنخفضة ، وبين الكويكرز وأفلاطونيي كمبردج بأنجلترة ، وبين « المنذورين » فى فرنسا .

وقد بسطت مدام جويون آراءها فى عدة كتب ببلاغة مؤثرة . فزعمت أن النفوس أشبه بالسيول التى انبثقت من عند الله وأنها لن تجد الراحه حتى تفني نفسها فيه تعالى كأنها الأنهار يبتلعها البحر ، فإذا الفردية تتلاشى ، وإذا الوعى بالذات أو بالعالم ، بل الوعى كله ، ينتهى ولا يبقى غير الاندماج فى الله . فى مثل هذه الحال تكون النفس معصومه ، لا ينال منها خير ولا شر ، ولا فضيلة ولا خطيئه . فهما فعلت ففعلها صواب ، ولا تستطيع قوة أن تؤذيها . وقالت مدام جويون لبوسويه أنها لا تستطيع أن تطلب المغفرة على ذنوبها ، لأنه لا ذنوب فى عالم الوجد الصوفى الذى تعيش فيه(١١٩) » . ورأت بعض نساء الطبقه الأرستقراطيه فى هذه الصوفيه لونا رفيعا من التقوى . وكان من بين مريديها السيدات بوفيلييه ، وشوفروز ، وبورتمار ، بل — إلى حد ما — مدام دمانتنون . واستهوى فنيلون نفسه هذا المزيج الساحر من التقوى والثراء والحسن . وكان خلقة هوذاته مزيجا معقداً من الصوفية والطموح والعاطفه الرقيقة . فأقنع مدام دمانتنون بأن تسمح لمدام جويون بالتدريس فى المدرسة التى أسستها زوجه الملك السرية فى سان سير ، وطلبت مانتنون إلى كاهن اعترافها أن ينصحها فى أمر مدام جويون ، فاستشار بوسويه ، ودعا بوسويه المتصوفة لتشرح له تعاليمها ، ففعلت . وتوجس الأسقف الحذر فيها خطرا يتهدد لاهوت الكنيسة وممارساتها ، لأنها لم تستغن عن الاسرار المقدسة والكاهن

فحسب ، بل عن الأناجيل والمسيح أيضاً ، فوبخها ، وناولها القربان ، وطلب إليها أن ترحل عن باريس وتكف عن التعليم . فوافقت أول الأمر ، ولكنها عدلت بعد ذلك . واستطاع بوسويه أن يحمل السلطات على حبسها فى دير ثمانية أعوام (١٦٩٥ — ١٧٠٣) أفرج عنها بعدها شريطة أن تعيش فى هدوء على ضيعة ابنها قرب بلوا ، وهناك ماتت عام ١٧١٧ .

وأراد بوسويه أن يرسم الحدود للتصوف المباح ، فألف كتاباً سماه « تعليم عن حالات الصلاة » (١٦٩٦) وأطلع فنيلون على نسخة من المخطوطة وطلب إليه أن يوافق عليها . وتردد فنيلون ، وكتب كتاباً معارضاً سماه « تفسير أقوال القديسين المأثورة عن الحياة الباطنة » (١٦٩٧) . وأصبح الكتابان اللذان نشرا فى وقت واحد تقريباً مثار نقاش واسع ، احتدم احتدام النقاش حول البور — رويال . أما الملك الذى كان يضع ثقته فى بوسويه فقد عزل فنيلون من وظيفته معلماً لدوق برجنديه ، وأمره بأن يلزم أسقفيته فى كامبرى . وطلب لويس إلى البابا بتحريض من بوسويه أن يشجب كتاب فنيلون . ولكن إنوسنت الثانى عشر تردد ، فهو لم ينس نزعة بوسويه الغالية ، ودفاع فنيلون عن سلطة البابا المطلقة . وضغط لويس على البابا ، فأذعن ، ولكنه توخى غاية الاعتدال فى ادانته لكتاب « الاقوال المأثورة » (مارس ١٦٩٩) . وأذعن فنيلون للحكم فى هدوء .

ثم راح يؤدى واجباته فى كامبرى باخلاص وضمير أكسباه احترام فرنسا ، ولعلهما كانا خليقين باسترضاء بوسويه والملك لولا أن طابعاً نشر (أبريل ١٦٩٩) برضى فنيلون رواية كان قد ألفها لتلميذه الأمير ووضع لها عنوانا بريئاً فى ظاهره « تتمة لأوديسة هوميروس » وهى معروفة لنا باسم (مغامرات تيليماك بن أوليس) . هنا ، وفى أسلوب يفيض رشاقة ونعومة ورقة أنثوية تقريبا ، شرح المعلم اللطيف مرة أخرى فلسفته السياسية المثالية . فترى لسان حاله (منتور) يحذر الملوك بعد أن أقنعهم بسياسة السلام قائلا :

« منذ الآن تكونون كلكم شعباً واحداً تحت أسماء شتى ورؤساء مختلفين . . . فما النوع الإنسانى كله غير أسرة واحدة . . . وكل الشعوب إخوة . . . وما أتعس القوم الفجار الذين ينشدون المجد القامى فى دماء إخوانهم المسفوكة . . . إن الحرب ضرورية أحياناً ، ولكنها معرة الإنسانية . فلا تزعموا لى أيها الملوك إن على المرء أن يبتغى الحرب إن أراد المجد . . . فكل من يؤثر مجده على مشاعر الإنسانية ليس إنساناً بل هو وحش تملؤه الكبرياء ، ولن يكسب غير المجد الزائف ، لأن المجد الحقيقى لا يكون إلا فى الاعتدال والصلاح . . . ويجب ألا يرى الناس فيه رأياً طيبا ، لأنه لم يقم لهم وزناً فى فكره ، وأراق دماءهم فى سفه ليرضى غروراً وحشياً (١٢٠) » .

وقد سلم فنيلون بحق الملوك الإلهى ، ولكن بوصفه قوة منحتهم إياها العناية الإلهية ليسعدوا الناس ، وحقاً تحده القوانين :

« إن السلطة المطلقة تهوى بالرعية جماء إلى درك العبودية . فهم يتملقون الطاغية إلى حد العبادة . وكلهم يرتعدون فرقا لنظرة منه ، ولكن ما إن تهب أضعف نسمة من نسمات التمرد عليه حتى ينهار هذا السلطان القبيح نتيجة شططه . ذلك أنه لم يستمد أى قوة من محبة الشعب (١٢١) » .

فى هذه الأسطر رأى لويس الرابع عشر نفسه موصوفا ، وحروبه مدانة . وبادر أصدقاء فنيلون بالاختفاء من البلاط ، وقبض على طابع « تيليماك » ، وأبلغت الشرطة بمصادرة جميع نسخه . ولكنه طبعه ثانية فى هولندة ، وسرعان ما تداولته الأيدى فى جميع أرجاء العالم القارىء للفرنسية ، وظل أوسع الكتب الفرنسية قراءة وأحبها إلى القراء طوال قرن من الزمان (١٢٢) وأكد فنيلون أن لويس لم يكن فى ذهنه فى هذه الفقرات الناقدة ، ولكن أحداً لم يصدقه . وانقضت سنتان قبل أن يجرؤ دوق برجنديا على الكتابة لمعلمه الأسبق . ثم لانت قناة الملك ، وسمح له بأن يزور فنيلون فى كامبرى .

وعاش رئيس الأساقفة يعلل نفسه بأن تلميـذه سيرث العرش عما قليل ، وعندها يدعوه ليكون وزيره كما كان ريشليو وزيراً للويس الثالث عشر . ولكن الحفيد مات قبل أن يموت الجد بثلاث سنين ، ثم سبق فنيلون نفسه لويس إلى القبر بتسعة أشهر (٧ يناير ١٧١٥) .

أما بوسويه فكان قد سبقهما بزمان . لقد كان تعسا فى أخريات أيامه ، حقا إنه انتصر على فنيلون ، وعلى دعاة السلطة البابوية المطلقة ، وعلى المتصوفة ، ورأى الكنيسة منتصرة على الهيجونوت ، ولكن هذه الانتصارات كلها لم تيسر له قذف الحصى من مثانته . وقد برح به الألم تبريحا جعل من العسير عليه أن يحتمل الجلوس فى المكان الذى أولع بالجلوس فيه فى احتفالات البلاط ، وتساءل الساخرون القساة ، لم لا يستطيع أن يذهب إلى مو ويموت فى هدوء . وقد رأى من حوله ظهور الارتيابية ، ونقد الكتاب المقدس ، والجدليات البروتستنتية العنيفة التى صوبت فى غير تقوى إلى رأسه . فها هو على سبيل المثال ذلك الهيجونوتى المنفى جوريو يخبر العالم بأنه هو ، بوسويه ، أسقف الأساقفة ، والصورة المجسمة للفضيلة والاستقامة ، كذاب أشر يعاشر المحظيات(١٢٣) . وقد بدأ تأليف كتب جديدة للرد على هؤلاء الخصوم السفهاء ، ولكن الحياة كانت تنحسر عنه وهو يكتب ، وفى ١٢ أبريل ١٧٠٤ وضع الموت حداً لآلامه .

ويبدو لأول وهلة أن بوسويه يعين أوج الكاثوليكية فى فرنسا الحديثة . فقد لاح أن المذهب القديم قد استرد كل الأرض التى استولى عليها لوثر وكالفن . وكان رجال الاكليروس يصلحون من أخلاقهم ، وراسين يخصص مسرحياته الأخيرة للدين . وكان بسكال قد أدار دوائر الارتيابية على المرتابين ، والدولة جعلت نفسها وكيلا مطيعا للكنيسة ، والملك أوشك أن يكون يسوعيا .

ومع ذلك لم يكن الموقف بالغ الكمال . فاليسوعيون لم ينقشع من

فوق رءوسهم بعد ذلك الغبار الذى أثارته عليهم رسائل بسكال الاقليمية ، والجانسنية مازالت بخير ، واللاجئون الهيجونوت يؤلبون نصف أوربا على الملك الورع ، والناس يقرأون مونتيني أكثر مما يقرأون بسكال ، وهوبز وسبينوزا وبيل يكيلون اللطمات الهائلة لصرح الإيمان . يقول القديس فانسان دبول (١٦٤٨) ، « يشكو عدة رعاة من أن عدد من يتناولون القربان قد تقلص ، ففى سان — سولبيس نقص العدد ٣٠٠٠ ، ووجد راعى سان — نيكولا — دو — شاردونيه أن ١٥٠٠ من رعايا أبرشيته تخلفوا عن قربان القيامة(١٢٤) » . وقال بيل فى ١٦٨٦ « إن العصر الذى نعيش فيه يحفل بأحرار الفكر والربوبيين ، ويدهش الناس لكثرة عددهم(١٢٥) » « ويسود عدم المبالاة الرهيب بالدين فى كل مكان(١٢٦) » وقد عزا هذا إلى حروب العالم المسيحى وجدلياته . وقال نيكول : ليكن معلوما أن الهرطقة الكبرى فى العالم ليست الكالفنية ولا اللوثرية ، بل الإلحاد(١٢٧) » . وقالت الأميرة بالاتين فى ١٦٩٩ « قل أن يجد المرء الآن شابا لا يشتهى أن يكون ملحداً(١٢٨) » وروى لايبنتز أن فى باريس (١٧٠٣) « تفشت بدعة من يسمونهم العقول القوية ، ويسخر الناس هناك من التقوى . . . وتحت حكم ملك تقى صارم مطلق السلطة ، تجاوزت فوضى الدين كل الحدود التى شهدناها من قبل فى العالم المسيحى(١٢٩) » . وبين ذوى العقول القوية — وهى قوية إلى درجة تكفى للتشكك فى كل شىء تقريبا — نجد سان إفريمون ، ونينون دلانكلو ، وبرنييه ملخص فلسفة جاسندى ، ودوقى نيفير وبوبون . وأصبح « التامبل » الذى كان يوما مقراً لفرسان المعبد (الداوية) فى باريس ، مركزاً لجماعة صغيرة من أحرار الفكر — شوليه وسيرفيان ، ولافار ، الخ — الذين أسلموا تهكمهم بالدين إلى عهد الوصاية . أما فونتنيل ، الذى قارب المائة وتحدى الفناء وأفسح له فى الأجل حتى تبادل النكت مع الموسوعيين ، فكان فى ١٦٨٧ ينشر كتابه (تاريخ النبوءات) ويقوض فى خبث أساس المسيحية المعجز . وهكذا مهد لويس فى نشوة تقواه وورعه الطريق لفولتير .

الفصل الثالث

الملك والفنون

١٦٤٣ — ١٧١٥

---

١ ـ تنظيم الفنون

لم يشهد التاريخ من قبل ولا من بعد ، وربما باستثناء عهد بركليس ، حكومة شجعت الفن ، أو غذته ، أو هيمنت عليه ، كما فعلت حكومة لويس الرابع عشر .

كان ذوق ريشليو الرفيع ومشترياته المختارة بحكمة قد أعانت الفن الفرنسي على أن يفيق من الحروب الدينية . وفى عهد وصاية آن النمساوية كان جامعو التحف الأهليون — من الأشراف ورجال المال — قد بدأوا يتنافسون فى جمع آثار الفن . فاقتنى بيير كروزا المصرفى مائة صورة بريشة تيشان . ومائة أخرى بريشة فيرونوزى ، ومائتين بريشة روبنز ، وأكثر من مائة بريشة فانديك . أما فوكيه فقد جمع فى قصر فوكا رأيناصورا وتماثيل ، وتحفا فنية أقل شأنا ، وكان فى جمعه من التمييز أكثر مما كان فيه من الحكمة والحذر . وورث لويس مقتنياته بعد أن أجهز عليه ، وما لبث العديد من المجموعات الخاصة الأخرى أن جمع فى اللوفر أو فرساى . وكان مازاران قد آثر وضع شطر من ثروته فى الفن دون النقود تجنبا لهبوط قيمة العملة . وقد أسهم ذوقه الإيطالى الرفيع فى تكوين انحياز الملك إلى الفن الكلاسيكى . وأغلب الظن انه هو الذى علم لويس الرابع عشر أن مما يعزز مجد الحاكم أن يجمع الفن ويعرضه ويحتضنه . وقد هيأت هذه المجموعات المثل الحافزة والقواعد الموطدة لتعليم الفن وتطويره فى فرنسا .

وكانت الخطوة التالية هى تنظيم الفنانين. وهنا أيضا كان مازاران سباقاً. ففى ١٦٤٨ أسس أكاديمية التصوير والنحت ، وفى ١٦٥٥ أصدر الملك مرسوما بهذه الأكاديمية فأصبحت الأولى فى سلسلة من الأكاديميات التى قصد بها تدريب الفنانين وتوجيههم إلى خدمة الدولة وتجميلها . والتقط كولبير الخيط حيث تركه مازاران ، وبلغ بهذه المركزية للفن الفرنسى القمة. وكان يتطلع إلى « جعل الفنون تزدهر فى فرنسا أكثر من ازدهارها فى أى بلد آخر (١) » رغم أنه لم يدع لنفسه ملكة الحكم فى أمور الفن . وبدأ بأن اشترى للملك مصنع جوبلان للنسيج المرسوم (١٦٦٢) وفى ١٦٦٤ حصل على منصب المشرف على العمائر ، فأتاح له هذا المنصب هيمنة على المعمار والفنون الملحقة به . وفى ذلك العام أعاد تنظيم أكاديمية التصوير والنحت ، وسماها الأكاديمية الملكية للفنون الجميلة . وكان هنرى الرابع قد أسكن اللوفر طائفة من مهرة الصناع ليزينوا القصور الملكية . فجعل كولبير من هؤلاء الرجال نواة للمصنع الملكى لأثاث التاج (١٦٦٧) . وفى ١٦٧١ أنشأ الأكاديمية الملكية للعمارة ، حيث أغرى الفنانون بالبناء والزخرفة بـ « الذوق الرفيع » الذى يحبذه الملك . وفى هذه الجماعات كلها وضع مهرة الصناع تحت إشراف الفنانين ، وهؤلاء تحت إرشاد سياسة وطراز موحدين .

ورغبة فى دعم الاتجاه الكلاسيكى الذى تلقاه الفن الفرنسى إبان عهد فرنسوا الأول ، وتنقيته من التأثيرات الفلمنكية ، أنشأ كولبير وشارل لبرون أكاديمية فرنسا الملكية فى روما (١٦٦٦) . وكان الطلاب الحائزون على جائزة روما فى أكاديمية باريس يبعثون إلى إيطاليا ويعالون خمس سنين على حساب الحكومة الفرنسية . وفرض عليهم أن يستيقظوا فى الخامسة صباحا ويمضوا إلى الفراش فى العاشرة مساء . وقد دربوا على نسخ النماذج الكلاسيكية ونماذج النهضة وعمارتها ، وكان ينتظر من كل منهم أن ينتج « رائعة » (بالمعنى المصطلح عليه فى نظام الطوائف) مرة كل ثلاثة أشهر ، فإذا عادوا إلى فرنسا كان للدولة الحق المقدم فى خدماتهم .

وكانت ثمرة هذه الرعاية والتأميم للفن إنتاجا رائعا ضخما للقصور ، والكـؤوس ، والتماثيل ، والصور ، وقطـع النسيج المرسوم ، والخزف ، والميداليات ، والمحفورات ، والنقود ، وكلها مطبوع بكبرياء « الملك الشمس » وذوقه ، وبقسمات وجهه أحيانا كثيرة . ولم يكن هذا إخضاع الفن الفرنسى لروما كما شكا البعض ، بل إخضاع فن روما للويس الرابع عشر . وقد استهدف الأسلوب أن يكون كلاسيكيا ، لأن ذلك الأسلوب يتفق وعظمة الدول وجلال الملوك . وتدفقت الأموال الفرنسية إلى إيطاليا بأمر كولبير لشراء آثار الفن الكلاسيكى أو فن النهضة ، وبذل كل شىء لنقل مجد الأباطرة الرومان إلى ملك فرنسا وعاصمتها ، وكانت النتيجة مذهلة للعالم .

وأصبح لويس الرابع عشر أعظم رعاة الفن الذين عرفهم التاريخ . فقد « بذل للفنون من التشجيع قدراً أعظم من جميع نظرائه من الملوك مجتمعين » (فى رأى فولتير)(٢) . وكان بالطبع أسخى حماة الفنون ، فزاد عـدد الصور فى قاعاته من مائتين إلى ألفين وخمسمائة ، وكان كثير منها من إنتاج فنانين فرنسيين كلفهم الملك برسمها . واشترى الكثير جداً من المنحوتات الكلاسيكية وتماثيل عصر النهضة ، حتى لقد خشيت إيطاليا أن تنزح آثارها الفنية ، وحظر البابا المزيد من تصدير هذه الآثار . واستخدم لويس رجالا موهوبين مثل جيراردون أو كوازيفوكس لنقل نسخ من التماثيل التى لم يستطع شراءها ، وقل أن نافست نسخ أصولها كما نافستها هـذه النسخ . وملئت قصور باريس وفرساى ومارلى وحدائقها وبساتينها بالتماثيل ، وكان أوثق سبيل إلى قلب الملك إهداؤه أثراً ذا جمال غير منازع أو شهرة راسخة . مثال ذلك أن مدينة آرل أهدته تمثالها الشهير « فينوس » فى ١٦٨٣ . ولم يكن لويس بالرجل الشحيح . وقد قدر فولتير أنه كان يشترى فى كل عام من آثار الفنانين الفرنسيين ماقيمته ٨٠٠,٠٠٠ جنيه ويهديها للمـدن والمؤسسات والأصدقاء(٣) بهدف مساعدة الفنانين وبث ملكة الجمال والإحساس الفنى فى الوقت نفسه . وكان ذوق الملك سليما أسدى إلى الفن

الفرنسي أيادي بيضاء ، ولكنه كان كلاسيكياً إلى حد ضيق . فحين أروه بعض الصور التي رسمها تنييه الابن قال آمراً « ابعدوا عني هذه الأشياء البشعة »(٤) وقد ارتقى الفنانون بفضل رعايته كثيراً ، سواء في أرباحهم أو مكانتهم الاجتماعية . وقد ضرب المثل بتكريمه إياهم شخصياً ، وحين شكا البعض من ألقاب الشرف التي خلعها على المصور لبرون والمعماري جول — آردوان — مانسار أجاب في شيء من الحدة « في وسعي أن أصنع عشرين دوقا أو نبيلا في ربع ساعة ، ولكن صنع فنان كمانسار يقتضي قروناً »(٥) . وبلغ راتب مانسار ٨٠٫٠٠٠ جنيه في العام ، أما لبرون فكان يتقلب في نعيم قصوره بباريس وفرساي ومونمورنسي . وتقاضى لارجلير وريجو ستمائة جنيه أجراً عن كل لوحة . « ولم يترك فنان كفء في عوز »(٦) .

وقلدت الأقاليم العاصمة في تكريم الفن وإثابته ، واقتدى النبلاء بمليكهم . فطورت المدن مدارس فنية خاصة بها — في روان ، وبوفيه ، وبلوا ، وأورليان ، وتور ، وليون ، وإكس — أن — بروفانس ، وتولوز ، وبوردو وواصل النبلاء دورهم رعاة للفن وإن تقاص لأن الدولة استوعبت المواهب المتاحة ، وأسهم الذوق المدرب الذي نشئت عليه أرقى أرستقراطية في أوربا في توطيد الطراز الرفيع الذي اتسمت به منتجات الفن في عهد لويس الرابع عشر . واكتسب الرجال والنساء الذين ولدوا في نعيم الامتيازات والثراء وشبوا على العادات المهذبة وسط محيط جميل وأشياء بديعة — نقول إنهم اكتسبوا معايير وأذواقا ممن يكبرونهم سناً كما اكتسبوها من بيئتهم ، وكان على الفنانين أن يلبوا مطالب تلك المعايير ويشبعوا تلك الأذواق . ولما كان الاعتدال ، وضبط النفس ، والتعبير الأنيق ، والحركة الرشيقة ، والشكل المصقول ، لما كانت هذه كلها مثل الارستقراطية الفرنسية في هذا العهد ، فقد تطلبت هذه الصفات في الفن ، وحبذ النظام الاجتماعي الطراز الكلاسيكي . وأفاد الفن من هذه المؤثرات والهيمنات ، ولكنه دفع ثمنها . ذلك أنه فقد اتصاله بأفراد الشعب ، ولم يستطع أن يعبر عنهم كما

استطاع الفن الهولندى والفلمنكى أن يعبر عن الأراضى المنخفضة ، وأصبح الفن صوت طبقة ، وصوت الدولة والملك ، لا صوت الأمة . فأنت لا تجد فى فن هذه الحقبة الكثير من دفء الوجدان أو عمقه ، ولا تجد ألوان روبنز الغنية وأجساده المكتنزة ، ولا تجد الظلال العميقة التى تلف خامات رمبرانت وقديسيه ومالييه ، ولا ترى فلاحين ولا عمالا ، ولا متسولين ، بل السعادة الجميلة ترتع فيها صفوة البشر .

وأبهج كولبير ومولاه أن يجدا فى شارل لبرون رجلا يستطيع أن يكون فى وقت واحد خادماً غيوراً للحكومة وقاضياً متسلطاً فى هذا الطراز الكلاسيكى . ففى ١٦٦٦ عين لبرون بتوصية كولبير كبيراً لمصورى الملك ومديراً لأكاديمية الفنون الجميلة ، وبعد عام عهد إليه بمصنع جوبلان ، ووكل بالإشراف على تعليم الفنانين وتشغيلهم لينحى فى أعمالهم تناسقاً فى الأسلوب مميزاً للعهد وممثلا له . وبمعاونة مساعدين على شاكلته فى التفكير أنشأ لبرون فى الأكاديمية نظام « المحاضرات » (١٦٦٧) التى فرضت بنظامها أصول الأسلوب الكلاسيكى بتعاليم وأمثلة وسلطان . واختير رفائيل من بين الفنانين الإيطاليين ، وبوسان من بين الفنانين الفرنسيين ، نموذجين مفضلين على غيرهما ، وكانت كل لوحة يحكم عليها بمعايير مستقاة من فنهما . وقد صاغ لبرون وسباستيان بوردون هذه القواعد ، فرفعا الخط فوق اللون ، والانضباط فوق الأصالة ، والنظام فوق الحرية ، ولم تعد مهمة الفنان أن ينقل الطبيعة بل أن يجملها ، ولا أن يعكس فوضاها وعيوبها وبشاعاتها كما يعكس جمالها العارض ، بل أن ينتقى من بين سماتها تلك التى تتيح للنفس الإنسانية الإفصاح عن أعمق مشاعرها وأرفع مثلها . وكان على للمعماريين وللمصورين والنحاتين والخزافين وصناع المشغولات الخشبية والمعدنيـــة والزجاجية والنقاشين ، أن ينطلقوا فى صوت متناسق واحد بتطلعات فرنسا وبعظمة الملك .

٢ ـ العمارة

على أن هؤلاء الفنانين الفرنسين « المنطلينين » كانوا قدعادوا من روما وقد اكتسبوا طلاء « باروكيا » على غير وعى منهم . وقد وصفنا من قبل ذلك الطراز - طراز الباروك — الذى عم الآن وانتشر . وخلاصته أنه يحل محل البساطة الهادئة التى تميزت بها الأشكال الكلاسيكية إسرافاً فى الوجدان والزخرف ، وبينما نرى المثل الكلاسيكى — وعلى الأخص الهلنستى — قد حوكى فى نحت هذا « القرن العظيم » وتصويره وأدبه ، نجد العمارة والزخرفة قد أخذتا عن الطرز الأنيقة المنمقة التى عقد لها لواء النصر فى إيطاليا بعد وفاة ميكلانجلو (١٥٦٤) . فلقد استهدف بناءو الملك الطراز الكلاسيكى ، ولكنهم حققوا الباروكى — الباروكى الكامل فى فرساى ، ومزيجاً موفقاً من الباروكى والكلاسيكى فى واجهات اللوفر .

أما أول الروائع المعمارية فى هذا العهد فهى كنيسة فال — دجراس بباريس . وكانت آن النمساوية قد نذرت نذراً ببناء معبد جميل إذا وهبها الله ولويس الثالث عشر غلاماً . فلما أتاحت لها وصايتها على العرش المال كلفت فرنسوا مانسار بوضع تصميمات الكنيسة . وأرسى لويس الرابع عشر الحجر الأول فى ١٦٤٥ وكان يومها فى السابعة . ونفذ تصميم مانسار على يد لومرسييه بالطراز الكلاسيكى ، وتوج بقبة مازالت محط إعجاب المعماريين . وشيد لبرال برويان كنيسة سان — لوى — ديزا نفاليد (١٦٧٠) لقدامى المحاربين الذين يأويهم الأوتيل ديزنفاليد . وفى ١٦٧٦ كلف لوفوا للعمارى جول اردوان مانسار (حفيد أخى فرنسوا مانسار) بأن يكمل الكنيسة بخورس وقبة . والقبة فى جمالها الرشيق رائعة العهد المعمارية . وقد حقق أردوان مانسار انتصاراً آخر فى تصميم الكنيسة الملحقة بفرساى (١٦٩٩) . وقد أكمل عمله هنا وفى الانفاليد صهره روبيردكوت .

بزخرفة مترفة ، وهو الذى أقام كذلك الأوتيل دفيل فى ليون ، ودير سان دنى ، وواجهة سان — روش .

وحلت العمارة الملكية محل العمارة الكنسية حين تفوقت الدولة على الكنيسة ثراء ومكانة ، فأصبحت المشكلة الآن هى التعبير عن القوة لا عن الورع . وكان للوفر فى تلبية هذه الحاجة ميزة تميز بها على غيره من العمائر ، هى ما أحاط به من تقاليد موروثة . فقد شهدت نموه أجيال كثيرة ، وترك ملوك كثيرون بصماتهم على تاريخه . فشيد لومرسييه الواجهة الغربية للجناح الرئيسى بتكاليف من مازاران ، وبدأ الجناح الشمالى على طول شارع ريفولى الحالى . وأتم هذا الجناح خلفه لوفو ، وأعاد بناء واجهة الجناح الجنوبى (المواجه لنهر السين) ، وأرسى أساسات الجناح الشرقى . فى هذه الفترة الهامة أصبح كولبير المشرف على العمائر . وإذ رفض تصميمات فو للجناح الشرقى ، فقد فكر فى مشروع مد اللوفر غربا ليلتقى بالتويلرى فى قصر واحد . فأذاع على معماريى فرنسا وإيطاليا مسابقة فى تصميم واجهة جديدة . ورغبة منه فى الحصول على أفضل التصميمات ، أقنع الملك بأن يرسل دعوة خاصة إلى جوفانى لورنتزو برنينى (١٦٦٥) وهو يومها أمير الفنانين الأوربيين غير منازع ، ليأتى إلى باريس على نفقة الملك ويقدم تصميمه . وأتى برنينى بأبهته الكبرى ، وأغضب الفنانين الفرنسيين باحتقاره لعملهم ، ووضع تصميما ضخما باهظ التكلفة يقتضى هدم كل اللوفر القائم تقريبا . ووجد كولبير فى التصميم عيوبا تتصل بأنابيب المياه وغيرها من مرافق المعيشة ، واستشاط برنينى غضبا وقال إن « المسيو كولبير يعاملنى كأنى غــــلام صغير ، بكل لغوه عن المراحيض والقنوات السفلية(٧) » وأمكن الوصول إلى حل وسط . فقد وضع الملك الحجر الأساسى لتصميم برنينى ، وبعد أن اقام الفنان ستة أشهر فى باريس رد إلى إيطاليا محملا بالمال وأسباب التشريف ، وقد حاول أن يرد على هذا بتمثال نصفى للويس الرابع عشر يقوم الآن بفرساى ، وبتمثال للويس راكبا جواده فى « جاليريا

بورجيزى » بروما أما تصميمه للوفر فتخلى عنه ، واحتفظ بالمبنى القائم وكوفىء شارل بيرو بتكليفه ببناء الواجهة الشرقية . وارتفع صف أعمدة اللوفر الشهير ، الذى أثارت عيوبه الواضحة سيلا من النقد(٨) ، ولكننا نتقبله الآن على أنه من أعظم واجهات العمائر فى العالم .

وكان كولبير يؤمل أن ينتقل الملك من مسكنه الضيق فى سان — جرمان إلى اللوفر بعد تجديده . ولكن لويس لم ينس كيف أكره هو وأمه على الفرار من الجماهير الباريسية خلال حرب الفروند . وكان رأيه فى صوت الشعب أنه صوت العنف ، فلم يشأ أن يعرض نفسه لمثل هذه الكوابح لحكمه المطلق . وعليه قرر أن يبنى فرساى ، وروع القرار كولبير .

وكان لويس الثالث عشر قد شيد هناك استراحة متواضعة للصيد فى ١٦٢٤ . ورأى أندريه لنوتر فى منحدر هذا الموضع الذى كان يرتفع فى رفق ، وفى أحراجه الغنية ، فرصة مغرية للتفنن فى تنسيق الحدائق . ففى ١٦٦٢ قدم للويس الرابع عشر تصميما عاما للمنطقة ، وإذا كانت المبانى اليوم منخفضة عن المروج والبحيرة ،وعن الازهار والشجيرات ومختلف الأشجار ، فلعل هذا هو الوضع الذى تصورها عليه لنوتر . فهو لم يقصد بالقصر أن يكون آية من آيات للمعار بقدر ما يكون دعوة إلى الحياة خارجه بين أحضان طبيعة روضها الفن وجملها ، دعوة لتنشق عبير الزهر والشجر ، ولإشباع العين واللمسة المتخيلة من الأجساد الكلاسيكية النحت ، ولمطاردة الفرائس والنساء فى الغابات ، وللرقص وتناول الطعام على العشب ، ولركوب الزوارق على القناة والبحيرة ، وللاستماع إلى لولى وموليير تحت القبة الزرقاء . فهاهنا جنة من جنان الآلهة ، بنيت بدراهم عشرين مليونا من الفرنسيين لن يروها إلا لماما ، ولكنهم يعتزون بعز مليكهم . ومما يسر أن نعرف أن بستان فرساى كان مفتوحا للشعب إلا فى المناسبات الملكية .

وكان فن إنشاء الحدائق المنسقة البهية وافدا من إيطاليا ككثير غيره

من الفنون ، وقد جلب معه عشرات الحيل والمفاجآت ، كالتماريش ، والشعريات ، والمغارات ، والكهوف ، والأشكال الغريبة (الجروتسك) ، والأحجار الملونة ، وبيوت الطير ، والتماثيل ، والزهريات ، والغدران ، والنوافير ، والميازيب ، وحتى الأراغن تعزف إلى جوار الماء الجارى . وكان لنوتر قد صمم من قبل حدائق فو لفوكيه ، وبعد قليل سيصمم حدائق التويلرى للملكة ، وحدائق سان كلو لمدام هنرييتا ، وحدائق شانتيى لكونديه الكبير . وأطلق لويس يده فى فرساى من ١٦٦٢ فصاعداً ، وروعت كولبير التكاليف التى أنفقت على تحويل برية شمثاء إلى فراديس غناء . وتعلق قلب الملك بلنوتر الذى لم يأبه للمال بل للجمال فقط ، والذى كان فنانا صادقا لاغش فيه(٩) . لقد كان بمثابة « بوالو » الحدائق ، المصمم على أن يغير « فوضى » الطبيعة إلى نظام وتناسق وشكل معقول مفهوم . ولذلك كان مسرفا فى إصراره على الكلاسيكية ، ولكن الحدائق التى أبدعها مازالت بعد ثلاثمائة سنة كعبة يؤمها البشر فيما يؤمون .

كان لويس لايزال يحسد فوكيه ، فأبى بلوفو معمارى قصر فو ليوسع استراحة الصيد ويجعل منها قصرا ملكيا . وتسلم جول أردوان ما نسار إدارة المشروع فى ١٦٧٠ . وبدأ تشييد غرف السكن والقاعات وغرف الاستقبال وصالات الرقص وحجرات الحراسة والمكاتب الإدارية — كل هذه الأبنية الشاسعة التى نشهدها اليوم فى فرساى . وما وافى عام ١٦٨٥ حتى كان يكدح فى المشروع ٣٦٫٠٠٠ رجل و ٦٫٠٠٠ حصان فى نوبات بالليل والنهار . وكان كولبير منذ زمن طويل قد حذر الملك من أن معماراً كهذا ، مضافا إلى الحرب يخوضها بعد الحرب ، سينتهى بإفلاس الخزانة ، ولكن فى ١٦٧٩ بنى لويس قصراً آخـــر فى مارلى ، ملاذاً يلجأ إليه من زحام فرساى ، وفى ١٦٨٧ أضاف الجران ترياتون ليكون خلوة لمدام دمانتنون . وأمر جيشا من الرجال فيهم الكثير من الجنود النظاميين بتحويل نهر أور ونقل مياهه خلال تسعين ميلا من « قناة مانتنون »

لتزويد بحيرات فرساي ونهيراته ونافوراته وحماماته بالمياه ، وفى ١٦٨٨ هجر هذا المشروع بعد أن أنفقت عليه الأموال الطائلة حين دعا داعى الحرب. وقد كلف فرساى فرنسا حتى عام ١٦٩٠ مبلغا جملته ٢٠٠،٠٠٠،٠٠٠ فرنك (٥٠٠،٠٠٠،٠٠٠ دولار ؟[١٠]) . وفرساى ، من الناحية المعمارية ، فيه من التعقيد والجزافية ما ينأى به عن الكمال . أما الكنيسة فرائعة ، ولكن هذا الزهو بالزخرف لا يكاد يتفق وتذلل العبادة . وبعض أجزاء القصر جميل ، والسلم المفضى إلى الحدائق فخم ، ولكن إلزام مصمميه بأن يتركوا استراحة الصيد دون أن يمسوها فى تصميمهم ، ويكتفوا بإضافة أجنحة وزخارف ، كل هذا أضر بمظهر البناء فى مجموعه . وقد تترك هذه المجموعة المتكاثرة من الأبنية فى النفس انطباع الرتابة الباردة والتكرار المتناهى — فالحجرة تقفو الحجرة على امتداد ١٣٢٠ قدما من الواجهة . ويبدو أن تنظيم القصر من داخله تجاهل الراحة الفسيولوجية لنزلائه ورواده ، وافترض قوة ضبط هائلة فى الأمعاء النبيلة ، فكان على من يريد إزالة ضرورة أن يعبر ست حجرات . لا عجب إذن أن سمعنا بأن السلالم والطرقات كانت تستخدم فى مثل هذا الغرض . أما الحجرات ذاتها فتبدو أصغر من أن تسمح بالراحة . وليس هناك حجرة فسيحة سوى القاعة الكبرى التى تمتد ٣٢٠ قدما على طول واجهة الحديقة ، هناك نشر المزخرفون كل مهاراتهم — فعلقوا قطع نسيج جوبلان وبوفيه المرسومة ، وبثوا المنحوتات على الجدران ، وبلغوا بكل قطعة أثاث الكمال المحبب ، وعكسوا كل البهاء فى تلك المرايا الكبيرة التى أعطت الحجرة اسمها الثانى ، وهو « قاعة المرايا » . وعلى السقف صور لبرون الذى ارتفع إلى ذروة فنه خلال خمس سنوات (١٦٧٩ — ٨٤) ، وبرموز أسطورية ، انتصارات حكم لويس الطويل ، وسجل مأساته دون وعى منه ، لأن هذه الانتصارات المصورة على أسبانيا وهولندة وألمانيا أزمعت أن تثير أرواح النقمة على الملك الشغوف بالحرب .

وعاش لويس فى فرساى على نحو متقطع منذ ١٦٧١ ، وأنفق بعض وقته فى مارلى ، وسان — جرمان ، وفونتنبلو ، وبعد ١٦٨٢ أصبح فرساى مقره الدائم . ولكننا نظلمه إذا ظننا أن فرساى كان مسكنه وملهاه ، فهو لم يشغل سوى جزء متواضع من المبنى ، أما الباقى فقد سكنته زوجه ، وأبناؤه ، وأحفاده ، وخليلاته ، والمفوضيات الأجنبية وكبار الإداريين ، وأفراد الحاشية ، وكل الخدم والحشم الذين تطلبهم البيت المالك . ولا ريب فى أن بعض هذا البهاء كان له هدف سياسى — هو إدخال الرهبة فى قلوب السفراء الذين توقع منهم لويس أن يحكوا من هذا البذخ على موارد الدولة وسطوتها . وقد وقع هذا من نفوسهم ونفوس غيرهم من الزوار فأذاعوا فى أرجاء أوربا من الأنباء عن بهاء فرساى ما جعله البلاط المحسود ، والمثل الذى يحتذيه الكثير من البلاطات والقصور فى القارة الأوربية بأسرها . أما فى مقابيل هذا العهد فقد بدت هذه الكتلة الضخمة من المبانى رمزا وقحا للاستبداد وتحديا مستهترا من كبرياء الإنسان لمصير الإنسان غير المتغير .

٣ — الزخرفة

لم تعرف فنون الزخرفة قط ، حتى على عهد بابوات النهضة ، مثل هذا التشجيع والعرض . فقد كانت الأرضيات المكسوة بالبسط السميكة ، والأعمدة الزينية ، والموائد ورفوف المستوقدات الزخرفية الضخمة ، والزهريات من الخزف الصينى ، والشمعدانات الفضية والثريات البلورية ، والساعات الجدارية الرخاميه المطعمه بالأحجار الكريمه ، والجدران ذات الحشوات الخشبيه أو الرسوم الجصيه أو الصور أو قطع النسيج المرسوم ، والكرانيش المصبوبه صبا أنيقا ، والأسقف ذات الزخارف الغائرة أو الصور ، هذه كلها وكثير غيرها من ألوان الفن فى فرساى وفونتنبلو ومارلى واللوفر ،

وحتى فى قصور الأهالى ، جعلت من كل حجرة تقريبا متحفا لأشياء تخلب العيون والألباب بسر الكمال الخفى . وعن رفائيل ومساعديه — جوليو رومانو ، وبيرينو ديل فاجا ، وجوفانى دا أوديني — وعن قاعات الفاتيكان ، نقل لبرون ومساعدوه مجموعة الأرباب والربات والكوبيدات وتذكارات النصر والشارات والنقوش العربية ، وأكاليل الزهر وورق الشجر ، والحليات القرنية لثمار الأرض ، يزينون بها سجل انتصارات الملك على النساء والدول .

وكان الأثاث بطراز لويس الرابع عشر مترفا فاخرا ، هنا أذعنت البساطة الكلاسيكيه للزخرفة الباروكية . فالمقاعد مسرفة فى النقش والتنجيد والتذبب إسرافا أبعد عنها الأعجاز خشبية إلا أرقها . أما الموائد فكنت تجد بينها الثقيل المتين إلى حد يبدو معه غير قابل للحركة . وكانت مناضد الكتابة والمكاتب المزودة برفوف للكتب غاية فى الأناقة بحيث تغرى القلم بالكتابة فى ايجاز لاروشفوكو المحكم أو فى حيوية مدام دسفينييه المتدفقة . وكثيرا ما كانت الصناديق وخزانات النفائس تنقش بعناية فائقة أو تطعم برسوم من معدن أو أحجار كريمة . وقد أعطى أندريه شارل بول اسمه (buhl-work) لفنه الخاص ، فن تطعيم الأثاث ، لاسيما الأبنوسى ، بالمعدن المحفور ، وصدف السلاحف ، واللؤلؤ إلخ ، مضيفاً حليات درجية تمثل النبات أو الحيوان ذات رسوم غاية فى الرشاقة ، وكان يقيم فى اللوفر (١٦٧٢) بوصفه نجار الأثاث الأثير لدى لويس الرابع عشر . ولقد بيعت إحدى خزاناته المطعمة بمبلغ ٣٫٠٠٠ جنيه إنجليزى فى ١٨٨٢ ، وربما كان هذا المبلغ يعادل ٥٠٫٠٠٠ دولار فى ١٩٦٠(١١) . ولكن بول مات فى فقر مدقع بعد أن بلغ التسعين فى ١٧٣٢ . وقد يكون أوفق لأذواقنا تلك الأكشاك المنقوشة التى أقيمت فى هذه الفترة فى كاتدرائية نوتردام دبارى .

وأصبح النسيج المرسوم الآن فنا اختص به الملك . ولم يقنع كولبير

بإخضاع مصنعى جوبلان وأوبوسون لإشراف الملك ، فأقنعه بأن يتسلم أيضا مصنع النسيج المرسوم فى بوفيه . وكانت هذه القطع المرسومة لا تزال الحلية المفضلة لجدران القصور وسجفها فى المدن والريف ، والمهرجانات ، والمباريات ، والاحتفالات الرسمية ، والأعياد الدينية . وقد صمم المصور الفلمنكى آدم فان درمولن فى بوفيه سلسلة رائعة من الرسوم سماها «فتح لويس العظيم» ، وأعد الفنان لها نفسه بأن تبع لويس إلى حروبه ورسم بالقلم أو صور بالألوان على الطبيعة المواقع والحصون والقرى التى كانت مسرحا لحملاته الحربية . وكان مصنع جوبلان يستخدم ٨٠٠ من مهرة الصناع الذين لم يكتفوا بصنع قطع النسيج المرسوم ، بل المنسوجات الرفيعة وأشغال الخشب والفضة والمعادن والتطعيم بالرخام . وهناك نسجت تحت إشراف لبرون قطع النسيج المرسوم العظيمة نقلا عن الرسوم التخطيطية التى حفلت بها صور رفائيل الجصية الضخمة فى قاعات الفاتيكان . وليس أقل من هذه شهرة السلاسل العديدة التى صممها لبرون ذاته ؛ قصور قوى الطبيعة ، والفصول ، وتاريخ الإسكندر ، ومساكن الملك ، وتاريخ الملك والمجموعة الأخيرة كانت تعد سبع عشرة قطعة ، واستغرق الفنان فى صنعها عشر سنين ، وما زال نموذج رائع منها معروضا فى حجرات عرض قطع الجوبلان — فيها ترى الأجسام متميزة إلى حد مذهل ، والتفاصيل متخيلة تخيلا كاملا ، حتى صورة المنظر الطبيعى التى على الجدار ، وكل هذا بخيوط ملونة نسجتها فى صبر وأناة أيد صناع تحت عيون مجهدة . وندر أن كرس مثل هذا الجهد البشرى الضخم للزلفى لرجل واحد . وقد اعتذر لويس عن هذا بأن زعم لكولبير أن أسباب التمجيد هذه تتيح العمالة والدخل للصباغين والنساجين ، وتوفر هدايا ذات وقع جميل فى عملية «تشحيم» الدبلوماسية .

وترعرعت كل الفنون الصغيرة تحت اليد الملكية السخية . فصنعت الأبسطة الفاخرة فى لاسافونيرى قرب باريس . وأنتج القاشانى البديع فى

روان وموستييه ، والخزف الإيطالى (الميوليق) الجيد فى نيفير ، والصينى اللين الصينية فى روان وسان كلو . وفى أخريات القرن السابع عشر تعلم الصناع الفرنسيون بتحريض كولبير أسرار البنادقة فى صب البلور المرايا الكبيرة وتسويته وصقله ، وهكذا صنعت مرايا « قاعة المرايا » الرائعة(١٢). ونظم كولبير ولبرون الصاغة أمثال جوليان دفونتيين وفانسان بتى وأسكنام فى اللوفر ، فصنعوا للملك وللأغنياء مئات التحف من الفضة أو الذهب — إلى أن صهر لويس والأغنياء هذه الحلى لتمويل الحرب . وقطعت الأحجار الكريمة والمداليات : وضربت العملة ، ونقشت بتصميمات كانت المثل الذى تحتذيه أوربا كلها فيما عدا إيطاليا . ولم يصل فن صنع المداليات منذ عصر النهضة إلى مثل هذا الابداع الذى حققه الآن على يد انطوان بنوا وجان موجيه . أما كولبير ، الذى لم يترك حجرا دون نقش ، فقد أسس فى ١٦٦٢ أكاديمية المداليات والنقوش ، ليخلد أعمال الملك ... بمداليات تضرب تكريما له(١٣) » وذلك كان أسلوب الوزير الكبير فى تجنيد الغرور الذى عللك المال فى خدمة الفن الغالى النفقة . وفى ١٦٦٧ أنشئت مدرسة للصور المحفورة فى اللوفر ، ورسمت مناقيش روبير نانتوى وسبستيان لكلير وروبير بونار وجان لبوتر فى رهافة بالغة التدقيق شخصيات العهد وأحداثه . وحتى رسم المنمنمات ظل على قيد الحياة — وأن هبط عن سابق مقامه فى العصر الوسيط — فى كتاب « ساعات الصلاة » الذى أهداه إلى الملك متقاعدوه فى الأنفاليد . إن الفنون الصغيره . دون سائر الفنون ، هى التى تظهر ذوق « القرن المظيم » وبراعته الفنية .

٤ - التصوير

إن نجمين من نجوم التصوير ذوى المرتبة الثانية يقعان فى الفلك الخارجى لهذا العصر ، وهما فيليب دشامبين ، وأوستاش لوسويير . أما فيليب فقد وفد

من بروكسل وهو فى التاسعة عشرة (١٦٢١) ، وشارك فى زخرفة قصر اللكسمبورج ، ولم يكتف برسم صورة ريشليو بقامته الكاملة ، وهى المحفوظة فى اللوفر ، بل صنع أيضا تمثالا نصفيا للكردينال ، وصوره صورا جانبية محفوظة بمتحف الفنون القومى بلندن . وقد أتاه ميله المتعاطف لتصوير الأشخاص بزبائن من نصف زعمـــاء فرنسا فى الجيل الذى تلا ريشليو ، كما زاران وتورين وكولبير ولمرسييه ... وكان قبل قدومه إلى فرنسا قد صور جانسن واعتنق الجانسنية ، وأحب البور — رويال ورسم صوراً للأم انجليك وروبير آرنو وسان — سيران . ورسم للبور — رويال أروع صوره « الراهبات » باللوفر ، وترى فيها الأم آنييس مكتئبة ولكنها لطيفة ، ومعها سوزان ابنة المصور الراهبة . وكان مجال شامبين محدودا ، ولكن فنه يدفئ قلوبنا بما فيه من وجدان واخلاص .

أما أوستاش لوسوبير فكان متدينا كصاحبه ولكنه أكثر سنية فى إيمانه ، مما جعله قلقا فى جيل سيطر على التصوير فيه منافسه لبرون ، وتسلطت على هذا الفن فيه أساطير وثنية كرست لتأليه ملك لم يكن قد تاب إلى تقواه بعد . وقد درس المصوران (لوسيير ولبرون) معا على فويه ، ورسما معا فى قبو واحد ، واستخدما نفس النموذج ، وأثنى عليهما على السواء بوسان فى زيارته لباريس . وتبع لبرون بوسان إلى روما وتشرب الروح الكلاسيكية . أما لوسوبير فلزم باريس مربوطا بزوجة مخصبة ولم يستطع الفكاك من الفقر إلا نادرا . وحوالى ١٦٤٤ رسم خمس صور تصف حوادث فى حياة إله الحب لسقف « حجرة الحب » فى قصر ولى نعمته لامبير دتوريني ، وفى حجرة أخرى من حجرات قصر لامبير هذا نفذ رسما جميلا كبيرا يسمى « فيتون يطلب أن يقود مركبة الشمس » . وفى ١٦٤٥ تورط لوسوبير فى مبارزة قتل فيها خصمه ثم اختبأ فى دير الكارتوزيين ، وهناك رسم اثنتين وعشرين صورة من حياة القديس برونو مؤسس الطريقة

الكارتوزية ، وفى هذه الصور بلغ الفنان أوجه . وفى ١٧٧٦ اشتريت هذه السلسلة من الرهبان الكارتوريين بمبلغ ١٣٢٫٠٠٠ جنيه فرنسى ، وهى اليوم تشغل غرفة خاصة باللوفر . ولما عاد لبرون من إيطاليا (١٦٤٧) اكتسح أمامه كل شىء ، وانتكس لوسوبير إلى فقره ، ثم مات فى ١٦٥٥ ولما يجاوز الثامنة والثلاثين .

أما شارل لبرون فقد تسلط على الفنون فى باريس وفرساى ، لأنه أوتى قدرة التنسيق والإدارة كما أوتى قدرة التصور والتنفيذ . وإذ كان ابن نحات له أصدقاء من المصورين ، فقد شب فى بيئة تعلم فيها الرسم كما يتعلم غيره من الأطفال الكتابة . ورسم فى الخامسة عشرة — وعينه لا تغفل عن ترقب فرصته الكبرى — صورة رمزية لحياة ريشليو ونجاحه ، والتقط الوزير الطعم ، فكلفه برسم موضوعات أسطورية لقصر الكردينال . وحين أخذه بوسان إلى روما أغرق نفسه فى أساطير وزخارف رفائيل ، وجوليو رومانو ، وبييترو دا كورتونا . فلما عاد إلى باريس كان أسلوب الزخرفة المترفة المنمقة الذى انتهجه قد اكتمل نضجه . وهنا أيضا كان فوكيه أسبق من لويس فى استخدامه لبرون ليصور فى قصره بفو . وقد استهوت مازاران وكولبير والملك براعة ما أنتج من صور جصية ، وذلك الجمال الشهوانى الذى اتسمت به أجساد النساء والتفاصيل الغنية من كرانيش ومصبوبات . ولم يأت عام ١٦٦٠ حتى كان لبرون يرسم صورا جصية من حياة الأسكندر للقصر الملكى بفونتنبلو . وقد أبهج لويس أن يتبين ملامحه تحت خوذة الأسكندر ، فكان يأتى كل يوم ليراقب الفنان وهو يرسم معركة أربل ، وأسرة دارا عند قدمى الأسكندر . وكلتا الصورتين فى اللوفر . وكافأه الملك بلوحة ملكية مرصعة بالماس ، وجعله مصوره الأول ، وأجرى عليه معاشا بلغ ١٢٫٠٠٠ جنيه فى العام .

ولم تفتر للبرون همة . ففى ١٦٦١ دمرت النيران قاعة اللوفر الوسطى ، فصمم ترميما لها ، وصور السقف والكرانيش بمناظر من أساطير أبوللو ،

ومن هنا الاسم الذى اطلق عليها « قاعة أبوللو ». وخلال ذلك درس الفنان الطموح العمارة والنحت وأشغال المعادن والخشب ورسم النسيج ومختلف الفنون التى جندت الآن لتزيين قصور العظماء . وانصهرت هذه الفنون جميعها فى مهاراته المنوعة حتى لقد بدا أن الحظ أعده ليجمع فنانى فرنسا فى جهد موحد لينتجوا طراز لويس الرابع عشر .

وقد أطلق لويس يده ومنحه ما شاء من مال لتزين فرساى ، حتى قبل أن يعينه مديراً لأكاديمية الفنون الجميلة . وهناك عمل بجد طوال سبعة عشر عاما (١٦٦٤ — ٨١) فنسق الأعمال الفنية ، وصمم « سلم السفير » ، ورسم بنفسه فى قاعات الحرب والسلام ، وفى القاعة الكبرى، سبعاً وعشرين صورة جصية تصف أمجاد الملك منذ صلح البرانس (١٦٥٩) حتى معاهدة نيميجن (١٦٧٩) . وقد أظهر لويس فى الحرب والسلم وسط حشد من الأرباب والربات ، والسحب والأنهار ، والخيل والمركبات، يقذف الصواعق ، ويعبر الرين ، ويحاصر غنت ، ولكنه إلى ذلك يجرى العدالة ويصرف شئون المال ، يطعم الفقراء فى المجاعة ، وينشئ المستشفيات ، ويشجع الفن . ولو أننا أخذنا هذه الصور فرادى لما عددناها من الروائع ، فأساسها الكلاسيكى طغى عليه سيل من الزخارف الباروكية ، ولكننا إذا أخذناها فى جملتها وجدناها تؤلف أروع عمل قام به الرسامون الفرنسيون فى هذا العصر . ويغيظنا تمجيده للملك لأنه يكشف فيه عن داء الغرور ، ولكن تملق الأمراء والملوك على هذا النحو كان سنة العصر . لاعجب إذن أن يقول لويس لمصوره وهو يرى بعض صوره بجوار أخرى رسمها فيرونيزى وبوسان « ان أعمالك تثبت للمقارنة بأعمال كبار الفنانين ، ولا ينقصها إلا موت صاحبها لكى يقدرها الناس أكثر مما يقدرونها الآن ، ولكننا نرجو ألا تتاح لها هذه الميزة سريعاً(١٤) » وقد سانده الملك خلال جميع المكائد التى أحدقت به من حساده بعد قليل ، كما ساند موليير الذى ضايقه خصومه . ولم يكن غريباً

على طبع لويس — إذ نمى إليه أثناء حضوره إجتماعا أداريا أن لبرون جاء ليريه آخر صوره « رفع الصليب »(١٥) — أن يستأذن الحاضرين ليذهب ويرى الصورة ويعرب عن سروره، ثم يدعو كل المجتمعين ليأتوا ويشاركوه فى مشاهدتها(١٦). وهكذا سارت الحكومة والفن فى هذا العهد جنبا إلى جنب ، وشارك الفنانون القواد العسكريين مكافآتهم ومدائحهم .

كانت صنعة لبرون شيئا جديدا وان انبثقت من الزخرفة الإيطالية . لقد كانت مزيجا زخرفيا جمع فنونا عديدة ليؤلف منها كلا جماليا واحدا . فلما حاول أن يجرب تصوير لوحات فردية انزلق إلى مرتبة وسط . وإذ استحالت انتصارات الملك إلى هزائم ، وأخلت محظياته مكانهن للكهان ، تغير مزاج العهد ولم يعد لزخارف لبرون البهيجة محل . ولما خلف لوفوا كولبير مشرفا على العمائر فقد لبرون دوره زعيما للفنون ، وإن ظل رئيساً للاكاديمية . ومات فى ١٦٩٠ رمزاً لمجد ولى .

واغتبط فنانون كثيرون بتحررهم من سيطرته ، ومن هؤلاء على الأخص بيير منيار الذى ساءته هذه السيطرة . وإذ كان يكبر لبرون بتسع سنوات فقد سبقه فى الحج إلى روما بلوحة الوانه ، وتعلق قلبه بالمدينة الخالدة كما تعلق بها بوسان ، حتى لقد استقر رأيه على العيش فيها طوال حياته . وقد عاش فيها فعلا إثنتين وعشرين سنة (١٦٣٥ — ٥٧) واغتبط زبائنه باللوحات التى رسمها لهم اغتباطا حمل فى النهاية البابا أنوسنت العاشر ، الذى ربما ساءه الوجه الذى خلعه عليه فيلاسكويز من قبل ، على أن يجلس إلى منيار الذى أضفى عليه طلعة ألطف . وفى ١٦٤٦ ، حين بلغ منيار الرابعة والثلاثين ، تزوج حسناء إيطالية ، ولكنه ما إن سكن إلى الأبوة الشرعية حتى تلقى دعوة من فرنسا ليذهب ويخدم الملك ، فذهب على مضض . وفى باريس تمرد على قبول التوجيهات من لبرون ، ورفض الانضمام إلى الأكاديمية ، وحز فى نفسه أن يرى زميله الأصغر يحصد الأنواط والأموال . وأوصى

مولبير كولبيريه ، ولكن لعل الوزير أنصف فى ايثاره لبرون ، فما كان منيار ليرضى أن يرتفع إلى مستوى الفخامة المتكلفة التى تطلبها القرن العظيم. على أية حال ، كان لويس الذى بلغ العشرين آنئذ فى حاجة إلى صورة فاتنة له يغوى بها عروسا من أسبانيا. وارتضى منيار أن يرسمها ، وافتتن لويس وماريا تريزا بها ، وغدا منيار أنجح رسام الأشخاص فى هذا العهد. فرسم لوحات لمعاصريه الواحد تلو الآخر : مازاران ، وكولبير ، ورتز ، وديكارت ، ولافونتين ، وموليير ، وراسين ، وبوسويه ، وتورين ، ونينون دلانكلو ، ولويز دلافاليير ، والسيدات مونتسبان ، ومانتنون ، ولافاييت ، وسفينييه ، وقد أنصف يدى آن النمساوية اللتين عدهما الناس أجمل الأيدى فى العالم ، فكافأته بمهمة تزيين قبو القبة فى كنيسة فال — دجراس ، وكان هذا الرسم الجصى رائعته الكبرى التى أشاد بها موليير فى إحدى قصائده . وقد صور الملك غير مرة ، وأشهر صوره لوحته المعروضة فى فرساى والتى يرى فيها راكبا جواده ، ولكننا نجده هناك على أروعه فى اللوحة البديعة المسماة « دوقة مين فى طفولتها » . وبعد موت كولبير انتصر منيار فى النهاية على لبرون ، فخلف غريمه مصورا للقصر فى ١٦٩٠ ، وعين عضوا فى الأكاديمية بمرسوم ملكى ، وبعد خمس سنوات مات فى الخامسة والثمانين وهو لا يفتأ يرسم ويناضل .

وجاهد رهط من المصورين غير من ذكرنا فى خدمة الملك الذى استوعب الفنانين جميعا . فشارل دوفرينوا ، وسبستيان بوردون ، ونويل كوابيل وابنه أنطوان ، وجان فرانسوا دتروا ، وجان جوفنيه ، وجان باتيست سانتير ، والكساندر فرنسوا ديبورت — هؤلاء كلهم يلتمسون أن يسلكوا فى زمرة الحاضرين هذه الوليمة الملكية وهناك فنانان آخران يبرزان بقوة فى نهاية العهد — وأولهما نيكولا دلارجلبير الذى خلف منيار مصورا أثيرا للأرستقراطية لا فى فرنسا وحدها بل فى انجلترا أيضا بعض الوقت

(١٧٧٤ — ٧٨) . وقد اكتسب حب لبرون باللوحة الرائعة التى رسمها له والمعروضة الآن فى اللوفر . وألوانه الرمزية ولمسته الخفيفة تبين الانتقال من اضمحلال لويس الرابع عشر المعتم إلى عصر آخر مرح ، هو عصر الوصاية والفنان فاتو .

أما الثانى وهو ياسينت ريجو ، فكان أصلب عودا . وقد كسب هو أيضا قوته برسم الأشخاص (أنظر صورته البديعة لبوسويه فى اللوفر) ، ولكنه لم يكسبه بالتملق . ومع أن صورته التى اظهر فيها لويس الرابع شامخا مسيطرا ، والتى ترتفع فى مؤخرة قاعة اللوفر الكبرى ، تبدو من بعيد وكأنها إشادة بالملك ، فإننا نلاحظ إذا تأملناها عن كثب ملامح الملك جامدة منتفخة ، وهو واقف على قمة سلطته وعلى حافة قدره (١٧٠١) . وكانت أغلى صور العصر ثمنا كما أنها أفضلها عرضا ، فقد نقد لويس ريجو فيها ٠٠٠ر٤٠ فرنك (٠٠٠ر١٠٠ دولار ؟) — وربما كان هذا الأجر معادلا لما دفعه لويس ثمنا للثياب الرائعة التى زينت هنا انحلاله .

٥ - النحت

كان المثالون أقل حظوة وثوابا فى هذا العهد من المصورين . ومع ذلك فالمنحوتات المرمرية القديمة هى التى اشتهى لبرون أن تصاغ على غرارها جميع الفنون . وقد أنفقت الأموال الطائلة وسخرت المواهب الكثيرة فى شراء أو نسخ التماثيل التى بقيت على قيد الحياة بعد انهيار العالم القديم . ولم يقنع لويس بالنسخ طبعا . وإذ كان يذكر حدائق سالوست وهادريان الرومانية ، فقد استخدم لفيفا من المثالين الأكفاء لينفخوا بتماثيلهم الحياة فى بستان فرساى . وأقيمت الزهريات الضخمة كزهرية الحرب التى صنعها كوازيفوكس فى حوض نبتيون ، وعلى شرفة القصر ؛ ونحت الشقيقان جاسبار وبلتازار دمارسى « حوض باخوس » العظيم ، وأبرز جان باتست.

من البحيرة تمثاله الرائع « مركبة أبوللو » والإله الشمس فيه يرمز للملك ، ونحت فرنسوا جيراردون فى الحجر من « الحوريات المستحمات » مالم يكن براكستليس ذاته ليأنف من نسبته إليه .

وتطلع جيراردون قرناإلى الخلف ليرى كيف صور بريماتتشو وجوجون جسد الأنثى فى صورة كاملة . وعاد إليه ذلك الحسن الانسيابى الذى اتسم به الفن الهيلينى ، ربما فى إسراف ، ومهما بحثنا وفتشنا فإننا لم نجد إلى الآن إناثا كاملات الأجساد كأولئك اللاتى نجسدهن فى تمثالى « اغتصاب بروزيربين(١٧) » . ولكنه كان قادراً على التعبير عن حالات نفسية أقوى من هذه . وقد صنع لميدان فاندوم تمثالا للويس الرابع عشر محفوظا الآن فى اللوفر ، ونحت لكنيسة السوربون مقبرة فخمة لريشليو . وقد أحبه لبرون لأنه تجاوب فى لطف مع ذوق الأكاديمية وأهدافها . وخلف لبرون كبيراً لمثالى الملك ، ورأس الأكاديمية بعد وفاة منيار . ومع أنه ولد قبل لويس بعشرة أعوام إلا أنه عمر بعده شهورا ، ومات فى ١٧١٥ وهو فى السابعة والثمانين .

أما أنطوان كوازيفوكس فكان إنسانا أرق من اسمه ، محببا إلى الناس كتمثاله «دوقة برجندية» . ولد بليون ، وكان ينحت لنفسه مكانا بين المثالين حين دعاه لبرون ليساعد فى زخرفة فرساى . وقد بدأ بصنع نسخ أو مقتبسات رائعة من التماثيل القديمة . فنحت عن تمثال رخامى قديم فى فيللا بورجيزى « حورية المحارة » ، وعن تمثال فى قصر مديتشى بفلورنسة نقل « فينوس الجاثمة » وكلا التمثالين محفوظ فى مستودع الفن المحظوظ الذى نسميه اللوفر . وما زال فى مكانه بفرساى تمثاله « كاستور وبولكس » الذى نقله عن مجموعة بحدائق لودوفيزى بروما . وما لبث أن أنتج أعمالا أصيلة فيها قوة لايستهان بها . فنحت لبستان فرساى تماثيل كبيرة تمثل نهرى الجارون والدوردون ، ولساحة قصر مارلى رمزين شبيهين بهذين لنهرى السين والمارن .

وفى حدائق التويلرى اليوم أربعة تماثيل رخامية نحتها لمارلى ، وهى فلورا (ربة الزهر) — والشهرة ، وحورية الغابات ، وعطارد راكبا بيجاسوس . وقد خرج من تحت إزميله الكثير من الزخارف المنحوتة فى حجرات فرساى الكبرى .

وظل يكدح فى فرساى ثمانية أعوام ، وقضى خمسة وخمسين عاما فى خدمة الملك . فنحت له اثني عشر تمثالا ، أشهرها تمثاله النصفى فى فرساى ، وأصبح فى النحت ما كان منيار فى التصوير — أحب نحاتى الوجوه إلى الناس فى فرنسا . وبدلا من أن يتشاجر مع منافسيه نحتهم فى الرخام أوصبهم فى البرونز ، فوفر عليهم غرورهم ونقودهم . وحين تلقى ١٥٠٠ جنيه أجراً للتمثال النصفى الذى صنعه لكولبير ، رأى الأجر مغالى فيه فرد منه سبعمائة جنيه(١٨) . وقد ترك لنا تماثيل كاملة الشبه بلبرون ، ولنوتر ، وآرنو ، وفوبان ، ومازارن ، وبوسويه ، وترك لنفسه ترجمة بسيطة لوجه أمين أشعث مضطرب(١٩) ، ولكوندیه العظيم تمثالين نصفيين أحدهما فى اللوفر ، والآخر فى شانتيى ، يتميزان بصدق وفحولة لامراء فيهما . ثم نحت بأسلوب مختلف تماما تمثالا رشيقا لدوقة برجندية فى صورة ديانا(٢٠) ، والتمثال النصفى الجميل لنفس الأميرة فى فرساى . وصمم مقابر رائعة لمازاران(٢١) وكولبير ، وفوبان ، ولبرون . ولأعماله ملمس الروح الباروكية فى عاطفيتها المسرحية ومبالغتها العارضة ، ولكنها فى أحسن صورها تعبر تعبيرا حسنا عن المثل الكلاسيكى الذى استهدفه الملك والبلاط ، فهى راسين متمثلا فى الرخام والبرونز .

وحوله وحول جيراردون تجمع سباعى من المثالين ، فرنسوا أنجيبه وأخوه ميشيل ، وفليب كوفييه وابنه فرانسوا ، ومارتان ديجاردان ، وبيير لجرو ، وجيوم كوستو ، الذى مازالت « خيل مارلى » التى نحتها تثب فى الهواء بميدان الكونكورد .

وفضلا عن هؤلاء المثالين جميعا ، وعلى مبعدة منهم ، وفى تحد لمثالية النحت الرسمى الناعمة ، أطلق بيير بوجيه إزميله بغضب فرنسا وبؤسها . وقد ولد فى مارسيليا (١٦٢٢) وبدأ حياته الفنية حفارا فى الخشب ، ولكن نفسه تاقت كما تاقت نفس معبوده ميكلانجلو من قبل لأن يصبح فى وقت واحد مصورا ومثالا ومعماريا وقد أحس أن الفنان العظيم ينبغى أن يسيطر على هذه الفنون جميعا . وإذ كان يحلم بأفذاذ الفنانين الإيطاليين فقد سار من مرسيليا إلى جنوة إلى فلورنسة إلى روما . وتتلمذ فى حماسة لبييترودا كورتونا فى زخرفة قصر باربارينى ، وتشرب كل صدى وأثر لبونارونى ، وحسد برنينى على شهرته المتعددة الجوانب . فلما عاد إلى جنوة نحت تمثال القديس سبستيان الذى أذاع اسمه لأول مرة ، فكلفه فوكيه ، الذى سبق لويس الرابع عشر فى تبين مواهب هذا الفنان أيضا ، بأن ينحت تمثال « هرقول(٢٢) » لقصر فو ، ولكن فوكيه سقط ، فهرع بيير إلى الجنوب ليعتكف فى فقره ويجتر همومه . ولما كلف بنحت مجموعة « أطلانطيس » — وهى تماثيل رخامية لأطلس ، ليجمل بها شرفة « الأوتيل دفيل » ، صاغ التماثيل على غرار الحمالين الكادحين فى أرصفة الشحن ، وكان ينطق عضلاتهم المكدودة ووجوههم التى شوهها الألم بصرخة الثورة — ثورة المطحونين الذين يحملون العالم على أكتافهم . ولكن فنا كهذا ما كان ليعجب فرساى .

ومع ذلك فان كولبير الذى فتح ذراعيه للمواهب طلب إليه أن ينحت تماثيل يؤثر أن تكون ذات مسحة أسطورية بريئة . فأرسل إليه بوجيه ثلاث قطع محفوظة الآن باللوفر : نحتاً قليل الغور لطيفا يمثل الإسكندر وديوجين ، وتمثالا فيه جهد وإسراف لبيرسيوس وأندروميدا ، وتمثالا عنيفا لميلو كورتونا — ذلك النباتى الجبار يحاول الخلاص من فكى أسد عنيد ومخالبه .

وفى ١٦٨٨ زار بوجيه باريس ، ولـكنه وجد طبعه المتـكبر وإزميله الغضوب يتنافران مع ظرف البلاط وفنه ، فقفل راجعا إلى مرسيليا ، وهناك صمم تمثالى « المبرة » و « سوق السمك » — ولا عجب ففى فرنسا حتى سوق السمك يمكن أن يكون عملا فنيا . ولعل أعظم تماثيله قصد به أن يكون تعليقا على مغامرات الملك الحربية ، وهو تمثال للإسكندر راكبا يبدو فيه وسيما مشرقا ، يحمل خنجره فى يده ، ويدوس ضحايا الحرب(٢٣) فى غير اكتراث تحت سنابك جواده . وقد أفلت بوجيه من رسمية لبرون وفرساى ، ولـكنه أفلت أيضا من انضباطهما . وافضى به طموحه لمنافسة برنيني ، وحتى ميكلانجلو ، إلى مبالغات فى تصوير عضلات الجسد وتعبيرات الوجه ، ومن ذلك « رأس ميدوزا » الرهيب المحفوظ باللوفر . ولـكنه كان على الجملة أقوى نحات فى وطنه وفى جيله .

وإذ قارب العهد العظيم نهايته ، وجرت الهزائم فرنسا إلى حال من اليأس الشديد ، انصرفت كبرياء الملك إلى التقوى ، وانتقل الفن من غرور فرساى إلى التواضع الذى يطالعنا فى تمثال كوازفوكس لويس الرابع عشر راكعا فى النوتردام — هنا نرى الملك وقد بلغ السابعة والسبعين ، مزهوا إلى الآن بأثوابه الملكية ، ولـكنه يضع تاجه فى تواضع عندقدمى العذراء . فى هذه السنوات الأخيرة تقلص الإنفاق على فرساى ومارلى ، ولـكن خورس النوتردام رمم وجمل . أما عبادة الفن القديم فقد فترت نتيجة لشططها ؛ وبدأ الطبيعى يجور على الـكلاسيكى ، وقضى على دفعة الفن الوثنية إلغاء مرسوم نانت . وتسلط مدام دمانتنون وتابيه على الملك . وشددت للموضوعات الزخرفية الجديدة على الدين لا على المجد ، فلقد عرف لويس ربه أخيرا .

إن تاريخ الفن ابان حكم الملك العظيم يعذبنا بأسئلة عويصة . فهل كان تأميم الفنون نعمة أو نقمة ؟ وهل حول تأثير كولبير ولبرون والملك تطور

فرنسا من الاتجاه الأصيل والطبيعى ، إلى محاكاة موهنة لفن هلنستى حل به الضعف ، محاكاة شوشها إسراف باروكى فى الزخرفة ؟ وهل تثبت هذه السنوات الأربعون من « طراز لويس الرابع عشر » أن الفن يزداد ازدهارا فى ظل ملكية ترعاه بالثروة المركزة ، وتوجه المواهب فى وحدة متسقة ؟ — أم فى ظل ارستقراطية تصون ، وتوصل ، وتعدل فى حذر ، معايير الجودة والذوق ، وأصول النظام والانضباط ؟ — أم فى ظل ديمقراطية تفتح الطريق أمام كل موهبة وتطلق الكفايات من ربقة التقاليد ، وتلزم الفن بأن يعرض إنتاجه على الشعب ويكيفه وفق رأيه ؟ وهل كان ممكنا أن تغدو إيطاليا وفرنسا الوطنين المحظوظين للفن والجمال اليوم لولا أنهما جملتا بأموال وأذواق الكنيسة والنبلاء والملوك ؟ وهل كان ممكنا أن يوجد فن عظيم دون تركيز الثروة ؟

إن الجواب المتواضع المفيد عن هذه الأسئلة يقتضى حكمة عالمية ، وأى جواب من هذا القبيل لابد أن تجعله التفريقات والشكوك جوابا غامضا غير حاسم . ولعل الفن فقد شيئا فى طبيعيته ومبادرته ونشاطه نتيجة لما بسطته عليه القوة المركزية من حماية وتوجيه وهيمنة . صحيح أن فن لويس الرابع عشر كان فنا منظما ، أكاديميا ، جليلا بهائه المنسق ، لايفوقه فن فى صقله الفني ، ولكن السلطة عطلت قدرته على الابتكار ، وقد قصر دون ذلك الالتحام بالشعب الذى أضفى الدفء والعمق على الفن القوطى . لقد كان اتساق الفنون فى عهد لويس رائعا ، ولكنه كثيرا ما كان يعزف على نفس الوتر ، حتى لقد أصبح فى النهاية تعبيرا لا عن جيل وأمة ، بل عن ذات وبلاط . صحيح أن الثروة لاغنى عنها للفن العظيم ، ولكن الثروة تكون عارا ، والفن يكون بغيضا ، إذا ازدهرا على حساب فقر شامل واعتقاد بالخرافات مذل ، فالجميل لا يمكن فصله طويلا عن الخير . وقد تكون الارستقراطية حارسا وناقلا مفيدا للعادات والمعايير والأذواق

إذا تيسرت الأسباب نفتحها أمام للمواهب الجديدة، ولمنعها من أن تكون أداة للامتياز الطبقي وللترف الكاذب . كذلك تستطيع الديمقراطيات أن تجمع الثروة وتضفي عليها الكرامة بتغذيتها للمعرفة والأدب والبر والفن ، ومشكلات الديمقراطيات في معاداة الحرية غير الناضجة للنظام والانضباط ، وفي نمو الذوق نموا بطيئاً في المجتمعات الناشئة ، وفي ميل الكفايات غير المحكومة لأن تبدد نفسها في تجارب شاذة تخطىء الابتكار فتحسبه عبقرية ، والطرافة فتحسبها جمالا .

على أية حال كان رأي استقراطيات أوربا في صف الفن الفرنسي دون ما تردد . فانتشر معمار القصور والنحت الكلاسيكي والأسلوب الأدبي والزخرفة الباروكية للأثاث والثياب — انتشر هذا كله من فرنسا إلى كل طبقة حاكمة تقريباً في غرب أوربا حتى إلى إيطاليا وأسبانيا . وتطلعت قصور لندن وبروكسل وكولون وميونخ ودرسدن وبرلين وكاسل وهيدلبرج وتورين ومدريد إلى فرساي مثلا تحتذيه في السلوك والفن . وكلف المعماريون الفرنسيون بتصميم القصور حتى مورافيا شرقا ، وصمم لنوتر الحدائق في وندزور وكاسل ، ووفد رن وغيره من المعماريين الأجانب على باريس لينقلوا عنها الأفكار ، وانبث النحاتون الفرنسيون في جميع أرجاء أوربا ، حتى أصبح لكل أمير تقريباً تمثال راكب كتمثال ملك فرنسا . وظهرت قصص لبرون الرمزية الأسطورية في السويد ، والدنمرك ، وأسبانيا ، وهامبتن كورت . والتمس الملوك الأجانب أن يجلسوا إلى ريجو ليصورهم فإن لم يتيسر فإلى أحد تلاميذه . وأوصى حاكم سويدي بقطع من نسيج بوفيه المرسوم تخليداً لانتصاراته . إن التاريخ لم يشهد منذ انتشار الثقافة اللاتينية القديمة في غرب أوربا غزواً ثقافياً أنجز بمثل هذه السرعة وهذا الكمال .

الفصل الرابع

موليير

١٦٢٢ — ٧٣

١ - المسرح الفرنسى

بقى الآن أن تخضع المسرحية والشعر الفرنسيان أوربا لسلطانهما .

ولقد شاء هوى التاريخ أن ينصرف الأدب الفرنسى فى هذا العصر إلى المسرح ، وأن يشجع الكردينال ريشليو المسرحية التى ظلت الكنيسة تحرمها طويلا ، وأن يستورد الكردينال مازارن الملهاة الإيطالية إلى فرنسا ، وأن يرث لويس الرابع عشر حب المسرح من هذين الكاهنين اللذين مهدا لسلطته أو حفظاها .

كانت المسرحية الحديثة قد بلغت الشكل الأدبى فى إيطاليا برعاية بابوات النهضة الرفيعى الثقافة ، وكان ليو العاشر يحضر التمثيليات دون أن يطالب بأن تكون صالحة للعذارى . ولكن الاصلاح البروتستنتى ومجمع ترنت المترتب عليه وضعا حداً لهذا التساهل الكنسى . وقال بنديكت الرابع عشر إن للمسرحية لم يستمر السماح بها فى إيطاليا إلا درءا لشرور أفدح ، وفى أسبانيا إلا لأنها تخدم الكنيسة . وأما فى فرنسا فإن رجال الأكليروس ، الذين صدمتهم الحرية الجنسية التى تمتع بها المسرح الهزلى ، نددوا بالمسرح عدواً للآداب العامة . وقضت سلسلة طويلة من الأساقفة واللاهوتيين بأن الممثلين محرومون بحكم طبيعة الحالة ، أى بحكم مهنتهم ذاتها ، وأنكر عليهم قساوسة باريس ، الذين عبر عنهم صوت بوسويه الآمر ، حق تناول الأسرار أو الدفن فى أرض مكرسة إلا إذا تابوا وأقلعوا عن مهنتهم . وإذ حرموا من مراسم

من الزواج يقوم بها كاهن ، فقد كان عليهم أن يقنعوا بزيجات عرفية بالغة القلق وعدم الاستقرار ، كذلك وسم القانون الفرنسى الممثلين وأقصاهم عن كل وظيفة شريفة ، وحظر على القضاة حضور الحفلات التمثيلية .

ومن ملامح التاريخ الحديث البارزة أن المسرح استطاع التغلب على هذه المقاومة . ذلك أن المطلب الشعبى للتظاهر والادعاء تخففا وثأراً من الواقع أنجب العدد العديد من الهزليات والملاهى ، وكان للآلام التى فرضها على الرجال الاقتصار على زوجة واحدة الفضل فى إقبال جمهور سخى العطاء على مسرحيات الحب الحلال أو الحرام . ويلوح أن ريشليو وافق ليو العاشر على أن أيسر سبيل للهيمنة على المسرح هو رعاية أفضل المسرحيات لا رفضها كلها ، وبهذه الطريقة قد يتيح القدوة للذوق العام ، والعيش للفرق المسرحية المهذبة . وليلاحظ القارىء تقرير فولتير الآتى : « منذ أدخل الكردينال ريشليو الأداء المنتظم للتمثيليات فى البلاط ، الأمر الذى جعل باريس الآن منافسة لأثينا ، لم يقتصر الأمر على تخصيص مقعد يجلس عليه رجال الأكاديمية التى تضم نفرا من القساوسة ، بل خصص مقعد آخر للأساقفة(١) » . وفى ١٦٤١ ، ربما بناء على طلب الكردينال ، بسط لويس الثالث عشر رعايته على فريق من الممثلين عرفوا بعدها بالفرقة الملكية أو الكوميديين الملكيين ، وأجرى عليهم معاشا قدره ألف ومائتا جنيه فى العام ، وأصدر مرسوما يعترف بالمسرح لونا مباحاً من ألوان الترفيه ، وأعرب عن رغبة الملك فى ألا تعتبر مهنة الممثل بعدها ضارة بمركزه فى المجتمع(٢) . وأقامت الفرقة مسرحها فى « الأوتيل دبورجون » ، وحظيت برعاية لويس الرابع عشر الرسمية ، واحتفظت طوال حكمه بتفوقها فى أخراج المآسى .

ورغبة فى رفع مستوى الملهاة الفرنسية ، دعا مازاران نفرا من الممثلين الإيطاليين إلى باريس ، ومنهم تيبيريو فيوريللى ، الذى أصبح أثيراً لدى باريس والبلاط بأدائه دور المهرج الفشار « سكاراموتشا » . ولعله هو

وزملاؤه شاركوا فى بعث حمى المسرح فى أوصال جان بوكلان الرابع ، وفى تعليمه فنون المسرح الهزلى(٣) . فلما عاد «سكاراموش» إلى إيطاليـــا (١٦٥٩) أصبح جان بوكلان . الذى عرفه المسرح والعالم باسم موليير ، الممثل الهزلى الأول للملك ، وبعدها بقليل — فى رأى بوالو المولع به — أكبر كتاب العصر .

٢ ـ تلمـذته

على المبنى رقم ٩٦ بشارع سانت — أونوريه كتابة بحروف من ذهب هذا نصها : —

شيد هذا البيت فوق موضع البيت الذى ولد فيه موليير

فى ١٥ يناير ، ١٦٢٢

وكان البيت بيت جان باتست بوكلان الثالث ـ منجد الأثاث والمزخرف . وكانت زوجته مارى كريسيه قد أتته بمهر قدره ٢٠٠ر٢ جنيه ، وأنجبت له ستة أطفال ، ثم ماتت بعد زواجهم بعشر سنوات ، ولم يكن طفلها الأول ـ جان باتست بوكلان الرابع — يتذكرها فى وضوح ، ولم يذكرها قط فى تمثيلياته وتزوج الأب ثانية (١٦٣٣) ولــكن زوجة الأب ماتت فى ١٦٣٧ ، فــكان على الأب أن يحمل عبء عبقرية ولده ، ويوجه تعليمه ، ويفكر فى تشكيل مجرى حياته . وفى ١٦٣١ أصبح جان بوكلان الثالث « المشرف على تنجيد أثاث حجرة الملك » ومنح امتياز إعدادالسرير الملــكى والسكنى فى البيت الملــكى ، لقاء راتب سنوى قدره ثلثمائة جنيه ، وهو مبلغ متواضع ، ولــكنه لم يلزم الحضور فى أى عام أكثر من ثلاثة أشهر . وكان الأب قد اشترى الوظيفة من أخيه ، وأراد أن يورثها ابنه . وفى ١٦٣٧ أقر لويس

الرابع عشر حتى جان بوكلان الرابع فى وراثة الوظيفة ؛ ولو أن تطلعات الأب تحققت لعرف التاريخ موليير — إن عرفه إطلاقاً — بأنه الرجل الذى كان يعد سرير الملك . على أن جداً للصبى أولع بالمسرح ، فكان يصطحبه إلى حفلات التمثيل بين الحين والحين .

وأعداداً لجان الرابع لتهيئة سرير الملك ، أرسل إلى كلية لليسوعيين فى كليرمون ، وكانت الأم الحانية على المهرطقين . وهناك تعلم الكثير من اللاتينية ، وقرأ تيرنس وأفاد منه ، ولا شك أنه اهتم ، وربما شارك ، فى المسرحيات التى عرضها اليسوعيون أداة لتعليم تلاميذهم اللاتينية والأدب والكلام ويقول فولتير إن جان تلقى كذلك تعليما عن الفليسوف جاسندى الذى كان قد عين معلما خاصا لزميل فى فصل جان . على أية حال تعلم جان الكثير عن أبيقور ، وترجم شطرا كبيراً من ملحمة لوكريتيوس الأبيقورية De rerum natura (وبعض سطور مسرحيته « مبغض البشر[٤] » . تكاد تكون ترجمة لفقرة فى لوكريتيوس (٥)) . والراجح أن جان فقد إيمانه قبل أن يختتم صباه.[٦]

وبعد أن قضى خمس سنين فى الكلية درس القانون ، ويبدو أنه مارسه حقبة قصيرة فى المحاكم . ثم اتخذ مهنة أبيه بضعة أشهر (١٦٤٢) . وفى ذلك العام التقى بمادلين بيجار ،وكانت وقتها سيدة مرحة فى الرابعة والعشرين . وقبل ذلك بخمس سنين كانت خليلة للكونت دمودين ، الذى اعترف فى سماحة بالطفل الذى ولدته له ، وأذن لابنه فى أن يقف عرابا له عند عماده . وفتنت مادلين جان — وكان قد بلغ العشرين — وسحرته بجمالها وطبعها البشوش اللطيف . وأغلب الظن أنها قبلته عشيقاً . وقد حمله عشقها للمسرح ، مع عوامل أخرى ، على اتخاذ قرار بأن يولى لتنجيد الأثاث ظهره ، وأن ينزل عن حقه فى أن يخلف أباه مشرفا على تنجيد حجرة الملك لقاء ٦٣٠ جنيها ، وأن يلقى بنفسه فى خضم التمثيل (١٦٤٣) . وذهب ليقيم فى بيت مادلين

بيجار(٧). ثم دخل معها ومع أخويها وآخرين فى تعاقد رسمى أنشأوا بمقتضاه « المسرح الشهير » (٣٠ يونية ١٦٤٣). ويعتبر الكوميدى فرانسيز ذلك العقد بداية لتاريخه الطويل الممتاز . واتخذ جان الآن اسماً مسرحياً جرياً على عادة الممثلين ، فأصبح يسمى موليير .

واستأجرت الفرقة الجديدة ملعباً للتنس مسرحاً لها ، وقدمت مختلف التمثيليات ، ثم أفلست ؛ وفى ١٦٤٥ قبض على موليير ثلاث مرات بسبب الدين ودفع أبوه عنه ديونه وحصل على أمر بالإفراج عنه معللا نفسه بأن الفتى قد برئ من حمى المسرح . ولكن موليير أعاد تأليف « المسرح الشهير » وانطلق فى جولة بالأقاليم . ومنح الدوق ديبيرنون حاكم جيين الفرقة تأييده . وتنقلت الفرقة فى سلسلة مضنيه من النجاح والفشل بين ناربون ، وتولوز ، وألبى ، وكاركاسون ، ونانت ، وآجن ، وجرينوبل ، وليون ، ومونبلييه ، وبوردو ، وبزييه ، وديجون ، وأفنيون ، وروان . وارتقى موليير حتى أصبح مديراً لها (١٦٥٠) ، ووفق بعشرات الحيل فى أن يحفظ للفرقة قدرتها على إيفاء ديونها ويكفل لها طعامها . وفى ١٦٥٣ أعار الأمير ديكونتى ، زميله المدرسى القديم ، اسمه للفرقة وقدم لها المعونة ، ربما لإعجاب سكرتيره بالممثلة الآنسة دوبارك . ولكن الأمير أصابته نوبة شلل دينى فى ١٦٥٥ ، فأخبر الفرقة بأن ضميره يمنعه من الاتصال بالمسرح ، ومالبث بعد ذلك أن ندد علانية بالمسرح ، وبموليير بصفة خاصة ، مفسداً للشباب وعدوا للفضيلة والمسيحية .

ووسط هذه التقلبات نهضت الفرقة أشيئاً فشيئاً بكفايتها ودخلها وذخيرتها من المسرحيات . وتعلم موليير فن المسرح وحيله . فما وافى عام ١٦٥٥ حتى كان يكتب التمثيليات كما يمثلها . وفى ١٦٥٨ آنس فى نفسه من القوة ما يكفى لتحـــدى فرقتين احتلتا المسرح الباريسى ، فرقة ممثلى الملك فى الأوتيل دبورجون ، وفرقة خاصة تمثل فى مسرح ماريه . وحضر هو ومادلين بيجار

من روان إلى باريس ليمهدا الطريق لفرقتهما • وزار أباه ، وظفر بعفو عن ذنوبه ومهنته . ثم أقنع فيليب الأول دوق أورليان بأن يبسط حمايته على الفرقة وأن يحصل لها على إذن بإقامة حفلة تمثيلية بالبلاط .

وفى أكتوبر ١٦٥٨ مثلت « فرقة المسيو » هـذه أمام الملك فى قاعة الحرس باللوفر مأساة كورنى « نيكوميد » ، ومثل موليير الدور الرئيسى دون توفيق كبير ، لأنه كما يقول فولتير كان يعانى « من ضرب من الفواق لايلائم البتة الأدوار الجادة ، ولـكنه يعين على جعل تمثيله فى الملهاة أكثر إمتاعا »(٨) . وقد أنقذ الحفلة بأن أتبع المأساة بملهاة فقدت الآن معالمها ، ومثل بحيوية ومرح ، وحاجب مرفوع وفم مثرثر جعل الجمهور يتساءل لم يمثل المأساة إطلاقا • وكان فى الملك من الصبى ماجعله يستمتع بهذا الهزل ، ومن الرجولة ماجعله يقدر شجاعة موليير • فأصدر تعليماته بأن تشارك فرقة المسيو فرقة سكاراموش الإيطالية فى قاعة البتى بوربون، وهناك أيضاً أخفق الممثلون الوافدون حين حاولوا تمثيل المآسى التى قصروا فى أدائها دون ممثلى الملك فى الأوتيل دبورجون ، ووفقوا فى التمثيليات الهزلية ، لاسيما التى ألفها موليير • ومع ذلك واصلوا إخراج المآسى • ذلك ان كبار الممثلات كن يشعرن بأنهن يتألقن أكثر فى الدراما الجادة ، ولم يكن موليير نفسه راضياً قط بأن يكون كوميديا ،لأن صراعات الحياة وسخافاتها أورثته مسحة من الحزن ، وقد وجده أمرا فاجعا له أن يكون على الدوام مضحكا • يضاف إلى هذا أنه سئم هزليات المكائد الغرامية والشخصيات المبتذلة وكباش الفداء المألوفة ، وأكثرها أصداء لإيطاليا • وتلفت حوله فى باريس فرأى فيها أشياء لاتقل إضحاكا عن بوليشينيل وسكاراموش • وروى عنه قوله « لم يعد بى حاجة إلى اتخاذ باوتس وتيرنس أساتذة لفنى أو إلى السطو على ميناندر • فما على إلا أن أدرس هذه الدنيا »(٩) •

٣ - موليير ونساء المجتمع

مثال ذلك « الأوتيل د.امبوييه » حيث كان الرجال والنساء يمجدون الآداب الرقيقة والحديث المعطر . فكتب موليير تمثيلية « المتحذلقات المضحكات » . وكان إخراجها (١٨ نوفمبر ١٦٥٩) فاتحة ملهاة العادات الفرنسية وبداية لحظ موليير وشهرته . وكانت الملهاة من القصر بحيث لم يستغرق تمثيلها أكثر من ساعة، وفيها من الحدة ما خلف لذعة طويلة الأيلام. استمع إلى ابنتي العم، مادلون وكاتوس، اللتين تلفهما سبعة أقنعة من التظرف، تحتجان على تلهف الكبار ، الواقعيين ، المفلسين ، على تزويجها .

جرجيبوس : أي عيب تريان فيهما ؟

مادلون : يالهامن كياسة رائعة منهاحقا! ماذا ، أنبدأ فوراً بالزواج! .. لو كان الناس جميعاً مثلك لقضى للتو على الرومانس ... إن الزواج ينبغي ألا يتم أبداً إلا بعد مغامرات أخرى . فعلى العاشق إن أراد قبولا أن يفهم كيف يعبر عن العواطف المهذبة ، وكيف يتأوه بالحديث الناعم ، الرقيق ، المشبوب، ويجب أن يكون حديثه مطابقا للقواعد . فعليه بادىء ذي بدء أن يرى في الكنيسة أو في الحديقة العامة أو في حفل عام تلك التي يشغف بها حبا ، وإلا وجب تقديمه إليها التقديم المحتوم بواسطة قريب أو صديق ، ثم عليه أن ينصرف عنها مكتئبا متأملا . ثم يخفي عاطفته حينا عن موضع حبه ، ولكنه يزورها مرات ، لا يعدم فيها طرح بعض الحديث عن مغازلة النساء على البساط تدريباً لعقول الجماعة كلها ... ثم يأتي اليوم الذي يبوح فيه بحبه ، وينبغي أن يتم هذا عادة في ممشى حديقة بينما الجماعة على بعد منها . وهذا التصريح نقابله عادة بالاستياء ، الذي يبدو في احمرار وجوهنا ، والذي يقصي العاشق عنا زمنا ، ثم يجد الوسيلة لمصالحتنا بعد حين ، ولتعويدنا أن نسمع حديث غرامه دون أن نتألم ، واستلال ذلك الاعتراف الذي يسبب لنا حرجا شديداً .

ثم تتلو ذلك للغامرات : المزاحمون الذين يحبطون ميلا رسخ ، واضطهادات الآباء ، والغيرة المنبعثة من المظاهر الكاذبة ، والشكاوى ، واليأس ، والهروب مع الحبيب ، وما يسفر عنه من عواقب . هكذا ينبغى أن تجرى الأمور بأسلوب جميل ، وتلك هى القواعد التى لاغنى عنها للتودد المهذب الأنيق . أما الاندفاع رأسا إلى الرباط الزوجى ، وأما عدم مطارحة الغرام إلا بعقد الزواج ، والإمساك بالمغامرة الرومانسية من ذيلها — فمرة أخرى أقول لك ياأبى العزيز إنه ما من شىء أكثر آلية من تصرف كهذا ، ومجرد التفكير فيه يشعرنى بالغثيان .

كاتوس : أما أنا ياعماه فكل ما أستطيع أن أقوله هو إننى أرى الزواج شيئا مروعا جدا . فكيف أطيق فكرة الرقاد مع رجل عريان حقا(١٠) ؟

ويستعير خادما الخطيبين ملابس سيديهما ويتنكران كمركيز وجنرال ، ويتوددان إلى السيدتين بكل ما يصاحب التودد من تظرف ومزاح . ويفاجئهما السيدان ، ويجردانهما من ملابسهما المزيفة ، ويتركان الشابتين أمام الحقيقة العارية تقريبا . وفى هذه الملهاة ، كما فى جميع ملاهى موليير الجنسية ، عبارات نابية وبعض المزاح الرخيص ، ولكن فيها هجوا لاذعا للحماقات الاجتماعية ، بلغ من حدته أن تأثيره أصبح حدثا فى تاريخ عادات المجتمع . وقد نسبت رواية غير مؤكدة لامرأة من النظارة أنها وقفت وسط الجمهور وصاحت « تشجع ! تشجع ! هذه ملهاة حسنة ياموليير »(١١) وروى أن واحدا من رواد صالون مدام درامبوييه قال بعد خروجه من التمثيلية « بالأمس أعجبنا بكل السخافات التى نقدت نقدا رقيقا معقولا جداً ؛ ولكن علينا الآن — كما قال القديس ريمى لكلوفيس — إن نحرق ماعبدنا ، ونعبد ما أحرقنا(١٢) . » وقابلت المركيزة درامبوييه الهجوم بعبقرية ، إذ اتفقت مع موليير على إحياء حفلة يخصص إيرادها لصالونها ، وقد رد على مجاملتها بمقدمة زعم فيها أنه لم يهج صالونها بل مقلديه . على أية

حال انتهى ملك « المتحذلقات » . وقد أشار بوالو فى هجائيته العاشرة إلى تلك « العقول الجميلة التى كانت بالأمس ذائعة الصيت ، والتى فرغها موليير بضربة واحدة من فنه » .

وقد نجحت المسرحية نجاحا ضوعف معه أجر مشاهدتها عقب حفلة الافتتاح . وقد مثلت فى عامها الأول أربعا وأربعين مرة ، وأمر الملك بإحياء ثلاث حفلات للبلاط ، حضرها جميعا ، ونفح الفرقة بثلاثة آلاف جنيه . وما وافى فبراير ١٦٦٠ حتى كانت الفرقة الشاكرة قد دفعت ٩٩٩ جنيها جعالة للمؤلف . ولكنه كان قد ارتكب غلطة إذ ضمن المسرحية إشارة هجا بها ممثلى المسرح الملكى « فما من إنسان قادر على أن يشهر شيئا إلا هم ، أما غيرهم فقوم جهلاء يمثلون أدوارهم كأنهم يتحدثون . هؤلاء لا يفقهون كيف يجعلون أبيات الشعر تجلجل ، أو كيف يقفون عند فقرة جميلة . فكيف تعرف الأبيات الرائعة إذا لم يقف الممثل عندها ويخبرك بهذه الطريقة أن تصفق استحسانا(١٣) ؟ » .

وأعربت فرقة الأوتيل دبوربون عن احتقارها السافر لموليير لعجزه عن إخراج المأساة ، ولقدرته على الملهاة الرخيصة دون غيرها . وعزز موليير حجتهم بتأليفه وعرضه مسلاة « فارس » متوسطة الجودة سماها « الديوث بالوهم » ولو أن الملك سر بأن يشهدها تسع مرات .

وكانت التغييرات تجرى خلال ذلك فى مبنى اللوفر القديم ، فهدمت صالة البتى بوربون فى استهتار ، ولاح حينا أن « فرقـــة المسيو » التى يرأسها موليير لن تجد لها مسرحا . ولكن الملك العطوف دائما بادر إلى إنقـــاذه بأن خصص له فى الباليه — رويال « الصالة » التى خصصها ريشليو لعرض التمثيليات . وهناك ظلت فرقة موليير حتى مماته وكأنها جزء من جسم البلاط . وكان أول عرض له فى هذا المأوى الجديد آخر محاولاته فى المأساة ، وهى « دون جراسى » . وكان رأيه — وله فيه بعض العذر —

أن أسلوب المأساة الخطابى الفخم كما طوره كورنى ، ومثلته فرقة الأوتيل دبورجون ، أسلوب غير طبيعى ، وكان يتطلع إلى أسلوب أبسط وأكثر طبيعية . ولو سمح له تسلط النزعة الكلاسيكية على المسرح (وفواقه) لجاز أن ينتج مزيجاً موفقاً من المأساة والملهاة كما فعل شيكسبير ، فإن فى أعظم ملاهيه والحق يقال مسحة من المأساة . ولكن « دون جراسى » سقطت ، برغم جهود الملك لدعمها بحضورة ثلاث حفلات ، لقد كان قدر موليير أن يكايد المأساة لا أن يمثلها .

وعليه فقد عاد إلى الملهاة . ولقيت « مدرسة الأزواج » نجاحاً طيب خاطره إذ عرضت يومياً من ٢٤ يونيو إلى ١١ سبتمبر ١٦٦١ . وقد آذنت بزواج موليير الوشيك ، وكان وقتها فى التاسعة والثلاثين ، من أرماند بيجار ، ذات الثمانية عشر ربيعاً ، ومشكلة المسرحية هى : كيف ينبغى أن يروض الشابة على أن تكون زوجة صالحــــة أمينة ؟ فالشقيقان أريست وسجاناريل محظوظان لكونهما الوصيين على الفتاتين اللتين ينويان الزواج منهما أما أريست ،البالغ من العمر ستين عاماً ،فيعامل فتاته القاصرليونور، ذات الثمانية عشرة، بغاية اللين :

« لم أنظر إلى تجاوزاتها الصغرة على أنها جرائم . ولقد لبيت على الدوام رغباتها الشابة ، ولست ولله الحمد آسفا على ذلك . فقد أذنت لها بأن تخالط الأصحاب الطيبين ، وتشهد الملاهى ، والتمثيليات ، والمراقص ، فهذه أشياء أراها على الدوام صالحة لتربية عقول الشباب ، وما الدنيا إلا مدرسةأحسبها تعلم طريقة العيش خيراً من أى كتاب . إنها تحب أن تنفق المال على الثياب ، والقمصان ، والأزياء الجديدة . . وأنا أحاول أن أشبع رغباتها ، فهذه لذات ينبغى أن نتيحها للشابات متى استطعنا توفيرها لهن(١٤) » .

وأما الأخ الأصغر سجاناريل فيحتقر أريست لأنه إنسان أحمق ضللته أحدث الأوهام. وهو يأسف على زوال الفضائل القديمة وعلى انحلال الأخلاق

الجديدة ، وعلى وقاحة الشباب المتحرر . وهو ينوى أن يأخذ فتاته القاصر إيزابيل بنظام صارم ليروضها على أن تكون زوجه مطيعة :

« لا بد أن ترتدى الملابس اللائقة ... فإذا لزمت بيتها كما تلزمه المرأة العاقلة انصرفت بجمعها إلى شئون الزوجية ، فترفو الثياب فى ساعات فراغها أو تحبك الجوارب لتتسلى بها . ولن تخطو خطوة خارج البيت إلا إذا قام عليها رقيب ... إننى لن ألبس قروناً إذا استطعت إلى ذلك سبيلا » .

وبعد دسيسة بعيدة الاحتمال (منقولة عن ملهاة أسبانية) تهرب إيزابيل مع عاشق ذكى ، فى حين تتزوج ليونور من أريست وتظل وفية له إلى آخر التمثيلية .

وواضح أن موليير كان يحاور نفسه . ففى ٢٠ فبراير ١٦٦٢ ، وهو فى الأربعين ، تزوج بامرأة تصغره بنصف عمره . أضف إلى ذلك أن عروسه هذه — أرماند بيجار — كانت ابنة مادلين بيجار ، التى كان موليير يعاشرها قبل عشرين عاماً . وقد اتهمه خصومه بالزواج من ابنته غير الشرعية . وكتب مونفلورى ، رئيس فرقة الأوتيل دبورجون المنافسة ، إلى لويس ينبئه بهذا فى ١٦٦٣ ، وكان جواب لويس أن جعل نفسه عراباً لأول طفل ولدته أرماند لموليير . أما مادلين ، حين لقيها موليير ، فكانت أشد احتفالا بشخصها من أن تتيح لنا أى معرفة يقينية بنسب أرماند . ويبدو أن موليير لم يعتقد أنه أبو الفتاة ، ولنا أن نفترض أن معلوماته فى هذه النقطة كانت أفضل قليلا مما يمكن أن تكون عليه معلوماتنا نحن .

كانت أرماند قد شبت كأنها حيوان الفرقة المدلل . وكان موليير يراها كل يوم تقريباً ، وقد أحبها طفلة قبل أن يعرفها امرأة بزمن طويل . وكانت الآن قد أصبحت ممثلة مكتملة النضج . أما وقد نشأت فى هذا الجو فإنها لم تخلق لتكون زوجة لرجل واحد ، لاسيما رجل قد أبلى روح الشباب .

لقد أحبت لذات الحياة واستغرقت فى معابثات فسرها الكثيرون على أنها، خيانات للزوج ، وعانى موليير من جراء ذلك ، وكان أصدقاؤه وأعداؤه يلوكون الشائعات عنه . وبعد زواجه بعشرة أشهر حاول أن يهدىء جراحه ينقد غيرة الرجال والدفاع عن تحرر النساء . لقد حاول أن يكون أريست ، ولكن أرماند لم تستطع أن تكون ليونور . ولعله أخفق فى أن يكون أريست لأنه كان نافد الصبر شأنه شأن أى مخرج مسرحى . وفى « تمثيلية فرساى المرتجلة » (أكتوبر ١٦٦٣) وصف نفسه إذ يقول لزوجته «اسكتى. أيتها الزوجة ،فما أنت إلا حمارة» . فتجيب « شكراً لك أيها الزوج الطيب. أنظر ما صار إليه أمرنا . أن الزواج يغير الناس تغييراً عجيباً ، فما كنت لتقول هذا قبل سنة ونصف(١٥) » .

وواصل تأملاته فى الغيرة والحرية فى مسرحيته «مدرسة الزوجات» التى عرضت أول مرة فى ١٦ ديسمبر ١٦٦٢ . ومنذ بدايتها تقريباً تراها تضرب على هذا الوتر — الزوج الديوث . فترى آرنولف الذى لعب موليير دوره هنا أيضاً طاغية من الطراز العتيق ، يؤمن بأن المرأة المتحررة امرأة فاسقة ، وأن السبيل الأوحد لضمان وفاء الزوجة هو ترويضها على الخدمة المتواضعة ، وعلى فرض الرقابة الصارمة عليها وإغفال تعليمها . وتشب أنييس ، القاصر التى كان وصيا عليها وعروسه المستقبلة ، فى براءة حلوة ، حتى أنها تسأل آرنولف فى عبارة تردد صداها فى طول فرنسا وعرضها ، « أيولد الأطفال. من الأذن(١٦) ، ؟» . ولما كان آرنولف لم يتحدث إليها بشىء عن الحب ، فأنها ترحب فى سرور برىء بتودد هوراس الذى يجـد طريقه إليها أثناء غيبة قصيرة للوصى . فإذا عاد آرنولف قصت عليه وصفاً موضوعياً لمسلك هوراس :

آرنولف : حسنا ، ولكن ماذا صنع حين انفرد بك ؟

آنييس : قال إنه يحبنى حباً حاراً لا نظير له . وقال لى بألطف لغة فى

الدنيا أشياء لا يمكن أن يعدلها شيء . وقد أبهجنى لطف حديثه كلما استمعت إليه ، وأثار فى شيئاً لا أعرفه ، عاطفة سحرتني تماماً .

آرنولف : (جانباً) يا له من تحقيق معذب فى سر قتال ، يعانى فيه المحقق كل الألم ! (بصوت عال .) ولكن علاوة على هذا الحديث كله، وهذه الأساليب اللطيفة كلها ، ألم يقبلك بعض القبلات أيضاً ؟

أنييس : أوه ! إلى هذا الحد ! لقد تناول يدي وذراعي ولم يتعب قط من تقبيلها .

آرنولف : ألم يأخذ شيئاً آخر منك يا أنييس ؟ (ملاحظا حيرتها) ها ؟

أنييس : بلى ، لقد .

آرنولف : ماذا ؟

أنييس : أخذ .

آرنولف : كيف ؟

أنييس : الـــ .

آرنولف : ماذا تعنين ؟

أنييس : لا أجرؤ على إخبارك ، لأنك قد تغضب منى .

آرنولف : لا .

أنييس : نعم ، ولكنك ستغضب .

آرنولف : يا للهول ، لن أغضب .

أنييس : احلف إذن .

آرنولف : أحلف .

أنييس : أخذـ سيثور غضبك .

آرنولف : لا .

أنييس : نعــم .

آرنولف : لا ،لا ، لا ، لا . بحق الشيطان ما هو هذا السر ؟ ماذا أخذ منك ؟

أنييس : أنه —

آرنولف : (جانباً) إنى أقاسى عذاب الجحيم .

أنييس : أخذ الوشاح الذى أعطيتني،أصدقك القول أنى لم أستطع منعه .

آرنولف : (متمالــكاً نفسه) : لا بأس بالوشاح . ولــكنى أريد أن أعلم ألم يفعل شيئاً غير تقبيل يديك ؟

أنييس : أيفعل الناس أشياء أخرى ؟

آرنولف : لا ، لا . . . ولــكنى باختصار لا بد أن أخبرك أن قبول علب الجواهر والاستماع إلى القصص العاطلة يقصها هؤلاء الغنادير للتبرجون، والسماح لهم وأنت مسترخية بتقبيل يديك وفتنة قلبك بهذه الطريقة — هذا كله خطيئة مميتة ، بل أفظع خطيئة يمــكن أن ترتــكبيها .

أنييس : تقول خطيئة ! والسبب من فضلك ؟

آرنولف : السبب ؟ لأنه مكتوب صراحة أن السماء تغضبها أفعال كهذه .

أنييس : تغضبها ؟ ولــكن لم تغضب السماء ؟ وأسفاه ؟ إنه شيء حلو لذيذ ، تعجبنى البهجة التى أجدها فيه ، ولم أعرف من قبل هذه الأشياء .

آرنولف : نعم ، هناك الــكثير من اللذة فى هذه المواطف الرقيقة ، وهذه الأحاديث اللطيفة ، وهذه القبل الحارة ، ولــكن ينبغى تذوقها بطريقة شريفة ، والزواج كفيل بأن يمحو عنها الخطيئة .

أنييس : أفلا تعد خطيئة إذا كان الإنسان متزوجاً ؟

آرنولف : نعـم .

أنييس : أرجوك إذن أن تتزوجنى حالا(١٧) .

وتهرب أنييس إلى هوراس بعد قليل طبعاً . ولـكن آرنولف يقتنصها من جديد ويوشك أن يضربها حين يوهن من عزيمته حلاوة صوتها وجمال جسدها ، وربما كان موليير يفـكر فى أرماند وهو يـكتب عبارات آرنولف التالية :

« أن ذلك الحديث وتلك النظرة يجردان غضبى من سلاحه ، ويعيدان إلى الحنان الذى يمحو ذنبها كله . فما أعجب أن يحب الإنسان ! وأن يكون الرجال عرضة لمثل هذا الضعف أمام هؤلاء الخائنات افـكلنا يعرف نقصهن ، فما هن إلا التبذير والحماقه ، وذهنهن شرير وفهمهن ضعيف ، وما من شىء أوهن منهن ، ولا أقل ثباتاً ، ولا أكـذب ، ومع ذلك كله فالرجل يصنع كل شىء فى الدنيا من أجل هؤلاء الحيوانات(١٨) » .

وفى النهاية تهرب منه وتتزوج هوراس . أما آرنولف فيمزيه صديقه كريسالد بفـكرة مؤداها أن امتناع الرجل عن الزواج هو الطريقة الأكيدة الوحيدة التى تقيه من أن يطلع له قرنان فى رأسه .

وأبهجت التمثيلية جمهورها ، فمثلت إحدى وثلاثين مرة فى الأسابيع العشرة الأولى ، وكان فى الملك من الشباب ما سمح له بالاستمتاع بخلاعتها ، ولـكن عناصر البلاط الأشد محافظة انتقدوا الملهاة لما فيها من مجافاة الفضيلة ، وكرهت السيدات فـكرة الولادة من الأذن ، وندد الأمير كونتى بمنظر الفصل الثانى الذى سقنا حواره من قبل بين آرنولف وأنييس زاعما أنه أفضح ما عرض على خشبة المسرح . ولعن بوسويه التمثيلية برمتها ، ودعا بعض القضاة إلى حظرها باعتبارها خطراً على الأخلاق والدين ، وسخرت الفرقة المنافسة من ابتذال الحوار وتناقضات رسم الأشخاص وشطحات الحبـكة المتعجلة . وظلت التمثيلية حيناً « حديث كل بيت فى باريس(١٩) » .

وكان فى موليير من حب النضال مالا يدعه يترك هذا النقد كله دون تعليق منه . فنى تمثيلية ذات فصل واحد مثلت فى الباليه رويال فى أول يونيو ١٦٦٣ ، واسمها « نقد مدرسة الزوجات » عرض لنا القاء ين نقاده وتركهم يعربون بعنف عن اعتراضاتهم ، ولم يكد يرد عليها إلا بأن يدع النقد يضعف ذاته بمبالغته ، وأن يجريه على ألسنة شخصيات مثيرة للسخرية . وواصل الأوتيل دبورجون « الحرب الكوميدية » بإخراجه هزلية قصيرة سماها « الناقد المعارض » ، وهجا موليير الفرقة الملكية فى « تمثيلية فرساى المرتجلة » (١٧ أكتوبر ١٦٦٣) . وساند الملك موليير فى وفاء ، ودعاه إلى العشاء[٢٠] ، ومنحه الآن معاشا سنويا قدره ألف جنيه ، لا بوصفه « ممثلا كوميديا » بل « شاعرا فذا[٢١] » . كذلك نصر الزمن موليير ، فمدرسة الزوجات تعتبر اليوم أول ملهاة عظيمة فى المسرح الفرنسى .

٤ — غرام طرطوف

ولكن موليير دفع ثمن حظوته لدى الملك . فلقد أحب لويس ظرفه وشجاعته ، فجعله من كبار المنظمين للملاهى فى فرساى وسان — جرمان . وقد ملأ أحد هذه المهرجانات المسمى « مباهج الجزيرة المسحورة » أسبوعا (٧ — ١٣ مايو ١٦٦٤) بألعاب السيف والولائم والموسيقى والباليه والرقص والدراما — وكلها أقيم فى حديقة فرساى وقصره تحت أضواء المشاعل والشمعدانات التى تحمل أربعة آلاف شمعة . وكوفىء موليير على جهوده فى هذا المهرجان بستة آلاف جنيه . وقد أسف بعض الأدباء لإسراف الملك فى استغلال عبقرية موليير لكى يوفر هذا اللهو الخفيف فى البلاط ، وتصوروا تلك الروائع التى كان من الجائز أن يكتمل نضجها لو أن الشاعر الكامن فى الكوميدى أتيح له مزيد من الوقت للتفكير والكتابة . غير أنه كان واقعا تحت ضغط من فرقته أيضا ، وما كانت شواغله ومسئولياته

مديرا للفرقة وممثلا بها لتسمح له على أية حال بالاعتكاف فى أى برج عاجى.
وما أكثر المؤلفين الذين يكتبون تحت ضغط ملح خيرا مما يكتبون فى الفراغ ، فالفراغ يرخى الذهن ، والإلحاح يشحذه . ولقد أخرج موليير أعظم تمثيلياته أول مرة فى ١٢ مايو ١٦٦٤ ، فى قصة « مباهج الجزيرة المسحورة » ، وكانت جزءا من المهرجان .

فى هذا العرض الأول لم تكن « طرطوف » بالتمثيلية المناسبة تماما للمهرجان ، لأنها فضحت فى غير رحمة ذلك النفاق الذى يتخفى خلف رداء من التقوى والفضيلة . وكانت جماعة دينية من الإخوة العلمانيين تدعى « جمعية السر المقدس » ، وعرفت فيما بعد بـ« عصبة الورعين » قد قطعت العهود على أعضائها بأن يعملوا على حظر التمثيلية . أما الملك الذى كانت علاقته الغرامية بلافاليير قد أثارت كثيرا من نقد هؤلاء الورعين ، فقد كان مزاجه يدعوه للاتفاق مع موليير ، ولكنه بعد أن شاهد الملهاة فى عرضها الخاص بفرساى أوقف الأذن بعرضها على نظارة باريس فى الباليه — رويال . وطيب خاطر موليير بدعوته ليقرأ « طرطوف » فى فونتنبلو على نخبة مختارة تضم ممثلا للبابا لم يذكر التاريخ أنه اعترض عليها (٢١ يوليو ١٦٦٤) . فى ذلك الشهر مثلت المسرحية فى بيت دوق أورليان ودوقتها (هنرييتا آن) ، فى حضرة الملكة ، والملكة الأم ، والملك . وبينما كان يجرى التمهيد لعرضها على الجماهير أذاع كاهن سان — برتلمى ، بيير روليه ، فى أغسطس ثناء على الملك لحظره التمثيلية ، واغتنم هذه الفرصة ليرمى موليير بأنه « رجل ، بل شيطان متجسد فى ثوب رجل ، وأشهر مخلوق فاسق منحل عاش إلى الآن » . ثم قال الأب روليه إن جزاء موليير على تأليف طرطوف « أن يحرق على الخازوق ليذوق من الآن نار الجحيم[٢٢] » . ووبخ الملك روليه ، ولكنه ظل يحبس الإذن بعرض طرطوف علنا . ولكى يظهر حقيقة موقفه رفع معاش موليير السنوى إلى ستة آلاف جنيه ، وتلق

عن « المسيو » حماية فرقة موليير ، فأصبحت منذ الآن « فرقة الملك » .

وظل الجدل مضطرما تحت الرماد عامين . ثم قرأ موليير على الملك نسخة منقحة من التمثيلية ، أضاف إليها سطورا تذكر أن الهجاء ليس موجها ضد الإيمان الصادق بل ضد الرياء . وأيدت مدام هنريتا التماس المؤلف الإذن بعرض المسرحية . ووافق لويس موافقة شفوية ، وبينما كان منطلقا إلى الحرب فى فلاندر عرضت طرطوف لأول مرة على مسرح الباليه — رويال فى ٥ أغسطس ١٦٦٧ بعد مرور ثلاث سنين على أول عرض لها فى البلاط . وفى الغد أمر رئيس باريس ، وكان ينتمى لجماعة السر المقدس ، بغلق المسرح وتمزيق كل لافتاته . وفى ١١ أغسطس حظر رئيس أساقفة باريس قراءة الملهاة أو سماعها أو تمثيلها سرا أو علانية ، وإلا كان الحرم جزاء المخالف . وأعلن موليير أنه سيعتزل المسرح إذا استمر انتصار « الطراطيف » هذا . أما الملك الذى عاد إلى باريس فقد أمر الكاتب المسرحى الغاضب بأن يتذرع بالصبر ، ففعل ، وأثيب فى النهاية برفع الحظر الملكى . وفى ٥ فبراير ١٦٦٩ بدأت التمثيلية فترة عرض ناجحة اتصلت ثمانية وعشرين مرة . وبلغ من كثرة الراغبين فى دخول المسرح وتهافتهم عليه فى أول حفلة علنية أن الكثيرين كادوا يختنقون . لقد كانت « أشهر مسرحية » فى حياة موليير المسرحية . وقد حظيت دون جميع الدرامات الكلاسيكية الفرنسية بأكبر عدد من العروض — بلغت ٢٫٦٥٧ (حتى سنة ١٩٦٠) فى مسرح الكوميدى — فرانسيز وحده .

ولكن إلى أى حد تعلل محتويات التمثيلية تأجيلها الطويل ، وشعبيتها المتصلة ؟ أنها تعلل التأجيل بهجومها الصريح على التظاهر بالتقوى ؛ وتعلل الشعبية بقوة هجائها وبراعته . وكل مافى ذلك الهجاء مبالغ فيه بالطبع . فقلما يكون الرياء مستهترا كاملا كما كان فى طرطوف ، وقلما يكون الغباء مفرطا كما كان فى أورجون ، وليس هناك خادمة نجحت فى وقاحتها كما نجحت

دورين . وحل عقدة التمثيلية لا يصدق ، كما هى الحال عند موليير دائما تقريبا ، ولكن هذا لم يقلقه ، فبعد أن يقدم صورته واتهامه للنفاق ، تكفى أى حيلة مسرحية — كتدخل الإله أو الملك — لحل العقدة بانتصار الفضيلة وعقاب الرذيلة . وأغلب الظن أن الهجاء قصد به جماعة السر المقدس الذين أخذ أعضاؤه على عاتقهم أن يوجهوا ضمائر الناس ، حتى ولو كانوا علمانيين ، ويبلغوا الخطايا السرية للسلطات العامة ويتدخلوا فى شئون العائلات لزيادة الولاء والإخلاص للدين . وقد أشارت التمثيلية مرتين إلى « عصبة » (فى السطرين ٣٩٧ و ١٧٠٥) ، وواضح أن هذا تلميح إلى عصبة الورعين . وعقب العرض الأول للتمثيلية حلت جماعة السر المقدس .

أما أورجون ، البورجوازى الغنى ، فيرى طرطوف لأول مرة فى الكنيسة فينبهر لمرآه .

« آه لو رأيته ... إذن لأحببته كما أحببته . . كان يأتى كل يوم إلى الكنيسة هادىء الهيئة ثم يركع بجوارى . وقد لفت أنظار المصلين جميعا بحرارة الابتهالات التى رفعها إلى السماء . كان يتأوه ويئن أنينا شديدا ، وفى كل لحظة يقبل الأرض فى تذلل . فإذا شرعت فى الخروج تقدمنى ليقدم إلى الماء المقدس عند الباب . وإذ أدركت .. رقة حاله .. كنت أهديه الهدايا ، ولكنه كان على الدوام يعرض أن يرد إلى بعضها .. وأخيرا حفزتنى السماء على أن آخذه إلى بيتى ، وبدا لى منذ تلك اللحظة أن كل شىء يزكو . وأنا أراه يلوم دون تفرقة بين الناس ، وألحظ أنه ، حتى فيما يتصل بزوجتى ، شديد الحرص على عرضى . فهو ينبئنى عمن يرمقها بنظرات الهيام[٢٣] » .

ولكن طرطوف لا يروع زوجة أورجون وأبناءه كما راعه . ذلك أن شهيته الطيبة ، وولعه بأطايب الطعام ، وكرشه المكور ، ووجهه المتورد

كل أولئك يذهب فى نظرهم بأثر عظاته . ويرجو كليأنت زوج أخته أورجون أن يميز بين الرياء والدين :

« كما أنى لا أعرف فى الحياة خلقا أعظم ولا أجل من التقوى الصادقة ، ولا شيئا أنبل ولا أجمل من حرارة الورع الخالص ، فإنى لا أرى شيئا أشد نكراً من طلاء الغيرة الزائفة ، ومن هؤلاء الدجالين ، هؤلاء الاتقياء مظهراً . . . الذين يتجرون بالتقوى ، ويريدون أن يشتروا أسباب التكريم وحسن الأحدوثة برفع العيون إلى السماء فى رياء ، وبانتشاءات القداسة المفتعلة » .

ولكن أورجون يمضى فى تصديق مزاعم طرطوف ، ويخضع لأرشاده ، ويطلب له المعونة من الله إذا تجشأ ، ويقترح تزويجه من ابنته ماريان التى تؤثر عليه ڤالير فى عنف . أما بطلة التمثيلية الحقيقية فهى دورين ، خادمة ماريان ، التى يبدو — كما فى كل الملاهى الكلاسيكية — أنها تثبت أن العناية الإلهية وزعت العبقرية توزيعا يتناسب تناسبا عكسيا مع المال . وما أبهج استقبالها لطرطوف عند دخوله المسرح أول مرة :

طرطوف : (يكلم خدمه بصوت عال حين يرى دورين) . يا لورنس ، اقفل على وشاحى الوبرى وسوطى ، والتمس من السماء أن تنيرك بالنعمة دائما . وإذا جاء أحـــد لزيارتى فقل إنى ذهبت إلى السجون لأوزع صدقاتى .

دورين : (جانبا) أى تصنع وأى لؤم !

طرطوف : ماذا تريدين ؟

دورين : أن أقول لك —

طرطوف : (وهو يسحب منديلا من جيبه) أوه . ياللهول . أرجوك أن تأخذى هذا المنديل منى قبل أن تتكلمى .

دورين : ولم ؟

طرطوف : غطى ذلك الصدر الذى لا أطيق رؤيته . مثل هذه الأشياء تؤذى النفس وتغرى بالأفكار الآثمة .

دورين : إذن فأنت تذوب ذوباناً أمام التجربة ، ومنظر الجسد يؤثر فى حواسك تأثيراً شديداً ؟ الحق أننى لا أعرف أى حرارة تلهبك ، ولكنى عن نفسى لست عرضة مثلك لهذا التلهف على الجسد . ففى وسعى الآن أن أراك عارياً تماماً من رأسك إلى قدمك ، دون أن يغرينى جلدك هذا كله أى أغراء (٢٤) .

والمنظر التالى لب الملهاة . ترى فيه طرطوف يطارح زوجة أورجون ـ ايلمير ـ الغرام ، ويستعمل لغة التقى فى توسلاته . وينبأ أورجون بخيانته ، ولكنه يأبى أن يصدق ، واظهاراً لثقته بطرطوف ينزل له عن أملاكه كلها . ويستسلم طرطوف لقبولها قائلا « لتكن مشيئة السماء فى كل شىء(٢٥) » وتحل ايلمير الموقف ، إذ تخبىء زوجها تحت مائدة ، وترسل فى طلب طرطوف ، وتلوح له ببارقة تشجيع ، ثم توقعه فى محاولات للاستطلاع الغرامى . وتتظاهر بالرضى ، ولكنها تزعم أنها تحس وخزات الضمير ، فيتناول طرطوف هذا الزعم بفتوى الخبير ، وواضح أن موليير قرأ من قبل رسائل بسكال الريفية واستطابها :

« طرطوف : إذا لم يكن غير السماء عقبة فى طريق رغباتى ، فما أيسر أن أزيح هذه العقبة — صحيح أن السماء تنهى عن لذات معينة ، ولكن هناك طرق لتسوية تلك الأمور . فشد أوتار الضمير وفق مقتضيات الحال ، وتصحيح فساد الفعل بطهارة النية — ذلك علم أى علم(٢٦) » .

ويظهر أورجون من مخبئه ، ويأمر طرطوف غاضباً بأن يخرج من بيته ، ولكن طرطوف يبين له أن البيت أصبح ملكا له بحكم العقد الذى وقعه أورجون مؤخراً . ويقطع موليير هذه العقدة ، دون كبير براعة ، بأن يجعل

عمال الملك يكتشفون فى اللحظة المناسبة أن طرطوف مجرم تبحث عنه العدالة منذ زمن طويل . ويستعيد أرجون أملاكه ، ويظفر ڤالير بمريان ، وتختتم التمثيلية بنشيد شكر شجى يشيد بعدل الملك وأحسانه .

٥ ـ الملحد العاشق

ولكن إحسان الملك لابد قد أرهقته تمثيلية موليير الجريئة التالية . ففى ذروة الحرب المحتدمة حول « طرطوف » ، وبينما كانت جماعة الورعين لا يزالون منتصرين فى أمر حظر التمثيلية ، عرض موليير فى الباليه — رويال (١٥ فبراير ١٦٦٥) مسرحية « وليمة التمثال الحجرى » التى قص فيها بنثر يطفر مرحا قصة دون جوان القديمة المكرورة ، وجعل فيها ذلك الزير المستهتر ملحداً مغروراً . وقد أخذ شكلها الظاهر عن تيرسودى مولينا وغيره ، ولكنه ملأها بدراسة رائعة لرجل يلتذ الشر لذاته وتحدياً لله . وللسرحيه صدى مدهش لذلك الجدل الكبير الذى تورط فيه الدين مع الفلسفة .

ودون جوان تينوريو مركيز يسلم بالتزاماته قبل طبقته ، ولكنه فيما عدا ذلك يريد أن يستمتع بما يشتهى من لذات . ويحصى تابعه سجاناريل عدد النساء اللاتى أغواهن مولاه ثم هجرهن فيجدهن ١٠٠٣ . يقول جوان « إن الوفاء صفة لا تصلح إلا للحمقى .. فليس فى وسعى أن أحرم قلبى من أى مخلوقة جميلة أراها(٢٧) » ومثل هذا الخلق يتوق إلى لاهوت يلائمه ، ومن ثم يصبح جوان ملحداً ابتغاء راحته . ويحاول خادمه أن يناقش الأمر معه :

سجاناريل : أممكن أنك لا تؤمن بالجنة ؟

جوان : انس الموضوع .

سجاناريل : أى أنك لا تؤمن . وما رأيك فى جهنم ؟

جوان : إه !

سجاناريل : كلإيمانك بالجنة . وما رأيك فى الشيطان من فضلك ؟

جوان : نعم ، نعم .

سجاناريل : قليلا جداً كذلك . ألا تؤمن بحياة أخرى على الأطلاق ؟

جوان : ها ، ها ، ها .

سجاناريل : هذا رجل سيشق على هدايته . ولكن قل لى ، لابد أنك تؤمن بـ « الراهب الفظ* » .

جوان : تباً للأحمق .

سجاناريل : أما هذا فلا أطيقه ، لأن ليس هناك كأن وجوده مؤكد كهذا الراهب الفظ ، وقاتلني الله أن لم يكن وجوده حقيقياً . ولكن المرء يجب أن يؤمن بشىء . فبأى شىء تؤمن ؟ . . .

جوان : أومن بأن اثنين واثنين يساويان أربعة ، وأربعة وأربعة يساويان ثمانية .

سجاناريل : يالها من عقيدة جميلة ومواد إيمان رائعة ! إذن فدينك — على قدر ما أفهمه — هو الحساب ؟ أما أنا يا مولاى . . . فأفهم جيداً أن هذا العالم ليس شيئاً كالفطر نما فى ليلة واحدة . أريد أن أسألك منذا الذى صنع هذه الأشجار والصخور والأرض والسماء من فوقنا ؟ أهذا كله بنى نفسه بنفسه ؟ أنظر إلى نفسك مثلا ، فها أنتذا موجود ، أصنعت نفسك ، وألم يكن لزاماً أن يغشى أبوك أمك ليصنعك ؟ أتستطيع أن ترى كل المخترعات التى تتألف منها الآلة البشرية دون أن تعجب كيف يشغل الجزء منها جزءاً آخر ؟ ومهما قلت ، فإن هناك شيئاً معجزاً فى الإنسان لن يستطيع كل المتنطعين فى العلم أن يفسروه . أليس عجيباً أن ترانى هنا، وأن فى رأسى

(*) شبح مزعوم تخوف به المربيات والأمهات الأطفال .

شيئاً يفكر فى مائة شىء مختلف فى لحظة ويأمر بدنى بأن يصنع ما أريد ؟ أريد أن أصفق بيدى ، وأرفع ذراعى ، وأنظر بعينى إلى السماء ، واخفض رأسى ، وأحرك قدمى ، وأمشى يميناً ، ويساراً ، وأماماً ، وخلفاً ، وأدور (يقع على الأرض وهو يدور) .

جوان : هذا حسن ! أن لحجتك أنفاً مكسورا (٢٨) .

وفى المشهد التالى تتخذ الخصومة بين جوان والدين صورة أخرى . فهو يلتقى بشحاذ يزعم له أنه يصلى كل يوم من أجل المحسنين إليه ، فيقول جوان : « أن رجلا يصلى كل يوم لا بد أن يكون غنياً جداً » ويجيب الشحاذ إن الأمر على العكس من ذلك « ففى أكثر الأحيان لا أجد حتى كسرة خبز » ويعرض عليه جوان جنيهاً ذهبياً « شريطة أن يجدف ، ولكن الشحاذ يرفض « إنى أفضل الموت جوعا » ويذهل جوان قليلا لهذه الصلابة فيعطيه قطعة النقود وهو يقول « حبا فى الإنسانية (٢٩) » ويعرف كل رواد الأوبرات نهاية القصة ، إذ يصادف جوان تمثالا للقائد الذى أغوى ابنته وأودى بحياته . فيدعوه التمثال إلى العشاء ، فيحضر ، ويناوله يده ، فيقوده إلى الجحيم . ويظهر الجهاز الشيطانى المعهود فى المسرح الوسيط ، « فينقض الرعد والبرق بضوضاء عظيمة على دون جوان ، وتفغر الأرض فاها وتبتلعه ، وتندلع نار هائلة من المكان الذى سقط فيه » .

وقد صدم الجمهور فى أول ليلة لما رأى من فضح موليير لكفر جوان . ولعل هذا الجمهور لم يكن يرى بأسا بأن يفضح سفالة جوان وافتقاره إلى إلى اللاهوت ، وبأنه أماط اللثام عنه وحشا لا ضمير له ولا حنو ، ينشر الخداع والحزن أينما ذهب ، ولعله لاحظ أن المؤلف عرض ضحايا الوغد بكل ما فيه من عطف ، ولكنه لاحظ أن الرد على الكفر جاء على لسان أحمق يؤمن بالعفاريت إيمانا أرسخ من إيمانه بالله ، ولم يخفف من وقع هذا الكفر القاء جوان فى الجحيم أخيراً ، لأن الجمهور رآه يهبط إلى الجحيم

دون كلمة ندم أو خوف . وبعد العرض الأول خفف موليير من حدة أكثر الفقرات ايذاء ، ولـكن هذا لم يهدىء ثائرة الرأى العام . ففى ١٨ أبريل ١٦٦٥ نشر سيد روشمون ، المحامى فى البرلمان ، « ملاحظات حول مسرحية لموليير» فيها ولمية التمثال الحجرى بأنها « شيطانية حقا . . لم يظهر قط أفسق منها حتى فى العهود الوثنية » ثم أهاب بالملك أن يحظر التمثيلية :

« فبينما يحرص هذا الملك النبيل الحرص كله على صون الدين ، نرى موليير يعمل على هدمه . . فليس فى وسع انسان مهما قل علمه بتعاليم الدين أن يؤكد بعد رؤية التمثيلية أن موليير أهل للمشاركة فى تناول الأسرار المقدسة ما دام سادرا فى عرضها ، أو يستحق أن تقبل توبته دون عقاب علنى(٣٠) » .

ولـكن لويس واصل رضاءه عن موليير . ومثلت « ولمية التمثال الحجرى » ثلاثة أيام كل أسبوع من ١٥ فبراير إلى أحد السعف . ثم سحبت ، ولم تعد إلى خشبة المسرح إلا بعد موت مؤلفها بأربع سنوات ، ولم تعـد إلا على صورة اقتباس شعرى بقلم توما كورنى الذى حذف المشهد الفاضح الذى نقلناه . أما النسخة الأصلية فقد اختفت ، ثم اكتشفت ثانية فى ١٨١٣ طبعة مسروقة نشرت بأمستردام فى ١٦٨٠ . وظلت نسخة كورنى تحتـكر المسرح حتى ١٨٤١ ، وهى لا تزال تحتل مـكان الأصل فى بعض طبعات أعمال موليير (٣١) .

٦ - موليير فى أوجه

وكأن موليير لم يكفه ما أثار عليه من خصوم ، فراح يهاجم مهنة الطب . وكان قد صور دون جوان بأنه « فاجر فى الطب » ورأى أن الطب « من أكبر كبائر الإنسانية(٣٢) » وكان قد خبر بنفسه ما فى أطباء القرن السابع عشر من قصور وغرور . وخيل إليه أن الأطباء قتلوا ابنه حين وصفوا له حجر الـكحل (الأنتيمون) ، ورآهم يقفون موقف العاجز من تدرنه

الذى يسير بخطى حثيثة (٣٣) . كذلك كان الملك ساخطا على ما يعطونه من مسهلات وما يفصدون من دمه كل أسبوع . ويقول موليير إن لويس هو الذى أغراه بوضع الأطباء على السفود . وعليه فقد كتب فى خمسة أيام تمثيلية « الحب خير طبيب » مستعيرا من الملاهى القديمة فى هذا الموضوع القديم . وقد أخرجت بفرساى فى ١٥ سبتمبر ١٦٦٥ فى حضرة الملك الذى « ضحك لها من قلبه » ولقيت الترحيب الحار حين مثلت بعد أسبوع فى الباليه — رويال . وهى تحكى قصة مريضة يدعى لفحصها أربعة أطباء . فيختلون للمداولة ، ولكنهم لايناقشون إلا شئونهم الخاصة . فإذا أصر والد المريضة على قرار وعلاج ، وصف أحدهم لها حقنة شرجية ، وأقسم الآخر أن الحقنة ستقتلها لا محالة . ثم تتعافى المريضة بغير دواء ، الأمر الذى يثير سخط الأطباء ، فيصيح الدكتور بابيز « خير لها أن تموت طبقاً للقواعد من أن تشفى مخالفة لها (٣٤) » .

وفى ٦ أغسطس ١٦٦٦ عرض موليير مسرحية قصيرة أخرى هى « الطبيب برغم أنفه » مقدمة مسرحية لمسرحيته « مبغض البشر » قصد بها أن يخفف من كآبة هذه التمثيلية التى تتغنى بالتشاؤم . وهى لا تجزى جهد قارئها اليوم لأن موليير لم يقصد أن تؤخذ هجائياته للطب مأخذ الجد . ويلاحظ أنه ظل على علاقات طيبة جداً مع طبيبه الخاص ، المسيو دموفلان ، وأنه توسط لدى الملك ليجد وظيفة شرفية لابن هذا الطبيب (١٦٦٩) وقد شرح مرة كيف كان هو وموفلان منسجمين تمام الانسجام فقال « إننا نناقش الأمر ، ويصف هو العقاقير ، وأنا أغفل تعاطيها ، ثم أشفى (٣٥) » .

وبينما كان موليير لا يزال فى وطيس المعركة حول طرطوف ، قدم فى ٤ يونيو ١٦٦٦ هجائية أخرى لم يقصد بها أن يسر الجمهور ولا الحاشية . وإذا كانت الحركة روح المسرحية ، فإن هذه المسرحية « مبغض البشر » أقرب إلى الحوار الفلسفى منها إلى التمثيلية وتكفى جملة واحدة لتلخيص القصة ؛ فألسيست ، الذى يطالب نفسه وغيره بالفضيلة الصارمة والصراحة

الكاملة يحب سيليمين التى تؤثره ، ولكن يطيب لها أن ترى العدد العديد من الخطاب وتسمع الكثير من المديح . ويجد موليير فى هذا مجرد ذريعة لدراسة الفضيلة . فهل من واجبنا أن نقول الصدق دائما ، أم نحل المجاملة محل الصدق لكى نتقدم فى هذه الدنيا ؟ أما ألسيست فيرفض أنصاف الحلول التى يتراضى بها المجتمع مع الصدق ، ويندد برياء البلاط ، حيث يتظاهر كل إنسان بأسمى العواطف و « أحر التحيات » فى حين يكيد كل لغيره سراً تحقيقاً لمصلحته الشخصية ، ويغتابهم جميعاً ، ويستمين بالتملق على نيل الحظوة أو السلطة . وألسيست يحتقر هذا كله ، ويريد أن يكون صادقاً ولو أفضى به الصدق إلى الانتحار . ويمر شويعر من رجال البلاط يدعى أورونت على قراءة أشعاره على ألسيست ، ويطلب إليه أن ينقدها نقداً مخلصاً ، وينال ما طلب ، فيهدد ويتوعد بالانتقام . وتغازل سيليمين الرجال ، فيوبخها ألسيست ، فتصفه بأنه إنسان متزمت مغرور ، ونكاد نسمع موليير يوبخ زوجته المرحة ، والواقع انه هو الذى لعب دور ألسيست ، وهى التى مثلت سيليمين :

ألسيست : سيدتى ، أتسمحين لى أن أكون صريحا معك ؟ إننى لشديد الاستياء من تصرفاتك . . أنا لا أتشاجر معك ، ولكن مسلكك ياسيدتى يفتح لأول وافد أرحب سبيل إلى قلبك . إن لك عددا هائلا من العشاق الذين تراهم يحاصرونك ؛ ونفسى لا تستطيع الرضى بهذا .

سيليمين : أتلومنى لأننى أجذب العشاق ؟ أهو ذنبى أن الناس يجدوننى جديرة بالحب ؟ وإذا بذلوا المحاولات اللطيفة لرؤيتى أفآخذ عصا وأطردهم خارجا ؟ .

ألسيست : لا ، ليست العصا هى ما يجب أن تستعمليه ، بل روحا أقل استسلاما وذوبانا أمام عهودهم . أعرف أن جمالك يتبعك فى كل مكان ولكن ترحيبك يزيد من تجتذبه عيناك تعلقا بك ، وتلطفك مع جميع من يستسلمون لك يكمل فى قلوبهم فعل مفاتنك (٣٦) .

والنقيض الفلسفي لألسيست هو صديقه فيلانت ، الذي ينصحه بأن يلائم في لطف بين نفسه وبين ما في البشر من نقائض فطرية وأن يعترف باللطف ميسراً للحياة . وسحر المسرحية في قسمة موليير عواطفه بين السيست وفيلانت . فألسيست هو موليير الزوج الذي يخشى أن يكون ديوثا ، ومنجد حجرة الملك الذي عليه — لكي يعد سرير الملك — أن يتصدى لمائة نبيل يفاخرون بنسبهم مفاخرته بعبقريته . وفيلانت هو موليير الفيلسوف ، الذي يأمر نفسه بأن يكون معقولا متسامحاً في الحكم على البشر . يقول فيلانت — موليير لموليير — ألسيست في فقرة لنا أن نعتبرها نموذجا من موليير الشاعر :

« رباه : فلنقلل من ضيقنا بعادات العصر ، ولنتسامح قليلا مع الطبيعة البشرية ، ولا نفحصها بصرامة شديدة ، بل ننظر إلى عيوبها بشيء من التساهل . فالحياة في هذه الدنيا تتطلب فضيلة مرنة طيعة ، وقد يخطيء المرء بغلوه في الحكمة ، فالعقل الكامل يتجنب كل تطرف ، ويريدنا أن نكون حكماء في اعتدال . إن التزمت الشديد في فضائل القدماء يصدم كثيراً عصرنا والعرف السائد بيننا . فهو ينشد في البشر كمالا مفرطاً ؛ علينا أن نأين للزمن دون تصلب ؛ والحماقة كل الحمقة في أن نورط أنفسنا في تقويم أخطاء العالم . إني الحظ كما تلحظ كل يوم عشرات الأشياء التي كان يمكن أن تكون خيراً مما هي لو أنها سلكت طريقاً غير طريقها ، ولكن مهما تكشف لي في كل خطوة ، فإن الناس لا يرونني ساخطا مثلك . أنني أتقبل الناس على علاتهم في هدوء كثير ، وأروض نفسي على التجاوز عما يفعلون ، وأعتقد أن في برودة طبعي من الفلسفة قدر ما في مرارة طبعك ، سواء كنت في البلاط أو في المدينة »(٣٧).

وفي رأي نابليون أن حجة فيلانت هي الأرجح ، أما جان جاك روسو فرأيه أن فيلانت كذاب ، وهو يحبذ فضيلة السيست الصارمة(٣٨) . وفي النهاية يهجر السيست العالم كما هجره جان جاك ويعتكف في عزلة معتمة .

ولم تحقق التمثيلية من النجاح إلا قدراً معتدلا . فالحاشية لم تسغ هجو تظرفها ، وجمهور الصالة لم يتحمسوا لرجل كألسيست يحتقر كل شيء صراحة إلا نفسه . ولكن النقاد — الذين لامهم من جمهور الصالة ولا من الحاشية — صفقوا للمسرحية استحسانا ، وقالوا إنها محاولة جريئة لتأليف مسرحيه الأفكار ، أما النقاد المحدثون فيرونها أكمل عمل كتبه موليير . وبمضى الزمن ، وبعد أن مات جيلها الذى شهرت به ، لقيت قبولا عاماً ، ففيما بين عام ١٦٨٠ و ١٩٥٤ مثلت ١٥٧١ مرة فى الكوميدى فرانسيز — ولم يفقها فى حفلات تمثيلها سوى طرطوف والبخيل .

ولما عجز موليير عن العيش فى سلام مع زوجة شابة بدا لها الاقتصار على زوج واحد ، والجمال ، أمرين متناقضين ، هجرها (أغسطس ١٦٦٧) وذهب ليعيش مع صديقه شابلان فى أوتوى بالطرف الغربى لباريس . وقد استخف به شابلان فى رفق لأنه يأخذ الحب مأخذ الجد إلى هذا الحد ، ولكن موليير كان شاعراً أكثر منه فيلسوفاً . وقد اعترف بهذا (إذا صدقنا شاعراً يروى عن آخر) :

« لقد صممت على أن أعيش معها كأنها ليست زوجتى ، ولكن لو علمت ما أكابد لأشفقت على . فلقد بلغ بى الغرام بها مبلغاً يجعله يتغلغل بعطف فى كل اهتماماتها . وحين أتأمل استحالة تغلبى على ما أحس به نحوها ، أقول لنفسى إنها ربما تكابد نفس المشقة فى التغلب على ميلها لأن تكون لعوبا ، وعندها أجد نفسى أميل للشفقة عليها منى للومها . ستقول لى ولا ريب إن الرجل لابد أن يكون شاعراً لكى يحس بهذا ، ولكنى شخصيا أحس أنه ليس هناك سوى نوع واحد من الحب ، وأن أولئك الذين لم يحسوا بهذه الخلجات لم يحبوا حبا صادقا قط . فكل الأشياء فى الدنيا مرتبطة بها فى قلبى . . . وحين أراها يجردنى من كل قدرة على التفكير ضرب من الانفعال ، بل نشوات تحس ولا توصف ، فلاتعود لى عينان

تبصران سوءاتها ، ولا أرى غير كل جميل محبب فيها . أليس هذا منتهى الجنون(٣٩) ؟ »

وقد حاول أن يسلوها باغراق نفسه فى عمله . ففى ١٦٦٧ شغل نفسه بتنظيم حفلات الترفيـــه للملك فى سان — جرمان . وأحييت ملهاته « امفيتريون » (١٣ يناير ١٦٦٨) من جديد غراميات جوبيتر الذى يغوى الكمين زوجة أمفيتريون . وحين قال لها جوبيتر « إن مقاسمة المرأة جوبيتر فراشه ليس فيها أى غض من شرفها » فسر كثير من السامعين العبارة بأنها تصفح عن غرام الملك بمدام دمونتسبان ، فإذا كان هذا التفسير صحيحا فهو تملق غاية فى السخاء ، لأن موليير لم يـكن مزاجه آنذاك يسمح له بالتعاطف مع من يغوون الزوجات . لقد كان كـكل إنسان آخر يداهن الملك بعبارات الزلفى كما فعل فى خاتمة طرطوف . وفى ملهاة أخرى مثلت أمام البلاط فى ١٥ يوليو ، واسمها « جورج داندان » أو الزوج المبلبل » تطالعنا مرة أخرى قصة الزوج المبلبل ، الذى يتهم زوجته بالزنا ولـكنه لا يستطيع أثبات التهمة فيأكل قلبه بالشك والغيرة ، لقد كان موليير يسكب الملح فى جراحه .

وكان عاما حافلا بالعمل ، فبعد بضعة أشهر لا أكثر (٩ سبتمبر) أخرج واحدة من أشهر تمثيلياته وهى « البخيل » . وقد اتخذت موضوعها وجزءاً من حبـكتها من مسرحية بلوتوس « أولولاريا » ولـكن بلوتوس كان قد نقل مسرحيته عن « الملهاة الجديدة » عند اليونان . وأغلب الظن أن البخيل وهجوه قديمان قدم المال ، ولـكن أحداً لم يتناول هذا الموضوع بحيوية وقوة أكثر من موليير . فترى آرباجون يتعلق بماله تعلقاً يحمله على ترك خيله تتضور جوعاً وتسير بغير حوافر ، وهو يـكره العطاء كراهية تجعله لا « يعطيك » نهاراً سعيداً (أى يقرئك التحية) بل « يقرضك نهاراً سعيداً » . وحين يرى شمعتين موقدتين استعداداً للعشاء يطفىء أحداهما .

وهو يرفض أن يمنح ابنته مهراً ، ويثق أن ابنه وابنته سيموتان قبله[٤٠].
والمجوهنا ، كما هو فى موليير عادة ، يقرب من الكاريكاتور . ولم يسغ الجمهور الصورة ، وبعد أن مثلت المسرحية ثمانى مرات سحبت ، ولكن ثناء بوالو عليها أعان على نفخ الحياة فيها ، فعرضت سبعاً وأربعين مرة فى سنواتها الأربع الأولى ، ولا يفوقها فى عدد عروضها غير طرطوف .

أما مسرحية « البورجوازى مدعى النبل » فكانت أقل جودة وأكثر توفيقاً . وقصتها أنه فى ديسمبر ١٦٦٩ قدم إلى فرنسا سفير تركى . واتخذ البلاط كل أبهته ليقع من نفس السفير ، ولكن السفير استجاب فى جمود وصلف . وبعد رحيله دعا لويس موليير ولولى إلى تأليف كوميديا تجمع بين الباليه والملهاة وتحاكى الأتراك محاكاة ساخرة . ووسع موليير الخطة لجعلها هجائية تذم الصدد المتعاظم من فرنسيى الطبقة الوسطى الذين يجاهدون للبس والحديث كإبليس ويتحدث الأرستقراطيون بالمولد . ومثلت الملهاة أول مرة أمام الملك والبلاط بشامبور فى ١٤ أكتوبر ١٦٧٠ . ولما عرضت بالباليه — رويال فى نوفمبر ، عوضت الخسارة المالية التى ألحقها بالفرقة عروض « البخيل » . ومثل موليير دور مسيو جوردان ، ومثل لولى دور المفتى . ورغبة فى خلع النبالة على مظهره ، يستأجر مسيو جوردان معلما للموسيقى ، وآخر للرقص ، وثالثاً للمبارزة . ورابعاً للفلسفة . ويتعارك هؤلاء ويتضاربون على أهمية فنونهم — فأيها أهم ، تحقيق التناغم ، أم الخطو الموقع ، أم القدرة على القتل المحكم ، أم الحديث بالفرنسية الرشيقة ؟ ونلاحظ فى مزاعم معلم الموسيقى غمزة خبيثة قصد بها لولى المتفاخر المتسلق . ويعرف نصف العالم ذلك المشهد الذى يتعلم فيه جوردان أن اللغة كلها إما نثر وإما شعر :

مسيو جوردان : ماذا ؟ إذا قلت « إيتني بخفى يا نيكول » ، و « ناولني طاقيتى » أيكون هذا نثراً ؟ .

معلم الفلسفة : نعم يا سيدى .

مسيو جوردان : عيناً ، لقد ظللت أربعين سنة أتكلم النثر وأنا لا أدرى . إنني والحق مدين لك جداً يانبأنى بهذا(٤١) .

على أن بعض رجال الحاشية الذين كانوا غير بعيدى العهد بالتخرج من التجارة إلى النبالة أحسوا أنهم المقصودون بهذا الهجاء ، فسخروا بالتمثيلية زاعمين أنها لغو فارغ ، ولكن الملك قال لموليير .ؤكدا « أنك لم تكتب فى حياتك شيئاً أمتعنى كهذا » . يقول جيزو « إن البلاط تملكته نوبة من الأعجاب بمجرد سماعه هذا الثناء(٤٢) » .

وتعاون موليير ولولى ثانيــة ومثلا أمام البلاط (يناير ١٦٧١) « بسيشيه » ، وهى مزيج من الباليه والمأساة ، شارك بيير كورنى وكنو بأكثر أبياتها . وكان لولى يكسب المعركة ضد موليير ، فالملهاة تخلى مكانها للأوبرا ، والحوار للآلات ، وكان لزاماً إنزال الأرباب والربات من السماء أو رفعهم من الجحيم واقتضى الأمر أعادة بناء المسرح فى الباليه ــ رويال لهذه التمثيلية ، وكلف هذا ١٫٩٨٩ جنيهاً . ولكن الأخراج حقق نجاحاً مالياً .

بيد أن الرومانس لم تكن أقوى جوانب موليير ، وكان أكثر انطلاقاً ويسراً حين يهزأ بسخافات جيله . وقد خيل إليه أن المرأة المتعلمة شذوذ متعب وعقبة فى طريق الزواج . ولقد سمع هؤلاء النسوة يشذبن الألفاظ ، ويناقشن دقائق النحو ، ويقتبسن من الآداب القديمة ، ويتكلمن فى الفلسفة، ووقر هذا فى إذن موليير كأنه انحراف جنسى ، أضف إلى ذلك أن رجلين ــ هما الأب كوتان والشاعر ميناج ــ كانا يهاجمان بعنف مسرحيات موليير ، فها هى ذى الفرصة قد لاحت لوخزهما . وعليه فى ١١ مارس ١٦٧٢ قدم مسرحية « النساء العالمات » . ففيلامنت تطرد خادمة لا ستعمالها لفظا رفضه المجمع اللغوى ، وابنتها أرماند ترفض الزواج لأنه اتصال مقزز بين الأجساد لا امتزاج بين العقول ؛ ويقرأ تريسوتان شعره الكريه على هاتين

للرأتين المتكلفتين المعجبتين . ويملأ فاديوس الشعر بالألغاز والمعميات ، ويقرأ المزيد من شعره وشعر تريسوتان . ويدافع موليير عن هنرييت ضد هؤلاء جميعاً ، لأنها تستهجن أبيات الشعر (السداسية) وتريد زوجاً يمنحها الأبناء لا الإبجرامات . ترى هل أصبحت أرماند بيجار إحدى المتحذلقات ؟ أم أن موليير كان يعرض عصره ؟

٧ – ستار

إنه لم يجاوز الخمسين الآن ، ولكن حياته المحمومة ، وتدرنه ، وزواجه ، وأحزانه لفقد أحبائه ، استنزفت حيويته . إن مينار رسمه في ريعان شبابه : أنف كبير وشفتان شهوانيتان وحاجبان مرفوعان بشكل مضحك ، ولكن له إلى جانب هذا جبهة متجعدة وعينين حزينتين . ذلك أن انهماكه في دوامة المسرح من بلد إلى بلد ، يوماً بعد يوم ، وتعامله مع الممثلات الأوليات المتوترات الأعصاب ، ومع زوجة منعمة بالحياة ، ومع ملك حساس ، ورؤيته اثنين من أطفاله الثلاثة يموتان — كل هذا لم يكن طريقاً مفروشاً بالرياحين إلى التفاؤل ، بل طريقاً عريضاً لسوء الهضم والموت المبكر . لا عجب إذن أن يصبح موليير « بركانا يلتهم ذاته(٤٣) » ، إنسانا مكتئبا ، حاد الطبع ، نقاداً في غير مجاملة ، ولكنه رغم ذلك كريم النفس عطوف . وقد فهمته فرقته وأخلصت له الود ، موقنة أنه يفني نفسه ليوفر لها القوت ويكفل لها النجاح . وكان أصدقاؤه على استعداد دائم لخوض المعركة دفاعا عنه — لا سيما بوالو ، ولا فونتين ، اللذين كتبا مع موليير ، بمشاركة راسين أحيانا ، « الأصدقاء الأربعة » المشهورة . ولقد وجدوا فيه التعليم الحسن والاطلاع الواسع ، وعرفوه ذكيا ظريفا وإن قل مرحه ؛ لقد كان المهرج الساخر على خشبة المسرح ، ولكنه في حياته الخاصة أشد حزنا من جاك (في مسرحية شكسبير « كما تشاء ») .

وبعد أن انفصل عن زوجته أربع سنوات ونصفاً عاد إليها (١٦٧١) . ومات الطفل الذى أثمره هذا التصالح بعد شهر من ولادته . وكان يعيش فى أوتوى قبل ذلك على اللبن كما أوصاه طبيبه ، فعاد الآن إلى شرب النبيذ على عادته ، وحضر سهرات العشاء المتأخر ارضاء لأرماند . وقرر أن يمثل الدور الأول برغم تفاقم سعاله ، دور أرجان ، فى آخر تمثيلياته « المريض بالوهم » (١٠ فبراير ١٦٧٣) .

وأرجان هذا يتوهم أنه مصاب بالعديد من الأمراض ، وينفق نصف ثروته على الأطباء والعقاقير . ويحتقره أخوه بيرالد :

« أرجان : فما الذى يجب أن نصنعه حين نمرض ؟

بيرالد : لاشىء يا أخى . . . علينا أن نحتفظ بهدوئنا لا أكثر . والطبيعة ذاتها إذا تركناها وشأنها ، كفيلة بأن تخلص نفسها بلطف من الخلل الذى وقعت فيه . إن الذى يفسد كل شىء هو تسكراننا لصنيعها ونفاد صبرنا ، وكل الناس تقريبا يموتون بالدواء لا بالداء(٤٤) » .

ولمزيد من السخرية بمهنة الطب يقال لأرجان إن فى استطاعته هو نفسه أن يصبح طبيبا بإجراء مختصر ، وأن يجتاز بسهولة الامتحان للحصول على الأجازة الطبية . ويلى ذلك الامتحان المزيف الذى تسأل فيه اللجنة أرجان(*) .

وكاد موت موليير أن يسكون جزءا من هذه التمثيلية . ففى ١٧ فبراير

(*) يحاول بيرالد فى هذا الفصل الأخير من الملهاة أن يسلى الأسرة ، فيكلف أصحابه الممثلين بفاصل يمثل قبول أرجان طبيبا فى الفيزياء على أنغام الموسيقى والرقص ، ويقترح اشتراك الجميع فى المهزلة ، وأن يمثل أرجان الدور الرئيسى فيها . ويدخل موكب الصيادلة والجراحين والأطباء ، ويجلس أرجان عند قدمى الرئيس الذى يخاطب لجنة الامتحان بخليط لغوى هازل طالبا إليهم أن يوجهوا اسئلتهم لأرجان . فيسألونه عن العقاقير والأمراض وعلاجها ، وعقب كل جواب يبدى الخورس استحسانه وجدارة أرجان بالمهنة ، فيطلقه الرئيس ويجيزه ، ويهتف الخورس بحياته داعيا له بطول العمر . (المترجم)

١٦٧٣ طلبت إليه أرماند وغيرها ، حين رأوا اعياءه ، أن يغلق للسرح أياما حتى يتماثل صحته . فسألهم ، ولكن كيف أصنع هذا ؟ إن هنا خمسين عاملا فقيرا ينقدون أجرهم يوما بيوم ، فماذا هم فاعلون إذا توقفنا عن التمثيل ؟ انني لألوم نفسى على انى أهملت توفير القوت لهم يوما واحدا مادام فى طاقتى أن أمثل(٤٥) » . وفى الفصل الأخير من التمثيلية ، وبينما كان موليير ، فى دور أرجان (الذى تظاهر بالموت مرتين) يلفظ بكلمة Juro (أحلف) وهو يقسم يمين للهنة ، أخذته نوبة سعال مقترنة بتقلصات . فداراها بضحكة كاذبة وأنهى التمثيلية . وهرعت به زوجته والممثل الشاب ميشيل بارون إلى بيته . وطلب كاهنا ، ولكن أحدا لم يحضر . واشتد سعاله ، وانفجر فيه عرق ، فاختنق بالدم فى حلقه ومات .

وقضى آرلى دشانفالون رئيس أساقفة باريس بأنه يستحيل دفن موليير فى أرض مسيحية مادام لم يتب توبته النهائية ويتلق غفران الكنيسة . أما أرماند ، التى كانت تحبه على الدوام حتى وهى تخدعه ، فذهبت إلى فرساى ، وارتمت عند قدمى الملك ، وقالت فى غير حكمة ، ولكن فى شجاعة وصدق « إذا كان زوجى مجرما ، فان جلالتكم باركتم جرائمه بشخصكم(٤٦) » . وبعث لويس بكلمة إلى رئيس الأساقفة سرا ، ولان آرلى ، وأمر بألا يؤخذ جثمانه إلى كنيسة لإجراء الشعائر المسيحية ، ولكنه سمح بدفنه فى هدوء بعد الغروب فى ركن قصى من جبانة سان — جوزيف فى شارع مونمارتر .

ومازال موليير بإجماع الناس علما من أعظم أعلام الأدب الفرنسى ، لا بكمال تكنيكه المسرحى ولا بأى روعة تميز بها شعره . فأكثر حبكاته مستعارة ، ومعظم نهاياتها مفتعلة وغير معقولة ، وجل شخوصه صفات مجسدة ، والعديد منها كأرباجون مبالغ فيه إلى حد الكاريكاتور ، وكثيرا ما تهبط ملاهيه إلى درك الفارص (الهزلية الصاخبة المهرجة) .

وقد قيل إن الحاشية والجمهور أحبوه أكثر ما أحبوه حين يغرق فى هذا الفارص ، ولم يستطيبوا أهاجيه اللاذعة للمثالب التى يشارك فيها الناس عموما . وأغلب الظن أنه كان مفضلا هذا اللون من الهزلية لولا شعوره بأنه مضطر إلى الحفاظ على قدرة فرقته على الوفاء بديونها .

وكما أسف شيكسبير على اضطراره أن يجعل من نفسه مهرجا للناظرين كتب موليير يقول : « أرى أن من العقوبة الفادحة فى الفنون الحرة أن يعلن الفنان عن نفسه للحمقى وأن نعرض ثمرات أقلامنا للحكم المهجى الذى يحكم به عليها الأغبياء(٤٧) » . وقد حز فى نفسه أن يطالب على الدوام بإضحاك الناس ، فهذا كما قال أحد شخوصه « مطلب غريب(٤٨) » . وكان يتطلع لكتابة المآسى ، ومع أنه قصر دون هذا الهدف ، فإنه وفق فى أن يضفى على أعظم ملاهيه مغزى وعمقا مأساويين .

إذن فالفلسفة التى تنطوى عليها تمثيلياته ، وفكاهتها وهجوها اللاذع — هذه هى التى تجعل كل قارىء فرنسى تقريبا يقرأ موليير(٤٩) . وهى فى صميمها فلسفة عقلانية ، أبهجت قلوب « فلاسفة » القرن الثامن عشر . « فليس فى موليير أثر لمسيحية الخوارق » و « الدين الذى عرضه لسان حاله كليانت (فى طرطوف) يمكن أن يصدق عليه فولتير(٥٠) » . إنه لم يهاجم قط العقيدة المسيحية ، وقد سلم بفضل الدين فى حياة الكثيرين جداً ، واحترم التقوى الصادقة المخلصة ، ولكنه احتقر الورع السطحى الذى يخفى أنانية أيام ستة وراء نفاق اليوم السابع (يوم الأحد) .

وكانت فلسفته الأخلاقيه وثنية بمعني أنها أباحت اللذة ولم يكن فيها إحساس بالخطيئة . كان فيها رائحة أبيقور وسنيكا لا القديس بولس أو أوغسطين ، وقد انسجمت مع تحلل الملك أكثر من انسجامها مع زهد البور — رويال . وكان يستنكر الغلو حتى فى الفضيلة . كان يعجب بـ « الرجل الفاضل » ، رجل الدنيا المعقول الذى يسلك باعتدال عاقل

وسـط السخافات المتعارضة ، ويوائم فى غـير ضجة بين نفسه وبين نقائص البشر .

ولم يبلغ موليير ذاته ذلك المستوى من الاعتدال . فقد أكرهته مهنته مسرحيا هازلا على الهجو ، وعلى المبالغة أحيانا كثيرة . وقد عنف على النساء المتعلمات ، وغلا فى هجومه على الأطباء دون تفريق ، ولعله كان يخلق به أن يبدى احتراما أكثر للحقن الشرجية . ولـكن الغلو كائن فى دم الهجو ، وقل أن تبلغ المسرحيات هدفها بدونه ، ولعل موليير يكون أجل وأعظم قدرا لو أنه وجد سبيلا لهجو الشر الأساسى الذى لوث ذلك العهد — ونعنى ذلك الجشع الحربى والاستبداد المدمر الذى ابتلى به لويس الرابع عشر ، ولـكن هذا المستبد المنعم هو الذى حماه من أعدائه ويسر له أن يشن الحرب على التعصب . وما أسعده لأنه مات قبل أن يصبح سيده أشد هؤلاء المتعصبين كلهم تدميرا !!

إن فرنسا تحب موليير ، وما زالت تمثل مسرحياته ، كما تحب انجلترا شيكسبير وتمثل مسرحياته ، ولا نستطيع كما يريد بعض الغالين (الفرنسيين) المتحمسين أن نسوى بينه وبين شاعر انجلترة ، فلقد كان جزءا فقط من شيكسبير ، الذى كان جزءاه الآخران راسين ومونتينى . كذلك لا نستطيع كما يفعل الـكثيرون أن نضعه على قمة الأدب الفرنسى . لا بل إننا لسنا على يقين من أن بوالو كان على حق حين قال للويس الرابع عشر إن موليير كان أعظم شعراء عهده ، فحين قال بوالو هذا لم يكن راسين قد كتب « فيدر » ولا « آتالى » . ولـكن فى موليير ، ليس الـكاتب فقط هو الذى ينتمى لتاريخ فرنسا ، بل الإنسان : مدير الفرقة المرهق الوفى ، والزوج المخدوع الصفوح ، والمسرحى الذى يخفى أحزانه بالضحك ، والممثل العليل الذى يواصل حتى الموت حربه على الفقر ، والتعصب ، والخرافة ، والنفاق .

الفصل الخامس

أوج الكلاسيكية فى الأدب الفرنسى

١٦٤٣ — ١٧١٥

١ ـ جو الكلاسيكية

لم يكن أوج الأدب الكلاسيكى الفرنسى مواكباً تماما لعصر لويس الرابع عشر ، بل جاء إبان وزارة مازاران وفى الربيع المشرق لهذا العصر (١٦٦١ — ٦٧) ، قبل أن ينحى مارس (إله الحرب) ربات الفنون إلى المؤخرة . أما أول حافز للتفجر الأدبى فقد انبعث من تشجيع ريشليو للدراما والشعر ، وجاء الثانى من الانتصارات الحربية التى حققها الفرنسيون فى روكروا (١٦٤٣) ولنز (١٦٤٨) ، وانساب الثالث من انتصارات فرنسا الدبلوماسية فى معاهدتى وستفاليا (١٦٤٨) والبرانس (١٦٥٩) ، وأتى الرابع من اختلاط الأدباء بالنبلاء والمثقفات من النساء فى الصالونات ، والحافز الأخير فقط هو الرعاية التى حظى بها الأدب من الملك والحاشية . وكثير من روائع ذلك العهد — كرسائل بسكال (١٦٥٦) وخواطره ، وطرطوف موليير (١٦٦٤) ومسرحية وليمة التمثال الحجرى (١٦٦٥) ومبغض البشر (١٦٦٦) ، وأمثال لاروشفوكو (١٦٦٥) وهجائيات بوالو (١٦٦٧) وأندروماك راسين (١٦٦٧) — هذه كلها كتبت قبل ١٦٦٧ بأقلام رجال نموا وترعرعوا أيام ريشليو ومازاران .

ومع ذلك كان لويس أسخى راع للأدب عرفه التاريخ كله . فما مضت سنتان على تسلمه مقاليد الحكم (١٦٦٢ — ٦٣) — أى قبل هذه الآثار

الأدبية كلها باستثناء اثنين منها — حتى طلب إلى كولبير وغيره أن يكلفوا أشخاصاً أكفاء بوضع قائمة بأسماء المؤلفين والأدباء والعلماء من أي بلد ممن يستحقون أن تقدم إليهم يد المعونة . ومن هذه القوائم تلقى خمسة وأربعون فرنسياً وخمسة عشر أجنبياً معاشات ملكية(١) . وأدهش الأديبين الهولنديين هاينسيوس وفوسيوس ، والفزيائي الهولندي كرستيان هويجنس ، والرياضي الفلورنسي فيفياني ، وكثيراً غيرهم من الأجانب ، أن يتلقوا رسائل من كولبير تنبئهم بقرار الملك الفرنسي أن يمنحهم معاشات إذا وافقت حكوماتهم . وبلغ بعض هذه المعاشات ثلاثة آلاف من الجنيهات في العام . فعاش بوالو عميد الشعر غير الرسمي ، على معاشاته كأنه إقطاعي كبير ، وترك لورثته ٢٨٦٫٠٠٠ فرنك نقداً ، وتلقى راسين ١٤٥٫٠٠٠ فرنك طوال عشر سنين بوصفه المؤرخ الملكي (٢) ولعل المعاشات الدولية كان بعض الدافع إليها الرغبة في كسب أرباب الأقلام خارج فرنسا ، أما الهبات في الداخل فهدفها إخضاع الفكر ، كما أخضعت الصناعة والفن للتنسيق والإشراف الحكوميين . وتحقق هذا الهدف ، فأخضع النشر كله لرقابة الدولة ، وأذعن الذهن الفرنسي للإشراف الملكي على تعبيره المطبوع ، باستثناء مقاومة متفرقة ضئيلة . يضاف إلى هذا أن الملك اقتنع بأن هذه الأقلام المأجورة ستتغنى بمديحه نثراً وشعراً وتخلف للتاريخ صورة مشرقة له . وقد بذلوا في هذا قصاراهم .

ولم يكتف لويس بصرف المعاشات للأدباء ، بل إنه حماهم واحترمهم ورفع مقامهم الاجتماعي ، ورحب بهم في القصر . قال مرة لبوالو « تذكر أنني سأفرد لك دائماً نصف ساعة من وقتي(٣) » . وربما كان ذوقه الأدبي مسرف الانحياز إلى الخصائص الكلاسيكية ، خصائص النظام ، والوقار ، وجمال الشكل ؛ ولكن هذه الفضائل لم تكن في رأيه معينة على توطيد الحكم فحسب بل على إضفاء النبل على فرنسا . وكان من بعض الوجوه

متقدما على شعبه وبلاطه فى أحكامه الأدبية . وقد رأيناه يحمى موليير من غدر النبلاء ورجال الدين ، وسنراه يشجع أشد شطحات راسين .

وعملا باقتراح آخر من كولبير ، وترسماً لخطى ريشليو مرة أخرى ، أعلن لويس أنه الراعى الشخصى للأكاديمية الفرنسية ، ورفعها إلى مرتبة المؤسسات الحكومية الكبرى ، ووفر لها الأموال الكافية ، وهيأ لها مكاناً فى اللوفر . وأصبح كولبير نفسه عضوا فيها . ولما أمر عضو ، كان إقطاعياً كبيراً فى الوقت ذاته ، بأن يوضع له مقعـــد وثير فى الأكاديمية ، أرسل كولبير فى طلب تسعة وثلاثين مقعداً على شاكلته حفاظاً على المساواة فى الكرامة قبل الفوارق الطبقية ، وهكذا أصبحت « المقاعد الأربعون » مرادفاً للأكاديمية الفرنسية ، وفى ١٦٦٣ نظمت أكاديمية فرعية للنقوش والرسائل لتسجل أحداث العهد .

واستوثق كولبير من أن « الخالدين الأربعين » يكسبون رواتبهم بالانتظام فى الحضور وبالجهد فى تصنيف القاموس . وكان مشروع هـذا القاموس الذى بدأ فى ١٦٣٨ يتقدم فى بطء شديد ، حتى استطاع بوارو بير أن يعبر أبجدياً عن أمنيته فى طول العمر ، « لقد أنفقوا ستة شهور وهم مشغولون بحرف F ، فليت قدرى يمهلنى حتى حرف G [٤] » .

كانت خطة القاموس معقدة شديدة التفصيل ، فقد رأت تتبع كل كلمة مسموح بها طوال تاريخ استعمالاتها وهجاءاتها ، ويشفع هذا بالكثير من الشواهد التوضيحية ، وهكذا انقضت ست وخمسون سنة بين بدء المشروع ، ونشر القاموس لأول مرة (١٦٩٤) . ولقد أسرف فى فحص لغة الشعب ، والمهن ، والفنون ، وشذب رابليه ، وآميو ، ومونتينى ، ورفض مئات التعبيرات التى تعين على الحديث الحى . فذات المنطق ، والدقة ، والوضوح الذى جعل من الهندسة المثل الأعلى لعلم القرن السابع عشر وفلسفته ، وذات السلطان والانضباط اللذان هيمن بهما كولبير على الاقتصاد ولبرون على

الفنون ، وذات الوقار والتأنق اللذان سيطرا على بلاط الملك ، وذات التشبث الكلاسيكي بالقواعد الذى شكل أسلوب بوسويه ، وفينيلون ، ولاروشفوكو ، وراسين ، وبوالو — كل أولئك أملى قاموس الأكاديمية .

ولقد نقح وأعيد نشره دورياً ، وكافح للاحتفاظ بالنظام فى جسم نام حى ، وهاجمت قلعته الكلاسيكية المرة بعد المرة ، وكثيراً ما اقتحمتها أخطاء الشعب ، ومصطلحات العلوم ، ورطانة الحرفيين ، وعامية الشوارع ؛ والقاموس ، شأنه شأن التاريخ والحكومة ، مزاج من القوى بين ثقل الكثرة وقوة القلة . وقد خسرت اللغة شيئاً من حيث الحيوية ، وكسبت الكثير من حيث النقاء ، والدقة ، والأناقة ، والمكانة . أنها لم تنجب شيكسبيراً هائجاً مائجاً ، ولكنها أصبحت أعظم لغات أوربا احتراما ، وغدت أداة الدبلوماسية ، ولسان الارستقراطيات . وظلت أوربا قرناً وأكثر تهفو إلى أن تكون فرنسية .

٢ - تذييل لكورنيي : ١٦٤٣ - ٨٤

بلغت اللغة أوجها فى السهولة المرنة التى اتسم بها حوار موليير ، وفى بلاغة كورنيي الطنانة ، وفى تأنق راسين الشجى .

أما كورنيي فكان يبدو فى ربيع أدبه — وهو فى السابعة والثلاثين — حين اعتلى لويس العرش : وقد بدأ تعهد ملهاة « الكذاب » التى رفعت نبرة الملهاة الفرنسية كما رفعت « السيد » نبرة المأساة . ثم راح يدفع إلى المسرح بالمآسى كل عام تقريبا بعد ذلك ، رودوجون (١٦٤٤) ، وتيودور (١٦٤٥) ، وهيراقليوس (١٦٤٦) ودن سانشو الأراجونى (١٦٤٩) وأندروميد (١٦٥٠) ونيكوميد (١٦٥١) وبرتاريت (١٦٥٢) . ولقى بعض هذه التمثيليات استقبالا حسنا ، ولكن حين تعاقبت كل منها سريعا خلف سابقتها ، وضح أن كورنيي يتعجل الإنتاج ، وأن عصارة

عبقريته آخذة فى النضوب . وضاع ولعه بتصوير النبالة وسط بحر من الجدل، وهزمت بلاغته ذاتها باستمرارها دون توقف . قال موليير « إن لصديقى كورنى رفيقاً يلهمه أروع شعر فى الدنيا . ولكن يحدث أن يتركه رفيقه ليرعى شئونه ، وعندها يتعثر شر تعثر(٥) . » وقد لقيت « بارتاريت » من سوء الاستقبال ما حمل كورنى على أن يعتزل المسرح ست سنوات (١٦٥٣ — ٥٩) ، وتناول نقاده فى سلسلة من « الفحوص » ، وفى ثلاثة أحاديث عن الشعر المسرحى . وقد دلت هذه الأحاديث على صعود موهبته النقدية بهبوط ملكته الشعرية ، وأصبحت ينبوعا للنقد الأدبى الحديث ، واتخذها درايدن نماذج حين دافع عن شعره المتوسط الجودة فى نثر رائع .

وفى ١٦٥٩ ردت كورنى إلى خشبة المسرح لفتة تلقاها من فوكيه . وظفرت مسرحيته « أوديب » ببعض الاستحسان عقب ثناء الملك الشاب عليها ، ولكن المسرحيات التى تلتها — سرتوريوس (١٦٦٢) ، وسوفونيسب (١٦٦٣) ، وأوتون (١٦٦٤) ، وآجيسيلاس (١٦٦٦) وأتيلا (١٦٦٧) — هذه كلها كانت قاصرة قصورا لم يستطع فونتنبل إزاءه أن يصدق أن كاتبها هو كورنى ؛ وقال بوالو فى بيت ساخر :

« بعد أجيسيلاس ، وا أسفاه ! ولكن بعد أتيلا ، قف ! » وزادت مدام هنرييتا الطين بلة ، مع أنها كانت عادة آية العطف والرقة ، حين دعت كلا من كورنى وراسين ، بعلم من كل ، إلى أن يكتب تمثيلية فى ذات الموضوع — وهو بيرنيس ، الأميرة اليهودية التى وقع فى حبها تيطس الإمبراطور القادم . ومثلت بيرنيس التى ألفها راسين فى الأوتيل دبورجون فى ٢١ نوفمبر ١٦٧٠ بعد خمسة أشهر تقريبا من موت هنرييتا ، ولقيت نجاحا كاملا . أما مسرحية كورنى « تيطس وبرينيس » فقد مثلتها فرقة موليير بعد ذلك بأسبوع ، ولم تلق غير استقبال فاتر : وحطم فشلها روح كورنى . وجرب حظه ثانية بمسرحيتى « بولشيرى » (١٦٧٢) وسورينا (١٦٧٤) ،

ولكن الفشل كان نصيبهما أيضا . وأنفق كورني بعد ذلك السنين العشر التى بقيت له من أجله فى تقوى هادئة مكتئبة .

وكان متلافا ، مات فقيرا برغم ما أجرى عليه لويس الرابع عشر من معاش وما نفحه به من هبات ، وقد قطع معاشه دون قصد أربع سنوات ، فلجأ كورني إلى كولبير ، فأمر برده إليه ، ولكنه انقطع ثانية بعد موت كولبير . فلما نمى الأمر إلى بوالو أعلم به لويس الرابع عشر ، وعرض أن يتزل عن معاشه لكورني . ولكن الملك بادر بإرسال مائتي جنيه للشاعر العجوز ، الذى مات بعدها بقليل (١٦٨٤) بالغا الثامنة والسبعين وأبنه فى الأكاديمية الفرنسية مزاحمه الذى كان قد خلفه ، ورفع المسرحية والشعر الفرنسيين إلى ذروة تاريخهما ، والتأبين مازال مذكورا لما حوى من سماحة وبلاغة .

٣ — راسين : ١٦٣٩ - ٩٩

ولد مثل موليير فى أسرة متوسطة . وكان أبوه مراقبا لاحتكار الدولة للملح فى لافيرتى — ميلون ، على نحو خمسين ميلا شمال شرق باريس ، وكانت أمه ابنة محام فى فيليه — كوتريه . وقد ماتت عام ١٦٤١ وجان لم يبلغ الثانية بعد ، وبعد سنة مات أبوه ، فكفل الصبي جده لأبيه . وكان فى الأسرة نزوع قوى إلى الجانسنية ، فقد التحقت جدة وعمة لراسين بأخوات البور — رويال ، وأرسل جان نفسه حين ناهز السادسة عشرة إلى « المدرسة الصغيرة » التى يديرها « المتوحدون » وقد تلقى عنهم تعليما مركزاً فى الدين واليونانية — وهما مؤثران قدر لهما أن يسيطرا الواحد بعد الآخر على حياته . واستهوته تمثيليات سوفوكليس ويوريبيديس فترجم بعضها بنفسه . ثم تعلم شيئا من الفلسفة ومزيدا من الثقافة الكلاسيكية فى كلية آركور بباريس ، واكتشف المفاتن الخفية للأنوثة الشابة ، الجديد منها

والمستعمل . وعاش عامين على شاطىء الجزائر أوجوستان مع ابن عمه نيكولا فيتار ، الذى كان يتردد بين البور — رويال والمسرح . واستمع راسين إلى عدة تمثيليات ، وكتب تمثيلية ، وعرضها على موليير . ولم تكن من الجودة بحيث تستحق الأخراج ، ولكن موليير نفحه بمائة جنيه ذهبى ، وشجعه على أن يعيد الكرة . واستقر رأى راسين على اتخاذ الأدب حرفة له .

وهال هذا الجنون أقرباءه ، وراعهم ما نمى إليهم من أنباء غرامياته ، فأرسلوه إلى أوزيس بجنوبى فرنسا (١٦٥٩) مساعداً لعم له كان كاهنا لكتد رائية ، فوعده بوظيفة كنسية ذات وقف إن هو درس اللاهوت ورسم قسا . أما الشاعر الشاب ، الذى ما زال باطنه يضطرم بنار باريس ، فقد ظل عاماً يسدل على هذه النار عباءة سوداء ، وقرأ القديس توما الأكوينى — وقليلا من أريوستو ويوريبيديس بجانبه . وكتب الآن إلى لافونتين يقول :

« كل النساء رائعات ... لحم غض طرى ، ولكن بما أن أول شىء قيل لى هو أن آخذ حذرى ، فلست أريد أن أقول المزيد عنهن . أضف إلى ذلك أنه سيكون امتهانا لبيت كاهن ذى وقف أعيش فيه أن أخوض فى حديث طويل عن هذا الموضوع ، « بيتى بيت الصلاة يدعى » ... لقد قيل لى « كن أعمى » فإذا لم أستطع أن أكون ذلك كلية ، فإنى أستطيع على الأقل أن أكون أبكم ... لأن على المرء أن يكون راهباً مع الرهبان ، كما كنت ذئباً معك ومع غيرك من ذئاب قطيعك[٦] » .

ولقى الكاهن شدائد وأصبحت الوظيفة الكهنوتية للوعوده أملا بعيداً وتبين راسين أنه لا يملك موهبة القسوسية . فبدل ثوبه ، وطوى كتاب « خلاصة اللاهوت » وعاد إلى باريس (١٦٦٣) .

فلما بلغها نشر نشيداً أتاه بمائة جنيه من جيب الملك . واقترح عليه موليير موضوعاً حوله راسين إلى تمثيليته الثانية « طيبة » (التيبابيد) . وأخرجها

موليير فى ٢٠ يونيو ١٦٦٤ ، ولكنه اضطر لسحبها بعد أربعة عروض . على أنها أحدثت من الضجة ما كفى لسماعها فى البور — رويال — دوشان . وأرسلت إليه عمته من هناك رسالة تستحق أن نوردها باعتبارها جزءاً من دراما تعدل فى بلاغتها وتأثيرها فى النفس أى شىء كتبه راسين :

« حين نمى إلى أنك تنوى الحضـور إلينا طلبت إلى أمنا الإذن لى برؤيتك ... ولكننى سمعت مؤخراً خبراً أثار فى أشجانا عميقة . وانى أكتب إليك فى مرارة قلبى ، وأذرف الدمع الذى أرجوان أسكبه غزيراً أمام الله لأنال منه خلاصه الذى أتوق إليه أشد مما أتوق لأى شىء آخر فى العالم . فقد علمت بالأسف أنك تخالط أكثر من أى وقت مضى معشراً اسمهم بحق رجس عند كل من له أى نصيب من تقوى ، « لأنهم محرومون من دخول الكنيسة » أو تناول الأسرار المقدسة .. فانظر الآن يا ابن أخى إلى أى حال صرت ، لأنك لا بد عليم بما أشعر به نحوك من حنـــان ، وبأنه لم يكن لى من سؤل إلا أن تتبع الله فى وظيفة شريفة . لذلك أتوسل إليك يا ابن أخى العزيز أن ترحم نفسك ، وتفحص قلبك ، وتتأمل بجد أى هوة ترديت فيها . أنى لأرجو ألا يكون صحيحا ما أنبئت به ، ولكن إذا كان سوء طالعك قد بلغ مبلغا يحملك على مواصلة تجارة تشينك أمام الله والناس ، فعليك ألا تفكر فى المجىء لرؤيتنا ، لأنك تفهم جيداً أننى لن أستطيع فى هذه الحالة أن أكلمك لعلمى بأنك فى حالة مؤسفة جداً ، مناقضة كل المناقضة للمسيحية . ولن أكف فى الوقت نفسه عن التضرع لله ليرحمك ، فيرحمنى برحمته إياك ، لأن خلاصك عزيز على جداً(٧) » .

فهاهنا عالم شديد الاختلاف عن ذلك الذى تسجله صفحاتنا عادة — عالم من الإيمان العميق بالعقيدة المسيحية ، والولاء المحب لدستورها الأخلاقى . ونحن لا نملك غير التعاطف مع امرأة استطاعت أن تكتب بمثل هذا الأخلاص فى العاطفة ، ولم تخل من العذر لرأيها فى المسرحية الفرنسية كما

كانت فى شبابها . ولم تبلغ عبارة نيكول العلنية التالية هذا المبلغ من الرقة والحنو ، وكان قد علم راسين فى البور — رويال :

« كل الناس يعرفون أن هذا السيد قد كتب .. تمثيليات للمسرح ... وهذه المهنة فى نظر ذوى العقول الراجحة ليست فى ذاتها مهنة شريفة جداً ، ولكن إذا نظر إليها فى ضوء الدين المسيحى وتعليم المسيح كانت فى الحق مهنة رهيبة . فالروائيون تجار سموم يقتلون نفوس الناس لا أجسادهم(٨) » .

واجاب كل من كورنى وموليير وراسين على هذا الاتهام على حدة ، وكان فى جواب راسين من العنف الغاضب ما جعله يندم عليه اشد الندم فى سنوات لاحقة .

وتلا خصامه مع البور — رويال خصام مع موليير بعد قليل . ففى ديسمبر ١٦٦٥ قدمت فرقة موليير تمثيليه راسين الثالثة « الإسكندر » وكان موليير كريما كعادته ، فهو عليم بأن راسين لم يصحب به ممثلا تراجيديا، وان المؤلف الشاب يهيم بأجمل ممثلاته وإن لم تكن اكفأهن ، لذلك اخرج نفسه والمرأتين بيجار من شخصيات المسرحية ، واعطى الدور النسائى الأول لتريز دبارك ، ولم يضن بمال على الأخراج . وقد لقيت استقبالا حسنا ، ولكن راسين لم يرض عن التمثيل . فرتب حفلة خاصة مثلت الفرقة الملكية فيها المسرحية ، وحمله سروره بهذا التمثيل على سحبها من موليير واعطائها لهذه الفرقة المنافسة . وأقنع الآنسة دبارك التى أصبحت عشيقته بأن تترك فرقة موليير وتنضم إلى الفرقة الأقدم وعرضت المسرحية فى مكانها الجديد بالأوتيل دبورجون ثلاثين مرة فى أكثر قليلا من شهرين . ولم تكن من روائع راسين ، ولكنها وطدت مكانته خلفا لكورنى ، وأكسبته صداقة الناقد بوالو المرشدة . فحين قال له راسين مفاخراً « انى أنظم شعرى فى يسر مدهش » أجابه بوالو » أريد أن أعلمك كيف تنظمه فى عسر(٩) » . ومنذ ذلك الحين علم الناقد العظيم الشاعر قواعد الفن الكلاسيكى .

ولا علم لنا بعدى العمر الذى نظم به راسين « أندروماك » ، على أية حال بلغ فيها أوج قوته المسرحية وأسلوبه الشعرى . وهو يذكر فى إهدائه المسرحية إلى مدام هنرييتا أنه قرأها عليها ، وأنها بكت . ومع ذلك فهى مسرحية رعب لا مسرحية عاطفة، وفيها كل الكارثة المحتومة التى نتوقعها فى إسخيلوس أو سوفوكليس . والحبكة شبكة معقدة من العلاقات الغراميه . فأوريست يحب هرميون ، التى تحب بيروس ، الذى يحب أندروماك ، التى تحب هكتور ، الذى مات . وقد منح بيروس بن أخيل ثلاث جوائز لما أبلى فى انتصار اليونان على طرواده : منح أبيروس مملكة له ، وأندروماك (أرملة هكتور) أسيرة له ، وهرميون (ابنة منيلاوس وهيلانه) زوجة له . أما أندروماك فلا تزال شابة وجميلة ، وإن لم تكف عن البكاء ، وهى لا تحيا إلا لتذكر زوجها النبيل ، وتخاف على طفلهما أستيانا كس ، الذى ينقذه راسين — بانحراف مسرحى عن القاعدة — من الموت الذى كان نصيبه فى يوريبيديس ليستعمله هنا أداة فى يد القدر . ويفد أوريست — بن كليتمنسترا وقاتلها — على إبيروس مبعوثا من اليونان ليطلب إلى بيروس تسليم استيانا كس وموته باعتباره للمنتقم المحتمل لطروادة فى المستقبل . ويرفض بيروس الاقتراح فى فقرة تمتنع موسيقاها على الترجمة . يقول ما معناه :

« إنهم يخشون أن تولد طروادة بهكتور من جديد ، وأن ابنه قد ينتزع منى الحياة التى حفظتها عليه . سيدى ، إن الأفراط فى التدبر يجر أفراطا فى الحذر . إننى لا أستطيع أن أبصر المكاره من هذا البعد الكبير . وأنا أفكر فيما كانت عليه هذه المدينة (طروادة) فيما مضى ، جبارة فى حصونها ، شديدة الخصوبة فى أبطالها ، سيدة على آسيا ، ثم أتأمل فى النهايه ما صارت إليه وما انتهى إليه حظها — فلا أرى غير أبراج غطاها الرماد ، ونهر صبغت مياهه الدماء ، وحقول هجرت ، وطفل مقيد بالأغلال ، ولست أظن أن طروادة تقوى على الثأر وهى على هذه الحال . آه ، لو كان ابن

هكتور قدر عليه الموت ، فلم أبقينا عليه عاما كاملا ؟ ألم نكن قادرين على تقديمه قربانا على صدر بريام ؟ كان يجب أن يسحق تحت مئات القتلى فى طروادة ؛ يومها كان كل شىء مباحا ، وعبثا كانت تحتج الشيخوخة والطفولة بضعفهما فى الدفاع عن نفسيهما ، فالنصر والقدرة . وهما أشد منا قسوة ، حرضانا على القتل وأفقدانا التمييز فى ضرباتنا . إن غضبى على المغلوبين جاوز حد الصرامة ، ولكن أيجب أن تبقى قسوتى بعد غضبى ؟ أينبغى أن أغتسل متلبثاً فى دم طفل برغم ما يتملكنى من شفقة عليه ؟ لا ياسيدى ، فليبحث اليونان عن فريسة أخـــرى ، وليلاحقوا ما بقى من طروادة فى غير هذا المكان . لقد بلغت نهاية الشوط فى عدائى . ان ابيروس ستنقذ ما أبقت عليه طروادة »(١٠) .

هنا مأخذ واحد ، ذلك أن بيروس ، وربما راسين ، لايدركان مبلغ ماتدين به شفقة الفاتح لغرامه بأم الطفل — إلى حد عرضه الزواج منها (مع أنه كان يستطيع أن يتخذها جارية له) ، واتخاذه أستياناكس ولدا ووريثا له . ولكنها ترفضه ، فهى لاتستطيع أن تنسى هكتور ، الذى قتله أبو بيروس . وهو يهدد بأن يسلم الطفل لليونان ، فيروعها تهديده ، وترضى بالزواج منه ، ولكن هرميون — وهى فى تصور راسين لها تضارع الليدى مكبث قوة — ، تشتعل غضبا لأنها نبذت ، فهى تعتزم قتل بيروس رغم أنها لا تزال تحبه ، وتقبل ما يعرضه أوريست من حب وولاء ، شريطة أن يقتل بيروس . فيوافق كارها . وفى كل خطوة وكل شخص من شخوص هذه المسرحية صراع فى الدوافع يرقى إلى أدق العقد النفسية المعروفة فى الأدب . ويقتحم الجند اليونان الهيكل ويقتلون بيروس عند المذبح الذى يتبادل فيه عهود الزواج مع أندروماك . وتحتقر هرميون أوريست ، وتجرى إلى المذبح ، وتغمد مدية فى جسد بيروس الميت ، ثم تطعن نفسها وتموت . هذه أعظم مسرحيات راسين ، وهى خليقة بأن تثبت للمقارنة مع شيكسبير

أو يوريبيديس : حبكة متينة البناء ، وشخوص كشف عنها فى عمق ، ومشاعر مدروسة فى كل تعقيدها وحدتها(*) ، وشعر فيه من الروعة والتناغم مالم تسمعه فرنسا منذ رونسار .

واعترف الناس بأندروماك للتو رائعة من روائع الأدب ، فوطدت مقام راسين خليفة لكورنيي وربما متفوقا عليه . ودخل الآن أسعد عقد فى عمره ، متنقلا من نصر إلى نصر ، بل متحديا موليير بملهاة من قلمه . والملهاة ، واسمها « المتخاصمون » ، وهى تقليد ساخر (برلسك) للمحامين الجشعين ، وشهود الزور ، والقضاة الفاسدين — هذه الملهاة كانت صدى لتجربة راسين مع القانون . ذلك أنه التمس رهنا على دخل دير وحصل عليه ، ولكن راهبا نازعه دعواه ، وتلا ذلك دعـــوى قضائية امتد بها الأجل حتى ضاق بها راسين ذرعا فتخلى عنها وثأر لنفسه بكتابة المسرحية . ولم تسر النظارة فى أول عرض لها ، ولكن حين مثلت فى البلاط ضحك لويس الرابع عشر من قلبه على نكتها ضحكا جعل الجمهور يغير رأيه ، وأدت هذه الملهاه المتوسطة الجودة دورها فى ملء جيب راسين .

على أن نغمة صغيرة قطعت عليه هناءه . ذلك أن خليلته دبارك ماتت فى ظروف غامضة — سنفصلها فى موضع لاحق — فى ١١ ديسمبر سنة ١٦٦٨ . وبعد أن توقف فترة مناسبة اتخذ ممثلة أخرى تدعى ماري شانمسليه . وكان لها زوج يقظ وصوت ساحر ، وتحاشى راسين الأول واستسلم للآخر . واتصل هذا الغرام من برينيس حتى فيدر ، وبعد ذلك انتزعها الكونت دكليرمون — تونير من جذورها (déracinée أى من راسين) كما قال أحد الظرفاء .

ومسرحية راسين « بريتانيكوس » (١٦٦٩) فى رأيه أكثر أعماله اتقانا ، وكثيرا ماتفضل على اندروماك ، شأنها شأن « فيدر » و « اتالى » .

(*) انفجر عرق فى مونفلورى وهو يمثلها ومات بعد قليل .

على أن القارىء المصرى لن يلتذها فى أغلب الظن مهما كان غارقاً فى تاسيتوس ففيها أجريبين السليطة ، و بريتانيكوس الشكاء و بوروس المتخبط ، و نارسيس القذر ، و نيرون الممتلىء شراً — فما من شخص هنا يظهر لنا تعقداً أو تطورا ، أو يبدى لنا أثرا من نبل خليق بأن يخفف فى موضع ما من أى مأساة جديرة بقلم شاعر .

وكما أن بريتانيكوس فتشت عن قصتها فى « قاعة الفظائع » التى ذكرها تاسيتوس ، فكذلك أخذت برينيس (١٦٧٠) قصة غرام امبراطور عن سطر موجز لسويتون يقول فيه « فأرسل لتوه كارها برينيس الكارهة من المدينة(١٢) » وتفصيل المسرحية أن تيطس الذى كان يحاصر أورشليم (٧٠ م) كان قد أغرم بالأميرة اليهودية . ومع أنها تزوجت من قبل ثلاث مرات ، إلا أنها تتبعه إلى روما خليلة له ، ولكنه حين يرث العرش يدرك أن الإمبراطورية لن تسمح بملكة أجنبية ، فيصرفها بعبارات ملكية متدفقة تتميز بالإدراك السليم . وقد حفلت المسرحية بالعاطفة الحارة وحظيت برضاء الجمهور والملك ، الذى لابد قد استشف بسرور بلاطه وانتصاراته فى وصف برينيس لعظمة الإمبراطور الشاب :

« أرأيت بهاء هذه الليلة ؟ الا تمتلىء عيناك بعظمتها وأبهتها ؟ هذه المشاعل ، وهذا الحطب ، وهذا الليل ذو اللهب المقدس ، وهاتيك النسور ، وتلك الشعارات ، وهذا الجمع من الناس ، وهذا الجيش ، وذلك الحشد من الملوك ، هؤلاء القناصل ، وهذا السناتو — أولئك الذين قبسوا نورهم الساطع من حبيبى ، وهذا الأرجوان والذهب الذى يزداد تألقا بمجده ، وهذا الغار الذى مازال يقوم شاهدا على انتصاره ، وهذه العيون التى نراها قادمة من كل فج لتلتقى فيه وحده نظراتها الملهوفة ؛ هذه الطلعة الجليلة ، وهذه الحضرة الحلوة . وحق السماء ! بأى اجلال وبأى رضى تؤكد له كل القلوب سرائقها به ! تكلم : أيستطيع إنسان أن يراه دون أن يخطر له

كما يخطر لى ، أنه لو كان القدر قضى بأن يولد مغموراً لتبين فيه العالم سيده بمجرد النظر إليه(١٣) » .

امن العجب إذن ان نرى راسين ، وهو على هذا الحذق فى الزلفى ، ينال الحظوة السريعة عند الملك ؟

ونعرف فى احترام ببعض مسرحياته الأقل شأناً ، وكلها ما يزال يحتل خشبة المسرح الفرنسى : بايزيد (١٦٧٢) ، ومتردات (١٦٧٣) التى فضلها لويس على كل مسرحياته ، وإفجينى (١٦٧٤) ، التى وضعها فولتير فى صف واحد مع أتالى باعتبارها من أروع ما كتب من الشعر(١٤) . وقد عرضت أفجيني أول مرة فى حدائق فرساى على ضوء الشمعدانات البلورية المعلقة فى أشجار البرتقال والرمان ، وعزف العازفون على الكمان وانعطفت قلوب نصف النخبة المتفرجة ، وتقدم راسين ليشكر النظارة على أغلى تصفيق لقيه فى حياته . وحين أخرجت فى باريس امتد عرضها أربعين مرة فى شهور ثلاثة . وكان قد انتخب أثناء ذلك عضواً فى الأكاديمية الفرنسية (١٦٧٣) . وبدا أن سعادته قد اكتملت .

على أن السعادة لم تكتب إلى الآن للشعراء ، إلا أن يكون الجمال فرحة لا تنتهى ، والثناء لا يقطعه صوت ناشز . قال راسين لابنه « لقد طالما أبهجنى جداً ذلك الاستحسان الذى قوبلت به ، ولكن أقل لوم ناقد . . . كان يسبب لى دائماً من الضيق قدرا أكبر من كل السرور الذى يدخله على المديح(١٥) » . فهو لم يكن شديد الحساسية فحسب ، كما لم يكن بد من أن يكون ، بل ضيق الخلق ، يرد على كل كلمة نابية . وفى ذروة نجاحه وجد نصف باريس تنتقده ، لا بل تعمل على إسقاطه . كان كورنى قد عمر فوق ما ينبغى ، ولكن مريديه تذكروا ما اتسمت به مآسيه الأولى من نبرة بطولية وموضوعات ملحمية ، وما شاع فى بلاغته من نبل ، وذلك المستوى السامى الذى رفع إليه دواعى الشرف والدولة ، فوق أهواء القلب . واتهموا راسين بتلويث المأساه بعواطف نصف مجنونة تنفعل بها مخلوقات خسيسة ،

وبادخال مغازلات حب القصور إلى المسرح ، وإغراقه بدموع بطلاته ، فصمموا على إسقاطه .

فلما عرف أنه يكتب «فيدر» أقنع فريق من خصومه نيكولا برادون بأن يكتب مسرحية منافسة فى الموضوع نفسه . وكان للمسرحيتين نفس العنوان فى الأصل — فيدر وهيبوليت — وانبثقتا من أسطورة رواها يوريبيديس من قبل بما عهد فيه من قصد كلاسيكى فى العاطفة . ففيدر ، زوجة تيسيوس ، تولع ولعاً شديداً بهيبوليت بن تيسيوس من زوجة سابقة ، ولكنها تجده بارد العاطفة نحو النساء فتشنق نفسها بعد أن تترك خطاباً اتهمته فيه بمحاولة الاعتداء على عفافها انتقاماً منه ، وننى تيسيوس ابنه البرىء ، الذى لم يلبث أن قتل وهو يسوق الخيل على شواطىء تروزين . ولكن راسين غير ترتيب الأحداث ، فجعل فيدر تتجرع السم بعد سماعها بموت هيوليت . ومثلت مسرحية راسين فى الأوتيل دبورجون فى أول يناير سنة ١٦٧٧ ، ومثلت مسرحية برادون بعد يومين على مسرح جينيجو . ولقيت التمثيليتان نجاحاً متكافئاً إلى حين ، ولكن تمثيلية برادون طواها النسيان ، فى حين تعتبر تمثيلية راسين عادة رائعته الكبرى ؛ ودور فيدر تصبو إلى تمثيله كل الممثلات الفرنسيات ، كما يستهوى دور هاملت للممثلين التراجيديين فى المسرح الانجليزى * . ولقد بارى راسين الرومانسيين مع أنه المثل المحتذى فى الأسلوب الكلاسيكى ، فى عاطفية غرام فيدر ، وجعل هبوليت يتحرق شوقا للأميرة أريسيا (وهذا مناقض للأسطورة) . وتعلم فيدر بنبأ هذا الغرام ، ويعطينا راسين فى تفصيل منفعل دراسة للمرأة إذا ازدريت . وهو يخفف من هذه التحليقات الرومانسية بوصف قوى لخيل هيوليت المذعورة وهى تجره حتى يلقى حتفه .

وفى المقدمة التى يصدر بها راسين تمثيليته فيدر (إذ بدأ يشتد فيه

(*) عند آدم سميث أن فيدر « ربما كانت أروع مأساة فى أى لغة » (١٦)) .

الحافز الديني كلما ضعف الحافز الجنسي) يلوح بغصن الزيتون للبور — رويال فيول :

« لست أجروء على أن أؤكد لنفسي أن هذه . . . خير مآسي . . . ولكني واثق أنني لم أكتب مأساة عرضت فيها الفضيلة في ضوء أفضل . فأتفه الذنوب تعاقب هنا عقاباً صارماً ، ومجرد التفكير في الجريمة ينظر إليه هنا نظرة الاستهجان التي ينظر بها إلى الجريمة ذاتها ، وعثرات الحب ينظر إليها هنا كأنها عثرات حقيقية ، والعواطف المشبوبة لا تعرض على الأنظار إلا لترى الخلل التي هي السبب فيه ، والرذيلة مصورة في المسرحية كلها بألوان تتيح لنا أن نراها ونكره شكلها الشائه . وتلك هي الغاية الصحيحة التي ينبغي أن يستهدفها كل من يعمل لجمهور الشعب . ولعل هذه أن تكون وسيلة للمصالحة بين الدراما المأساوية ، وكثيرين من الأشخاص المعروفين بتقواهم وتعاليمهم ، والذين أدانوها مؤخراً ، ولكنهم سيحكمون عليها حكما أكثر عطفاً لو عنى المؤلفون بتعليم جمهور النظارة عنايتهم بالترفيه عنهم ، ولو ترسموا في هذا التعليم القصد الصحيح من المأساة(١٧) » .

ورحب آرنو ، المعروف بتقواه وتعاليمه ، بهذه النغمة الجديدة ، وأعلن رضاءه عن فيدر . ولعل راسين وهو يكتب المقدمة ، وقد بلغ الثامنة والثلاثين ، كان يتطلع إلى حياة من الاستقرار يسكن فيها إلى امرأة واحدة بدل النساء الكثيرات . ففي أول يونيو سنة ١٦٧٧ تزوج زوجة أتته بمهر كبير . وقد اكتشف ما في الحياة العائلية من أسباب الراحة ، ووجد من البهجة في ابنه البكر أكثر مما وجد في أكثر مسرحياته توفيقاً . وكانت غيرة مزاحميه ودسائسهم قد نفرته من المسرح ، فألقى جانباً الخطط والمذكرات التي كان قد أعدها لأربع مسرحيات ، واقتصر طوال اثني عشر عاماً على كتابة الشعر والنثر بين الحين والحين . لاسيما تأليف تاريخ للبور — رويال طابعه التبجيل والولاء البنوي .

ونغص عليه هذا الهدوء المثالي حادث مؤسف أليم . ذلك أن المحكمة

الخاصة التى كانت تحقق عام ١٦٧٩ فى تهم التسميم الموجهة ضد كاترين مونفوازان استلت منها اتهاما لراسين بأنه سمم خليلته تريز دبارك . وأدلت «لأفوازان» بتفاصيل الأتهام ولكن لم يكن هناك ما يعززه • وإذ كانت واثقة من أنه سيحكم عليها بالأعدام ، فأنها لم تكن تخسر شيئا باتهام غيرها زوراً ، وقد لوحظ أن إحدى زبائنها وصديقاتها هى الكونتيسة سواسون ، وكانت عضوا فى العصبة التى قاومت راسين فى «غرام فيدر(١٨)» . ومع ذلك كتب لوفوا فى أول يناير سنة ١٦٨٠ إلى المفوض بازان دبيزون يقول « إن الأمر الملكى بالقبض على السيد راسين سيرسل إليك حالما تطلبه » ولكن حين تقدم التحقيق وبدا أنه سيورط مدام دمونتسبان ، أمر الملك بحظر نشر سجن المحاكمة ، ولم يتخذ أى إجراء ضد راسين(١٩) .

وأظهر لويس ثقته المستمرة فى الكاتب المسرحى . ففى سنة ١٦٦٤ رتب له معاشا ؛ وفى سنة ١٦٧٤ خلع عليه وظيفة شرفية تغل له ٢٫٤٠٠ جنيه فى العام فى إدارة المالية ؛ وفى سنة ١٦٧٧ عين راسين وبوالو مؤرخين رسميين للبلاط ؛ وفى سنة ١٦٩٠ أصبح الشاعر موظفا دائما فى معية الملك ، فأتته الوظيفة بمورد إضافى قدرة ألفان من الجنيهات • وفى سنة ١٦٩٦ بلغ من الثراء مبلغا أتاح له شراء وظيفة سكرتير الملك .

وقد أبان اداؤه النشيط لواجباته مؤرخا ملكيا على سحبه من المسرح . وكان يرافق الملك فى حملاته ليسجل الأحداث تسجيلا أدق . وفيما عدا ذلك كان يلزم داره شاغلا نفسه بتربية ولديه وبناته الخمس ، وكان يود أحيانا ، وسط صخبهم وضجيجهم ، لو أنه كان راهبا . وما كان ليكتب أى مسرحية أخرى لولا أن مدام دمانتنون لجأت إليه فى أن يكتب مسرحية دينية بريئة من كل مايتصل بالغرام ، تمثلها الفتيات اللائى جمعتهن فى أكاديمية سان سير • وكانت أندروماك قد مثلت هناك من قبل ، ولكن دمانتنون الفاضلة لاحظت أن الفتيات استمتعن بالفقرات الغرامية الحارة . ورغبة فى ردهن إلى التقوى كتب راسين مسرحيته « إستير » .

ولم يكن قد اقتبس موضوعاً من الكتاب المقدس من قبل ، ولكنه درس الكتاب أربعين سنة ، وأحاط بكل التاريخ المعقد المدون فى العهد القديم . وقام هو نفسه بتدريب الفتيات على أدوارهن ، وتبرع الملك بمائة ألف فرنك لتوفير الملابس الفارسية المطلوبة . فلما أخرجت (٢٥ يناير سنة ١٦٨٩) كان لويس أحد الرجال القليلين الذين شهدوها بين النظارة . واشتد الطلب على مشاهدتها ، من الكهنة أولا ، ثم من الحاشية ، وعرضتها أكاديمية سان — سير اثنتى عشرة مرة أخرى . ولم تصل إستير إلى جماهير المتفرجين إلا سنة ١٧٢١ بعد موت الملك بست سنين ، وعندها (بعد أن فقد الدين الرعاية الملكية) لم تلق إلا نجاحاً متوسطا .

وفى ٥ يناير سنة ١٦٩١ أخرجت سان — سير أحدث مسرحيات راسين وهى « أتالى » . وأتاليا هى الملكة الشريرة التى ظلت ست سنوات تقود يهوداً كثيرين إلى عبادة البعل الوثنية ، حتى عزلتها ثورة قام بها الكهان (٢٠) وجعل راسين من القصة مسرحية لا يشعر بقوتها غير أولئك الذين يشهدونها وهم على علم بقصة الكتاب المقدس ، يدفىء صدورهم الإيمان اليهودى أو المسيحى الأصيل ، أما غيرهم فسيجدون أحاديثها الطويلة وروحها القاتمة مثبطة لهم . وبدا أن التمثيلية صفقت لطرد الهيجونوت وانتصار الكهنوت الكاثوليكى ، ولكنها من جهة أخرى حوت — فى إنذار رئيس الكهنة للملك الشاب جود — تنديدا قوياً بالحكم المطلق :

« إنك وقد نشئت بعيداً عن العرش لم تشعر بفتنته السامة ، إنك لا تعرف الانتشاء بالسلطان المطلق ، وسحر المتملقين الجبناء . عما قليل سيقولون لك إن أقدس القوانين ... ينبغى أن تطيع الملك ، وأنه لا ضابط للملك غير مشيئته ، وأنه يجب أن يضحى بكل شىء فى سبيل مجده الأعلى ... وا أسفاه ! لقد ضللوا أحكم الملوك (٢١) » .

وقد ظفرت هذه الأبيات بالاستحسان الكثير إبان القرن الثامن عشر ،

ولعلها حدت بفولتير وغيره(٢٢) إلى أعتبار أثالى أعظم الدرامات الفرنسية. على أن الأبيات التالية لهذه توحى بأن رئيس الكهنة إنما كان يحاج دفاعاً عن خضوع الملوك للكهنة .

أما لويس ، الذى بز الآن راسين فى تقواه وورعه ، فلم ير بالتمثيلية بأساً . وواصل استقبال راسين فى القصر رغم ما عرف عن الشاعر من تعاطف مع البور — رويال . ولكن فى سنة ١٦٩٨ حجب الملك رضاه . ذلك أن راسين ، بناء على طلب مدام دمانتنون ، وضع بياناً بألوان العذاب التى ابتلى بها الشعب الفرنسى فى أواخر الحكم . وفاجأها الملك وهى تقرأ الوثيقة ، وأخذها منها ، وانتزع منها اسم كاتبها ، وأخذته سورة الغضب وقال « السكونه شاعراً خلا يحسب أنه يعرف كل شىء ؟ ألأنه شاعر كبير يريد أن يكون وزيراً أيضاً ؟ » أما مانتنون فقد أكدت لراسين وهى تفيض فى الاعتذار له أن الزوبعة ستمر سريعاً . ولقد مرت ، وما لبث راسين أن عاد إلى البلاط واستقبل استقبالا كريماً ، وإن بدا له أقل حرارة من ذى قبل(٢٣)* .

أما الذى قتل الشاعر فلم يكن نظرة فاترة من الملك بل خراجاً فى الكبد . وقد أجريت له جراحة ، وخف ألمه فترة ، ولكنه لم يكن واهما حين قال : لقد أرسل الموت لى كشف حسابه(٢٦) وجاء بوالو ، وهو يشكو المرض ، ليلازم صديقه العليل . وقال راسين « إنى مغتبط لأنه سمح لى أن

(*) يقول ابن راسين : « لقد عاد إلى القصر غير مرة ، وكان على الدوام يتشرف بالحديث إلى جلالته(٢٤) » أما سان — سيمون فيروى قصة غير هذه : فهو يزعم أن راسين فقد الحظوة لأنه انتقد ملاهى سكارون فى حضرة مدام دمانتنون والملك « وهنا احمر وجه الأرملة المسكينة ، لا لانيل من سمعه الرجل المشلول ، بل لسماعها اسمه ينطق به فى حضرة خلفه . كذلك ارتبك الملك ... وانتهى الأمر بأن صرف الملك راسين زاعما أنه ذاهب إلى عمله ... ولم يكلم الملك ولا مدام دمانتنون بعدها راسين حتى ولا نظرا إليه » . وهذا التعليل لسخط الملك على راسين مرفوض الآن عموما (٢٥) .

أموت قبلك(٢٧) » وكتب وصية بسيطة كان أهم فقرة فيها هذا الرجاء إلى البور — رويال :

« أود أن تحمل جثتي إلى البور ـ رويال ـ دى ـ شان ، وأن تدفن فى مقبرته .. إننى بكل تواضع ألتمس من الأم الرئيسة والراهبات أن يمنحننى هذا الشرف ، وإن كنت عليما بأنني لا أستحقه ، سواء لما شاب حياتى الماضية من مخاز ، أو لتقصيرى فى الإفادة من ذلك التعليم الممتاز الذى تلقيته من قبل فى ذلك الدير ، وما رأيت فيه من مثل رائعة فى التقوى والتوبة ... ولكن كلما ازدادت إساءتى لله ازدادت حاجتى لصلوات هذه الجماعة العظيمة الورع(٢٨) » .

ومات فى ٢١ إبريل سنة ١٦٩٩ وقد بلغ التاسعة والخمسين . وأجرى الملك معاشاً على أرملته وأبنائه حتى مات آخرهم .

وتضع فرنسا راسين فى صف أعظم شعرائها ، لأنه هو وكورنى يمثلان أرقى ما وصلت إليه الدراما الكلاسيكية الحديثة من تطور . ولقد تقبل - بناء على حض بوالو — تفسيراً دقيقاً للوحدات الثلاث : فبلغ بذلك تركيزا لا يبارى للوجدان والقوة من خلال عمل واحد يقع فى مكان واحد ويكمل فى يوم واحد . وقد تجنب تطفل الحبكات الثانوية ـ وكل مزج بين المأساة والملهاة ، وأخرج العامة من مآسيه ، ولم يتناول عادة غير الأمراء والأميرات والملوك والملكات . وقد نقى لغته من كل الألفاظ التى قد تعد نابية فى الصالونات أو البلاط ، أو تكون محل استنكار فى الأكاديمية الفرنسية . وشكا من أنه لا يجرؤ على أن يورد فى تمثيلياته عملية مبتذلة كعملية تناول الطعام ، وإن حفل بها شعر هوميروس(٢٩) » وكان الهدف هو بلوغ أسلوب يعكس فى الأدب حديث الأرستقراطية الفرنسية وعاداتها . وقد حدت هذه القيود من مجال راسين . وكانت كل درامة من دراماته قبل إستير ، على شاكلة سابقاتها — وفى كل منها كانت العواطف واحدة .

على أن راسين شارف الرومانسية فى طابع المشاعر التى عبر عنها وفى حدتها ، وذلك رغم الفكرة الكلاسيكية ، فكرة العقل يطغى على الحياة ويضبط العاطفة والحديث . وبينما نجد العاطفة فى كورنى تؤكد على الشرف ، والوطنية ، والنبالة ، نجدها فى راسين تتركز إلى حد كبير حول الحب أو العاطفة المشبوبة ؛ ونحن نحس فيه تأثير رومانسيات دورفيه ، ومدام دسكوديرى ، ومدام دلافاييت . وكان سوفوكليس أكثر من يعجب بهم من المسرحيين قاطبة ، ولكنه يذكرنا أكثر بيوربيديس ، الذى تحول فيه قصد سوفوكليس وجلال عبارته بين الحين والحين إلى أفراط فى الحماسة والوجدان . وفى هاملت أو مكبث من القصد فى الحديث أكثر مما فى أندروماك أو فيدر . وقد أعرب راسين صراحة عن رأيه فى أن « أول قاعدة » للدراما « هى أن تسر وأن تمس القلب(٣٠) » وقد فعل هذا بتعامله مع القلب ، وباختياره شخوصه الرئيسيين من بين أفراد - كانوا عادة من النساء — رهنى العاطفة ، وتحويله تمثيلياته إلى سيكولوجية العاطفة .

وقد وافق على الحظر الكلاسيكى للحركة العنيفة على المسرح ، ومن ثم أخذ نفسه بالتعبير عن العاطفة بالكلام فقط ، وألقى هذا عبئاً ثقيلا على أسلوبه ، فأصبحت المسرحية سلسلة من الخطب ، وكان استرساله فى الأبيات السكندرية المتتابعة — وهى ذات المقاطع الاثنى عشر والقوافى المزدوجة — هذا الاسترسال أشرف بشعره على الرتابة المملة ؛ فنحن نفتقد فى راسين وكورنى ما يطالعنا فى الشعر الإليزابيثى المرسل من مرونة ، وطبيعية ، وتنوع لا آخر له . وياله من جهد عبقرى ذلك الذى اقتضاه رفع هذا الشكل الضيق من تماثله الممل ، بقوة الأسلوب وجماله ! أن راسين وكورنى ينبغى ألا يقرءا ، بل يجب أن يسمعا ، وحبذا أن يكون ذلك ليلا فى فناء الأنفاليد أو اللوفر .

والمفاضلة بين راسين وكورنى هواية قديمة لدى الفرنسيين . أما مدام دسفينييه ، فأنها بعد أن شهدت « بازيد » وقبل أن تمثل — إفجينى

أو فيدر — انحازت إلى كورنى بحماستها المألوفة . وقد تنبأت فى تهور ، ولكن ربما بحق ، بأن :

«راسين لن يستطيع أبدا أن يتجاوز .. أندروماك ... فتمثلياته مكتوبة للانسة شانمسليه . . وسوف يتضح حين يكبر ، ويكف عن الحب ، هل اخطأت الحكم أم أصبت . إذن فليعش صديقنا كورنى طويلا ، ولنغتفر له الأبيات الرديئة التى نصادفها فى شعره من أجل تلك الفقرات الإلهية التى كثيراً ماننتشى بها » . . .

وهذا على العموم رأى كل ذى ذوق سليم (٣١) . ولكن فولتير الذى اضطلع بنشر أعمال كورنى والتعليق عليها ، صدم الأكاديمة الفرنسية بنقده لأخطاء المسرحى الكبير وفجاجاته ولغته الطنانة . كتب يقول « أعترف أننى بنشرى كورنى أصبحت من عباد راسين (٣٢) » وقد أقر الزمن بهذه الأخطاء ، واغتفرها لرجل لم يحظ بما حظى به راسين من ميزة المجىء بعد كورنى . فالارتفاع بالدراما الفرنسية من مستواها السابق إلى مكانة « السيد » « وبوليوكت » كان إنجازاً أشق من بلوغ النشوات المشبوبة والجمال المنغوم الذى نجده فى « أندروماك » « وفيدر . إن كورنى وراسين هما الموضوعان الذكر والأنثى فى شعر القرن العظيم — التعبير القوى عن الشرف والحب . . وعلينا أن نأخذهما معاً إن أردنا أن نحس باتساع الدراما الكلاسيكية الفرنسية وقوتها ، تماماً كما يجب ان نأخذ ميكلانجلو ورفائيل معاً إن اردنا ان نحكم على النهضة الإيطالية ؛ او بيتهوفن وموتسارت إن اردنا ان نفهم الموسيقى الألمانية فى ختام القرن الثامن عشر .

قال ديفدهيوم ، وكان اسكتلنديا حكيما ، ضليعاً فى لغة الفرنسيين وآدابهم ، « فى المسرح تفوق الفرنسيون حتى على اليونان ، الذين تفوقوا كثيراً على الإنجليز (٣٣) » وذلك حكم كان خليقا بأن يدهش راسين ذاته ، الذى عبد سوفوكليس باعتباره الكمال مجسماً ، وان جرؤ على منافسة

يوريبيديس . وفى هذا نجح ، وهو مايستحق عليه الثناء حقاً . فلقد احتفظ بالدراما الحديثة على مستوى لم يبلغه سوى شيكسبير وكورنى ، ولم يدن منه إنسان بعد ذلك سوى جوته .

٤ - لافونتين : ١٦٢١ - ١٦٩٥

فى ذلك العصر ، عصر الخصومات الأدبية الصارخة ، يطيب للمرء أن يسمع بتلك الصداقة المشهورة ، نصف الأسطورية ، بين بوالو ، وموليير ، وراسين ، ولافونتين — « شلة » الأصدقاء الأربعة .

أما جان دلافونتين فكان العضو المغمور بين الجماعة . ولد كأصحابه لأسرة متوسطة ؛ ولا غرو فالأستقراطية فى شغل بفن الحياة عن الفن . وكان مسقط رأسه شاتو — تييرى فى شمبانيا ، وأبوه المدير المحلى للمياه والغابات ، لذلك شب جزءاً حساساً من الطبيعة المحيطة به ، وعشق الحقول ، والغابات ، والأشجار ، والأنهار ، وكل ساكنيها ، وتعلم عادات العشرات من أنواع الحيوان ، وتكهن فى تعاطف بغاياتها ، وهمومها ، وأفكارها ، فكان كل ما عليه أن يفعله وهو يكتب أن يجرى الكلام على السنة هؤلاء الفلاسفة متعددى الأرجل ، وأصبح « إيزوبا » آخرمذاباً بقصصه الخرافية فى ذاكرة الملايين .

وكانت نية ابويه أن يعداه للكهانة ، ولكن لم يكن به ميل للخوارق . وحاول ان يمارس القانون ، ولكنه وجد الشعرأيسرفهما . وتزوج فتاة غنية (١٦٤٧) وانجب منها ولدا . ثم اتفق مع زوجته على الانفصال (١٦٥٨) وذهب الى باريس ، وأبهج فوكيه ، وتلقى من ذلك المختلس اللطيف معاشاقدره ألف جنيه ، شريطة ان يتحفه بأشعاره اربع دفعات فى السنة . فلما سقط فوكيه وجه لافونتين الى الملك التماسا شجاعا يرجوه فية الصفح عن رجل المال . وكانت النتيجة انه لم يصطل قط بعدها فى شمس الملك . فلما جرد من

معاشه ولم يكن لديه اى فكرة عن كسب قوته ، آوته واطعمته الدوقة دبويون التى التقينا بها من قبل فى صفوف الفرونديات . واصدر وهو مستظل بجناحها (١٦٦٤) أول كتاب فى « حكاياته » وهو مجموعه من الأقاصيص الشعرية ، مكشوفة على الطريقة البوكاشية ، ولكنها مروية فى بساطة ساحرة مالبثت ان جعلت نصف فرنسا ، حتى العذارى الخجولات ، يقرأنها (*) .

وبعد قليل أسكنته مارجريت اللورينية ، دوقة أورليان الارملة ، قصر اللكسمبورج بوصفه وصيفا لها . وهناك كتب مزيدا من حكاياته ، ومن هناك دفع الى المطبعة بالكتب السته الاولى من قصصه الخرافية (١٦٦٨) . وقد زعم انها صياغة جديدة لخرافات إيزوب اوفيدروس ، وكذلك كان بعضها ، وبعضها اخذ عن قصص الهند الاسطورية Bidpai وبعضها من خرافات فرنسا ، ولكن اكثرها خلق من جديد فى ذلك الغدير الذى يتدفق فى ذهن لافونتين وشعره . وكانت اول قصة خرافية تلخيصا غير مقصود لحياته الخلية الطروب :

« بعد أن أنفقت الجرادة الصيف كله غناء ، ألفت نفسها حين أقبل الشتاء مملقة لاتملك ذبابه ضئيلة ولادودة حقيرة ، فمضت تشكو جوعها لجارتها النملة وتسألها ان تقرضها شيئامن الحب تقتات به حتى يقبل الموسم الجديد . وقالت « سأرد لك دينى قبل الحصاد ، واقسم على ذلك بدين الحيوان ومصلحته ومبدئه . اما النملة فلم تكن ممن يقرضون ، وهذا اقل عيوبها . لذلك قالت للسائلة «وماذا كنت تفعلين فى الصيف ؟ » (٥)

(*) خذ مثلا قصة « صانع الآذان » . قالسير وليم يذهب لقضاء مصلحة فى المدينة ويترك زوجته أليكس حبلى . وينذرها قريبها أندريه بأنه يستنتج من لون وجهها أن طفلها سيولد ناقصاً أذنا . ويعرض عليها أن يكون جراحا لها ، ويفهمها أن نوبة غرام كفيلة بتزويد الطفل بالأذن الناقصة . وتقبل الوصفة ، وتتناول منها عدة جرعات ، حتى ليخطر لها أن الطفل سيكون له من الآذان أكثر من اثنتين . فاذاعاد وليم صحح التوازن الأخلاقى باغوائه زوجة أندريه (٣٤) .

« كنت أغنى ليل نهار لكل وافد ، فلايسؤك هذا » . « كنت تغنين : يسعدنى أن أسمع هذا . عليك اذن أن ترقصى الآن » .

كان لافونتين أحكم من ديكارت ، الذى ظن أن كل الحيوانات كائنات آلية لاتفكر ؛ فقدأحبها الشاعر ، وأحس بتفكيرها ، ووجدفيها كلها دروس الفلسفة العملية . وافتتنت فرنسا بتلقى الحكمة فى جرعات سهلة الهضم كهذه . وأصبح كاتب هذه الخرافات اكثر المؤلفين قراء فى بلاده . واتفق النقاد مرة فى حياتهم مع الشعب ، وأثنوا عليه فيمن أثنوا ؛ ذلك أنه برغم بساطته الخالصة كان عليما بالفرنسية فى لونها الريفى ورائحتها الترابية ، وقد خلع على شعره من الرشاقة الطيعة ، وطرق التعبير الحلوة ، والصورة الحية المحكمة ، ماجعل كل البورجوازيين مدعى النبل فى فرنسا يغتبطون لأن حيواناتهم ، بل حشراتهم ، تنطق بالشعر طوال الوقت . قال فونتين « إنى استخدم الحيوانات لتعليم الناس(٣٥) » .

وفى ١٦٧٣ ماتت مرجريت اللورينية وألفى الشاعر نفسه غارقا فى الديون ، وهو الذى كان يغنى فى غير تدبر للمستقبل ، ولم يحسن التصرف فى الأجور المتواضعة التى أتت بها كتبه . على أنه كان اكثر حظا من جرادته ؛ لأن مدام دلاسابليير ، المرأة المثقفة العطوف ، آوته وأطعمته ورعته بحدب الأم الرءوم فى بيتها بشارع سانت - أونورية ، وهناك عاش فى قناعة هادئة الى أن مات فى ١٦٩٣ . يقول إن وقته كان قسمة بين شطرين : اولهما ينام فيه ، والاخر لايعمل فيه شيئا . ووصفه لابروبير بأنه رجل يستطيع أن ينطق الحيوان والشجر والحجر بكلام رشيق أنيق ، ولكنه (٣٦) هو نفسه كان « متبلدا ، ثقيلا » ، غبيا فى الحديث(٣٧) . على أن هناك روايات مناقضة زعمت أن فى وسعه أن يكون محدثا مرحا إذا وجد آذانا تلائم مزاجه(٣٨) . وقد أذاعت شرود ذهنه عشرات النوادر ، الأسطورية الى حد كبير . من ذلك أنه قال مرة معتذرا عن وصوله الى العشاء متأخرا « عدت لتوى من جنازة

نملة ، وقد سرت وراء الموكب حتى المقبرة ، ثم رافقت الأسرة فى رجوعها للبيت . (٣٩) »

وقد قاوم لويس الرابع عشر انتخابه عضوا فى الأكاديمية بحجة أن حياة الشاعر وحكاياته لم تكن بالمثل الذى يحتذى ، ثم لانت قناته فى النهاية (١٦٨٤)، وقال ان لافونتين وعد بأن يصلح من سلوكه . ولكن الشاعر الهرم لم يعرف فرقا بين الفضيلة والخطيئة ، انما عرف الفرق بين الطبيعى وغير الطبيعى ، فقد تعلم أخلاقياته فى الغابات . وكان كموليير لايشعر بأى انجذاب للبور — رويال ، هؤلاء « المجادلون البارعون » كما وصفهم ، الذين « تبدو لى دروسهم باعثة على الغم بعض الشىء(٤٠) » وانضم حيناً إلى « شلة » أحرار الفكر فى « التامبل » ، ولكن حين أصيب بنقطة كادت توقعه على الطريق ، لاح له أن قد آن الأوان ليصلح ما بينه وبين الكنيسة ، ومع ذلك فقد تساءل « أكان القديس أوغسطين حكيما حكمة رابليه(٤١) ؟ » ومات فى ١٦٩٥ وقد بلغ الرابعة والسبعين . وكانت ممرضته على ثقة من خلاصه الأبدى ، لأنه على حد قولها « كان فيه من البساطة ما يجعل الله يتردد فى الحكم عليه بالهلاك(٤٢) » .

٥ — بوالو : ١٦٣٦ — ١٧١١

فى اللقاءات التى جمعت الأصدقاء الأربعة فى شارع فيو كولومبييه كان نيقولا بوالو المسيطر عادة على الحديث ، وهو الذى وضع قواعد الأدب والأخلاق بكل سلطان الدكتور جونسون وثقته فى حانة « رأس التركى » بحى سوهو . وكان كجونسون محدثا أهم منه مؤلفا ؛ وخير أعماله شعر وسط ، ولكن أحكامه كان لها فى ميدان الأدب أثر أبقى مما كان لأحكام لويس الرابع عشر فى السياسة . وقد أعانت صداقته وتقريظه الناقد لموليير وراسين على التغلب على مكائد الجماعات المعادية لهما .

كان الطفل الرابع عشر لكاتب فى برلمان باريس . وإذ كان منذور للكهانة فقد درس اللاهوت فى السوربون . ولكنه تمرد ، ودرس القانون وكان على وشك الاشتغال بالمحاماة حين مات أبوه (١٦٥٧) ، مخلفا له ميراثا يكفيه وهو يقرض الشعر . وأنفق عشر سنين يشحذ قلمه ، ثم راح يصدر أحكامه على زملائه فى اثنتى عشرة اهجية (١٦٦٦ وما بعدها) . ذلك أن هذا الحشد الرهيب من النظامين الجياع[٤٣] روعه ، فهاجمه كأنه جيش من الجراد ، وسمى بعضهم بأسمائهم ، فخلق له أعداء بقوافيه . وجر على رأسه أيضا سخط النساء بسخريته من القصص الرومانسية التى كانت السيدتان سكوديرى ولافاييت تضيعان بهاورق فرنسا ووقتها . وقد امتدح القدامى ، وامتدح من بين المحدثين ماليرب وراكان ، وموليير وراسين . قال « أحسبه من حقنا ان نسمى الشعر الردىء رديئا ، دون أن نؤذى الضمير أو الدولة ، وأن يكون لنا مطلق الحق ان نستشعر الضجر من قراءة كتاب غبى[٤٤] » . على أن هذه الاهاجى تضجرنا هى الأخرى لأن هدفها قد تحقق : فالشعراء الذين أدانتهم هدموا هدما لم يبق على أثرلهم فى ذاكرتنا أو فى اهتمامنا ؛ يضاف الى هذا أن أصحاب العقول الغضة منا ، لاسيما اذا كنا مؤلفين ، يؤثرون النقاد الذين يرشدوننا الى الطيب على أولئك الذين يسخرون من الخبيث .

وبعد أن ذهب بوالو فى اهاجيه مذهب جوفينال الصارم ، خفف من غلوائه بالتزام مذهب هوراس الأكثر اعتدالا ، ووصل الى أسلوب ألين فى سلسلة من الرسائل (١٦٦٩ — ٩٥) . وهذه الرسائل الشعرية هى التى أغرت لويس بدعوته الى البلاط . وسأله الملك ما أفضل شعره فى ظنه . أما بوالو الذى كان يترقب فرصته الكبرى فلم يقرأ شيئا من شعره المنشور ، ولكنه تلا بعض شعره فى مدح الملك العظيم ، وكان أبياتا لم تطبع بعد قال عنها إنها أقل شعره رداءة . وأجازه لويس بمعاش قدره ألفان من الجنيهات[٤٥] ، وأصبح شخصا « مرضيا عنه » فى البلاط . قال لويس « أحب بوالو لأنه سوط تأديب ضرورى نصلته على ذوق كتاب الدرجة

الثانية السقيم(٤٦) » . وكما أن لويس ساند موليير فى حملته على المتعصبين ، كذلك لم يفه بأى احتجاج حين نشر بوالو ملحمة ساخرة سماها « لوتران » (١٦٧٤) ، هزأ فيها برجال الكنيسة الغافلين النهمين . وفى ١٦٧٧ عين الشاعر الهجاء مؤرخا رسميا مع راسين ، وفى ١٦٨٤ قبل نهائيا فى الأكاديمية بأمر صريح من الملك ، ورغم احتجاجات أولئك الذين سلخ جلودهم .

أما القصيدة التى طفت به فوق دوامات الزمن فهى « فن الشعر » (١٦٧٤) التى ضارعت فى تأثيرها النموذج الذى نسجت على منواله ، وهو كتاب هوراس « Ars poetica » ، ويستهل بوالو قصيدته بتنبيه شباب الشعراء الى أن « بارناس » جبل وعر ، فليستوثقوا اذن قبل أن يشرعوا فى ارتقاء جبل ربات الشعر والفن أن لديهم شيئا يستحق أن يقال ، شيئا يعزز الحقيقة ويعين على الادراك والذوق السليمين . وهو يقول لهم ناصحا : نوعوا حديثكم ، فان أسلوبا بالغ التكافؤ شديد التماثل (كأسلوب بوالو) يحملنا على النوم ، و « حبذا الشاعر الذى ينتقل ، بلمسة رقيقة ، من الخطير الى الخفيف ، ومن السار الى العنيف (٤٧) » . « وأرهفوا آذانكم لايقاع ألفاظكم . واتبعوا قواعد ماليرب فى اللغة والأسلوب . وادرسوا القدامى لا المحدثين : هومر وفرجل فى شعر الملاحم ، وسوفوكليس فى المأساة ، وتيرانس فى الملهاة ، وهوراس فى الهجاء ، وتيوقريطس فى شعر الرعاة » . « اسرعوا فى بطء ، وضعوا انتاجكم على السندان عشرين مرة دون أن يفت ذلك فى عضدكم . . . وأضيفوا اليه قليلا ، واحذفوا منه (٤٨) كثيرا . أحبوا من ينتقدونكم ، وصححوا أخطاءكم دون تذمر وأنتم تنحنون لحكم العقل (٤٩) . واصبوا للمجد ، ولا تجعلوا الكسب الخسيس هدفا لجهدكم (٥٠) . فاذا كتبتم درامات فراعوا الوحدات ، واجعلوا الفعل الواحد ، المكتمل فى مكان واحد ويوم واحد ، يبقى المسرح ممتلئا بجمهوره الى النهاية (٥١) . ادرسوا البلاط وتعرفوا على المدينة ،

فكلاهما غنى بالنماذج ، ولعل هذا هو السر فى الفوز الذى حققه موليير لفنه (٥٢) » .

وانضم بوالو الى موليير فى السخرية من « المتحذلقات » واحتقر شعر الحب المتكلف الذى أضعف الشعر الفرنسى وقابل بين هذه العاطفية الكاذبة وبين تمجيد ديكارت للعقل وغرس الاداب القديمة لضبط المشاعر . وصاغ مبادىء الأسلوب الكلاسيكى ، وأجملها فى بيتين شهيرين «أحبوا العقل اذن ، ولتقبس كتاباتكم منه بهاءها وقيمتها (٥٣) » فلازيف فى العاطفة ، ولا انفعال ، ولا كلام طنان ، لا تحذلق ، لا تكلف ، ولا غموض التباهى والغرور . فالمثل الأعلى فى الأدب ، كما فى الحياة ، هو ضبط رواق للنفس ، و « لا تزيد أو افراط » .

وقد أحب بوالو موليير ، ولكنه أسف على هبوطه الى درك المسلاة « الفارص » . وأحب راسين ، ولكن يبدو أنه لم يفطن الى تمجيده الرومانسى للوجدان ، ولم يلحظ بطلاته المتفجرات بالانفعالات ـ هرميون ، وبرينيس ، وفيدر . والمقاتل لابد مبالغ فى تصيبه من الحقيقة . ولقد كان فى بوالو من قوة المحارب ما أعجزه عن فهم ما قاله بسكال من أن للقلب دواعيه التى لا يفهمها الدماغ ، وأن الأدب بغير وجدان قد يكون له ملاسة الرخام وبرودته . لقد سمح هوراس بالوجدان فقال « إن أردتنى أن أبكى » أى أن أحس مما تكتب ، « فعليك أن تبكى أنت أولا » أى عليك أن تحس أنت بالأمر . ان فن العصور الوسطى وأدبها ظـــلا محجوبين عن عين بوالو .

وكان اثر تعليمبه هائلا . فقــد حاول الشعر والنثر الفرنسيان التزام قواعده الكلاسيكية طوال قرون ثلاثة . وشاركت هذه القواعد فى تشكيل أسلوب الأدب الانجليزى فى « العصر الأغسطى » الذى قلد شاعره بوب فى صراحة « فن الشعر » فى كتابه « مقال فى النقد » . وكان تأثير بوالو ضارا ونافعا . فهو باستنكارة الخيال والوجدان ، وضع صماما

على الشعر فى فرنسا بعد راسين ، وفى انجلترة بعد درايدن . واتخذ الشعر فى أفضل نماذجه شكل النحت بالازميل ، ولكنه فقد دفء التصوير ولونه . ومع ذلك كان من الخير أن يدخل هدف العقل الى ساحة الأدب المحض ، فقد كتب الكثير جدا من اللغو عن الحب والرعاة ، واحتاجت أوربا الى احتقار بوالو الغاضب حتى تطهر ذلك الجو الأدبى ، جو السخف والتكلف والعاطفة السطحية . وربما كان الفضل لبوالو فى ارتفاع موليير من « الفارص » الى الفلسفة ، وفى محاولة راسين البلوغ بفنه الى مرتبة الكمال .

وكان مما يتلاءم وطبيعة بوالو تماما مسلكه بعد أن اشترى بيتا وحديقة فى أتوى بفضل نفحة من نفحات الملك (١٦٨٧) ، فهو لم يذكر شيئا فى كتاباته عن الطبيعة المحيطة به اللهم الا أنه من تلك الحقول اتخذ الآن اسم « دسبريو » . هناك عاش أكثر ما بقى له من أجل فى هدوء بسيط ، لا يزور البلاط إطلاقا ، ويرحب ترحيبا حارا بأصدقائه . وقد لاحظ الناس ان « له أصدقاء كثيرين رغم أنه تكلم بسوء عن كل انسان(٥٤) » . وكان فيه من الشجاعة ما حمله على الإعراب عن عطفه على البور رويال ، وعلى أن يخبر يسوعيا بأن رسائل بسكال الاقليمية احدى روائع النثر الفرنسى . وقد عمر بعد موت جميع أفرد الجماعة التى كان منظرها المرموق : فوليير لقى ربه منذ أمد بعيد ، ثم لحق به لافونتيين فى ١٦٩٣ ، ثم راسين فى ١٦٩٩ ، وتحدث الهجاء العجوز العليل بتأثر عن « الأعزاء الذين فقدناهم ، والذين اختفوا كأنهم حلم انسان استيقظ من نومه (٥٥) » وحين دنت منيته غادر أوتوى وذهب ليموت (١٧١١) فى مسكن كاهن اعترافه بصومعة النوتردام ، مؤملا ألا يجرؤ الشيطان على أن يمسه بسوء هناك .

٦ - الاحتجاج الرومانسي

لم تقبل سيدات المجتمع على القواعد الكلاسيكية — قواعد العقل ، والاعتدال ، وضبط النفس — إقبال كورنى العجوز وراسين الشاب . ذلك أن عالمهن كان عالم الوجدان والرومانس ، وقد حفزت « زيجات المصلحة » التي كن يعقدنها أوهام الغرام أكثر مما صدتها . ومن ثم نرى الرواية الرومانسية تنمو — جنبا إلى جنب مع الدراما الكلاسيكية — حتى تتضخم حجما وتلقى استحسانا واسعاً وتؤثر تأثيراً دولياً . ولم تكن سيدات المجتمع في فرنسا ليشبعن من مثل هذه الروايات ، ولا كن يجدنها مفرطة في الطول ، وآية ذلك أنه حين توقف « جوتييه دلا كالبرونيد » عن المضى في روايته « كليوبطرة » بعد أن كتب فيها عشرة أجزاء (١٦٥٦) ، رفضت خطيبته أن تتزوجه إلا إذا ختمها بجزأين آخرين(٥٦) .

وقد استرقت الآنسة مادلين دسكوديرى قلوب نصف فرنسا بروايتها « آرتامين أو كورش الكبير » (١٦٤٩ - ٥٣) ، و « كليلى » (١٦٥٤ - ٦٠) وكلتاهما في عشرة مجلدات . وأشبع غرور المجتمع الفرنسي أن يجد الشخوص في هذا الإنتاج الرومانسي الغزير ، تحت أسماء مستعارة ، تصف أعلام العصر وأقطابه المشهورين وتميط اللثام عنهم . وما لبثت سيدات الصالونات وسادته أن أطلقوا على أنفسهم أسماء من هذه الروايات ، وتعلموا فنون التنهد والإنكار شأن أبطالهم وبطلاتهم ، وأصبحت الآنسة دسكوديرى نفسها تسمى « سافو » ، وكذلك كانت تنادى في الصالونات إلى نهاية عمرها الذى بلغ أربعة وتسعين عاماً . وقد كتبت لتسر أخاها جورج ، ونشرت كتبها تحت اسمه ، وآثرت أن ترعاه على أن تتزوج . وظل سلطانها على النساء المثقفات والرجال المعطرين إلى أن غيرت مسرحيتا موليير « المتحذلقات المضحكات » و « النساء العالمات » من اتجاه الأذواق الأدبية ، وهنا حبست مادلين في شجاعة آخر مجلد من مجلداتها التسعين عن النشر . والذين يشكون

الفراغ قد يجدون إلى اليوم فى صفحات « كورش الكبير » الخمس عشرة ألف ، أو صفحات « كليلى » ، العشرة الآلاف ، فقرات تتميز برقة العاطفة ، أو تنفرد بتحليل الخلق . كذلك تستحق لا سكوديرى أن تتذكرها لما قامت به من جهد فى سبيل النهوض بتعليم النساء فى فرنسا .

وأما « مارى مادلين بيوش دلافيرن » ، التى أصبح اسمها بعد الزواج الكونتيسة لافاييت ، فهى شخصية أكثر فتنة ، لأنها لم تكتب قصة رومانسية شهيرة فحسب ، بل عاشت أيضاً قصة أشهر . وقد أتيح لها تعليم مكتمل على غير العادة ، ثم ذهبت لتعيش فى أوفرن بعد زواجها (١٦٥٥). ولكنها حين وجدت الحياة هناك مملة اتفقت مع زوجها على الانفصال (١٦٥٩) ،وذهبت إلى باريس، وانضمت إلى الجماعة التى تلتقى فى قصر رامبوييه. ثم أصبحت وصيفة الشرف لمدام هنرييتا ، وخلدتها بعد حين فى مذكرات تفيض محبة . وكانت قريبة وصديقة لمدام دسفينييه التى كتبت تقول فيها بعد عشرة أربعين عاماً « لم تحجب سماء صداقتنا أقل سحابة ، ولا أبلى طول الألفة من فضائلها فى نظرى ، فقد كان شذاها على الدوام نضراً جديداً(٥٢)» . وتلك تحية للطرفين قل أن تجد لها نظيراً ، لأن الصداقات تبلى كالحب الرومانسى . وسنلتقى بمزيج نادر من الحب والصداقة فى علاقات مدام دلافاييت بلاروشفوكو .

وقد وقعت على الجديد الثورى حين قررت أن تبارز بقلمها الآنسة دسكوديرى . ذلك أنها كتبت رواية فى مجلد واحد لا يزيد طولها على مائتى صفحة . واعتنقت مبدأ مؤداه أنه إذا تساوت كل الاعتبارات الأخرى فإن خير الكتب ما حذف أكثر ما فى نصه الأصلى ، فكل جملة تحذف تضيف جنيها ذهبياً لقيمة الكتاب ، وكل كلمة تحذف تضيف عشرين فلساً . وبعد أن نشرت أعمالا صغيرة ألفت (١٦٧٢) ونشرت (١٦٧٨) رائعتها المسماه « أميرة كليف » . وحبكة الرواية (إن شئنا أن نخلط بين الاستعارات) هى

مثلث ذو مماس . فالآنسة شارتر فتاة بارعة الجمال ولكن فى تواضع يجعل من أمير كليف عبداً لها لأول نظرة . وتتزوجه عملا بنصيحة أمها ، ولكنها لا تشعر نحوه شعوراً أحر من الاحترام . وما يلبث دوق نيمور أن يراها فيهيم بها لتوه ، وتصده هى فى إحساس بالفضيلة ، ولكن الحاحه المحموم يمس قلبها ، وشيئاً فشيئاً تتحول الشفقة فيها حباً . وتعترف بهذا التطور لزوجها ، وتتوسل إليه أن يبعدها عن القصر وعن التجربة ، ولكنه لا يستطيع أن يصدق أنها وفية له ، فيخترمه الهم حتى يقتله ، وكأن قرنيه الوهميين خرقا حلقه . أما الأميرة فتصد الدوق وضميرها يبكتها على موت الأمير ، وتكرس ما بقى لها من عمر لأعمال البر . وقد علق « بيل » الشكاك على القصة بقوله : لو أن امرأة بهذا الطهر والوفاء وجدت فى فرنسا لمشى ألفاً ومائتى ميل ليراها (٥٨) .

ونشر الكتاب غفلا من اسم المؤلفة ، ولكن سرعان ما استقر رأى الأوساط الأدبية على أنه إحدى ثمرات علاقة حميمة مشهورة آنذاك . قالت الآنسة سكوديرى : (لقد كتب مسيو دلاروشفوكو ومدام دلافاييت رواية ... قيل لى أنها كتبت على نحو يثير الأعجاب(٥٩)) ، ولكنها أضافت « أنهما لم يعودا فى سن تسمح لهما بالاشتراك معاً فى أى عمل غير هذا (٦٠) » . ولكن كلا المؤلفين المزعومين أنكر تأليف الرواية . وكتبت لاسكوديرى تقول « إن الأميرة كليف أرملة مسكينة تبرأ منها أبوها وأمها » . أيا كان الأمر ، فقد أجمع الكل على انها أروع رواية كتبت فى فرنسا إلى ذلك الحين . واعترف فونتنيل بأنه قرأها اربع مرات ، وكان رأى بوالو ، عدو الرومانس ، فى مدام دلافاييت انها « ابدع عقل وافضل كاتبة بين نساء فرنسا » . ويقر التاريخ لأميرة كليف بأنها من اول الروايات السيكولوجية وما زالت من أفضلها . وهى الرواية الفرنسية الوحيدة من روايات ذلك العصر التى ما زال فى الإمكان قراءتها دون ما ألم .

٧ ـ مدام دسفينييـــه

١٦٢٦ — ٩٦

ولـكن بقى من آثار ذلك العصر عشرة مجلدات — من تأليف امرأة أيضا — فى الامـكان قراءتها فى بهجة مستسلمة حتى فى نبض زماننا السريع • والمؤلفة ، وهى مارى درابوتان — شانتال،فقدت أبويها فى طفولتها وورثت ثروتهما الـكبيرة • وقد شارك فى تعليمها نفر من خيرة العقول فى فرنسا ، ونشأتها خيرة الأسر فى فرنسا على فنون الحياة • فلما بلغت الثامنة عشرة تزوجت هنرى ، مركيز دسفينييه ، ولـكن هذا الزير كان يحب مالها اكثر من شخصها، وبدد بعضه على خليلاته ، وبارز خصما بسبب إحداهن ،وقتل فى المبارزة (١٦٥١)• وحاولت مارى أن تنساه ، ولـكنها لم تتزوج بعده ، بل فرغت لتربية ابنها وابنتها • ولعلها كما ألمح ابن عمها الحقود بوسى — رابوتان كانت «ذات مزاج بارد»(٦١) أولعلها تعلمت أن الجنس يستنزف الذات أما الامومة فتحققها . وخطاباتها تفيض سعادة ،كلها تقريبا سعادة الامومة.

ولقدأحبت المجتمع بقدرماتشككت فى الزواج • وكان لها ، وهى الارملة الشابة التى تملك ثروة بلغت ٣٥٠٫٠٠٠ جنيه (٦٢) ، خطاب كثيرون من النبلاء ـ تورين ، وروهان، وبوسى... ولم ترمعنى لطردهم جيعا الا واحدا، ومع ذلك لم تلوث سمعتها كلمة فضيحة أو علاقة محرمة واحدة • وكان اصدقاؤها يحبونها باخلاص أكثر صدقا — ومنهم دريتز ، ولا روشفوكو ، ومدام دلافاييت ، وفوكيه • أما الأول والثانى فقد أقصيا عن القصر لاشتراكهما فى حرب الفروند ، واما الأخيرفلثروته التى لم يستطع تعليلها ، ولم تلق مدام دسفينييه ، الوفية وفاء حارا للاربعة على السواء، ترحيبا فى الرحاب الملكية المقدسة وإن نالت كلمات متفضلة من الملك فى حفلة مثلت فيها مسرحية إستير بسان ـ سير . اما فى خارج البلاط فكانت دوائر كثيرة

تبتهج بصحبتها ، لأنها كانت تملك كل مفاتن المرأة المثقفة ، كانت تتكلم بنفس الحيوية التى تكتب بها ، وذلك اطراء يناقض إطراء ألفناه أكثر منه ؛ فطالما يسدى الينا النصح ، ربما فى غير تبصر ، بأن نكتب كما نتكلم .

وقد بقى من رسائلها أكثر من الف وخمسمائة ، وجلها موجه لابنتها ، فرنسواز مارجريت . التى تزوجت الكونت دجرينيان (١٦٦٩) ، وسرعان مارحلت الى بروفانس لتعيش معه ، وكان نائبا لحاكمها . فظلت الأم من ١٦٧١ الى ١٦٩٠ تبعث بخطاب مع كل بريد تقريبا — وأحيانا مرتين فى اليوم — الى هذه الزوجة الشابة التى فصلتها عنها ارض فرنسا كلها طولا . كتبت تقول لها « ان مراسلتى لك هى عافيتى ، ولذة حياتى الوحيدة ، وكل اعتبار آخر يتضاءل بالقياس الى هذا (٦٣) » . ذلك أن الحب الذى لم يجد رجلا يشبعه أصبح غراما مشبوبا بابنة أحست أنها غير جديرة به ، لأن فرنسواز كانت ذات خلق اكثر تحفظا ، ولم تعرف كيف تعرب عن مشاعرها بحرارة . ثم كان لها زوج وأطفال يتطلبون العناية بهم ، وكانت أحيانا تصبح ضيقة الخلق أو مكتئبة المزاج ، و مع ذلك ظلت طوال خمس وعشرين سنة ، إلا فى فترات مرضها ، تكتب لأمها مرتين فى الأسبوع ، لايفوتها بريد الانادرا ، حتى لقد أقلق لأم المتيمة بها ان تكون قد جارت على وقت ابنتها .

وأبلغ مافى هذه الرسائل تأثيراً فى النفس ما روى حياة طفلة مدام جرينيان البكر ونهاية هذه الحياة فى الدير . ذلك أنها قدمت باريس لتلد فى كنف أمها . وما لبثت أن أرسلت الى زوجها اعتذارا لأنها ولدت بنتا — لابد من تربيتها بجهد أليم ، ومهرها بمهر غال ، ثم نفقدها ؛ ولما عادت فرنسواز الى بروفانس تركت مارى بلانش الصغيرة حينا مع جدتها التى افتتنت بها . وكتبت مدام دسفنييه للأب تقول « ان كنت تريد ولداً فاعكف على صنعه (٦٤) » كتبت للوالدين اللذين لم يقدرا طفلتهما تفاصيل نشوانة عن العجيبة التى أنجباها كارهين :

« ان ابنتكما الصغيرة تغدو محببة للنفس . . . بيضاء كالثلج ، ضاحكة على الدوام . . . ولون بشرتها ، وعنقها ، وجسدها الصغير — كلها عجيب . وهى تقوم بعشرات الحركات الصغيرة — ترثر ، وتلاطف ، وتضرب ، وترسم علامة الصليب ، وتطلب العفو ، وتنحنى ، وتقبل يدها ، وتهز كتفيها ، وترقص ، وتتملق ، وتشد الأذن ... وأنا ألهو معها ساعات بطولها(٦٥) » .

وقد ذرفت الجدة دموعا كثيرة لتدع هذه العجيبة الريانة البدن تذهب الى بروفانس ، ودموعا أكثر حين أودعها الأبوان ديرا وهى لم تتجاوز الخامسة . ولم تعد الطفلة بعدها ، ففى الخامسة عشرة قطعت على نفسها عهد الرهبنة واختفت من العالم .

وكان نائب الحاكم رجلا متلافا ، يولم الولائم فوق ما يسمح به مركزه . وكانت زوجته تنبىء أمها باستظام بما تتوقعه من قرب إفلاسهما ، أما الأم فكانت توبخهما فى محبة وترسل لهما المبالغ الكبيرة من المال « كيف ، بحق محبة الله والناس ، يستطيع انسان أن يحتفظ بهذا القدر الكبير من الذهب والفضة والحلى والأثاث وسط الفقر المدقع الذى ابتلى به من يحيط بنا من الفقراء فى هذه الأيام(٦٦) » . ورغبة فى الاحتفاظ بقدرتها المالية بعد هذه الاستقطاعات ، كانت مدام دسفينييه تعنى بتفقد أملاكها فى لى روشيه باقليم بريتنى لتستوثق من أنها تلقى الرعاية الواجبة ، ومن أن ريعها يصلها بعد اختلاسات معقولة . ووجدت سعادة جديدة فى الحقول ، والغابات ، وفلاحى بريتنى ، وكتبت عنهم بنفس الحيوية التى كتبت بها عن المجتمع الباريسى الذى كانت له أشبه برسالة نصف أسبوعية لابنتها .

وكان ابنها مشكلة من نوع آخر . فهى شديدة التعلق به لأنه فتى طيب ، يملك كما قالت « معينا من الذكاء وروح الفكاهة . . . وقد ألف أن يقرأ علينا فصولا من رابليه يكاد يموت السامع من الضحك عليها » (٦٧) . وكان شارل ابنا مثاليا ، الا اذا استثنينا ترسمه خطى أبيه فى التنقل من اغراء إلى إغراء ، الى أن — ولكن لندع مدام دسفينييه ، وهى تكتب

لابنتها ، تتحمل تبعة باقى القصة ، فلا شىء أكثر ايضاحا لطابع العصر :

« بقيت كلمة أو كلمتان عن شقيقك . . . فبالأمس أراد أن يقص على نبأ حادث مروع وقع له . ذلك أنه صادف لحظة سعيدة ، ولكن حين وصل إلى بيت القصيد — كان شيئا عجيبا ! فإن الفتاة المسكينة لم يرفه عنها أحد فى حياتها قط بمثل هذا أما الفارس فقد تقهقر بعد أن هزم شرهزيمة، وظن أن سحرا التى عليه ، وألطف مافى القصة أنه لم يشعر بالراحة إلا بعد ان انبأنى بكارثته . وضحكنا عليه حتى استلقينا ، وقلت له اننى مغتبطة جداً لأنه عوقب حيث أثم . . . . . لقد كان منظرا يستحق أن يسجله موليير (٦٨)» .

وأصيب الفتى بالزهرى ، فمنفته ، ولكنها مرضته فى حب . وحاولت أن تبث فيه شيئا من الدين ، ولكن نصيبها من الدين كان من الضآلة بحيث لم تستطع أن تعطيه الكثير منه . وقد تأثرت بمواعظ بوردالو ، وخبرت دفقات جائية من التقوى ، ولكنها كانت تبتسم حين ترى للمواكب الدينية التى أبهجت أهل المساكن الفقيرة . وقرأت آرنو ، ونيكول ، وبسكال ، وتعاطفت مع البور — رويال ، ولكن صدها تركيزهم على تجنب الهلاك الأبدى ، ذلك أنها لم تستطع أن تقنع نفسها بالإيمان بالجحيم (٦٠) . وكانت على العموم تجفل من التفكير الجاد ، فمثل هذه الأمور ليست للنساء ، ومن شأنها أن تعكر جمال الحياة الوادعة . ومع ذلك كانت ذواقة فى قراءتها — تقرأ فيرجل وتاسيتوس والقديس أوغسطين باللاتينية ، ومونتيني بالفرنسية ، وتعرف مسرحيات كورنى وراسين معرفة وثيقة . أما فكاهتها فكانت أعمق وأبهج من فكاهة موليير . فلنستمع إليها تتحدث عن صديق مدمن للتأمل الشارد :

« انقلب برانكا قبل أيام فى مصرف وجد نفسه فيه مرتاحا جداً حتى لقد سأل من سارعوا ليخرجوه منه أبهم حاجة إلى خدماته . وقد كسرت نظارته ، ولولا أن حظه كان خيراً من حركته لكسر رأسه أيضا ، ولكن هذا كله لم يقطع تأملاته قط . وقد أرسلت له كلمة هذا الصباح . . . أنبئه

فيها أنه انقلب وكاد عنقه يدق ، لأنى اعتقدت أنه الشخص الوحيد الذى لم يسمع بالحادث فى باريس(٧٠) » .

وهذه الرسائل فى مجموعها تؤلف صورة من أكثر الصور كشفا فى الأدب ، لأن المركيزة تسجل فيها أخطاءها وفضائلها دون تحفظ . فهى الأم المحبة ، التى تجد نفسها على سجيتها سواء فى صالونات العاصمة أو فى حقول ريتنى ، وهى تكتب لابنتها عن أتفه أحاديث الاستقراطية وقيلها وقالها، ولكنها تقول ايضا « إن البلبل ، والوقواق ، والهزار — كلها بدأت تصدح فى ربيع الغابات » ، وندر أن تفوه بكلمة سوء عن مئات الأشخاص الذين يرفون خلال صفحاتها الألفين ، وهى على الدوام مستعدة لمديد المعونة للمكروبين ، مجملة حديثها بالرقيق من التحية والمجاملة ، مذبذبة بين الحين والحين بالمرح القاسى (كضحكها على شنق بعض المتمردين المساكين فى برتنى) ، ولكنها مرهفة الاحساس بآلام الفقراء ، وهى تغضى عن فساد زمانها وطبقتها ، ولكنها بلا لوم فى سيرتها الشخصية ؛ إنها روح تفيض بالنية الطيبة وحب الحياة ، فيها من التواضع ما يمنعها من نشر كتاب ، ولكنها تكتب أفضل فرنسية فى عصر أفضل فرنسية كتبت على الإطلاق .

ترى هل خطر ببالها أن رسائلها قد تنشر يوما ما ؟ كانت أحيانا تسترسل فى تحليقات من البلاغة كأنها تشم مداد المطابع ، غير أن رسائلها حافلة بتفاصيل العمل ، وبالمصارحات العاطفية ، والمكاشفات المحرجة التى لا يمكن أن تكون قصدت إذاعتها على القراء . كانت تعلم أن ابنتها تطلع أصدقاءها على رسائلها ، ولكن مثل هذه المشاركة كانت كثيرة فى تلك الأيام ، حين كادت المراسلة أن تكون وسيلة الاتصال الوحيدة بين المسافات الطويلة ، وقد ورثت وحفظت الرسائل حفيدتها بولين ، التى منعتها من أن تدخل ديرا كما فعلت شقيقتها بلانش مارى ، ولكنها لم تنشر إلا عام ١٧٢٦ ، بعد موت المركيزة بثلاثين عاما . وهى اليوم من أغلى عيون الأدب الفرنسى وكأنها باقة زهر غنية يزداد عبيرها انتشارا على الأيام .

وازداد تفكيرها فى الدين كلما دنت نهايتها ، وقد اعترفت بخوفها من الموت والحساب . وبين ضباب بريتنى ومطر باريس أصابها الروماتزم ، ففقدت فرحتها بالحياة ، وأدركت أنها بشر فان .

« لقد ولجت الحياة دون رضاى ، ويجب أن أخرج منها ؛ هذه الفكرة تطغى على .. وكيف أخرج ؟ ... ومتى ؟ .. اننى أدفن نفسى فى هذه الأفكار ، وأجد الموت شديد الرهبة حتى لا بغض الحياة لأنها تفضى بى إلى الموت أكثر من بغضى لها لما يملؤها من أشواك . ستقولين اننى أريد أن أحيا إلى الابد . ليس الأمر كذلك مطلقا ، ولكن لو أخذ رأيى لآثرت أن أموت بين ذراعى مربيتى ، فقد كان هذا خليقا بأن يوفر على اضطرابات الروح ويكفل لى الجنة فى كل يقين ويسر[٧١] » .

وليس صحيحا أنها ابغضت الحياة لأنها تفضى إلى الموت ، إنما هى أبغضت الموت لأنها استمتعت بالحياة استمتاعا شديداً قرابة سبعين عاما . وإذ كانت أمنيتها أن تموت فى بيت ابنتها الحبيبة ، فإنها عبرت فرنسا خلال أربعمائة ميل فى رحلة عذاب إلى شاتو جرينيان . فلما أقبل الموت لقيته بشجاعة أدهشتها ، ووجدت العزاء فى تناول الاسرار المقدسة ، وعللت نفسها بالخلود . ولقد وهب لها الخلود حقا .

٨ ـ لا روشفوكو : ١٦١٣ ـ ٨٠

شتان ما بين هذا الروح ، وروح أشهر الكلبيين المحدثين ، وأقسى من مزق القناع عن نقائصنا ، ذلك العليل المكتئب الذى شوه سمعة النساء وافترى على الحب ، والذى أحبته ثلاث نساء حتى الموت .

كان النبيل السادس المسمى فرانسوا دلا روشفوكو ، سليل أسلاف كثيرين من الأمراء والكونتات ، والابن البكر للرئيس الأكبر لإدارة الملابس والحلى للملكة والوصية مارى دمديتشى .

وكان اسمـــه الأمير مارسياك إلى أن ورث لقب الدوقية عند وفاة أبيه (١٦٥٠) . وقد تلقى التعليم فى اللاتينية والرياضيات والموسيقى والرقص والمبارزة والأنساب والاتيكيت . فلما ناهز الرابعة عشرة تزوج بتدبير أبيه من أندريه دفيفون ، الابنة الوحيدة والوريثة لبازيار فرنسا الـكبير المتوفى . وحين بلغ الخامسة عشرة أمر على فوج من الفرسان ، وفى السادسة عشرة اشترى رتبة الـكولونيل . وكان يختلف إلى صالون مدام درامبوييه الذى هذب عاداته وصقل أسلوبه . ومع كل مثالية الشباب وإيثاره للنساء الناضجات نراه يعشق الملـكة ، ومدام دشفروز ، والآنسة دهوتفور . وحين تآمرت آن النمساوية على ريشليو استخدمت فرانسوا ، ثم كشف أمره ، وأودع الباستيل أسبوعا (١٦٣٦) . فلما أفرج عنه سريعا نفى إلى ضيعة أسرته بفيرتوى . وراض نفسه حينا على العيش مع زوجته ، ولاعب ولديه الصغيرين فرانسوا وشارل ، وتعلم أن للريف مباهج لا تستطيع فهمها غير المدينة .

فى تلك الأيام لم يـكن ممـكنا فصم عرى الزواج الشرعى بين الطبقات العليا الفرنسية ، ولـكن كان من الممـكن تجاهلها . وبعد أن قضى الأمير عشر سنوات فى زواج المرأة الواحدة الذى أضجره ، انطلق للمغامرة فى الحب والحرب . وحين استهدفت عيناه مدام دلونجفيل (١٦٤٦) لم يعد دافعه إلى ذلك حب مثالى ، بل تصميم على الاستيلاء على قلعة منيعة مشهورة ، لأنه ممـا يرفع من قدره أن يغوى زوجة لدوق وأختا لـكونديه العظيم . أما هى فلعلها ارتضته لأسباب سياسة ، فقد يكون حليفا نافعا فى التمرد الاستقراطى الذى اعتزمت أن تلعب فيه دوراً نشيطا . ولما أخبرته أنها حبلت منه (٧٢) ، منح كل تأييده للفروند . وفى ١٦٥٢ نبذته واتخذت الدوق نيمور عشيقا ، وحاول لاروشفوكوا قناع نفسه بأن ذلك ما كان يصبوا ليه ، وكما قال بعد ذلك « حين نحب إنسانا إلى درجة الملل ... فإننا نرحب أشد الترحيب . . . بفعل من أفعـال الخيانة يبرر تحللنا من ذلك الحب (٧٣) » فى ذلك العام ، وفيما كان يحارب فى صفوف الفروند فى ضاحية

سانت أنطوان ، أصابه رش بندقية فى عينيه وخلف به عمى جزئيا . فانكفأ راجعا إلى فيرتوى .

وكان الآن فى الأربعين ، يحس بوادر النقرس ، ويشعر للمرارة من كوارث أكثرها من صنعه . أما مثاليته فماتت فى إثر مدام دلونجفيل ، وفى مؤامرات الفروند الخداعة والنهاية الحقيرة التى انتهت إليها . وقد أزجى فراغه ودافع عن سيرته فى « مذكرات » (١٦٦٢) دل فيها على عظيم تمكنه من الأسلوب الكلاسيكى . وفى ١٦٦١ سمح له بالعودة إلى البلاط ، ومنذ ذلك التاريخ قسم وقته بين زوجته فى فيرتوى وأصحابه فى صالونات باريس .

وكان أحب الصالونات إليه صالون مدام دسابليه . هناك كانت هى وضيوفها يلعبون أحيانا لعبة « العبارات » . يعلق أحدهم بعبارة على الطبيعة البشرية أو سلوك الإنسان ، فتتقاذف الجماعة العبارة فيما بينها تأييداً واعتراضا . وكانت مدام دسابليه جارة وصديقة مخلصة للبور — رويال — دبارى ، فاعتنقت رأيه فى شر الإنسان الفطرى وخواء الحياة الدنيوية ، ولعل تشاؤم لاروشفوكو الناجم عن خيبته فى الحب والحرب ، وعن الخيانة السياسية والألم البدنى ، وعن خدعه غيره وانخداعه بالغير — نقول لعل هذا التشاؤم وجد مساندة قليلة من جانسنية مضيفته . وكان يجد لذة قائمة فى تهذيب عباراته وعبارات غيره وغربلتها على مهل ، وسمح لمدام دسابليه وغيرها من الاصدقاء بأن يقرءوا هذه الحكم ، وأن يعدلوا فيها أحيانا . وقد نسخها أحد هؤلاء ، وطبع ناشر لص هولندى ١٧٩ منها ، غفلا من اسم المؤلف ، حوالى سنة ١٦٦٣ ، وتبين فيها رواد الصالونات حكم لاروشفوكو ، ثم أصدر المؤلف نفسه طبعة أفضل اضاف إليها ٣١٧ مثلا عام ١٦٦٥ تحت عنوان « عبارات وأمثال اخلاقية » . وأصبح هذا الكتيب الذى اختزل الناس اسمه بعد قليل إلى « الأمثال » ، من عيون الأدب للتو تقريبا . ولم يعجب القراء بأسلوبه الدقيق المحكم الأنيق فحسب ، بل إنهم استمتعوا بما حوى

من فضح لأثرة الغير ، ولم يفطنوا إلى أن القصة إنما تروى عنهم ، إلا فيما ندر .

ووجهة نظر لاروشفوكو أوردها ثانى أمثاله : « إن حب الذات هو حب الإنسان لنفسه ، ولأى شىء آخر لأجله . وحياة الإنسان كلها ليست إلا ممارسة متصلة لهذا الحب وتحريضا قويا له » وليس الغرور إلا شكلا من الأشكال الكثيرة التى يتخذها حب الذات ، ولكن حتى هذا الشكل يدخل فى كل فعل وفكر تقريبا وقد تنام شهواتنا أحيانا ، ولكن غرورنا لا يهدأ أبداً « ان الذى يرفض الثناء أول مرة يرفضه لأنه يريد سماعه ثانية(٧٤) » . والتلهف على استحسان الناس لنا هو الأصل لكل الأدب والبطولات الواعية . « وكل الناس يستوون كبرياء ، والفرق الوحيد هو أنهم لا يتبعون كلهم نفس الطرق فى إبدائها(٧٥) » . « ان الفضائل تضيع فى المصلحة الذاتية كما تضيع الانهار فى البحر(٧٦) » . « ولو تاملنا أفكارنا الخفية لوجدنا فى صدورنا بذرة كل الرذائل التى نستنكرها فى غيرنا » ولا نستطعنا أن نحكم من واقع فسادنا الشخصى على الفساد المتأصل فى الإنسان (٧٧) . وما نحن إلا عبيد شهواتنا ، وإذا قهرت شهوة منها فقاهرها ليس العقل بل شهوة أخرى (٧٨) ، « والعقل يستغفله الوجدان دائما » ، « والناس لا يشتهون شيئا بلهفة إذا طلبوه انصياعا لاوامر العقل فقط(٧٩) » ، « وابسط الناس إذا أعانته العاطفة المشبوبة سينتصر أكثر من أفصح الناس بدونها (٨٠) » .

وفن الحياة يكمن فى إخفائنا حب ذواتنا بقدر يكفى لتجنب إغضاب حب الغير لذواتهم . وعلينا أن نتظاهر بقدر من الإيثار « إن النفاق ضرب من الاحترام الذى تقدمه الرذيلة للفضيلة (٨١) » . واحتقار الفيلسوف للزعوم للثراء أو عراقة النسب ليس إلا طريقته فى الترويج لبضاعته . وما الصداقة « إلا تجارة لا يفتأ حب الذات يطلب الكسب من ورائها(٨٢) » . وقد نقيس إخلاصها إذا لاحظنا أننا نجد فى نكبات أصدقائنا شيئا ليس كله

مسيئا[٨٣] . ونحن نبادر إلى الصفح عمن أساءوا إلينا بأسرع من صفحنا عمن أسأنا إليهم ، أو عمن تفضلوا علينا — فألزمونا — بخدماتهم[٨٤] . والمجتمع حرب بين الفرد والكل . « والحب الصادق أشبه الاشباح — شيء يتحدث عنه كل انسان ولكن نادرا ما رآه أحد [٨٥] » ، و « ما كنا لنقع فى الحب قط لولا سماعنا الناس يتكلمون فى الحب[٨٦] » . ومع ذلك فالحب إذا كان صادقا تجربة فيها من العمق ما يجعل النساء اللاتى عرفن الحب مرة ضعيفات القدرة على الصداقة ، لأنهن يجدنها باردة غثة بالقياس إلى الحب [٨٧] ومن هنا لم يكن للنساء وجود تقريبا إلا وهن فى الحب « قد تلقى نساء لم يسبق لهن غرام قط ، ولكن من العسير جدا أن تجد نساء لم يقعن إلا فى غرام واحد لا أكثر [٨٨] » . « وأكثر النساء المحصنات كالكنوز المخفاة ، التى لم تكن فى مأمن إلا لأن أحداً لم يفتش عنها[٨٩] » .

وكان هذا الكلبى العليل عليما بأن هذه الحكم البارعة ليست وصفا منصفا للبشر . لذلك راح يتجنب الجزم فى الكثير منها بألفاظ مثل «تكاد» أو « تقريبا » إلى غير ذلك من التحفظات الفلسفية، وقد اعترف أنه « أسهل أن يعرف المرء النوع الإنسانى عموما من أن يعرف انسانا واحداً بالذات [٩٠] » ، وسلمت للقدمة بأن أمثاله لا تصدق على « المحظوظين القلائل ، الذين سرت السماء بأن تحفظهم . . . بنعمة خاصة[٩١] » . ولا بد أنه سلك نفسه فى زمرة هؤلاء القلائل ، لأنه كتب : « انى أخلص لأصدقائى إخلاصا لا أتردد معه لحظة فى التضحية بمصالحى فى سبيل مصالحهم[٩٢] » . — ولو أنه كان بلا شك يفسر هذا بأنه راجع لأنه يجد فى بذل مثل هذه التضحية لذة أكثر مما يجده فى منعها . وقد تحدث بين الحين والحين عن « عرفان الجميل، فضيلة العقول الحكيمة السمحة [٩٣] » و « الحب ، النقى الذى لا تشوبه شهوة (إذا وجد إطلاقا) ، الذى يكمن فى أعماق قلوبنا [٩٤] » و « مع أنه يمكن القول ، بقدر كبير من الصدق . . . ان الناس لا يفعلون شيئا دون

مراعاة لمصلحتهم ، إلا أنه لا يستتبع هذا ان كل ما يفعلونه فاسد ، وأنه لم يبق فى الدنيا شىء اسمه العدالة أو الأمانة . فالناس قد يحكون أنفسهم بوسائل شريفة ، ويختطون (لأنفسهم) مصالح كلها الخير والنبل[٩٥] » .

وقد ألانت الشيخوخة جانب لاروشفوكو ، حتى وهى تزيده شجنا على شجن . ففى ١٦٧٠ ماتت زوجته بعد ثلاثة وأربعين عاما من الوفاء الصابر ، وبعد أن أنجبت له ثمانية أطفال ، وقامت على تمريضه طوال الأعوام الثمانية عشر الأخيرة . وفى ١٦٧٢ ماتت أمه ، وقد اعترف أن حياتها كانت معجزة طويلة من المحبة وفى تلك السنة جرح اثنان من أبنائه فى غزوة هولندة ، ومات أحدهما من جروحه . كذلك سقط فى نفس الحرب الفاجرة ابنه غير الشرعى الذى ولدته له مدام دلونجفيل ، والذى لم يؤذنله بأن يطالب به ابنا برغم أنه أحبه حبا عميقا . روت مدام دسفينييه « رأيت لا روشفوكو يبكى فى حنان جملني أعبده[٩٦] » . ترى أكان حبه لأمه وأولاده حبا لذاته ؟ أجل ، إذا نظرنا إليهم على أنهم جزء من ذاته وامتدادا لها . وهذا هو التصالح بين الإيثار والأثرة — فالايثار توسيع للذات ، ولمحبة الذات ، للأسرة ، أو الأصدقاء ، أو الجماعة . وفى وسع المجتمع أن يقنع بمثل هذه الأنانية السمحة الشاملة .

ومن أكثر ملاحظات لاروشفوكو سطحية قوله « ان فضل القليل من النساء يدوم أطول من جمالهن[٩٧] » . لقد كانت أمه وزوجته استثنائين ، ولم يكن من الكرم تجاهل آلاف النساء اللاتى ضيعن جمالهن الجسدى فى خدمة الرجل والأطفال . وفى ١٦٦٥ بذلت له امرأة ثالثة معظم حياتها . ولاشك فى أن مدام دلافاييت أرضت قلبها هى وهى تحاول أن تسرى عنه . فلقد كان يومها فى الثانية والخمسين ، يشكو النقرس ونصف العمى ، اماهى فكانت فى الثالثة والثلاثين ، محتفظة بجمالها ، ولكنها عليلة تشكو حمى الملاريا . ولقد روعها مافى امثاله من كلبية ، ولعل فكرة سارة بإصلاح هذا الرجل الشقى والتسرية عنه خالطت رأيها فيه ، فدعته الى بيتها فى باريس ،

لجاء محمولا على محفة ، فعصبت قدمه الموجوعة ووسدتها ، وأتت بأصحابها ، ومنهم مدام دسفينييه المتدفقة العاطفة ليساعدنها في الترويح عنه . وعاد إليها ثانية ، وكثرت زياراته حتى لغطت بها باريس . ولا علم لنا هل دخلت في هذه الزيارات الألفة الجنسية ، ولكنها على أية حال كانت جزءاً صغيراً في علاقة أصبحت تبادلا بين الأرواح . قالت « لقد اعطاني الفهم » ولكنني أصلحت قلبه(٩٨) » . ولعله ساعدها في روايتها « أميرة كليف » وان بعدت رقتها وحنانها عن قسوة « أمثاله » بعد السماء عن الأرض .

وبعد أن ماتت مدام دلاروشفوكو أصبحت هذه الصداقة التاريخية ضربا من الزواج الروحي ، وفي الادب الفرنسي صور كثيرة لهذه المرأة القصيرة الضعيفة الجسد ، تجلس في هدوء إلى جوار الفيلسوف العجوز الذي أقعده الألم عن الحركة . قالت مدام دسفينييه « لا شيء يمكن أن يقارن بسحر صداقتهما وثقتها (٩٩) » . وقال بعضهم ان المسيحية تبدأ حيث ينتهي لاروشفوكو(١٠٠) ، وقد تبينت صحة القول في هذه الحالة ، ولعل مدام دلافاييت الصادقة الورع أقنعته بأن الدين هو الكفيل بالإجابة عن مشكلات الفلسفة . ولما شعر بدنو أجله طلب إلى الأسقف بوسويه أن يناوله الأسرار المقدسة الأخيرة (١٦٨٠) . وقد عمرت صديقته بعده ثلاثة عشر عاما حافلة بالألم .

٩ — لابرويير ١٦٤٥ — ٩٦

بعد موت لاروشفوكو بثمانية أعوام اكد جان دلابرويير تحليله الساخر للآدميين من أهل باريس . وكان جان ابن موظف صغير في الحكومة . درس القانون ، واشترى وظيفة حكومية صغيره ، واصبح معلما خاصا لحفيد كونديه العظيم ، وخدم أسرة كونديه وصيفا ، وتبعها إلى شانتيي وفرساي . وقد ظل أعزب الى نهاية حياته .

وقد عذبته حدة الفوارق الطبقية في فرنسا لما فطر عليه من حساسية

وحياء ، ولم يستطع الاستمانة بمظاهر الغرور الطيقة التى ربما كانت تيسر له طريقه بين النبلاء وفى البلاط ، وذلك رغم انتمائه الى الطبقة الوسطى . وقد لاحظ معرض الوحوش الملكى بعين مادية نفاذة ، وانتقم منها بوصفها فى كتاب صب فيه كل عصارته الفكرية تقريبا ، وقد سماه « الاخلاق لتيوفراست مترجمة عن الاغريقية ، مع اخلاق أو عادات هذا العصر » . وأصبح الكتاب حديث باريس . لانه صور تحت أقنعة شفافة أشخاصا مشهورين فى المدينة أو البلاط ، وجعل كلا منهم يجد المتعة البالغة فى فضح الباقين . ونشرت « مفاتيح » للكتاب تزعم انها تطابق الصور مع اصولها ، واحتج لابرويير بأن أوجه الشبه عارضة ، ولكن أحدا لم يصدق ، وذاع صيته ، ونفدت ثمانى طبعات قبل موت المؤلف فى ١٦٩٦ ، وقد اضاف الى كل طبعة « أخلاقا » جديدة تبينت فيها باريس مرآة العصر .

ونحن الذين فقدنا اليوم مفتاح متحف الصور هذا تبدولنا مادته هزيلة بعض الشىء ، وأفكاره قديمة مبتذلة ، وروحه يشوبها بعض الحسد ، ومجاؤه سطحيا جدا ، كهجائه لمينا لكاس الرجل الشارد الذهن (١٠١) . ولايطلب لابروبير أى تغيير فى دين فرنسا أوحكومتها . وقد رأى أن من الخير أن يكون هناك فقراء ، والا لكان العثور على الخدم عسيرا ، ولما وجد أحد يستخرج المعادن أو يفلح الأرض ، والخوف من الفقر لاغنى عنه لانتاج الثروة (١٠٢) . وكان يسلك بوسويه فى عداد أصدقائه مفاخرا بذلك ، وقد أعاد فى القسم الأخير من كتابه (« فى أحرار الفكر ») الحجج التى أعرب عنها الواعظ العظيم بحكم افضل ونثر أرفع ، وردد البراهين التى ساقها ديكارت عن الله والخلود ، واستشهد بشىء من الحذق ، فى رده على اللاأدريين فى زمانه ، بنظام السماوات وجلالها ، وعلامات الهدف المرسوم فى الكائنات الحية ، والاحساس بتقرير المصير فى الارادة وباللامادية فى الذهن . وهاجم غرور النبلاء ، وجشع رجال المال ،

وخنوع الحاشية الذين صورهم ينظرون الى لويس لا الى المذبح فى كنيسة فرساى ؛ ولكنه حرص على أن يقدم للملك باقات زهر يتقى بها غضبه (١٠٣) . وفى فقرة واحدة على الأقل ازاح الحذر جانبا وتسامى فى جرأة ليصف درك البهيمية الذى تردى فيه فلاحو فرنسا من جراء حروب الحكم وضرائبه . يقول : « انتشرت فى أرجاء الريف حيوانات ضارية ، ذكور واناث ، سوداء ، ممتقعة ، أحرقتها الشمس تماما ، والتصقت بالأرض التى تحفرها وتقلبها فى اصرار لايقهر ، ولها ما يشبه الصوت المنطوق ، فاذا انتصبت على قوائمها بدت فى سحنة البشر ، والواقع انها ناس من الناس (١٠٤) » .

وما زالت هذه الصفحة من أبلغ ما كتب فى عصر فرنسا الكلاسيكى .

١٠ — مزيد من الأدباء

هل نحشد الآن بغير نظام ، بعد أن أصابنا الاعياء ، فى ملحق هياب بعض الخالدين الذين بدأوا يموتون ؟

هناك جان شابلان ، الذى أعان على تنظيم الأكاديمية الفرنسية ، واعتبر فى زمانه (١٥٩٥ — ١٦٧٤) أشعر شعراء فرنسا . وهناك جان باتيست روسو ، الذى كتب شعرا ينسى ، ولكنه كتب أيضا إبجرامات مقذعة جرت عليه النفى من فرنسا (١٧١٢) عقابا على تشهيره بالأشخاص . وقد كتب معظم النبلاء الذين اشتغلوا بالسياسة مذكرات ، فرأينا مذكرات دريتز ولاروشفوكو ، وسنرى فى موضع لاحق مذكرات سان — سيمون . ويلى أولئك مرتبة تلك المجلدات الثلاثة التى سجلت فيها مدام دموتفيل بتواضع خلاب وقائع سنيها الاثنتين والعشرين التى قضتها فى بلاط آن النمساوية . ونلاحظ أنها وافقت لاروشفوكو على رأيه اذ كتبت « ان تجربتى القاسية فى صداقة البشر الزائفة أكرهتنى على الايمان بانه ليس فى الدنيا شىء أندر من الأمانة والاستقامة ، أو من

القلب الطيب القادر على عرفان الجميل(١٠٥) . » لقد كانت هى هـذا الانسان النادر الوجود .

وقد حقق روجيه درابوتان ، كونت بوسى ، نجاحا فى دنيا الفضائح بـكتابه « تاريخ غراميات الغاليين » (١٦٦٥) الذى وصف غراميات معاصريه مستخفية وراء قدامى الغاليين . وغضب الملك لـكونه سخر فيها من مدام هنرييتا ، فزج به فى الباستيل ، ثم افرج عنه بعد سنة شريطة أن يعتـكف فى ضيعته ، وهناك ألف « مذكراته » النابضة بالحياة ، والغيظ يبريه إلى نهاية حياته . وأقل من هـذا الـكتاب جدارة بالتصديق كتاب « الأقاصيص » الذى رسم فيه تالمـان دى ريو صوراً موجزة خبيثة لشخصيات شهيرة فى الأدب أو الغرام . وقد جاهد كلود فلورى ، بـكتابه الامين « التاريخ الـكنسى » (١٦٩١) ، وسباستيان تيلمون بـكتابه « تاريخ الأباطرة » (١٦٩٠ وما بعدها) ، وكتابه « مذكرات ينتفع بها فى التاريخ الـكنسى للقرون الستة الأولى » (١٦٩٣) ذى الستة عشر مجلدا — هذان جاهـدا فى معاناة ، ودون وعى منهما ، ليمهدا الطريق وينقياه لـكتاب جيبون « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » (١٧٧٦ وما بعدها) .

ثم هناك أخيرا شارل دمار كتيل شريف سانت — افريمون الذى كان ألطف تلك « العقول القوية » التى صدمت الـكاثوليك والهيجونوت ، واليسوعيين والجانسيين على السواء ، بالتشكك فى التعاليم الأساسية لإيمانهم المشترك وكانت حياته العسكرية الحافلة بالمغامرات تقوده إلى عصا الماريشالية حين غضب عليه الملك لأنه كان صديقا لفوكيه وناقدا لمازاران . فلما نمى إليه أن قد تقرر القبض عليه فر إلى هولندة ، ثم إلى انجلترة (١٦٦٢) . وقد جملته عاداته المهذبة وذكاؤه الشكاك أثيرا فى صالون هورتنزى مانشينى بلندن ، وفى بلاط تشارلز الثانى . وكان كالماريشال دو كنـكور ، فى واحد من أكثر حواراته مرحا(١٠٦) ، يحب الحرب أولا ، ثم النساء ، ثم الفلسفة . وإذ رشف كل المباهج التى فى مونتينى ، ودرس أبيقور مع جاسندى ، فقد

خلص مع الاغريقى للفترى عليه إلى أن لذة الحس طيبة ، ولكن لذة الاسكر أطيب ، وأنه لا داعى يدعونا لشغل أنفسنا بالآلهة أكثر مما تشغل أنفسها بنا . وقد بداله الأكل الطيب والكتابة الجيدة مزيجا معقولا . وفى ١٦٦٦ زار هولنده ثانية ، والتقى بسبينوزا وتأثر تأثرا عميقا بالحياة المسيحية التى كان يحياها اليهودى القائل بوحدة الوجود(١٠٧). وقد أتاح له معاش أجرته عليه الحكومة الإنجليزية ، بالإضافة إلى ما استنقذه من فضلات ثروته ، أن يكتب سلسلة طويلة من الكتب الصغيرة ، كلها بأسلوب خفيف رشيق شارك فى تكوين فولتير . وقد أعان كتابه « تأملات فى مختلف أجناس الشعب الرومانى » مونتسكييه ، وشاركت رسائله إلى تينون دلانكلو بجزء من ذلك العبير الذى يتضوع خلال الرسائل الفرنسية . ولما بلغ الثامنة والخمسين ، ودون وعى منه بأنه سيعمر اثنتين وثلاثين سنه أخرى ، وصف نفسه بأنه متقلقل بصورة لاشفاء له منها . « انى لولا فلسفة مسيو ديكارت التى تقول أنا أفكر فإذن أنا موجود لما صدقت انى موجود ، وهذا كل ما أفدت من دراسة ذلك الرجل الشهير(١٠٨) » وقد كاد ينافس فونتنيل فى طول عمره ، إذ لم يمت إلا عام ١٧٠٣ بعد ان بلغ التسعين ، وقد نال تشريفا ندر ان حظى به فرنسى ، وذلك هو دفنه فى دير وستمنستر .

كتب فردريك الأكبر إلى فولتير : « بعد قرون سيترجمون الكتاب المجيدين فى عصر لويس الرابع عشر كما نترجم نحن كتاب عصر بركليس وأوغسطس » . وقبل أن يموت الملك بسنين طويلة شبه الكثيرون من الفرنسيين فى العصر بوأدبه بخير ما أنتج القدماء فى الفنون والآداب . وفى ١٦٨٧ قرأ شارل بيرو (أخو كلود بيرو الذى صمم من قبل واجهة اللوفر الشرقية) على الأكاديمية الفرنسية قصيدة سماها « قرن لويس العظيم » رفع فيها العهد فوق أى حقبة فى تاريخ اليونان أو الرومان . ولكن بوالو الناقد العجوز انبرى للدفاع عن القدامى رغم ان بيرو سلكه فى زمرة للعاصرين

الذين فضلهم على نظرائهم القدامى ، فقال للأكاديمية ان من العار الاستماع إلى هذا اللغو . وحاول راسين ان يخمد النار بزعمه أن بيرو كان (١١٠) يمزح ، ولكن بيرو أحس أن لديه موضوعا مجزيا . فعاد إلى المعركة فى ١٦٨٨ بكتابه « نظائر القدامى والمحدثين » وهو حوار طويل حتى يؤيد تفوق المحدثين فى العمارة والتصوير والخطابة والشعر — وذلك باستثناء الالياذة ، التى هى فى رأيه أروع من الالياذة أو الاوديسة أو أى ملحمة أخرى . وقد ناصره فونتنيل بذكاء وبراعة ، أما لا برويير ولا فونتين وفينيلون فوقفوا فى صف بوالو .

لقد كان شجاراً صحيا، عين نهاية نظرية « الانحطاط » المسيحية الوسيطة، ونهاية تواضع النهضة والحركة الإنسانية أمام الشعر والفلسفة والفنون القديمة . وكان هنالك اتفاق عام على أن العلم قد تقدم متجاوزا أى مرحلة أدركها اليونان أو الرومان ، وحتى بوالو اعترف بهذا ، وسلم بلاط لويس الرابع عشر فى غير تردد بأن فن الحياة لم يطور قط من قبل بمثل هذا الجمال الذى طور به فى مارلى وفرساى . ولن نزعم أننا فاصلون فى هذه المشكلة ، فلنتركها الآن حتى نعرض كل جوانب هذا العصر فى أوربا بأسرها . ولا حاجة بنا إلى الإيمان بأن كورنى كان متفوقا على سوفوكليس ، أو راسين على يوريبيديس ، أو بوسويه على ديموستينيس ، أو بوالو على هوراس ؛ وما ينبغى أن نسوى بين اللوفر والبارثينون ، أو بين جيراردون وكوازفوكس وبين فيدياس وبراكستيليس . ولكن من اللطيف أن نعرف أن هذه المفاضلات تقبل المناقشة ، وان تلك النماذج القديمة لا تمتنع على المنافسة .

لقد وصف فولتير عصر لويس الرابع عشر بأنه « أكثر العصور التى شهدها العالم استنارة (١١١) » دون ان يتوقع أن عصره هو سيسمى « عصر التنوير » . ولكن ينبغى أن نخفف من غلو هذا الاطراء . فالعصر من الناحية الرسمية كان عصر ظلامية وتعصب بلغا أوجهما فى إلغاء مرسوم نانت الرحيم ، و « التنوير » كان وقفا على قلة قليلة لم يرض عنها البلاط وعابها سرفها الابيقورى أحيانا . والتعليم كان يهيمن عليه أكليروس ملتزم بعقيدة العصر

الوسيط ، وأما حرية الطباعة والنشر فلم يكد أحد يحلم بها ، وحرية الكلام كانت مغامرة سرية وسط رقابة شاملة . لقد كان فى عهد ريشليو من المبادرة والجرأة ومن مولد العبقرية قسط أكبر مما كان فى عهد الملك العظيم . إن العصر لم يكن له ضريب فى الرعاية الملكيه للادب والفن ، وفى خضوعهما البليغ للملك . وقد بلغ الفن والأدب كلاهما العظمة والجلال كما يشهد بذلك صف أعمدة اللوفر ومسرحية اندروماك ، ولكنهما انحدرا أحيانا إلى المبالغة فى الفخامة والابهة كما نرى فى قصر فرساى أوفى بلاغة كورنيى فى آخر إنتاجه . وكان يشوب المأساة والفنون الكبرى فى هذا العهد بعض التكلف والافتعال ، فقد أفرطا فى الاتكاء على النماذج اليونانية أو الرمانية أو نماذج النهضة . واتخذا موضوعاتهما من عصر قديم دخيل لامن تاريخ فرنسا ودينها وطابعها ، وعبرا عن التعليم الكلاسيكى الذى حظيت به طبقة خاصة لاعن حياة الشعب وروحه . ومن ثم نجد موليير ولا فونتين العاميين يفيضان اليوم حياة وسط هذا الحشد المزوق، لأنهما نسيا اليونان والرومان وتذكرا فرنسا . صحيح ان العصر الكلاسيكى نقى اللغة ، وصقل الادب ، وهذب الحديث ، وعلم العاطفة المشبوبة أن تفكر ، ولكنه إلى ذلك فرض على الشعر الفرنسى (والإنجليزى) برودة امتدت قرابة قرن بعد هذا العهد العظيم .

ومع ذلك كان عهدا عظيما . فلم يشهد التاريخ من قبل حاكما سخا مثل هذا السخاء على العلوم والآداب والفنون . لقد اضطهد لويس الرابع عشر الجانسنيين والهيجونوت ، ولكن فى عهده كتب بسكال ، ووعظ بوسويه ، وعلم فينيلون . ولقد جند الفن ليخدم به مآربه ومجده ، ولكن هذا الفن منح فرنسا بفضل تشجيعه روائع فى العمارة والنحت والتصوير . ولقد حمى موليير من جيش من الخصوم ، وآزر راسين من مأساة إلى مأساة . ولم تكتب فرنسا من قبل مسرحية أفضل ، ولا رسائل أفضل ، ولا نثرا أفضل ، مما كتبت فى عهده . وقد أشاعت عادات الملك المهذبة ، وضبطه

لنفسه . وصبره ، واحترامه للنساء — أعانت كلها على انتشار الاداب المحببة والمجاملات اللطيفه فى البلاط ، وعنه إلى باريس وفرنسا وأوربا . ولقد أساء استعمال بعض النساء ، ولكن تحت حكمه بلغت النساء فى الادب والحياة مقاما اضفى على فرنسا ثقافه ثنائيه الجنس يفوق جمالها أى ثقافه أخرى فى العالم . وبعد كل التحفظات ، وبعد الاعراب عن أسفنا لان هذا الجمال الكثير لوثته هذه القسوة الكثيرة ، يحق لنا أن نضم صوتنا إلى أصوات الفرنسيين فى الأشادة بعصر لويس الرابع عشر بوصفه عصراً يقف على قدم المساواة مع اليونان فى أيام بركليس ، والرومان فى أيام أوغسطس ، وإيطاليا فى أيام النهضه ، وانجلترة فى أيام اليزابيث وجيمس الاول — يقف مع هؤلاء جميعا قمة شامخة بين الشوامخ فى مسار الإنسانية المتعثر .

الفصل السادس

مأساة فى الأراضى المنخفضة

١٦٤٩ — ١٧١٥ *

شهد القرن الممتد من ١٥٥٥ إلى ١٦٤٨ الدفاع البطولى الذى قامت به الأراضى المنخفضة ضد إمبراطورية أسبانيا العالمية ، أما الفترة من ١٦٤٨ إلى ١٧١٥ فقد شهدت دفاع الجمهورية الهولندية الرائع ضد بحرية إنجلترة وجيوش فرنسا التى لم يسبق لهامثيل . وفى كلتا الحالتين صمدت هذه الدولة الصغيرة بشجاعة ونجاح من حقهما أن يتبوءا مكاناً مرموقاً فى التاريخ . وقد واصلت وسط هذه الأعباء والمجهات تطويرها للتجارة والعلوم والفنون ، وكانت مدنها ملاذاً للفكر المضطهد ، وتحدت نظمها الجمهورية الملكيات القوية المحدقة بها تحدياً ملهماً .

١ ـ الأراضى المنخفضة الأسبانية

ظلت الأراضى المنخفضة الجنوبية ، أو الأسبانية ، حتى ١٧١٣ خاضعة للحكم الأسبانى وكانت شعوبها المختلفة سلالياً يدين معظمها بالكاثوليكية وقد آثرت أن تخضع لأسبانيا النائية التى حل بها الضعف ، على أن تخضع للبروتستنت الذين فى شمالها ، أو لجارتها فرنسا التى هددت بابتلاعها فى أى لحظة . وقد أعطى صلح البرانس (١٦٥٩) معظم أرتوا لفرنسا ، وأعطاها صلح إكس لا شابل (١٦٦٨) دويه وتورنيه ، وصلح نيميجن (١٦٧٨) فالنسين وموبوج وكمبرى وسانت أومير وايبر . ولم تكن الجمهورية

(*) أرجأنا تاريخ الأراضى المنخفضة السياسى والحربى بعد ١٦٨٨ إلى فصل تال (الفصل ٢٤) .

الهولندية أقل قسوة من الملكية الفرنسية . وبمقتضى معاهدة وستفاليا (١٦٤٨) لم تكتف أسبانيا ، فى حرصها على إطلاق يد جيوشها لتفرغ للحرب المتصلة مع فرنسا — لم تكتف بأن تنزل للأقاليم المتحدة عن المناطق التى استولت إعليها فى فلاندر ، وليمبورج ، وبرابانت ، ولكنها وافقت كذلك على قفل نهر الشلت فى وجه التجارة الأجنبية . فأصاب هذا الإذلال الخانق أنتورب وكل اقتصاد الأراضى المنخفضة الأسبانية بالشلل . « إن السياسة لا قلب لها » كما يقولون .

وفى داخل هذه الأسوار المعادية اعتزت هذه البلاد التى نعرفها اليوم باسم بلجيكا بثقافتها المتوارثة ، ورحبت باليسوعيين ، وتبعت قيادة لوفان الفكرية . ولما قصف الفرنسيون بروكسل بمدافعهم (١٦٩٥) تحول قسم كبير من المدينة أطلالا ، ودمر كل المعمار البديع الذى ازدان به الميدان الكبير ، اللهم إلا قاعة للحرفيين والأوتيل دفيل البديع ، وقد أعيد بناء « الميزون دورا » (الذى كان يقرأ فيه الخطاب الملكى على مجلس الطبقات) بطراز قوطى كثير الزخرف (١٦٩٦) ، وهو والأوتيل دفيل من أجمل العمائر فى أوربا اليوم . وقد أفاض النحاتون من فنهم على تجميل واجهات الكنائس والمبانى المدنية ، والمنابر ، ومقاصير الاعتراف ، والمقابر التى بداخل الكنائس . وواصلت بروكسل صنع النسيج المرسوم البديع[1] .

واضمحل التصوير الفلمنكى اضمحلالا حادا بعد روبنز وفانديك ، وكأن حياة هذين الفنانين قد استنفدت العبقرية التصويرية لقرن كامل . واجتذب نهوض الفن فى فرنسا وازدياد ثرائها الكثير من الرسامين الفلمنك أمثال فيليب دشامبين . ولكن فنانا اعظم منه ، وهو دافيد تنييه الابن ، مكث فى بلده . وكان أبوه قدتولى تعليمه ، فأصبح « معلما » فى طائفة القديس لوقا الحرفية حين بلغ الثالثة والعشرين ، وبعد أربع سنوات (١٦٣٧) ضمن نجاحه بالزواج من آن بنت جان بروجل « المخملى » ،

والقاصر الموضوعة تحت وصاية روبنزذاته . وفى ١٦٥١ دعاه الارشيدوق ليوبولد وليم من أنتورب الى بروكسل ليكون مصور البلاط وأمين المتحف الملكى ، وترينا احدى لوحات تنييه الأشيدوق والمصور بين صور هذا المتحف (٢) . وقد صور فى براعة مترددة موضوعات قديمة كالابن الضال (٣) وتجربة القديس انطونيوس . (٤) . ولكنه كمعاصريه الهولنديين آثر أن يلتقط داخل اطارات صغيرة حياة الفلاحين ، لاهابطا بهم الى درك الأنعام كما فعل بيتر بروجل ، بل مشاركا اياهم فى رباضاتهم وأعيادهم . وأظهرت لوحته « داخل كاباريه » المامه بتفاصيل موضوعه (٥) ، ولكنه كان يستطيع أيضا أن يرسم المناظر الطبيعية الريفية التى تغير هيئتها سماء لا تكف عن التغير . وقد أحب الضوء كما أحب ومبرانت الظل ، والتقطه على فرشاته برقة حساسة لم تفقها رقة .

٢ — الجمهورية الهولندية

كانت الأقاليم الهولندية السبعة قد توحدت الآن فى جمهورية عزيزة ظافرة أثار غناها وتوسعها عجب جيرانها وحسدهم . فهنا أمة شذت على العرف ، إذ لم يكن لها ملك ، وكانت كل مدينة يحكمها فى استقلال تقريبا مجلس من أعيانها ، وكل مجلس بلدى يوفد مندوبين لمجلس اقليمى ، وكل مجلس اقليمى يوفد ممثلين للمجلس التشريعى الذى يهيمن على ما بين الأقاليم من علاقات وعلى شئونها الخارجية . وكانت الى ذلك الحد حكومة مثالية لأقطاب التجارة الذين كانت ثرواتهم تتضخم بنمو التجارة الهولندية . ولكن قوة ارستقراطية واحدة وقفت أمام أولجركيه التجار هذه : ذرية وليم الأول (والصامت) أمير أورنج وناسو ، الذى قاد البلاد فى أحلك ايام كفاحها ضد أسبانيا ، وكان المجلس التشريعى قد كافأه بلقب رئيس الدولة وبقيادة جيوشها ، واستطاع أن يورث ذريته ذلك اللقب وتلك القيادة ، وكانت الهيمنة على رجال الجيش الآن قوة لا تفتأ تهدد بتحويل الجمهورية الاولجركية الى ملكية.

ارستقراطية . وفى يوليو ١٦٥٠ حاول وليم الثالث أمير أورنج ، بوصفه رئيسا للدولة وقائدا عاما ، أن يبسط سلطانه المطلق على جميع الأقاليم المتحدة بانقلاب . فقاومه عدة زعماء اقليميين ، واودع وليم وجند ستة منهم فى السجون ، ومنهم يعقوب دى ويت عمدة دوردريشت . ولكن الجدرى هزم وليم فى انتصاره ، فمات فى ٦ نوفبر ١٦٥٠ غير متجاوز الرابعة والعشرين : وبعد أسبوع ولدت أرملته مارى ستيوارت (ابنة حفيدة آخر ملكة للاسكتلنديين) الطفل وليم أورنج الثالث ، الذى قدر له أن يحقق فوق ماحلم به أبوه ، اذ أصبح ملكا على انجلترة .

اما الزراع وصيادو الاسماك الأدنى من هذه الطبقات الحاكمة المتنافسة ، هؤلاء الذين كانوا يطعمون الشعب ، فلم يشاركوا الا فى فضلات ثرائها التى لم يعبأ بالتهامها التجار ورجال الصناعة وملاك الأرض . واذا صدقنا الرسامين الهولنديين تبين لنا أن الحرب والاستغلال قد طحنا الفلاحين بفقر كاد يقربهم من حياة البهائم ، فقر خففت منه الأعياد وخدره الشراب . وكان الحرفيون فى حوانيتهم ، والعمال فى مصانع امستردام وهارلم وليدن ، أعلى أجورا من نظرائهم فى انجلترة (٦) ، ولكنهم قاموا باضراب عنيف فى ١٦٧٢ . وأثرى المهاجرون الهيجونوت الوافدون من فرنسا الصناعة الهولندية بمدخراتهم ومهاراتهم . فلم تأت سنة ١٧٠٠ حتى حلت الأقاليم المتحدة محل فرنسا بوصفها الامة الصناعية القائدة فى العالم .

اما اعظم الثروات فجادت بها التجارة مع أقطار ما وراء البحار وتطويرها . ففى ١٦٥٢ استوطن الهولنديون أول مستعمرة لهم فى رأس الرجاء الصالح وأسسوا مدينة الكاب . وكانت شركة الهند الشرقية الهولندية تدفع ارباحا لمساهميها بلغت نسبتها فى الموسط ١٨ ./. طوال ١٩٨ عاما (٧) . وكان الوطنيون فى المستعمرات الهولندية يباعون او يشتغلون عبيدا ، أما المستثمرون فى أرض الوطن فلم يسمعوا بهذا الا قليلا ، وأخذوا ارباح أسهمهم بهدوء هولندى . وظلت التجارة

الخارجية الهولندية حتى ١٧٤٠ تفوق تجارة أى أمة أخرى (٨) ، ومن بين عشرين الف سفينة كانت تنقل تجارة أوروبا فى ١٦٦٥ ، كانت خمسة عشر ألف هولندية (٩) . وأجمع الناس على أن تجار هولندة وماليها أكفأ من انجبه ذلك العصر . وكان بنك أمستردام قد استنبط عمليا كل تقنيات المالية العصرية ، وقدرت ودائعه بما يعادل الآن مائة مليون دولار (١٠) ، وكان فى الامكان أن تسوى فيه حسابات تصل الى الملايين فى ساعة واحدة ، وبلغت الثقة بقدرة الهولنديين المالية وامكان الاعتماد عليهم مبلغا يسر للجمهورية الهولندية أن تقترض المال بفائدة أقل من أى حكومة أخرى ، وقد تهبط الفائدة أحيانا الى ٤ ٪ (١١). ولعل أمستردام كانت أكثر مدن اوروبا فى هذا العصر جمالا وتحضرا . وقد رأينا ثناء ديكارت عليها ، وكذلك تحدث عنها سبينوزا (١٢) . ويمثل هذه الحماسة تحدث بيبيس عن لاهاى « مدينة غاية فى النظافة من جميع الوجوه ، بيوتها أنظف مايستطاع فى كل أماكنها ومحتوياتها (١٣) » .

ولولا طبيعة البشر لكانت هـذه الأقاليم الرخية جنة فى الأرض ذلك أن ثراءها أغرى انجلترة وفرنسا بالهجوم عليها ، وقد أفضى الصراع على السلطة فى الداخل الى مأساة جان دى ويت ، ومزقت المنافسة بين العقائد الدينيا شعبا لطيفا فى غير هـذا ، وبعثت الخصومات العنيفة . ومنع الكلفنيون الغالبون ممارسة الشعائر الكاثوليكية حيثما استطاعوا منعها . وفى ١٦٨٢ ، وضـع مجمع دورت (الدوردريشت) اعترافا بالكلفنية القديمة — ربما انتقاما من الغاء مرسوم نانت وألزم كل راع بالتوقيع عليه والا طرد ، وعين بيير جوريو وهو هيجونوتى فرنسى سـابق — ليرأس محكمة تفتيش كلفنيه ، واستدعى المهرطقين ، وحاكمهم ، وحرمهم ، واهاب بـ « الذراع الدنيوية » (السلطه الزمنيه) أن تزج بهم فى السجون . ولـكن هرطقه أرمينيوس نمت رغم ذلك ، واجترأ الشجعان من الرجال على الاعتقاد بأن الله لم يقدر على الـكثرة من بنى البشر الهلاك فى النار

الأبدية ، ووجدت المذاهب المنشقة — مينونيين ، وكلبين (ممن آووا سبينوزا) ولو سيانيين ، وتقوبين ، وحتى التوحيديين — هؤلاء جميعا وجدوا أن فى إمكانهم العيش فى هولندة بين ثغرات القانون وغفواته . وكان السوسينيون قد التمسوا فى الاقاليم المتحدة ملاذا من الاضطهاد فى هولندة ، ولكن عبادة التوحيديين حرمت بقانون هولندة فى ١٦٥٣ . ونشر دانيال زفيكر بأمستردام فى ١٦٥٨ رساله تشكك فى ألوهيه المسيح ، وأخضعت الكتاب المقدس لـ « عقل البشرية العام » ؛ ومع ذلك استطاع أن يموت فى هدوء وسلام كما يموت الجنرالات . على أن رجلا يدعى كيرباج حكم عليه فى ١٦٦٨ بالسجن عشر سنوات لأنه أفصح عن أفكار كهذه ، ومات فى سجنه . وقد سجن أوريان بيفرلاند لإلماعه الى أن خطيئه آدم وحواء الأصليه كانت الاتصال الجنسى ولم تمت للتفاح بسبب .

وازداد التسامح الدينى قرب ختام القرن السابع عشر . ذلك أن الهولنديين الذين كانوا يتعاملون مع دول كثيرة ذات ثقافات مختلفة ، ويفتحون موانيهم وسوقهم الماليه لتجار يدينون بديانات كثيرة أو لا يدينون بأى دين ، هؤلاء الهولنديون وجدوا من الأنفع لهم أن يمارسوا ضربا من التسامح كان ، رغم ما شابه من نقص ، أرحب بكثير منه فى أى بلد مسيحى . ومع أن الكلفنيين كانوا الغالبين سياسيا ، الا أن الكاثوليك بلغوا من الكثرة مبلغا جعل قمعهم امرا غير ممكن عمليا . أضف الى ذلك أن السيطرة الاجتماعيه والسياسيه التى كانت تتمتع بها الطبقات التجارية والصناعية جعلت الإكليروس — كما قال : سر وليم تمبل — أقل نفوذا بكثير من الاكليروس فى الدول الأخرى . وطالب المهاجرون من أقطار أخرى ، الذين أسهموا بقسط فى الاقتصاد أو الثقافة ، بقدر محدود من الحرية الدينية وظفروا به . وحين استولى كرومويل على السلطه فى انجلترة التمس أنصار الملكية فيها السلامة فى هولندة ؛ ولما رد تشارلز الثانى الى العرش ، التجأ الجمهوريون الانجليز الى الجمهورية الهولندية . ولما اضطهد لويس الرابع عشر الهيجونوت فر بعضهم الى الأقاليم

المتحدة ، ولماخشى لوك وكولنز وبيل الاضطهادفى انجلترة أوفرنسا ، وجدوا الملاذ فى هولنده ؛ ولما حرم مجمع أمستردام البرتغالى (اليهودى) سبينوزا ، رحب به العلماء الهولنديون وقدموا له العون ، ورتب له جان دى ويت معاشا . وأصبحت هولندة الصغيرة « مدرسة أوربا [١٥] » فى التجارة والمال والعلم والفلسفة .

ولولا ما أتيح لهذه الحضارة من حرية دينية ، ومن علم وأدب وفن ، لأصبحت حضارة مادية الى حد محزن . وسنلتقى فى فصل لاحق بهويجنس وغيره عن العلماء الهولنديين . وكان هناك شعراء ومسرحيون ومؤرخون هولنديون ، ولكن لغتهم حددت من شهرتهم . وقد حفلت المدن الهولندية بالكتب والناشرين . وبينما لم يكن فى انجلترة سوى مركزين اثنين للنشر هما لندن واكسفورد ، وفى فرنسا باريس وليون ، كان فى الاقاليم المتحدة مراكز فى أمستردام وروتردام وليدن وأوترخت ولاهاى ، تطبع الكتب باللاتينية واليونانية والالمانية والانجليزية والفرنسية والعبرية كما تطبعها بالهولندية . وكانت أمستردام وحدها تملك أربعمائة دار تطبع الكتب وتنشرها وتبيعها [١٦] .

ونافس الولع بالفن الغرام بالمال والمساومة على الخلاص الأبدى . وخلع ساكنو المدن الهولنديون ، الذين عروا كنائسهم البروتستانتية من الزخرف ، خلعوا على نسائهم وبيوتهم الزينه التى انتزعوها من بيوت الرب . فاسترضوا زوجاتهم بالمخمل والحرير والجواهر ، ونشروا على موائدهم صحاف الذهب والفضه ، وزينوا جدرانهم بالنسيج المرسوم ، ورفوفهم أوصواوينهم بالخزف أو الزجاج المحفور . وفى ديفلت كان الخزافون الهولنديون بعد عام ١٦٥٠ ، الذين استوحوا الخزف الصينى واليابانى ، يصنعون فخارا مزججا . أكثره أزرق على قاعدة بيضاء ، أضفى الجمال المشرق على بيوت كانت من قبل عارية عرى التزمت الصارم . وقل أن وجدت أسرة هولندية لم تملك على الأقل واحدة من تلك الصور

الصغيرة التي جعلت حلم المسكن الهادىء النظيف ، وبهجة الأشجار والأزهار والجداول ، قريبي المنال على جدران البيوت .

٣ - ازدهار صور الحياة اليومية

كان العصر البطولي للتصوير الهولندي قد ولى . فالزبائن الجدد اكثر نفرا ولكنهم أقل مالا ، لذلك طلبوا صورا صغيرة تتيح لهم أن يشهدوا حياتهم اليومية فى خلاصة مقطرة مهذبة ، منقولة بواقعية تبعث لذة التعرف ، أوملموسة بعاطفة رقيقة ولكنها مألوفة ، أو مغريه للنفس باستشراف مشهد محرر من مشاهد الطبيعة . وقد لبى المصورون الهولنديون هذا الطلب فى رهافة خط وضوء ولون حشدت الصنعة الشديدة التدقيق فى حيز صغير . وهؤلاء الفنانون معروفون فى جميع أرجاء أوربا وأمريكا ، لأن التنافس اليائس فيما بينهم حملهم على أن يطلقوا سيلا متدفقا سريعا من الصور الصغيرة بثمن رخيص ، وهى صور لا تخلو اليوم منها جدران متحف . ونحن اذ نترك الشهادة على وفرة هؤلاء الرسامين لهامش سريع (*) ، نراه لزاما أن ننظر نظرة أكثر تريثا الى جان ستين ، المرح رغم حظه العاثر ، والى أعظم مصوري الحياة اليومية جان فرمير ، والى أعظم مصوري الطبيعة الهولنديين ، يعقوب فان رويسدال .

---

* نيقولا بيرشيم : النلمة فى الغابة (درسدن) فرديناند بول : يعقوب أمام فرعون (درسدن) ، جيرارد دو : عجوز فى النافذة (فيينا) . بارينت فابريتوس : يعقوب وبنيامين (شيكاغو) . بارتلميوس فان درهيلست : عمده هولندى ، (نيويورك) بييتردى هوخ : داخل بيت هولندى (لندن) . فيليب دى كونينك : منظر طبيعى (فرانكفورت) . نيقولا مايس : عجوز تغزل (امستردام) . جابرييل ميتسو : سوق الخضر (لندن) . فرانس فان ميريس الأول : صورة ذاتية مع زوجته (لاهاى) . وليم فان ميريس : التعرف على برسورا (درسدن) . ايرت فان درنير : منظر مقمر (برلين) . جيرار تربورش : عشاق الموسيقى (لندن) ادريان فان درفلد : المزرعة (برلين) . وليم فان درفلد الثانى . زويدرزى (برلين) جان فينكس الثانى : منظر صيد (لندن) . أدريان فان درفرف : طرد هاجر (درسدن) . فيليب فوفرمان : وقفة جماعة صيد (دولسفش) .

أما ستين فكان ابن صانع جعة فى ليدن ، واشتغل فى لاهاى ، وديلفت ، وهارلم ، وأصبح آخر المطاف صاحب حانة فى ليدن ، وخلال هذه الفترات استطاع أن يجعل من نفسه أفضل مصور الأشخاص فى الفن الهولندى باستثناء رمبرانت . وحين بلغ الثالثة والعشرين (١٦٤٩) تزوج مارجريت ابنة المصور جان فان جوين ، ولم تملك من المهر غير وجهها وقوامها ، ولكنهما أفاداه بعض الوقت نموذجين ملهمين . وكان ينقد أجرا حقيرا على صوره حتى أن صيدليا حجز (١٦٧٠) على كل الصور التى استطاع أن يجدها فى بيت ستين وباعها بالمزاد وفاء لدين قدره عشرة جولدينات . وصوره الأولى تسجل لذات السكر او عقوباته . وصورته « الحيـــاة المنحلة (١٧) » وهى مثال ممتاز من صوره ، فيها امرأة نعسانة وأخرى نائمة من الشراب ، وطفل ينتهز الفرصة فيسرق من صوان ، وكلب يأكل من المائدة ، وراهبة تنطلق بعد دخولها الحانه فى عظة عن خطيئة شرب الروم ، وكل شىء فى الصورة مكون ومرسوم بنظام الفن وانسجامه رغم أنه يصور الفوضى . وموضوع أجمل من هذا يبعث الحياة فى صورة أخرى له أسيئت تسميتها بـ « معرض الوحوش (١٨) » ، يرى فيها فتـاة صغيرة تطعم حملا باللبن ، ودجاج الحديقة يثب هنا وهناك ، وطاووس يدلى ذيله من شجرة ذابله ، والحمام يحط فى أعلاها ، ويمامة تحلق قادمة من الطريق . هذا كله لحن رعوى يجعل جميع معضلات الفلسفة تبدو تافهة لا معنى لها ، انه الحياة ، وكل جزء له مبرره الكافى الذى يتجاهل المطلقات . وبعد أن تجاوز ستين فترة الحانة رسم مشاهد مشرقة للحضارة الهولندية : باطن بيوت مبهجة ، ودروس موسيقى ، وحفلات موسيقى ، ومهرجانات ، وأسر سعيدة ، والفنان نفسه ، يدخن فى « الصحبة المرحـة (١٩) » ، أو يعزف على العود (٢٠) . فلما فتت فى عضده الأجور البخسة التى نقدها على عمله ، عاد الى بيع الجعة ، وراح يشرب لينسى ، ثم مات فى الثالثة والخمسين مخلفا أربعمائة صورة بائرة .

ونظرة إلى صورة واحدة رسمها جان فرميرا و سمها « رأس فتاة »(٢١) تــكشف عن عالم وفن يــكادان يناقضان عالم ستين وفنه . وهذه اللؤلؤة التي يفوق ثمنها اللالىء بيعت بالمزاد عام ١٨٨٢ بجولدنين ونصف ، ويقدر ناقد قدير في أيامنا هذه أنها « واحدة من اثنتي عشرة صورة هي أروع صور العالم (٢٢) » وواضح أن الفتاة من بيت طيب وأسرة كريمـــة ، عيناها خاليتان من الخوف ، لا يغشاهما حتى دهش الشباب الطبيعي ، فهي سعيدة في هدوء ، متيقظة لموسيقى الحياة ؛ وقد قدمها الفنان لنا بصنعة دقيقة في اللون والخط والضوء تجعل من الفرشاة أداة مدهشة للفهم والتعاطف .

وقد ولد فرمير في ديلفت عام ١٦٣٢ ، وعاش هناك على قدر علمنا طوال حياته ومات فيها (١٦٧٥) بالغاً الثالثة والأربعين ، وكاد يكون معاصراً لسبينوزا تماما (١٦٣٢ — ٧٧) . تزوج في العشرين ،وأنجب ثمانية أطفال ، وكان يتقاضى ثمنا طيبا على صوره ، ولــكنه عكف عليها في عناية مستنفدة للوقت ، وأنفق المال الــكثير عـــلى شراء الصور ، حتى إنه مات مدينا ، واضطرت أرملته إلى التماس المعونة من محــكمة التفاليس . غير أن الأربع والثلاثين صورة التي بقيت من صوره توحي بجو من رفاهية الطبقة الوسطى . وتظهره إحداها(٢٣) في مرسمه لابساً طاقية رقيقة خفيفة ، « وجركينة » متعددة الألوان ، وجوارب طويلة متجعدة ولــكنها حريرية ، وقد انتفخ ردفاه من النعمـــة . ولا ريب في أنه سكن حياً راقياً في ديلفت ، ربما في مشارفها حيث استطاع أن يلقي « نظرة على ديلفت (٢٤) » وفي هذه الصورة الشهيرة نحس بحبه الجم لموطنه . ويبدو أنه راض نفسه على البقاء في بيتـــه بقناعة أكثر مما نلحظه في مصوري زماننا . فحب البيت يتجلى في أكثر التصوير الهولندي ، ولــكن البيت في فن فرمير يصبح معبــدا صغيرا ، والزوجة ممتزة بالخدمات التي تؤديها . وفي لوحتـــه « للمسيح مع مريم ومرثا » (٢٥) تشارك مرثا مريم في الجلوس على المنصة . ولم تعد نساؤه تلك الحزم الثقيلة من اللحم التي نراها أحيانا في الفن الهولندي ، ففيهن شيء

من التهذيب والحساسية . بل لقد تجدهن — كما ترى فى السيدة الجالسة فى صورة « السيدة والخادمة » (٢٦)— غاليات اللباس ، رقيقات القسمات ، مصففات الشعر فى عناية ، أو غنيات بالحرير وآلات الموسيقى ، كما فى صورة « السيدة الجالسة إلى العذراوية »(٢٧) (آلة موسيقية) . إن فرمير يصنع من الحياة العائلية ملحمة ، أو قصيدة غنائية ذات لحظات عائلية بسيطة طبيعية ، لا مشاهد جماعية ذات نشاط مختلط متعدد ، بل — فى أفضل ما رسم من لوحات — امرأة واحدة فقط ، تقرأ رسالة فى هدوء (٢٨) ، أو تكب على خياطتها(٢٩) أو تتحلى بقلادة ، أو تنام على خياطتها(٣٠) ، أو مجرد صبية وابتسامتها (٣١). لقد سجل فرمير بفن كامل شكرانه لامرأة طيبة وبيت سعيد . ولكنه أوشك أن يكون نسياً منسياً فى القرن الثامن عشر ، ونسبت روائعه الصغيرة إلى دى هوخ ، أو تيربورخ ، أو رمبرانت ، ولم يبعث من مثواه إلا فى ١٨٥٨ . واليوم لا يعلو على اسمه غير اسم رمبرانت وهالس فى التصوير الهولندى .

بقى شىء واحد تفتقده فى هؤلاء المصورين للحياة اليومية — هو حياة الطبيعة التى أحاطت بالمدن المتطفلة عليها . فايطاليا ، وبوسان فى ايطاليا ، كانا قد التقطا شيئا من الهواء النقى والحقول الطلقة ، وستكتشفهما انجلترة فى القرن التالى ، اما المصورون الهولنديون فقد تركوا الآن برهة بيوتهم وباطنها النظيف او المرح ، ووضعوا حواملهم ليقتنصوا سحر الغدران المترقرقة ، وطواحين الهواء الساكنة الوادعة ، والمزارع المزهرة ، والأشجار التى تخجل تعجلنا المحموم ، والمراكب الغريبة تتهادى فى الثغور المزدحمة ، والسحب التى تلون السماء بشتى الأشكال . والعالم كله يعرف لوحة «طريق ميدلهارنس » التى رسمها ماينديرت هوبيما — وهى منظر يتلاشى فى فضاء لانهاية له ، ولكن اجمل منها بكثير لوحته « طاحونة الماء ذات السقف الاحمر الكبير (٣٢) » . وقد وجد ألبرت كويب الالهام فى الابقار السمينة تخوض المستنقعات الوافرة الخضرة (٣٣) ، والخيل تقف ظامئة عند خان ، وطلوع

المراكب تختفى فوق البحر (٣٤). وتعجب سليمان فان رويسدال من ارتعاش المياه التى تعكس وتقلب صورة الزوارق والأشجار (القناة والمدية)(٣٥)، وعلم ابن أخيه أن يتفوق عليه .

أما ابن أخيه هذا ، واسمه يعقوب فان رويسدال ، فقد ترعرع فى هارلم ، وترك لنا « منظرا لهارلم (٣٦) » لا يقل وقعا فى نفس الناظر عن لوحة فرمير « ديلفت » ، ويفضلها نقلا لتعقد المدينة الكبيرة بما فيه من اتساع وزحمة . ثم انتقل إلى امستردام واصبح عضوا فى الاخوان المينونيين ، ولعل تصوفهم أعان فقره على إشعاره بالجانب المأساوى للطبيعة التى أحب أن يغنى فيها . وعرف أن تلك الحقول والغابات ، والسماوات التى تمد بالسلام ، تستطيع كذلك أن تدمر ، وأن للطبيعة نزوات من الغضب قد تقلع فيها الرياح المجنونة حتى أعتى الاشجار واصلبها وتمزقها من جذورها ، وأن الشقوق المهلكة قد تتكون فى الارض الطيبة ، وأن البرق قد ينفث ناره القتالة على كل شكل من أشكال الحياة فى لامبالاة عابثة . فصورته « مسقط الماء على الجرف (٣٧) » ليست أنشودة رعوية ، انها هى ثورة البحر الغاضبة على صخور أقسم أن يحطمها ويغرقها أو يبريها ، ولوحة « العاصفة (٣٨) » هى البحر يلطم عدوه اليابس فى غضب ، ولوحة « الشاطىء (٣٩) » لاتصور شاطئا للهو بل ساحلا كدرته أمواج عالية تحت سماء مكفهرة ، ولوحة « الشتاء (٤٠) » لاتعرض مرح التزحلق ، بل كوخا حقيرا يرتجف تحت غيوم منذرة ، وحفره الرائع « اشجار البلوط » يجردها من وقارها الپرى أغصانها شعثاء أو عارية ، وسيقانها وقد أثخنها الزمن القاسى بالجروح وشوه شكلها . ولوحة « جبانة اليهود (٤١) » هى ذاتها صورة للموت — أسوار متهدمة ، وشجرة تموت ، ومياه فيضان تجرى فوق القبور . وليس مرد هذا كله أن رويسدال كان دائما مكتئبا ، ففى لوحة « حقل القمح (٤٢) » نقل باحساس عميق هدوء طريق ريفى ، وبركة المحاصيل الوفيرة ، وفرحة الفضاء المترامى . ويبدو أن الهولنديين أحسوا أن أرضهم ومناخهم قد افترت عليهما صور رويسدال ، فلم ينقدوه عليها الاأجرا بخسا .

وتركوا صاحبها يموت فى ملجأ للفقراء . واليوم يضعه بعضهم فى مكان لايفضله فيه غير بوسان بين مصورى الطبيعه فى جميع العصور (٤٣).

ثروة لا حـــد لها فى حجرة صغيرة — رمبرانت وهالس ، فرمير ورويسدال ، سبينوزا وهويجنس ، ترومب ودرويتر ، جان دى ويت ووليم الثالث ، كلهم فى زمن واحد داخل حـدود ضيقة ، يكدحون غير آمنين خلف الكثبان ، يصونون فنون السلم وسط نذر الحرب . تلك هى هولندة فى القرن السابع عشر . و « ليست العبرة بكبر الحجم » .

٤ ــ جان دى ويت : ٦٢٥ - ٧٢

بعـــد أن ظفرت الأقاليم المتحدة باستقلالها عكفت عقب معاهدة وستفاليا على طلب المال واللهو والحرب . كان أهلها أقل أمم الأرض اكتفاء بأنفسهم ، فحاصيل أرضها لاتقيم أكثر من ثمن سكانها ، وحياة البلاد تعتمد على التجارة الخارجية واستغلال المستعمرات ، وهـذان يعتمدان على بحرية قادرة على حماية السفن والمستوطنات الهولندية . وكان تفوق أسبانيا البحرى قد ولى بهزيمة الأرمادا الأسبانية ، ونشرت البحرية الإنجليزية التى ازدهاها النصر قلوعها فوق أرجاء مترامية من المحيط . ومالبث التوسع التجارى الإنجليزى أن اصطدم بالسفن الهولندية والمستوطنات الهولندية فى الهند وجزر الهند الشرقية ، وأفريقيا ، وحتى فى « امستردام الجديدة » التى ستصبح نيويورك . وأحس بعض الانجليز ، الذين لم تهدأ فيهم بعـد حمية هوكنز ودريك ، أن هؤلاء الهولنديين الجبابرة ينبغى أن يحـــل محلهم بريطانيون جبابرة ، وأن هذا ميسور بنصر أو نصرين بحريين . وقد ذكر إيرل كلارندون فى تقرير له « أن التجار ألفوا الحديث عن الفائدة الكبرى التى يجنونها من حرب سافرة مع الهولنديين ، وعن سهولة قهرهم ، وعن حجم التجارة التى يمكن أن ينقلها الانجليز بعد ذلك » (٤٤) وراقت كرومويل الفكرة .

ففى ١٦٥١ أقر البرلمان الانجليزى قانونا للملاحة يحظر على السفن الاجنبية أن تجلب لأنجلترة أى بضاعة إلا ماينتجه بلدها . وكان الهولنديون يشحنون إلى انجلترة حاصلات مستعمراتهم ، فتوقفت الآن هذه التجارة الرابحة . وأرسلوا بعثة إلى لندن للحصول على بعض التعديل فى القانون ، فلم يكتف الأنجليز برفض الطلب ، بل طالبوا بأن تخفض المراكب الهولندية أعلامها إذا التقت بالمراكب الانجليزية فى «المياه الانجليزية» (أى جميع المياه بين انجلتره وفرنسا والأراضى المنخفضة) اعـــترافاً بسيادة الانجليز على تلك البحار . وعاد المبعوثون الهولنديون بخفى حنين إلى لاهاى . وفى فبراير ١٦٥٢ استولى الانجليز على سبعين سفينة تجارية هولندية وجدوها فى «المياه الانجليزية» . وفى ١٩ مايو التقى أسطول انجليزى بقيادة روبرت بليك بأسطول هولندى بقيادة مارتن ترومب ، ورفض ترمب خفض علمه ، فهاجمه بليك ، وانسحب ترومب . وهكذا بدأت «الحرب الهولندية الأولى» .

وأوشكت انفصالية الأقاليم ، المفروض أنها متحدة ، أن تجر عليها الدمار . ذلك أن الزعامة الحربية الموحدة التى أتاحها لها من قبـــل أمراء أورنج كانت قد انقطعت ، وأصبح المجلس التشريعى للولايات جمعية للمناقشة والجدل بدلا من أن يصبح دولة . أما الانجليز فكانوا يملكون حكومة قوية ممركزة يرأسها رجل شديد البأس هو كرومويل ، وكان لهم بحرية أفضل ، وقد أوتوا جميع الميزات التى حبتهم بها الجغرافيا والرياح الغربية السائدة . فدمروا أساطيل الصيد الهولندية ، واستولوا عـــلى المراكب التجارية الهولندية ، وهزموا أمير البحر الهولندى درويتر تجاه ساحل كنت . وانتصر ترومب على بليك تجاه دنجينيس (٣٠ نوفمبر ١٦٥٢) ، ولـكنه مات فى المعركة فى يوليو التالى . وكانت نتيجة سنة واحـدة من الحرب إثبات تفوق انجلترة بالبرهان الدامغ . وكاد حصار الإنجليز للساحل الهولندى يشل الحياة الاقتصادية فى الأقاليم المتحدة . وأشرف الألوف من سكانها على الهلاك جوعا وهددوا بالتمرد .

فى هذه المرحلة الحاسمة التعسة اضطلع جان دى ويت بزعامة البلاد ، وكان ينتمى إلى أسرة بعيدة العهد بالتفوق فى التجارة والسياسة الهولنديتين . وقد انتخب أبوه يعقوب دى ويت عمــــدة على دوردشت ست مرات . أما جان فقد تلقى كل التعليم الميسور ، وجاب أرجاء فرنسا مع أخيه الأكبر كورنيليس ، وانتقى بكرومويل فى إنجلترة ، ثم استقر فى لاهاى محامياً (١٦٤٧) . وبعد ثلاث سنوات كان أبوه واحــدا من الزعماء الجمهوريين الذين أودعهم السجن وليم الثانى أمير أورنج ، رئيس الدولة ، رغبـــة فى توطيد سلطته السياسية والحربية على جميع الأقاليم . فلما مات وليم الثانى (١٦٥٠) رفض المجلس التشريعى قبول ابنه الذى ولد عقب وفاته خلفاً له ، ربما متأثراً فى ذلك بإقامة انجلترة حكومة جمهورية فيها (١٦٤٩) بصورة بدا أن التوفيق حالفها ، وألغى منصب رئيس الدولة . وأصبحت المسرحيـــة الداخلية للأقاليم المتحدة صراعاً بين الروح التجارية الجمهورية المسالمة التى يمثلها دى ويت ، والروح الأرستقراطية العسكرية التى أزمع أن يحييها بعد قليل الشاب المتحمس وليم الثالث .

وفى ٢١ ديسمبر ١٦٥٠ ، انتخب جان دى ويت — وهو لا يزال فى الخامسة والعشرين — كبيراً لولاة دوردرشت ، وممثلا لها فى المجلس التشريعى للأقاليم المتحدة . وفى فبراير ١٦٥٣ عينه المجلس حاكماً أعلى للجمهورية ، وناط به مهـــمة عسيرة هى مفاوضة إنجلترة المنتصرة على الصلح . وكان كرومويل قاسياً لا يرحم ، فطالب بأن يعترف الهولنديون بالسيادة الانجليزية ويحيوا العلم الانجليزى فى القنال الانجليزى ، وبأن يسلموا بحق القباطنة الانجليز فى تفتيش السفن الهولندية فى البحر ، وبأن يؤدوا رســوماً نظير امتياز الصيد فى المياه الانجليزية ، وبأن يدفعوا تعويضاً عن قتل الهولنديين للانجليز فى أمبوينا عام ١٦٢٣ ، وبأن ينحوا بصفة دائمـــة عن الوظائف أو السلطة جميع أفراد بيت أورنج — الذى قطع على نفسه عهداً بأن يرد أسرة ستيوارت إلى عرش انجلترة لما بينه وبينها من مصاهرة . وحذف

دى ويت هذا البند الأخير من المعاهدة كما قدمت للمجلس التشريعى وكما تصدق عليها منه (٢٢ أبريل ١٦٥٤) ، ثم أقنع المجلس التشريعى لاقاليم واحد — هو اقليم هولندة — بقبول المعاهدة بما فيها هذا البند . ولم يغتفر له وليم الثالث فعلته هذه قط .

ثم وطد دى ويت مركزه بالزواج من ويندبلا بيكر الغنية ، وأصبح عن طريقها صهرا لأمراء التجارة فى أمستردام ، وبتأييدهم شغل اهم المناصب فى هولندة هو وأبوه ، وأخوه ، وبنو عمومته ، وأصدقاؤه ؛ وسرعان ماقبض على زمام الحكم كله فى الاقليم . وقبلت أقاليم أخرى زعامته على مضض ، لأن هولندة التى أغنتها موانيها كانت تدفع سبعة وخمسين فى المائة من نفقات الاتحاد ، وتقدم معظم الاسطول الهولندى ، ولم يكن محبوبا من جماهير الشعب . ولكن حكمه كان مستنيرا وكفؤا . فقد حد من النفقات الباهظة ، وخفض الفائدة على الدين اتمدرالى ، وأجرى خصما شاملا الأسطول ، وبنى سفنا أفضل ، ودرب عاملين جددا فى البحرية . واذ كان يعكس مشاعر التجار ، فانه كافح فى سبيل السلام ولكنه استعد للحرب . وفى ١٦٥٨ ، ثم فى ١٦٦٣ ، أعيد انتخابه حا كما اعلى للاقاليم المتحدة . وقد وقع من نفوس المراقبين باخلاصه لمهام الحكم ، وبساطة مسلكه وتواضعه ، وبنقاء حياته العائلية . ويسرت له ثروة زوجته العيش فى منزل فخم يستطيع أن يستقبل فيه المبعوثين الأجانب فى جومهيب ، ولكن ذلك المنزل كان مركزا للثقافة الهولنديه أكثر منه مركزا للمظهر للترف ، فقد امتزج فيه الشعر بالسياسة ، ونوقش العلم والفلسفة ربما بحرية لايطيقها تاخبودى ويت الكلفنيون . وحتى سبينوزا ، ذلك المهرطق المرهوب ، وجد صديقا وفيا وحاميا له فى الحا كم الأعلى .

لقد كانت مأساته دائما أنه أحب السلام أكثر من الحرب ، بينما كان جيران الجمهورية الغنية يكتلون قوام للقضاء عليها . وفى ١٦٦٠ رد تشارلز

الثانى الى عرش انجلترة ، فأوصى جان دى ويت مشددا بأن يرضى عن ابن أخته وليم أورنج الثالث ، وبعد قليل طالب بالغاء « قانون الإبعاد » الذى أقصى بمقتضاه وليم عن المناصب ، ووافق دى ويت وهكذا مهد للملك الاستيوارتى لسقوط أسرة ستيوارت على غير قصد منه . وفى اكتوبر ١٦٦٤ ، استولت حملة انجليزية على مستعمرة نيو أمستردام الهولندية ، وأطلقت عليها اسما آخر هو نيويورك تكريما لدوق يورك (جيمس الثانى مستقبلا) وكان يومها قائد البحرية الانجليزية . واحتج المجلس التشريعى للأقاليم المتحدة ، ولم تعبأ إنجلترة بالاحتجاج ، وفى مارس ١٦٦٥ بدأت الحرب الهولندية الثانية .

وقد برر الموقف ما سبق أن اتخذه دى ويت من استعدادات . ذلك أن ضعف القيادة قد انتقل من المجلس التشريعى إلى حكومة تشارلز الثانى الغافلة العاجزة ، وبينما كان الملك المرح يراقص خليلته ، ظفر دى ويت بالثناء حتى من أعدائه على الهمة والإخلاص اللذين بذلهما لكل نواحى التنظيم الحربى وتفاصيله . فقد أبحر غير مرة مع الاسطول ، وعرض نفسه لكل مخاطر المعركة ، وألهم الملاحين بشجاعته وغيرته . ولم تكن البحرية الهولندية إلى ذلك الحين كفؤا للبحرية الانجليزية فى السفن أو الرجال أو النظام ، فأوقعت البحرية الانجليزية بقيادة دوق يورك هزيمة حاسمة بالبحرية الهولندية فى أول لقاء كبير فى الحرب (لوفستوفت ، ١٣ يونيو ١٦٦٥) . على أن المواطنين الهولنديين الصابرين أعادوا بناء أسطولهم وولوا عليه رجلا من أقدر وأجرأ أمراء البحر الذين عرفهم التاريخ . وفى يونيو ١٦٦٧ قاد هذا الرجل ، وهو ميشيل أدريانسزون درويتر ، ستا وستين سفينة إلى نهر التيمز ، واستولى على قلعه شيرنيس (على نحو أربعين ميلا شرقى لندن) ، وحطم الحواجز التى تعترض الدخول فى نهر ميدواى (الذى يصب فى التيمز عند شيرنس) وأخذ ، أو أحرق ، أو أغرق ست عشرة سفينه حربيه كانت راسيه هناك دون تأهب لمثل هذا الزائر الوقح (١٢ يونيو ١٦٦٧) . وإذ

لم يكن بتشارلز الثانى ولع بالحرب ، فقد أمر دبلوماسييه أن يعرضوا على الهولنديين صلحاً مقبولا . وفى ٢١ يوليو ١٦٦٧ وقعت الدولتان معاهدة بريدا ، وبمقتضاها نزل الهولنديون لانجلترة عن نيويورك التى خالوها غيرهامه ، ووافقوا على أن يحيوا العلم الانجليزى فى المياه الانجليزية ، ونزلت انجلترة للهولنديين عن مستعمرة سورينام (جيانا الهولندية فى أمريكا الجنوبية) وعدلت قانون الملاحة لصالح التجارة الهولندية . وكانت المعاهدة نصراً معتدلا لدى ويت وبلغت به قمة نجاحه .

غير أنه ارتكب الآن سلسلة من الأخطاء القاتلة ، فقد زاد من تنفير مؤيدى وليم الثالث بأن أجاز فى المجلس الإقليمى لهولندة (٥ أغسطس ١٦٦٧) « مرسوماً دائماً » يمنع أى حاكم لأى أقليم من تولى قيادة الجيش أو البحرية العليا للاتحاد . فاستقال على إثر ذلك أتباع الأمير الشاب من الجيش وتركوه خلوا من القواد المحنكين . ولسوء الحظ وقع هذا الحدث ، الناجم عن المنافسة بين أسرتين ، بينما كانت فرنسا تغزو الأراضى المنخفضة الأسبانية ، فهددت بذلك المصالح الحيوية للأقاليم المتحدة . فلو أن فرنسا هيمنت على الأقاليم الجنوبية لأسرعت بفتح الشلت للتجارة الأجنبية من جديد ، فإذا انتعشت بذلك أنتورب تحدت السيادة التجارية لأمستردام ، وأصبح اقتصاد الأقاليم الشمالية كله فى خطر . ثم كم من الزمن سيقف لويس الرابع عشر عند الحدود الهولندية لا يتجاوزها ؟ لو أن رأيه استقر على أن يلتهم الأقاليم المتحدة ، ويستولى على مصاب الراين ، لما بقى للبلد فى الواقع وجود ، ولقضى على البروتستنتية الهولندية قضاء مبرماً .

وعرض دى ويت على الملك المعتدى سلسلة من الحلول الوسط ، ولكنه رفضها . فاتفق مع أنجلترة (٢٣ يناير ١٦٦٨) ، ثم مع السويد ، على حلف ثلاثى للدفاع المشترك ضد التوسع الفرنسى . ووافق لويس فى لباقة على إنهاء « حرب الأيلولة » (الوراثة الأسبانية) شريطة أن يستبقى نطاقاً من المدن

والحصون التى استولى عليها فى فلاندر وإينو . وارتضت هذه الشروط أنجلترة والسويد ، ثم الأقاليم المتحدة ، فى معاهدة إكس — لا — شابل (٢ مايو ١٦٦٨) . وبدا أن دبلوماسية دى ويت جنبت البلاد الخطر ، وفى يوليو انتخب للمرة الرابعة ليشغل منصب الحاكم الأعلى للجمهورية فترة خمس سنوات أخرى .

ولكنه أخطأ استقراء سياسات ملكى فرنسا وأنجلترة . ذلك أن لويس لم يغتفر للهولنديين قط تدخلهم فى غزوه للأراضى المنخفضة الأسبانية . فأقسم أنه « إن ضايقته هولنده كما ضايقت الأسبان فسيرسل رجاله بالمجارف والمعاول ليقذفوا بها فى البحر[٤٥] » ، ربما بفتح الجسور البحرية عليها . كانت تغيظه الجمهورية ، وكان يطمع فى الراين ، فعقد النية على تدمير تلك ، والسيطرة على هذا . وزادت الصراع شدة حرب التعريفات الجمركية التى نشبت بين الخصمين ، فقد فرض كولبير رسوما مانعة على البضائع الهولندية التى تدخل فرنسا ، ورد الهولنديون عليها بمثلها . ولكن الذخيرة الحربية استثنيت استثناء بارعاً من هذه القيود ، ذلك أن لوفوا ، وزير الحربية الفرنسى ، أقنع رجال الصناعة الهولنديين بأن يبيعوه مقادير هائلة من العتاد الحربى[٤٦] ، وفى الوقت نفسه امتنع رجال الأعمال الهولنديون عن الموافقة على الضرائب التى أراد دى ويت فرضها لتزويد الجيش بالأمداد والمؤن . وأثبت السلك الدبلوماسى الفرنسى حذقه ، أو ثراءه ، بعزله إنجلترة والسويد عن تحالفهما مع الأقاليم المتحدة . فوافق تشارلز الثانى فى معاهدة دوفر السرية (١ يونيو ١٦٧٠) على التخلى عن الحلف الثلاثى والانضمام إلى لويس فى حربه مع الهولنديين . أما السويد فقد انسحبت من الحلف فى ١٦٧٢ لحاجتها للمعونة الفرنسية ضد الدنمرك وألمانيا ، ووعدت أسبانيا ، والأمبراطورية ، وبراندنبورج ، الجمهورية بالمساعدة ، ولكن ما كان تحت تصرفها من قوات كان أضأل أو أبعد من أن يكون له كبير وزن أمام

القوات المجندة الضخمة التي أطلقت الآن على الأقاليم المتحدة براً وبحراً . وعاد دي ويت يعرض التنازلات والحلول الوسط ، فرفضها لويس

وفي ٢٣ مارس ١٦٧٢ بدأت إنجلترة الهجوم على الجمهورية الهولندية ، وفي ٦ أبريل أعلنت فرنسا عليها الحرب . وسرعان مازحف نحو ١٣٠٫٠٠٠ مقاتل على الدولة الصغيرة يقودهم تورين ، وكونديه ، ولكسمبور ،وفوبان ، ولويس نفسه . يقول فولتير « لم يشهد الناس من قبل جيشاً فخماً كهذا الجيش(٧) » ، واخترقت القوة الفرنسية الرئيسية ، باستراتيجية بارعة وغير متوقعة ، الأراضي الألمانية — مهدئة ثائرة القرى بـ « الهدايا » — لتهاجم النقط الأضعف تحصيناً . وفي ١٢ يونيو ، وتحت نيران الهولنديين وبصر الملك ، عبر الفرنسيون الراين ، وهم يسبحون عرض الأقدام الستين التي لم يسمح لهم عمقها أن يخوضوها ، وأصبح هذا حدثاً محبباً تتناوله الصور والأيقونات الملكية . وزحفت الجيوش الملكية شمالا إلى قلب الأقاليم المتحدة ، فاستولت بسهولة على المدينة تلو المدينة . واستسلمت أوترخت دون مقاومة . وأذعن أقليما أوفريسيل وجلدرلاند ، ولم يبق بعد قليل غير أمستردام ولاهاي . ولم تجد كثيراً تلك الهزيمة التي أوقعها درويتر في ٦ يونيو بالأسطولين الإنجليزي والفرنسي مجتمعين في خليج ساوثوولد . وطلب دي ويت الصلح ، فطالب لويس بتعويض ضخم ،وبسيطرة الفرنسيين على جميع الطرق الهولندية البرية والبحرية ، وبرد الكاثوليك إلى جميع أرجاء الجمهورية . ورفض الهولنديون هذه الشروط لأنها لا تفضل العبودية ، فلجأوا إلى دفاعهم الأخير : وفتحوا الجسور ، وأدخلوا البحر عدوهم القديم صديقاً منقذاً ، وما لبثت المياه أن تدفقت على اليابس ، وتقهقر الفرنسيون عاجزين أمام هذا الفيضان الذي أخذهم على غرة .

ومع هذا فقد خربت البلاد ، فكانت جيوش أسقف مونستر وناخب كولونيا ، المتحالفين مع لويس ، تزحف دون عائق على إقليم أوفريسيل ،

والسفن الفرنسية والإنجليزية تغير على التجارة الهولندية رغم أنف درويتر ، وأشرفت الحياة الاقتصادية للدولة المحاصرة على الانهيار . أما دى ويت فقد كافح خلال هذه الشهور القاسية كما لم يكافح أى رجل قبله فى تاريخ هولنده — فجمع الأموال ، وجهز الأسطول وزوده ، ووقف إلى جوار درويتر فى معركة خليج ساوثوولد ، وحاول بالبعثة تلو البعثة أن يفاوض على صلح ينقذ وطنه . وفى يونيو ١٦٧٢ عرض على لويس أن ينزل له عن ماسترشت واجزاء من برابانت الهولندية ، وأن يدفع كل نفقات الحرب . ولكن لويس ازدرى هذا العرض أيضاً ، ولما سمع مواطنوه بأمر العرض نددوا به رجلا يبيت إستسلام الخيانة للويس(٤٨) . وألقى عليه الشعب الآن كل تبعة ما أصابهم من نكبات . واتهموه بالثقة الساذجه المستهترة فى وعود تشارلز الثانى ولويس الرابع عشر ، ورموه بتعيين أقاربه فى أكثر من عشر وظائف مجزية ، وفوق هذا كله لم يستطيعوا أن يغتفروا له حرمان بيت اورنج من امتيازاته الحربية والسياسية التى حفظت على الأقاليم الهولندية حريتها طوال قرن من الزمان . ثم لاموه على عجز قواده البورجوازيين وجبنهم . ورماه القساوسة الكلفنيون بانه ملحد مقنع ، وتابع لديكارت وصديق لسبينوزا (٤٩) . وحتى طبقات التجار التى كانت من قبل سنده الأكبر انقلبت عليه الآن واتهمته بانه منظم الهزيمة .

وشاركه أخوه كورنيليس فى تلقى بغض الجماهير وشتائمها ، وهو الذى قاسمه من قبل مكافآت المنصب وأعباء الحرب ومخاطرها . وفى ٢١ يونيو ١٦٧٢ بذلت محاولة فاشلة لاغتيال جان ، وبعد يومين تلتها محاولة أخرى لقتل كورنيليس . وفى ٢٤ يوليو قبض موظفو لاهاى على كورنيليس بتهمة التامر على أمير اورنج وفى ٤ أغسطس استقال جان من منصبه حاكما أعلى . وفى ١٩ أوغسطس عذب كورنيليس وحكم عليه بالنفى . وشق جان طريقه خلال المدينة المعادية الى سجن الجيفانجينبورن ليرى أخاه رغم أنه حذر بانه يعرض حياته للخطر . ومالبث جمع من

الغوغاء أن احتشد خارج السجن يحرضه رئيس شرطة وصائغ وحلاق . وكان هناك حارس مدنى كلف برد الغوغاء ولكنه شاركهم حقدهم على الأخوين دى ويت ، فلم يبد أى مقاومة حين حطموا أبواب السجن واندفعوا الى داخله . وقبضوا على جان وكورنيليس ، وجروهما الى الميدان ، وضربوهما حتى الموت ، وعلقوا جثتيهما على عمود نور ورأساهما منكسان (٢٠ أغسطس ١٦٧٢) . وماتت الجمهورية الهولندية بموتهما ، وعاد بيت أورنج الى السلطة من جديد .

٥ - وليم أورنج الثالث

نشأت مارى ستيوارت ولدها على لون مكتئب من ضبط النفس يترقب فى صمت فرصته حتى يأتى التجلد بالنصر ، وذلك بعد أن حطم روحها إعدام أبيها تشارلز الأول (١٦٤٩) ، وموت زوجها الشاب وليم أورنج الثانى (١٦٥٠) ، وإلغاء منصب رئاسة الدولة ، واقصاء بيت أورنج عن الوظائف . هذا الصبى الهزيل الجسد ، الذى أحدق به فى نموه الأعداء المكلفون بحراسته ، والذى ورث رغم ذلك عن وليم أورنج الأول شعاره «سأقاوم» — نقول انه شب فتى عليلا يخفى وراء وجهه الجامد نارا مستعرة من العزيمة والثأر . واذ كان صارما ، مؤدبا ، مجاملا فى برود ، فقد زهد فى اللهو والمرح ، ومارس الرياضات الخلوية علاجا لصداعه المتكرر ولتعرضه لنوبات الاغماء . لقد كان إناء ضعيفا لتلك الروح التى ستستولى على عرش انجلترة وتؤدب ملك فرنسا .

وذهبت أمه الى انجلترا فى ١٦٦٠ ابتهاجا بتتويج أخيها ، وماتت هناك بالجدرى فى ليلة عيد الميلاد . وفى ١٦٦٦ أعلنت حكومة اقليم هولنده الأمير ذا الستة عشر عاما قاصرا تحت وصاية الدولة ، واستبدل جان دى ويت بأوصيائه ومعلميه المحبوبين اشخاصا اكثر استجابة لسياسة المجلس

الاقليمى(٥٠). وكان كره وليم لدى ويت يزداد على الايام . وفى قمة سلطان جان ، أفلت الأمير من رقابة أوصيائه الجدد وركب جواده من لاهاى الى بيرجن أوب - زوم (١٦٦٨) ، ثم استقل زورقا الى زيلنده ، وكانت أكثر الأقاليم ولاء لأجداده وحياه سكان عاصمته مدلبورج بمظاهرات كبيرة تفيض حبا واخلاصا . فتولى دون تردد أو مقاومة رئاسة لمجلس الاقليمى لزيلندة. فلما عاد الى لاهاى أعلن انه بلغ الآن رشده فى عيد ميلاده الثامن عشر (٤ نوفمبر ١٦٦٨) ، وأنه منذ الآن سيستغنى عن الأوصياء الذين عينهم له مجلس هولنده . ولكن المجلس رفض سحبهم ، فطردهم ، ولكنهم بقوا . وترقب وليم فرصته.

وقد واتته حين اكتسحت الجيوش الفرنسية والألمانية الأقاليم الهولندية ، واستسلمت الجيوش الهولندية بلدا بعد بلد ، وبدا أن لاهاى ذاتها عاجزة عن الدفاع عن نفسها ، وعين المجلس التشريعى وليم قائدا عاما للاتحاد (٢٥ فبراير ١٦٧٢) ، مذعنا لمطالب العسكريين ، ومؤملا أن تعود الى الأمة وحدتها ومعنويتها برد بيت أورنج الى مكان القيادة وفى ٢ يوليو انتخب مجلس زيلندة وليم حاكما لاقليمهم ، ضاربا بالمرسوم الدائم عرض الحائط ، وفى ٤ يوليو حذا مجلس هولنده حذوه ، وفى ٨ يوليو عين قائدا أعلى لقوات الاتحاد المسلحة فى البر والبحر . وقد ظهر معدنه حين عرض ملك فرنسا الصلح نظير تعويض بلغ ستة عشر مليون فلورين ، والنزول عن مساحات كبيرة لفرنسا ، ومونستر ، وكولونيا ، وقدم عرض سرى بالاعتراف بوليم ملكا على الباقى . واتجه اليه مجلس هولنده يطلب النصيحة فأجاب ، « خير لنا أن نقطع إربا من أن نقبل هذه الشروط (٥١) . » وحين حضر دوق بكنجهام الثانى من انجلترة ليحث وليم على الصلح وقال له « الا ترى أن وطنك قد ضاع ؟ » أجاب « ان وطنى فى خطر عظيم ، ولكن هناك سبيل مؤكد لمنعه من الضياع ، وهو الموت فى آخر خندق(٥٢) » . ومع ذلك فنى فى حكمة تستغرب من فتى فى الثانية والعشرين ، اشار بالمفاوضات الصابرة المجاملة مع الانجليز ، ولعله رأى آنئذ أن فى التعاون

بين الانجليز والهولنديين الأمل الوحيد لكبح اعتداءات فرنسا . واتخذ من التدابير ما يكفل توثيق الروابط بين الأقاليم المتحدة ، والامبراطورية ، وبراندنبورج . وكانت الخطوط العريضة لحلف الأعظم تتشكل فى ذهنه .

ومضى الى المقر الرئيسى للجيش ، لذلك كان غائبا عن لاهاى حين قتل الأخوان دى ويت . والظاهر أنه لم يكن ضالعا فى تدبير هذه الفعلة ، التى ربما لم يدبرها أحد ، ولكنه لم يخف ارتياحه حين سمع بنبئها ؛ وحمى الرجال الذين قادوا الغوغاء ورتب لهم معاشا (٥٣) . ثم حاول الآن أن يكون قائدا كفؤا ، فلم يوفق قط فى محاولته ، غيرأن المقاتلين المحنكين الذين انضووا تحت لوائه فى حماسة أعادوا تنظيم الجيش والبحرية ، وبدأت الانتصارات ترجح الهزائم ، وتفوق درويتر وكورنيليس ترومب (بن مارتن) على الأسطولين الانجليزى والفرنسى فى شونفيلت وكيكدوين (١٦٧٣) ، وصد الغزاة الألمان عند جروننجن ، واستولى وليم على . ناردن ، وطهرت أقاليم جلدرلاند وأوترخت ، واوفريسل ، من العدو . وراح الفرنسيون يتقهقرون فى كل مكان تقريبا ، وأنقذت الأقاليم المتحدة ، مؤقتا على الأقل ، فهللت لوليم منقذا لها .

ثم أضاف الى هذه الانتصارات انتصارات دبلوماسية . ففى ١٩ فبراير ١٦٧٤ أقنع انجلترة بأن تبرم معه صلحا منفردا إذ وافق على أن يدفع لها تعويضات حربية قدرها مليونا فلورين ؛ وفى ٢٢ أبريل و ١١ مايو وقع معاهدتين مع مونستر وكولونيا ، ثم اكد التحالف القائم بين الأقاليم المتحدة ، وأسبانيا ، وبراندنبورج ، الدنمرك ، والامبراطورية ، ضد فرنسا التى أصبحت الآن معزولة . وكانت الضربة الأخيرة ظفره بيد مارى ، كبرى بنات جيمس دوق يورك وشقيق ملك انجلترة . وتقاربت الآن الدولتان البروتستنتيتان الكبريان ، وراحت الشبكة تحكم خيوطها حول فرنسا ، ولم يكن أمرا هينا أن يكون لمارى حق فى وراثة العرش الانجليزى لايتقدم عليه غير حق أبيها فيه . وندر فى التاريخ أن دبر حاكم صغير السن كوليم مثل هذه الخطط البعيدة النظر ، ولا حقق لها نجاحا كهذا النجاح .

على أن الفرنسيين جددوا هجومهم خلال ذلك ، فاستولوا على إيبروغنت ، وزحفوا نحو الحدود الهولندية . وهزم أسطول فرنسي درويتر تجاه شاطئ صقلية (٢٢ أبريل ١٦٧٦) ، وبعد أسبوع مات درويتر متأثراً بجراحه . وعرض لويس الصلح على الأقاليم المتحدة بشروط مغرية : أن يرد كل الأراضي الهولندية التي استولى عليها الفرنسيون ، شريطة أن توافق الأقاليم المتحدة على احتفاظه بفرانش - كونتيه واللورين . واحتج الامبراطور ، وبراندنبورج ، والدنمرك على هذا الصلح ، وأيدهم وليم ، ولكن المجلس التشريعي الذي غلبت عليه المصالح التجارية تغلب على رأيه ، وتخلى عن حلفائه ، ووقع مع فرنسا صلح نيميجن المنفصل (١٠ أغسطس ١٦٦٧) .

أما وليم فقد نظر إلى الصلح على أنه مجرد هدنة ، وكافح طوال السنوات العشر التالية ليعيد بناء الحلف وكبح انتجار الهولنديون طمعه العسكري ، محتجين بأن الأقاليم المنهكة في حاجة لأن تستريح من النضال ، وأن الرخاء في طريقه إليها . على أن حدثين وقعا عام ١٦٨٥ فاستغلهما وليم ذلك أن لويس ألغى مرسوم نانت ، فاحتشد الهيجونوت المضطهدون في الأقاليم المتحدة ، وتزعموا دعوة نشيطة لتوحيد الدول البروتستينية ضد فرنسا . وفي انجلترة كشف جيمس الثاني ، بعد أن تولى عرشها ، عن أمله في رد الأمة إلى الكثلكة ، فدبر البروتستنت الإنجليز عزله ، وبذلك يحل حق ماري زوجة وليم في العرش . وكان وليم قد عشق اليزابيث فيلييه ، صديقة ماري[٥٤] الحميمة ، ولكن ماري غفرت له ، ووافقت على طاعة زوجها بوصفه ملكاً أن هي أصبحت ملكة على انجلترة وفي ١٦٨٦ أفلح وليم في تنظيم حلف مع الامبراطورية ، وبراندنبورج ، وأسبانيا ، والسويد ، للدفاع المشترك . وفي ٣٠ يونيو ١٦٨٨ دعا الزعماء البروتستنت الانجليز وليم وماري إلى دخول انجلترة بقوات مسلحة ومساعدتهم على خلع ملكهم الكاثوليكي . وتردد وليم ، لأن لويس الرابع عشر كان تحت يده جيش عرمرم ينتظر قرار الملك ليهاجم الأراضي المنخفضة أو الامبراطورية . وأرسل لويس الأمر للجيش بأن يزحف على ألمانيا ، فأطلق بذلك يد وليم . وفي ١ نوفمبر ١٦٨٨ أبحر بأربعة عشر ألف رجل ليكسب عرش انجلترة .

فهرس

الجزء الأول

من المجلد الثامن

الكتاب الأول

فرنسا فى أوج عظمتها ١٦٤٣ — ١٧١٧

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

المراجع

م

CHAPTER I

1. Motteville, Mme. de, *Memoirs*, I, 79.
2. Retz, Cardinal de, *Memoirs*, 103.
3. Motteville, I, 81.
4. Retz, 103.
5. Motteville, III, 232.
6. *History Today*, July 1959, p. 461.
7. Bishop, M., *Life and Adventures of La Rochefoucauld*, 149.
8. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 36.
9. Retz, 281.
10. Sainte-Beuve, *Portraits of the Seventeenth Century*, I, 335.
11. Retz, 55, 73.
12. Voltaire, *Louis XIV*, 67.
13. Michelet, *Histoire de France*, IV, 388; Acton, *Lectures on Modern History*, 235.
14. Motteville, III, 237.
15. Palmer, *Molière*, 15.
16. Saint-Simon, *Memoirs*, II, 361.
17. Sainte-Beuve, I, 422.
18. *Ibid.*, 417.
19. *History Today*, March 1954, p. 149.
20. Voltaire, 256.
21. *Ibid.*, 69.
22. Rea, Lilian, *Countess of Le Fayette*, 170.
23. Ferval, *Louise de La Vallière*, 55.
24. Saint-Simon, II, 369.
25. Sainte-Beuve, I, 413.
26. Saint-Simon, II, 361.
27. Sainte-Beuve, I, 423.
28. Louiv XIV, *Mémoires*, 35.
29. In Sainte-Beuve, I, 417.
30. Boulenger, *Seventeenth Century*, 178.
31. Motteville, III, 248.
32. Lewis, W. H., *Splendid Century*, 30.
33. Voltaire, 257.
34. Barine, *La Grande Mademoiselle*, 117.
35. Louis XIV, 76.
36. Martin, H., *Age of Louis XIV*, I, 63-65; Michelet, IV, 424-27.
37. Guizot, *History of Civilization*, I, 260.
38. Smith, Preserved, *History of Modern Culture*, I, 533.
39. Louis XIV, 96.
40. King, J. E., *Science and Rationalism in the Government of Louis XIV*, 87.
41. Saint-Simon, II, 34.
42. Louis XIV, 68.
43. King, 95.
44. Saint-Simon, II, 106, 370.
45. Guérard, *Life and Death of an Ideal*, 153.
46. Louis XIV, 70.
47. France, Anatole, *Nicolas Fouquet*, 258.
48. Voltaire, 262.
49. Martin, H., I, 23, quoting de Choisi.
50. Louis XIV, 74.
51. Martin, I, 22.
52. Sée, Henri, *Economic and Social Conditions in France during the 18th Century*, 93.
53. Martin, I, 34.
54. *Ibid.*, 33f.; Michelet, IV, 410.
55. Boulenger, 356.
56. Mousnier, R., *Histoire générale des civilisations*, IV, 148.
57. Voltaire, 324; Martin, I, 79.
58. Michelet, IV, 428.
59. Mousnier, IV, 148.
60. Voltaire, 273; Martin, I, 86.
61. Boulenger, 357; Lewis, *Splendid Century*, 81.
62. *History Today*, March 1954, p. 155.
63. Mousnier, IV, 252.
64. Nussbaum, *Economic Institutions of Modern Europe*, 154.
65. Mousnier, IV, 250; *Cambridge Modern History*, V, 11.
66. Boulenger, 355.
67. Levasseur, *Histoire des classes ouvrières et de l'industrie en France avant 1789*, I, 394.
68. Beard, Miriam, *History of the Business Man*, 366.
69. In Acton, *Lectures*, 326.
70. Martin, I, 489-90, 496.
71. Voltaire, 323.
72. Martin, I, 558.
73. Barine, 13.
74. Saint-Simon, I, 383; Voltaire, 288.
75. *Encyclopaedia Britannica*, XIII, 778c; Brereton, *Jean Racine*, 245-52.
76. Molière, *Théâtre: École des femmes*, I, i.
77. Sainte-Beuve, I, 250; Day, Lillian, *Ninon*, 34.
78. Sévigné, Mme. de, *Letters*, I, 98, April 1, 1671.
79. Day, *Ninon*, 141.
80. Parton, *Life of Voltaire*, I, 33.
81. Saint-Simon, I, 344.
82. Sévigné, I, 105, April 8, 1671; Day, *Ninon*, 242.
83. *Ibid.*, 80.
84. Saint-Simon, I, 344.
85. Day, 246.
86. *Ibid.*, 185.
87. Saint-Simon, I, 345.
88. Day, 260.
89. Sainte-Beuve, II, 199.

90. Boissier, *Mme. de Sévigné*, 109.
91. Michelet, V, 118.
92. Bourgeois, *Le Grand Siècle*, 74.
93. Boulenger, 349.
94. Bourgeois, 77; Guizot, *History of France*, IV, 587.
95. La Bruyère, *Characters*, chap. "Of the Gifts of Fortune."
96. Voltaire, 278.
97. Saint-Simon, II, 11.
98. Fulop-Miller, *Power and Secret of the Jesuits*, 415.
99. Martin, I, 172.
100. *Ibid.*, 171.
101. Stirling-Maxwell, *Annals of the Artists of Spain*, III, 942.
102. Day, *Ninon*, 163.
103. Cartwright, *Madame; A Life of Henrietta, Duchess of Orléans*, 89.
104. Racine, *Oeuvres: Andromaque*, Dedication.
105. Michelet, IV, 405.
106. *Ibid.*, V, 158.
107. Cartwright, 371; Voltaire, 284; Martin, I, 312.
108. Ferval, *La Vallière*, 67.
109. *Ibid.*, 302.
110. Voltaire, 282.
111. Michelet, IV, 437.
112. Saint-Simon, I, 391.
113. Boulenger, 192.
114. Cruttwell, *Mme. de Maintenon*, 29.
115. *Ibid.*, 46.
116. *Ibid.*, 53.
117. Michelet, V, 69; Martin, I, 535.
118. Saint-Amand, *Court of Louis XIV*, 46.
119. Cruttwell, 89, Martin, I, 530.
120. Boulenger, 195, Michelet, IV, 490; Cruttwell, 118-19.
121. Saint-Simon, II, 381.
122. *Ibid.*, III, 15.
123. Acton, 236; Ogg, *Europe in the 17th Century*, 231.
124. Louis XIV, 122-25.
125. Martin, I, 417.
126. Voltaire, 260, Martin, I, 400.; *Enc. Brit.*, XII, 682c; Acton, 243.
127. *Camb. Mod. History*, V, 77.
128. Lewis, *Splendid Century*, 239.

CHAPTER II

1. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 393; Guerard, 186-90.
2. Mesnard, *Pascal*, 99.
3. Campbell, *The Jesuits*, 259; Fülop-Miller, 195.
4. Voltaire, 430.
5. Saint Simon, II, 84.
6. *Ibid.*, III, 37.
7. Louis XIV, 119.
8. Ranke, *History of the Popes*, II, 420.
9. Fülop-Miller, 105.
10. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 74f
11. *Ibid.*, 83; Beard, Charles, *Port Royal*, II, 30.
12. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 89.
13. Beard, Charles, I, 30.
14. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 90.,
15. *Ibid.*, II, 407n.
16. Beard, C., I, 52.
17. Sainte-Beauve, *Port-Royal*, I, 94.
18. Pascal, *Provincial Letters*, Introd., 97, and 421n.
19. Voltaire, 419; Beard, C., I, 260.
20. Pascal, *Letters*, Introd., 109.
21. Mesnard, *Pascal*, 12.
22. Mornet, Daniel, *Short History of French Literature*, 75.
23. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, II, 379; Mesnard, 40.
24. Owen, John, *Skeptics of the French Renaissance*, 748.
25. Pascal, *Pensées*, Havet ed. Introd., p. *civ.*
26. Mesnard, 57.
27. *Ibid.*, 209.
28. Pascal, *Pensées*, Introd., p. *cxxiii.*
29. Pascal, *Provincial Letters*, 197.
30. *Ibid.*, 417.
31. *Ibid.*, 465; *Pensées*, II, 118.
32. McCabe, *Candid History of the Jesuits*, 235.
33. Mesnard, 92.
34. Voltaire, 424.
35. In Pascal, *Provincial Letters*, 127n.
36. Fülop-Miller, 195.
37. Voltaire, 424, 358.
38. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 118.
39. Voltaire, 359.
40. Sainte-Beuve, III, 173f.; Beard, C., I, 84.
41. Pascal, *Pensées*, Introd., *xxviii;* Mesnard, 137-38.
42. *Cf.* Rabelais, Book III, Ch. xiii.
43. *Pensées*, Introd., p. *xxv*; text, 17*bis*.
44. *Ibid.*, text, i, 1.
45. Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, 174.
46. *Pensées*, Everyman's Library, No. 82.
47. *Pensées*, Havet ed., Book III, No. 18.
48. Everyman ed., No. 4.
49. Havet ed., XVI, p. 1*bis*.
50. *Ibid.*, XX, p. 19.
51. *Ibid.*, I, p. 1.
52. Everyman ed., No. 349.
53. *Ibid.*, No. 418.
54. Havet ed., VIII, p. 1.
55. *Ibid.*, II, p. 8.
56. *Ibid.*, VI, p. 51; Everyman ed., No. 451.
57. Havet, IV, p. 1.
58. *Ibid.*, II, pp. 6, *cit.*, 3.
59. Everyman, No. 402.

60. *Ibid.*, No. 397; Havet, I, p. 3.
61. Havet, I, p. 6; Everyman, No. 347.
62. Everyman, No. 277.
63. Havet, XXIV, p. 52.
64. *Ibid.*, X, p. 1; Everyman, No. 233.
65. Everyman, No. 233.
66. Havet, II, p. 8.
67. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, II, 508.
68. Havet, IV, 7.
69. *Ibid.*, XIV, 2.
70. Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 124.
71. Owen, 800.
72. *Ibid.*, 775.
73. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, III, 320.
74. Beard, C., II, 75.
75. *Provincial Letters*, 59.
76. *Pensées*, Havet, Introd., *cxii.*
77. Beard, C., II, 352.
78. Disraeli, Isaac, *Curiosities of Literature*, I, 97.
79. Saint-Simon, II, 12.
80. Boulenger, 284.
81. Michelet, V, 298.
82. In Martin, H., I, 231.
83. Lewis, *Splendid Century*, 108.
84. Sanders, *Bossuet*. 53.
85. *Camb. Mod. History*, V, 22.
86. Martin, I, 529.
87. *Ibid.*
88. *Ibid.*, 532.
89. Michelet, IV, 520.
90. Guizot, *History of France*, V, 23.
91. *Camb. Mod. History*, V, 23.
92. *Ibid.*
93. Boulenger, 263.
94. Martin, I, 552.
95. Ogg, *Seventeenth Century*, 305.
96. Martin, II, 33.
97. *Ibid.*, 43.
98. Buckle, H. T., *History of Civilization*, Ib, 492n., quoting Benoist, Élie, *Histoire de l'Édit de Nantes* (1695), V, 887f.
99. Michelet, IV, 507.
100. Voltaire, 409.
101. Martin, II, 44.
102. Robertson, J. M., II, 142.
103. Saint-Simon, III, 14.
104. Beard, Miriam, 373.
105. Bacon, "Of Unity in Religion," in *Essays*.
106. Sanders, *Bossuet*, 46.
107. Bossuet, *Oraisons funèbres et sermons*, 69.
108. *Ibid*., 108.
109. Eccles. xvii, 14.
110. Romans xiii, 1.
111. Isaiah xiv, 1.
112. Sanders, 213.
113. Bossuet, in Ogg, 202.
114. Sanders, 260.
115. Buckle, Ib, 569.
116. Faguet, *Literary History of France*, 446.
117. Michelet, IV, 517.
118. Martin, II, 268.
119. Sanders, 280; Michelet, IV, 412.
120. Fénelon, *Télémaque*, end of Book IX.
121. *Ibid.*, Book XIII.
122. Faguet, *Literary History*, 446.
123. Hazard, *The European Mind: The Critical Years*, 208.
124. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, II, 191.
125. Bayle, *Philosophical Commentary on . . . "Let Them Come in,"* in Robinson, H., *Bayle the Sceptic*, 73.
126. Bayle, *Dictionnaire historique et critique*, *s.v.* "Xénophanes."
127. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, III, 302.
128. Mornet, *Les Origines intellectuelles de la Révolution française*, 24.
129. Meyer, R. W., *Leibniz and the 17th-Century Revolution*, 35.

CHAPTER III

1. Pradel, *L'Art au siècle de Louis XIV*, 101.
2. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 376.
3. *Ibid.*, 325.
4. Wingfield-Stratford, *History of British Civilization*, 583.
5. Pradel, 96..
6. *Ibid.*, 99.
7. Boulenger, 365.
8. Fergusson, *History of the Modern Styles of Architecture*, 236-8.
9. Saint-Simon, I, 186.
10. Martin, II, 212; Blomfield, *Three Hundred Years of French Architecture*, 86.
11. Victoria and Albert Museum, London.
12. Dillon, *Glass*, 210.
13. Guizot, *History of France*, IV, 566.
14. Stranahan, *History of French Painting*, 50.
15. Louvre.
16. Dimier, Louis, *Histoire de la peinture française* (Paris, 1927), II, 45.
17. Versailles.
18. Benoist, *Coysevox*, 115; the bust is in the Louvre.
19. Louvre.
20. Louvre.
21. Louvre.
22. Louvre.
23. Louvre.

CHAPTER IV

1. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 258.
2. Palmer, *Molière*, 46.

3. Mantzius, Karl, *History of Theatrical Art*, IV, 42.
4. Molière, *Le Misanthrope*, II, v, 711f.
5. Lucretius, *De rerum natura*, iv, 1155f.
6. Martin, I, [illegible], Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 95-97.
7. Palmer, 59.
8. Voltaire, *Life of Molière*, in Clark, B. H., *Great Short Biographies of the World*, 628.
9. Palmer, 147.
10. *Les Précieuses ridicules*, scene iv, in Molière, *Plays*, Everyman's Library ed.
11. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, III, 271.
12. Palmer, 145.
13. *Les Précieuses ridicules* (Everyman ed.), scene ix.
14. *L'École des maris* (Everyman), I, i.
15. *L'Impromptu de Versailles* (Everyman), I, i.
16. *L'École des femmes*, I, i.
17. *L'École des femmes* (Everyman) I, i.
18. *Critique de l'École des Femmes*, vi.
19. *Ibid.*
20. Michelet, IV, 419.
21. Molière, *Théâtre*, II, 40.
22. Palmer, 335.
23. *Tartuffe* (Everyman), I, vi.
24. *Ibid.*, III, ii.
25. III, vii.
26. IV, v.
27. *Le Festin de pierre* (Everyman), I, i.
28. *Ibid.*, III, i.
29. IV, ii.
30. Palmer, 380f.
31. As in the Everyman's Library edition.
32. *Le Festin de pierre* (Everyman), III, i.
33. Garrison, *History of Medicine*, 296.
34. *L'Amour médecin* (Everyman), II, v.
35. Palmer, 410.
36. *Le Misanthrope* (Everyman), II, i.
37. *Le Misanthrope*, I, i.
38. *Ibid.*, Classiques Larousse ed., 97-98.
39. In Sainte Beuve, *Seventeenth Century*, II, 126-27.
40. *L'Avare*, II, vi.
41. *Le Bourgeois Gentilhomme* (Everyman), II, iv.
42. Guizot, *History of France*, IV, 560.
43. Michelet, IV, 421.
44. *Le Malade imaginaire* (Everyman), III, iii.
45. Edwards, *Idols of the French Stage*, I, 40.
46. *Ibid.*, 45.
47. *Le Bourgeois Gentilhomme* (Everyman), I, i.
48. *Critique de l'École des femmes* (Everyman), vi.
49. Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 140.
50. Guérard, *Life and Death of an Ideal*, 104.

CHAPTER V

1. Martin, I, 142; Boulenger, 360; *Camb. Mod. History*, V, 152; Bourgeois, *Le Grand Siècle*, 93.
2. Guizot, *History of Civilization*, II, 231; Hauser, *Social History of Art*, I, 470.
3. Desnoiresterres, *Voltaire et la société française au xviii^e siècle*, III, 404.
4. Van Laun, *History of French Literature*, II, 184.
5. *Enc. Brit.*, VI, 441b.
6. Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 293; Brereton, *Racine*, 29.
7. Racine, Louis, *Mémoires sur la vie . . . de Jean Racine*, in Racine, Jean, *Oeuvres*, I, 42.
8. Brereton, 29.
9. Guizot, *History of France*, IV, 539.
10. Racine, *Andromaque*, I, iii.
11. Brereton, 154; Martin, I, 170.
12. Suetonius, *De vita Caesarum: Divus Titus*, vii, 2.
13. Racine, Bérénice, I, v.
14. Desnoiresterres, VI, 96.
15. Guizot, *France*, IV, 541.
16. Smith, Adam, *Theory of Moral Sentiments*, I, 255.
17. Racine, *Oeuvres*, I, 765.
18. Brereton, *Racine*, 245-52.
19. *Ibid.*, 19.
20. 2 Kings xi; 2 Chronicles xii.
21. Racine, *Athalie*, IV, iii.
22. Parton, *Voltaire*, I, 591; Mme. du Deffand, in Strachey, *Books and Characters*, 99; Guizot, *France*, IV, 546; Sainte-Beuve, *Port-Royal*, VI, 147; Faguet, *Dix-septième Siècle*, 314.
23. Guizot, *France*, IV, 548.
24. Racine, Louis, *Mémoires*, in Racine, *Oeuvres*, I, p. *iii*.
25. Saint-Simon, I, 155; Guizot, *France*, IV, 548-49; Sainte-Beuve, *Port-Royal*, VI, 153; Faguet, *Dix-septième Siècle*, 303.
26. Guizot, IV, 548.
27. *Ibid.*
28. Racine, L., *Mémoires*, in Racine, *Oeuvres*, I, 113.
29. Babbitt, Irving, *The Spanish Character*, 98.
30. *Brereton*, 143.
31. Sévigné, Mme. de, *Letters*, II, 210 (Mar. 16, 1672).
32. Desnoiresterres, VI, 102, 281.
33. Hume, "Of Civil Liberty," in *Essays*, 52.

34. La Fontaine, *Choix de contes*, 151.
35. *Fables*, Preface.
36. Rea, *Life of . . . Countess of La Fayette*, 230.
37. Guizot, IV, 552.
38. Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 148.
39. Guizot, IV, 553.
40. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, V, 24.
41. *Ibid.*
42. Faguet, *Dix-septième Siècle*, 238.
43. Boileau, Satire i, in *Poètes français*, VII, 21.
44. Satire ix.
45. *Poètes français*, VII, 182-85; *Enc. Brit.*, III, 790d.
46. Day, *Ninon*, 211.
47. Boileau, *L'Art poétique*, i, ll. 75-76.
48. *Ibid.*, ll. 171-74.
49. iv, 59-60.
50. iv, 125-26.
51. iii, 45-46.
52. iii, 391-94.
53. In Fischer, *Descartes and His School*, 511.
54. Guizot, *France*, IV, 551.
55. Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 261.
56. Lewis, *Splendid Century*, 268.
57. Guizot, IV, 519.
58. La Fayette, Mme. de, *La Princesse de Clèves*, 104.
59. Rea, *Countess of La Fayette*, 284.
60. Bishop, *La Rochefoucauld*, 266.
61. Boissier, *Mme. de Sévigné*, 27.
62. Sévigné, *Letters*, I, 170 (June 10, 1671).
63. Letter of Jan. 20, 1672.
64. In Boissier, 145.
65. *Ibid.*, 145-47.
66. *Letters*, Introd., *xxxviii*.
67. Letter of July 5, 1761.
68. Apr. 8, 1761.
69. Boissier, 201; Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 232.
70. Apr. 10, 1671.
71. Guizot, IV, 516.
72. Bishop, *La Rochefoucauld*, 128.
73. *Moral Maxims and Reflections*, 84.
74. *Ibid.*, 150.
75. 84.
76. 122.
77. 178.
78. 11.
79. 471.
80. 9.
81. 219.
82. 82, 465.
83. In Bishop, 68.
84. *Moral Maxims*, 15.
85. *Ibid.*, 77.
86. 138.
87. 140.
88. 74.
89. 367.
90. 436.
91. Preface to the first edition.
92. In Bishop, 244.
93. *Moral Maxims*, 688.
94. *Ibid.*, 70.
95. *Ibid.*, 658-59.
96. In Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, I, 380.
97. *Moral Maxims*, 476.
98. Rea, *Countess of La Fayette*, 265.
99. Sainte-Beuve, *loc. cit.*
100. Faguet, *Dix-septième Siècle*, 395.
101. La Bruyère, *Characters*, p. 273, Ch. xii, 7.
102. *Ibid.*, p. 492, Ch. xii, 7.
103. E.g., Ch. xi, 35, and Ch. xvii, 28, in La Bruyère, pp. 267, 469.
104. Guizot, *France*, IV, 528.
105. Motteville, *Memoirs*, I, 150.
106. French text in Fellows and Torrey, *The Age of the Enlightenment*, 35-39.
107. Hazard, *The Critical Years*, 127.
108. Saint-Évremond, Letter to de Créqui, in King, J., *Science and Rationalism*, 26.
109. Frederick II to Voltaire, Sept. 19, 1774, in Voltaire and Frederick the Great, *Letters*.
110. Lewis, *Splendid Century*, 282.
111. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 1.

CHAPTER VI

1. A good example in Metropolitan Museum of Art, New York.
2. Vienna.
3. Dresden.
4. Madrid.
5. Louvre.
6. Wolf, *History of Science . . . in the XVIth and XVIIth Centuries*, 626.
7. Beard, Miriam, 305.
8. Day, Clive, *History of Commerce*, 194; Marx, *Capital*, I, 826.
9. *Camb. Mod. History*, V, 12.
10. Adam Smith, in Nussbaum, *History of Economic Institutions*, 72.
11. Clark, G. N., *Seventeenth Century*, 44.
12. Spinoza, *Tractatus Theologico-Politicus*, Ch. xx.
13. Pepys, *Diary*, May 14, 1660.
14. Hazard, *Critical Years*, 93.
15. Graetz, H., *History of the Jews*, V, 20.
16. Hazard, 88.
17. Vienna.
18. The Hague.
19. New York.
20. Baron Thyssen Collection.
21. The Hague.
22. Mather, F. J., *Western European Paint-*

9

ing of the Renaissance, 549.
23. Czernin Collection, Vienna.
24. The Hague.
25. Edinburgh.
26. Frick Gallery, New York.
27. London.
28. Dresden.
29. Louvre.
30. New York.
31. Washington.
32. Chicago.
33. Budapest.
34. Frick Gallery.
35. Brussels.
36. Berlin.
37. London.
38. Louvre.
39. The Hague.
40. Amsterdam.
41. Dresden.
42. New York.
43. Mather, 590.
44. In Beard, Miriam, 288.
45. In Browne, Sir Thomas, *Religio Medici*, 19.
46. Voltaire, *Agè of Louis XIV*, 94; Martin, *Louis XIV*, I, 333.
47. Voltaire, 93.
48. Bowen, Marjorie, *William Prince of Orange*, 196.
49. Martin, I, 347.
50. Bowen, 92.
51. *Camb. Mod. History*, V, 158.
52. Burnet, Bishop, *History of His Own Times*, 117.
53. *Camb. Mod. History*, V, 160; Acton, Lectures, 228.
54. Kronenberger, *Marlborough's Duchess*, 30.

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

عصر لويس الرابع عشر

تاريخ الحضارة الأوروبية
في عصر
بسكال وموليير وكرومول وملتن
وبطرس الأكبر ونيوتن واسبينوزا
١٦٤٨ - ١٧١٥

ترجمة
محمد علي أبو درة

مراجعة
علي أدهم

الجزء الثاني من المجلد الثامن







تونس — بيروت

الكتاب الثانى

انجلـــترا

١٦٤٩ — ١٧١٤

الفصل السابع

كرومول

١٦٤٩ — ١٦٦٠

١ — الثورة الإشتراكيـة

بعد أن أطاح البيوريتانيون (المتطهرون) برأس الملك شارل الأول ، فى ٣٠ يناير ١٦٤٩ ، واجهوا مشاكل إقامة حكومة جديدة وإستعادة أمن الناس عــلى حياتهم وممتلكاتهم ، فى انجلترا التى أشاعت فيها الفوضى والاضطرابات الحرب الأهلية التى دامت سبع سنين . ونادى « البرلمان المبتور Rump. p » — وهم الأعضاء الستة والخمسون النشطون الذين بقوا من البرلمان الطويل بعد « حركة تطهير برايد » (١٦٤٨) — بأن لمجلس العموم السيادة والمقام الأول ، وأن فيه الـكفاية ، وألغى مجلس اللوردات (٦ فبراير ١٦٤٩) ، كما ألغى الملـكية ، وعين بمثابة جهاز تنفيذ له « مجلسا للدولة » يتألف من ثلاثة لواءات وثلاثة نبلاء وثلاثة قضاة وثلاثين من أعضاء مجلس العموم ، كلهم مستقلون — أى بيوريتانيون جمهوريون . وفى ١٩ مايو أقام مجلس العموم ، بصفة رسمية ، الجمهورية الإنجليزية : « ولسوف يتولى الحـكم فى إنجلترا منذ الآن ، بوصفها جمهورية أو دولة حرة ، السلطة العليا للأمة ، وهم ممثلو الشعب فى البرلمان ، ومن يعينونهم إلى جانبهم من وزراء ، لخير الشعب[1] » . ولم تـكن الجمهورية ديموقراطية . لقد طالب البرلمان بإقامة أساس ديموقراطى ، ولـكن طرد الأعضاء الملـكين أثناء الحـــرب ، والمشيخيين (البرسبتريان) فى حركة التطهير ، كان كما قال كرومول ، « قد شتت البرلمان وغربله واختزله إلى مجرد حفنة من الرجال[2] » .

إن الملاك وحدهم هم الذين كانوا ينتخبون البرلمان فى الأصل ، أما الآن فإن مقاطعات برمتها باتت وليس لها ممثلون فى «البرلمان للبتور » ولم تستند سلطة هذا البرلمان للبتور إلى الشعب بل إلى الجيش . فإن الجيش وحده هو الذى استطاع أن يحميه من الثوار الملكيين فى إنجلترا ، والثوار الكاثوليك فى إيرلنـــده ، والثوار المشيخيين فى اسكتلندة ، والثوار المتطرفين فى الجيش نفسه .

ولمواجهة نفقات الحكومة ومتأخرات رواتب الجند اشتط هذا البرلمان فى فرض الضرائب قدر مافعل الملك الراحل . واقترح مصادرة أملاك كل من حمل السلاح دفاعا عن شارل ، ولكنه فى معظم الحالات أرتضى تسوية الأمر بحل وسط ، هو تقاضى غرامة تعادل جزءا يتراوح بين العشر والنصف من القيمة الأساسية للضيعة . من أجل هذا عمد كثير من صغار النبلاء الذين عانوا الفقر والعوز فى انجلترا إلى الهجرة إلى أمريكا حيث كونوا أسرات أرستقراطية ،مثل آل : وشنجطن، وآل راندولف ،وآل ماديسون وآل لى(*) . وأعدم بعض زعماء الملكين ، وأودع بعضهم السجن . ومع ذلك بقيت حركة الملكيين تقض مضاجع الحكومة ، لأن روح التعاطف مع الملكية سيطرت على الشعب ، فإن إعدام الملك حوله من جابى ضرائب إلى شهيد . وبعد عشرة أيام من موت شارل ظهر كتاب عنوانه « صورة ملكية » لمؤلفه القسيس المشيخى جون جودن ، ولكنه يوهم بأنه أفكار ومشاعر شارل كما دونها هو بيده قبل موته بزمن وجيز . وربما صيغ بعض هذا الكتاب من مذكرات تركها الملك(٢) . ومهما يكن من أمره ، فإن الصورة التى عرضها الكتاب هى صورة حاكم طيب القلب كان فى واقع الأمر يدافع عن انجلترا ضد طغيان أقلية حاكمة (أوليجاركية) غليظة القلب

(*) جددت الحرب الأهلية الأمريكية الحرب الأهلية الانجليزية حيث عرضت أبناء الارستقراطيين الانجليز فى الجنوب على أبناء البيوريتانيين الانجليز فى الشمال .

لا ترحم . وطبع الكتاب ستا وثلاثين مرة وترجم إلى خمس لغات فى سنة واحدة ، ولم تفلح الضجة التى أثارها كتاب ملتون « تحطيم الصور المقدسة » (١٦٤٩) فى محو أثر كتاب جون جودن هذا ، وأسهم الكتاب فى إثارة الرأى العام ضد الحكومة الجديدة . وشجع وكلاء الملكيين الذين شرعوا لفورهم فى كل مقاطعة فى انجلترا يهيجون الشعور العام لاعادة أسرة ستيوارت . وقابل مجلس الدولة هـذه الحركة ببث العيون والأرصاد على أوسع نطاق ، والاسراع فى القبض على الزعماء الذين يحتمل أنهم كانوا يقومون بتنظيم ثورة .

وفى الناحية الأخرى كانت هناك أقلية من الأهالى وقسم كبير من الجيش ، يطالبون بديموقراطية شاملة بكل ما فى الكلمة من معنى . كما طالب بعضهم بديموقراطية اشتراكية . وأمطرت السماء نشرات متطرفة . وأصدر الكولونيل جون للبيرن وحده مائة منها . ولم يكن ملتون فى تلك الحقبة شاعراً بل مؤلف نشرات وكتيبات . وهاجم للبيرن كرومول على أنه طاغية مرتد منافق . وشكا أحد الكتاب من « أنك قلما تحدثت إلى كرومول فى أى موضوع إلا وضع يده على صدره ورفع عينيه وقال اللهم فاشهد . أنه سوف يبكى ويصرخ ويبدى الندم ، حتى وهو يسدد إليك ضربة تصيب منك مقتلا[4] » . وفى إحدى النشرات تساءل كاتب آخر : « كان يحكمنا من قبل الملك واللوردات والنواب ، أما الآن فيتولى الحكم قائد الجيش والمحكمة العسكرية والنواب ، فقل لنا بربك ، ما هو الفرق ؟ » [5] وأحست الحكومة الجديدة بأنها مضطرة إلى تشديد الرقابة على الصحف والمنابر . وفى أبريل ١٦٤٩ قبض على للبيرن وثلاثة آخرين لاصدارهم نشرتين تصفان إنجلترا وهى « مكبلة فى أغلال جديدة » . وهاج الجيش مطالبا بالافراج عنهم . وتوعد نساؤهم كرومول بالويل والثبور إذا مس للمعتقلون بأذى . وأرسل للبيرن من سجنه إلى طابع نشراته ، متحديا ، إتهاما بالخيانة العظمى « موجها ضد كرومول وأيرتون » . وفى أكتوبر قدم الكتاب الأربعة إلى المحاكمة فى قضية أثارت اهتمام الرأى

العام وشدت الآلاف من الناس إلى المحكمة . وتحدى لبيرن القضاة، وطالب بعرض القضية على هيئة المحلفين . فلما صدر الحكم ببراءة الكتاب الأربعة جميعهم انطلقت من الجمع الحاشد صيحة مدوية جماعية ، يعتقد أنه لم يسمع مثلها قط فى دار البلدية ، استمرت نحو نصف ساعة بلا إنقطاع ، حتى علا الشحوب وجوه القضاه من شدة الفزع(٦) وظل لبيرن لمدة عامين بطل الجيش . ونفى فى ١٦٥٢ ثم عاد فى ١٦٥٣ فقبض عليه ثانية ، ثم برىء (أغسطس ١٦٥٣)، ولكنه ظل مع ذلك سجينا . وفى ١٦٥٥ أفرج عنه وقضى نحبه ١٦٥٧، وهو فى الثالثة والأربعين من العمر .

وذهب بعض « أنصار المساواة » (حزب نشأ فى البرلمان الطويل ١٦٤٧ يدعو إلى ازالة الفوارق بين الناس) إلى أبعد مما ذهب إليه لبيرن والديمقراطية ، فدعوا إلى توزيع السلع توزيعا أقرب إلى المساواة . أنهم تساءلوا : لم يكون هناك أغنياء وفقراء ؟ لماذا يتضور بعض الناس جوعا على حين يحتكر الأغنياء الأرض؟ . وفى أبريل ١٦٤٩ ظهر « نبى » يدعى وليم إفرارد Everard ، وقاد أربعة من الرجال إلى تل سان جورج فى سرى . ووضعوا أيديهم على بعض الأرض غير المشغولة ، وفلحوها ، ونثروا فيها البذور ، ودعوا الناس إليها . فانضم إليهم ثلاثون آخرون من جماعة « الحفارين » (وهو اسم أطلق عليهم) . وأنهم — كما جاء فى تقرير إلى مجلس الدولة ، ليهددون الجيران بأنهم سيحملون الجماعة كلها على القدوم وشيكا إلى التلال للعمل فيها(٧) . « ولما سيق افرارد للمثول أمام نقيب الجيش سير توماس هيرفاكس ، أوضح له أن أتباعه قد اعتزموا احترام الأملاك الخاصة ، « وأنهم لن يقربوا إلا الأراضى العامة غير المفلوحة ليعملوا فيها حتى تؤتى ثمارها » « وأنهم يأملون » فى أن يحين فجأة الوقت الذى يأتى فيه كل الناس طائعين مختارين وينزلون عن أراضيهم وضياعهم ويذعنون لجماعة الأخيار هذه(٨) » . فما كان من هيرفاكس إلا أن أخلى سبيل الرجال على أنهم أفراد متعصبون لا يخشى منهم أى أذى . وتابع أحدهم — وهو

جيرارد ونستانلى — الحركة ببيان أصدره فى ٢٦ أبريل ١٦٤٩ ، تحت عنوان « لواء نصير المساواة الصادق يتقدم إلى الامام » : « فى البدء جعل العقل (الخالق العظيم) الأرض ملكا عاما مشتركا للحيوان والإنسان » ، ولكن الإنسان فيما بعد عميت بصيرته فأصبح عبدا أكثر خضوعا لبنى جنسه من خضوع حيوانات الحقل لشخصه هو ، وجرى التصرف فى الأرض بالبيع والشراء ، وأحاطها الحكام بالحواجز والأسياج ، وبقيت فى حوزة فئة قليلة من الناس . وكل ملاك الأرض لصوص ولن تنقطع الجريمة والكراهية والبغضاء مالم تسترد للملكية العامة المشتركة(٩) . وفى « قانون الحرية » (١٦٥٢) توسل ونستانلى إلى الجمهورية أن تقيم مجتمعا لايوجد فيه بيع ولا شراء ، ولا محامون ، ولا أغنياء ولا فقراء ، يجبر فيه الجميع على العمل حتى سن الأربعين ، وبعد ذلك يعفون من الكدح . ويباح حق الانتخاب لكل البالغين من الذكور ، ويكون الزواج إجراء مدنيا ، والطلاق حرا مباحا(١٠) . وتخلى « الحفارون » عن مشروعهم ، ولكن دعايتهم نفذت إلى عقول الفقراء الإنجليز ، وربما عبرت القنال إلى فرنسا ، وعبرت المحيط إلى أمريكا .

أن كرومول نفسه ، وهو من ملاك الأرض ، وهو الشديد الخبرة بطبيعة الإنسان ، لم يثق فى هذه المثل العليا فى الملكية العامة ، بل لم يثق حتى فى حق الاقتراع للبالغين . وفى فترة الفوضى التى لامعدى عنها ، عقب قلب أية حكومة ، تدعو الحاجة إلى شيء من سلطة مركزة فى بعض الأيدى ، وقد تمثلت فى كرومول ، وأن كثير ممن أوغر صدورهم منه اعدام الملك ، رحبوا لبعض الوقت بدكتاتورية بدت البديل الوحيد للإنحلال الاقتصادى والسياسى بل أن الجيش نفسه ، حين ترامت إليه أنباء الثورة المضادة التى تدبر فى أيرلنده واسكتلنده ، غمره الفرح إذ أيقن أن يد كرومول الحديدية على أتم استعداد لقيادته ضد العصاة والثوار الذين

لم يسعوا وراء « يوتوبيا » أو دنيا مثالية ديمقراطية ، بل وراء عودة ملكية تثأر وتنتقم .

٢ — ثورة أيرلنده

فى أيرلنده وحد رد الفعل ضد الثورة الكبرى ، بشكل عابر ، بين البروتستانت فى اقليم (The Pale) فى شرق أيرلنده حول دبلن والكاثوليك فيه وفيما وراءه . فقد حدث حتى قبل اعدام شارل الأول ، أن وقع أرل أورموندجيمس بتلر ، بوصفه نائب الحاكم فى ايرلنده ، معاهدة مع اتحاد الكاثوليك فى كلكنى Kilkenny (١٧ يناير ١٦٤٩) وافقوا بمقتضاها ، وفى مقابل الحرية الدينية وبرلمان أيرلندى مستقل ، على تزويده بخمسة عشر ألفا من المشاه وخمسمائة من الجياد . وبعث أورموند برسالة إلى أمير ويلز ، الذى اعترف أورموند لفوره بأنه شارل الثانى ، يدعوه فيها للقدوم إلى ايرلنده ليقود جيشا مشتركا من البروتستانت والكاثوليك . وآثر شارل الذهاب إلى اسكتلنده ، ولكن كرومول اعتزم أن يواجه تهديدات أيرلنده أولا .

وحين حط كرومول رحاله فى ايرلنده فى أغسطس ، كانت القوات الموالية للجمهورية قد هزمت بالفعل أورموند فى راثمينز ، وتراجع هو مع ما تبقى من قواته (٢٣٠٠ جندى) إلى مدينة دروجيدا المحصنة ، الواقعة على نهر بوين . فحاصرها كرومول بعشرة آلاف جندى وافتحمها واستولى عليها عنوة (١٠ سبتمبر ١٦٤٩) وأمر بقتل من من بقى حاميتها على قيد الحياة[١١] . ولم يفلت من المذبحة بعض المدنيين ، وقتل كل قسيس فى المدينة[١٢] ، حتى بلغ عدد ضحايا المذبحة المنتصرة نحو ٢٣٠٠ . واشترك كرومول فى شرف النصر مع الله : « أرجو أن تنسب القلوب الطاهرة هذا المجد إلى الله الذى يرجع إليه الفضل فى هذه الرحمة حقا[١٣] » وتمنى «

أن تساعد هذه المحنة كثيرا على حقن الدماء بفضل كرم الله[١٤] » .
وإنا لنشاركه رجاءه المخلص فى أن تضع مثل هــذه الضربة الواحدة من الإرهاب حدا للثورة ، وتنقذ حياة الكثيرين من الجانبين .

ولــكن الحرب استمرت ثلاثة أعوام أخر ، فان كرومول تقدم من دروجيدا لحصار وكسفورد ، واستولى عليها ، ولقى ١٥٠٠ من المدافعين عنها ومن سكانها مصرعهم . وقال كرومول « أن الله ، بشىء من عناية إلهية غير متوقعة ، فى عدله القويم ، قد أنزل بهم حكما عادلا . . . . حيث كفروا بدمائهم عن أعمال القسوة الوحشية التى اقترفوها ضد حياة الكثيرين من البروتستانت المساكين[١٥] » . ولــكن سياسة المذابح أخفقت فان مدينتى دنــكانون ووترفورد تحدتا حصار كرومول . واستسلمت كلــكنى لمجرد أنها تلقت شروطا كانت مرفوضة فى أى مــكان آخر ، وتم الاستيلاء على كلونمل ولــكن بعد فقد ألفى رجل . وما أن تراءى إلى كرومول نبأ وصول شارل الثانى إلى اسكتلنده حتى ترك مواصلة الحرب فى ايرلنده لصهره هنرى أيرتون ، وأبحر هو إلى انجلترا (٢٤ مايو ١٦٥٠) .

وكان أيرتون قائدا قديرا ، ولــكنه مات بالطاعون فى ٢٦ نوفمبر ١٦٥١ . ونبذت سياسة المذابح ، وصدر العفو عن الثوار ، وبمقتضى معاهدة كلنــكنى (١٢ مايو ١٦٥٢) استسلموا جميعا تقريبا ، شريطة السماح لهم بالهجرة دون عائق . وفى ١٢ أغسطس صدر « قانون التسوية فى أيرلنده » ، الذى ينص على مصادرة كل ممتلــكات الأيرلنديين أو بعضها — أيا كان مذهبهم — ممن يعجزون عن اثبات أنهم كانوا موالين للجمهورية ، وبهذه الطريقة انتقلت ملــكية نحــو مليونين وخمسمائة ألف فدان (أيــكر) من أراضى ايرلندة إلى جنود أو مدنيين إنجليز أو ايرلنديين كانوا يناصرون كرومول فى ايرلنده . وبهــــذا انتقل ثلثا أرض ايرلنده إلى أيدى الإنجليز[١٦] . وانضمت مقاطعات كلدار ودبلن وكارلو وكلو ووكــفورد

لتشكل « Pale » أو إقليما إنجلتزياً جديداً فى ايرلنده ، وبذلت محاولات لإقصاء كل ملاك الأرض الايرلنديين أياً كانوا ، ثم المواطنين الآيرلنديين عن هذه المقاطعات . وجردت آلاف الأسرات الايرلندية من أملاكها ، وأعطوا مهلة نهايتها أول مارس ١٦٥٥ ليجدوا لأنفسهم وطنا آخر . وشحن المئات منهم على ظهور السفن إلى بربادوس ، (جزر الهند الغربية) أو أماكن أخرى بتهمة التشرد .

وقدر سير وليم ربتى أنه من بين سكان ايرلنده البالغ عددهم ٠٠٠ر٤٦٦ر١ فى ١٦٤١ ، كان قد هلك حتى ١٦٥٢ نحو ٠٠٠ر٦١٦ بسبب الحرب أو الموت جوعاً أو الطاعون ، وقال أحد الضباط الانجليز : فى بعض المقاطعات « قد يسير المرء عشرين أو ثلاثين ميلا دون أن يجد مخلوقاً على قيد الحياة ، إنساناً أو حيواناً أو طائراً » وقال آخر : « إن الشمس لم تشرق قط على أمة أشد تعاسة من هذه(١٧) » . وحرم المذهب الكاثوليكى بحكم القانون وصدرت الأوامر إلى رجال الدين الكاثوليك بمغادرة ايرلندة فى بحر عشرين يوماً ، وكان الموت عقوبة من يخفى أياً منهم ، وفرضت عقوبات صارمة على التخلف عن حضور الطقوس البروتستانتية يوم الأحد . ومنح القضاة والحكام سلطة جمع أطفال الكاثوليك وإرسالهم إلى انجلترة لتلقى أصول المذهب البروتستانتى (١٨) . إن كل الوحشية التى لقيها البروتستانت على يد الكاثوليك فى فرنسا بين ١٦٨٠ — ١٨٩٠ ، صبها البروتستانت على رؤوس الكاثوليك فى ايرلنده بين ١٦٥٠ — ١٦٦٠ . وأصبحت الكثلكة جزءاً لا يتجزأ من الروح الوطنية الإيرلندية ، لأن الكنيسة والشعب قذف بهما فى بحران من المعاناة والشقاء . وعلقت هذه السنين المريرة بذاكرة ايرلندة وكأنها تراث من البغضاء لا يفنى .

٣ — ثورة اسكتلندة

صعق الاسكتلنديون باعدام شارل الأول الذى كانوا هم أنفسهم قد أسلموه إلى البرلمان الانجليزى ، وعاد إلى ذاكرتهم فجأة أن والده كان اسكتلنديا . ورأوا فى «تطهير برايد» الذى أخرج المشيخيين (البرسبتريانز: كنيسة بروتستانية يدير شئونها شيوخ منتخبون يتمتعون جميعاً بمنزلة متساوية) من البرلمان الطويل ، نقضا « للعصبة المقدسة والميثاق المقدس » الذى أقسم فيه ذلك البرلمان يمين الإخلاص لاسكتلنده وللمذهب المشيخى ، وأوجسوا خيفة من أن يحاول البيوريتانيون المنتصرون فرض مذهبهم البروتستانتى على اسكتلندة كما فرضوه على انجلترا . وفى ٥ فبراير ١٦٤٩ ، أى بعد مضى أقل من أسبوع على أعدام شارل الأول ، نادى البرلمان الاسكتلندى (مجلس الطبقات) بأبنه شارل الثانى ، الذى كان آنذاك فى الأراضى الوطيئة ، ليكون الملك الشرعى على بريطانيا العظمى وفرنسا وأيرلنده .

وقبل أن يجيز الاسكتلنديون لشارل الثانى الدخول إلى اسكتلنده طلبوا إليه أن يوقع للميثاق الوطنى وعهد العصبة المقدسة وللميثاق المقدس ، ويقسم يمين الحفاظ على المذهب المشيخى أو إقامته فى كل أرجاء ملكه وفى بيته . على أن شارل الذى كان يدين بالفعل بمزيج من الكاثوليكية والتشكك ، لم يكن يروقه مذهب المشيخية ، فى الوقت الذى كان يتوق فيه أيما توق إلى العرش ، فوقع على كره منه ، كل هذه المطالب فى « بريدا » فى أول مايو ١٦٥٠ . وقاد مونتروز ، أنبل الاسكتلنديين فى ذاك العصر ـ قوة صغيرة من جزر أوركنى إلى اسكتلنده ، أملافى أن يجمع لشارل جيشا مستقلا عن الميثاقين المشيخيين ، ولكنه هزم وأسر وأعدم شنقا (١١مايو ١٦٥٠) . وفى ٢٣ يونيه حط شارل رحاله فى اسكتلندة ، وهو يتلهف على أن يكون على رأس جيش يغزو به الجمهورية البيوريتانية التى أطاحت برأس

أبيه . وقبل أن يهب الاسكتلنديون لنجدته ، استحثوه على إصدار بيان يرغب فيه « أن يركع فى ذلة وخشوع أمام الله تكفيرا عن معارضة أبيه للعصبة المقدسة والميثاق المقدس ، ومن أجل خطيئة أمه بسبب عقيدتها الوثنية (أى اعتناقها الكثلكة)[١٩] . « والتكفير عن خطيئات شارل الأول والثانى فرض رجال الكنيسة الاسكتلندية على الجيش والشعب صوما جادا رهيبا ، وأكدوا للجيش أنه لن يقهر »[٢٠] لأن الملك الشاب قد أرضى السماء . وتحت إلحاح القساوسة طهر الجيش من الضباط الذين وضعوا ولاءهم للملك فوق ولائهم للميثاق والكنيسة الاسكتلندية ، وبهذه الطريقة طرد ثمانون من أقدر القواد .

واقترح كرومول على البرلمان الانجليزى غزو اسكتلنده فى الحال ،دون إنتظار هجوم من جانبها . واعتزل فيرفاكس آنذاك القيادة العليا لجيوش الجمهورية، وكان قد رفض الاشتراك فى محاكمة شارل الأول ، وعين كرومول خلفا له ، فنظم قواته بعزيمته وعجلته المعهودتين ، وعبر إلى اسكتلنده (٢٢ يوليه ١٦٥٠) ، على رأس ١٦ ألف رجل . وفى ٣ أغسطس أرسل إلى لجنة الجمعية العامة للكنيسة الاسكتلندية رسالة زاخرة بالشجاعة والثبات والقدرة على الاحتمال : « هل كل ماتقولون يلتئم إلتئاما لاشبهة فيه مع كلمة الله ؟ أتوسل إليكم ، بحق أحشاء المسيح ،أن تفكروا فى أنكم قد تكونون مخطئين[٢١] » . وفى دنبار (٣ سبتمبر) أوقع بالجيوش الاسكتلندية الرئيسية هزيمة منكرة وأسر عشرة آلاف رجل ، وسرعان ما استولى على أدنبره وليث . وانهارت مكانة الوعاظ الاسكتلنديين ، وتبدد زعمهم بأنهم معصومون من الخطأ . واستدعى الضباط المطرودون على عجل ، وتوج شارل الثانى رسميا فى « سكون Scone . » أما كرومول فقد إنتابه المرض فى ادنبره ، وتوقف القتال بضعة شهور .

ثم تقدم الجيش الاسكتلندى بعد إعادة تنظيمه ، وعلى رأسه شارل ،

إلى انجلـترا ، أملا فى أن ينضم إلى لواء الشرعية والحق ، كل الملـكيين والمشيخيين المخلصين . فتعقبهم كرومول ، حيث كان يحشد أثناء مروره بالمدن الإنجليزية كل قـــوات الطوارىء ، والمواطنين الصالحين للجندية ، وفى ووستر ، فى ٣ سبتمبر ١٦٥١ ، دارت رحى للمركة التى أبقت على الجمهورية ، وحكمت على شارل بأن يلوذ بالمنفى مرة أخرى . وفيها ، بفضل الاستراتيجية الفائقة والبسالة ، استطاعت قوات كرومول الأقل عددا ، أن تهزم ثلاثين ألفا من الاسكتلنديين . وكان شارل شجاعا ولـكنه لم يـكن قائدا . أنه بذل أقصى الجهد فى أن يستحث ويلم شعث جنوده الذين اختل نظامهم ، ولـكن يبدو أنهم ذعروا وارتعدوا فزعاً من سمعة كرومول محارباً لم يخسر قط معركة ، فألقى كثير منهم السلاح ولاذ بالفرار . وتوسل شارل إلى ضباطه أن يطلقوا عليه الرصاص فأبوا . واقتاده نفر من أشد أتباعه اخلاصا إلى مكان آمن مؤقت فى مقر أحد الملـكيين . وهناك تجرد من شعر رأسه إلى حد كبير ، وغير لون يديه ووجهه واستبدل بملابسه ثياب أحد العمال ، وبدأ مسيرة طويلة ، على ظهر جواد ، وعلى قدميه ، متسللا من مخبأ إلى مخبأ . ينام تحت سطوح المنازل أو فى الحظائر والغابات . ونام مرة فى احدى أشجار « رويال أوك » فى بوسكوبل ، على حين كان جنود الجمهورية يفتشون عنـه تحتها . وكثيرا ما عرفه الناس ، ولـكنهم لم يغدروا به أو يـكشفوا أمره . وبعد أربعين يوما من الفرار ، وجـد هو ومرافقوه ، فى شورهام فى سسكس ، قاربا ارتضى ربانه ، مخاطرا بحياته ، أن ينقلهم إلى فرنسا (١٥ أكتوبر) .

وعهد كرومول إلى القائد جورج مونك بالضرب على أيدى الثوار الاسكتلنديين بصفة نهائية ، وتم هـــذا فى فبراير ١٦٥٢ . وأخضعت اسكتلنده لانجلترا ، وحل برلمانها المستقل ، ولـكن أجيز لها إرسال ثلاثين نائبا عنها إلى برلمـان لندن . وعوقبت الـكنيسة الاسكتلندية بحظر

انعقاد جمعياتها العامة ، واقرار التسامح الدينى مع كل الشيع البروتستانية المسالمة . ومن الناحية الاقتصادية أفادت اسكتلنده من الحرية الجديدة فى الإتجار مع انجلترا . أما من الناحية السياحية فقد ظلت ترقب دودة أسرة ستيوارت وتدعو الله أن يحقق هذا الرجاء .

٤ — أوليفر حاكماً مطلقاً

عاد كرومول إلى انجلترا منتصراً انتصارا يكلله التواضع . وإذ رأى الجموع التى احتشدت لتشهد مقدمه ، فقد جال بخاطره أن جمهوراً أكبر من هذا كان يمكن أن يحتشد ليشهد مصرعه على حبل المشنقة(٢٢) . ومنحه البرلمان المبتور راتبا سنويا قدره أربعة آلاف جنية ، وخصص له قصراً كان يوما ملكيا فى هامبتون كورت . واعتقد البرلمان أنه سيقنع بالبقاء فى منصب القيادة العامة . كما اقترح اجراء انتخابات جديدة ، لزيادة عدد أعضائه إلى ٤٠٠ ، على أن يحتفظ الأعضاء الحاليون بمقاعدهم دون الدخول فى الانتخابات الجديدة ، وكان عليهم أن يحددوا شروط حق الانتخاب وصحة الأصوات . وحمى البرلمان نفسه ضد حملات النقد بالحد من حرية الصحافة والخطابة بشكل صارم : « لن يسمح باسم حرية الخطابة أو حرية الوعظ ، بأى شىء يعكر صفو الحكومة أو يسىء إلى كرامتها(٢٣) » . وحرم رجال الكنيسة الأنجليكانية الرسمية من أرزاقهم وحكم بمصادرة ثلثى ممتلكات من يعتنقون المذهب الكاثوليكى ، بصفة غرامة . وقدمت الجوائز لمن يقبضون على القساوسة الكاثوليك(٢٤) .

أن كرومول ، على الرغم من بطئه فى اتخاذ قرار ، كان حازما متأهبا لسرعة التصرف إذا اعتزم أمرا . وقد احتمل فى صبر نافد المناقشات التى أفسدت السياسة فى البرلمان وعوقت الإدارة . أنه اتفق مع شارل الأول على أن تكون السلطة التنفيذية متميزة ومستقلة عن السلطة التشريعية .

ثم بدأ يتساءل : ألم يكن خيرا وبركة أن يكون كرومول ملكا . ولمح بهذه الفكرة (ديسمبر ١٦٥٢) إلى صديقه هوايتلوك الذى فقد صداقته باعتراضه عليها[٢٥] . وفى صبيحة يوم ٢٠ أبريل ١٦٥٣ ، عندما علم أن البرلمان المبتور كان على وشك أن ينصب نفسه سيدا غير منتخب على البرلمان الجديد ، جمع حفنة من الجنود اتخذوا مواقعهم على باب مجلس العموم ، ودخل هو إليه ، وإلى جانبه اللواء توماس هاريسون ، وأصغى لبعض الوقت إلى المناقشة فى صمت رهيب . وعندما بدأ أخذ الأصوات على موضوع البحث ، نهض كرومول ، وتحدث أول الأمر فى اعتدال ، ومالبث حتى تحدث فى عنف ، فنعى على البرلمان المبتور أن يكون أوليجاركية (أقلية حاكمة) تخلد نفسها بنفسها ، لا تصلح لحكم انجلترا . ثم صاح : « أيها السكارى » متجها إلى عضو بعينه ، ثم صرخ فى عضو آخر « أيها الداعر الفاجر » « أنتم لستم برلمانا . أقول إنكم لستم برلمانا . ولسوف أضع حدا لاجتماعاتكم » . ثم التفت إلى هاريسون وأمره : « استدع الجنود ، استدعهم إلى هنا » . ودخل الجنود إلى القاعة . وأمرهم كرومول باخلائها ، وغادرها الأعضاء محتجين قائلين :

« ليس هذا من الأمانة فى شىء » . ووضعت الأقفال على القاعة الخالية ، وفى اليوم التالى وجد معلقا عليها لافتة « بيت للايجار ، غير مؤثث الآن[٢٦] » . ثم ذهب كرومول بصحبة اثنين من القواد إلى حيث يجتمع مجلس الدولة ، وقال لأعضائه « إذا كنتم تجتمعون الآن بصفتكم الشخصية فلا بأس ، ولا يزعجنكم أحد — أما إذا كنتم مجتمعين كمجلس للدولة ، فلا مكان لكم هنا ... وأرجو أن تعلموا أن البرلمان قد حل[٢٧] » . وهكذا كانت كانت النهاية المخزية المزرية للبرلمان الطويل الذى كان قد اجتمع فى وستمنستر ، بكامل هيئته أو بشكله المبتور ، منذ ١٦٤٠ ، والذى كان قد حول دستور إنجلترا وحكومتها . ولم يعد هناك الآن دستور ، بل جيش وملك غير ذى لقب أو ملك غير متوج .

وكان الشعب بصفة عامة فرحا بالتخلص من برلمان كان قد جر إنجلترا إلى حافة الهاوية . وعلى حد قول كرومول ، لم يكن هناك « مجرد نباح كلب ، ولا تذمر ظاهر لحله(٢٨) » . وتقبل البيوريتانيون الغيورون المتحمسون حل البرلمان على أنه إفساح الطريق « للملكية الخامسة » أى مجىء للمسيح المنتظر وحكمه وتشجع الملكيون وتهامسوا بأن كرومول سوف يستدعى الآن شارل الثانى ، ويقنع هو بدوقية أو بمنصب نائب الملك فى أيرلنده . ولكن أوليفر لم يكن بالرجل الذى يرتضى أن يكون رهن مشيئته رجل آخر . فأصدر توجيهاته إلى معاونيه العسكريين أن يختاروا — بصفة أساسية من المجامع البيوريتانية فى إنجلترا — ١٤٠ رجـــلا ، من بينهم خمسة من اسكتلندة وستة من أيرلنده ، ليجتمعوا على هيئة « برلمان معين » . ولما إنعقد هذا البرلمان فى هويتهول فى ٤ يوليه ١٦٥٣ أعترف كرومول بأن الجيش هو الذى إختارهم ، ولكنه رحب بهم باعتبار أنهم يبدأون فترة يحكم فيها القديسون حكماً صحيحا تحت رياسة يسوع المسيح(٢٩) ، وإقترح أن يخولهم السلطة العليا ، ويكل إليهم مهمة وضع دستور جديد — وظل هذا البرلمان طيلة خمسة أشهر يبذل أقصى الجهد فى إنجاز هذه المهمة ، ولكنه ضل الطريق فى متاهات المناقشة ، الطويلة . وإنشق الأعضاء على أنفسهم ، يأسا وعجزا ، فى موضوعات الدين والتسامح الدينى . وأطلق ظرفاء لندن عليه اسم « برلمان باربيون » ، نسبة إلى أحد أعضائه Barebone ، وهو أحد القديسين فى « الملكية الخامسة » سالفة الذكر .

وضاق الجيش ذرعا بهؤلاء الأعضاء ، كما ضاق من قبل ذرعا بمن طردهم فى أبريل . وعرض الضباط — وهم يمثلون دور أنطونيو — على كرومول أن ينصب نفسه ملكا ، وتردد قيصر وإعترض فى رفق ، ولكن ثمانين من أعضاء البرلمان ، باتجاه محدد من الجيش ، أعلنوا إلى كرومول فى ١٢ ديسمبر أن الجمعية الجديدة لم تصل إلى اتفاق ، وأنها تقترع على حلها . وعرضت « وثيقة حكومية » أعدها زعماء الجيش ، على كرومول أن يكون « حامى

جمهورية انجلترا واسكتلنده وايرلنده » ، وأن ينتخب برلمان جديد على أساس نصاب من الثروة يخول حق الاقتراع ، مع استبعاد الملكيين والكاثوليك ، وأن تكون السلطة التنفيذية فى يد مجلس من ثمانية من المدنيين وسبعة من ضباط الجيش ، يختارون لمدى الحياة ، على أن يعمل هذا المجلس بمثابة هيئة استشارية « لحامى حمى الجمهورية » وللبرلمان ، كليهما . ووافق كرومول ووقع هذه الوثيقة ، وهى « أول وآخر دستور انجليزى مسطور[٣٠] » وفى ١٦ ديسمبر ١٦٥٣ أقسم اليمين بوصفه « حامى الحمى » . وبذلك انتهت الجمهورية ، وبدأت الحماية — اسمان لأوليفر كرومول .

هل كان كرومول طاغية مستبدا ؟ من الواضح أنه استساغ السيطرة والسلطان . ولكن تلك نزعة عامة ، وهى أمر طبيعى إلى أبعد حد فى الموهبة الواعية . لقد فكر من قبل فى تنصيب نفسه ملكا ، وتأسيس اسرة ملكية جديدة[٣١] . ويبدو أنه كان مخلصا حين عرض أن ينزل عن سلطته « للبرلمان المعين » . ولكن عجز هذا البرلمان أقنعه بأن سلطته التنفيذية هو نفسه هى آنذاك البديل الوحيد عن الفوضى فإذا تخلى هو ، فقد كان يبدو أنه ليس ثمة رجل آخر يحظى بتأييد كاف للمحافظة على النظام . واستنكر المتطرفون فى الجيش هذه « الحماية » باعتبارها مجرد « ملكية أخرى » . واتهموا كرومول بأنه « وغد منافق كذاب » وتوعدوه » بمصير أسوأ من المصير الذى لقيه الطاغية السابق[٣٢] » . وأرسل كرومول بعض هؤلاء المتمردين إلى السجن « برج لندن » ومن بينهم اللواء هاريسون الذى تولى قيادة الجنود عند طرد أعضاء البرلمان المبتور . أن خوف كرومول على سلامته هو نفسه أدى به شيئا فشيئا إلى المزيد من الاستبداد ، لأنه أدرك أن نصف الأمة كان يمكن أن يهلل لقتله . إنه أحس ، مثل سائر الحكام ، بالحاجة إلى احاطة نفسه بمظاهر الفخامة والوقار التى تثير الرهبة فى النفوس ، فانتقل إلى قصر هويتهول (١٦٥٤) وأعاد تأثيثه بأفخر

الرياش ، واتخذ لشخصه كل الجلال وكل العظمة الملكية[٣٣] . ولكن مما لاريب فيه أن كثيرا من هذه المظاهر كان لابد أن يخلق انطباعا قويا فى نفس السفراء ، ويثير الفزع فى نفوس الأهالى .

وفيما يتعلق بحياة كرومول الخاصة ، فإنه كان رجلا غير ميال إلى المظاهر والأبهة ، يعيش عيشة طابعها البساطة والإخلاص مع أمه وزوجته وأولاده . وأحبته أمه حبا ممزوجا بالخوف عليه ، ترتعد فرقا على حياته لكل طلقة تسمعها ، وعند وفاتها فى الثالثة والتسعين (١٦٥٤) قالت : « ولدى العزيز إنى أترك قلبى معك[٣٤] » . أنه هو نفسه ، فى أواسط الخمسينات من عمره ، كان يدب إليه الهرم بسرعة ، أن ما واجهه من أزمة تلو أزمة كان يهد من أعصابه التى قيل أنها حديدية . أن حملات ايرلنده واسكتلنده زادت الحمى على داء النقرس ، ولم يمر عليه يوم دون نصب أو قلق ورسم له المصور لى فى ١٦٥٠ لوحة مشهورة . وأن كل انسان ليعرف تحذير كرومول للمصور حيث قال له : « مستر لى ، بودى أن تستغل كل ماأوتيت من مهارة فى رسم صورة حقيقية مثل شخصى تماما ، ولا تتملقنى على الإطلاق ، بل يجب أن تبرز هذه الخشونة والبثور والنتوءات وكل شىء ، وإلا ، فلن أنقدك فلسا واحدا[٣٥] » . وقبض لى أجره ، ورسم « حامى الحمى » فى صورة مصقولة إلى حد بعيد ، ومع ذلك أبرز الوجه الصارم القوى ، والإرادة الحديدية كما أبرز روحا عصبية متوترة إلى حد الإنفجار .

ووجه النقد إلى كرومول من أجل البساطة الكئيبة فى لباسه العاذى — سترة وبذلة بسيطتان سوداوان — ، ولكنه كان فى المناسبات الرسمية يرتدى سترة موشاة بالذهب . أنه بين الناس كان يحتفظ بوقار لا أثر فيه للتكلف أو التظاهر ، ولكن فى حياته الخاصة كان ينصرف إلى ألوان التسلية والدعابة والمزاح ، بل إلى مزحات عملية وهزل ماجن طارىء[٣٦] .

وأحب الموسيقى وعزف على الأرغن عزفا جيدا(٣٧) . وواضح أنه كان ، حسب مايبديه ، مخلصا فى ورعه وتقواه(٣٨) ، ولكنه كثيرا ما استخدم اسم الله (لا عبثا) لتدعيم أهدافه ، إلى حد اتهمه معه الكثيرون بالنفاق . ويحتمل أنه كان ثمة بعض الرياء فى تقواه العلنية ، وقليل منه فى تقواه الخاصه، مما شهد به كل من عرفوه . وكانت رسائله وخطبه نصف مواعظ ، ولا نزاع فى أنه اعتبر ، بكل طيب خاطر أن الله هو ساعده الأيمن .. ولم تكن أخلاقياته الخاصة تشوبها شائبة ، على حين أن أخلاقياته العامة لم تكن تفضل أخلاقيات الحكام الآخرين ، فاستخدم الخداع أو القوة حينما رآهما ضروريين لأهدافه الكبرى . أن أحدا لم يوفق بعد بين المسيحية والحكم .

أن كرومول من الناحية الفنية ، لم يكن حاكما مطلقا . فإنه تنفيذاً، لوثيقة الحكومة » التى أسلفنا ذكرها شكل « مجلس الدولة » وانتخب برلمانا . « وعلى الرغم من كل مساعى حامى الحمى والجيش لضمان عودة النواب الذين تميزوا بالكياسة ولين العريكة، ضم مجلس العموم الذى اجتمع فى ٣ سبتمبر ١٦٥٤ بعض الجمهوريين المزعجين ، بل كذلك بعض الملكيين .وثار النزاع حول من يسيطر على الجيش : حامى الحمى أوالبرلمان . وإقترح البرلمان إنقاص عدد الجنود وأعطياتهم ، فتمردوا وحرضوا كرومول على حله (٢٢ يناير ١٦٥٥) . والواقع أن حكومة إنجلترا أصبحت دكتاتورية عسكرية منذ طهر برايد البرلمان فى ١٦٤٨ .

وسيق كرومول آنذاك إلى الحكم طبقا للأحكام العرفية وحدها دون سواها ، وفى صيف ١٦٥٥ قسم إنجلترا إلى خمسة أقسام عسكرية . ووضع على رأس كل منها هيئة من الجند يرأسها ضابط برتبة لواء وللوفاء بنفقات هذه التجهيزات فرض ضريبة قدرها ١٠٪ على ضياع الملكيين . واحتج الناس ، وانتشر النقد والتمرد ، وسمعت أصوات تنادى بعودة شارل الثانى . وأجاب كرومول على هذا كله بتشديد الرقابة والتوسع فى أعمال التجسس

والإعتقالات ألتعسفية وإجراءات قاعة النجم التى أغفلت المحلفين وقانونية الإعتقال . وكان « سيرهارى فين Vane » من الثوريين السابقين الذين اقتيدوا إلى السجن . إن الثورات تأ كل آباءها .

ولما كان كرومول فى حاجة إلى مزيد من المال أ كثر مما استطاع تحصيله عن طريق مافرض من ضرائب أخرى مباشرة ، فإنه دعا برلمانا آخر . ولما التأم عقده فى ١٧ سبتمبر ١٦٥٦ ، وضع مجلس الدولة على باب مجلس العموم بعضا من ضباط الجيش ، ومنع دخول ١٠٣ من الأعضاء الذين إنتخبوا إنتخابا صحيحاً ، ولكن يشتبه فى أن لهم ميولا جمهورية أو ملكية أو مشيخية أو كاثوليكية . فقدم الأعضاء المبعدون احتجاجا استنكروا فيه إبعادهم بأنه انتهاك صارخ لإرادة ناخبيهم التى عبروا عنها ، ودمغوا بأشد النفاق « تصرف الطاغية وإستخدامه اسم الله والدين والصوم والصلوات الشكلية ليستر قتام الحقيقة الواقعة ومرارتها(٤٠) » . ومن بين الأعضاء البالغ عددهم ٣٥٢ الذين إجتازوا تمحيص المجلس ودقته كان هناك ١٧٥ عضوا من رجال الجيش أو من المعينين أو من أقرباء كرومول . وفى ٣١ مارس ١٦٥٧ قدم البرلمان المختزل المنقوص الخاضع المذعن إلى « حامى الحمى » توسلا ونصيحة متواضعين « يطلب إليه فيها أن يتخذ لنفسه لقب « ملك » . ولكنه كان يشم رائحة المعارضة من جانب الجيش لهذا العمل ، فأبى . ولكن ثمة حل وسط أعطاء الحق فى تعيين خلفه « حامى الحمى » . وفى يناير ١٦٥٨ وافق على إعادة الأعضاء المبعدين إلى مقاعدهم فى مجلس العموم . وفى نفس الوقت اختار تسعة من النبلاء و٦١ من العامة ليشكلوا المجلس الثانى (مجلس اللوردات) . ورفض كثير من ضباط الجيش تأييد هذه الحركة . وعندما عقدوا إتفاقاً مع الجمهوريين فى مجلس العموم للحد من سلطات المجلس الثانى ، غضب كرومول غضبا شديدا وأقتحم قصر وستمنستر وطرد البرلمان (فى فبراير ١٦٥٧) . وآنذاك من الوجهة القانونية ، ومن حيث الأمر الواقع ، انتهت الجمهورية الأنجليزية وأعيدت الملكية . وكأن التاريخ

بهذا قد ضرب مثلا جديداً للتعاقب التهكمى الساخر الذى ذكره أفلاطون ، وهو تعاقب الملكية ، فالارستقراطية ، فالديموقراطية ، فالدكتاتورية ، فالملكية(٤١) .

٥ — ذروة البيوريتانية

لقد إنطوى إنتصار البيوريتانية على ثورة دينية . وتحطمت الكنيسة الإنجليزية فى ١٦٤٣ بالغاء الحكومة الأسقفية فى الكنيسة ، وصادر مذهب البروتستانتية المشيخية (البرسبتريان) حيث كان يحكم مجامع الكنيسة قساوسة يوجههم مجلس (سنودس) فى كل قسم ، وتخضع مجالس السنودس هذه للجمعية العمومية — نقول أن مذهب الكنيسة المشيخية هذا جعل المذهب الرسمى للدولة فى ١٦٤٦ ، ولكن سيطرة مذهب المشيخية انتهت بعد عامين اثنين ، حين طهر « برايد » البرلمان من أتباع هذا المذهب . وبدا لبعض الوقت أن الديانة يجدر تركها حرة طليقة من أية رقابة أو إعانه مالية من جانب الدولة . ولكن كرومول (الذى حدث أنه اتفق فى كل شىء تقريباً مع الملك الذى كان قد أودى بحياته) آمن بأن كنيسة معانة من قبل الدولة أمر لاغنى عنه من أجل التربية والتعليم والأخلاق . وفى ١٦٥٤ شكل « لجنة من الفاحصين » لتختبر صلاحية رجال الدين للتعيين فى رتب كنيسية والحصول على رواتب . ولم يكن أهلا لذلك سوى المستقلين (البيوريتانيين) وأنصار التعميد والبرسبتريانز . وأجيز لكل أبرشية أن تختار بين التنظيم المشيخى أو نظام الكنيسة المستقلة — وفيه يحكم كل مجمع نفسه . وإختار البيوريتانيون نظام الكنيسة المستقلة . أما التنظيم المشيخى الذى ساد فى اسكتلندة ، فقد اقتصر فى إنجلترا إلى حد بعيد ، على لندن ولنكشير . أما رجال الدين الأنجليكانيون . الذين بلغوا يوما حداً كبيراً من القوة ، فقد حرموا من رواتبهم ، وباتوا يخدمون أتباعهم أى يقومون لهم بالمراسم فى أماكن خفية ، مثل الكهنة الكاثوليك . وفى ١٦٥٧ أعتقل جون أفلين بسبب

حضوره الصلوات الأنجليكانية[٤٢] . وكانت الكاثوليكية لاتزال خروجا على القانون . وأعدم قسيسان شنقا (١٦٥٠ — ١٦٥٤) بتهمة « تضليل الشعب » ، وفى ١٦٥٧ أصدر برلمان البيوريتانيين، بموافقة كرومول ، قانونا يقضى بمصادرة ثلثى ممتلكات أى فرد جاوز السادسة عشرة ، لم يتنصل من الكاثوليكية ويبرأ منها[٤٣] . وفى ١٦٥٠ كانت العقيدة الدينية قد أصبحت أساساً لوضع اجتماعى طبقى : فكان الفقراء يتحيزون للمذاهب المعارضة — أنصار المعاد ، الكويكرز ، أصحاب فكرة الملكية الخامسة ، وغيرها ، أو الكاثوليك . أما الطبقات الوسطى فكانت البيوريتانية غالبة فيها . على حين أن الأرستقراطية ومعظم ذوى الحسب والنسب (ملاك الأرض الذين لا ألقاب لهم) كانوا يشايعون الكنيسة الأنجليكانية التى لم تعد الدولة تعترف بها .

وإنعكس التعصب الدينى رأسا على عقب ، أكثر مما تناقص أو خفت حـــدته . ذلك أنه بدلا من اضطهاد الأنجليكانيين للكاثوليك المنشقين والبيوريتانيين الذين تعالت صيحاتهم من قبل طلبا للتسامح ، باتوا الآن يضطهدون الكاثوليك والمنشقين والأنجليكانيين . وحرموا استعمال « كتاب الصلوات العامة » ولو سرا فى المنازل . وقصر برلمان البيوريتانيين التسامح على أولئك البريطانيين الذين ارتضوا التثليث والإصلاح الدينى والكتاب المقدس باعتباره كلمة الله ، كما إرتضوا نبذ الأساقفة . أما أتباع سوسينوس أو التوحيديون فلم يشملهم التسامح بناء على ذلك . وفرضت عقوبات صارمة على أى نقد يوجه إلى العقيدة أو الطقوس الكلفنية[٤٤] . وكان كرومول أكثر تسامحا من برلماناته ، فتغاضى عن بعض الصلوات الأنجليكانية ، ورخص لجماعة صغيرة من اليهود بالإقامة فى لندن ، بل وبناء معبد لهم ، واتهمه إثنان من الوعاظ من أنصار عدم تجديد المعاد بأنه « وحش سفر الرؤيا » (النبى الكذاب) ، ولكنه احتمل هجومهما صابرا[٤٥] .

واستخدم نفوذه فى وقف اضطهاد الهيجونوت فى فرنسا وأتباع والدونى بيد موت. ولكنه عندما طالبه مازاران، فى مقابل ذلك، بمزيد فى التسامح مع الكاثوليك فى إنجلترا، تذرع بعجزة عن الحد من حماسة البيوريتانيين(٤٦).

ومن الجائز القول بأن الدين لعب دورا هاما وتغلغل فى الحياة اليومية عند اليهود وحدهم، كما فعل عند البيوريتانيين. والحق أن البيوريتانية اتفقت مع اليهود فى كل شىء تقريبا، فيما عدا ألوهية المسيح. وشجعت معرفة القراءة والكتابة حتى يقبل الجميع على قراءة الكتاب المقدس. وكان ثمة ولع شديد بالتوراة (العهد القديم) لأنه يقدم نموذجا لمجتمع تسيطر عليه الديانة. وكان الشغل الشاغل فى الحياة هو الخلاص من نار جهنم. والشيطان موجود حقاً وفى كل مكان. وبنعمة الله وحدها يمكن لفئة قليلة مختارة أن تفوز بالخلاص وتضمن كلام البيوريتانيين وأقوالهم عبارات من الكتاب المقدس ومجازاته. وأشرق فى عقولهم التفكير فى الله وفى المسيح أو تجلياتهما لهم، وملأتهم خشية ورهبة ولكن لم يفكروا قط فى السيدة مريم. واتسمت ملابسهم بالبساطة والكآبة، وخلت من أية زينة أو زخرف، كما اتسم كلامهم بالوقار والرزانة مع البطء. وكان منتظر منهم أن ينأوا بأنفسهم عن اللهو والدنس واللذة الحسية. وكانت المسارح قد أغلقت فى ١٦٤٢ بسبب الحرب، فظلت مغلقة حتى ١٦٥٦ بسبب شجب البيوريتانز واستنكارهم لها. وحرم سباق الخيل ومصارعة الديكية ومباريات المصارعة، ومطاردة الدببة أو الثيران، إلى حد أن الضابط (الكولونيل) البيوريتانى نيوسن قتل كل الدببة فى لندن ليتأكد أنها لن تطارد بعد الآن(٤٧). واقتلعت كل أعمدة مايو (كانت تزدان بالأشرطة والزهور وتقام فى أول مايو). وكان الجمال شبهة، واحترموا النساء بوصفهن زوجات مخلصات وأمهات صالحات، وفيما عدا ذلك لم يتمتعن بحسن السمعة لدى البيوريتانيين لأنهن مصدر غواية وإغراء، وأنهن سبب طرد الإنسان من الجنه. ونفروا من الموسيقى، ماعدا فى التراتيل الدينيه.

وقضوا على الفن فى الكنائس ولم يسمحوا باخراج جديد منه ، اللهم إلا بعض اللوحات الممتازة من عمل صمويل كوبر ، وبيتر للى ، وكان هولنديا .

وربما كانت محاولة البيوريتانز تقنين الأخلاق أجل عمل منذ شريعة موسى . واعترفوا بصلاحية الزواج المدنى ، وأبيح الطلاق ، لكن الزنى كان جريمه عقوبتها الإعدام . على أنه بعد تنفيذ حكم الإعدام مرتين عقابا على هذه الجريمة ، لم يكن المحلفون يحكمون بالإدانة . وكانت عقوبة الأيمان تتدرج وفقا للسلم الإجتماعى ، فكان اليمين يكلف الدوق ضعف ما يكلف البارون ، وثلاثة أمثال ما يكلف المالك الذى لا يحمل لقبا ، وعشرة أمثال مايدفع الرجل العادى ، بصفة غرامة ، ودفع رجل واحد الغرامه لأنه قال : « الله شهيد على[٤٨] » . وكان الأربعاء يوم صوم إجبارى عن اللحم حتى ولو وقع فيه عيد الميلاد المجيد . وكان من حق الجنود إقتحام البيوت للتأكد من صوم الأهالى . ولم يكن مسموحا بفتح الحوانيت يوم الأحد، كذلك كانت الألعاب والرياضه والأعمال الدنيوية محظورة فيه . ولم يسمح فيه بأية رحلة أو سفر يمكن إجتنابه ، كما كان محظورا « التسكع أو المشى الدنس بلا هدف[٤٩] » . وعلى الرغم من عودة الملكية وما صحبها من انتكاس فى الأخلاق ، ظل يوم الأحد قاسيا متزمتا حتى أيامنا هذه .

أن كثيرا من هذه المحرمات القانونية أو الإجتماعية أثبت أنه أقسى مما تحتمل الطبيعه البشرية . وقيل أن نسبة كبيرة من السكان لجأت إلى النفاق ، فكانوا يفترقون الآثام كما هى العادة ، ويجرون وراء المال والنساء والسلطة، ولكن دائما تعروهم الكآبة ويخرجون أصواتا من أنوفهم وتنساب من أفواهم العبارات الدينية . ومع ذلك يبدو أن عددا كبيرا من البيوريتانيين التزموا بأنجيلهم فى إخلاص وشجاعة . ولسوف نرى ألفين من الوعاظ البيوريتانيين بعد عودة الملكية يؤثرون العوز والفاقة على التخلى على مبادئهم . إن نظام البيوريتانية ضيق العقل ولكنه قوى الإرادة.

والخلق . أنه ساعد الإنجليز على حكم أنفسهم . وإذا كان الفزع من نارجهنم والطقوس البيوريتانية قد أشاعت فى البيت الكآبة والظلمة ، فإن حياة الأسرة عند عامة الناس قد أسبغ عليها نظام ونقاوة بقيتا بعد الإنحلال الذى تميزت به صفوة المجتمع فى عهد شارل الثانى .

وجملة القول أن النظام البيوريتانى ربما أحدث أصلاحا خلقيا جددته ودعمته حركة المنهجية فى القرن الثامن عشر (الميثودية حركة إصلاح دينى قادها تشارلز وجون ويزلى فى أكسفود ١٧٩٢ لإحياء كنيسة إنجلترة) ـ وإليه يرجع أكبر الفضل فى الأخلاقيات العالية نسبيا التى تتميز بها الأمة البريطانية اليوم .

٦ ـ الكويكرز

تألقت فى الكويكرز كل فضائل البيوريتانيين ، وهم فرع منهم ، ولو أخفاها لبعض الوقت الخيال الجامح والتعصب الأعمى . وكانت خشية الله والخوف من الشيطان قويين جداً فيهم إلى حد يصيب أجسامهم برعدة . وقال واحد منهم هو روبرت باركلى ١٦٧٩ .

أن قوة الله سوف تقتحم الإجتماع الشامل ، ومن ثم سوف يكون هناك جهد باطنى ، حين يحاول كل فرد أن يقهر قوى الشر فى النفوس ، إلى حد أنه بأعمال هاتين القوتين المتعارضتين ، وكأنهما تياران متضادان ، يجهد الإنسان نفسه وكأنه فى يوم المعركة ، ومن هذا يكون اهتزاز الجسم وحركته فى معظم الناس إن لم يكن كلهم وهى هزات وحركات ، تنتهى بعد أن تسود قوة الحق ، من الوخزات والأنات ، بصوت رخيم من الشكر والحمد . ومن هنا أطلق اسم الكويكرز ، أى المهتزين ، علينا ، وكان هذا من باب اللوم والتأنيب والسخرية فى بداية الأمر (٥٠) .

وتفسير مؤسس الطائفة جورج فوكس يختلف إختلافا يسيرا عن هذا .

« إن القاضى بنت من دربى هو أول من أطلق علينا هذا الاسم ، لأننا كنا نأمرهم بالاهتزاز عند ذكر كلمة الله . وهذا كان فى فى ١٦٥٠ [٥١] » أما الاسم الذى أطلقوه هم أنفسهم على طائفتهم فكان « أنصار الحق » . وبعد ذلك أكثر تواضعا ، فقالوا « مجتمع الأصحاب » .

وواضح أنهم كانوا فى بداية الأمر بيوريتانيين ، مع اقتناع شديد بصفة خاصة بأن ترددهم بين الفضيلة والخطيئة لم يكن إلا صراعا ، فى عقولهم وأجسامهم ، بين قوتين روحيتين ، قوة الخير وقوة الشر ، تحاول كل منهما أن تسيطر عليهم هنا ، وإلى مالا نهاية . إنهم تقبلوا المبادىء الأساسية عند البيوريتانيين : نزول الأسفار المقدسة عن طريق الوحى الإلهى ، خطيئة آدم وحواء ، كون الإنسان خطاء بطبيعته ، موت المسيح بن الله لتخليص البشر ، امكان نزول الروح القدس من السماء لتنوير نفس الإنسان وتشريفها. أن إدراك هـــذا « النور الباطن » ، والإحساس به والترحيب بإرشاده وتوجيهه ، كان جوهر الدين عند الكويكرز . وإذا نهج الإنسان سنن ذاك « النور » لم تعد به حاجة إلى واعظ أو كنيسة . فإن هذا « النور » أسمى من العقل البشرى ، بل من الكتاب المقدس نفسه ، لأنه صوت مباشر من عند الله إلى النفس .

لم يتلق جورج فوكس من التعليم إلا أيسره . ولكن « مذكراته » التى دبجها كانت من الآثار الأدبية فى الإنجليزية ، التى تكشف عن القوة الأدبية فى الكلام غير الأدبى ، إذا كان بسيطا جادا مخلصا . وكان جورج ابن أحد النساجين ، والتحق للعمل بمصنع أحذية ، ثم ترك سيده وأقرباءه ، « بأمر من الله » ، وبدأ فى سن الثالثة والعشرين (١٦٤٧) ، الوعظ المتجول الذى لم يتوقف إلا بوفاته (١٦٩١) . وفى سنيه الأولى حيرته وأقضت مضجعه المغريات فراح يلتمس النصح والمشورة لدى رجال الدين ، فأشار عليه أحدهم بالدواء وفصد الدم ، وأوصاه آخر بالتدخين وتلاوة المزامير

الدينية(٥٢) . وفقد جورج ثقته بالقساوسة ، ولكنه وجد السلوى والعزاء حيثما فتح الكتاب المقدس .

غالبا ما حملت الكتاب المقدس وقصدت لآخذ مكانى فى احدى الأشجار المجوفة فى مكان منعزل حتى يرخى الليل سدوله ، وكثيرا ماسرت فى الليل محزونا وحدى ، لأنى كنت رجلا مثقلا بالأحزان فى أيام أعمال الله الأولى فى نفسى ..... ثم وجهنى الله إلى الطريق ، ويسر لى إدراك حبه ، وهو حب خالد لانهاية له ، يفوق كل معرفة تتيسر للناس فى حالتهم الطبيعية أو يمكنهم الحصول عليها من صفحات من التاريخ أو من بطون الكتب(٥٣) .

وسرعان ما أحس بأن الحب الإلهى قد اختاره ليبشر الجميع بالنور الباطن ويعظهم . وفى اجتماع الأنصار المعاد فى لبسترشير « حل الله عقدة لسانى فأعلنت لهم جميعا الحقيقة الخالدة ، وظللتهم جميعا قوة الله(٥٤) « وذاع عنه أنه يتمتع « بروح بصيرة » ، ومن ثم جاء الناس أفواجا ليستمعوا إليه . « حلت قوة الله وكان لها ايحاءات وإلهامات وتنبؤات عظيمة(٥٥) » . بينما كنت أسير فى الحقول قال لى الله : اسمك مكتوب فى سجل الحياة لدى المسيح ، الذى وجد قبل خلق العالم(٥٦) . أى أن جورج قر الآن عينا بما وقر فى نفسه من أنه بين القلة التى اختارها الله قبل الخليقة ، لتتلقى نعمته ورحمته وبركته الأبدية . وأحس آنذاك أنه مساو لأى إنسان . ومنعه زهوه بهذا الاصطفاء الإلهى من « أن أخلع قبعتى لأى من كان : حقيرا أو أميرا ، وأنتم فى حاجة إلى ، أيها الرجال والنساء ، دون اعتبار لغنى أو فقير ، وعظيم أو حقير(٥٧) » .

وإذ اقتنع بأن الدين الحق لايوجد فى الكنائس بل فى القلب المستنير ، فإنه دلف إلى كنيسة فى نوتنجهام وقاطع الموعظة صائحا بأن الاختبار الحق ليس فى الأشعار المقدسة بل فى « النور الباطن » . وقبض عليه فى

١٦٤٩ ، ولكن عمدة البلدة أطلق سراحه ، وصارت زوجة هذه العمدة من أول المتنقين لمذهبه . واستأنف فوكس جولاته التبشيرية ودخل كنيسة أخرى وهناك كما قال « دفعت لأعلن الحق للكاهن والناس ، ولكنهم انهالوا على « فى غضب شديد وطرحونى على الأرض . وضربونى ضربا مبرحا وآذونى ايذاء شديدا بأيديهم وكتبهم المقدسة وعصيهم » فاعتقل مرة ثانية ، وأخلى الحاكم سبيله ، ولكن الأهالى قذفوه بالحجارة إلى خارج البلدة(٥٨) . وفى دربى تحدث مهاجما الكنائس والأسرار المقدسة على أنها تقرب لاغناء فيه إلى الله . فحكم عليه بالإقامة فى الاصلاحية لمدة ستة شهور (١٦٥٠) ، وعرضوا عليه اخلاء سبيله شريطة الالتحاق بخدمة الجيش ، فكان جوابه مهاجمة فكرة الحرب . عند ذلك أودعه سجنا ومعتقلا قذرا كريه الرائحة غائرا فى الأرض ، ليس فيه فراش ، مع ثلاثين من المجرمين ، « حيث قضيت قرابة نصف عام(٥٩) . ومن سجنه كتب إلى القضاة والحكام معترضا على عقوبة الاعدام . وربما ساعدت شفاعته على انقاذ امرأة شابة محكوم عليها بالاعدام بتهمة السرقة من حبل المشنقة .

وبعد عام قضاه فى السجن استأنف التجوال لنشر تعاليمه . وفى ويكفيلد حول جيمس نايلر ، وفى بفرلى دخل كنيسة ، وجلس منصتا حتى انتهت الوعظة ثم سأل الواعظ : هل لم يشعر بالخجل « حين يتقاضى ثلثمائة جنيه سنويا ليبشر بالأسفار المقدسة(٦٠) ؟ » وفى بلدة أخرى دعاه القسيس لالقاء عظة فى الكنيسة فأبى ، ولكنه تحدث فى فنائها إلى جمع من الناس .

أعلنت إلى الناس أنى لم أحضر لأعترض سبيل معابدهم الوثنية ولا قساوستهم . ولا عشورهم ... ولا احتفالاتهم وتقاليدهم اليهودية الوثنية لأنى أنكرت هذا كله . وقلت لهم أن هذا المكان ليس أكثر قدسية من أى مكان آخر .... لذلك نصحت الناس أن ينبذوا كل هذه

الأشياء ، وأرشدتهم إلى روح الله ونعمته فيهم أنفسهم ، وإلى نور المسيح في قلوبهم (٦١) .

وفي سوورثمور في بور كشيرحول إلى مذهبه مرجريت فل ، ثم زوجها القاضي توماس فل ، وأصبحت دارهما ، قاعــة سوورثمور ، أول مركز أساسي لاجتماع الكويكرز ، وهو إلى يومنا هذا مزار يحج إليه الأصحاب

وليس علينا أن نتتبع قصة فوكس إلى أبعد من هذا . وكانت أساليبه فجة غير ناضجة ولكنه عوض بما تذرع به من صبر وجلد في ملاقاة سلسلة الاعتقالات والصدمات العنيفة ، وهاجـه البيوريتانيون والمشيخيون والانجليكانيون ، لأنه نبذ الأسرار المقدسة والكنائس والقساوسة . وأرسل الحكام الكويكرز إلى السجون ، لا لأنهم انتهكوا حرمة العبادات العامة وأغروا الجنود بالكف عن الاشتراك في الحرب ، فحسب ، بل كذلك لأنهم رفضوا تأدية يمين الولاء للحكومة . واحتج الكويكرز بأن اليمين أيا كانت عمل غير أخلاقي ، ويكفي القول (بنعم) أو (لا) . وتعاطف كرومول مع الكويكرز ، واجتمع مع فوكس في لقاء ودي (١٦٥٤) وقال له عند انصرافه : « تعال إلى ثانية أننا ، أنت وأنا ، لو اجتمعنا ساعة من نهار ، لاقترب الواحد منا من الآخر » (٦٢) . ، في ١٦٥٧ أصدر (حامي الحمى) توجيهاته بالافراج عن المسجونين من الكويكرز ، كما أصـدر تعليماته إلى القضاء بأن يعاملوا هؤلاء الوعاظ الذين لا كنائس لهم على أنهم (أشخاص واهمون تحت تأثير وهم شديد) (٦٣) .

إن أسوأ اضطهاد وأشده هو ما أصاب شيعة جيمس نايلر الذي بلغ به الإيمــان بنظرية النور الباطن ، حد الاعتقاد أو الإدعاء بأنه هو المسيح مجسدا من جديد ، وأنبه فوكس على هــذا ولكن بعض أتباعه المخلصين الغيورين عبدوه ، وأكدت إحدى النسوة أنه أعادها إلى الحياة بعد أن ظلت يومين في عداد الموتى . وعنــدما ركب نايلر إلى بريستول ، ألقت

النسوة بأوشحتهن أمام جواده وأنشدن : « مقدس ، مقدس ، مقدس رب القربان المقدس » وقبض عليه بتهمة التجديف . ولما سألوه عن دعواه أو الدعاوى التى نسبوها إليه ، لم يكن جوابه سوى جواب المسيح « أنت قلت » وعرض البرلمان إذ ذاك ، وكان البيوريتانيون يسيطرون عليه لقضية نايلر (١٦٥٦) وظل أحد عشر يوما يناقش موضوع إعدامه . وسقط القرار بأغلبية ٩٦ ضد ٨٢ صوتا . ولكن سادت روح تنادى بحل وسط إنسانى فحكم عليه بأن يقف ساعتين كاملتين وعنقه فى آلة التعذيب (المشهرة) ، ويجلد ١٣٠ جلدة ، وتدمغ جبهته بالحرف الأول من لفظة مجدف (B فى الانجليزية) ، وأن يثقب لسانه بقضيب من الحديد المحمى ، واحتمل هذه الفظائع بشجاعة . وحياه أتباعه على أنه شهيد ، وقبلوا جراحه وامتصوها واحتجزوه وحيدا فى معتقل لا قلم ولا ورق ولا تدفئة ولا ضوء فيه ، وانهارت روحه المعنوية يوما بعد يوم ، فاعترف بأنه غرر به ، فأفرج عنه فى ١٦٥٩ ، وقضى نحبه فقيرا معدما فى ١٦٦٠ (٦٤) .

ولقد تميز الكويكرز بما بدا لبعض معاصريهم بأنه أشياء غريبة تثير المتاعب . إنهم لم يجيزوا أى أثر للزخرف والتبرج فى ملابسهم . وأبوا أن يخلعوا قبعاتهم لأى إنسان مهما كانت مكانته ، حتى فى الكنيسة أو القصر أو المحكمة . ولم يخاطبوا أى فرد بغير ضمير المفرد (أنت) بدلا من ضمير الجمع (أنتم) الذى يوحى أصلا بالتشريف والتكريم . ونبذوا الأسماء الوثنية لأيام الأسبوع وشهور السنة ، فكانوا يقولون على سبيل المثال : « اليوم الأول من الشهر السادس » وأقاموا الصلوات فى العراء أو بين الجدران بنفس السهولة واليسر وطيب النفس ، وكان كل فرد من المصلين يدعى ليخبر بما أوحى به إليه الروح القدس أن يقول ، ثم يروح الجميع بعد ذلك فى صمت رهيب يكلله الجلال والوقار ، وكأنما هذا الصمت عقار مهدىء مسكن بعد نوبة الحماس والغيرة — وهو صمت يعنى فى أساسه عندهم « إحساس بروح خيرة فى أعماقهم » . ورخص للنساء فى الصلاة

الزوجية فوق أى لوم أو أية شائبة . وحد من تكاثرهم ما تواضعوا عليه من الزواج بعضهم من بعض ، وعلى الرغم من ذلك بلغ عدد الكويكرز فى ١٦٦٠ فى انجلترا ستين ألف « صاحب » إذ ما اشتهروا به من أمانة وكياسة وجد وبعد عن الإسراف ، ارتفع بهم من المراتب الوضيعة التى ظهروا فيها أول ما ظهروا إلى الطبقات الوسطى التى ينتسب معظمهم الآن إليها .

٧ ـ الموت والضرائب

أن الطبقات الوسطى هى التى تمتعت بأعظم الازدهار، فى عهد كرومول. وفوق كل شىء انصرف التجار إلى التجارة الخارجية ، وضم البرلمان آنذاك أفرادا يمثلون للصالح الاقتصادية أو يمتلكونها . ومن أجلهم قضى قانون الملاحة الصادر فى ١٦٥١ بنقل الواردات من المستعمرات إلى بريطانيا على مراكب إنجليزية — ومن الواضح أن هذا إجراء موجه إلى الهولنديين . وراودت كرومول فى بعض الأحيان فكرة التحالف مع المقاطعات المتحدة ، ابتغاء حماية البروتستانتية وتعزيزها ، ولكن تجار لندن آثروا الربح على التقوى والورع . وسرعان ما وجد كرومول نفسه (١٦٥٢) متورطا فى الحرب الهولندية الأولى . وكانت النتائج مشجعة كما رأينا .

واستمرت حمى الإمبريالية بنمو البحرية . وأوحت ذكرى هوكنز ودريك إلى التجار وإلى كرومول نفسه بإمكان كسر شوكة الأسبان وسيطرتهم فى الأمريكتين ، واستيلاء انجلترا على تجارة الرقيق الرابحة وتوجيه المعادن النفيسة من الدنيا الجديدة إلى لندن ، وفوق ذلك كله ، كما أوضح كرومول ، فان غزو جزر الهند الغربية يمكن المبشرين والوعاظ الإنجليز من تحويل هذه الجزر من الكاثوليكية إلى البروتستانتية(٦٥) .

وفى ٥ أغسطس ١٦٥٤ بعث كرومول إلى فيليب الرابع ملك أسبانيا بتوكيدات الصداقة بينهما . وفى ٦ أكتوبر أرسل إلى البحر المتوسط أسطولا بقيادة بليك . وفى ديسمبر أتبعه بأسطول آخر تحت امرة وليم بن (والد أحـــد أعضاء الـكويكرز) وروبرت فينابل ، للاستيلاء على جزيرة هسبانيولا (احدى جزر الهند الغربية) من أسبانيا وأخفقت هذه المحاولة الأخيرة ، ولـكن بن استولى على جمايكا لانجلترا (١٦٥٥) .

وفى ٣٠ نوفبر ١٦٥٥ وقع كرومول ومازاران « وكلاهما يخضع الدين للسياسة » تحالفا انجليزيا فرنسيا ضد أسبانيا . إن الحرب التى كانت أسبانيا قد استمرت تشنها على فرنسا بعد معاهدة وستفاليا ١٦٤٨ كانت قد شغلت هاتين الدولتين أيما شغل عن التدخل فى شأن كرومول واستيلائه على مقاليد الحـكم فى انجلترا ، أما الآن فإنها هيأت لسياسته الخارجية نجاحا رائعا ، وإن كان عابرا . وتربص بليك لوقت غير قصير ، لأسطول الفضة القادم من أمريكا ، حتى عثر عليه فى ميناء سانتا كروز فى جزر كنارى ، ودمره عن آخره (٢٠ أبريل ١٦٥٧) . وأخذ الجنود الإنجليز زمام المبادرة فى هزيمة الجيش الأسبانى فى معركة تلال الدونز (بالقرب من دنـكرك) فى ٤ يونيه ١٦٥٨ . ولما انتهت الحرب بصلح البرانس (١٦٥٩) تخلت فرنسا عن دنـكرك لانجلترا ، وبدا كرومول وكأنه عوض عن فقدان مارى تيودور لثغر كاليه قبل ذلك بقرن من الزمان . أنه فـكر فى أن يضفى على اسم الإنجليز من العظمة ما كان للرومان من قبل ، وكان قاب قوسين أو أدنى من تحقيق هدفه ، فقد أصبح لانجلترا السيادة على البحار ، ومن ثم كانت المسألة مسألة وقت حتى تسيطر على أمريكا الشمالية ، وتمـد حكمها وسلطانها فى آسيا . ونظرت أوربا كلها بعين الفزع إلى البيوريتانى الذى كان يسبح الله ولـكنه ابتنى بحرية ، وألقى المواعظ ولـكنه كسب معركة ، والذى أسس الإمبراطورية البريطانية بالقوة العسكرية وهو يردد اسم المسيح . أن الرؤوس التى تملوها

التيجان ، والتى حسبته محدث نعمة دعيا مغرورا ، بدأت الآن تخطب وده وتلتمس التحالف معه دون أن تعير اللاهوت اهتماما .

ولكن جون ثورلو سكرتير مجلس الدولة أنذر كرومول بأنه كان من الخطأ أن يساعد فرنسا ضد أسبانيا ، لأن فرنسا آخذة فى الصعود على حين أن أسبانيا كانت آيلة للإضمحلال ، وأن سياسة انجلترا فى تدعيم توازن القوى فى القارة ، إن لم تتطلب مساعدة أسبانيا ، تقتضى يقينا عدم مساعدة فرنسا . والآن فى ١٦٥٩ كان لفرنسا السيادة فى البر ، وكان الطريق أمامها مفتوحا للتوسع فى الأراضى الوطيئة وفرانش كونتيه واللورين . وكم من رجل إنجليزى كان يجود بحياته لوقف أطماع لويس الرابع عشر العدوانية .

وفى نفس الوقت ازدهرت أحوال أمراء التجارة بسبب الحروب ، وأعيد فى ١٦٥٧ تنظيم شركة الهند الشرقية بوصفها مشروعا برأس مال مشترك ، « وأقرضت » كرومول ستين ألف جنيه ، حتى تتجنب تدقيق الحكومة فى فحص شئونها(٦٦) . وكانت هذه الشركة الآن من أقوى العوامل فى اقتصاد انجلترا وفى سياستها . وواجهت الحكومة نفقات الحرب برفع الضرائب إلى حد لم تبلغه فى عهد شارل الأول وشارل الثانى . وباعت معظم أراضى التاج وأراضى الكنيسة الأنجليكانية ، وضيـــاع كثير من الملكيين ، ونصف أراضى أيرلنده ، وبرغم ذلك كله بلغ متوسط العجز السنوى ٤٥٠ ألف جنيه بعد ١٦٥٤ . ولم ينتفع المواطن العادى إلا قليلا . وطرحت جانبا كل الأهداف التى ناضلت من أجلها الثورة الكبرى فيما بين ١٦٤٢ — ١٦٤٩ . ولم يقل فظاعة عن ذى قبل فرض الضرائب دون موافقة البرلمان ، والاعتقال غير القانونى ، والمحاكمة دون محلفين ، وبات حكم الجيش وحكم القوة دون تستر أشد ازعاجا وظلما عن ذى قبل ، مذ أضفوا عليه مسحة من الدين . وأضحى حكم كرومول بغيضا بغضا ليس له مثيل ، لا من قبل ، ولا من بعد(٦٢) » .

وكانت انجلترا ترقب موت حامي الحمى بصبر نافذ . وكم من مؤامرة دبرت لاغتياله ، وكان عليه دوما أن يأخذ حذره ، وزاد الآن عدد حرسه إلى ١٦٠ رجلا ، واستخدم ضابط متطرف سابق (برتبة مقدم) يدعى سكسبي Sexby ، أحد السفاحين لقتله . وكشفت المؤامرة (يناير ١٦٥٧) ، واعتقل السفاح ومات فى السجن . وفى شهر مايو نشر سكسبي كتيبا بعنوان « قتل ليس بقتل » ، كان دعوة صريحة للاطاحة برأس كرومول ، وعثر على سكسبي ومات هو أيضا فى السجن . ودبرت المؤامرات فى الجيش وفى دوائر الملكيين ، حيث ازداد أملهم بشكل جنونى فى عودة أسرة ستيوارت إلى الحكم . واعتنقت ابنة كرومول الكبرى ، زوجة اللواء المتطرف شارل فليتوود المبادىء الجمهـــورية ، ونعت على والدها دكتاتوريته(٦٨) .

وحطمت الهموم والمخاوف وفقدان الأهل والولد روح الرجل الحديدى . إنه مثل كثير ممن بلغوا ذروة السيطرة والسلطان ، استشعر الأسف أحيانا لأنه تخلى عن حياة الدعة والهدوء فى أيامه الأولى يوم كان من مالكى الأرض فى الريف . « إنى أقول ، وأشهد الله على ما أقول » لو أنى عشت فى ظل تعريشة ورعيت قطيعا من الغنم ، لكان خيرا من أن أتولى حكومة مثل هذه(٦٩) » وفى أغسطس ١٦٥٨ ماتت اليزابث أحب بناته إليه ، بعد مرض طويل أليم ، وبعد تشييع جنازتها بفترة وجيزة لزم كرومول فراشه وقد انتابه حمى متقطعة ، وربما أفاد الكينين فى شفائه ، ولكن طبيبه أبى أن يستخدمه لأنه علاج حديث أتى به الجزويت الوثنيون إلى أوربا(٧٠) . وبدا أن كرومول أبل من مرضه ، وتحدث فى جرأة وشجاعة إلى زوجته قائلا : « لاتظنى أنى سأفارق الحياة ، انى واثق من عكس هذا(٧١) » . وطلب إليه مجلسه أن يعين من يخلفه فأجاب « ريتشارد » أى ابنه الأكبر . وفى الثانى من سبتمبر أصيب بنكسة ، وأحس باقتراب

منيته . ودعا الله أن يغفر له خطاياه ويحفظ البيوريتانيين . وبعد ظهر اليوم التالى فارق الحياة . وكتب السكرتير ثورلو : « لقد صعد إلى السماء مضمخا بدموع شعبه ، على أجنحة صلوات القديسين ودعواتهم[٧٢] » ولما وصلت أنباء موت كرومول إلى أمستردام « أضيئت المدينة أيما اضاءة ، وكأنما تطلقت من عقالها ، ومضى الأطفال فى القنوات هاتفين متهللين فرحا لموت الشيطان[٧٣] » .

٨ ـ طريق العودة

١٦٥٨ — ١٦٦٠

لم يمتلك الشيطان نفس ريتشارد بن كرومول . كما أنه لم يكن لديه من الصلابة والإرادة الحديدية ما يمكن أن يقيد به انجلترا فى الأغلال التى صنعتها القوة والتقوى . وكان ريتشارد يشارك أخته ، رقة العقل مما جعلهما ينظران فى فزع خفى إلى سياسة الدم والحديد التى انتهجها والدهما . لقد جثا ريتشارد من قبل على ركبتيه أمام أبيه ، ضارعا إليه أن يبقى على حياة شارل الأول . وطيلة عهد الجمهورية والحماية ، عاش فى هدوء وسلام فى الريف على الضيعة التى حصل عليها بالزواج ولم يكن به من طموح فى أن يصبح فى ٤ سبتمبر ١٦٥٨ ، بناء على وصية والده ، « حامى حمى » انجلترا ووصفته لوسى هتشنسون بأنه « وديع مهذب فاضل ، ولكنه فلاح بطبيعته ، ولم تكن تليق له العظمة[٧٤] » .

وأفلتت الآن ، فى جرأة أكثر ، كل العناصر التى كان أوليفر قد كبح جماحها ، عندما أدركت وهن نسيج ريتشارد . من ذلك أن الجيش الذى كره فيه خلفيته المدنية ، والذى رغب فى أن يحتفظ بالسلطة التى كانت على عهد والده عسكرية بشكل صريح ، تقول إن هذا الجيش التمس منه أن يتخلى عن إدارة الجيش إلى فليتوود ، فأبى ، ولكنه هدأ من روع زوج أخته

بتعيينه قائدا . ولما كانت الخزانة خاوية مثقلة بالديون ، فإنه دعا برلمانا اجتمع فى ٢٧ يناير ١٩٥٩ ، وراجت الشائعات بأنه يدبر عودة أسرة ستيوارث إلى العرش . فجاء ضباط الجيش تتبعهم زمرمن الجنود إلى ريتشارد وطلبوا إليه فض البرلمان ، فأرسل إلى حرسه ليتولوا حمايته فتجاهلوا أوامره . واستسلم ريتشارد للقوة ووقع أمرا بحل البرلمان (٢٢ أبريل) ، وأصبح الآن تحت رحمة الجيش . ودعا الجمهوريون المتحمسون فى الجيش يتزعمهم اللواء جون لمبرت ، أعضاء البرلمان الطويل الباقين على قيد الحياة للاجتماع من جديد ، وممارسة السلطة التى كانت لهم ، كما كانت للبرلمان المبتور ، حتى مجىء كرومول ، وطرده إياهم بمعونة الجمهوريين المتحمسين فى الجيش ١٦٥٣ . والتأم عقد هذا البرلمـان المبتور الجديد فى وستمنستر فى مايو ١٦٥٩ . ولـكن ريتشارد الذى لقى من السياسة نصبا ، أرسل استقالته إلى هذا البرلمان فى ٢٥ مايو . واعتزل الحياة العامة ، وفى ١٦٦٠ آوى إلى فرنسا حيث عاش فى عزلة تحت اسم مستعار هو جون كلارك . وعاد إلى انجلترا فى ١٦٨٠ ، حيث وافته منيته فى ١٧١٢ وهو فى السادسة والثمانين من العمر .

وكتب أحد الملـكيين فى ٣ يونية ١٦٥٩ يقول : « أن الفوضى كانت تعتبر كمالا ، إذاقيست إلى نظامنا الراهن وحكومتنا الحاضرة(٥/) » واستمر الصراع على السلطة بين الجيش والبرلـمـان ، ولـكن قطاعاته المقيمة فى اسكتلنده وايرلنده أيدت البرلمان . وكان ثمة حزب ملـكى قوى فى البرلمان الذى كانت غالبيته من الجمهوريين . وفى ١٣ أكتوبر حشد لمبرت جنوده عند مدخل قصر وستمنستر وطرد البرلمان ، وأعلن أن الجيش سيتولى مقاليد الحكومة . وبدا أن تعاقب الأحداث التى بدأت بحركه برايد فى التطهير ، سوف تتـكرر : مع كرومول آخر هو لمبرت .

وقال ملتون عن « انقـلاب » لمبرت « أنه عمل أبعد ما يكون عن

الشرعية ، ومن أشد الأعمال خزيا وعارا ٠٠٠٠٠ إنى لأخشى أن أكون واحدا فى مجتمع همجى متبربر ٠٠٠ والا فكيف يجرؤ جيش مأجور أن يخضع لسلطانه هو السلطة العليا التى أقامته ، على هذا النحو(٣٦) «ولكن الشاعر كان عاجزا لاحول له ولا قوة . إن القوة الوحيدة فى بريطانيا ، التى كان فى مقدورها أن تقف فى وجه الدكتاتورية العسكرية هى جيش آخر ، أو العشرة آلاف جندى الذين خصصهم البرلمان من قبل للجنرال جورج مونك لإقرار سيادته فى اسكتلنده . ولسنا ندرى إذا كانت ثمة أطماع شخصية خفية وراء اعتزام مونك تحدى الجيش فى لندن ومقاومة اغتصابه السلطة. فأعلن مونك : « أن الضمير والشرف يقضيان على بأن أحرر انجلترا من حكومة السيف التى كبلتها فى أغلال العبودية التى لا تحتمل » . وأثار بيانه الحماسة والحمية فى عناصر مختلفة معارضة للحكم العسكرى . ورفض الأهالى دفع الضرائب وأعلن الجيش فى أيرلنده والأسطول وصبيان الحرفيين ، انضمامهم إلى البرلمان . ورفض صرافو لندن أن يدفعوا للقادة المغتصبين القروض التى اعتمدوا عليها فى دفع الرواتب للجند . وأحست الآن طبقات التجار والصناع الذين كانوا قد أقروا من قبل خلع شارل الأول ، أن الفوضى التى تنتشر ويتفاقم خطرها ، تهدد الحياة الاقتصاديه فى انجلترا ، وبدأوا يعجبون ويتساءلون : هل من المستطاع استعادة الاستقرار السياسى أو الاقتصادى دون ملك ، تهدىء شرعية مركزة من روع الناس ، وتوفر الضرائب وتسكن العاصفة ؟ . وفى ٥ ديسمبر قاد مونك قواته إلى انجلترا . وأرسل قادة الجيش قوات لاعتراض طريقه ، ولكنها رفضت القتال ضد مونك ، وسلم الضباط المغتصبون بالهزيمة وأعادوا البرلمان ، واستسلموا له ، وصاروا تحت رحمته (١٤ ديسمبر) .

وكان عدد أعضاء البرلمان المنتصر ٣٦ عضوا ، ولا يزال يميل إلى النظام الجمهورى . وكان من أول القرارات التى اتخذها ، قرار يتطلب من الأعضاء

الحاضرين وممن ينضمون إليهم فى المستقبل ، أن يتعهدوا بالتخلى عن أسرة ستيوارت . كما رفض هذا البرلمان عودة المشيخيين الذين بقوا على قيد الحياة من أعضاء البرلمان المبتور السابق ، على أساس أنهم يحبذون عودة شارل الثانى . وازدري الناس هــــذا البرلمان على أنه مجرد أحياء لبركان مبتور لا يمثل انجلترا ، وعبروا عن مشاعر الاحتقار « بشواء ردف البقرة » على هيئة تمثال يلقى به فى النيران الكثيرة المشتعلة فى الهواء الطلق ، حتى بلغ عدد هذه الحرائق ٣١ فى شارع واحد فى لندن . وأما الجنرال مونك الذى كان جيشه قد وصل إلى لندن فى ٣ فبراير ١٦٦٠ فقد أنذر البرلمان القائم بأنه إذا لم يدع إلى انتخابات جديدة موسعة ، ويحل نفسه فى موعد غايته ٦ مايو ، فإنه — أى مونك — لن يتولى حمايته بعد ذلك . كما أشار على البرلمان بإعادة الأعضاء المشيخيين الذين سبق إبعادهم ، ففعل . وأعاد مجلس العموم الموسع (ازداد عــــدد أعضائه) إقرار مذهب المشيخية (البرسبتريانز) فى انجلترا ، وأصدر الدعوة إلى انتخابات جديدة ، وأعلن حل نفسه . وعند ذلك كانت النهاية الرسمية الشرعية للبرلمان الطويل (١٦ مارس ١٦٦٠) .

وفى اليوم نفسه محا أحد العمال ، أو لطخ بالطلاء ، عبارات « أخرج أيها الطاغية ، هذا آخر ملك » التى كانت الجمهورية قد علقتها فى « بورصة لندن » . ثم ألقى العامل بقبعته وهتف « فليبارك الله الملك شارل الثانى » وعندئذ ، كما يروى ، « انضم كل من كان فى المكان يهتفون بأصوات مدوية[٧٨] » . وفى اليوم التالى التقى مونك سرا بر سول شارل ، سير جون جرينفل ، الذى أسرع فى الذهاب إلى بروكسل يحمل رسالة مونك إلى الملك غير ذى العرش .

٩ — ويعود الملك ١٦٦٠

منذ غادر شـــارل الثانى انجلترا فى ١٦٥٠ هاربا لاقى فى هربه عنتا ومشقة ، عاش متشرداً قلقاً فى القارة . واستقبلته أمه هنريتا ماريا فى باريس ، ولـكن الفرنسيون كانوا قدأفقروها • وقضى شارل وحاشيته بعض الوقت فى أشـد العوز ، عالة على الإعانات ، حتى أن مستشاره المخلص ، فيما بعد ، ادوارد هايد كان يعيش على وجبة واحدة فى اليوم • أما شارل نفسه الذى لم يكن لديه مايسد الرمق فى البيت ، فـكان يتناول الطعام فى الحانات فى معظم الأحوال نسيئة ، على حساب تطلعاته . ولما عاد لويس الرابع عشر إلى أيام الوفرة والرخاء أجرى شارل معاشا سنوياً قـــدره ستة آلاف فرنك ، ومن ثم بدأ شارل يستمتع بحياة رغـدة طليقة إلى أبعد حد ، حتى يدخل السرور على قلب أمه •

وتعلم فى أيام باريس هذه كيف يحب أخته هنريتا آن أعمق حب وأخلصه وجهدت الأم والأخت كلتاهما فى ضمه إلى الـكاثوليكية ، كما أن الكاثوليك الانجليز للمهاجرين إلى فرنسا لم يألوا جهداً فى تذكيره ، حتى لا ينسى ، مافعلوه من قبل لنصرة أبيه . ووعده مبعوثو المهاجرين المشيخيين بالمساعدة على عودته إذا ارتضى حماية مذهبهم . واستمع لـكلا الجانبين فى لطف وكياسة ، ولـكنه عبر عن تصميمه على التزام مذهب الـكنيسة الانجليكانية الذى قاسى أبوه من أجله ماقاسى(٧٩) ، وربما نزع به الجدل الذى حاصروه به ، إلى الشك فى الدين كله • ولـكن يبدو أن العبادة الـكاثوليكية التى رآها حوله فى فرنسا ، كان لهـا أثر قوى عليه ، وبات سراً مكتوما فى حاشيته الصغيرة أنه لو أطلقت يداه لانحاز إلى الـكنيسة الـكاثوليـكية (٨٠) وفى ١٦٥١ كتب إلى البابا انوسنت العاشر يعـده بأنه لو عاد إلى عرش انجلترا فلسوف يبطل كل القوانين التى صدرت ضد الـكاثوليك • ولم يجب البابا بشىء • ولـكن جماعة الجزويت أبلغوا شارل أن الفاتيكان لا يمـكن أن يؤيد أميراً هرطيقاً (٨١) •

وعندما شرع مازاران فى التفاوض لعقد تحالف مع كرومول أقنع شارل مستشاروه بمغادرة فرنسا . ووافق الكاردينال مازاران على الاستمرار فى صرف المعاش لشارل ، فانتقل إلى كولون ومنها إلى بروكسل . وهناك فى ٢٦ مارس ١٦٦٠ حمل إليه جرينفيل رسالة مونك : إذا وعد شارل بعفو عام ، باستثناء مالا يزيد عن أربعة أشخاص ، ومنح « حرية الفكر » وثبت الملاك الحاليين للممتلكات المصادرة ، فإن مونك يلتزم بمساعدته . وفى نفس الوقت ، حيث أن انجلترا مازالت فى حرب مع أسبانيا ، فيحسن بشارل أن يترك الأراضى الوطنية الأسبانية . فانتقل شارل إلى بريدا فى إقليم برامانت الهولندى ، وهناك فى ١٤ ابريل وقع اتفاقا قبل فيه شروط مونك من حيث المبدأ ، تاركا التفاصيل الدقيقة للبرلمان الجديد .

وجاءت الانتخابات بمجلس عموم ذى أغلبية ساحقة من الملكيين ، واتخذ اثنان وأربعون من صغار النبلاء مقاعدهم فى مجلس اللوردات الجديد وفى أول مايو تليت فى المجلسين كليهما الرسائل التى حملها جرينفيل من شارل وفى « إعلان بريدا » قدم الملك الشاب عفوا عاما فيما عدا الأفراد الذين يستثنيهم البرلمان فيما بعد » ، وترك للبرلمان تسوية موضوع الأملاك المصادرة ووعد « بألا يزعج شخصاً أو يستدعيه لمساءلته لخلاف فى الرأى فى أمور العقيدة ، وألا يعكر صفو الأمن فى المملكة » . ثم أضاف بياناً حكيما أعده له المستشار هايد :

> أنا نؤكد لكم ، تحت كلمتنا الملكية أن بعض أسلافنا كانوا يقدرون البرلمان أكثر مما نقدره نحن . وإنا لنؤمن بأن هذا كله جزء حيوى من دستور المملكة ، ضرورى لحكومتها ، إلى حد أننا ندرك تمام الإدراك أنه ليس ثمة شعب أو أمير يمكن أن يحيا حياة سعيدة إلى درجة مقبولة بدونه . ولسوف تنظر دوما إلى نصائحهم على أنها أفضل تراث منهم ، ولسوف نكون معتزين بمآثرهم مهتمين بالمحافظة

عليها وحمايتها ، قـدر اعتزازنا واهتمامنا بأقرب شيء إلى أنفسنا ، وألزم شيء لصيانتنا والحفاظ علينا .

وسر البرلمان لهذا ، وفى ٨ مايو نادى بشارل الثانى ملكا على انجلترا ، مؤرخا لقبه من يوم وفاة والده ، غير مستند فى ذلك إلى أى قرار برلمانى ، بل إلى حق المولد الوراثى . كما أقر إرسال مبلغ خمسين ألفاً من الجنيهات إلى شارل مع دعوته إلى القدوم فوراً لاعتلاء عرشه .

وابتهجت انجلترا كلها تقريبا بانتهاء عقـدين من السنين سادهما العنف ، بعودة النظام دون إراقة قطرة من الدماء . ودقت النواقيس فى طول البلاد وعرضها . وفى لنـدن جثا الناس فى الشوارع وشربوا نخب الملك (٨٢) . وهللت كل الرؤوس المتوجـة فى أوربا لانتصار الشرعية ، حتى للقاطعات المتحدة ، وهى جمهورية بشكل قوى ، كرمت شارل طوال رحلته من بريدا إلى لاهاى ، وقدمت له الجمعية التشريعية التى كانت قد تجاهلته حتى الآن ، مبلغ ثلاثين ألف جنيه لنفقاته ، عربونا للنيات الطيبة فى المستقبل . وجاء إلى لاهاى أسطول انجليزى ترفرف عليه الأعـلام مزدانة بالحروف الأولى من « الملك شارل » وحمله إلى انجلترا فى ٢٣ مايو .

وفى ٢٥ مايو وصل الأسطول إلى دوفر ، واحتشد على الشاطىء عشرون ألفا لاستقبال الملك . ولما اقتربت السفينة من الشاطىء سجد الجميع ، كما سجد الملك عنـدما وطئت قدماه الأرض ، شكرا لله . وكتب فولتير : « أنبأنى العجائز الذين كانوا هناك أن معظم العيون أغرورقت بالدموع » . وربما لم يحدث من قبل مشهد مؤثر إلى هذا الحد (٨٣) . وعلى طول الطريق الذى احتشدت فيه الجموع السعيدة على مسافات قريبة ، ركب شـــارل ومرافقوه ، تتبعهم مئات الناس ، إلى كنتربرى ، ثم روشستر ومنها إلى لندن . وهناك خرج (١٢٠ ألفا للترحيب به ، حتى الجيش الذى حارب ضده ، انضم الآن إلى قوات مونك ، فى هذا العرض . وانتظره أعضـاء مجلسى

البرلمـان فى قصر هو يتهول . وقال رئيس مجلس الوردات : « أيها الملك المهيب ، أنت مناط رغبة ثلاث ممالك ، وقوة لمختلف طبقات الشعب وسند لها ، فى تخفيف الانفعالات والآلام ، وتسوية الخلافات .... واستعادة شرف هذه الأمم المنهار [٨٤] . » وتقبل شارل كل هـذه التحية والإطراء فى لطف وتملكه شعور خاص ، وعندما آوى إلى شىء من الراحة بعد أن أرهقه الانتصار ، قال لأحد أصدقائه : « لابد أنه كان من الخطأ أنى لم أحضر من قبل ، فإنى لم ألتق اليوم بفرد واحـــد لم يحتج بأنه كان دوما راغبا فى عودتى [٨٥] » .

الفصل الثامن

ملتون

١٦٠٨ — ١٦٧٤

١ — جون بنيان : ١٦٢٨ — ١٦٨٨

فى غمرة التحمس للدين والأخلاق لم يحس البيوريتانيون بالحاجة إلى أدب دنيوى . وكان فى انجيل الملك جيمس الأول (أى الذى ترجم إلى الإنجليزية فى عهده) زاد كاف لهم من الأدب . وبدا كل شيء فيما عداه ، تقريبا ، تافها أو خبثا آثما . وفى ١٦٥٣ اقترح أحد أعضاء البرلمان ألا يدرس فى الجامعات سوى الأسفار المقدسة و « كتاب يوم وما عاثله(١) » . وقد يبدو هذا الأمر مزعجا محزنا ، ولكن يجدر أن نلاحظ أنه فى ذروة هيمنة البيوريتانيين (١٦٥٣) نشر سير توماس اركهارت ترجمته الرائعة لرابليه(*) ، مؤثرا الأدب الداعر المكشوف على الإيمان بالبعث والحساب . وفى العام نفسه أخرج إيزاك والتون كتابه صياد السمك المثالى Compleat Angler كشف فيه عما فى الماء من أسماك ، وحتى فى أيامنا هذه التى نقفز فيها قفزات حكيمة من نوع من السمك إلى آخر ، نجد هذا الكتاب ممتعا فى بساطته وعذوبة أسلوبه ، كما أنه يذكرنا بأنه على حين كانت انجلترا تمر بثورة لا تقل عنفا عن ثورة ١٧٨٩ ، فإن الناس كانوا يستطيعون أن يقصدوا فى هدوء إلى القنوات فى الريف ليصيدوا ويوقعوا فى شراكهم مخلوقا حذرا يقظا .

(*) الكتابان الأول والثانى ١٦٥٣ ، والثالث ١٦٦٣ . وأكمل بيير موتيه الترجمة فى ١٧٠٨ .

انحرف قليلا عن الطريق أيها العالم الجليل ، أعرج بنا عن الطريق قليلا حيث يمكن أن نجلس ونختفى عند هذا السياج من الشجيرات الغنية برحيق الأزهار ، حتى تفرغ هـــذه السحابة ماءها على الأرض التى تنبت الزرع[٢] » .

وحافظ أندرو مارفل على حياته بحكمة وتعقل ، طيلة التعديل المستمر فى الحكومات من يوم مولده فى ١٦٢١ إلى يوم وفاته فى ١٦٧٨ ، ورحب بعودة كرومول من أيرلنده فى قصيدة غنائية قوية عذبة ، ولكنه تجرأ فيها على التعاطف مع الملك القتيل شارل الأول : —

إنه لم يأت بأمر مبتذل أو دنىء ، فى هذا المنظر المشهود ، بل تفحص ببصره الحاد نصل البلطة ، كما أنه ما أهاب بالآلهة فى حنق بذىء لتدافع عن حقه اليائس ، ولكنه حنى رأسه الوسيم ، وكأنه يحنيه على الفراش[٣] .

وأصبح مارفل مساعدا لملتون فى وظيفة سكرتير لكرومول للغة اللاتينية . وانتخب عضوا فى برلمان ١٦٥٩ ، وساعد على انقاذ ملتون من انتقام الملكيين المنتصرين ، وعاش ١٨ عاما فى ظل الملكية العائدة ، واستنكر مباذلها وفسادها وعجزها ، فى قصائد هجاء أحجم فى حرص شديد عن نشرها .

وكتبت روائع جون بنيان ، مثلها فى ذلك مثل ملاحم ملتون ، بعد عودة الملكية . ولكن الرجلين كليهما تشكلا فى ظل النظام البيوريتانى . وهو يقول : « كان منبتى وضيعا حقيرا ، وكان بيت أبى من أحط البيوت مكانة ، وكان موضع أشد الازدراء من الأسرات ممن حولنا[٤] » . وكان أبوه (سمكريا) يصلح القدور والغلايات فى قرية الستو بالقرب من بدفورد . وحصل الوالد ، توماس بنيان ، من مهنته على ما يكفى لإرسال ابنه جون إلى مدرسة بدفورد حيث تعلم من القراءة والكتابة قدرا كافيا على الأقل « ليتفحص الأسفار المقدسة » ، ويكتب أشهر الكتب الإنجليزية .

وفى القرية اشتغل صبيا لوالده الذى لقنه تعليما شفويا بطريقة السؤال والجواب فى أمسيات أيام الأحد . وعن أولاد المدينة تعلم الكذب والتجديف فى الدين . وهو يؤكد لنا « أنه لم يضارعه إلا القليل فى هذه الأفانين »(٥) . وأكثر من هذا أنه أدين بالرقص وممارسة الألعاب وتناول قدح من الجعة فى إحدى الحانات . وكلها أمور يحاسب عليها البيوريتانيون الذين لم يكونوا قد استولوا بعد على مقاليد الأمور ، فى سنى شبابه (١٦٢٨ — ١٦٤٨) . وهو يقول عن نفسه « كنت أتزعم أعمال الرذيلة والشر والفسوق(٦) » ومثل هذه الاعترافات بالخطايا الجسيمة كانت أمرا شائعا مألوفا بين البيوريتانين ، حيث عملوا على جذب أشد الانتباه إلى اصلاحهم الدينى ، وأظهروا قدرة الله على أن يهبهم نعمة الخلاص . ولما انتشرت التعاليم البيوريتانية من حوله ، أغض مضجعه وحد من نزعة الشر عنده ، تفكيره فى الموت وفى يوم الحساب وفى الجحيم . ورأى مرة فيما يرى النائم أن السماء كلها فوقه تضطرم بالنيران وأن الأرض تحته تزلزلت ، فنهض من نومه مذعورا ، وأزعج الأسرة بصرخاته : « يا إلهى ، أسألك الرحمة بى ، وقعت الواقعة ، ولم أعد نفسى ليوم الحساب(٧) » .

وفى سن السادسة عشرة سيق إلى جيش البرلمان حيث خدم لمدة ثلاثين شهرا فى الحرب الأهلية . وهو يقول عن فترة الجندية « لم أكف عن الخطيئة والإثم ، وإزداد تمردى على الله ، وعدم اكتراثى بالخلاص(٨) » . وبعد تسريحه من الجيش تزوج من فتاة يتيمة (١٦٤٨) كان كل صداقها اثنين من الكتب الدينية ، وذكرياتها التى لاتفتأ ترددها عن تقى أبيها وورعه . ومذ خلف جون أباه فى الحانوت ، فأنه استطاع أن يحولها « بالسمكرة » . وازدهرت أحواله ، وتردد على الكنيسة بانتظام ، وتخلى عن نزوات شبابه شيئا فشيئا . وكان يقرأ الكتاب المقدس كل يوم تقريبا ، حتى صارت لغته الإنجليزية البسيطة هى لغة بنيان نفسه . وتحدثت قرية الستو عنه على أنه مواطن نموذجى .

ولـكن الشكوك اللاهوتية أرهقته ، كما يقول . ولم يكن على ثقة من أن رحمة الله قد وسعته ، وبدون هذه الرحمة سيلاقى أشد العذاب . وارتاب فى أن معظم أهل الستو وبدفورد سيكون مصيرهم بالفعل إلى نار الجحيم . وأزعجه تفـكيره فى أن معتقداته المسيحية كانت مجرد حـــدث جغرافى . وتساءل فيما بينه وبين نفســه : « ماذا نقول إلا أن الأتراك لديهم كتاب مقدس عظيم ، مثل كتابنا ، يثبت أن رسولهم (محمداً) سوف يكون شفيعا لهم ، كما يجب أن تثبت نحن أن المسيح مخلصنا (٩) ؟ » « لقد غرقت روحى فى بحرين من التجديف على الله والمسيح والأسفار المقدسة ... وثارت فى نفسى التساؤلات عن حقيقة وجود الله وابنه الوحيد الحبيب . وهل يوجد حقا إله أو مسيح ؟ ؟ . وهل كانت الأسفار المقدسة إلا خرافة أو قصـــة بارعة أكثر منها كلمة الله المقدسة الخالصة ؟ (١٠) وانتهى إلى أن هـــذه الشـكوك أثارها شيطان يسكن بين جنبيه . « إنى لحظت الـكلب والضفدعة وحسبت ما أعد الله لهما مما جعلهما فى حالة أفضل من حالى بكثير ... لأنهما ليس لهما نفس ترزح تحت وطأة عذاب النار أو الخطيئة ، كما هو محتمل أن تفعل نفسى (١١) » .

وبينما كان يوما فى طريقه إلى الريف مستغرقا فى التأمل فى شرور قلبه تذكر كلمات القديس بولس : « صنع السلام بما سفك من الدم على صليبه (١٢) »

« وقويت فى ذهنه فـكرة أن المسيح مات من أجله ومن أجـــل الآخرين » ، حتى كنت مستعدا أن أغرق فى نشوة ... من الحبور والهدوء الحقيقيين (١٣) » . وانضم إلى كنيسة معمدانية (١٦٥٣) فى بدفورد ، وعمد ، وقضى عامين فى حياة تسودها السعادة والهدوء الروحيين ، وفى ١٦٥٥ انتقل إلى بدفود وعين شماسا فى هذه الـكنيسة ، وفى ١٦٥٧ كلف بالوعظ ، وكان موضوعه هو رسالة لوثر : ما لم يؤمن المرء إيمانا راسخا بأنه قـد تخلص من جنوحه إلى الإثم بالطبيعة ، بسبب موت المسيح بن الله ،

فإنه لا بد بصرف النظر عن فضائله — لاحق بالأكثرية العظمى من البشر الذين يحشرون فى نار جهنم . إن تضحية للمسيح المقدسة بنفسه ، هى وحدها التى يمكن أن تعدل جسامة خطيئات الإنسان . وكان من رأيه أن يلقن الأطفال هذا الأمر فى وضوح تام : —

فى اعتقادى أن الناس يسلكون طريقا خاطئا فى تعليم أبنائهم العبادة ويبدو لى أنه من الأفضل أن ينبيء الناس أطفالهم ، فى وقت مبكر ، وقبل فوات الأوان ، أية مخلوقات بغيضة لعينة هم ، وكيف أنهم يبوؤون بغضب من الله ، بسبب الخطيئة الأولى الأصلية الفعلية ، كما يظهرونهم على طبيعة غضب الله ، وخلود البؤس والشقاء (١٤) .

ووسط هذه النصائح والتحذيرات ، ضمت مواعظ بنيان كثيراً من الآراء الحكيمة فى تنشئة الأطفال ومعاملة المستخدمين ، وكان مثل غيره من الوعاظ ، عرضة لتحديات الكويكرز ، الذين قالوا إنه ليست الأسفار المقدسة ، بل النور الداخلى هو الذى يهيء للمعرفة والخلاص . وفى ١٦٥٦ وضع كتابين هاجم فيهما الطائفة الجديدة المزعجة . فكان جوابهم أنهم اتهموه بأنه يسوعى ، قاطع طريق ، زان ساحر(١٥) . أما أسوأ الشدائد فقد حلت عليه بعودة الملكية ، فقد جدد القانون القديم الذى صدر فى عهد اليزابث والذى قضى بحضور كل الانجليز الصلوات الأنجليكانية دون غيرها ، وأذعن بنيان إلى حد إغلاق مكان اجتماعاته الخاص فى بدفورد ، والتقى بجمهور المصلين فى أماكن خفية وألقى عليهم مواعظه ، فاعتقل ، وعرض عليه إطلاق سراحه إذا وعد بألا يعظ علانية . فرفض وأودع سجن بدفورد (نوفمبر ١٦٦٠) ، وهناك قضى اثنى عشر عاما ، مع بعض فترات تمتع فيها بحرية محدودة . وتجدد فى أوقات متفرقة عرض الإفراج عنه ، بنفس الشروط ، مثيراً نفس الرد : « إذا أطلقتم سراحى اليوم فسأشرع فى الوعظ غداً (١٦) » .

وربما أصبحت حياة الأسرة عبئاً ثقيلا ، لقد توفيت زوجته الأولى في ١٦٥٨ تاركة له أربعة أطفال أحدهم أعمى ، وكانت الثانية حاملا . وعاون الجيران في إقامة أود الأسرة ، وأسهم بنيان في نفقاتها بصنع بعض المحرمات في السجن وتدبير أمر بيعها ، وأجيز لزوجته وأولاده أن يزوروه كل يوم كما أجيز له أن يعظ رفاق السجن ، وأن يغادر السجن متى شاء ، حتى للسفر إلى لندن (١٧) . ولكنه استأنف الوعظ سراً فضيقوا عليه الخناق في السجن . وفي المعتقل قرأ الكتاب المقدس المرة تلو المرة ، كما قرأ كتاب فوكس « سجل الشهداء » ، وأذكى حرارة الإيمان عنده بمحارق الأبطال البروتستانت ، ووجد متعة عظيمة في رؤى سفر الرؤيا ، ولا بد أنه كان مزوداً بالقلم والقرطاس ، لأنه في السنوات الست الأولى من احتجازه كتب ست قطع دينية ، كما وضع مؤلفه العظيم « الرحمة تتسع لكبير الخطائين » . وهو سيرة حياته الروحية ، وهو رؤيا تكاد تكون مفزعة من رؤى العقل البيوريتاني .

وفي ١٦٦٦ . وفي ظل « الإعلان الأول للتسامح » الذي أصدره شارل الثاني ، أطلق سراح بنيان فعاود الوعظ فأعيد إلى السجن . وفي ١٦٧٢ أجاز « الإعلان الثاني للتسامح » الذي أصدره شارل الثاني ، للقساوسة المنشقين أن يلقوا المواعظ ، فأفرج عن بنيان ، وانتخب على الفور راعيا للكنيسة القديمة . وفي ١٦٧٣ أبطل العمل بإعلان التسامح ، وتجدد تحريم الوعظ على المنشقين ، فلم يمتثل بنيان له ، وأعيد إلى السجن (١٦٧٥) ، ولكن سرعان ما أخلى سبيله .

وفي هذه المرحلة الثالثة والأخيرة كتب بنيان الجزء الأول من « انطلاق الحجيج من هذه الدنيا إلى العالم الثاني » ، وقد نشر هذا الجزء في ١٦٧٨ وأعقبه الجزء الثاني في ١٦٨٤ . (في مقدمة شعرية مضحكة رديئة غير معقولة زعم بنيان أنه كان قد وضع هذا الكتاب ملهاة وتسلية لنفسه دون أن يفكر في نشره) وعرض القصة ، في لطف ، في صيغة وهم أو

خيال جامح .

« بينما كنت أضرب فى فيافى هـذا العالم ، جئت إلى مكان معين حيث كانت ثمة « خلوة » فتمددت فى هذا المكان لأنام ، وإذ غلبنى النعاس رأيت فيما يرى النائم حلما (١٨) » .

إن كريستيان استبد به فى هذه الرؤيا . التفكير فى أنه يجب عليه أن يتخلى عن كل شيء وينسى كل شيء ، وألا يلتمس سوى المسيح والجنـة . فيهجر زوجته وأولاده ، ويبدأ رحلته إلى « المدينة السماوية » . ويلحق به « الموحى بالأمل Hopeful » الذى يعبر عن العقيـــدة البيوريتانية فى إحكام بارع :

كنت يوما فى حزن شديد ، أحسب أنه أشد مالقيت فى حياتى . ونتج هذا الحزن عن رؤية صادقة لجسامة آثامى وفظاعتها ة ولما كنت آنذاك لا أفـكر فى شيء إلا الجحيم والعذاب المقيم . فإنى فجأة ، وأنا غارق فى التفـكير ، رأيت يسوع المسيح ينظر إلى من علياء السماء ، قائلا : « آمن بيسوع المسيح وسيكتب لك الخلاص (١٩) » . ولـكنى أجبته : إنى خطاء كبير خطاء كبير جداً ، فأجاب « رحمتى تتسع لك » ... وهنا غمرنى الفرح (٢٠)

وبعد شيء كثير من المحنة والنزاع يصل الحجيج إلى « المدينة السماوية » فندرك هذ الذى كانوا يأملون فيه فى حماسة بالغة :

ومن عجب أنهم حين دخـلوا ، تغيرت هيئتهم وأحاطت بهم هالة من الجلال ، وارتدوا ملابس بدت وكأنها من ذهب . كما كان هناك من قابلهم بالقيثارات والتيجان وأعطاهم إياها — القيثارات — لترتيل آيات المدح والثناء والتيجان رمز للتكريم والتشريف ، وانظر ؟ ان « المدينة السماوية » يتألق نورها وكأنه ضياء الشمس ، والشوارع مـكسوة أرضها بالذهب ، وفيها سار خلق كثير تعلو رؤوسهم التيجان ويمسكون بأغصان الغار فى أيديهم ، ومعهم قيثارات من الذهب ينشدون عليها ترانيم الثناء والشكر (٢١) .

أما « الجهل المسكين » الذى تبعهم ، متعثرا فى عرجه ، دون أن يتزود بالإيمان الصادق ، فإنه يأتى إلى أبواب « المدينة السماوية » ، ويطرقها ، فيسأل عن جواز مروره فلا يجده ، فيلقى به فى الجحيم[٢٢] — إن القصة تروى بشكل جذاب ، ولكننا نعطف أحيانا على « العنيد » الذى يقول عن المسيحى ورفاقه ، « هناك فئة من هؤلاء المخبولين المغرورين الذين ، حين يمسكون بطرف من الخيال ، يظنون أنهم أعقل حتى ممن يستطيعون تحكيم عقولهم[٢٣] » .

أن فكرة حج النفس من نطاق المغريات الدنيوية إلى نعيم الآخرة ، فكرة قديمة ، وتلك كانت صفتها المجازية فى العصور الوسطى ، ويحتمل أن بنيان كان قد قرأ بعضا من هذه الكتب[٢٤] . وجر النسيان ذيوله الآن عليها فى غمرة النجاح الخارق الذى لاقته القصة الجديدة ، حيث صدر منها تسع وخمسون طبعة فى المائة العام الأولى من ظهورها ، وبيع منها مائة ألف نسخة قبل وفاة بنيان . وبيع منها ملايين من النسخ منذ هذا الوقت ، وترجمت إلى ١٠٨ من لغات أمريكا البيوريتانية . وكانت تقتني فى كل بيت تقريبا . ودخلت منها إلى الحديث الدارج عبارات كثيرة — (سلمخ) التخلص من الجزع ، غرور الدنيا رجل الدنيا الحكيم . وفى القرن العشرين فقد الكتاب شعبيته بسرعة ، حيث لم يعد للخلق البيوريتانى وجود ، ولم يعد هناك إيمان بما جاء فى الكتب ولم يعد يقتنى ، ولكنه لايزال فيضا من اللغة الإنجليزية البسيطة المهذبة الواضحة .

وضع بنيان نحو ستين كتابا ، وليس ثمة ما يدعو اليوم إلى قراءتها . وبعد إطلاق سراحه للمرة الأخيرة ١٦٧٥ أصبح واحداً من ألمع الوعاظ فى عصره ، والزعيم المعترف به لطائفة المعمدانيين فى انجلترا . وأبدى إعجابه بشارل الثانى . وأمر أتباعه بالولاء والإخلاص لملك أسرة ستيوارت بوصفه درع انجلترا وحاميها ضد البابا[٢٥] . وبعد انقضاء ثلاث سنوات على إعلان شارل الثانى اعتناقه الكثلكة وهو على فراش الموت ، أنهى

بنيان رسالته ، ومن الغريب أن نهايته كانت مثل نهاية لوثر . ذلك أنه حدث فى ريدنج (مدينة فى وسط انجلترا) نزاع بلعد بين والد وولد كان بنيان موليا بهما ، فسافر إليهما على ظهر جواد من بدفورد • فأصلح بين الفريقين المتخاصمين ، ولكنه عندما قفل راجما على ظهر جواده ، فاجأته العاصفة وبللته قبل أن يعثر على مأوى يعصمه منها ، وانتابته حمى لم يبل منها قط . وورى التراب فى مقبرة للمنشقين فى بنهل فيلدز (Bunhill Fields) حيث يرقد حتى اليوم مع شاهد حجرى على قبره •

الشاعر الشـــــــاب ١٦٠٨ - ١٦٤٠

كان جد ملتون كاثوليكيا حكم عليه فى ١٦٠١ بدفع غرامة قدرها ستون جنيها لتغيبه عن الصلوات الأنجليكانية ، وحرم ابنه من الميراث لأنه تخلى عن الكنيسة الرومانية . أما جون ملتون ، الذى تبرأوا منه وأنكروه فقد حصل على قدر لا بأس به من المال بوصفه كاتبا عموميا فى لندن ، صاحب قلم برع فى كتابة أو نسخ المخطوطات والوثائق والمســـتندات القانونية • وأولع بالموسيقى ، ونظم القصائد الغزلية القصيرة ، واحتفظ فى داره بكثير من الآلات الموســـيقية ومن بينها أرغن ، وانتقل هذا الانعطاف نحو الموسيقى إلى الشــاعر الذى ربما أقر بأن المرء لكى يجيد الكتابه ، لابد أن تتغلغل الموسيقى فى نفسه ، وأن تكون له أذن موسيقية واعية • أما الأم ، ساره جفرى ، فكانت ابنة خياط تاجر ، أنجبت لزوجها ستة أبناء كان صاحبنا جون ثالثهم • أما أخوه الأصغر فأصبح ملكيا يدين بالولاء لأسرة ستيوارث ، وواحدا من رجال الكنيسة التقليدية . على حين أن جون أصبح جمهوريا بيوريتانيا من أنصار كرومول . وكان البيت فى « برد ستريت » مؤسسة بيوريتانية تقية مخلصة ، ولكن غير متزمتة ، فان حب الجمال الذى ساد عصر النهضة ، امتزج هنا بالنزوع إلى الخير والفضيلة ، الذى أتى به الإصلاح الدينى .

واشترى جون الأكبر عقارا ، وأثرى، واستخدم معلمين (بيوريتانيين) من أجل جون الأصغر ، وأرسله فى سن الحادية عشر إلى مدرسة سانت بول . وهناك تعلم الصبى اللاتينية واليونانية والفرنسية والإيطالية وبعض العبرية ، وقرأ شكسبير ولكنه آثر عليه سبنسر . وأنا لاحظ ، باربن ، أنه تأثر كثيرا بالترجمة الإنجليزية لكتاب « الأسبوع » لمؤلفه دى بارتاس (١٥٧٨)، وهو عبارة عن ملحمة تصف خلق الدنيا فى سبعة أيام :

كان بى نهم شديد إلى العلم والمعرفة ، إلى حد أنى ، منذ بلغت الثانية عشرة كدت لا أترك الكتاب أبداً ، ولا آوى إلى النوم قبل منتصف الليل . وهذا أدى فى الأساس إلى فقد بصرى . وكانت عيناى (مثل عينى أمه) ضعيفتين بطبيعتهما ، وكنت عرضة للإصابة بالصداع كثيرا ، ولكن هذا على أية حال لم ينقص من حبى للاطلاع ، ولم يعوق تقدمى فى التحصيل(٢٦) .

وفى سن السادسة عشرة انتقل إلى كريست كولدج فى كمبردج . وهناك أدى نزاعه مع أحد المدرسين إلى التضارب والتلاكم بالأيدى . وأحس صمويل جونسون « بالخجل حين أروى ما أخشى أن يكون حقيقة ، وهى أن ملتون كان من أواخر من وقعت عليهم العقوبة البدنية من طلبة الجامعتين كلتيهما »(٢٧) . وطرد لمدة فصل دراسى واحد ثم سمح له بالعودة ، وكان بالفعل ينظم شعرا جيدا . وفى ١٦٢٩ ، وهو فى الحادية والعشرين ، نظم قصيدة غنائية رائعة فى الاحتفال « بصبيحة عيد الميلاد » . وبعد ذلك بعام واحد ، نظم قصيدة من ستة عشر بيتا ، احياء لذكرى شكسبير ولتنقش على قبره ، وقد ووفق بعد ذلك على نشرها فى الطبعة الثانية لأعمال شكسبير : —

ماحاجة شكسبير العزيز إلى جهد جيل فى إقامة أحجار مكومة لعظامه المكرمة ، أو لإخفاء رفاته المقدسة تحت هرم يشير إلى النجوم ؟

أيها العزيز الذى لايغيب عن الذاكرة ، أيها العظيم سليل الشهرة ، ماذا

يريد من شاهد هزيل على اسمك الرنان(*) .

وقضى ملتون فى كمبردج ثمانى سنوات، وحصل على درجة البكالوريوس فى ١٦٢٨، والماجستير فى ١٦٣٢ . ثم تركها دون أن يحس بالولع المعهود فى المتخرجين بحضور يوم الكلية التى تخرجوا فيها . وكان أبوه يتوقع أن ينخرط فى سلك الخدمة الكهنوتية . ولكن الشاب المغرور أبى أن يقسم يمين الولاء للمذهب الأنجليكانى وطقوسه الدينية : —

ومذ رأيت كيف غزا الطغيان الكنيسة — بمعنى أن الذى يرسم قسيسا يجب أن يتعهد بأن يكون عبدا رقيقا ، وفوق ذلك يقسم اليمين الذى لو لم يلتزم به إلتزاما يبعث على الضجر فإنه أما أن يحنث فى يمينه أو يرائى فى إيمانه — فأنى وجدت من الأفضل ايثار الصمت البرىء أمام الوظيفة المقدسة ، وظيفة الكلام والوعظ ، التى تشترى بالعبودية والقسم الكاذب(٢٩) .

وآوى ملتون إلى بيت والده الريفى فى هورتون بالقرب من وندسور ، ومن الواضح أن والده تولى الانفاق عليه هناك ، وتابع هو دراساته القديمة بصفة أساسية ، إلى أن ألم حتى بأصغر المؤلفين اللاتينيين شأنا . وكتب قصائد باللغة اللاتينية ، أثنى عليها كاردينال كاثوليكى . وسرعان ماجعل دفاعه باللاتينية عن سياسة كرومول يرن صداه فى أنحاء أوربا . وحتى حين كتب نثرا بالإنجليزية ، فأنه كتب باللاتينية حيث كان يخضع الإنجليزية لتقديم وتأخير وتعقيدات والتواءات كلاسيكية ، ولكنه كان يكتب فى لغة غريبة ساحرة رنانة .

ويحتمل أنه فى هورتون وسط الحقول المورقة والخضرة فى الريف الإنجليزى ، كتب القطع المزدوجة ، التى خلدت ذكرى الابتهاج الخالى من

(*) يؤسفنا أن نضيف أنه لما وكل إلى ملتون مهمة الدفاع عن اعدام شارل الأول ، ذكر من بين المساوىء التى تلطخ ذكرى هذا الملك اعتزازه وولعه بشكسبير(٢٨) .

الهم ، ونوبات الكآبة فى شبابه العابر ، سواء بسواء . إن كل سطر من « Allegro » يطالب بأن يتغنى به الناس . و « اللجرو » هى « الإبنة الجميلة . الممتلئة الجسم ، المرحة اللطيفة ، المولودة من « زفير » الريح الغربية العليلة وهى تداعب أورورا الفجر » أن كل شىء فى مشهد الريف يدخل الآن البهجة على قلب الشاعر : القنبرة تشق سكون الليل ، الديك يختال فى مشيته أمام دجاجاته ، الكلاب تقفز عند سماعها بوق الصياد ، شروق الشمس « فى أشعة وضاءة فى لون السكهرمان » (أصفر ضارب للحمرة) : بائعة اللبن التى تغنى والقطعان التى تلوك غذاءها ، ورقص الشبان والشابات على الحشائش ، والأمسيات بجوار المدفأة أو فى المسرح :

إذا مثل بن جونسون احدى تمثيلياته الراقية أو صدح شكسبير الشاعر المذب القوى الخيال بألحان الغابة الشعبية الفطرية الموسيقى .

وتفك الأغلال التى تقيد روح التآلف والانسجام الخفية ، إنك إذا استطعت أيها المرح أن توفر لى هـذه المباهج كلها ، فإنى أود أن أحيا معك .

وحتى الآن لم يكن ثمة بيوريتانى متجهم عبوس مكتئب ، بل شاب إنجليزى مفعم بالصحة يجرى فى عروقه بعض دم شعراء عصر اليزابث .

ولكن طرأ بين الحين والحين مزاج آخر ، حتى بدت هذه المسرات تافهة للعقل المفكر ، حين يتذكر المأساة (التراجيديا) ، ويفتش عن مغزى ، ولا يجد فى الفلسفة إجابات ، بل تساؤلات لم يحس بها من قبل . عندئذ يأتى « Penseroso » المفكر : يسير دون أن يراه أحد :

حيث يرى القمر المتجول ، راكبا قرب الظهيرة ، وكأنه رجل ضل الطريق ، عبر السموات المترامية الأرجاء الخالية من المسالك .

أو يجلس وحيدا إلى جانب المدفأة :

حيث الجمرات المتوهجة فى الغرفة تعلم الضوء كيف يكتسى بالظلمة بعيدا عن أى مصدر للابتهاج والفرح ، اللهم إلا صرار الليل على الموقد .

أو أنه قابع « فى برج عال منعزل » ، تغلبت عليه النجوم ، يقلب صفحات أفلاطون ، ويتساءل أين المساء .

أية عوالم وأية أقطار شاسعة تتسع لهذا العقل الخالد الذى تخلى عن قصره فى زاوية من جسده .

أو هو يتذكر مآسى العشاق والميتات الحزينة للملوك . وخير من هذه الفلسفة الصارمة هناك « صحن الدير الذى يعج بالجهد والجد فى العمل والدرس » فى الكاتدرائية الكبرى ، ونوافذها التى تروى مشاهد التاريخ وضوئها المظلل :

فليعزف الأرغن المجلجل ، للمرتلين ذوى الأصوات الممتلئة أدناه ، فى أصوات عالية وترنيمات صافية ، فلربما غمرتنى عذوبة الأنغام فى أذنى بنشوة ، وأبرزت كل السموات أمام ناظرى » .

تلك هى المتعة والمسرات التى يجدها « الرجل المفكر » ، وإذا بدت مرتبطة بالكآبة ، فان الشاعر سيقضى حياته مع الكآبة . ففى هاتين القصيدتين البهيجتين ، يكشف ملتون عن ذاته وهو فى الرابعة والعشرين ، شابا تتحرك مشاعره لكل مافى الحياة من جمال ، ولايجد حرجا فى المسرات والملذات ، كما وجد التفكير المحير فى الحياة والموت طريقه إلى نفسه فتأثر به ، كما أحس بالصراع بين الدين والفلسفة يحتدم بين جوانحه .

وحانت أول فرصة ليبرز فيها الشاعر ويذيع صيته فى ١٦٣٤ حين كلف بكتابة مسرحية ريفية يمثلها ممثلون مقنعون فى الاحتفالات بتولية ارل برد جووتر رئيسا «لمجلس الغرب». ولحن هنرى لاوس الموسيقى التصويرية . أما شعر ملتون فكان مجهولا اسم مؤلفه تواضعا . وكان موضع ثناء واطراء، إلى حد أنه حمل على الاعتراف بأنه مؤلفه . واطراه سير هنرى وتون قائلا : فى أغانيك وقصائدك رقة دورية (نسبة إلى الدورين الذين غزوا بلاد الأغريق فى القرن ١٢ ق . م) لم أر لها مثيلا فى لغتنا حتى اليوم(٣٠)

« وكان عنوان القطعة فى الأصل » مسرحية فى قصر لدلو (فى شروبشير)» أما اليوم فهى تسمى « كومس Comus » (المسرحية) وقد مثلها اثنان من صغار النبلاء مع شقيقتهما ، وكانت فتاة فى ربيعها السابع عشر ، من وصيفات الملكة هنريتا ماريا . وعلى الرغم من أن معظم المسرحية كان شعرا مرسلا غير مقفى ، محشوا بالأساطير ، فقد كانت زاخرة بالغناء العاطفى المرح والأناقة الرائعة الشجية : وتميزت ببراعة لم تتكرر فى شعر ملتون فيما بعد وكانت الفكرة الرئيسية فكرة تقليدية : عذراء فاتنة ، تتجول فى الغابات على غير هدى ، وهى تشدو : « بأغنيات ربما خلقت نفسا من تحت براثن الموت » .

ويدنو منها الساحر « كومس » ويقرأ عليها تعويذة حتى تتخلى عن عفتها ، ويتوسل إليها أن تلهو معه ، وقد تألقت نضارة وشبابا ، فتندافع الفتاة ، فى فصاحة بالغة عن الفضيلة وضبط النفس و « الفلسفة السماوية » ، وجرت كل الأبيات على خير وجه . فيما عدا قطعة ربما كانت مشئومة ، أشارت إلى « الجمهورية » ، كان من المحتمل أن تؤدى بهذا الجمع الحاشد المسرف النفور والاستياء :

إذا كان لكل رجل منصف ، يصيبه الآن الهزال والنحول تحت وطأة العوز قدر متواضع يليق به ، من هذا الترف الفاجر الذى تنعم به الآن فئة قليلة فى إسراف بالغ ، لتوزعت كل خيرات الطبيعة توزيعا عادلا فى أنصبة متساوية غير زائدة عن الحاجة ، ولما اختزنت الطبيعة مثقال ذرة هذه الخيرات(٣١) .

وفى ١٦٣٧ اعتل مزاج الشاعر وتكدر صفو حياته بغرق صديقه الشاب ورفيقه الشاعر إدوارد كنج . وأسهم ملتون فى كتاب تذكارى عن كنج ، بقصيدة رثاء « ليسيداس Lycidas » منظومة فى شكل رعوى مصطنع محشوة بالآلهة الموتى ، ولكنها غنية بالأبيات التى لا تزال تعلق فيها الذكرى الحبيبة .

وا أسفاه ماذا يحملنا على أن نرهق أنفسنا بهذا الهم المقيم ، فى النهوض بصنعة الراعى (نظم الشعر) البسيطة المحتقرة ، ولنتأمل بكل ما أوتينا من قوة فى ربة الشعر الجحود ؟ . أما كان من الخير ، كما يفعل الآخرون ، أن يلهو ويلعب مع الراعية أما ريلاس فى الظل ، أو يعبث بخصلات شعر « نيرا » . أن الشهرة هى الحافز الذى يثير الروح الصافية وهى آخر الوهن فى العقل الرفيع) ، ليزدرى بالمباهج ، ويكد ويشقى طوال أيامه. ولكن حين نأمل فى الحصول على الجزاء الوفاق . وتفكر فى الانطلاق إلى الوهج الخاطف تأتى « الروح العمياء » (ملك الموت) بآلاتها البغيضة ، لتقضى على الحياة الواهنه الخيوط .

ويبدو أن جون ملتون الأكبر (الوالد) أحس بأن ست سنوات من الإنصراف إلى العمل فى روية وأناة فى هورتون كانت جزاء وفاقا للموهبة التى أبدعت مثل هذه القطع الغنائية . وليكمل حسن صنيعه أرسل ابنه ليتجول فى أنحاء القارة مع دفع كل النفقات . وغادر ملتون انجلترا فى أبريل ١٦٣٢ يرافقه خادم . وقضى بضعة أيام فى باريس (وكانت آنذاك تحت قبضة ريشليو العسكرية) ، وأسرع إلى إيطاليا ، حيث أقام شهرين فى فلورنسة ، زار خلالها جاليليو الكفيف نصف السجين ، والتقى برجال الأدب ، وجاس إلى الجامعيين ، وتبادل معهم التحية فى شعر باللاتينية ، ونظم بالإيطالية قصائد السونيت ، وكأنه نشأ وترعرع على ضفاف نهر أرنوا أو نهر بو . وفى نابلى استقبله ورحب به وكرمه نفس المركيز مانسو الذى صادق وناصر تاسو ومارينى من قبل وقضى فى رومه أربعة أشهر ألتقى فيها ببعض الكاردينالات المثقفين وأحبهم ، ولكنه أعلن بصراحة مذهبه البروتستانتى . ثم عاد إلى إلى فلورنسة ، ثم قصد إلى البندقية عبر بولونيا وفيرارا ، ثم ذهب إلى فينيس عبورا بمدينة فيرونا وميلان ثم قفل راجعا إلى لندن مرورا بجنيف وليون. وباريس (أغسطس ١٦٣٩) .

وفى كتاباته الأخيرة دون قطعتين مشهورتين عن رحلته فى إيطاليا .

وكتب ردا على تعريض أحد الخصوم به : « أشهد الله أنه فى كل تلك الأماكن التى لا تلق فيها الرذيلة إلا أيسر الاستنكار والتثبيط ، وترتكب فى أقل خجل وأيسره ، لم أحد أنا قط عن جادة الفضيلة والنزاهة (٣٢) » .
ويتذكر كيف امتدح النقاد الايطاليون شعره :

وهكذا بدأت أوافق كل الموافقة على ماذكره هؤلاء النقاد الايطاليون أو يقول نفر من أصدقائى هنا فى بلدى ، كما استمع بنفس القوة إلى استحثاث داخلى ينمو بين جوانحى كل يوم ، من أنه بالعمل الجاد والانكباب على الدرس (وهذا ما اعتبره قدرى فى هذه الحياة) بالاضافة إلى الميل الطبيعى ، بهذا كله يمكن أن أخلف شيئا مكتوبا للأجيال القادمة ، قد لا يرتضون أن يفنى (بل يبقى ويخلد على الزمن)(٣٣) .

وبدأ ملتون الآن يخطط لملحمة تخلد ذكر وطنه وعقيدته . وتخلد اسمه على مر القرون . وكان لزاما أن تمضى الآن عشرون سنة قبل أن يتمكن من البدء فيها ، وتسع وعشرون سنة قبل أن يتمكن من نشرها . وفيما بين فترتى نظمه الشعر : الفترة الأولى (١٦٣٠ - ١٦٤٠) والثانية (١٦٥٨-١٦٦٨) ، لعب دورا فى الثورة الكبرى ، وسخر قلمه للحرب والنشر .

٣ — المصلح : ١٦٤٠ — ١٦٤٢

فى ١٦٣٩ استأجر ملتون مسكنا لرجل أعزب فى « سانت بريد تشير شيارد » فى لندن ، حيث تولى التدريس لأبناء أخته . وبعد سنة واحدة انتقل معهم إلى أولد رزجيت ستريت » ، وهناك (١٦٤٣) استقبل عددا آخر من التلاميذ بين سن العاشرة إلى سن السادسة عشرة آواهم وعلمهم ، وحصل من ذلك على دخل متواضع يكمل به المبلغ الذى خصصه له والده .
وفى كتاب إلى « مستر هارتلب (١٦٤٤) صاغ ملتون آراءه فى التعليم . فأتى لهذه اللفظة بتعريف قوى رائع : « أقول أن التعليم التام الواسع هو الذى يعد الانسان لينهض ، بحق ومهارة ورحابة صدر ، بكل مهامه الخاصة

والعامة ، فى السلم والحرب ، سواء بسواء(٣٤) » وأول واجب على المعلم هو أن يغرس الخلق القويم فى نفس التلميذ ، «ويصلح ما أفسده آباؤنا الأولون» — أى أن يقهر نزعة الشر الطبيعية فى الانسان (الخطيئة الأولى) — أو (كما يجدر بنا أن نذكر الآن) أن يعيد تكييف الخلق القومى الذى سبق تشكيله وفقا لحاجات مرحلة الصيد ، نقول تكييفه تبعا لمتطلبات حياة المدنية الحالية » . وأحس ملتون أن هذا يمكن تحقيقه على خير وجه بأن نغرس فى الذهن الناشىء إيمانا قويا بالله واحد بصير ، وأن نعوده على ضبط النفس وفقا لنظام رواقى (التحرر من الانفعال ، عدم التأثر بالفرح أو الترح ، الخضوع دون تذمر لحكم الضرورة) وضرب لتلاميذه مثلا يحتذونه : « الدراسة الشاقة والطعام اليسير » . فقلما أجاز لنفسه يوما « اللهو والمتعة(٣٥) وبعد الدين والأخلاق ، يجب أن تأتى الدراسات اللاتينية والأغريقية القديمة ، والتى لم يستخدمها ملتون مجرد نماذج للأدب ، بل وسائل لدراسة العلوم الطبيعية والجغرافيا والتاريخ والقانون والأخلاق والفسيولوجيا والطب والزراعة وهندسة العمارة ، والخطابة والشعر والفلسفة واللاهوت . وإذا كان هذا التوفيق الفريد بين العلم والانسانيات قد افترض أن النزر اليسير قد أضيف إلى العلم منذ سقوط روما ، فيجب أن نلاحظ أن هذا حقيقى فعلا ، اللهم إلا بالنسبة لجاليليو ، بل أن كوبرنيكس نفسه كان له سلفه الأغريقى فى شخص أرستارخوس . وفوق ذلك ، اقترح ملتون تعريف تلاميذه كذلك ببعض النصوص الحديثة فى العلوم والتاريخ ، بل حتى ببعض النماذج الحية فى الفنون العملية ، وكان يأمل فى أن يستقدم إلى حجرات الدراسة صيادين وبحارين وبستانيين ومشتغلين بالتشريح وصيدلين ومهندسين ومعماريين ، لينقلوا إلى التلاميذ أحدث ألوان المعرفة فى هذه المجالات(٣٦) وخصص وقتا كافيا للموسيقى والتمثيل ، وساعة ونصف الساعة يوميا للرياضة البدنية والتدريب العسكرى . ويمكن أن يطوف طلابه أرجاء البلاد فى جماعات على صهوات الجياد ، يرافقهم أدلاء معروفون

بالرزانة والحصافة ، ليتعلموا و يلاحظوا ، « أو » يلتحقون بالبحرية بعض الوقت ليتعلموا الملاحة ومصارعة البحر ، وأخيراً وبعد بلوغهم سن الثالثة والعشرين ، يمكنهم أن يسيحوا خارج انجلترا . وهذا برنامج شاق ، ليس لدينا دليل على تطبيقه تطبيقا كاملا فى مدرسة ملتون ، وربما كان فى حيز الامكان تطبيقه لو أن التلاميذ اقتبسوا من معلمهم شيئا من غيرته وجده .

وراوده أحياناً حلم إنشاء أكاديمية تنافس أكاديمية أفلاطون وأرسطو. ولكنه افتتن بأحداث العصر البارزة وانشغل بها . من ذلك أن التئام البرلمان الطويل (١٦٤٠) كان نقطة تحول فى حياته ، بل يكاد يكون تحولا عنيفاً غير طبيعى عن الشعر والتعليم إلى السياسة والاصلاح . وفى ١١ديسمبر قدم حزب « الجذر والفرع » البيوريتانى الذى انتسب إليه بعض أصدقائه قدم إلى البرلمان عريضة صارخة ممهورة بخمسة عشر ألف توقيع (يحتمل أن يكون من بينهم ملتون) يلتمسون فيها اقصاء الأساقفة عن الكنيسة الانجليزية . ورد جوزيف هول أسقف اكستر على العريضة « باحتجاج متواضع إلى المحكمة العليا فى البرلمان » (يناير ١٦٤١) ، دافع فيه عن النظام الأسقفى بأنه مأخوذ عن « عصر الرسل الأبرار بلا انقطاع ... حتى العصر الحاضر[٣٨] » فاستل خمسة من الكهنة المشيخيين أقلامهم فى « الرد على الاحتجاج المتواضع » (مارس ١٦٤١) وقعوه باسم مستعار مكون من الأحرف الأولى من أسمائهم[*] . ورد الأسقف هول وبعض الأسقفيين الآخرين ، وأقر مجلس العموم الاقتراح ، ورفضه اللوردات . واشتد الجدل على المنابر وفى الصحف وفى البرلمان ، وانضم ملتون إلى المعمعة بكتيب من تسعين صفحة « إصلاح يمس نظام الكنيسة فى انجلترا (يونية ١٦٤١) .

وفى عبارات قوية لاهثة ، استوعب بعضها نصف صفحة ، عزا ملتون تدهور الكنيسة الرسمية إلى سببين : الابقاء على الطقوس الكاثوليكية ،

(*) هم ستيفن مارشال ، ادموند كالامى ، توماس ينج ، ماثيو نيوكومن ، وليم سبرستو .

واحتكار الأساقفة لسلطة تعيين القساوسة . وهزأ ملتون « بهذه الطقوس الفارغة التي لا معنى لها ، والتي تحتفظ بها الكنيسة لمجرد أنها علامة خطيرة للإنزلاق نحو رومه ، والتي لا تستخدم إلا كمجرد مسرحية تعرض أبهة الأساقفة(٣٩) » . إن الأساقفة — كانوا يتسللون خلسة إلى الكاثوليكية في طقوسهم — وتلك طعنة صريحة لرئيس الأساقفة لود الذي كان قد قدمت له قبعة الكاردينالية . وأنكر ملتون مازعمه جيمس الأول وشارل الأول من أن الأساقفة ضرورة لازمة لحكومة الكنيسة وللنظم الملكية . وأهاب بالاسكتلنديين المشيخيين أن يواصلوا حربهم القديمة ضد النظام الأسقفي ، وتضرع إلى الثالوث الأقدس أن يرعى المصلحة العامة :

يا إلهي : أول عنايتك لكنيستك البائسة التي كادت تنهار وتلفظ أنفاسها الأخيرة ، لا تتركها هكذا فريسة لتلك الذئاب للزعجة التي تتربص وتفكر طويلا لتلتهم قطيعك الوديع ، تلك الخنازير البرية التي سطت على كرمتك ، وتركت بصمات حوافرها المدنسة على نفوس عبادك . لا تدعهم ينفذون خططهم اللعينة التي تقف الآن على مدخل الهاوية غير ذات القرار ، مترقبة أن يفتح الحارس ويطلق الجراد والعقارب الفتاكة ، لتحتوينا في ظلام جهنم الدامس ، حيث لن تشرق علينا بعده شمس حقيقتك ، ولن نعود نأمل في بزوغ الفجر البهيج ، أو نسمع زقزقة العصافير في الصباح(٤٠) .

واختتم هذه العبارة بإلقاء جماعة الطقوس التقليدية في الجحيم :

ولكن أولئك الذين يتوقون إلى مناصب الحكم الرفيعة والارتقاء هنا في هذه الدنيا ، على حساب إفساد عقيدتهم الحقة والانتقاص منها ، وعلى حساب كروب بلدهم واستعباده ، لابد أنهم ، بعد خاتمة مزرية في هذه الحياة (التي وهبهم الله إياها) ، سيلقى بهم في الدرك الأسفل من النار ، وهناك يتلقاهم من سبقهم من المحكوم عليهم بالهلاك الأبدي ، فيتحكمون فيهم في حقد وحسد ، ويطأونهم بأقدامهم ويزدرونهم ، وفي حمأة تعذيبهم ، لن يجدوا الراحة إلا في ممارسة أشد ألوان الطغيان عسفاً ووحشية ، معهم

بوصفهم أرقاءا وعبيداً لهم ، وسيبقون على هذه الحال إلى الأبد ، مخلدين في أحط وأسفل مهاوى الهلاك الأبدى وأشـــدها كآبة واحتقاراً واضطهاداً (٤١) .

وعندما رد الأسقف هول على القساوسه الخمسه للشيخيين وهاجمهم بعنف ، انبرى ملتون لنصرتهم في بيان عاصف لابد أنه أخرج الأسقف وهو في الخامسه والستين من ردائه الكهنوتي : « نقد لاذع لدفاع المحتج على بيان للشيخيين » ، ظهر ، مجهولا كاتبه ، في يوليه ١٦٤١ . واعتذر ملتون في المقدمه عن عنفه فقال :

في الكشف عن إنسان سيء السمعه عدو للحق ، ولسلام بلاده وإداناته وبخاصه إذا اغتربأن له لساناً ذرياً منطلقاً مؤثراً ، فإنه لا يتنافى مع اعتدال المسيحيه وتواضعها أن ترد على مثل هذا الرجل بأسلوب أعنف وأشد من أسلوبه ، وأن تشيع غطرسته إلى مثواها مضمخه بعاته المقدس(٤٢) .

وأعاد الأسقف وابنه الكرة ببيان عنوانه « حجه داحضه متواضعه جديدة » (يناير ١٦٤٢) هاجما فيه كاتب « النقد اللاذع » بحدة تميز بها هذا العصر المغيظ المحنق(٤٣) . فرد ملتون كيد الأسقف في نحره ببيان عنوانه « دفاع ضد الحجه الداحضه المتواضعه » (أبريل) اعتذر فيه مرة أخرى عن سوء معاملته للأسقف هول ، وشجب الفريه المريضه « التي أوردها هول » وهى اتهام ملتون بأنه طرد من كمبردج ، وأكد ملتون للعالم بأسره بأن زملاءه في « كريست كولدج » دعوه ، بعد تخرجه ، للإقامه معهم ، وأكد من جديد طهارته التي لا مطعن فيها :

على الرغم من أني لم ألقن إلا قدراً يسيراً من المسيحية ، فإن شيئاً من التحفظ والنزعة الطبيعية والقواعد الخلقية ، استقيته من أنبل فلسفة ، كان كافياً ليجعلني أحتقر من ألوان الفجور ماهو أقل كثيراً مما يجرى في المواخير . ولكنى قد عرفت مبدأ الأسفار المقدسة التي تكشف عن الأسرار السامية الطاهرة ... التي تقول بأن « الجسد للرب ، والرب للجسد »

فإنى كذلك سألت نفسى : إذا كان التجرد عن العفة فى المرأة التى ينعتها القديس بولس بأنها فخر الرجل ، فضيحة وخزياً وعاراً ، فالأمر يقيناً كذلك فى الرجل الذى هو صورة الله وفخره معاً ، فإنه لابد أن يكون أشد فساداً وعاراً ، لأنه يقترف الإثم ضد جسده ، وهو الجنس الأكمل ، وضد فخره الذى يكمن فى المرأة ، والأنكى من ذلك ضد صورة الرب وفخره ماثلين فى شخصه هو(٤٤) .

ومن ثم نجد ملتون يرثى لأخلاق كثير من الشعراء القدامى ، ويؤثر عليهم دانتى وبترارك ، اللذين لم يكتبا قط إلا تكريماً وتشريفاً منهما لأولئك الذين نذرا لهم أشعارهما التى عرضا فيها أفكاراً سامية نقية ، دون تأثيم وانتهاك للحرمات . ولم ألبث إلا قليلا حتى تأكد عندى هذا الرأى : إن هذا الذى لا يمكن أن يخيب أمله فى أن يكتب كتابة جيدة ، يجدر أن يكون هو نفسه قصيدة صادقة ، أى مركباً مكوناً من أفضل الأشياء وأشرفها ، لا يقدم على أن يكون قصيده عقود مدح وثناء للرجال البطوليين أو المدائن المشهورة ، إلا إذا أوتى من التجربة والخبرة والمران على كل ماهو أهل للثناء والاطراء(٤٥) .

وبعد هذا المثال الذى اقتبسناه ، انتقل ملتون إلى الحديث عن قدمى الأسقف وجوربه الذى يبعث « برائحه منتنه إلى السماء » . وإذا بدت هذه اللغه غير لائقه باللاهوت فإنه دافع عنها « بقواعد أعظم البلغاء » وبأنه يحذو حذو لوثر ، وذكر قراءه بأن « المسيح نفسه وهو يتحدث عن التقاليد البغيضة لايتردد فى استعمال ألفاظ مثل الغائط والمرحاض »(٤٦) .

والآن نكتفى بهذا القدر من النزاع الكريه الكئيب ، الذى سقناه لأنه يلقى ضوءاً على شخصية ملتون وعلى آداب السلوك فى ذاك العصر ، ولأنه وسط هذا المراء القاسى وفوضى الأجرومية والجمل الطويلة ، كانت هناك قطع نثرية ذات جرس موسيقى ، مشرقة تهز المشاعر مثل شعر ملتون

وفى نفس الوقت (مارس ١٦٤٢) ، كان قد نشر باسمه كتيباً أكثر موضوعية : « اثارة تفكير حكومة الكنيسة فى حظر السلطة الأسقفية » :
« هذا النير البغيض الذى لا يمكن أن يزدهر أى عقل حر أو موهبه ممتازة تحت وطأة مايفرضه من غباء وعداء تعسف وطغيان »(٤٧) . وسلم بالحاجة إلى نظام أخلاق واجتماعى . والحق أن ملتون أدرك أن فى نهوض النظام وسقوطه مفتاح ارتقاء الدول وانهيارها :

ليس فى هذا العالم شىء أعظم أهمية وأشد إلحاحاً وخطراً فى كل حياة الإنسان بأسرها من النظام • وهل أنا فى حاجة إلى ضرب مثل على ماأقول ؟ إن كل من قرأ فى تبصر وتدبر عن الأمم والدول ••• لا بد أن يقر على الفور بأن ازدهار المجتمعات المتحضرة واضمحلالها ، وكل تحركات الأحداث البشرية وتحولاتها ، إنما تروح وتجىء وكأنها على محور عجلة النظام . وأنه ليس ثمة كمال اجتماعى فى هذه الحياة ، مدنى أو دينى ، يمكن أن يسمو فوق النظام وقواعد الانضباط . لأن النظام هو الذى ، بفضل أوتاره الموسيقية يحافظ على كل أجزاء الحياة ويمسك بها متضامة بعضها إلى بعض(٤٨) .

ومثل هذا النظام ، على أية حال يجب ألا يستق من أية هيئة كهنوتية متسلسلة فى رتب كنسية ، بل من ادراك أن كل إنسان بذاته يمكن ان يكون كاهنا .

وفى كل المراحل كان ملتون يعى ويدرك كل قدراته ومواهبه . أنه قدم الجزء الثانى من رسالته بقطعة عن سيرة حياته ، أبدى فيها حزنه لأن النزاع قد باعد بينه وبين إخراج عمل عظيم شغل باله طويلا : إن هذا الذى أداه أعظم العباقرة وصفوتهم فى أثينا وروما أو ايطاليا الحديثة ، والعبرانيون القدامى لبلادهم ، يمكن أن أقوم به أنا لبلدى ، بدورى ، ويقدر حظى من الحياة والعمل ، هـذا بالإضافة إلى أنى فوق كل شىء مسيحى(٤٩) .
« وروى ملتون كيف أنه كان بالفعل يمد الموضوعات التى يضمنها مثل هذا

الكتاب . ولكنه أراده عملا يستطيع من خلاله « أن يصور تصويرا نابضا بالحياة وبصف . . . سجل الطهر والفضيلة بأسره » ، و « كل ماهو سام ومقدس فى العقيدة الدينية(٥٠) » ، وكأنما كان يتنبأ بأن الأعوام الستة عشر قد تنقض قبل أن تدع له الثورة الكبرى فرصة الشروع فى الكتابة : فقال يعتذر عن تأخره :

لست أخجل من الاتفاق مع قارىء فطن ذى دراية ، على أنه فى بضع سنين يتعهد بدفع ديونى الحالية ، لأنه عمل ليس نتاجا لنزوة الشباب أو لعب الخمر بالعقل ، مثل هذا الذى يسيل به « قلم عاشق شرس » بذىء فى أوقات الضياع ، أو شاعر متطفل فى فورة حقده . كما أنه عمل لا يمكن إنجازه بالتضرع وقراءة التعاويذ للذاكرة وبناتها المغويات (بنات الأفكار) ، بل بالدعوات والصلوات المخلصة الخاشعة « للروح الأبدى الخالد الذى يستطيع اثراءنا بالتعبير والمعرفة ، ويبعث إلينا بأحد ملائكته (وحارس عرشه) ساروفيم ، مع نار مذبحة المقدسة ، ليمس ويطهر شفتى من يشاء . ويجدر أن يضاف إلى هذا ، دأب على القراءة الجادة المنتقاة ، ومثابرة على الملاحظة الدقيقة ، وتبصير بالفنون والمسائل العامة الجذابة والواسعة ، حتى إذا تم العمل ، إلى حد ما تحت مسؤليتى وبجهدى الخاص ، فإنى عندئذ لا أرفض أن أزكى هذا الأمل للنشود عند كثير ممن لا ينفرون من المغامرة بالوثوق إلى هذا الحد بما أقطع على نفسى لهم من تعهدات أو وعود(٥١) .

٤ ـ زواج وطلاق ١٦٣٤ ـ ١٦٤٨

فى « الحجة الداحضة المتواضعة » كان الأسقف هول قد اتهم ملتون بأنه يسعى لشهرة أدبية ، ويعلن عن مواهبه وقدراته وتجاربه وثقافته وبيئته السابقة ، أملا فى الفوز « بأرملة ذات ثراء » أو أية جائزة أخرى . وفى « الرد » عليه عمد ملتون إلى تسفيه هذه الفكرة والتنديد بها ، وقال أنه على النقيض من ذلك ، « نشأ فى بحبوحة من العيش » واتفق فى الرأى مع « أولئك الذين يؤثرون فى حكمة وتبصر وبروح طيبة ، عذراء غير ذات

ثراء عريض ، وذات أصل كريم ، على أغنى الأرامل »(٥٢) . وبينما انساقت انجلترا إلى الحرب الأهلية (١٦٤٢) ، انطلق ملتون إلى الزواج (١٦٤٣) .

لم ينضم ملتون إلى جيش البرلمان ، وعندما اقتربت القوات الملكية من لندن (١٢ نوفبر ١٦٤٢) نظم قصيدة (سونيت) يشير فيها على قادتها أن يحموا بيت الشاعر وشخصه ، كما فعل الاسكندر الأكبر مع الشاعر بندار من قبل ، واعداً إياهم بأن ينشر على الملأ شعراً « حسن صنيعهم(٥٣) » . على أن القوات الملكية ردت على أعقابها . ولم يمس بيت ملتون بأذى ، وبقى ليستقبل زوجته .

وكان ملتون قد التقى بماري باول Powell في فورستهل في اكسفوردشير ، حيث كان والدها قاضى الصلح . وهذا الوالد ، ريتشارد باول كان قد اعترف من قبل ، في ١٦٢٧ ، بأنه مدين لملتون ، وكان آنذاك في كمبردج ، بمبلغ ٥٠٠ جنيه ، خفف فيما بعد إلى ٣١٢ ، ولكن لم يسدد بعد . والظاهر أن الشاعر قضى عند أسرة باول شهراً (مايو - يونية ١٦٤٣) ولسنا ندري ليسترد الدين أو يحظى بزوجة . وربما أحس جون وهو في الرابعة والثلاثين ، بأنه قد آن الأوان للزواج والنسل ، وواضح أن ماري كانت تتحلى بالعذرية التي ينشدها . وفاجأ أبناء أخته بعودته إلى لندن متأبطاً ذراع زوجة .

ولم تدم السعادة طويلا لأحد . فقد كره أبناء الأخت ماري كدخيلة عليهم ، وكرهت هي كتب ملتون ، وافتقدت أمها و « القدر الكبير من الصحبة والأنس والبهجة والرقص . . » الذي كانت تنعم به في فورستهل . ويقول أوبري « كثيراً ما كانت تسمع أبناء الأخت هؤلاء يضربون فيتعالى صراخهم(٥٤) مذ رأى ملتون أن ماري محدودة التفكير ضيقة الأفق ليس لديها سوى النزر اليسير من الأفكار ، التي هي في جملتها ملكية ، فلما انصرف ثانية إلى كتبه . وتحدث فيما بعد عن « شريكة حياة بكماء

جامدة كئيبة لا روح فيها » ، ورثى « للإنسان الذى يجد نفسه مرتبطا بأوثق رباط بهيكل من طين وبلغم ، كان يأمل منه أن يكون شريك مجتمع علؤه السعادة والبهجة والسرور[٥٥] » ويعتقد بعض الباحثين فى الزواج غير المتكافىء أن مارى أبت عليه البناء بها[٥٦] . وبعد شهر طلبت السماح لها بزيارة والديها ، فوافق ملتون ، مع التفاهم بينهما على عودتها . ولكنها ذهبت ولم ترجع . وبعث إليها برسائل تجاهلتها ، ولما لم يجد أى متنفس آخر لمشاعره ، كتب ونشر دون توقيع « مبدأ الطلاق ونظامه » (أغسطس ١٦٤٣) ، وأهداه إلى « برلمان انجلترا والجمعية « أى جمعية وستمنستر التى كانت تصوغ آنذاك اعترافا بالمذهب المشيخى . وتقدم إلى البرلمان برجاء أن يتحلل من أغلال التقاليد ، ويسير بالإصلاح قدما ، باقران أسس أو شروط أخرى للطلاق ، غير الزنى ، وعرض أن يوضح : —

أن النصور ، وعدم الأهلية أو تنافر العقول الناشىء عن سبب طبيعى لا يتسنى تغييره ، مما عوق ، والأرجح أنه كثيراً ما يعوق إلى الأبد ، مزايا الحياة الزوجية ، وهى السلوى والبهجة والهدوء والطمأنينة ، نقول أن هذا سبب للطلاق أقوى من البرودة الزوجية الطبيعية ، لا سيما إذا لم يكن هناك أطفال ، وكانت هناك موافقة من الطرفين[٥٧] .

واقتبس ملتون القانون اليهودى القديم الذى ورد فى التوراة (سفر التثنية ٢٤ ـ ١) « إذا أخذ رجل امرأة وتزوج بها ، فإن لم تجد نعمة فى عينيه لأنه وجد فيها عيب شىء . وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته » . وواضح أن السيد المسيح رفض هذا الجزء من شريعة موسى . فقد جاء فى انجيل متى (٥ ـ ٣١ ، ٣٢) « وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق . وأما أنا فأقول لكم أن من طلق امرأته إلا لعلة الزنى يجعلها تزنى » ، واحتج ملتون بأنه « المسيح لم يقصد أن يؤخذ كلامه بمعناه الحرفى ، كلمة بكلمة »[٥٨] ، وكثيراً ما أعلن أنه لم يأت ليغير مقدار ذرة من شريعة موسى . وكافح ملتون حتى يجعل تفسيره الواسع يشتمل

قضيته الشخصية ، حتى أنه ذهب إلى حد تبرير الطلاق لعدم القدرة على الإسهام « في حديث مناسب معقول . « لأن عدم الصلاحية والتخلف في العقلية التي تنفر من الزواج » يمكن أن تهبط بالزواج إلى « حالة أسوأ من حياة الوحدة الموحشة » حيث تكون النفس النابضة بالحياة مربوطة إلى مجرد جثة (٥٩) .

ونفد الكتاب الصغير بسرعة ، لأنه قوبل باستنكار عام . وفي فبراير ١٦٤٤ نشر ملتون طبعة مزيدة منقحة ظهر عليها اسمه في جرأة وشجاعة . ورد على ناقديه في أسلوب العالم المتفقه ، في « Tetrochordon » ثم في أسلوب أخف في Colasterion (صدر كلاهما في ٤ مارس ١٦٤٥) ، تناولهم فيهما بأقسى القدح والألفاظ المقذعة — كتلة من الطين ، خنزير ، خنزير بري ، ذو أنف بشع ، محام له مخ الديك ، حمار صفيق ، بغيض ، كريه الرائحة (٦٠) لقد استطاع ملتون في الصحيفة الواحدة أن يقفز من مرتفعات بارناسوس إلى أحط مهاوي السفاهة والبذاءة .

وحيث أخفق في أن يحصل من البرلمان على تعديل في قانون الطلاق ، اعتزم أن يتحدى القانون ، ويتخذ زوجة ثانية ، وكان يفضل مس دافيز التي لا نعرف عنها شيئاً إلا أنها رفضته . ولما ترامت شائعات هذه الخطبة إلى مسامع ماري باول قررت أن تستعيد زوجها ، على أي الأحوال ، حلوها أو مرها ، قبل فوات الأوان . وذات يوم بينما كان ملتون في زيارة لصديق فاجأته ماري وجثت بين يديه وتوسلت إليه أن يعيدها إلى مخدعه وبيته . وتردد هو ، ولكن أصدقاءه ناصروا قضيتها ، فقبل عودتها إليه . وانتقل الآن إلى بيت أوسع في باربيكان ستريت ، ضمها كما ضم أباه وتلاميذه . وسرعان ما جاء أبواها للاقامة أيضاً مع الشاعر ، بعد أن تدهورت حالهما بهزيمة الملكية ، مما جعل هذا البيت أقرب ما يكون إلى دار للمجانين ، أو للفلسفة . وزاد الامر ضغثاً على أبالة في ١٦٤٦ ، مولد طفلة ملتون الأولى آن . وخفف من هذه الفوضى موت ريتشارد باول في يولية ، كما أن جون

ملتون الاكبر (الوالد) اختتم حياته المديدة الكريمة فى مارس التالى .
ومن ثم أصبح الشاعر وريثا لمنزلين أوثلاثة فى لندن ، ولبعض المال ، وربما لبعض العقارات فى الريف . وفى ١٦٤٧ فض ملتون مدرسته وانتقل مع زوجته وابنته واثنين من أبناء أخته إلى « هاى هلبورن ستريت » وفى ١٦٤٨ ولدت له ابنته الثانية مارى .

٥ — حرية الصحافة ١٦٤٣ - ١٦٤٩

فى ١٣ أغسطس ١٦٤٤ ، تحدث الكاهن المشيخى هربرت بالمر أمام مجلس البرلمان ، واقترح أن تحرق علنا رسالة ملتون عن الطلاق . ولم تحرق الرسالة ، ولكن شكوى بالمر ربما أدت « بشركة المكتبات » التى تضم كل باعة الكتب الإنجليز ، إلى لفت نظر مجلس العموم (٢٤ أغسطس) إلى أن الكتب والنشرات تخالف القانون الذى يتطلب تسجيلها واجازتها بمعرفة الشركة . وكان هذا القانون قد صدر فى عهد اليزابث ، كما أن البرلمان كان قد جدد العمل به فى ١٤ يونيه ١٦٤٣ ، بإصداره أمرا ينص على :

أنه لايطبع كتاب أو نشرة أو ورقة ، أو أى جزء من شىء من هذا القبيل ، أو يعرض للبيع ، قبل التصديق على نسخة منه واجازته من أشخاص يعينهم لهذا الغرض أحد المجلسين أو كلاهما معا ، وقبل أن يسجل فى السجل المعد لذلك فى شركة المكتبات ، طبقا لما جرى عليه العرف من زمن بعيد[٦١] .

ويعاقب أى خرق لهذا القانون بالقبض على من تولوا التأليف والطبع .

وكان ملتون يهمل دوما تسجيل ما ينشره نثرا . وعلى الرغم من أن كتابه « مبدأ الطلاق ونظامه » ظهر بعد صدور الأمر سالف الذكر بشهرين ، فإنه تجاهل ما يقضى به . وربما كان شاعرنا ذا حظوة لدى البرلمان لأنه ناصره فى صراعه مع الملك . على أن البرلمان على أية حال ، تغاضى عنه وحده ولكن الأمر ظل سيفا مصلتا على رأسه وعلى رؤوس سائر المؤلفين فى بريطانيا . وبدا لملتون ضربا من المحال أن يزدهر الأدب فى ظل

مثل هذه الرقابة . فماذا يجدى خلع ملك وتحطيم نظام أسقفى استبدادى قاس ، إذا استمر البرلمان والكنيسة على التدقيق والتحقيق فى كل كلمة يتفوه بها الإنجليز ؟ . وفى ٢٤ نوفبر ١٦٤٣ أخرج دون تسجيل أو إجازة أروع أعماله النثرية « أريوباجيتيكا : حديث من جون ملتون عن حرية المطبوعات دون أجازة ، إلى برلمان انجلترا »(٠) وليس فى هذا الحديث قذف ولا طعن ولا نقد لاذع ، بل كان على مستوى عال من اللغة والفكر وفيه يطلب إلى البرلمان بكل اجلال واحترام ، أن يعيد النظر فى قانون الرقابة ، من حيث أنه ينزع إلى « تثبيط الهمم فى سبيل العلم والمعرفة ، ويعوق بل يقضى على أى ابداع واكتشاف يمكن أن يخرج فى المستقبل إلى حيز الوجود فى مجال الحكمة الدينية والمدنية كليهما . » ثم يستطرد فى قطعة مشهورة قيمة :

لست أنكر أنه من أعظم صلاحيات الكنيسة والدولة أن ترقب بعين يقظة كيف تحط الكتب من قدرها ومن أقدار الناس ، ومن ثم تحتجز أو تسجن أو تطبق أقصى ما تقضى به العدالة على عوامل الشر لأن الكتب ليست أشياء ميتة اطلاقا ، بل أن فيها من الفعالية والحيوية مايجعلها نشيطة فى مثل نشاط النفس التى أنتجتها . ليس هذا فحسب ، بل أنها كذلك ، تحفظ ، وكأنما تحفظ فى قنينة ، أنقى عصارة وقوة مؤثرة للفكر الحى الذى نماها وأبدعها . وإنى لأدرك أنها نشيطة قوية الإنتاج مثل أسنان التنين الخرافية إذا نثرت على الأرض هنا وهناك انبعث منها رجال مسلحون (هكذا تقول الخرافة) . ومن جهة أخرى ، فإنه إذا لم يكن ثمة حيطة وحذر ، فان قتل الإنسان يعدل تقريبا قتل الكتاب الجيد . إن من يقتل رجلا يقتل مخلوقا عاقلا، صورة الله ، على حين أن من يدمر الكتاب الجيد ، يقتل العقل نفسه ، بل يقتل صورة الله ، فى صميمها . وكم من إنسان

(٠) Areopagitica — يقصد بها المسائل المتعلقة بالحكمة العليا فى أثينا ، واسمها أريوباجوس ، نسبة إلى الجبل الذى كانت تجتمع عليه . واقتبس ملتون هذا العنوان من رسالة وجهها آزوقراط ٣٥٥ ق . م . إلى هذه الحكمة .

يعيش حملا ثقيلا على الأرض ، ولكن الكتاب الجيد هو دم الحياة الغالى للروح السامية يصان ويختزن ، قصدا لحياة وراء الحياة . حقا أن أى عصر لن يستطيع استعادة الحياة ، وقد لايكون فى هذا خسارة ، ولا تعوض ثورات العصور فى الغالب عن فقدان حقيقة منبوذة ، ساءت حال امم بأكملها من أجل افتقارها إليها .

وينبغى لذلك أن تكون حذرين يقظين لأى اضطهاد نصبه على الأعمال الحية لمشاهير الرجال البارزين ، وكيف نبدد حياة الرجل الناضجة المحفوظة المختزنة فى كتاب . فإذا رأينا عملا من أعمال القتل يرتكب على هذه الصورة ، وهو فى بعض الأحيان استشهاد ، وإذا امتد هذا إلى كل الإنتاج ، حتى ينتهى الأمر إلى مذبحة ، فمن ثم لاينتهى الإعدام عند خنق الحياة الفطرية ، بل ينفذ إلى الجوهر السماوى الخامس البالغ الرقة ، أى روح العقل ذاته ، فيقضى على الخلود أكثر مايقضى على مجرد حياة(٦٢) .

ويستشهد ملتون بالنشاط الفكرى فى أثينا القديمة ، حيث لم تفرض الرقابة إلا على الكتابات التى تتضمن إلحادا أو قذفا ، وهكذا حكم قضاة محكمة أريوباجوس العليا بإحراق كتب بروتاجوراس ، وبنفيه خارج البلاد ، لمقالة بدأها بالاعتراف بأنه لايدرى « إذا كان هناك آلهة أم لا » . ويمتدح ملتون حكومة رومة القديمة لإتاحتها قدرا كبيرا من الحرية للكتاب ، ثم يصف نمو الرقابة فى رومة الإمبراطورية والكنيسة الكاثوليكية . ويحس ملتون بأن قانون الرقابة هذا تشتم منه رائحة « البابوية » « وما فائدة أن تكون رجلا : لامجرد تلميذ فى مدرسة ، إذا كنا فقط هربنا عن الدرة أو العصا « لنقع تحت نير الرخصة (للطباعة)(٦٣) » ؟ أن الحكومات ومراقبيها ليسوا معصومين من الخطأ ، فليس لهم أن يفرضوا ما يروق لهم أو ما يفضلونه من آراء ومبادىء على الناس ، والأولى بهم أن يتركوا الناس ليختاروا ويتعلموا ، حتى ولو كلفتهم التجربة والخطأ أبهظ الثمن :

إنى لا أستطيع أن أمتدح فضيلة مفروضة عليها الحماية والرقابة ، لا يمارسها أحد ولا ينشق عبيرها أحد ، لا تنطلق قط لترى خصومها ، بل تتسلل بمعزل عن الناس(٦٤) . . أعطنى الحرية لأعرف وأتحدث وأناقش ، بلا قيد ، وفقا لما يمليه الضمير ، فوق كل الحريات(٦٥) . . ومع أن كل رياح المذاهب والمبادىء أطلقت لتهب على الأرض ، حتى إذا دخلت الحقيقة إلى الميدان ، أسأنا إليها بالرقابة والحظر ، لنشكك فى قوتها ، فلنتركها مع البهتان يتصارعان ، فمن ذا الذى رأى يوما أن الحقيقة تنهزم فى معركة حرة مفتوحة(٦٦) ؟ .

ومهما يكن من أمر فان ملتون لا يطالب بالحرية المطلقة للمطبوعات ، فهو يؤمن بأن الإلحاد والتشهير والفحش يجب أن يحرمها القانون ، ويرفض التسامح مع الكاثوليكية لأنها عدو للدولة ، ولأنها هى نفسها موصومة بالتعصب(٦٧) . وفيما عدا ذلك ، فان الدولة التى تسود فيها حرية الفكر والكلام لابد أن ترقى وتنمو فيها سائر الأشياء سواء بسواء .

يخيل إلى أنى أرى بعين البصيرة أمة كريمة قوية تستيقظ وتنفض النوم عن جفونها ، مثل رجل قوى يفيق من سباته ، وتهز خصلات شعرها . ويبدو لى أنى أراها مثل نسر ، يجدد شبابه ويفتح عينيه الحادتين(٦٨) فى وقدة الظهيرة .

ولم يلتفت البرلمان لدفع ملتون أو حجته ، بل على النقيض من ذلك ، سن قوانين تصاعدت صرامتها (١٦٤٧ ، ١٦٤٩ ، ١٦٥٣) ضد اصدار مطبوعات غير مرخصة . وشكا أعضاء شركة المكتبات من أن ملتون لم يكن قد سجل « الأريوباجيتيكا » . وعين مجلس اللوردات اثنين من رجال القضاء لمساءلته ، ولسنا نعرف النتيجة . ولكن من الواضح أنهم لم يزعجوه ، لأنه كان صوتا ذا نفع وقيمة للبيوريتانيين المنتصرين .

وفى فبراير ١٦٤٩ ، أى بعد اعدام شارل الأول بأسبوعين اثنين ، نشر ملتون رسالة عن « ولاية الملوك والحكام » ، ارتفعى فيها نظرية العقد

الاجتماعى التى تقول بأن سلطة الحكومة مستمدة من سيادة الشعب ، وإنه من حق من يملكون السيادة أن يحاسبوا أى طاغية أو ملك شرير ، وعزله وإعدامه ، بعد إدانته إدانة عادلة(٦٩) . وبعد شهر واحد دعاه مجلس الدولة فى الحكومة الثورية ليكون « سكرتير المجلس للغات الأجنبية » . فنحى ملحمته جانبا ، ليتفرغ لمدة أحد عشر عاما ، لخدمة جمهورية البيوريتانيين وحكومة « الحماية » على عهد كرومول .

٦ - سكرتير اللغة اللاتينية ١٦٤٩ - ١٦٥٩

كان النظام الجديد فى حاجـــة إلى من يتقن اللغة اللاتينية ، ليحرر للراسلات الأجنبية ، وكان ملتون للرشح البارز لهذا العمل . حيث كان يستطيع الكتابة باللغات اللاتينية والايطالية والفرنسية كأحد أبناء روما القديمة أو فلورنسة أو باريس ، كما أنه كان قد أثبت فى أشد أوقات الحرج أنه مخلص لقضية البرلمان فى نزاعه ضد الأساقفة والملك . وكان مجلس الدولة لا « كرومول » هو الذى استخدمه لهذا العمل . ولم يكن له صلة وثيقة بالحاكم الجديد ، ولكنه لابد أن يكون قد رآه كثيراً ، وأنه قد أحس فى تفكيره وفى كتاباته ، بالتقارب مع هذه الشخصية المرعبة . ولم يستخدم المجلس ملتون لمجرد ترجمة رسائله الأجنبية إلى اللاتينية ، بل كذلك ، ليبرز للحكومات الأجنبية ، فى نشرات لاتينية ، وجه العدالة والحق فى السياسة الداخلية التى ينتهجها المجلس ، كما يبرز ، فوق ذلك كيف كان من الحكمة وسداد الرأى الاطاحة برأس الملك .

وفى أبريل ١٦٤٩ ، فور تقلده منصبه ، انضم ملتون إلى موظفين آخرين فى المجلس فى وقف نشرات الملكيين وأنصار المساواة ضـــد نظام الحكم الجديد(٧٠) . وكانت الرقابة على المطبوعات آنذاك أشد صرامة منها فى أى وقت مضى فى تاريخ انجلترا ، متبعة فى ذلك القاعدة العامة التى تقول بأن الرقابة تشتد بتزعزع مركز الحكومة . إن الرجل الذى كان قد دبج بأفصح بيان النداء الذى لم يكن له نظير من قبل ، من أجل حرية الصحافة

بات الآن ينظر إلى الرقابة من وجهة نظر السلطة الحاكمة . على أنه يجدر بنا أن نلاحظ أن ملتون قال من قبل الأريوباجيتيكا : إنه من أهم صلاحيات الكنيسة والدولة أن ترقب بعين يقظة كيف تحط الكتب من قدرها ومن أقدار الناس ومن ثم تحتجز أو تسجن أو تطبق أقصى ما تقضى به العدالة على عوامل الشر »(٧١) .

ومذ كان جون لبيرن بصفة خاصة كاتباً مزعجاً من أنصار المساواة ، فإن المجلس أصـــدر تعليماته إلى ملتون ليتولى الرد على كتابه المتطرف « اكتشاف أغلال جديدة » . ولسنا ندرى هل قام ملتون بهذه المهمة أو لم يقم . ولكنه يروى هو نفسه(٧٢) أنه « أمر » أن يرد على « صورة ملك » وامتثل لهذا الأمر فنشر فى ٦ أكتوبر ١٦٤٩ كتاباً من ٢٤٢ صفحه تحت عنوان « محطم الصورة » . وارتياباً ، ولكن اعتراضاً منه بأن « صورة الملك » هو ما أوهم بأنه من تأليف شارل الأول نفسه ، فإنه — أى ملتون تناول حجة الملكية فقرة فقرة ، وانبرى لتفنيدها بكل ما أوتى من قوة ومن خلال ذلك دافع عن سياسة كرومول ، وبرر إعدام الملك ، وأبدى احتقاره « لتلك الشرذمة من الغوغاء المتقلبين الذين يعوزهم التفكير البهائم المولعين بالصور ، . . قطيع ساذج عاجز تربى على الذل والخنوع . . . . يفتتن بالطغيان(٧٣) » .

واستبد الغيظ والحنق بشارل الثانى ، وهو يتجول فى القارة ، فاستأجر أعظم علماء أوربا كلود سوميز ليتولى الدفاع عن الملك الميت ، وسرعان ما أصدر « سالماسيوس » « دفاعه عن الملك السابق شارل الأول » ، فى ليدن (نوفمبر ١٦٤٩) ، نعت فيه كرومول وأتباعه بأنهم « أوغاد متعصبون . . . وأنهم العدو المشترك للبشرية » وأهاب بكل الملوك ، من أجلهم هم أنفسهم : أن يجهزوا الجيوش للقضاء على هذا الوباء . . . يقيننا أن دم الملك العظيم يستصرخ كل الملوك والأمراء فى العالم المسيحى للثأر له . ولا يمكن أن يقوموا بعمل فيه هدوء روحه وسكونها خيرا من أن يعيدوا لوريثه

الشرعى كل حقوقه كاملة ، ويستردوا له عرش أبيه .... وأن يذبحوا ، كضحايا على جدث الميت المقدس ، هذه الوحوش البالغة الضراوة ، الذين تآمروا على قتل مثل هذا الملك العظيم(٢٤) .

وخشى كرومول أن — تزيد حملات مثل هذا العالم الذائع الصيت فى أوربا من الاستياء السائد فى القـــارة ضد حـكومته ، فطلب إلى ملتون الرد على سالماسيوس . وجهد السكرتير اللاتينى فى انجاز هذه المهمة قرابة عام كامل ، فى ضوء الشموع ، على الرغم من تحذير طبيبه له بأنه يفقد بصره تدريجيا ، وأنه مهدد بالعمى . وكانت احدى العينين عاطلة بالفعل ، وفى ٣١ ديسمبر ظهر « دفاع الشعب الإنجليزى عن نفسه ضد دفاع سالماسيوس عن الملكية — لجون ملتون » ، بدأ بالسخرية من سالماسيوس لبيعه خدماته لشارل الثانى ، واستطرد ليظهر أن سالماسيوس قبل أربع سنوات فقط كتب يهاجم النظام الأسقفى الذى يدافع عنه الآن :

أيها العميل الفاسد المرتشى المســأجور ... أيها الجبان المحتقر المرتد الخارج على مبادئك ... يا أشد الحمقى سذاجة وبلاهة .... أنت جدير بعكازة المهرج ، حين تظن أنك تغرى الملوك والأمراء بالحرب ، بمثل هذه الحجج الصبيانية الواهية ... هل تتخيل إذن ، أيها المتلعثم المحامى الصغير الحقير ، الذى لم يولد إلا لينسخ ويقلد كبار الـكتاب ، الذى لم يؤت أية موهبة أو ذكاء أو عبقرية ، أنك ستنتج شيئا تـكتب له الحياة من عندياتك ؟ صدقنى أنك وكتاباتك العقيمة معا ، ستلقى فى زوايا النسيان فى الجيل القادم . لولا أن « دفاعك عن الملك » سيدين ببعض الفضل للرد عليه ، بمحض الصدفة ، وعلى الرغم من أنه قد أغفل وطرح جانبا لبعض الوقت ، فإنه لذلك سيبعث من جديد(٧٥) .

وهذا هو ماحدث على وجه الدقة . أن سالماسيوس كان قد أضفى على شارل الأول صورة مثالية . ولـكن ملتون يحط من قدره . ويشتبه فى أن شارل حرض دوق بكنجهام على دس السم لوالده جيمس الأول ، ويتهم

« الملك الميت بكل « ضروب الفساد الخلقى والإثم « مع الدوق المذكور » ويتهم شارل بتقبيل النسوة فى المسرح ، وبمداعبته أثداء العذارى والمقيلات علنا(٧٦) . » وكان سالماسيوس قد أطلق على ملتون أسماء كثيرة ، فثأر ملتون بأن نعت سالماسيوس بأنه ، غبى ، خنفساء ، حمار ، كذاب ، قذاف مفتر ، مرتد ، معتوه ، جهول ، متشرد ، عبد ذليل ، ويسخر من سالماسيوس لسيطرة زوجته عليه ، ويعنفه على أخطائه اللاتينية . ويدعوه إلى أن يشنق نفسه ، ويضمن له الدخول إلى الجحيم(٧٧) . ونظر توماس هوبز إلى هذه الكتب المتنافسة من علياء فلسفته ، فأعلن أنه عاجز عن أن يقرر أى الفريقين أقوى لغة وأيهما أضعف حجة(٧٨) . على أن مجلس الدولة قدم الشكر لملتون .

تلقى سالماسيوس نسخة من « دفاع » ملتون أثناء وجــــوده فى بلاط الملــكة كريستينا فى ستكهلم ، ووعد بالرد عليه ، ولــكنه أبطأ . وفى الوقت نفسه انصرف ملتون عن الشئون الخارجية إلى شئون بيته . ففى ١٦٤٩ انتقل إلى دار فى « شيرنج كروس » ليكون قريبا من عمله . وهناك وضعت زوجته ولدا ، لم يلبث أن مات ، وفى ١٦٥٢ وضعت بنتا ، « ديبورا » كلفته ولادتها حياة أمها . وفى تلك السنة فقد ملتون بصره تماما . وعندئذ نظم قصيدة من أروع قصائده (السونيت) « عندما أتدبر كيف فقدت نور عينى » . وأبقى عليه المجلس سكرتيرا لاتينيا ، وخصص له كاتبا ليدون له ما يمليه عليه .

ومنى ، وهو رهين العمى ، بخسارة أخرى ، ففى ١٦٥٣ انهارت الجمهورية التى طالما هلل لها ورحب بها ، إلى « ملــكية عسكرية » وأصبح فيها « حامى الحمى » كرومول ، فى واقــع الأمر ملــكا . وراض ملتون نفسه على هذه التطورات بقوله : « أن أساليب العناية الإلهيــــة يحوطها الغموض والإبهام(٧٩) . وظل على اعجابه بكرمول وامتدحه بأنه « أعظم بنى الوطن وأكثرهم تألقا وامتيازا ... ؛ إنه أبو البلاد » . وأكد له « أن فى التلاف

المجتمع الإنسانى ليس ثمة شىء أحب إلى الله ، أو أكثر إلتئاما مع العقل من أن يتولى أسمى العقول السلطة العليا(٨٠) » .

وسرعان ماطلب إليه أن يتولى الدفاع عن « حامى الحمى » فى اتهام خطير . ذلك أنه فى ١٦٥٢ ظهر كتاب يشكل عنوانه نفسه صيحة الحرب . « صرخة الدم الملكى إلى السموات ضد الإنجليز الذين قتلوا أباهم » وبدأ الكتاب بأن نعت ملتون بأنه « حيوان شرير بشع ، قبيح المنظر ، ضخم الجسم ، مكفوف البصر ..... جلاد ... يستحق الشنق » . وقرن الكتاب اعدام شارل الأول بصلب المسيح ، واعتبر قتل الملك كبرى الجرائم(٨١) وسخر من جهر « الغاصبين » بإيمانهم بالدين :

أن لغة وثائقهم العامة محشوة بالتقى والورع وكان لزاما أن يجاريها أسلوب كرومول ومن يدافعون عنه ، وأنه لمما يثير الاشمئزاز ، كما يثير السخرية المريرة ، إلى أى حد من الوقاحة والصفاقة يخفى هؤلاء الأوغاد الخفيون واللصوص الظاهرون حقيقة شرورهم بذريعة أوستار من الدين (٨٢) .

وكما فعل سالماسيوس ، أهاب المؤلف المجهول بدول القارة أن تغزو انجلترا وتعيد آل ستيوارت إلى العرش . وختم الكتاب بتوجيهه إلى الحارس القذر المتوحش ، جون ملتون ، المدافع عن قتل الآباء وقتلتهم ، مع الأمل فى أن يلقى وشيكا شر الجزاء فيضرب بالسياط :

حول هذا الرأس الحانث سدد الضربات جيدا ، وشوه كل بوصة فيه بآثار العصا ، إلى أن تصبح الجثة كتلة هلامية واحدة . هل توقفت ؟ اضرب حتى تتفجر الصفراء من كبده من خلال عينيه الداميتين(٨٣) .

واستحث مجلس الدولة ملتون للرد على هذا العنف ، ولكنه تمهل توقعا لحملة من سالماسيوس ، أملا فى أن يرد على الخصمين فى رسالة واحدة . ولكن سالماسيوس قضى نحبه (١٦٥٣) دون أن يتم رده . وخدع ملتون فى اعتقاده بأن كاتب « صرخة الدم الملكى » هو الكسندر مورس —

Morus ، وهو قسيس عالم فى مدلبرج فطلب إلى مراسليه فى المقاطعات المتحدة موافاته ببيانات عن حياة مورس العامة والخاصة(٨٤) . وكتب أوريان أولاك ، طابع الكتاب ، إلى هارتاب ، صديق ملتون ، مؤكداً أن مورس ليس هو المؤلف(٨٥) . ولكن ملتون أبى أن يصدق هذا ، وأيده فى هذا ، ما يتناقله الناس فى امستردام . وفى أبريل ١٦٥٤ كتب جون درورى إلى ملتون ، محذرا اياه بأنه مخطىء فى نسبة « صرخة الدم الملكى » إلى مورس ، ولكن ملتون تجاهل هذا التحذير ، وفى ٣٠ مايو كتب الدفاع الثانى للشعب الإنجليزى » — جون ملتون .

وكان سحر البيان فى هذا الكتاب الذى بلغ عدد صفحاته ١٧٣ ، أمرا مشهودا ، حيث أملاه باللاتينية رجل كف بصره تماما . وعزا أعداؤه ما أصابه من عمى إلى العقاب الإلهى جزاء خطاياه الفادحة . وأجاب ملتون على هذا بأنه لا يمكن أن يكون ، لأن حياته كانت مثالية ، وهو يشعر بالفرح والابتهاج لأن الدفاع الأول :

هكذا أصاب غريمى بهزيمة ساحقة ٠٠٠٠ إلى حد أنه استسلم من فوره وقد تحطمت روحه وانهارت سمعته ، وعلى مدى السنوات الثلاث التالية من حياته ، ولو أنه كان يهدد ويرغى ويزبد كثيراً . فإنه لم يعد يزعجنا ، فيما عدا أنه استعان بالجهد التافه لشخص جدير بكل الازدراء ، حرضه بما لست أدرى من الملق القبيح المسرف ، على أن يرقما قدر الإمكان عديحهما ، ما حل بشخصه مؤخراً من دمار غير متوقع(٨٦) .

ثم يعرج ملتون على عدوه الجديد ، فيذكر أن « مورس » تعنى بالأغريقية « مغفل » ، ويتهمه بالمرطقة والتهتك والزنى ، وبأن خادمة سالما سالماسيوس حملت منه سفاحا ، ثم هجرها . بل أن طابع « صرخة الدم الملكى » نفسه يجلد بالسوط ، وكل إنسان يعرف أنه غشاش مفلس سيء السمعة(٨٧) .

وفى ظرف وسرح أكثر ، يستعرض ملتون أعمال كرومول ، ويدافع عن حملاته فى أيرلنده ، وعن حل البرلمان ، وعن استيلائه على السلطة ،

ويوجه الحديث إلى « حامى الحمى » :

إننا جميعاً نقدرك حق قدرك ونقر بفضلك الذى لا يدانيه فضل ، فامض فى طريقك القويم ، يا كرومول ، ... يامحرر بلادك ، ويامن أرسى دعائم الحرية فيها ، ويامن تفوقت بأعمالك الجيدة ، لا على انجازات الملوك فحسب ، بل على مغامرات أبطالنا الأسطورية أيضاً (٨٨) .

ولكن بعد عبارات الإجلال والإكبار هذه ، لم يتردد ملتون فى أن يمحض كرومول النصح فى أمر السياسة . فأشار عليه بأن يحيط نفسه برجال من أمثال فليتوود ولمبرت (وهما من المتطرفين) ، وأن يدعم حرية الصحافة وأن يترك الدين منفصلا تمام الانفصال عن الدولة . كما ينبغى ألا تجمع أية عشور لرجال الدين ، فانهم بالفعل متخمون ، (وكل مافيهم سمين ، حتى عقولهم دون استثناء (٨٩) » . ويسترسل ملتون فيحذر كوومول من أنه « ونحن نعده ، دوننا جميعاً ، أعدل وأقدس وأفضل رجل » إذا أقدم على قمع الحرية التى دافع عنها ، فلن تكون النتيجة إلا وبالا ودماراً ، لا لشخصه فحسب ، بل كذلك لكل متطلبات الفضيلة والتقوى (٩٠) . ويوضح ملتون بأجلى بيان أنه لا يقصد « بالحرية » الديموقراطية ، وهو يسأل الناس :

لماذا يؤكد لكم أى إنسان حقكم فى الاقتراع العام ، أو قدرتكم على انتخاب من تريدون للبرلمان ؟ هل من أجل أن تتمكنوا من انتخاب رجال من حزبكم فى المدن ، وفى الأقاليم ، تنتخبون الرجل الذى مد لكم للموائد فى بذخ بالغ ، أو أسرف فى تقديم الشراب لرجال الريف والفلاحين السذج ، سواء كان جديراً أو غير جدير بالانتخاب ؟ ومن ثم لا يجتمع لنا فى البرلمان أعضاء اتسموا بالحصافة والحكمة والخبرة والثقة ، بل أعضاء صنعتهم الحزبية وموائد الطعام !! . وبعبارة أخرى نحصل على أعضاء من تجار الخمور والباعة المتجولين ، من الحانات فى المدن ، ومن الرعاة ومربى الماشية فى الريف ، فهل يجدر بأى إنسان أن يكل أمور الجمهورية لأمثال هؤلاء الذين لا يثق أحد فى أن يعهد إليهم بشأن من شئونه الخاصة (٩١) ؟ .

كلا ، إن مثل هذا الاقتراع العام لا يعتبر حرية :

فلأن أن تكون حراً ، هو بالضبط أن تكون تقياً عاقلا عادلا معتدلا مكتفياً بذاتك ، لا تمد يديك إلى ما بأيدى الناس ، وقصارى القول ، أن تكون شهماً رحب الصدر شجاعا . أما إذا تجردت من هذا كله أو كنت على نقيضه ، فإنك لن تعدو أن تكون عبداً رقيقاً . وقد حكم الله على الأمة التى لا تستطيع أن تحكم نفسها وتدبر أمورها بنفسها ، والتى استعبدتها شهواتها ، بأنها لابد أن تستسلم لسلطان غيرها ، فتقع فى ذل العبودية بإرادتها وضد إرادتها معاً (٩٢) .

وفى أكتوبر ١٦٥٤ أعاد أولاك طبع « الدفاع الثانى » لملتون ، فى لاهاى ، مع رد عليه بقلم مورس بعنوان « دليل دامغ » . وفى المقدمة أكد الطابع أن مورس ليس مؤلف « صرخة الدم الملكى » ، وأنه ، أى أولاك ، تسلم مخطوطته من سلماسيوس الذى أبى أن يميط اللثام عن إسم المؤلف . وأنكر مورس انكاراً تاماً أنه المؤلف ، وأكد أن ملتون قد أبلغ بهذا مراراً وتكراراً ، واتهمه بأنه قد رفض من قبل تغيير «دفاعه» ، لأنه لن يتبقى منه شىء يذكر إذا حذف منه السباب الذى وجهه إلى مورس . وفى أغسطس ١٦٥٥ أصدر ملتون كتاباً من مائتين وأربع صفحات « دفاع عن النفس » ورفض أن يصدق انكار مورس ، وأورد من جديد فعلته الشائنة مع خادمه سالماسيوس ، وأضاف أنها ، فى شجار مشروع أوسعت مورس ضرباً وطرحته أرضاً ، وكادت أن تفقأ عينيه(٩٣) . ولكن تبين فى خاتمة المطاف أن أحد رجال اللاهوت البروتستانت ، واسمه بيير دى مولان ، هو الذى كتب « صرخة الدم الملكى » ، وأن مورس هو الذى نشره وكتب إهداءه(٩٤) . ولما دعى مورس ليكون راعياً لإحدى كنائس الإصلاح قرب باريس ، أرسل شاعرنا عدة نسخ من « الدفاع الثانى » إلى الأبرشية لمنع تعيينه(٩٥) . ولكن مجلس الأبرشية عينه على الرغم من ذلك كله ، وختم مورس سيرته التى اكتنفتها المضايقات (١٦٧٠) وهو أنصح

الوعاظ البروتستانت بياناً فى باريس أو فيما حولها .

ويبدو ملتون فى مظهر أرق فى قصيدة السونيت « مذبحة بيد مونت » (١٦٥٥) (*). ويحتمل أنه هو الذى دون الرسائل التى أهاب فيها كرومول بدوق سافوى ليضع حداً لاضطهاد « الفدوا Vaudois » (أتباع بيتر فالدو — بيوريتانيون منشقون فى جنوب فرنسا) ، وإلى مزران وحكام السويد والدنمرك وللقاطعات المتحدة ومقاطعات سويسرا ، ليتوسطوا لدى الدوق .

وفى ١٦٥٦ ، بعد أربع سنوات من حياة العزوبة ، تزوج ملتون من كاترين وودكوك التى لم تكتحل عيناه بمرآها بطبيعة الحال ولكنها أثبتت أنها بركة ونعمة عليه ، فكانت ممرضة صابرة متجلدة لزوج مكفوف عنيف ، وأما لبناته الثلاث ، ولكنها قضت نحبها (١٦٥٨) ، أثناء وضع طفل لم يعمر . وكانت تلك سنة عصيبة على ملتون ، حيث رحل عن الوجود وكرومول أيضاً ، فكان لزاماً على السكرتير اللاتينى أن يحافظ على منصبه ، قدر طاقته ، فى غمرة فوضى الأحزاب التى انحدرت بريتشارد كرومول إلى مجرد رجل عاجز تافه محب للخير . وعلى الرغم من أن ملتون لابد كان يدرك أن انجلترا سائرة فى طريق استعادة ملكية آل ستيوارت ، فإنه أصدر فى أكتوبر ١٦٥٨ طبعة جديدة من « دفاع الشعب الانجليزى عن نفسه » فى أسلوب يغرى بالاستشهاد . وفى مقدمة رائعة وصف ملتون « الدفاع الأول » بأنه « أثر ... تتعذر إزالته بسهولة » ، وزعم أنه من وحى السماء ووضعه فى المرتبة التالية لمآثر كرومول ، الذى أنقذ حرية انجلترا(٩٦).

وقاوم فى شجاعة عمياء حركة إعادة شارل الثانى ، وعندما وصل جيش مونك إلى لندن ، وتردد البرلمان بين الجمهورية والملكية ، نشر ملتون فى فبراير ١٦٦٠ رسالة موجهة إلى البرلمان ، تقع فى ١٨ صحيفة ، « الطريق الممهد السهل لإقامة جمهورية حرة ، ومزاياه للمرتقبة بالمقارنة إلى مساوىء ومخاطر

* أنظر الفصل السادس عشر — الفقرة الأولى .

إعادة الملكية فى هذه الأمة » . ومهرها فى جرأة وبساله باسمه (بقلم جون ملتون) وفيها ناشد البرلمان :

ألا يلوث ويهزأ بدم آلاف الانجليز المخلصين البواسل الذين خلقوا لناهذه الحرية ، التى اشتريت بحياتنا نحن . وماذاعسى أن يقول جيراننا عنا وعن إسم انجلتراطامة ، إلا أنهم على أحسن الفروض ، سيسخرون منا ، قدر السخرية بهذا الرجل الغبى ، الذى أورد (مخلصنا) ذكره ، والذى بدأ يبنى صرحاً وعجز عن إتمام البناء ؟ أين صرح الجمهورية الشامخ الذى تباهى الانجليز بأنهم سيقيمونه ليتقلص ظل الملوك ، وتصبح انجلترا رومة أخرى فى الغرب ؟ .... ماهذا الجنون الذى اعترى هؤلاء الذين يستطيعون فى شرف وكرامة أن يدبروا شئونهم بأنفسهم ، حتى يحولوا كل هذه السلطات إلى شخص رجل واحد ! ياللجبن والنذالة أن نحسب أن مثل هذا الفرد هو مناط حياتنا ، ونعلق عليه كل سعادتنا وأمننا وسلامتنا وخيرنا ، وبدونه لا يكون لنا وجود ، أو نكون مجرد أفراد كسالى بلداء أو أطفال ! إنه ليجدر بنا أن نعتمد على الله وحده ، وعلى أنفسنا نحن ، وعلى فضائلنا العملية وعملنا الجاد(٩٧) .

وتنبأ ملتون بأن كل (الاعتداءات القديمة) التى ارتكبتها الملكية ضد حرية الشعب سوف تعود وشيكا بعودة الملكية . واقترح أن يحل محل البرلمان (مجلس عام) يضم أقدر الرجال الذين ينتخبهم الشعب للعمل حتى الموت ، ولا يخضعون للعزل إلا عند الإدانة بإحدى الجرائم ، ويجدد المجلس بانتخابات دورية . وعلى هذا المجلس ، على أية حال أن يوفر أكبر قدر ممكن من حرية الكلام والعبادة والحكم المحلى . واختتم ملتون رسالته بقوله : «أرجو أن أكون تحدثت إلى حد الإقناع إلى مجموعة كبيرة من الرجال الواعين المخلصين ، أو إلى بعض من قد يقيمهم الله من هذه المقاعد الحجرية ليصبحوا « أبناء الحرية » ، ويوفقهم ويجمعهم على قرارات حكيمة تقيم ما أعوج من أمورنا ، وتصلح ما فسد من أحوالنا ، وتعالج هذا الخلل العام

للتفشى فى الجمهور الذى أسىء استغلاله وأعوزه من يوجهه ويرشده(٩٨) » .

وتجاهل البرلمان هذا الالتماس الذى ينطوى على القضاء عليه . وظهرت النشرات المطبوعة التى تهاجم ملتون ، وحبذت إحداها شنقه وأصدر مجلس الدولة ، وهو آنئذ ملكى النزعة ، أمرا بالقبض على طابع رسالة ملتون ، وفصله من منصبه (السكرتير اللاتينى للمجلس) فكان جوابه على ذلك إنه أصدر طبعة ثانية مزيدة من الرسالة « الطريق الممهد السهل » (أبريل ١٦٦٠) وحذر البرلمان من أن الوعود التى يقطعها الآن شارل من اليسير أن تنقض بمجرد تثبيت دعائم السلطة الملكية الجديدة . وسلم بأن غالبية الشعب ترغب فى عودة شارل الثانى ، ولكنه دفع بأن الأغلبية ليس لها الحق فى استعباد الأقلية أو التحكم فيها . إنه لمن الأعدل .... إذا وصل الأمر إلى حد الفرض بالقوة ، أن ترغم الأقلية مجموعة أكبر منها على أن تعيد إليها حريتها . من أن تفرض الأغلبية على أقلية من الناس من بنى وطنهم أن يكونوا عبيدا أرقاء لهم ، بشكل يسىء إليهم أبلغ اساءة (٩٩) . وتكاثرت الهجمات والحملات على ملتون وناشدت إحداها الملك شارل الثانى ، وكان آنذاك فى بريدا أن يتذكر جيدا الإهانات التى وجهها ملتون من قبل فى رسالته « محطم الصور » وغيرها ، إلى والده شارل الأول . واقترحت أن يضم ملتون إلى قائمة قتلة الملك الفعليين ، لأنه يستحق الإعدام(١٠٠) .

وقبل أن تصل هذه النشرة إلى شارل الثانى ، كان قد أبحر هو بالفعل إلى انجلترا ، وفى ٧ مايو ، ودع ملتون أولاده وآوى إلى مخبأ مع أحد الأصدقاء . ولكن كشف أمره وأودع السجن وبات مصيره لمدة ثلاثة أشهر مرهونا بما يقرره البرلمان الملكى ورأى كثير من الأعضاء أنه إذا كان ثمة من يستحق الإعدام ، فهو ملتون . وكان هذا متوقعا . ولكن مارفل دافينانت وبعض الأعضاء الآخرين توصلوا إلى البرلمان أن يرحم شيخوخته وبصره المكفوف فاكتفى البرلمان بالأمر بإحراق بعض كتب بعينها من مؤلفاته ، حيثما وجدت . وأطلق سراحه فى ١٥ ديسمبر ، فاتخذ دارا

فى هلبورن ، انتقل إليها هو وأولاده ، حيث انصرف — بعد أحد عشر عاما صاخبا عصيبا مضطربا ، عن النثر ، إلى الفترة الثانية من نظم الشعر ، وهى فترة بالغة الروعة والعظمة .

٧ — الشاعر العجوز : ١٦٦٠ — ١٦٦٧

وجد ملتون بعض السلوى والعزاء فى العزف على الأرغن وفى الغناء ، ويقول أوبرى « كان صوته رخيما رقيقا [١٠١] » وفى ١٦٦١ انتقل إلى دار أخرى ، وفى ١٦٦٤ استقر به المقام نهائيا فى بيت فى Artillery WolK ، فيه حديقة صغيرة استطاع أن يتمشى فيها دون أن يقوده أحد سوى يديه وقدميه . وكثيرا ماقدم إليه أبناء أخته لزيارته ومعاونته ، وقد نسوا ماكال لهم من ضرب فى سابق الأيام ، كما جاء إليه الأصدقاء ليقرأوا له ، أو يكتبوا ما يمليه عليهم . وتولى بناته الثلاث خدمته بصبر نافد وجهد جهيد . وكانت كبراهن — آن — عرجاء شوهاء لكناء . وكانت ديبورا تتولى له الكتابة ، وتعلمت هى وأختها مارى قراءة اللاتينية واليونانية والعبرية والفرنسية والإيطالية والأسبانية ولو أنهما لم تكونا تفهمان ماتقرآن [١٠٢] . والحق أن أيامنهن لم تذهب قط إلى مدرسة ، ولكنهن تلقين بعض الدروس الخاصة . ولكن لم يحظين من التعليم إلا بأقل نصيب ، على أحسن الفروض وباع ملتون معظم مكتبته قبل وفاته ، لأن بناته لم تعنين بالكتب إلا قليلا . وشكا من أنهن بعن الكتب خفية ، وأنهن أهملن شأنه فى وقت الحاجة والشدة ، وأنهن تآمرن مع الخدم على مغالطته وسلبه عند شراء حاجيات المنزل [١٠٣] ، ولم يشعر البنات بالسعادة فى هذا البيت الكئيب ، مع والد قاس كثير المطالب سريع الغضب . ولما سمعت ابنته مارى بأنه يرتب لزواج جديد قالت : « ليس ثمة أنباء تستحق أن تسمع عن زفافه ، ولكن النبأ الجدير بالاستماع هو نبأ وفاته » [١٠٤] . واتخذ ملتون فى ١٦٦٣ ، وهو آنذاك فى الخامسة والخمسين ، زوجة ثالثة ، هى اليزابث منشول M nshull ، وكانت فى الرابعة والعشرين من العمر . وتولت خدمته

باخلاص وأمانة حتى آخر أيام حياته . وبعد سبع سنوات مع زوجة الأب التى وصفها أوبرى بأنها « وديعة مسالمة مرحة مقبولة »(١٠٥) هجر البنات الثلاث منزل والدهن ، ليتعلمن ، على نفقة ملتون بعض الحرف .

وكانت عودة الملك قد كلفته كثيراً ، وكادت أن تكلفه حياته ، ولكنها مهدت الطريق لنظم « الفردوس المفقود » . فلولاها ربما أفنى ملتون نفسه فى التراشق بالنشر فى المعركة ، لأن « المقاتل » كان فى مثل قوة « الشاعر » فى شخصه . وبرغم هذا كله ، لم يودع ملتون قط الأمل فى أن يكتب لانجلترا شيئاً تتغنى به لقرون قادمة . وفى ١٦٤٠ أعد بياناً بموضوعات يمكن أن تكون ملحمة أو دراما ، كان من بينها موضوع خطيئة آدم (خروجه من الجنة) ، وأساطير الملك آرثر (ملك بريطانيا الذى يفترض أنه عاش فى القرن السادس ق . م ، وبطل المائدة المستديرة) وتأرجح بين اللاتينية والإنجليزية ، بأيتهما يكتب ، وحتى حين قرقراره على « الفردوس المفقود » ، موضوعاً له ، فكر فى أن يكتبه على شكل مأساة إغريقية ، أو رواية دينية ، على غرار روايات العصور الوسطى ، وفى أوقات مختلفة نظم بعض أبيات أو مقطوعات أدخلت فيما بعد فى القصيدة . ولم يتسن له إلا بعد وفاة كرومول ، أن يجد فسحة من الوقت يومياً ، ليكتب الملحمة ، وفى ١٦٥٨ فقد بصره تماماً .

فى الأيام السود ، وألسنة السوء ، ولو أنها ولت ، فقد لفنا الظلام واكتنفتنا الأخطار من كل جانب(١٠٦) .

وتواردت على ذهنه الأبيات ، حين كان يرقد عاجزاً أرقاً ، ويكاد ينفجر بها . فينادى على من يكتب له قائلا : « إنه يحتاج إلى من يحلبه(١٠٧) » . وكانت تنتابه حمى الشعر ، فيملى أربعين بيتاً « فى نفس واحد » ، ثم يجد فى تصحيحها عندما تعاد تلاوتها عليه . ويحتمل ألا تكون ثمة قصيدة نظمت بمثل هذا الجد والكد والشجاعة والجراءة . وداخل ملتون شعور قوى بأنه يمثل لانجلترا هوميروس واشعيا معاً ، حيث اعتقد بأن الشاعر

صوت الله ، وأنه نبي أوحى إليه أن يعلم الناس .

وفى ١٦٦٥ ، حين انتشر الطاعون بلندن ، اتخذ التدابير صديق سجين من الكويكرز ،هو توماس الوود ، لنقل ملتون ليقيم فى « كوخه المكون من عشر حجرات فى « كالفونت سانت شيل فى بكنجها مشير » . وهناك فى هذه « المقصورة الجميلة » أكمل الشاعر « الفردوس المفقود » ولكن من ذا الذى يقدم على نشرها ؟ لقد كانت لندن فى اضطراب بالغ فى ١٦٦٥ ـ ١٦٦٦ بسبب الحريق الذى جاء فى أعقاب الطاعون ، وإذا كان ثمة شيء من الفرح والمرح باق ، فهو عودة الملكية فى صخبها وعربدتها . وفى حالة نفسية ليس معها مجال للملحمة من ١٠٥٥٨ بيتا عن الخطيئة الأولى . لقد حصل ملتون من قبل على ألف من الجنيهات عن رسالته « دفاع الشعب الإنجليزى » أما الآن ، فى ٢٧ أبريل ١٦٦٧ ، فقد باع كل حقوقــه فى « الفردوس المفقود » إلى الناشر صمويل سيمونز لقاء خمسة جنيهات نقداً ، مع الاتفاق على دفعات أخرى قيمة كل منها خمسة جنيهات ، يتوقف تسديدها على مايباع من الكتاب ، فكان كل ما حصل عليه هو ١٨ جنيها(١٠٨) . ونشرت القصيدة فى أغسطس ١٦٦٧ . وبيع منها فى العامين الأولين ١٣٠٠ نسخة ، وفى الأحدعشر عاما الأولى بيع ٣٠٠٠ نسخة . وربما لا يقبل على قراءة القصيدة بأكملها مثل هذا العدد من القراء فى أية سنة فى أيامنا هذه ، فليس لدينا فراغ كبير ، حتى لقد اخترعنا كثيرا من الأدوات التى توفر الجهد .

وتشترك « الفردوس المفقود » مع « الياذة فرجيل » ، فيما أصاب كلتيهما من نكسة وتعويق ، لظهورهما بعد الياذة هوميروس ، فان مشاهد المعركة والمحاربين الخارقين للطبيعة يفتقدون قوتهم وسحرهم ، لكونهم تقليدا ومحاكاة . ولا ريب فى أن هوميروس قلد نماذج قديمة ، ولكننا نسيناها ولم نعد نذكرها ، وذهب جونسون إلى أن « الفردوس المفقود » ، بطبيعة موضوعها ، تمتاز على ما عداها ، بأنها ممتعة مشوقة للجميع دائما « ولكنه

اعترف بأن « أحدا لم تساوره الرغبة فى أن تكون أطول مما هى(١٠٩).
أن موضوع « الخطيئة الأولى للإنسان . وثمار الشجرة المحرمة التى جلب مذاقها القاتل الموت والفناء على العالم ، وجلب علينا كل الكروب والويلات » ، كان موضوعا مناسبا إلى حد كبير ، لأيام شباب ملتون ، حين كان يتلقى سفر التكوين على أنه تاريخ ، وحين كانت الجنة والنار ، والملائكة والشياطين ، هى نسيج التفكير اليومى . أما اليوم فان موضوع القصيدة أكبر عائق فى سبيلها ، إنها قصة خرافية تروى الشبان فى أحد عشر قسما ، وأن الاستمرار فى مشاهدة مثل هذا العرض الطويل اللاهوت من البداية حتى النهاية جاف قاس عتيق ، ليتطلب اليوم جهدا شاقا متصلا . وما كان الهراء ليسبغ عليه يوما مثل السمو والرفعة قط . ان عظمة المشهد وجلاله ، ومعانقة الجنة والنار والأرض ، والانسياب الفخم المهيب للشعر المرسل ، ومعالجة الموضوع المعقد ببراعة فائقة ، والوصف الرقيق الجديد للطبيعة ، والمحاولة الموفقة لأسباغ الوقعية والشخصية على آدم وحواء ، وكثرة القطع الشعرية البالغة الروعة والقوة ، كل أولئك بعض الأسباب التى جعلت من « الفردوس المفقود » أعظم قصيدة فى اللغة الإنجليزية .

وتبدأ القصه فى جهنم حيث الشيطان على هيئه طائر « ضخم الجسم » ، ذى جناحين مبسوطين ، ينصح ملائكته الهابطين بألا ييأسوا :

لم يضع كل شىء ، فان الإرادة التى لاتقهر ، وتدبر الأخذ بالثأر والكراهيه التى لايخبوا أوارها أبداً ، والشجاعه التى لاتخضع ولاتستسلم ، أما أن تنثنى متوسلة للرحمه ، على ركبتين ضارعتين ، وتعظم من سلطانه ... فهذا أمر دنىء حقا هذا خزى وعار أنكى من هذا السقوط ويبقى العقل والروح ولا سبيل إلى قهرهما(١١٠) ...

وكأنى بهذه الأبيات تردد صدى كرومول وهو يتحدى شارل الأول ، وصدى ملتون وهو يتحدى شارل الثانى ؛ وثمه عدة قطع فى وصف الشيطان تذكرنا بملتون :

عقل لا يغير منه زمان أو مكان ، فالعقل راسخ فى مكانه ، يستطيع فى نفسه أن يجعل من الجنه جحيما ، ومن الجحيم جنه (١١١) .

وفى الأجزاء القديمه من القصيدة نجد أن فصاحه ملتون أغرته بأن يرسم لابليس صورة تكاد تنم بالود والعطف ، وكأنه زعيم ثورة ضد السلطة الرسمية الاستبدادية . وتخلص الشاعر من أن يجعل الشيطان بطل الملحمة بتصويره ، فيما بعد ، بأنه «أبو الأكاذيب» الذى « يجثم مثل ضفدع الطين» أو كالأفعى التى تنزلق ملتوية فوق الوحل(١١٢) . ولكن فى هذا القسم من الملحمه نفسه ينهض الشيطان مدافعا عن المعرفه :

المعرفه محرمه محظورة ؟ لماذا ينفس عليهما ربهما ذلك ؟ هل تكون المعرفه اثما ؟ أو تكون فناء ؟ هل يعيشان (آدم وحواء) على الجهل وحده ؟ أو أن حالتهما السعيدة هى دليل طاعتهما وإيمانهما ؟ سأثير فى عقليهما مزيدا من الرغبه فى المعرفه(١١٣) . . .

ومن ثم يحاور حواء وكأن كنيسة عقلانيه تحمل على كنيسة جامدة تعيش فى ظلام الجهل ، تقف عقبه كأداة فى طريق انتشار المعرفه :

لماذا إذن كان هذا التحريم ؟ . لماذا كان ، إلا ليرهب عباده ويبقيهم على حالة من الإنحطاط والجهل ، إنه يعلم أنه فى اليوم الذى تأكلان من تلكما الشجرة ، فان أعينكما التى تبدو الآن صافيه ولكنها كليلة ، سوف تتفتح وتصفو تمام الانفتاح والصفاء ، ومن ثم تكونان مثل الآلهه(١١٤) .

ويأمر روفائيل ، وهو أحد الملائكة ، آدم ، بأن يكبت من حبه لاستطلاع الكون ، فليس من الحكمة أن يتطلع الانسان إلى معرفة ماوراء نطاقه الفانى(١١٥) فالإيمان أعقل من المعرفة .

وكان لنا أن نتوقع ألا يفسر ملتون « الخطيئة الأولى » بأنها رغبة فى المعرفة ، بل أنها علاقة جنسية . أنه على النقيض من ذلك ، ينشد تسبيحة غير بيوريتانيه اطلاقا ، من أجل مشروعيه اللذة الجنسيه ، فى حدود الزواج ، ويصور آدم وحواء منغمسين فى مثل هذه القيم المادية ، مع

بقائهما على « حالة البراءة »(١١٦) ، ولكن بعد « الخطيئة » أى أكل الفاكهه المحرمه من شجرة المعرفه — بدأا يستشعران الخزى والعار فى الاتصال الجنسى(١١٧) . وهنا ينظر آدم إلى حواء على أنهما مصدر كل الشر ، « ضلع أعوج بالطبيعه » ويرثى لأن الله خلق المرأة :

لماذا خلق الله فى النهايه هذه البدعه على الأرض ، هذه العلة الجبلية فى الطبيعه ، ولم يملأ العالم على الفور ، برجال مثل الملائكة ، دون إناث ، أو يجد طريقة أخرى لتوالد بنى البشر(١١٨) ؟ .

ومن ثم فان الإنسان الأول ، فى تاريخ الزواج فى الكتاب المقدس ، سرعان ما اصطنع ذريعة ليطلق الرجل زوجته فى سهولة ويسر ، وهنا نجد ملتون ينسى آدم ، ويكرر شعرا ما سبق أن ذكره نثرا ، عن خضوع المرأة خضوعا حقيقيا تاما للرجل(١١٩) . وسيعود إلى هذه اللازمة فى قصيدة «Samson Agonistes» (١٢٠) . فهى حلمه الأثير الحبيب إلى نفسه . وفى رسالته السرية « العقيدة المسيحية » دافع عن إعادة « تعدد الزوجات » ألم يجزه العهد القديم . ألم يترك العهد الجديد هذا القانون الحكيم الشجاع دون إلغاء أو تعطيل ؟(١٢١) .

ومهما فسرت « مخالفة الإنسان الأول لأمر ربه » (الخطيئة الأولى) ، فقد ثبت أنها موضوع أصغر من أن يملأ اثنى عشر قسما ، لأن الملحمة تتطلب سلسلة من الأحداث والأعمال ، ولكن حيث أن ثورة الملائكة انتهت حين بدأت القصة . فان المسرحية لا تدخل إلى القصيدة إلا عن طريق الذكريات أو العودة إلى الماضى ، وهو صدى آخذ فى الذبول والزوال. ومشاهد المعركة موصوفة وصفا جيدا ، بما فى ذلك التصارع المناسب بالسلاح ، وشج الرؤوس وتقطيع الأوصال ، ولكن من العسير أن تشعر بالألم أو بنشوة الابتهاج لهذه الضربات الخيالية . وعلى غرار الكتاب المسرحيين الفرنسيين يطلق ملتون لنفسه العنان للخطابة ، فالجميع ابتداء من « الله » إلى حواء يخطبون ، ولم يجد الشيطان فى سعير جهنم ما يحول بينه وبين البلاغة وأنه

لمن المزعج حقا أن نعلم أنه حتى فى الجحيم سنكون مضطرين إلى الاستماع إلى محاضرات » .

« والرب » فى هذه القصيدة ليس هو التألق الذى يجل عن الوصف الذى تحس به فى « جنة دانتى » فهو فى القصيدة فيلسوف سكولاس (فيلسوف نصرانى من العصور الوسطى) ، يدلى بأسباب مطولة غير مقنعة ، لأنه وهو القادر على كل شىء ، يجيز للشيطان أن يوجد ، وأن يغوى الإنسان ، متنبئا ، طوال الوقت ، بأن هذا الإنسان سيذل ويخضع ، ويجلب على البشرية بأسرها قرونا من الخطيئة والشقاء والتعاسة . ويحاج بأنه بدون حرية الإثم لا تكون الفضيلة ، وبدون التجربة لا توجد الحكمة والتعقل ، ويرى أنه من الأفضل أن يواجه الإنسان الإغراء ويقاومه ، من عدم التعرض للاغراء اطلاقا ، دون أن يتوقع أبدا أن الصلوات سوف تتوسل إلى الله ألا يقود الإنسان إلى الغواية والإغراء . ومن ذا الذى يطابق التعاطف مع تمرد الشيطان على هذا السادى الذى لا يصدق ؟ (السادية : الابتهاج بالقسوة المفرطة) .

وهل كان ملتون يؤمن حقا بهذا الهول الجبرى المقدر ؟ . من الواضح أنه كان كذلك ، لأنه بسط الكلام فيه ، لا فى « الفردوس المفقود » فحسب ، بل فى رسالته المرية « العقيدة المسيحية » كذلك [١٢٢] . أى أن الله ، قبل خلق الإنسان بزمن طويل ، قدر أى الأرواح يكتب لها الخلاص ، وأيها قدر عليها العذاب المقيم . وانطوت هذه الرسالة ، على أية حال ، على شىء من الهرطقة . ولم ينشرها ملتون قط ، ولم يكشف أمرها إلا فى ١٨٢٣ ، ولم تصل إلى المطبعة إلا فى ١٨٢٥ .

إن هذه الرسالة وثيقة جديرة بالذكر ، فهى تبدأ فى إطار من التقوى ، ودون جدل أو لجاجة ، بافتراض أن كل كلمة فى الكتاب المقدس هى وحى من عند الله . وسلم ملتون بأن نصوص الكتاب المقدس قد طرأ عليها « التزييف والتشويه والتبديل » ولكنها حتى فى صيغتها الراهنة ، من صنع

الله . وهو لايجيز غير التفسير الحرفى الأمين . فإذا جاءت الأسفار بأن « الرب » ، إستراح ، أو خاف ، أو ندم ، أو كان غاضبا ، أو حزينا ، فإنه ينبغى أن تؤخذ هذه الألفاظ بمعناها الظاهرى ، وألا تخفف على أنها مجازات ، بل كذلك أجزاء الجسم والصفات الجسدية التى تنسب إلى « الله » يجب قبولها على أنها حقيقية من الوجهه الماديه(١٢٣) . ولكن « الله » بالإضافه إلى هذا الكشف الظاهرى الذى جاءت به الأسفار المقدسه والذى يكشف به عن كنهه فإنه ، زودنا بوحى داخلى ، هو الروح القدس الذى يتحدث فى داخل قلوبنا . وهذا الوحى الداخلى « الملك الخاص لكل مؤمن ، أسمى بكثير ... ومرشد أصدق ، من الأسفار المقدسة(١٢٤) . ومهما يكن من أمر ، فإن ملتون يقتبس من الكتاب المقدس ، مايؤيد ما يسوق من حجج ، على أنه البرهان الحاسم الدامغ .

وعلى أساس من الأسفار المقدسة ، ينبذ ملتون نظرية الثالوث الأقدس التقليدية ، ويؤثر عليها هرطقة آريوس (الذى يقول بأن المسيح ليس من مادة الله ، بل هو خير خلقه فقط) ، فالمسيح بكل معنى الكلمة ، ابن الله ، ولكن الأب ولده فى زمن ما ، ومن ثم فهو غير معاصر للأب وليس متساويا معه أبدا . فالمسيح هو الوسيط الذى خلقه الله على أنه « اللوجوس أى الكلمة » الذى سيخلق منها كل من عداه . ولا يسلم ملتون « بالخلق من العدم » ، فعالم المادة ، مثل عالم الروح ، إنبثاق أو فيض سرمدى من المادة الآلهية . وحتى الروح نفسها ، فهى مادة رقيقة جدا أثيرية ، ولا يجوز تمييزها تمييزا حادا عن المادة . وفى النهاية ، المادة والروح ، والجسم والنفس فى الإنسان ، شىء واحد(١٢٥) . وثمة شبه كبير يستحق الملاحظة بين هذه الآراء ، وآراء هوبز (١٥٨٨ — ١٦٨٩) وسبينوزا (١٦٣٢ — ١٦٧٧) ، وقد ترى أنهما فارقا الحياة فى نفس العقد من السنين الذى مات فيه ملتون (١٦٠٨ — ١٦٧٤) . وربما اطلع ملتون على مؤلفات هوبز التى كان لها دوى ملحوظ فى بلاط شارل الثانى .

وظلت عقيدة ملتون خليطا غريبا من التوحيد والمادية ، ومن مذهب حرية الإرادة عند جاكوب أرمينيوس (لاهوتى برتستانتى هولندى ١٥٦٠ — ١٦٠٩) ، ومن مذهب الجبرية أو القضاء والقدر عند كلفن . ويبدو فى كتاباته أنه كان رجلا متعمقا فى أمور الدين . ومع ذلك لم يذهب قط إلى الكنيسة حتى قبل فقد بصره ، ولم يقم الشعائر الدينية فى بيته(١٢٦) . وكتب دكتور جونسون : « فى توزيع ساعاته لم يخصص وقتا للصلاة ، وحده ، أو مع أهل بيته . وحذف الصلوات العامة ، لقد حذف الصلوات جميعا ١٢٧) » . وازدرى رجال الدين ، ونعى على كرومول احتفاظه بعدد من رجال الدين تدفع الدولة رواتبهم ، على أنه لون من « عبادة الأوثان » ، يؤذى الدولة والكنيسة معا(١٢٨) . وفى أحد بياناته الأخيرة « بحث فى العقيدة الحقة ، والهرطقة والإنشقاق عن الكنيسة والتسامح ، وأمثل الطرق للحيلولة دون نمو البابوية » (١٦٣٣) عارض بطريق مباشر الاعلان الثانى الذى أصدره شارل الثانى عن التسامح (١٦٧٢) ، محذرا انجلترا من التسامح مع الكاثوليك وأنصار التوحيد ، أو أية شيعة أخرى لا تعترف بالكتاب المقدس أساسا وحيدا لمذهبها .

أن هذا الرجل الذى تفوح منه رائحة الهرطقة ، عرف عنه مقاومة رجال الدين وتدخلهم فى الشئون العامة والخروج على الكنيسة ، هو نفس الرجل الذى أخرج للعقيدة المسيحيه أكرم شرح حديث لها .

٨ — السنوات الأخيرة : ١٦٦٧ - ١٦٧٤

احتفظ ملتون مع دخوله فى العقد السابع من العمر ، فيما خلا فقد البصر ، بصحه جسمه وإعتداده بنفسه ، وهما اللذان دعماه وسانداه فى كل الصراعات الدينيه والسياسة التى خاضها . ويصفه أوبرى بأنه « نحيل ... متوسط القامه » ... فهو جسم جميل متناسب الأجزاء ، وبشرته فوق المتوسطه ... صحيح الجسم ، لايشكو علة ، قلما يتناول الدواء ، وكل مافى الأمر أن النقرس انتابه فى أخريات أيامه(١٢٩ » . وكان شعره الذى فرقه

فى الوسط يتدلى على كتفيه فى حليقات أو عقصات . ولم تنبىء عيناه عن فقد بصره . وظلت مشيته ثابته منتصبه . وكان إذا غادر بيته بدا على زيه شدة الحساسه والكلف بملابسه ، وتمنطق بسيف، لأنه كان فخورا ببراعته فى المبارزة واللعب بالسيف(١٣٠). وأضفت عليه الثقة الزائدة عن الحد وقارا ، وعزوفا عن المرح . ولكنه كان مع ذلك حلو الحديث إلا إذا لقى معارضه . ولم يكن بيوريتانيا بكل معنى الكلمه : كان عنده شعور البيوريتانيين بالإثم ، والجحيم والإصطفاء والأسفار المقدسهالتى لاتخطىء ، ولكنه استساغ الجمال واستمتع بالموسيقى ، وألف روايه ، واحتاج إلى عدة زوجات ، وتخلفت أثارة من حيويه عصر اليزابث وسط رزانته الخاليه من المرح . وكان أنانيا ، أو أنه كشف عن أنانيته الطبيعيه إلى حد الافراط غير المألوف . إنه كما قال أنطونى رود : « لم يكن يجهل مواهبه(١٣١) »، وكما قال جونسون « قل من الرجال من كتب كثيرا وامتدح قليلا من الناس ، مثله(١٣٢) » ، وربما تطلبت العبقريه أنانيه يدعمها اعتداد داخلى بالنفس ، حتى تقف فى ثبات فى وجه الجمهور . إن أثقل ما يمكن قبوله فى ملتون هو طاقه الكراهيه والبغضاء عنده ، وإساءته المفرطه لمن اختلفوا عنه وذهب إلى أنه ينبغى علينا أن نصلى من أجل اعدائنا ، ولكن ينبغى أيضاً أن نستنزل اللعنات جهاراً على أعداء الله وأعداء الكنيسه ، وكذلك على الأخوان المضللين الزائفين،أومن يقترفون الآثام العظيمه ضد الله ، أو حتى ضد أنفسهم(١٣٣) » . أما الوجه الآخر لهذه العاطفه المشبوبه ، فهو شجاعه النبى فى استنكار زمانه ، فإنه بدلا من أن يكمم فاه مااقترن بعودة الملكيه من شغب وصخب ، هاجم فى عنف ، غراميات البلاط « فى عهد شارل الثانى » « والشهوات والاغتصاب » فى القصور ، و « البسمات المشتراة على شفاه بنات الهوى » و « المسرحيات الخليعه أوحفلات الرقص فى منتصف الليل(١٣٤) » .

وكأنما كان ملتون يقذف، بآخر سهم فى جعبته تحـديا للعصر المظلم ،

حين نشر فى يوم واحد (٢٠ سبتمبر ١٦٧٠) فى غير ماشفقه ولا رحمة ، اثنين من أعماله : « الفردوس المستعاد » و « شمشون الجبار » . فى ١٦٦٥ بعد أن انتهى توماس الوود من قراءة ملحمة ملتون الأولى تحداه قائلا : « لقد تحدثت هنا كثيرا عن الفردوس المفقود ، فماذا عساك تقول الآن عن الفردوس الذى وجد ؟(١٣٥) » ، وطرقت الفكرة ذهنه بشدة ، ولكنه تساءل : كيف يعرض استعادة الفردوس فى أيه مرحلة فى التاريخ ، فإن موت المسيح نفسه لم يطهر الإنسان من الجريمة والشهوة والحرب ولكنه فكر أنه رأى فى مقاومة المسيح لاغراء الشيطان ، وعدا بأن جانب الله فى الإنسان لابد يوما أن يقهر جانب الشيطان فى الإنسان نفسه ، ويهيئه للحياة تحت حكم المسيح والعدالة على الأرض .

ومن ثم فان ملتون فى الأقسام الأربعة من « الفردوس المسترد » ، لم يركز فى حياة المسيح على الصلب ، بل على « تجربة الاغراء فى البرية » ، حيث يقدم الشيطان للمسيح « ولدانا ... أجمل من سقاة الآلهة » ، ثم « الحور والعذارى الفاتنات ، وسيدات من حدائق التفاح الذهبى » ثم يعرض عليه المال والثراء — ولكن أولئك دون جدوى . ثم يريه الشيطان رومه الإمبراطورية تحت حكم تيبريوس المنهوك المكروه الذى لم يعقب ، فهلا يريد المسيح أن يقود ثورة بعون من الشيطان ، وينصب نفسه امبراطور على العالم ؟ . ولما لم يرق هذا فى عيني يسوع ، ولم يستهو قلبه فإن الشيطان ، أراه أثينا بلد أرسطو وأفلاطون ، فهلا رغب فى اللحاق بهما ليكون فيلسوفا ؟ ثم يدخل المسيح والشيطان فى حوار غريب حول مزايا الأدب اليونانى والعبرى . فينحاز المسيح إلى جانب أنبياء وشعراء بني إسرائيل على أنهم أسمى بكثير من اليونانيين :

أخذت اليونان عنا هذه الفنون ، ولم تحسن تقليدها(١٣٧) .

وبعد قسمين من الملحمة استغرقهما الحوار ، أقر الشيطان بهزيمته ، وبسط جناحيه وطار ، على حين تتجمع فرقة من الملائكة حول المسيح

للمنتصر ، وتنشد :

الآن انتقمت لآدم للغدور به ، وبالتغلب على الإغراء استعدت الفردوس المفقود(١٣٨) .

ولم يرو ملتون لنا القصة بمثل الروعة الفياضة الرنانةالتى تجلت فى الملحمة الأولى الكبرى ، ولكن بمثل براعته فى الشعر ، وميله إلى المحاجة ، وهما أمران معهودان فيه ، كما كشف فى القصة طوال الوقت عن سعة معلوماته فى الجغرافية والتاريخ . ولم يستمر فى القصة حتى حادث صلب المسيح ، وربما كان مرد ذلك إلى أنه لم يتفق مع القائلين بأن موت المسيح هو الذى فتح أبواب الجنة من جديد . فالفضيلة وضبط النفس وحدهما اللذان يجلبان السعادة . ولم يدرك ملتون قط لمارفضت إنجلترا أن تأخذ بأخذ الجد ، إعادة كتابة الأناجيل على هذا الشكل المضحك ، وذهب إلى القول بأن الملحمة الثانية ليست أقل من الملحمة الأولى ، اللهم إلا من حيث مداها(١٣٩) . وكان لا يطيق أن يسمع أن « الفردوس المفقود » تفضل « الفردوس المسترد »(١٤٠) .

وتألقت عبقرية ملتون لآخر مرة فى « شمشون أجونست — الجبار » . إنه بعد أن تحدى هوميروس وفرجيل ودانتى ، بملحمته ، نراه الآن يتحدى أخيلس وسوفوكليس برواية ارتضت كل قيود المأساة (التراجيديا) اليونانية . وهو فى المقدمة يطلب إلى القارىء أن يلاحظ أن المسرحية (الدراما) تخضع للوحدات التقليدية القديمة ، وتتجنب « خطأ الشاعر فى خلط المادة الهزلية (الكوميدية) بأحزان المأساة ووقارها ورهبتها ، أو فى إدخال شخوص تافهين متبذلين . وهنا نجد ملتون يولى ظهره لعصر النزابث ، ويشق طريقه إلى اليونان ولا يبعد كثيراً عن النماذج اليونانية . إن شمشون الذى فارقته قوته بعد أن حلقت دليلة سبع خصلات من شعر رأسه ، وقلع من أوثقوه من الفلسطينيين عينيه ، نقول أن شمشون هذا لا يحكى فقط ، أوديب المكفوف فى كولونس ، بل أنه يحكى ملتون نفسه يعيش فى عالم بغيض لا يرى منه أثراً —

« ضريرين أعداء ، أواه هذا شيء أسوأ من الأغلال أو الزنزانة أو التسول ، أو العجز بفعل الهرم ، فالضياء ، وهو فاتحة صنع الله ، منطفىء أمامى ، ولا أملك من مباهجه شيئاً . وربما كان يهدىء من آلامى وأحزانى ، آه ، أه . ظلام والقتام والحلكة وسط وهج النور عند الظهيرة ، ينشر كسوفاً كليا لا خلاص منه ، دون أى أمل فى بزوغ النهار(١٤١) » .

والحق أن الرواية كلها يمكن تفسيرها بأنها قصة رمزية متناغمة متماسكة : فملتون هو شمشون يناضل ويتعذب فى محنته ، وبنو إسرائيل المقهورون هم البيوريتانيون ، أى الشعب المختار حطمته عودة الملكية ، والفلسطينيون هم الملكيون الوثنيون المنتصرون ، وهدم هيكلهم يكاد يكون تنبؤا « بالثورة الجليلة » التى أطاحت بآل ستيورات « الوثنيين » فى ١٦٨٨ . أما دليلة فهى المرأة الخائنة مارى باول Powell . وتكرر فرقة الموسيقى (الكورس) حجج ملتون ومناقشاته من أجل الطلاق(١٤٢) . ويكاد ملتون يكون قد تخلص من غضبه وحقده بترديد تلك الحجج والمناقشات على لسان شمشون الذى يتقبل نهايته التى لا بد آتية :

« سوف تمضى سلالة المجد ، أما سلالة الخزى والعار التى ستبقى فسألحق بها وشيكا(١٤٣) » .

وفى يوليه ١٦٧٤ أحس ملتون بأنه يضعف وتنحط قواه ، ولأسباب لا نعلمها أهمل تدوين وصيته . وبدلا من ذلك ، وجه إلى أخيه كريستوفر وصية « شفوية » تكاد تكون غير مسطورة ، نقلها كريستوفر على الوجه الآتى :

« أخى ، إنى أترك نصيبى من تركه مستر باول Powell والد زوجتى السابقة ، لأولادى العاقين ، ولكنى لم أتسلم شيئاً منه ووصيتى ومقصدى ألا يستولوا على أى جزء آخر من ضيعتى أكثر من الجزء المذكور ، ومما ضيعت من أجلهم ، غيره ، لأنهم قصروا أشد التقصير فى القيام بواجبهم نحوى . أما بقية ضيعتى فأنى أضعها تحت تصرف زوجتى الحبيبة البزابث »(١٤٤) وأعاد ملتون هذه الوصية الشفوية على أسماع زوجته وأناس غيرها فى أوقات مختلفة .

وتشبث ملتون بالحياة فى عزيمة قوية . ولكن آلام النقرس اشتدت عليه يوما بعد يوم حتى شلت يداه وقدماه . وفى ٨ نوفمبر ١٦٧٤ أنهكت الحمى قواه ، وفارق الحياة فى تلك الليلة . وعاش ملتون خمسا وستين سنة وسبعة أشهر . ودفن فى مقبرة كنيسة الأبرشية ، فى سانت جيل كربلجيت ، بجوار والده .

وكان القانون الإنجليزى يعترف بالوصايا الشفوية حتى ١٦٧٧ ، ولكن المحاكم كانت تدقق فيها تدقيقاً شديداً . واعترض البنات على وصية أبيهم ، ورفضها القاضى ، وأعطى ثلثى المال للزوجة ، والثلث الباقى ، وقدره ٣٠٠ جنيه للبنات . أما الحصة فى أموال باول فلم يدفع منها شىء قط .

وأنا لنعلم عن ملتون أكثر كثيراً مما نعلم عن شكسبير ، ولا بد من تدوين الكثير عنه حتى نخرج له صورة حقيقية أو نصفه وصفا كاملا . ولكننا لا نزال نجهل مايكفى للحكم عليه — إذا كان هذا ممكنا بالنسبة لأى رجل . فنحن لا نعلم ، بشكل كاف ، لماذا أثار بناته إستياءه إلى هذا الحد ، ولا كيف عاملن زوجته الثالثة التى واسته وأراحته فى سنى شيخوخته ، ولكننا نستطيع فقط أن نبدى الأسف على أنه عجز عن كسب حبهم . ولسنا ندرى بالتفصيل لماذا ارتضى أن يكون رقيبا على الصحافة أيام كرومول ، بعد دفاعه المجيد عن « حرية المطبوعات » . ويمكن أن نعزو كثيراً من تعسفه وبذاءته فى الخصومة إلى أحوال العصر ومعاييره . وقد نغتفر غروره وأنانيته باعتبارهما الركيزة التى تستند إليها العبقرية إذا لم تجد إلا القليل من ثناء الدنيا واطرائها . ولسنا بحاجة إلى الاستمتاع به رجلا ، والإعجاب به شاعراً ، وواحداً من أعظم الناشرين الإنجليز .

إن الذين يعتزمون قراءة الفردوس المفقود من البداية إلى النهاية ، سيتولاهم الدهش إذ يجدون أنها غالبا ما تحلق فى آفاق عالية من الخيال والبيان ، حتى ليغتفرون ان عاجلا أو آجلا ، الصفحات المملة المحشوة بالنقاش أو العلوم أو الجغرافيا ، وكأنها بمثابة فترات لالتقاط الأنفاس من من فرط التأثر والتحليق . وأنه لمن الحمق أن نتوقع أن تبقى هذه التحليقات

المفرطة فى التناغم والعاطفة بصفة مستمرة ، فقد يكون هذا فى القصائد القصيرة . وهناك فى نثر ملتون وبخاصة فى « الأريوباجيتيكا » ، قطع ، لا يسمو عليها ، فى قوتها وروعتها ، وفكرها وموسيقاها ، شىء من سلسلة الأدب الدنيوى فى العالم .

وأضفى عليه معاصروه شهرة يشوبها الحسد والتذمر ، وفى الفترة التى صعد فيها حزبه إلى منصة الحكم ، كان مناضلا ثائراً ، ونسيت قصائده الغنائية الأولى . ونشر ملتون قصائده الكبرى فى عهد عودة الملكية ، ذلك العهد الذى احتقر شيعته ، ورضى له البقاء على قيد الحياة ، على كره منه . وعندما طلب لويس الرابع عشر من سفيره فى لندن أن يعدد له أحسن الكتاب الإنجليز الأحياء ، كان جواب السفير : لا يوجد منهم من يستحق الذكر إلا ملتون الذى دافع من قبل ، من سوء الحظ ، عن قتل الملوك الذين كانوا آنذاك يشنقون أحياء أو أمواتا . وحتى فى هذا العصر المستهتر المشاغب ، على أية حال ، نجد أن أشهر شعرائه ، جون دريدن ، الذى قال عنه ملتون من قبل أنه « ناظم قواف جيد ، وليس بشاعر[١٤٥] » . نقول ان دريدن هذا ، اعتبر « الفروس المفقود » « من أعظم وأروع وأسمى ما أبدع هذا العصر وهذه الأمة من قصائد[١٤٦] » . وبعد أن دالت دولة أسرة ستيورات عاد إلى ملتون مجده ومكانته الرفيعة . وأطنب أديسون فى إمتداحه فى مجلة « سبكتاتور » . ومنذ ذلك الوقت إزدادت صورة ملتون رفعة وقداسة فى ضمير بريطانيا[١٤٧] حتى ناجاه وردزورث فى ١٨٠٢ :

« أى ملتون ، ما كان أجدرك أن تكون حيا بيننا فى هذه الساعة . . ، أن روحك مثل نجم رحل عنا بعيدا ، لقد كان لك صوت يهدر كالبحر ، صاف مثل السموات المكشوفة ، صوت كريم حر » .

أن نفسه كانت مثل أثر باق ، قام بعيدا عن أقرب الناس إليه ، ولكن عقله حلق مثل السموات العلى ، فوق كل هموم البشر ، وصوته يدوى فى الأسماع مثل « البحر المتلاطم الأمواج » عند هوميروس .

الفصل التاسع

عـــودة الملكية

١٦٦٠ — ١٦٨٥

١ — الملك السعيد

دخل الملك شارل الثانى لندن فى اليوم التاسع والعشرين من مايو ١٦٦٠، أى بعد ثلاثين سنة كاملة من مولده ، وسط مظاهر فرح وابتهاج ، تفوق كل ما تعيه ذاكرة انجلترا من مثلها ، يواكبه عشرون ألفا من حرس المدينة ، ترفرف أعلامهم اعتزازا وزهوا ، ويلوحون بأسيافهم وسط شوارع انتشرت فيها الأزهار ، تتدلى فيها البسط المزدانة بالرسوم والصور ، تدوى فيها الطبول والنواقيس وهتافات الترحيب ، وتكتظ بنصف سكان المدينة . وكتب ايفلين : « وقفت على « الشاطىء » ورأيت هذا المشهد « وحمدت الله(١) » . وهو مشهد كشف عن مزاج انجلترا ، وخيبة البيوريتانيين واخفاقهم ، فقد اقتضى خلـــع شارل الأول ست سنوات من الحروب والاضطرابات ، على حين لم ترق نقطة دم واحدة فى سبيل عودة ابنه إلى العرش . وتقاطر الإنجليز على قصر هويتهول لتحية الملك ، طوال هذا الصيف الذى غمرته البهجة . وقال أحد شهود العيان : « كان تلهف الرجال والنساء والأطفال على رؤية جلالته وتقبيل يديه ، شديدا إلى حد أنه لم يكد يجد فسحة من الوقت لتناول الطعام لعدة أيام ... ولما كان الملك راغبا كل الرغبة فى ارضاء نفوسهم ، فإنه لم يرد عنه أحدا ، ولم يغلق الأبواب دون أى من الناس(٢) » وصرح بأنه يريد أن يكون كل شعبه سعيدا مثله .

ولو أن الملك أخذ أية مشكلة مأخذ الجد فى أيام الظفر هذه ، لجاءت

الشدائد والمصاعب التى ورثها شهر العسل بالسواد والقتام . فقد بلغ رصيد الخزانة ١١ جنيها و ٢٨ شلنا و ١٠ بنسات ، وكانت الحكومة مدينة بمليونى جنيه . ولم تسدد رواتب الجيش والبحرية لعدة سنوات ، وكانت انجلترا فى حرب مع أسبانيا . وأخذت ميناء دنكرك ، بشكل غير مستقر ، لقاء مائة ألف جنيه سنويا ، وطالب بالتعويض عشرة آلاف من الفرسان الذين حاربوا من قبل فى صفوف شارل فسلبهم كرومول أموالهم . ثم أن عشرات الآلاف من الرجال الوطنيين قدموا ظلامات يلتمسون فيها إلحاقهم بالوظائف ذوات الرواتب الكبيرة والعمل اليسير ، وأجاب شارل على كل هذا بالإيجاب ، فى غير اكتراث ، تراوده الثقة فى أن يوفر البرلمان الاعتمادات .

وكان البرلمان ، بدوره ، سعيدا ، سيطرت عليه للوهلة الأولى ، نزعة الامتثال الموسوم بالابتهاج للملك العائد : إننا وأبناءنا من بعدنا نضع أنفسنا تحت تصرف جلالتكم ونلتزم بطاعتكم إلى الأبد(٣) » وقرر مجلس العموم « أن أعضاءه أنفسهم وشعب إنجلترا بأسره لن يبرأوا من الجريمة البشعة ، جريمة الثورة الأخيرة غير الطبيعية ، ولن ينجوا من العقوبات المترتبة على هذه الجريمة إلا إذا حظوا بصفح صاحب الجلالة وعفوه وبناء على ذلك قصد إليه البرلمان بكامل هيئته وجثوا أمام الملك الضاحك المبتهج ، لينالوا غفرانه(٤) . وأحس مجلس العموم بمزيد من الإثم لأنه اجتمع دون دعوة من الملك ، أو دون موافقته ، ولذلك أطلق المجلس على نفسه متواضعا اسم « اجتماع أو مؤتمر » ، حتى تطيب نفس الملك ، فيعلن أنه برلمان شرعى(٥) . وبعد انتهاء هذه المراسم ، ألغى البرلمان كل التشريعات التى أصدرها البرلمان ولم يكن قد وافق عليها شارل الأول ، ولكنه أكد على الامتيازات التى كان ذلك المجلس قد منحها للبرلمان ، بما فى ذلك سيادة البرلمان فى كل ما يتعلق بالضرائب ، وثبت شارل الثانى هذه الامتيازات . وشارك البرلمان للملك الانتصار الحاسم الذى أحرزته السلطة المدنية على

السلطة العسكرية ، فدفعت الرواتب المتأخرة للجيش الذى حكم انجلترا لمدة عقد من السنين ، وسرح الجنود البالغ عددهم أربعين ألفا ، وانصرفوا إلى بيوتهم .

وكان شارل قد وافق على الصفح عن كل أعدائه ، فيما عدا من يستثنيهم البرلمان من العفو العام . وقضى البرلمان عدة أسابيع فى جدل حول من يسلمهم إلى يد الجلاد ، ومن يبقى على حياتهم . وفى ٢٧ يولية ١٦٦٠ ، شخص الملك إلى مجلس اللوردات ، مناشدا إياهم أن يصدروا قرارا سريعا حكيما :

« أيها اللوردات ، إنكم إذا لم تشاركونى فى القضاء على الخوف الذى استولى على قلوب الناس وأرقهم ، ... فإنكم بذلك تحولون بينى وبين الوفاء بالوعد الذى قطعته على نفسى ، وأنا مقتنع بأنه لولاه لما كنا ، لا أنا ولا أنتم هنا الآن ... ولقد أدركت جيدا أن هناك أناسا لا يمكن أن يغفروا لأنفسهم ما اقترفوه ، ولا أن نغفر لهم نحن ذلك .. وإنى لأشكر لكم عدالتكم مع هؤلاء ـ القتلة المباشرون لوالدى ـ ، ولكنى ـ وسأكون صادقا معكم ـ لم أفكر قط فى استثناء أحد غيرهم من العفو العام . أن هذه الرحمة ، وهذا التسامح هما خير وسيلة تجعل الناس يستشعرون خالص الندم ، وتجعلهم رعايا صالحين مخلصين ، كما تجعلهم أصدقاء وجيرانا صالحين لكم أنتم(٦) » .

ورغب البرلمان فى التوسع فى عملية الانتقام ، ولكن شارل أصر على ألا يستثنى من العفو إلا من وافقوا الحكم بإعدام والده(٧) . وكان ثلث هؤلاء قد فارقوا الحياة ، كما لاذ الثلث الثانى بالهروب ، وقبض على ٢٨ وحوكموا ، وحكم على ١٥ بالسجن مدى الحياة ، وشنق ١٣ ثم مزقوا أربا (١٣ ، ١٧ اكتوبر ١٦٦٠) . ويقول شاهد العيان بيبز : أن توماس هاريسون ، وهو أول من نفذ فيه الحكم ، « كان يبدو مرحا ، كما يمكن أن يفعل أى رجل فى مثل هذا الموقف » وتحدث بشجاعة من فوق المشنقة

قائلا أن دوره فى الاقتراع على إعدام شارل الأول أملاه الله عليه(٨). ويضيف بيبز « وفى الحال مزق أربا »، وعرض رأسه وقلبه على الجمهور، فتعالت صيحات الفرح(٩) » وفى ٨ ديسمبر أصدر البرلمان أمرا بإخراج جثث كرومول وأيرتون وجون برادشو من كنيسة وستمنستر، وتعليقها على أعواد المشانق. وتم ذلك بالفعل فى ٣٠ يناير ١٦٦١، وكأنما كان هذا لونا من الاحتفال بذكرى موت شارل الأول، وعرضت رؤوسهم طيلة يوم كامل فى أعلى قاعة وستمنستر (حيث اجتمع البرلمان). ودفنت الأشلاء فى حفرة تحت مشنقة تيبرن، كل أولئك جعل جون ايفلين يبتهج ويهلل « لحكم الله » وهو حكم هائل تحار فيه الألباب(١٠) » . وثمة ضحية أخرى، هارى فين، الذى كان يوما محافظا لمستعمرة خليج ماساشوست، فقد شنق فى ١٦٦٢، لأنه كان أداة فعالة فى تدبير إعدام سترافورد . وفى هذه القضية أغمضت رحمة الملك جفونها، فقد وعد من قبل بالإبقاء على « سير هارى » الرجل الشعبى المحبوب، ولكن جراءة السجين وشجاعته أثناء المحاكمة أوغرت صدر الملك فتحجر قلبه .

وفى ٢٩ ديسمبر ١٦٦٠ حل « المؤتمر » (البرلمان) نفسه، حتى يمهد الطريق لانتخاب أعضاء أكثر تمثيلا للشعب . وفى غضون ذلك واجهت الحكومة أول مظاهرة عدائية تنازع فى شعبيتها فى العاصمة . أن هذه الحكومة لم تفعل شيئاً لاسكات الشيع الدينية التى ظلت تأمل فى نظام جمهورى : فكان الشيخيون وأنصار تجديد العماد والمستقلون وأصحاب مذهب الملكية الخامسة يخطبون ضد الملكية، وتنبأوا بأن الإنتقام الإلهى سيحل بها سريعاً، فيرسل الزلازل والدم والضفادع تنقض على بيوت موظفى الملك . وفى ٦ يناير ١٦٦١، وبينما كان الملك فى تورتسوث يودع أخته الحبيبة هنريتا وهى فى طريقها إلى فرنسا، نادى بالتمرد والعصيان أحد المشتغلين بصناعة دنان النبيذ فى مجمع « لقديسى الملكية الخامسة »، وعندئذ شلح سامعوه المهتاجون أنفسهم، وأسرعوا إلى الشوارع يرددون أن المسيح

وحده هو الذى ينبغى أن يكون ملكا ، ويعملون القتل فى كل من اعترض سبيلهم ، وعاشت المدينة فى ظل الإرهاب طيلة نهارين وليلتين ، وانتشر « القديسون » فى كل مكان يقتلون الناس فى حماسة بالغة ، حتى تمكنت آخر الأمر فرقه صغيرة من الحراس كانت الحكومة الواثقة من نفسها تعتمد عليها فى حفظ الأمن ، من تطويق للشاغبين وإقتيادهم إلى حبل للشنقة . وعاد شارل مسرعا إلى العاصمة ، ونظم فرقا جديدة من الشرطة للمحافظة على الأمن فيها .

وفى ٢٣ أبريل ، فى يوم عيد سانت جورج راعى إنجلترا وحاميها ، توج الملك السعيد فى كنيسة وستمنستر ، فى كل مظاهر العظمة والجلال ، ذات القيمة الكبرى لدى للملوك والتى يعتز بهـا الشعب ، وحرص رجال الكنيسة الأنجليكانية التى استعادت مكانتها ، وهم يمسحون للملك الداعر بالزيت المقدس ، على التوكيد على تعهد الملك والتزامه بالدفاع عن العقيدة وعن الكنيسة . وفى مايو اجتمع « برلمان الفرسان » الذى سمى كذلك لأن غالبية أعضائه كانوا ملكيين أكثر من الملك ، متلهفين على الإنتقام من البيوريتانيين . ووجدشارل مشقة فى أن يثنيهم عن الاسترسال فى إعدام أعداء والده ، واسترد البرلمان ، من الوجهة النظرية ، كثيراً من الإمتيازات التى كان قد فقدها شارل الأول : من ذلك أنه لايصبح أى تشريع نافذ المفعول إلا بعد أن يوافق عليه المجلسان كلاهما ، والملك . وكانت للملك السلطة العليا على القوات الإنجليزية المسلحة فى البر والبحر ، وأعاد البرلمان تنظيم مجلس اللوردات ، وأعاد إليه أساقفة الكنيسة الرسمية ، ولكنه رفض تجديد قاعة النجم أو محكمة اللجنة العليا وأبقى على حق التحقق فى قانونية القبض على المسجونين بغير محاكمة ، وأعيدت إلى الفرسان أملاكهم التى صادرها كرومول من قبل ، مع تعويض ضئيل لمن اشتروها ، واسترجعت الأرستقراطية القديمة ثراءها ونفوذها . وانقلبت الأسرات التى جردت من أملاكها على ملوك آل ستيوارت ، وانضمت فيمابعد إلى صغار النبلاء وأبناء

الطبقات الوسطى ليشكلوا « الأحرار » ضد « المحافظين » .. إن شارل في النصف الأول من حكمه بلغ من الضعف والوهن حداً لم يستطع معه أن يفرض أى قدر من السلطة المطلقة ، من ذلك أنه أجاز « لبرلمان الفرسان » أن يستمر لمدة سبعة عشر عاما ، على الرغم من حقه الشرعى فى حله . أنه كان من الناحية العملية ملكا دستوريا . فإن النتيجة الجوهرية لثورة ١٦٤٢ — ١٦٤٩ ، وانتقال السلطة العليا من يد الملك إلى البرلمان ، ثم من مجلس اللوردات إلى مجلس العموم ، كل أولئك عاش بعد عودة الملكية ، على الرغم من قيام الملكية المطلقة من الوجهة النظرية .

وكان من حسن حظ البرلمان أن شارل كان عزوفا عن الحكم ، وكأنه بعد أربعة عشر عاما من التشرد والشقاء ، قد منحته العناية الآلهية الحق فى السعادة والهناءة ، وأدخل جنات عدن التى وعد بها المسلمون . وكان الملك أحياناً ينهمك بجد وكد فى شئون الدولة ، وقد بولغ فى إهماله لها(١١) . وقبيل نهاية حكمه دهشت الأمة إذ رأته يأخذ كل شىء على عاتقه ، وينصرف بكليته إلى إدارة شئون البلاد فى كفاية وعزيمة صادقة . ولكنه فى أعوام العسل كان قد فوض إلى إدوارد هايد ، الذى عينه أرل كلارندون فى ١٦٦١ ، إدارة دفة الحكم ، بل تقرير السياسة .

وتسربت شخصية الملك ، بشكل مؤثر إلى عادات العصر وأخلاقه وسياسته وغلب الطابع الفرنسى على أصله وتعليمه . فأمه فرنسية ، وأبوه ابن حفيدة مارى جيز أو اللورين ، أضف إلى هذا جدا اسكتلنديا ودنمركيا وإيطاليا ، ومن ذلك نجد خليطا صافياً ولكنه غير راسخ . إنه عاش من سن السادسة عشرة إلى سن الثلاثين فى القارة ، حيث تعلم الأساليب الفرنسية ثم رآها فى أبهى صورها فى أخته هنريتا آن . وكان شعره الأسود وجلده الأسمر يذكران بجدته الإيطالية مارى دى مديتشى ، وكان مزاجه لاتينيا مثل والدة جدته لأمه مارى ملكة اسكتلنده ، وربما ورث عن جده الغسقونى هنرى نافار ، شفتيه الشهوانيتين وعينيه البراقتين وأنفه المتطفل .

بل وربما ميله إلى النساء كذلك .

أما فيما يتعلق بالناحية الجنسية ، فقد كان شارل الثانى أخزى قادة زمانه ، وأسوأهم ، فإن تصرفاته كانت أسوأ مثال تحتذيه حاشيته والمجتمع الإنجليزى والمسرح بعد عودة الملكية ، فانفلت الزمام للفجور والخلاعة فى هذه كلها ، وأنا لنعرف أسماء ثلاث عشرة من خليلاته ، أنه وهو فى الثامنة عشرة ، حين جاء من هولندة إلى إنجلترا ليقاتل من أجل والده ، وجد فسحة من الوقت لينجب من « السمراء الجميلة الجريئة » لوسى وولتر ، ولدا كبر وترعرع تحت اسم جيمس سكوت ، اعترف شارل ببنوته فيما بعد ، وعينه دوق موغوث . ولحقت لوسى بشارل فى القارة ، وخدمته باخلاص ، والواضح أنه كان معها مساعدون آخرون لانعرف الآن أسماؤهم . وفور أن استقر به المقام فى القصر الملكى ، دعا بربارا بالمر لتسرى عنه همومه وتخفف من متاعبه . وكانت بربارا هذه — مثل بربارا فلييرز — قد أقامت لندن وأقعدتها بجمالها . وفى سن الثامنة عشرة (١٦٥٩) تزوجت من روجر بالمر الذى أصبح أرل كاسلمين . وفى سن التاسعة عشرة وجدت طريقها إلى مخدع الملك ، ومن ثم سيطرت على روحه الوادعة ، إلى حد أنه خصص لها جناحا فى قصر هويتهول ، وأنفق عليها أموالا طائلة وأجاز لها بيع المناصب السياسية ، والتحكم فى مصائر الوزراء . وولدت له ثلاثة أبناء وابنتين أعترف ببنوتهم جميعاً ، وساورته الشكوك على أية حال ، لأنها وسط حبها الشديد للملك ، لم تتورع عن الاتصال برجال آخرين[١٢] ، وازدادت تقواها بازدياد علاقاتها غير المشروعة . وفى ١٦٦٣ — أعلنت تحولها إلى الكاثوليكية . والتمس أقاربها من الملك أن يثنيها عن عزمها ، فأجابهم بأنه لم يتدخل قط فى « نفوس » السيدات[١٣] .

وفى ١٦٦١ فكر شـــارل فى أنه قد حان الوقت للزواج ، ومن بين المرشحات اختار كاترين براجنزا ابنة جون الرابع ملك البرتغال التى قدمت إليه مع صداق هيأته العناية الالهية ليفى بحاجات ملك مبذر ودولة تاجرة :

٥٠٠،٠٠٠ جنيه نقداً ، وميناء طنجة ، وجزيرة (والمدينة الصغيرة فيما بعد) بمباى ، وحرية الاتجار مع كل ممتلكات البرتغال فى آسيا وأمريكا وتعهدت انجلترا فى مقابل ذلك ، بمساعدة البرتغال فى المحافظة على استقلالها ولما وصلت الأميرة العروس الغالية إلى بورتسموث كان شارل فى استقبالها للترحيب بها ، وتزوجا فى ٢١ مايو وفقاً للطقوس الكاثوليكية أولا ثم الأنجليكانية ، وكتب شارل إلى والدتها يقول أنه « أسعد إنسان فى العالم » وأحسن معاملة حاشيتها من السيدات ذوات « الثنورات » الواسعة المطوقة ، ومن الرهبان الوقورين ، ووقعت الأميرة فى غرامه لأول نظرة ، وسارت الأمور سيراً حسناً لعدة أسابيع ، ولكن فى يوليه وضعت كاسلمين ولداً شهد شارل تعميده على أنه « العراب » (أبوه فى العماد) — وتلك مناسبة أخرى يستخدم فيها إسم الله عبثاً ولغواً . ومذ هجرت باربارا زوجها ، أصبحت الآن تعتمد كل الاعتماد على الملك ، وتوسلت إليه ألا يتخلى عنها ، فاستسلم لرجائها ، وسرعان ما استأنف علاقته بها ، وفى إخلاص موصوم بأشد الخسة والعار . ونسى الملك قواعد السلوك القويمة المألوفة ، فقدم باربارا علانية إلى زوجته . فنزفت أنف كاترين دما وانتابتها إغماءة ، من فرط الشعور بالمهانة والإذلال ، وحملت إلى خارج القاعة وبناء على إلحاح من الملك ، أوضح لها كلارندون أن عملية الزنى امتياز ملكى معترف به للملوك فى أعرق أسرات أوربا . وبمرور الوقت كيفت الملكة نفسها مع أساليب زوجها الشرقيـــة ، ولكنها كانت تزوره ذات يوم ، فوقعت عيناها على « شبشب » صغير بجوار سريره ، فانسحبت فى رفق وتلطف « حتى لا تصاب الحمقاء الجميلة الصغيرة » المختفية وراء الستائر بالبرد[١٤] ، وكانت هذه المرة الممثلة — هول دافنز . هـذا فى الوقت الذى حاولت فيه كاترين كثيراً أن تنجب لشارل طفلا ، ولكنها — مثل كاترين أراجون مع ملك سابق — أجهضت عدة مرات . وفى ١٦٧٠ أقر البرلمان قانوناً بالتوسع فى أحكام الطلاق . وأشار بعض رجال البلاط المتلهفين على وريث بروتستانتى ، على

شارل بأن يطلق كاترين ، ولكنه أبى ، حيث كان قد عرف آنذاك كيف يحبها حباً عميقاً على طريقته الخاصة .

ويصف بيبز البلاط في ٢٧ يوليه ١٦٦٧ فيقول :

« يقص على فن Fenn أن الملك وسيدتى كاسلمين قد حدثت بينهما جفوة شديدة ، وأنها ستفارقه ، ولكن بين جنبيها جنين ، إن الملك لابد معترف ببنوته ، وإلا فانها ستحمل الوليد إلى قصر هويتهول ، وتهشم رأسه أمام عيني الملك . ثم يضيف أن الملك والحـــاشية لم يكونوا فى أى زمان فى العالم بأسره أسوأ منهم الآن ، بسبب اللهو والدعارة والفجور والسكر والعربدة ، وغيرها من أحط الرذائل البغيضة ، مما لم ير العالم مثيلالها ، وهذا أمر يجر الهلاك والدمار على الجميع ، لا محالة(١٥) » .

وضاق شارل ذرعا بغضبات كاسلمين ، وفى إحدى زياراته الأخيرة لها ، فاجأ عندها جون تشرشل ـ دوق مالبرو فيما بعد ـ ، الذى قفز من النافذة حتى يتجنب لقاء الملك(١٦) ، كما يروى الأسقف بيرنت . على أن شارل خلع على كاسلمين لقب دوقة كليفلند ، ورتب لها مخصصات من الأموال العامة مدى الحياة .

وقد يشوقنا أن نقص كيف أن امرأة واحدة بعينها خيبت علانية أمل الملك المغرور المختال وصدته : تلك هى فرانسيس ستيوارت التى قيل إنها ربما كانت أجمـــل وجه وقعت عليه العين(١٧) ويقول أنطونى هاملتون « يندر أن يتيسر العثور على امرأة أقل ذكاء أو أكثر جمالا(١٨) » . وظل الملك يلحف فى الوصول إليها حتى بعد زواجها من دوق وتشموند ويصف بيبز الملك وهو يجدف وحـــده فى الليل إلى قصر سومرست ، « وهناك حيث وجد باب الحديقة موصدا تساق الجدران ليزور هذه المرأة وتلك فضيحة مخزية فظيعة(١٩) » .

وفى ١٦٦٨ رأى شارل « نل جوين » وهى تمثل فى « مسرح درورى لين » ، وهى التى نشأت فى فقر مدقع ، وكانت تسلى رواد الحانة بأغنياتها ،

وتبيع البرتقال في المسرح ، وتقوم بالأدوار الصغرى أو الأدوار الرئيسية في الروايات الهزلية ، واحتفظت طوال عملها ، تلقائياً بروح طيبة وارادة طيبة ، مما سحر لب الملك الذي لا يبالي بشيء ، والذي سئم الملذات ، ولم تقم الممثلة أية عقبات في سبيل أن تكون عشيقة لجلالته . واستنزفت مبالغ طائلة من كيسه الذي يشكو خلو الوفاض ، ولكنها أنفقت القدر الأكبر منها في أعمال البر والإحسان . ولكن سرعان ما كان عليها أن تنافس امرأة مغوية خطرة موفدة من فرنسا (١٦٧١) لتثبت شارل على العقيدة الكاثوليكية والتقاليد الفرنسية ؛ تلك هي لويز كيرووال التي قلدت نل مظاهرها الارستقراطية تقليداً ساخراً شيطانياً . وكل العالم يعرف ، كيف أنه ، حيث حسب سكان لندن خطأ أن نل هي منافستها الكاثوليكية ، فسخروا منها ، أخرجت رأسها الصغير من نافذة العربة وصاحت بهم « صه أيها الشعب الطيب ، أنا البغي البروتستانتية(٢٠) » واستمرت تحتلي بعطف شارل إلى آخر حياته ، ولم تبرح مخيلته حتى في ساعة احتضاره . أما كيرووال التي عينت على الفور دوقة بورتسموث ، فقد أثارت حفيظة لندن ، حيث نظروا إليها هناك على أنها عميلة فرنسية باهظة التكاليف تبتز من الملك في كل عام ٤٠ ألف جنيه ، لتقتني المجوهرات وتعيش في ترف باذخ أهاج معدة جون ايفلين(٢١) وتقاص ظل سلطانها في ١٦٧٦ حين اكتشف شارل هورتنس مانسيني ابنة شقيق الكاردينال مازاران المرحة المفعمة بالحيوية والنشاط .

وكان لشارل سقطات أخرى : انه في أيام شبابه التعس فقد كل الثقة في البشر ، وحكم على الرجال والنساء جميعاً بأنهم كما وصفهم « لاروشفوكول » ومن ثم فإنه قلما استطاع أن يكون مخلصاً لأحد — اللهم إلا أخته — وضيع نفسه في أهوائه وغرامياته ، ولم تكن ثمة ود خالص ، تقيم باقي ضياء حقيقياً على البريق الأجوف في حياته . وباع بلاده بنفس اليسر الذي اشترى به النساء . وضرب لحاشيته أكبر المثل في المقامرة بمبالغ طائلة . وعلى الرغم

من الجمال الطائش فى سلوكه وعاداته ، فانه أبدى فى بعض الأحيان افتقاره إلى الرقة والكياسة اللتين كان من العسير التماسهما عند والده . من ذلك ، على سبيل المثال ، أنه لفت نظر جراموت إلى أن خدمه يؤدون عملهم وهم راكعون(٢٢) . ولم يكن كثير الادمان على الخمر فى أغلب الأحيان ، ولكنه أدمن بشكل مخيف لعدة أيام عقب صدور قانون ضد تعاطى المسكرات(٢٣) . وكان عادة يتقبل النقد بصدر رحب ، ولكن حين جاوز سيرجون كوفنترى حده ، وتساءل فى البرلمان علانية « هل يجد الملك متعته بين الرجال أو بين النساء ؟ » . أمر شارل رجال حرسه أن « يجعلوا منه عبرة » فكمنوا له وهاجموه وهشموا أنفه(٢٤) .

على أن فئة قليلة من الناس كانوا لا يملكون إلا أن يحبوه ، ومنذ شباب هنرى الثامن لم يوجد فى انجلترا ملك فى مثل شعبية شارل بين حاشيته ، وكانت حيويته الجسمية تبعث على الرضا والسرور ، ولم يكن به شح أو بخل ، بل كان يرعى الحقوق ، عطوفاً كريماً . فانه ، بعد أن ينقد رجال حاشيته رواتبهم ، كان يجد الوسيلة للبر والإحسان والصدقات . وجعل من المتنزه الخاص به مرتعاً لمختلف الحيوانات ، ولم يلحقها أى أذى . وكانت كلبته المدللة تنام ، ويفترسها رفيقها وتلد وترضع صغارها فى حجرة نوم الملك(٢٥) . وكان شارل بعيداً عن التكلف ، أنيساً ، حلو المعاشرة ، يسهل الوصول إليه أو التحدث معه ، سرعان ما يهدئ من روع محدثيه ويطمئن بالهم . وذكر كل الذين تحدثوا عن شارل — فيما عدا كوفنترى ، أنه « ملك ودود طلق المحيا(٢٦) » ، وعده جراموت « من ألطف الرجال وأرقهم وأكثرهم وداعة (٢٧) » . وقال عنه أوبرى « إنه نموذج فذ فى المجاملة (٢٨) » وكان شارل قد صقل عاداته وسلوكه فى فرنسا ، وكان ، مثل لويس الرابع عشر يرفع قبعته لأية سيدة ، حتى ولو كانت من أحط الطبقات . وكان يفضل شعبه بكثير فى التسامح مع أية آراء أو مذاهب دينية معارضة إلى حد أنه شرب نخب خصومه السياسيين ، وسر كثيراً بالهجاء حتى

ولو كان موجها إلى شخصه . وكان حسن التقدير فيه ، مبعث ابتهاج لدى حاشيته . ووصفه بيبز بأنه كان يقود الحلقة فى رقصة ريفية قديمة cuckoldo All Awry . وما كان يقطع عليه مرحه ولهوه الصاخب — لفترات قصار ، إلا أنباء الطاعون أو الحريق أو الافلاس أو الحرب .

ولم يكن الملك شارل الثانى عميق التفكير ، ولكنه لم يتماق بتوافه الأمور إلى حد كبير ، وتخلص يوما من رجل زعم أنه يتنبأ بالطالع ، بأن أخذه إلى سباق الخيل ، ولحظ أنه يخسر ثلاثة أشواط متوالية . وأولع ولعا شديدا بالعلوم ، وأجرى التجارب ، وأصدر براءة تشكيل « الجمعية الملكية » وأغدق عليها الهبات والمنح ، وشهد كثيراً من اجتماعاتها . ولم يهتم كثيراً بالأدب ، ولكنه أولى الفنون عناية كبيرة ، واعتز برافائيل وتيشيان وهولبين وجمع أعمالهم . وتجلى فى حديثه كثير من الحيوية والتنوع اللذين تميزت بهما الجماعات المثقفة فى فرنسا . فتحدث جيدا عن الشعر مع دريدن ، وعن الموسيقى مع بورسل (الملحن) ، وعن هندسة العمارة مع رن . وكان حاميا ونصيراً حسن التمييز فى كل هذه المجالات ، ولابد أنه كان ثمة قدر كبير من مناقب ومآثر حميدة محببة تحلى بها رجل قالت عنه أخته وهى تلفظ أنفاسها الأخيرة « إنى أحببته أكثر من حبى للحياة نفسها . وليس ثمة شيء آسف عليه فى موتى ، إلا إنى أفارقه »(٢٩).

٢ - مرجل الدين

هل تمسك الملك بأية عقيدة دينية ؟ أن حياته من هذه الناحية توحى بنفس النزعة التى سادت كثيراً من الفرنسيين المعاصرين الذين عاشوا ملحدين وماتوا كاثوليكيين . ويبدو أن هذا يسر الفوز بمتاع الدنيا والآخرة معا ، كما أنه كان أفضل كثيرا من « رهان » بسكال . ويقول بيرنت « أن إحساسه الدينى كان ضعيفا ، إلى درجة أنه لم يكثر من التظاهر بالنفاق ولكن بسلوكه الموصوم بالتهاون فى الصلوات وفى الأسرار المقدسة ، كان لأى

إنسان يراه أن يدرك كيف وقر فى ذهن الملك أنه لا علاقة له بهــذه الأمور (٣٠) » . وقال أحد الوعاظ مرة لنبيل غلبه النعاس وهو جالس بين جماعة المصلين « سيدى ، سيدى : إنك تغط فى نومك بصوت عال ، وقد توقظ الملك (٣١) » : وقال عنه سانت إيفرموند الذى كان يعرفه حق المعرفة أنه كان « ربوبيا (٣٢) » - وهو الذى يؤمن بوجود كائن أسمى غير مجسم تقريباً ، ويفسر بقية المذاهب الدينية بأنها شعر شعبى . واتفق أول بكنجهام ومركيز هاليفاكس مع سانت إيفرموند فى هذا الرأى (٣٣) ويروى بيرنت « قال لى الملك ذات مرة ، أنه ليس ملحدا ، ولكنه لا يظن أن الله يعذب الإنسان لأخذه بشىء من أسباب المتعة واللذة عرضا أو خطأ (٣٤) » . ورحب الملك بصداقة هوبز الذى يدين بالمادية ، وتولى حمايته من رجال اللاهوت الذين طالبوا بتقديمه للقضاء بتهمة الهرطقة . ويرى فولتير أن « لامبالاة الملك المطلقة » بكل الصراعات الدينية التى تفرق بين الناس عادة ، أسهمت بدرجة غير يسيرة ، فى حكمه السلمى (٣٥) .

ويحتمل أن شارل كان متشككا ، مع شىء من الإنعطاف نحــو الكثلكة ، بمعنى أنه كان يشك فى اللاهوتيات ، ويؤثر الكاثوليكية ، لطقوسها النابضة بالحياة ، وتعلقها بالفنون ، وتساهلها مع الجسد ، وتأييدها الملكية . وربما غاب عن ذاكرته أن العصبة الكاثوليكية وبعض الآباء اليسوعيين قد أقروا من قبل قتل الملك . ولكنه تذكر أن الكاثوليك الإنجليز دافعوا عن أبيه ، وأن ثلث النبلاء الذين ماتوا فى سبيل النضال عن شارل الأول كانوا من الكاثوليك (٣٦) ، وأن الكاثوليك الأيرلنديين بقوا على ولائهم لأسرة ستيوارت ، وأن حكومة كاثوليكية كانت تمد له يد العون فى منفاه الطويل الأمد — إن روح التعاطف التى تملكته بصفة عامة ، جنحت به إلى الرغبة فى التخفيف بعض الشىء من القوانين التى صدرت فى انجلترا ضد الكاثوليك ، وهى فى تقدير « هللام » قوانين « صارمة غاية الصرامة ، بل هى فى بعض الأحيان ، دموية أو متعطشة للدم (٣٧) . ولم

يشارك الملك البروتستانت الإنجليز فيما علق بأذهانهم من ذكرى « مؤامرة البارود « ١٦٠ » » أو الخوف من محاكم التفتيش أو البابا فى رومه . ولم يغضب لالتزام أخيه العلنى بالمذهب الكاثوليكى — والمفروض أنه وريث العرش — وقد يجوز لنا أن نحكم ، من تحوله إلى الكثلكة وهو على فراش الموت ، أنه كان من الجائز أن يعترف هو أيضا بها ، لو أن الاعتراف بها كان أمرا عمليا من الوجهة السياسية .

وهكذا فإن شارل ، وهو السياسى اللطيف الودود ، قبل الكنيسة الأنجليكانية ودعمها إنها قد دانت بالولاء لوالده ، وفنيت فى الدفاع عنه ، وعانت ما عانت فى أيام كرومول ، وكافحت كفاحا شديدا فى سبيل عودة الملكية . واعتبر شارل أنه من القضايا المسلم بها أن تكون هناك عقيدة دينيه تحظى بموافقة الدولة ومعونتها ، على أنها وسيلة لنشر التعليم وإقرار النظام الاجتماعى . انه ، أساسا ، كانت تزعجه البيوريتانية ، فوق أنها أتيحت لها من قبل فرصة الحكم ، فكانت صارمة بغيضة إلى حد بالغ . ولم ينس قط أن البرسبتيريانز سجنوا أباه وأن البيوريتانز اطاحوا برأسه ، وأنه هو نفسه أرغم على قبول مذهبهم والاعتذار عن أخطاء آبائه . ووقع القانون الذى أصدره « البرلمان المؤتمر » ، بإعادة الكهنة الأنجليكانيين إلى أبرشياتهم ، التى كانت « الجمهورية » قد جردتهم منها ، وكان وجه العدالة والإنصاف واضح فى هذا القانون . وعلى الرغم من ذلك ، كان قد وعد « بالحرية لذوى الضمائر الواهنة » ، وألا يضار أى إنسان بسبب الخلافات الدينية مادامت مسالمة . واقترح شارل فى أكتوبر ١٦٦٠ تسامحا شاملا مع كل الفرق المسيحية ، بل كذلك تخفيف القوانين المعاديه للكاثوليكية . ولكن البرسبتيريانز والبيوريتانز الذين خشوا مغبة هذا التراخى ، انضموا إلى الأنجليكانيين فى رفض هـــذا المشروع . ورغبة فى المصالحة بين البرسبتيريانز والأنجليكانيين عرض الملك طقوسا تكون حلا وسطا بين الطائفتين ونظاما أسقفيا محدوداً يتولى بمقتضاه بعض المشايخ المنتخبين

تقديم العون والمشورة للأساقفة . ولكن البرلمان عارض هذه الفكرة . وأبلغ « مؤتمر سافوى » المكون من اثنى عشر أسقفا ، ومثلهم من المشايخ — أبلغ الملك « أنهم لم يستطيعوا الوصول إلى اتفاق(٣٨) » .

وتلك فرصة ضيعت، لأن البرلمان الجديد كان أنجليكانيا بأغلبية ساحقة. فتمكنأ الجراح القديمة بإعادة النظام الأسقفى فى اسكتلنده وأيرلنده ، وأعاد المحاكم الكنسية للمعاقبة على « التجديف » ، والتخلف عن دفع العشور للكنيسة الأنجليكانية ، وجعل « كتاب الصلوات العامة الانجليكانى » إلزاميا على جميع الإنجليز ، وبمقتضى «قانون التوحيد» (٢٠ نوفمبر ١٦٦١) حرمت المناصب العامة على كل الأشخاص الذين لم يتلقوا الأسرار المقدسة وفقا للطقوس الأنجليكانية قبل الانتخابات ، وبمقتضى « مرسوم التنسيق (١٩ مايو ١٦٦٢) طلب إلى كل رجال الدين والمعلمين أن يقسموا اليمين على ألا يقاوموا الملك ، وأن يعلنوا موافقتهم التامة على كتاب الصلوات العامة. وكان على رجال الدين الذين رفضوا هذه الشروط أن يتخلوا عن مراكزهم فى موعد غايته ٢٤ أغسطس ورفضها نحو ١٢٠٠ منهم فطردوا. وهؤلاء بالإضافة إلى ١٨٠٠ آخرين أخرجوا عند عودة الأنجليكانيين ، انضموا جميعا ، مع مجموعة كبيرة من الجامع ، إلى العدد المتزايد من « الشيع » أو « المنشقين » ، الذين أرغموا أولى الأمر فى النهاية على أصدار قانون التسامح ١٦٨٩ .

وحاول شارل أن يعدل من « مرسوم التنسيق » فطلب من البرلمان أن يستثنى من العزل أولئك القساوسة الذين لم يعترضوا إلا على ارتداء اللباس الكهنوتى الأبيض ، أو استخدام الصليب فى التعميد ، فوافق الوردات ورفض النواب. وسعى الملك للتخفيف من أثر الطعنة ، بتأجيل تنفيذ المرسوم لمدة ثلاثة أشهر ، ولكن أحبطت هذه المساعى كذلك . فأصدر فى ٢٦ ديسمبر ١٦٦٢ بيانا أعلن فيه عن عزمه على أن يستثنى من العقوبات التى نص عليها القانون الأشخاص المسالمين الذين أبت عليهم ضمائرهم

أداء القسم المطلوب ، ولكن البرلمان ، إرتاب فى هذا الاجراء ورفضه ، باعتبار أنه ينطوى ضمنا على سلطة الملك فى الاعفاء من إطاعة القوانين . وعبر الملك عن مشاعره بالإفراج عن الكويكرز المستقلين (٢٢ أغسطس ١٦٦٢) وبالتوكيد على التسامح الدينى فى المواثيق التى منحها لجزيرة رود وكارولينا ، وفى التعليمات التى وجهها إلى حاكمى جمايكا وفرجينيا .

وأحس البرلمان أنه ليس ثمة متسع لهذا التسامح فى انجلترا . ولكى يمنع اجتماعات الكويكرز السرية للعبادة ، قال إنها تضم أكثر من خمسة أشخاص بالإضافة إلى أفراد البيت ، وحكم ١٦٦٢ على كل شخص يحضرها بدفع غرامة قدرها خمسة جنيهات ، أو بالحبس لمدة ثلاثة أشهر ، للمخالفة الأولى ، ومضاعفة العقوبة (١٠ جنيهات غرامة أو ستة أشهر فى السجن) للثانية ، والنفى إلى مستعمرات المجرمين ، للثالثة ، أما المخالفون الذين يعجزون عن دفع نفقات إنتقالهم إلى المستعمرات فكان عليهم أن يخدموا لمدة خمسة سنوات ، عما لا بعقود عمل خاصة . أما المدانون أو المخالفون المرحلون الذين يهربون أو يعودون إلى إنجلترا قبل انقضاء ، المدة المحكوم بها ، فتكون عقوبتهم الإعدام ، وفى ١٦٦٤ امتدت هذه الإجراءات إلى البرسبتيريانز والمستقلين . وحظر « قانون الأميال الخمسة » (١٦٦٥) على القساوسة الذين امتنعوا على حلف اليمين ، أن يقيموا فى نطاق خمسة أميال فى أية مدينة ذات مجلس بلدى ، أو يقوموا بالتدريس ، فى أية مدرسة خاصة أو عامة . وأطلق على هذه القوانين « تشريع كلارندون » لأن الذى فرضها هو كبير وزراء الملك ضد إرادة الملك أو رغباته الصريحة ، وقبل شارل هذه التشريعات الصارمة لأنه كان يناشد البرلمان إقرار الاعتمادات التى طلبها . ولكنه لم يغفر قط لكلارندون ، كما فقد ثقته فى الأساقفة وقل إحترامه لهم ، لأنهم ما لبثوا أن اعيدوا حتى بدأوا ينتقمون أشد الإنتقام ، ويقبضون أيديهم عن البر والإحسان . وانتهى شارل إلى « أن المشيخية ليست مذهبا يليق بالرجل الماجد المهذب ، وأن الأنجليكانية ليست

مذهبا يليق بالرجل المسيحى(٣٩) » .

وإذ أدركت الكنيسة الأنجليكانية اعتمادها على الملكية ، فإنها أكدت من جديد ، وبشكل أكثر إيجابية عن ذى قبل ، « حق الملك الإلهى » ، والإثم العظيم الذى يؤدى إلى الهلاك ، فى مناهضة حكومة ملكية قائمة . وفى ١٦٨٠ نشر كتاب سير روبرت فلمر « سلطة الملوك الطبيعيه المعترف بها » بعد موت المؤلف بسبعه وعشرين عاما ، وأصبح الدفاع القياسى عن النظرية . وفى كتاب أكسفورد « القضاء والقانون » (١٦٨٣) أعلن زعماء الكنيسه الأنجليكانيه أنه « زيف وتحريض على الفتنه ، بل هو هرطقه وتجديف « ومن ثم جريمه عقوبتها الإعدام » « أن يتمسك امرؤ » بأن السلطه مستمدة من الشعب ، وأن الحكام الشرعيين يفقدون الحق فى الحكم إذا أصبحوا طغاة ، وأن الملك ليس له إلا حق مناظر لحق السلطتين الأخرين : مجلس اللوردات ومجلس العموم . وأضاف الكتاب « أن الطاعه العمياء هى سمه كنيسه إنجلترا وخصيصتها(٤٠) » . وتلك كانت نظريه تثير القلق والمتاعب ، عندما حاول جيمس الثانى ، بعد عامين من هذا التاريخ ، أن يحول إنجلترا إلى الكاثوليكيه .

ان الكنيسه الأنجليكانيه ، التى استعادت مكانتها ، على الرغم من تعصبها ، تجلت فيها صفات تدعو إلى الإعجاب ، فقد أباحت آفاقا رحبه للتفكير اللاهوتى بين أعضائها ، ابتداء من « الودين » (الذين عرفوا فيما بعد بأنهم الذين يؤكدون على الطقوس التقليديه High Churchmen) الذين اقتربوا من المذهب والطقوس الكاثوليكيه ، إلى « المتحررين المتسامحين » (الذين عرفوا فيما بعد باسم ذوى الأفق الواسع — Brood Charchmen) وهم الذين جنحوا إلى لاهوت متحرر ، وأكدوا على الجانب الأخلاق ، لا على الجانب المذهبى أو العقائدى ، فى المسيحيه ، ووقفوا فى وجه الاضطهاد ، وسعوا إلى المصالحه وتسويه الخلاف بين البيوريتانيين والمشيخيين والأنجليكانيين . وساعد شارل هؤلاء المتحررين

المتساعين » وقدر فيهم الإيجاز النسبي فى عظاتهم(٤١) . وكان أعظم هؤلاء المتحررين ، جون تللوتسون ، الذى عينه شارل قسيس القصر ، ثم عينه وليم الثالث رئيس أساقفه كنتربرى (١٦٩١) . وكان رجلا « راجح العقل حلو الشمائل(٤٢) » ، ناهض « البابويه » والإلحاد والاضطهاد بنفس القدر من الحماسه والغيرة ، وتجاسر فبنى المسيحيه على العقل . وكان يقول « لسنا فى حاجه إلى دليل على خطأ إنسان أقوى من أن نسمعه يتهم العقل ويحط من قيمته ، ومن ثم يرى أن العقل ضده(٤٣) » ومال صغار رجال الدين الأنجليكانيين « الكهنه » إلى أن يكونوا الخدم الروحيين للوردات المحليين ، بل حتى لبعض مالكى الأرض ، حتى قاربوا أن ينحدروا إلى وضع العامه(*) . ولكن فى المدن والمناصب الكنسية ذوات الرواتب الأكبر ، اشتهر كثير من رجال الدين الأنجليكانيين بسعه الإطلاع والمقدرة الأدبيه حتى أنهم أخرجوا فيما بعد بعضا من أفضل كتب التاريخ الرسمى فى أوربا . وبصفه عامه سادت روح من الاعتدال المذهبى فى الكنيسه الأنجليكانيه ، أكثر منها بين المنشقين الذين زاد الاضطهاد من تعصبهم لمذهبهم وتزمتهم .

ولم يعانِ البيوريتانيون آنذاك من الاضطهاد السياسى وحده ، بل إنهم كذلك كانوا موضع سخريه وازدراء من أولئك الذين أحسوا بالضيق والإنزعاج أيام الحكم البيوريتانى بسبب أخلاقياتهم المهينه اللينه الخاليه من التزمت . ولكن البيوريتانيين احتملوا فى جلد وشجاعه دوران عجلة الزمن . وهاجر بعضهم إلى أمريكا ، وأدى كثير منهم القسم المطلوب . وكان ريتشارد باكستر ألمع شخصية بينهم فى ذاك العصر ، وكان رجلا ذا إتجاه معقول ، مستعدا لقبول أيه تسويه لا تخل بلاهوته المتقدم . فإنه على الرغم من إخلاصه الشديد للمذهب البيوريتانى حتى النهايه ، استنكر إعدام شارل

(*) هناك وصف مبالغ فيه لهذا الموضوع فى كتاب ماكولى « تاريخ انجلترا » (١ : ٢٥٢ — ٢٥٥) أنظر لكى « تاريخ انجلترا فى القرن الثامن عشر » (٢ : ٧٥ — ٧٩) .

الأول ، وحكم كرومول حكما استبداديا مطلقا ، وحبذ عودة الملكية • ومنع بعد ١٦٦٢ من الوعظ ، واعتقل مرارا وتكرارا لمخالفته أمر الحظر. وكان من أكثر البيوريتانيين استنارة ، ولكنه مع ذلك استحسن أحراق السحرة فى سالم ومساشوست ، وفكر فى ربه على أساس جعل « مولوخ » (اله سامى كان يعبد عن طريق تضحيه الأطفال على مذبحه) بجانبه ودودا لطيفا من هم الذين كتب لهم الخلاص ؟ ويجيب باكستر : «إنهم فئه قليلة من البشر الضائع ،قدر لهم الله منذ الأزل هذه الراحه(٤٤)». وأكد فى عظاته على عذاب الجحيم التى « أوجدها الرب بنفسه » .. إن تعذيب الملعونين المحكوم عليهم بالهلاك ينبغى أن يكون شديداً ، لأنه مظهر الإنتقام الإلهى .. إن العقاب رهيب ، ولكن الإنتقام أمر لا سبيل إلى التخفيف منه(٤٥) » وحرم باكستر الإتصال الجنسى إلا بقصد الإنجاب مع حليلة شرعيه . ومذ رأى أن هذا التقييد يتطلب ضبط النفس على طريقه الرواقيين ، فإنه أوصى بالحمام البارد والتغذى على الخضروات ، للتخفيف من الشهوة الجنسيه(٤٦) وقد نغتفر له لاهوته إذا رأيناه ، وهو فى السبعين من العمر (١٦٨٥) واقفا فى قفص الإتهام أمام القاضى الوحشى الغليظ القلب « جفرى » ، لأنه تفوه ببعض كلمات ضد مزاعم الأنجليكانيين ولم تتح له أيه فرصه للدفاع عن نفسه أو تفسير آرائه ، وحكم عليه بدفع غرامة قدرها ٥٠٠ جنيه ، أو السجن حتى يدفع المبلغ كاملا(٤٧) . وأفرج عنه بعد ١٨ شهرا ، ولكنه لم يسترد عافيته بعد ذلك قط .

وظل الكويكرز يعانون الاعتقال ومصادرة الممتلكات لرفضهم تأديه القسم أو لتخلفهم عن الصلوات الأنجليكانيه ، أو عقد الاجتماعات غير المشروعه. وفى ٩٦٦٢ كان فى السجون الإنجليزيه أكثر من ٤٢٠٠ منهم : « وحشر بعضهم فى السجن حشراً لا يدع مجالا للجلوس وحرموا من فرش القش ليرقدوا عليها ، وكثيرا ما منع عنهم الطعام(٤٨) . ولكن جلدهم ومثابرتهم وتشبثهم أكسبهم المعركة آخر الأمر ، وخفت حدة الاضطهاد عمليا ، إلى

لم يكن قانونا . وفى ١٦٧٢ أطلق شارل سراح ١٢٠٠ رجل منهم(٤٩) ، وفى ١٦٨٢ منح أخوه جيمس دوق يورك براءة مقاطعه جرسى الشرقية فى أمريكا ، إلى روبرت باركلى وهو كويكرى اسكتلندى ، و « الصاحب » الكويكرى الغنى « وليم بن » ، وبعض زملائهم الآخرين .

وكان بن وهو إبن أمير البحر وليم بن الذى استولى على جمايكا لانجلترا . قدمر وهو صبى فى الثانية عشرة بأطوار مختلفة من الانفعال الدينى الذى فوجىء فى أثنائه لفوره براحة فى أعمـــاق نفسه ، وبهالة متألقة فى الغرفة ، إلى حد أنه قال عدة مرات بأنه منذ تلك اللحظة ختم بخاتم القداسة والخلود . « الإيمان الراسخ » بأن هناك الها وأن نفس الإنسان يمكن أن تنعم بهذا الاتصال الإلهى(٥٠) . وفى ١٦٦٩ طرد من أكسفورد وحكم عليه بدفع غرامة لأنه رفض حضور الصلوات الأنجليكانية . ولما عاد إلى أبيه أوسعه ضربا بالسياط ، وطرده من المنزل لإعلانه اعتناق مذهب الكويكرز . ثم رق قلب الوالد فبعث بإبنه إلى فرنسا ليتعلم « المرح البارىسى » ، وربما اكتسب من هناك بعض الكياسة والأساليب المصقولة التى تحلى بها ، وفى ١٦٦٦ ارتضى لنفسه اثم الخدمة فى الجيش الإنجليزى الذى يعمل فى ايرلنده ، ولكن بعد عام واحد شهد اجتماعا للكويكرز فى كورك ، وإلتهبت حماسته من جديد ، فطرد جنديا ضايقه بكثرة الأسئلة فاقتيد إلى السجن ، ومنه كتب إلى حاكم مونستر يلتمس إباحة حرية العبادة . وبعد عودته إلى إنجلترا أحرق مراكبه من خلفه ، وأصبح واعظا كويكريا ، وقبض عليه المرة بعد المرة . ولعبت محاكمته ١٦٦٩ دورا فى تاريخ القانون الإنجليزى . ذلك أن هيئة المحلفين برأته ، فحكم القاضى على المحلفين بالسجن والغرامة بتهمة إهانة المحكمة وإزدرائها . فاستأنف المحلفون أمام محكمة الدعاوى المشتركة ، التى أعلنت عدم شرعيه القبض عليهم ، وكان فى هذا تثبيت لحق هيئة المحلفين وسلطتهم فى انجلترا . ولكن بن أودع السجن ، على أية حال ، لأنه رفض أن يخلع قبعته فى المحكمة . وأخلى سبيله فى الوقت

المناسب ليحضر وفاة أبيه (١٦٧٠) ، وقد ترك له دخلا يقدر بألف وخمسمائة جنيه فى العام ، وديناً على التاج قدره ١٦ ألفا من الجنيهات أقرضه أبوه لشارل الثانى وأعيد إلى السجن لقيامه بإلقاء العظات، وفيه كتب أبلغ دفاع عن التسامح تحت عنوان « القضية الكبرى لحرية الضمير » ، (١٦٧١) ، وفى احدى الفترات التى تمتع فيها بالحرية تزوج من امرأة ثرية ، واشترى حصة فى النصف الغربى لما يعرف الآن بولاية نيوجرسى. وصاغ لهذه المستعمرة دستورا يؤكد فيه على التسامح الدينى وسلطة المحلفين فى التحقيق والحكومة الشعبية ، ولكن الزمام أفلت من يده ، ولم تطبق مواد هذا الدستور .

وفى ١٦٧٧ عبر بن وجورج فوكس وروبرت باركلى وجورج كيث القنال الإنجليزى ليبشروا بمذهب الكويكرز فى القارة . وأسس جماعة من « كرهيم » ممن حولهم بن إلى مذهبه، مدينة « جرمانتون » ، فى بنسلفانيا، وكانوا أول من أعلن أنه من الخطأ أن يكون للمسيحيين رقيق . ورجع بن إلى انجلترا ، وأخذ زمام المبادرة فى منع الكويكرز من الإنضمام إلى حركة اضطهاد الكاثوليك من أجل ما يسمى « بالمؤامرة البابوية » . وكان « خطابه إلى البروتستانت من جميع المذاهب » (١٦٧٩) نداء قويا للتسامح الدينى فى أكمل صوره. وفى ١٦٨١ قبل التاج اقتراح بن التنازل عن حقه فى المطالبة بالدين ، لقاء منحه ما يعرف الآن باسم بنسلفانيا . أن بن اقترح اسم « سلفانيا » للجزء المترامى الأطراف الكثيف الأحراش ، فالحق شارل الثانى « مقطع » بن « بهذه اللفظة ، تخليدا لذكر أمير البحر . وعلى الرغم من الخضوع التام للملك ، فان حكومة المستعمرة الجديدة كانت ديموقراطية، وكانت العلاقة مع الهنود دودية قائمة على العدل والإنصاف ، كما أطاق الكويكرز، وهم يشكلون غالبية المستوطنين ، الحرية الدينية . وعمل بن فى هذه المستعمرة بجد لمدة عامين ، ولكنه فى ١٦٨٤ سمع بنبأ اضطهاد جديد عنيف تتعرض له طائفته . فأسرع بالعودة إلى لندن . وهناك بعد عام واحد أصبح صديقه دوق يورك ملكا على إنجلترا ، وهو جيمس الثانى ، كما صار بن من ذوى

النفوذ والمكانة فى الحكومة ، ولنا معه لقاء آخر .

أن طريق المقاومة السلبيه الذى انتهجه الكويكرز ضد الاضطهاد كان أكبر قوة فعاله ساعدت على التسامح الدينى فى عصر التعصب ، وقدر أحد المنشقين أنه كان هناك ستون ألف حاله اعتقال بسبب الخلاف الدينى بين عامى ١٦٦٠ و ١٦٨٨ ، وأن خمسة آلاف ممن اعتقلوا قضوا نحبهم فى السجن(٥١) . وكان تعصب البرلمان أسوأ من فجور البلاط والمسرح . وذكر مؤرخ كتب التاريخ مثل ما صنعه تقريبا « فى هذه الفترة الدقيقة الحرجة » كاد الملك أن يكون الصوت الوحيد الرحيم الذى ينادى بآراء عصرية حديثة ودأب طوال حكمه على النضال من أجل التسامح(٥٢) وفى ١٦٦٩ عندما صدر الحكم على ثلاثه أشخاص بدفع غرامة كبيرة للتاج ، بناء على قانون قديم صدر فى عهد الملكة اليزابيث ، لتخلفهم عن حضور الصلوات الأنجليكانية ، أعفاهم شارل من دفعها ، وأعلن أنه لن يسمح بتطبيق هذا القانون بعد اليوم « لأنه من رأيه وقناعته الخاصة أنه لا يجوز أن يضار أحد بسبب تفكيره وما يمليه عليه ضميره(٥٣) » .

وكان من المحتمل أن يقر وجهة نظر الملك فى التسامح عدد متزايد من الانجليز ، لولا أنهم كانوا يرتابون فى رغبته فى التخفيف من ويلات الكاثوليك فى انجلترا التى كانت لا تزال تخشى سيطرة البابا ، ومحاكم التفتيش الأسبانية وحكومة القساوسة ، إلى حد أن البرسبتيريانز والبيوريتانيين آثروا تحريم عبادتهم على السماح بالعبادة الكاثوليكية فى انجلترا . وكان الانجليز . الكاثوليك يشكلون آنذاك نحو ٥ ٪ من السكان(٥٤) . وكانوا من الناحية السياسية ضعافا عاجزين ، ولكن الملكة كانت كاثوليكية ، كما أن شقيق الملك لم يبذل إلا أيسر الجهد فى إخفاء تحوله إلى الكثلكة (١٦٦٨) وكان فى انجلترا حينذاك ٢٦٦ من اليسوعيين ، كان أحدهم أبنا غير شرعى للملك ، وبدأوا يظهرون علنا فى جرأة وثقة . على الرغم من القوانين البالغة التشدد ، وكانت المدارس الكاثوليكيه تقام فى الدور الخاصه ،

وأرهقت انجلترا . وأقام البروتستانت في كل عام عرضا تظاهروا فيه ضد البابوية ، وحملوا إلى « سميثفيلد » تماثيل البابا والكرادلة ، أحرقوها هناك . أنهم لم ينسوا « جي فوكس » . ولكن الكاثوليك صبروا وصابروا ولم يفقدوا الأمل ، فمن الجائز الآن أن يرقى كاثوليكي عرش انجلترا في أية لحظة

٣ — الاقتصاد الانجليزى ١٦٦٠ — ١٧٠٢

قدر عدد سكان انجلترا وويلز في ١٦٦٠ بنحو خمسة ملايين نسمة(٥٥). ربما ازداد إلى خمسة ملايين ونصف المليون في ١٧٠٠ (٥٦) ، أي أنه لا يكاد يبلغ ربع عـــدد سكان فرنسا أو ألمانيا ، وأقل من ربع سكان إيطاليا أو أسبانيا ٥٧) . وكان سبع السكان من طائفة « اليومن » ، أي صغار مالكي الأرض الأحرار الذين يملكون الأرض التي يفلحونها ، وشكل المزارعون المستأجرون الذين يعملون في أراضي النبلاء وذوي الحسب والنسب ، نحو سبع آخر من السكان . أما بقية السكان فكانوا يقيمون في المدن .

وبازدياد السكان نقص نصيب الأسرة من الخشب ، وتزايد استخدام الفحم في البيوت والحوانيت ، وتطور علم المعادن واستخراجها من المناجم. وأصبحت شفيلد مركزاً لصناعة الحديد ، وسرت في انجلترا حمى الانتاج وجمع الثروات . وتوسل أصحاب المصانع إلى البرلمان أن يصدر تشريعات ترغم العاطلين الكسالى على مزاولة العمل . وتزايد تشـــغيل الأولاد في الصناعات المحلية ، وبخاصة النسيج . وتهلل وابتهج ديفو لأنه في كولشستر وتونتون » لم يكن ثمة ولد فوق الخامسة من العمر ، في المدينة أو فيما حولها من القرى ، أهمله والده أو لم يتلق تعليما ، إلا استطاع أن يكسب قوته » وبالمثل حول « وست رايدنج » : « لا يكاد يوجد ولد جاوز الرابعة إلا كفته يداه مؤونة العيش(٥٨) » .

وكان معظم الصناعة يتم في المنازل أو في حوانيت الأسرة . وحدث

توسع فى نظام المصانع فى النسيج والحديد . وتذكر نشرة ظهرت فى ١٦٨٥ كيف أن « أصحاب المصانع يشيدون بتكاليف باهظة ، دوراً ضخمة تضم كل القائمين بعمليات صناعة الصوف ، من فرز وتمشيط وغزل ونسج وكبس بل وصباغة ، فى صعيد واحد » . وقيل أنه كان هناك مصنع من هذا القبيل يعمل فيه ٣٤٠ شخصا . وكان فى جلاسجو فى ١٧٠٠ مصنع نسيج يضم ١٤٠٠ عامل(٥٩) . وكان تقسيم العمل والتخصص فيه آخذين فى التقدم ، وكتب سير وليم بتى فى ١٦٨٣ « فى صناعة الساعة » ، إذا قام فرد بعمل التروس ، وآخر يصنع الزنبرك ، فثمه ثالث يحفر القرص المدرج ، ورابع يتولى صناعه الأغلفه ومن ثم تخرج الساعه أحسن وأرخص مما لو كلف بالعمل كله فرد واحد(٦٠) .

وظلت أجور الأعمال الزراعية يحددها الحكام المحليون وفقا لقانون الغلمان المهنيين « الذى صدر فى ١٥٨٥ فى عهد اليزابث ، فإذا دفع رب العمل ، أو أخذ العامل ، أكثر من الأجر المحدد ، تعرض كلاهما للعقاب . وتراوحت أجور الأعمال الزراعية فى تلك الفترة بين خمسة وسبعة شلنات فى الأسبوع مع الإقامة والطعام(٦١) . أما الصناعة فكانت الأجور فيها أعلى قليلا . فكان الأجر اليومى شلنا فى المتوسط ، وربما كان هذا ، من حيث القيمة الشرائية ، يعادل ، دولارين ونصف دولار فى ١٩٦٠ . أما أجور المساكن فكانت منخفضة نسبيا ، حيث كان ايجار البيت المتوسط الاتساع فى لندن يبلغ نحو ٣٠ جنيها فى السنة(٦٢) . وكانت البيرة رخيصة الثمن ، أما السكر والملح والفحم والصابون والأحذية والملابس ، فكانت أثمانها فى ١٦٨٥ تعادل أثمانها فى ١٨٤٨(٦٣) . وازدادت أسعار الحبوب إلى خمسة أمثالها بين عامى ١٥٠٠ و ١٧٠٠(٦٤) . وأكلت طبقات العمال خبز الجاودار والشعير والشوفان ، أما خبز القمح فكان ترفا ينعم به ذوو اليسار ، ونادرا ما ذاق الفقراء اللحم . واعتبر الفقر الذى كان عليه جمهور الشعب أمرا عاديا ، ولو أنه ربما كان أشد منه فى أخريات العصور الوسطى(٦٥) . ويقول ثورولد روجرز :

« سعى مالكو الأرض طوال القرن السابع أن يحصلوا من مستأجرى الأرض على أكبر مايستطيعون من ايجار ، وبأقصى مايمكن من قوة فرضوا على العمال أجورا تؤدى بهم إلى الجوع والعوز ، وبذلوا قصارى جهدهم فى استغلال التشريع ليحصلوا من المستهلك على أسعار عالية تقرب الناس من حافة المجاعة والقحط . والتاريخ زاخر بالشواهد الكثيرة على تفاقم الحال يوما بعد يوم(٦٦) » .

وفى ١٦٩٦ قدر جريجورى كنج أن ربع سكان انجلترا كان يعيش على الصدقات ، وأن الأموال التى تجمع لإعانة الفقراء كانت تعادل ربع تجارة الصادرات(٦٧) . وقهر الأغنياء الفقراء وغلبوهم على أمرهم إلى حد بات معه الأجراء والفلاحون أضعف من أن يثوروا ويتمردوا ، ولمدة نصف قرن خمد صراع الطبقات فى انجلترا(٦٨) .

أما الكنيسة الانجليكانية التى كانت قد تجاسرت أيام شارل الأول على أن تدافع عن الفقراء من وقت لآخر ، فقد خلصت الآن ، نتيجة للثورة البيوريتانية ، إلى أن مصالحها تحقق على أحسن وجه ، إذا ربطتها بمصالح طبقات الملاك ربطا تاما(٦٩) . وكان البرلمان شكلا من ائتلاف بين مالكى الأرض وأصحاب المصانع والتجار والرأسماليين . ومن ثم أصغى ، بحكم شعور الزمالة المتبادل ، إلى صيحات طبقة أرباب العمل ليخلصهم من القوانين التى تعوق انطلاق القوى الاقتصادية للعمل دون قيود . وقبل نهاية القرن السابع عشر ، وقبل ظهور آدم سميث بزمن طويل ، سمعت انجلترا صيحة رب العمل « اتركه يعمل » (سياسة عدم التدخل) من أجل الحرية الاقتصادية ، وتخلص أرباب العمل من العوائق القانونية والإقطاعية والنقابية ، فى تشغيل العمال والإنتاج والتجارة(٧٠) ، وتجاوزوا القيود النقابية وانهارت النظم المهنية ، وبطل العمل بتحديد الأجور عن طريق الحكام المحليين ، بفعل القوة النسبية للمساومة بين أرباب العمل الأثرياء والعمال الجياع(٧١) . إنه الأيديولوجيه الحديثه للحريه ، بدأت هنا الآن ، حين طالب المقاولون

والملتزمون المغامرون ، فى صخب وغضب ، بالتحرر من القيود القانونيه والأخلاقيه .

وباتت التجارة الآن عنصرا هاما فعالا فى الاقتصاد الإنجليزى ، وعاملا حيويا فى حصول البرلمان على الاعتمادات التى يقررها ، إلى حد أنها ، أى التجارة ، شقت طريقها لتفعل ما تشاء مع حكومه يسيطر عليها مالكو الأرض . وأصبح التشريع الإنجليزى فى التجارة ، يحابى الإنجليز لاعلى حساب الهولنديين وحدهم ، بل على حساب الايرلنديين والاسكتلنديين كذلك ، وحرم استيراد الماشية والأغنام والخنازير من ايرلندة واستبعد الغلال الاسكتلندى ، وفرضت ضرائب ثقيلة على واردات اسكتلنده . إن الرغبه فى التوسع فى التجارة الإنجليزيه وتوفير الحمايه العسكريه لها ، هى التى حثت على التحالف مع البرتغال ، وزواج شارل الثانى من كاترين براجانزا ، وعلى تجدد الحرب مع المقاطعات المتحدة ، والتصميم على الاحتفاظ بجبل طارق . وتضاعف حجم تجارة إنجلترا بين عامى ١٦٦٠ و١٦٨٨ ، بسبب الانتصار على الهولنديين ، إلى جانب أسباب أخرى(٧٢) ، وكتب شارل الثانى إلى أخته يقول : « إن أقرب شىء إلى قلب هذه الأمة هو التجارة وكل ما يتعلق بها(٧٣) » . وبات ثراء التجارة ينافس الآن اقتناء الأراضى الواسعة الطيبة .

ومدت للشروعات المغامرة الإنجليزية أذرعها فى كل اتجاه ، فاتسعت المستعمرات الجديدة فى نيويورك ونيوجرسى ومنسلفانيا وكارولينا وكندا ، ومنحت شركة الهند الشرقية كل الحقوق فيما تستطيع أن تضع يدها عليه فى الهند ، وكان لهذه الشركة أسطولها وجيشها وحصونها وعملتها وقوانينها ، وكانت تعلن الحرب وتفاوض لعقد الصلح ، وتم الاستيلاء على بمباى بالمصاهرة فى ١٦٦١ ، وعلى منهاتان (فى نيويورك) بحق الفتح فى ١٦٦٤ . وفى العام نفسه استولى الإنجليز على الممتلكات الهولندية على الساحل الغربى لأفريقية . ومن أجل تزويد هذه المستعمرات بالأيدى العاملة نشأت عادة « الإكراه » وهى إغراء الشبان الإنجليز بالعمل فى هذه « المزارع » بتقديم الخمر لهم أو ضربهم حتى يفقدوا وعيهم ، وعندئذ يحملونهم إلى ظهر سفينة

على وشك الإقلاع ، ثم يوضحون لهم فيما بعد أنهم كانوا قد وقعوا عقداً العمل(٧٤) . إن القانون حرم هذا الإجراء ، ولكنه لم ينفذ . وكان موقف البرلمان واضحاً ، فإنه على حين انتهت ثورتا ١٦٤٢ — ١٦٤٩ و ١٦٨٨ — ١٦٨٩ إلى تغلب البرلمان على الملك ، حدثت فى نفس الوقت ثورة إقتصادية متزامنة انتهت بسيطرة التجارة والصناعة والمال على البرلمان .

وكان فى انجلترا فى تلك الأيام مئات من « الصائغين أصحاب المصارف » (مقرضو النقود) الذين يدفعون ٦ ٪ أرباحاً على الودائع ، ويتقاضون ٨ ٪ على القروض(٧٥) . وكان شارل الثانى يلتمس أى منفذ لتجنب سلطة البرلمان على الخزانة ، فلجأ إلى الاستدانة كثيراً من أصحاب المصارف هؤلاء ، حتى بلغت ديونه منهم فى ٢ ينـاير ١٦٧٢ ، ٥٢٦ر١٣٢٨ر١ جنيها(٧٦) ، وفى هذا التاريخ كان مجلس الملك على وشك أن يشن الحرب على المقاطعات المتحدة فأحدث فى مجتمع المال هزة عنيفة « باغلاق خزانة الدولة » أى منع تسديد فوائد ديون الدولة لمدة عام . فساد الذعر ، ورفض أصحاب المصارف الوفاء بالتزاماتهم تجاه أصحاب الودائع ، أو تنفيذ إتفاقاتهم مع التجار ، وعمل المجلس على تهدئة العاصفة بوعود قاطعة باستئناف الدفع فى نهاية العام . واستؤنف الدفع فى ١٦٧٤ ، وسدد رأس المال عن طريق تعهدات والتزامات حكومة جديدة . والواقع أنه فى ٢ يناير ١٦٧٢ تحددت بداية الدين الوطنى فى انجلترا ، وتلك حيلة جديدة فى تمويل الدولة .

ومذ باتت لندن موطن أصحاب المصارف وأمراء التجارة ومركز الثروة المجموعة عن طريق نظام الأسعار ، من منتجى الطعام والسلع ، فإنها كانت الآن أكثر مدن أوربا اكتظاظا بالسكان ، فنافست قصور رجال الأعمال قصور الأرستقراطية فى البذخ والترف ، إن لم يكن فى الذوق . وكانت فيها مجموعة من المخازن بعماراتها الفاتنة ولافتاتها المزخرفة ونوافذها ذات العمد الحجرية ، تعرض منتجات العالم(*) أمام أنظار الأقلية ، ووصفت

(*) حوالى هذه الفترة بدأت النوافذ الزجاجية تحل محل النوافذ القديمة ذات الاطارات

الشوارع الرئيسية وحدها بالحصى عادة وحوالى ١٦٨٤ أضيئت بنور ضعيف حتى منتصف الليل فى الليالى غير المقمرة بقناديل يعلق واحد منها كل عشرة أبواب . ولم يكن فى الشوارع أرصفة للمشاة ، وكانت نهاراً تعج بالحركة الصاخبة من الباعة المتجولين الذين يعرضون بضاعتهم فى سلال أو عربات يد ، أو عجلات يد ، وبالمنادين الذين يعرضون القيام بخدمات منزلية مثل « قتل الفيران والجرذان(٧٧) » . وكان هناك المتسولون واللصوص فى كل شارع ، كما وجد أيضاً المغنون الذين يرفعون عقيرتهم بالأغنيات من أجل الحصول على بنس . وكان حى الأعمال يسمى « السيتى » . وكان يحكمه عمدة وهيئة البلدية ومجلس ينتخب أرباب البيوت فى الأحياء أعضاءه . وإلى القرب من هذا الحى ، كان يقع « الحى السياسى » وستمنستر ، وفيه الكنيسة والقصر اللذان يحملان هذا الاسم (وكان القصر مقر البرلمان) ، وفيه القصران الملكيان هويتهول وسان جيمس . وخارج هذين القسمين من المدينة كانت أحياء الأكواخ التى تعج بالفقراء الكثيرى التناسل . ولم تكن الشوارع فيها مرصوفة فكانت العربات ترش ، من هوة ، ماء المطر أو الوحل على المشاة ، وهى تصطدم بالجدران فى الأزقة الضيقة . وكانت المنازل متقاربة جداً بعضها من بعض ، والأدوار العليا متلاصقة متقابلة ، مما لايدع مجالا لضوء الشمس المتقطع أن ينفذ إليها . ولم يكن نظام المجارى الحالى معروفا فى لندن آنذاك ، بل كانت مراحيض خارجية وبالوعات ، وكانت العربات تحمل الفضلات وتقذف بها خارج حدود المدينة ، أو فى نهر التيمز بطريقة خفية غير مشروعة

وكان تلوث الهواء آنذاك بالفعل مشكلة وبناء على طلب الملك أعد جون افلين ونشر فى ١٦٦١ خطة لتبديد الدخان الذى علق بسماء لندن ، قال :

« إن الاسراف فى استخدام الفحم يعرض لندن لأسوأ الازعاج والخزى

— الخشبية الثقيلة . لأن الزجاج يسمح بنفاذ قدر أكبر من الضوء .

والعار ، وليس هذا ناشئا من نيران المطابخ التى لايكاد يرى لها أثر ، بل من بعض مداخن معينة فى مصانع البيرة وعمال الصباغة وإحراق الجير ، ومصانع الملح وغلى الصابون وبعض مصانع أخرى ، تكفى فوهة إحدى للداخن فيها ، وحدها وبشكل واضح ، لتلويث الهواء وإزعاج لندن أكثر مما تفعل كل مداخن المدينة مجتمعة ... إن لندن تكون أقرب شبها ببركان اتنه أو بضواحى جهنم ، منها بمجتمع تعيش فيه مخلوقات عاقلة ، حين تفتح هذه المداخن أفواهها وتنفث القتام والسخام ... أن السائح المنهوك سرعان مايشم ، من مسافة عدة أميال ، رائحة المدينة التى يقصد إليها ، قبل أن يراها ... أن هذا الدخان الأسود الكريه ... يقرح الرئتين ، وهذا داء لا شفاء منه ، إلى حد أنه يقضى على أعداد كبيرة من الناس ، نتيجة السل المنهك الخطير ، كما ينبىء بذلك نشرات الوفيات الأسبوعية(٧٨) » .

وأعد ايفلين مشروع قانون للبرلمان الذى كان أقرب منالا لرجال الصناعة الأثرياء منه للجمهور الذى يعوزه التنظيم ، ومن ثم لم يحرك هذا البرلمان ساكنا . وبعد ثلاثة عشر عاما سويا رفع سير توماس براون صوت الطب عاليا ، يحذر من :—

« الروائح الكريهة التى تنفثها البالوعات العامة ، أو الأماكن المنتنة وفضلات المواد المغلية التى تستخدمها المصانع القذرة غير الصحية كما أن الضباب والسديم يعوقان دخان الفحم من أن يهبط ويتبدد ، ومن ثم يمتزج بالسديم ويتنفسه الناس ، ولكل هذا آثار سيئة ، حيث يلوث الدم ويعرض السكان للنزلات الشعبية والسعال(٧٩) » .

إن الهواء الفاسد ، وضعف الرعاية الصحية وسوء التغذية كان يهدد بانتشار الأوبئة فى كل عام وما أن تجىء فترة تتجمع فيها ظروف غير مواتية ، حتى تنزل كارثة الطاعون . وفى ٣١ أكتوبر ١٦٦٣ دون بيبز فى مذكراته : « أن الطاعون منتشر فى أمستردام ، ونحن فى فزع منه هنا » . وكانت السفن القادمة من هولنده تخضع للحجر الصحى ، وفى ديسمبر ١٦٦٤ مات شخص واحد بالطاعون فى لندن ، واثنان فى أبريل ١٦٦٥ ،

وفى مايو ٤٣ شخصاً ، وهكذا تفاقم الحال حتى حل الصيف الحار مع مطر قليل يساعد على تنظيف الشوارع ، فكان ضغثا على إبالة ، وأيقنت لندن التى ملأها الفزع والجزع ، أنها تواجه شيئاً شبيها بالموت الأسود ١٣٤٨ الذى لا تزال ذكراه عالقة بالأذهان . وكان ديفو آنذاك صبيا فى السادسة ، ولكنه استطاع أن يعى قدرا كبيراً مما تردد فى هاتيك الأيام عن الطاعون : فكتب قطعة خيالية بعنوان « صحيفة عام الطاعون » تكاد تكون فى منزلة التاريخ(٨٠) :

« منذ الأسبوع الأول من يونيه انتشرت العدوى بصورة رهيبة ، وارتفعت أرقام الوفيات ، وعمد الناس إلى إخفاء قلقهم قدر الطاقة ، حتى يحولوا دون ابتعاد جيرانهم عنهم ، أو دون إغلاق الحكومة لبيوتهم . وفى يونيه تزاحم الأغنياء على مغادرة المدينة ، وفى هويتها بل ما كان يمكن أن ترى إلا العربات ، وعربات اليـد تحمل البضائع والنسوة والأطفال وغيرهم ، بالإضافة إلى عدد لا يحصى من الرجال على ظهور الخيل .. وهو منظر رهيب كئيب(٨١) » .

وزادت النـذر والتنبؤات عن المصير المشئوم من الرعب ، وأغلقت المسارح وحلبات الرقص والمدارس ودور المحاكم . وانتقل الملك وحاشيته فى يونيه إلى أكسفورد « حتى يحوطهم الله برعايته إن شاء » دون أن يمسهم سوء ، ولو أن صيحات التأنيب تعالت ضدهم لأنهم هم الذين جلبوا هذا البلاء ، عقابا من عند الله ، على فسادهم وفجورهم ، وبقى رئيس أساقفة كنتربرى فى مقره فى لامبث ، ينفق فى كل أسبوع عدة مئات من الجنيهات عونا للمرضى والأموات . وبقى موظفوا المدينة فيها يقومون بأعمـال بطولية . وأرسل الملك ألف جنيه ورجال الأعمال فى « السيتى » ستمائة جنيه أسبوعيا ، وهرب كثير من الأطباء ورجال الدين ، وبقى آخرون وقضى كثيرون نحبهم متأثرين بالعدوى . وجرب الناس الأدوية والعلاجات على اختلاف أنواعها ، فلما أخفقت لجأوا إلى التمائم والتعاويذ التى قد تصنع

المعجزات . وفى ٣١ أغسطس ١٦٦٥ قال بيبز « فى هذا الأسبوع مات ٧٤٩٦ شخصا منهم ١٦٠٢ بالطاعون » . وكان حفارو القبور يحملون من يموتون فى الشوارع على عربات اليد ، ويدفنونهم فى مقابر عامة . وبلغت جملة من ماتوا بالطاعون من أهالى لندن فى ١٦٦٥ ، نحو سبعين ألفا ، وهذا سبع السكان . وخف الوباء فى ديسمبر ، وعاد الناس لمزاولة أعمالهم شيئاً فشيئاً . وفى فبراير ١٦٦٦ عادت الحاشيه إلى العاصمة .

وما كاد السكان الباقون على قيد الحياة يروضون أنفسهم على احتمال ما كلفهم الطاعون من خسائر حتى داهمت المدينة كارثة اخرى . وكانت كارثة حقا ، ذلك أنه فى يونيه ١٦٦٦ أبحر الهولنديون فى جرأة إلى التيمز ودمروا المراكب الإنجليزية فيه بمدافع سمع صوتها فى لندن . ولكن فى الساعة الثالثة من صباح الأحد ٢ سبتمبر ، فى حانوت خباز فى بودنج لين ، شب حريق ، أتى فى ثلاثة أيام على معظم الجزء من لندن الواقع شمال النهر . ومرة أخرى تآمرت الظروف وتجمعت المصائب : صيف جاف ، وبيوت كلها تقريباً مبنية من الخشب ، متلاصقة ، كثير منها خال من السكان الذين يقضون عطلة نهاية الأسبوع فى الريف ، مخازن ملاى بالزيت والقار والقنب والكتان والخمور وغيرها من المواد القابلة للاحتراق فى الحال ، ثم هبت ريح عاصفه حملت النار من بيت إلى بيت ، ومن شارع إلى شارع ، أضف إلى ذلك سوء التنظيم وعدم الاستعداد لمواجهه مثل هذا الحريق فى مثل هذا الوقت من الليل . ومن حسن حظ ايفلين أنه كان فى سوثوارك ، فأسرع إلى شاطىء النهر .

« حيث شهدنا المدينة بأسرها وقد اندلع فيها اللهب الرهيب بالقرب من الماء ، فى كل الدور من جسر لنـــدن ، وفى شارع التيمز ، صعدا نحو تشيبسيد ... وامتدت النيران فى كل مكان ، وعرت الدهشة الناس ، إلى حد أننا لم ندر منذ البداية ، ماذا تولاهم من قنوط وجزع حتى أنهم بشق النفس تحركوا لاخمادها ، فلم نكن نسمع أو نرى إلا الصرخات والعويل والنواح

وهم يجرون هنا وهناك ، ذاهلين مخبولين . كذلك أحرقت النار الكنائس والقاعات العامة ، وسوق الأوراق المالية والمستشفيات والآثار والزخارف والبيوت والأثاث أنها أتلفت كل شيء ..! »

وهنا رأينا النهر مغطى بالبضائع الطافية فوق الماء والزوارق والقوارب محملة بالبضائع التى وجـــد بعض الناس فسحة من الوقت وأوتوا شيئاً من الشجاعة لانقاذها . كما كان هناك على الجانب الآخر العربات وغيرها ، تنقل إلى الحقول ، التى انتشرت لمدة أميال كل المنقولات من كل نوع ... كما نصبت الخيام ليأوى إليها الناس وما استطاعوا أن يستخلصوه من بضاعة ومتاع . ياالهول المنظر الأليم المفجع الذى لم تصادف الدنيا مثله منـذ بدء الخليقة . وغطت ألسنة النيران وجه السماء ، فبدت وكأنها أتون ملتهب ... انى أرجو الله ألا تقع عيناى ثانية على مثل هذا المنظر ، منظر أكثر من عشرة آلاف بيت تحترق كلها فى لحظة واحـدة وكان صوت اللهب المندلع وفرقعته ورعده ، وصراخ النساء والأطفال ، وهرولة الناس ، وسقوط الأبراج والمنازل والكنائس ، أشبه شيء بعاصفة هوجاء ، وكان الهواء ساخناً إلى حد أن الناس اضطروا إلى الوقوف جامدين ، تاركين النار يشتد أوارها ، وتمتد ألسنتها لمسافة تقرب من ميلين طولا وميل عرضا[٨٢] » .

وأبلى الملك وأخوه المكروه جيمس ، كلاهما ، بلاء حسنا فى هـذه الأزمة ، وجدوا فى العمل بأيديهم مع مكافحى النيران ، وأشرفوا على أعمال الإغاثة ومولوها وهيأوا المأوى والطعام لمن بأتوا بلا مأوى ، وأصروا ، برغم المعارضة الشديدة ، على هدم البيوت ليحولوا دون امتداد الحريق ، مما كان له أثره فى انقاذ جزء من المدينـــة فى شمال التيمز[٨٣] وكاد الحى التجارى أن يمحى عن آخره ، أما حى السياسة « وستمنستر » ، فقد أنقذ ، ودمر ثلثاً مدينة لندن ، بما فى ذلك ١٣٢٠٠ منزل ، ٨٩ كنيسة بما فيها كنيسة سانت بول العتيقة ، ولقى ستة أشخاص فقط مصرعهم ، ولكن مائتى ألف شخص فقدوا مساكنهم[٨٤] . ودمرت معظم المكتبات واحترق من الكتب

ما قيمته ١٥٠ ألف جنيه . وقدر مجموع الخسائر والأضرار بنحو ٠٠٠ر٧٣٠ر١٠ جنيه(٨٥) ، وهو ما ربما يعادل اليوم ٥٠٠ مليون دولار .

وبعد الكارثة نظم المجلس البلدى فى لندن إدارة المطافىء ، وركبت خراطيم الماء فى أنابيب الماء الرئيسية . وكان على كل شركة أن تعين بعض أعضائها ليكونوا على أهبة الاستعداد لتشغيلها لدى سماع أى انذار ، وكان على كل العمال أن يحذوا حذوهم إذا استدعاهم عمدة المدينة . وأعيد بناء لندن فى شىء من التمهل ، على طراز أمتن وأقوى ، وإن لم يكن أجمل من ذى قبل . وبأمر من الملك حل الطوب والحجر محل الخشب ، واختفت الطوابق العليا الناتئة ، وأصبحت الشوارع أوسع وأكثر استقامة ، ورصفت بالحجر السلس الأملس ، وخصصت الطوارات للمشاة . وتحسنت الرعاية الصحية . وقضت النيران على كثير من الأقذار والفيران والبراغيث والجراثيم فتخلصت لندن من الطاعون ، وجدد المهندس المعمارى « رن » بناء كنيسة سانت بول .

٤ — الفن والموسيقى ١٦٦٠-١٧٠٢

ولد كرستوفر رن Wren فى أحضان الدين ، ورضع لبان العلم ، وتوجه بالفن . كان أبوه كبير كهنة وندسور ، وعمه أسقف الى Ely ، والتحق بمدرسة وستمنستر ، ثم كلية وادهام فى « أكسفورد » وفى ١٦٥٣ حصل وهو فى الحادية والعشرين على منحة لمتابعة الدراسة فى كلية « جميع النفوس » . ثم أصبح فى سن الخامسة والعشرين أستاذا للفلك فى كلية جريشام فى لندن ، وفى سن التاسعة والعشرين شغل « كرسى » « سافيل » للفلك فى أكسفورد . وبدا أنه وهب نفسه للعلم ، فقد سحرت لبه الرياضيات والميكانيكا والبصريات والأرصاد الجويه والفلك . فقوم السيكلويد (وجد أن الخط المستقيم مكافىء لانحناء السيكلويد) . وشرح قوانين التصادم ، ونسب إليه نيوتن كثيرا من التجارب التى أدت إلى وضع قوانين الحركة الثلاثة(٨٦) . وعمل بجد على تحسين التلسكوب وصقل

المدسات وبحث فى دوائر زحل . وابتكر طريقة لتحويل الماء المالح إلى ماء عذب ، وأدى من أجل بويل أول عملية حقن للسائل فى مجرى الدم فى الحيوان . وأثبت أن الحيوان يمكن أن يعيش بسهولة بعد إزالة طحاله . واشترك مع توماس ولس Willis فى تشريح المخ . وأعد الرسوم اللازمة « لتشريح ولس المشهور » وكان من أوائل أعضاء « الجمعية الملكية » وهو الذى كتب مقدمة ميثاقها. وما كان أحد ليحلم أنه سيخلد فى التاريخ على أنه أعظم مهندس معمارى انجليزى .

أن الظروف قد تغير مجرى الحياة. وربما كانت مهارة رن فى الرسم هى التى حدت بشارل الثانى إلى تعيينه مساعدا لسير جون دنهام (١٦٦١) رئيس المساحة فى الأشغال العامة . وسرعان ما وجد فى العمارة ذلك التزاوج بين العلم والفن ، أى اضفاء الجمال على الحقيقة ، وهذا هو ما كان يشغل كل تفكيره . وكتب يقول : « هناك لونان من الجمال : الجمال الطبيعى والجمال المألوف أو العادى المتعارف عليه . والجمال الطبيعى تأتى لنا به الهندسة ، أما الثانى ، الجمال المألوف ، فإنه يتأتى من ترويض حواسنا على الأشياء التى تبعث السرور والبهجة عادة ... فى نفوسنا ولكن المعيار الحقيقى دائما هو الجمال الطبيعى أو الجمال الهندسى(٨٧) » . فالشىء الصحيح هندسيا ، كما يرى رن ، يسرنا هو نفسه ، ويكون جميلا (أحد الجسور الكبرى فى العالم مثلا) . ومن هذه الزاوية آثر العمارة الكلاسيكية على العمارة القوطية . وفى تصميماته الأولى ترسم خطى اينجو جونز .

وفى ١٦٦٣ وضع تصميم مسرح شلدون فى أكسفورد للأسقف جلبرت شلدون ، وهنا منذ البداية ، اتبع مبادىء كلاسيكيه . فرفع المسرح الدائرى الضخم ، على نفس الطراز الذى وضعه فترونيوس فى قديم الزمان وفينولا فى عصر النهضه . وساعدت إقامته الطويلة فى فرنسا ١٦٦٤ — ١٦٦٦ على ترسيخ ميوله الكلاسيكيه . ولكن إعجابه بكنيسه فرنسوا مانسارت فى فال – دى – جراس ، جنح به إلى إضافه شىء من زخارف الباروك إلى

واجهات مبانيه . كما أنه تذكر قبه فال ـ دى ـ جراس ، وهو يعيد بناء كنيسه سانت بول .

وعاد رن إلى لندن فى مارس ١٦٦٦ . وفى أبريل ، بناء على طلب الأسقف شلدون وضع خطة لإصلاح الكاتدرائية المتداعية ، التى ساخت من العمر آنذاك نحو ٦٠٠ عام . وفى ٢٧ أغسطس وافقت لجنة اصلاح كنيسة سانت بول على مشروع رن . ولم يمض على ذلك أسبوعان حتى دمر حريق لندن التاريخى الكنيسة ، وجرى الرصاص الذى أذابته النيران من سقفها فى الشوارع .

أن هذا الحريق الذى أتى على ثلثى العاصمة هيأ للعمارة فرصة لم تتح لها منذ حريق رومه . وكانت النيران لاتزال كامنة تنفث الدخان حين عرض رن على شارل الثانى مشروعه الرائع لإعادة بناء المدينة . وقبل الملك المشروع ، ولكن أعوزه المال اللازم له ، كما أن المشروع تعارض مع حقوق الملكية القوية . وشغل رن نفسه بمشروعات أخرى ، وأعد فى ١٦٧٣ تصميما لكنيسة سانت بول جديدة . ولكن رجال الكاتدرائية اعترضوا بأن التصميم تبدو عليه سيماء معبد وثنى ، وحثوا رن على التزام الطراز القوطى فى الكنيسه العتيقة ، ووافق كارها على حل وسط ، بحيث يكون الداخل عبارة عن أقواس وجناح من الكنيسه ومكان خاص بالمرتلين ، وكلها على الطراز القوطى ، على أن تكون الواجهه من طراز عصر النهضة : مدخل ذو رواق معمد وقوصرة كلاسيكية وبرجان من طراز الباروك . وكانت النتيجة خليطا كريه المنظر من الطراز ، ولو أن رن أصلح منه بعض الشيء بتتويج الجزء الداخلى بقبة تنافس قبة برونلسكى فى فلورنسة وميكلا نجلو فى رومه وستظل سانت بول أروع كنيسة شادها البروتستانت

وعلى حين مضى هذا المشروع فى طريق التنفيذ لمدة خمسه وثلاثين عاما ، كان رن الذى خلف دنهام فى تولى شئون المساحة العامة ، وضع تصميما

لثلاث وخمسين كنيسة أخرى . اشتهر كثير منها بأبراجها وقممها المستدقة التى جمعت بين حاسة الجمال عنده وبين نزعته الرياضية. أضف إلى هذا دار الجمارك فى لندن ، والمستشفى فى كل من جرينتش وشلسى ، والكنائس الصغيرة فى كلية بمبروك فى كمبردج وترينتى كولدج فى أكسفورد ، ومكتبة ترينتى كولدج فى كمبردج والجناح الشرقى الكلاسيكى فى قصرها مبتون كورت ، وستا وثلاثين دارا نقابية ، وعددا من الدور الخاصة بل يبدو أنه فى الأربعين عاما الأخيرة من القرن السابع عشر . لم يشيد مبنى له قيمته وأهميته ، إلا كان رن هو المهندس الذى تولاه[٨٨]. واحتفظ رن بمنصبه فى المساحة طوال حكم شارل الثانى ، وجيمس الثانى ، ووليم ومارى ، وآن . وتقاعد عن العمل فى سن السادسة والثمانين ، ولكنه ظل لخمس سنوات أخرى يشرف على العمل فى كنيسة وستمنستر ، وينسب بعضهم إليه فضل إقامة أبراجها ، وفارق الحياة فى سن الحادية والتسعين ، ودفن فى كنيسة سانت بول .

وكان فن النحت لا يزال يتيما فى انجلترا . ولكن الحفر على الخشب كان فنا رفيعا ، وكان جرنلنج جيبونز معاونا له قيمته للمهندس رن ، قام بحفر المقاعد فى المكان المخصص للمرتلين وصندوق الأرغن الفخم فى كنيسه سانت بول ، والزخارف فى قصر وندسور وقصر كنسنجتن وهامبتون كورت .

واستمر فن الرسم فى انجلترا على أن يستقدم الأساتذة ويثبط من همم بنيه . وعلى الرغم من ذلك ، كان بعضهم يعد جون ريلى أعظم رسام لصور الأشخاص فى فترة عودة الملكيه وأدرك جون أن الوجه المدروس الذى يرسم فى روية ، هو فى ذاته سيرة حياة ، فاستطاع أن يقـــرأ خطوطه ، وفى بصيرة نافذة كشف فى ثناياه عن خفاياه وأسراره وأبرزها فى شجاعه غير مريحه . وكاد تعليق شارل الثانى على صورة رسمها له ريلى يكون سببا فى انهيار الفنان ودماره ، حين قال الملك : « أهذه صورتى » ؟ ياخيبه الأمل ،

اذن أنا رجل قبيح للنظر »ومضى زمن طويل قبل أن تدرك الحاشية أن هذا كان مجرد تحية عفوية لأمانة الفنان . وبنفس الدقة والأمانة أخرج ريلى صور للملك الأحمق جيمس الثانى ، وادموند وإلر الشاعر المرتد ، وارل آروندل الأرستقراطى التافه المختال . ولكنه حين رسم كرستوفررن وربرت بويل ، وقع على العبقرية ووضع يده على إماراتها فى الوجه ، وعلى بريقها فى العينين. قال هوراس وولبول « ربما كان فى مقدور ريلى، بربع غرور سيرجودفرى نللر ، أن يقنع العالم بتفوقه وسموه(٨٩) . وفارق الحياة فى ١٦٩١ وهو فى سن الخامسة والأربعين .

وكان للى الهولندى وتللى الألمانى فارسى الحلبة المرموقين فى رسم الأشخاص فى عصر آل ستيوارت الثانى . وكان والد للى جنديا هولنديا اسمه فان درفاس . (واشتق لقبه هذا (للى) من زنبقة كانت مرسومة على داره.وانحدر اللقب إلى الإبن . ولد بيتر فى وستفاليا ١٦١٨ ، ودرس الرسم فى هارلم ، وعبر البحر إلى انجلترا (١٦٤١؟) حين سمع أن شارل الأول أوتى الذوق والمال ، ووفق فى أن يخلف فانديك بوصفه مصور الأشخاص الذى يبتغيه الناس ، وظل محتفظا بمكانته هذه على عهد كرومول وشارل الثــــانى ، واقتبس للى أسلوب فانديك فى اضفاء الأناقة والرشاقة على الجالسين أمامه (لرسمهم) . ولو فى اللباس فقط . وحاصرته ربات الجمال فى الحاشية ، من ذلك أننا نرى فى قاعة المتحف الوطنى لوحة نل جوين ريانة خائنة داعرة . وكونتس شروزبرى التى ساءت سمعتها ، بمغامراتها الغرامية كما نرى على جدران قصر هامبتون كورت ليدى كاسلمين ولويزدى كيروال ، تزدهيان بحلمات أثدائهما . وأجمل من ذلك جون تشرشل وهو طفل مع أخته (٨٩' أزابللا(٩٠) ومن الذى كان يتوقع أن يصبح هذا الطفل الملائكى والطفلة الملائكية دون مالبرو القوى الجبار، والعشيقة التى تصحب زحزحتها لجيمس دوق يورك ؟ .وعن طريق مثل هذه اللوحات حصل للى على لقب فارس ، وجمع ثروة . فقد جلس أمامه شارل الثانى وستة من الأدواق

لرسمهم . ورأى بيبز أنه جبار معتد بنفسه .. يحظى بمنزلة رفيعة[٩١] » ، وكان يعيش « عيشة مترفة باذخة[٩٢] » وحدد له موعدا للقائه بعد ثلاثة أسابيع .

وفى ١٦٧٤ ، أى قبل وفاة للى بست سنوات ، قدم إلى لندن رجل ألمانى عقد العزم على أن يخلف سير بيتر (للى) فى رسم الأشخاص وفى كسب المال وفى الفروسية ، وحقق الرجل برنامجه وكان الرجل ، وهو جوتفريد فون نلر ، آنذاك فى الثامنة والعشرين ، وعينه شارل الثانى « مصور البلاط » واحتفظ نلر بهذا المنصب فى عهد جيمس الثانى ووليم الثالث الذى منحه لقب فارس ، ورسم سير جودفرى لوحات لثلاثة وأربعين من أعضاء « نادى كيت كات » ذى المكانة السياسية البارزة[٩٣] ولعشر من النساء الخطيرات المغويات فى بلاط وليم[٩٤] . وغطى على شهرة دريدن ولوك . ومثلما يتلهف أى إنسان على الخلود ، حول نلر مرسمه الفخم إلى مصنع ينتج بالجملة ، بهيئة لم يسبق لها مثيل من المساعدين ، يتخصص كل منهم فى شىء معين : الأيدى ، الثياب الأشرطة والخطوط الملونة . وفى بعض الأحيان جلس أمامه أربعة عشر شخصا فى يوم واحد . وشيد قصرا فى الريف ، وتنقل بينه وبين بيته فى المدينة فى عربة تجرها ستة جياد . واحتفظ بحياته فى كل التقلبات السياسية . وفاضت روحه وهو فى فراشه معززا مكرما فى سن السابعة والسبعين (١٧٢٣) وفى تلك السنة ولد رينولدز ، وكان هوجارث فى السادسة والعشرين من العمر ، وبدأ الرسم الوطنى يترعرع ويشق طريقه .

وقضى البيوريتانيون تقريباً على الفن ، ولكنهم لم يخرسوا الموسيقى . ولم يخل من الآلات الموسيقية إلا أحقر البيوت ، ولحظ بيبز وجود العذراوية (آلة تشبه البيان الصغير بدون قوائم) فى كل قارب من ثلاثة من القوارب التى تحمل البضائع المنقذة فى التيمز أثناء الحريق[٩٥] ، وكتب يقول : « لابد أن أفسح المجال للموسيقى والنساء مهما كنت مشغولا » .

وكان يورد ذكر صفارته ومزهره وعوده وقيثارته . قدرما يذكر أسلحته(٩٦) وكل إنسان ورد ذكره فى مذكراته ، كان يعزف ويغنى • وكان من القضايا المسلم بها عنده أن أصدقاءه كان فى مقدورهم أن يشاركوا فى الغناء(٩٧) ، وأنه هو وزوجته وخادمتهما كانوا يغنون فى حديقته غناء متناغما ، بشكل مقبول إلى حد أن جيرانهم كانوا يفتحون النوافذ ليستمعوا إليهم •

وفى الابتهاج بعودة الملكية صدحت الموسيقى من كل شكل ولون • واستقدم شارل الموسيقيين من فرنسا • وسرعان ماجعل الناس يدركون أنه كان يحبذ الألحان الرخيمة المبهجه الواضحه التى لاتحسب الرياضيات تناسقا أو تناغما • ووضعت آلات الأرغن من جديد ولعلعت فى الكنائس الرسميه • وكان الأرغن الذى صمم لكنيسه سانت جورج فى وندسور ، والكاتدرائيه فى أكستر ، من بين عجائب الدنيا التى أحدثت دويا فى ذاك العصر • ولكن حتى فى جماعه المنشدين فى الكنيسه حل محل الوقاروالرهبه، عروض مسرحيه من فنانى والالآت المنشدين المنفردين • وأمر شارل الثانى وجيمس الثانى باعداد الموسيقى للشعر الغنائى وحلبات الرقص التى تقام إحتفالا بالمناسبات الملكيه . واستخدمت الكنائس الموسيقى لقاء أجر ، وجازفت المسارح بالأوبرا ، وبدأ الملحنون والعازفون الانجليز يرتزقون من جديد •

وفى ١٦٥٦ أقنع سير وليم دافنانت حكومه الحمايه لترخص له فى إعادة افتتاح مسرح ، على أساس أنه سيخرج أوبرا ، لارواية وفى « حفلة الأيام الأولى » التى مثلها لم يكن هناك أوبرا بقدر ما كان هناك سلسلة من الحوارات سبقتها وتخللتها وأعقبتها الموسيقى . ولكن فى العام نفسه عرض دافنانت فى مسرحه الخاص « رتلندهاوس » أول أوبرا إنجليزيه « حصار رودس(٩٨) » ولكن إغلاق المسارح بسبب الطاعون والحريق ، عوق هذة التجارب • على أنه فى ١٦٦٧ عرض دافنانت المغامر ، فى صورة

صوره موسيقية معدلة « العاصفة » التى زعم أنها من عمل أبيه . وحددت أوبرا بورسل « ديدو وإينياس » بداية الأوبرا الكاملة فى إنجلترا .

وكما هو الحال غالبا فى تاريخ الموسيقى ، فإن عبقرية هنرى بورسل كانت فى معظمها نتاج وراثة اجتماعية — أى بيئة سن المراهقة . فكان أبوه رئيس للمرتلين فى وستمنستر ، وكان عمه يشغل وظيفة « ملحن القيثارات لصاحب الجلالة » . وكان أخوه ملحنا وكاتبا مسرحيا . وتابع ابنه وحفيده عمله فى العزف على الأرغن فى الكنيسة . أما هو فلم يمتد به الأجل لأكثر من سبعة وثلاثين عاما (١٦٥٨ — ١٦٩٥) ، وتولى الترتيل فى الكنيسة الملكية وهو لا يزال صبيا ، حتى ضعف صوته . وألف فى شبابه ترانيم دينية ظلت تسمع فى الكاتدرائيات الإنجليزية على مدى قرن من الزمان : وألحانه الإثنى عشر من نوع السوناتة (١٦٨٣) لقيثارتين أو لأرغن وبيان قيثارى ، هى التى جلبت شكل السوناتة من إيطاليا إلى إنجلترا ، ويقول بيرنى أن أغانيه وترانيمه والكانتاتا (قصه تنشدها المجموعة على أنغام الموسيقى من غير تمثيل) وموسيقى الفرقه التى ألفها « فاقت إلى حد بعيد كل ما أنتجته أو استوردته بلادنا من قبل ، إلى حد يبدو معه أن سائر الألحان الموسيقيه باءت بالاحتقار أو لاذت بزاويا النسيان(٩١) .

ولما كان بورسل منهمكا فى عمله ، عازفا على الأرغن وملحنا ، فإنه لم يتيسر له أن يخرج « ديدو وإينياس(*) » قبل ١٦٨٩ ، لنخبه مختارة من المتفرجين ، فى إحدى مدارس البنات فى لندن . وتبدو الموسيقى لنا الآن ، حتى الاستهلال المشهور ، هزيلة نحيلة ، ولكن يجب أن نتذكر أن الأوبرا كانت آنذاك فى المهد ، وأن جمهور المستمعين آنذاك لم يولع بالضوضاء والصخب مثلنا اليوم أما اللحن الأخير — عويل ديدو ونواحها : « عندما

(*) فى الاساطير الرومانية — ديدو أميرة صور إلى أسست قرطاجه وأصبحت ملكة عليها ، وتقول انيادة فرجيل ، أنها رحبت بإينياس حين قدم إلى قرطاجة بعد سقوط تراوده ، ووقعت فى شراك غرامه ، ثم قتلت نفسها حين غادرها .

أتوسد الثرى » فإنه من أكثر ما يهز المشاعر ويؤثر فى النفوس ، من ألحان فى تاريخ الأوبرا بأسره » .

أما « الملك آرثر » (١٦٩١) التى كتب كلماتها دريــدن ووضع موسيقاها بورسل ، فليست أوبرا بالمعنى الكامل ، حيث يبدو أن الموسيقى لم تكن مرتبطه إلا إرتباطا يسيراً بجو الروايه أو أحداثها ، مثلما أن الروايه لم يكن لها صلة وثيقه بعصر آرثر كما نراه فى مالورى وتنيسون . وبعد ذلك بعام واحد ، أحرز بورسل تقدما أكثر فى موسيقى ثانويه لروايه « فيرى كوين : الملكة الجنيه » ، وتكييف مجهول الاسم « لحلم ليله منتصف الصيف » . ولم يمتد به الأجل ليشهد إخراجه ، وضاعت الألحــان ، ولم تكتشف إلا فى ١٩٠١ وهى الآن تعد من أحسن ما أنتج بورسل .

وفى ١٦٩٣ وضع أكثر قصائده الغنائيه الكثيرة ، أحكاما واتقانا ، فى الاحتفال بيوم سانت سيسيليا . ولكن أرق هذه القصائد هى « تسبيحة الشكر والابتهاج » المرحة ١٦٩٤ . وكانت تعزف سنويا فى الإحتفال « بأبناء رجال الكنيسة » حتى ١٧١٣ ، حتى اشتركت فى هذا الشرف مع مقطوعة هاندل « تسبيحة الشكر من أوترخت » ، فكانتا تعزفان بالتبادل سنويا حتى ١٧٤٣ . ومن أجل جنازة الملكة مارى ١٦٩٥ ، ألف بورسل ترتيلة مشهورة « يا ربنا : أنت أعلم بخفايا قلوبنا » . وفى سنواته الأخيرة اسهم فى الموسيقى الثانويه لروايه دريدن « الملكة الهنديه » ومن الواضح أنه مرض قبل أن يتمها لأن موسيقى الخاتمة وضعها أخوه دانيل . وحانت منيته ، ربما بسبب السل ، فى ٢١ نوفمبر ١٦٩٥ .

وعلى الرغم مما امتلأت به فترة عودة الملكية من حيوية ونشاط ، فإن للموسيقى الانجليزية لم تكن قد أفاقت بعــد من نكستها على يد البيوريتانيين بعد عهد اليزابث . وبدلا من ترسيخ جذورها ثانية فى التربة الانجليزية ، حذت حذو الملك ، فانحنت إجلالا وإكباراً أمام الأساليب

الفرنسية والآلات الايطالية . وبعد أوبرا « ديدو واينياس » غزت الأوبرا الايطالية مسرح الأوبرا الانجليزى ، يقدمها مغنون ايطاليون . كتب بورسل فى ١٦٩٠ « ان للموسيقى الانجليزية لم تبلغ بعد سن الرشد إنها طفل تواق طموح يبشر بما يمكن أن يكون عليه فى المستقبل ... إذا وجد أساتذته مزيدا من التشجيع (١٠٠) » .

٥ — الأخلاق

فلنبدأ لفورنا هنا بالتفريق بين عامة الشعب وأبناء الطبقات العليا ، فالاستهتار الجنسى الذى ساد فترة عودة الملكية ، سرى عن طريق الحاشية إلى الطبقة الوسطى العليا وسكان المدن وما حولها الذين ترددوا على المسارح وربما كانت أخلاق العامه للغمورين أفضل منها فى عصر اليزابث ، لأن النظام الاقتصادى أبقاهم على اعتدالهم وبعدهم عن السرف ، فلم يكونوا يملكون الوسائل التى يترددون بها فى مهاوى الرذيلة والشر ، وظلوا يحسون بوازع من عقائدهم البيوريتانيه . ولكن فى لندن ، وبوجه أخص ، فى الحاشيه الملكيه ، فإن التحلل من القيود البيوريتانيه ورد الفعل الناجم عن ذلك ، أديا إلى اتصال جنسى غير مشروع ومرح صاخب غير برىء . أما الشباب الارستقراطى الذى اقتلع من أرض الوطن وأطلق لنفسه العنان فى فرنسا ، فقد ترك أخلاقه وراءه فى المنفى ، وأتى معه لدى عودته بضروب من الفوضى الموسومه بالرشاقه والظرف ، وانتقاما منهم للسنوات التى عانوا فيها عنت الظلم والحرمان والسلب والنهب ، شنوا بكل ما أتوا من قوة وذكاء ، الحرب على زى البيوريتانيين وحديثهم ولا هوتهم ومبادىء الأخلاق عندهم ، إلى حد لم يجرؤ معه واحد من أبناء طبقتهم أن ينبس ببنت شفه من أجل الحشمة والوقار . وباتت الفضيلة والتقوى والأمانة الزوجية كلها ألوانا من البراءة أو السذاجة الريفية وأصبح الزانى الذى يوفق كل التوفيق فى هذه الرذيله ، هو بطل عصره وفريد زمانه ، (كما هو الحال فى رواية وتشر لى : الزوجة الريفية) والواقع أن الديانه فقدت مكانتها

وإعتبارها بين الناس ، ولم يبق لها شيء من هذا إلا عند الحرفيين والفلاحين. وصار الوعاظ موضع الإحتقار والازدراء على أنهم منافقون كئيبون أغبياء منزعجون مملون ثقال الظل . وأصبحت الديانة الوحيدة الصالحة للسيد الماجد هي الأنجليكانية المهذبة التي يحضر فيها للولى (رب العمل أو مالك الأرض) صلاة الأحد لتدعيم مركز القسيس الذى يزرع الخوف من نار الجحيم فى نفوس القرويين ، ويسبح بالحمد والشكر ، فى إيجاز مناسب، من جانب المنصة التى يجلس إليها للولى أو سيد القرية . . وأصبح أقرب إلى طابع العصر أن يكون المرء ماديا على مذهب هوبز ، لامسيحياً مثل ملتون ، الأحمق العجوز الأعمى الذى نظر إلى سفر التكوين على أنه تاريخ ، وفقدت نار الجحيم التى بولغ فيها فى العشرين سنة الماضية ، رهبتها وهيبتها لدى طبقات المالكين . أما الجنة فى رأيهم ، فهى ماثلة دوما فى مجتمع متحرر من الثورة الإجتماعية والكبت الخلقى فى ظل حاشية وملك ضربا للثل وتقدما الركب فى الفسق والفجور والميسر واللهو والعبث .

وكان ثمة عدة رجال أفاضل ونساء فضليات بين أفراد البلاط الملكى ، وكان كلارندن مثلا رجلا ذا مبادىء وسلوك قويم حتى سارت ابنته فى طريق الغواية فاهتاج وفقد صوابه ، وأوصى بقتلها وتحلى أرل سوثمبتون الرابع ودوق أورمند الأول بالحشمة والوقار ، وكان بين رجال الدين الأنجليكانيين نفر من المخلصين الأتقياء ، حتى من الأساقفة أو ذوى المراتب الكنيسة العالية . وصدقت عزيمة للملكة وليدى فانشو والآنسة هملتون ، أو السيدة جودولفين فيما بعد ، فى التمسك بأهداب الفضيله . ويقينا كان هناك أفراد غير هؤلاء وهؤلاء ، ضاعت ذكراهم فى ثنايا التاريخ لأن الفضيلة لا تعلن عن نفسها .

وكلما علت المكانة أنحطت الأخلاق . فهناك جيمس ، دوق يورك ، شقيق الملك ، الذى يبدو أنه بز الملك فى حصته من الخليلات العشيقات(١٠١). وبينما هو فى المنفى تسلل إلى مخدع آن هايد ابنة قاضى القضاة ، فلما حملت

منه توسلت إليه أن يتزوجها ولكنه كان عاطل ، وأخيراً وقبل أن تضع وليدها بسبعة أسابيع (٢٢ أكتوبر ١٦٦٠) اتخذ منها زوجة شرعية سراً . وعندما سمع أبوها (كلارندون) بنبأ هذا الزواج ، كما تروى سيرة حياته(١٠٢) احتج لدى الملك بأنه لم يعلم شيئاً عن هذا الاتفاق ، وأنه «كان يؤثر أن تكون ابنته خليلة الدوق لازوجته ، وأنهما إذا كان حقا قد تزوجا «فينبغى على الملك أن يزج بالمرأة فى السجن فورا» ، وأن يصدر فى الحال قرار من البرلمان بقطع رأسها ، وأنه لن يوافق على هذا القرار فحسب ، بل سيكون عن طيب خاطر أول من يقترحه » . وهز الملك كتفيه استهجانا للموضوع على أنه هراء لاغناء فيه ، وكأنه يسمع جعجعة ولا يرى طحنا ، وربما أدرك قاضى القضاة أن الملك لن يلزمه بكلمته . وتحدث فى صرامة وتجهم ، على الطريقة الرومانية ، ليعوض عما ثار من ريبه فى أنه رتب أمر الزواج من قبل ، ليجعل من ابنته ملكة على أن ابنته آن ماتت بالسرطان فى ١٦٧١ ، فى سن الرابعه والثلاثين .

واتخذ جيمس ، بينما كانت زوجته (آن) تمانى مشا كل الأمومه ، من أرابلا تشرشل عشيقه له ، وهى التى إرتضى أخوها هذا الوضع حتى يحظى بالترقى فى مناصب الجيش • ورغبة فى معاونة آن وأرابلا والتخفيف عنهما اتخذ الدوق بضع خليلات أخريات لمضاجعته واستاء إيفلين بصفه خاصه من من سلوكه الشائن مع ليدى دنهام (١٦٦٦)(١٠٣) . ولم يغير تحول جيمس إلى الكثلكة من خلقه شيئاً . فكان كما كتب بيرنت «دائم التنقل من غرام إلى غرام دون أن يحسن الاختيار ، حتى قال الملك يوما أنه يعتقد أن القساوسه هم الذين يقدمون له المشيقات عقوبة يكفر بهـــا عن ذنوبه(١٠٤) » ودامت علاقته بأرابلا نغمة عذبة من الأرغن ، وسط هذا التنقل بين مطارح الهوى ، وبقيت بعد موت آن ، وبعد زواج جيمس (١٦٧٣) من مارى مودينا .

وينبغى علينا أن نضيف إلى ما ذكرنا ، أن دوق يورك نفسه كان يتحلى بمناقب تدعو إلى الإعجاب ، فإنه — وهو أمـــير البحر

(١٦٦٠ — ١٦٧٣) ، بذل أقصى الجهد فى التغلب على سوء النظام والفساد فى البحرية ، نتيجة لضآلة الأجور والمؤن التى تصرف لرجال البحر وتدريبهم الهزيل ، وأبدى مهارة وشجاعة فى اشتباكاته مع الهولنديين . ونهض بمهام الإدارة فى مقدرة واخلاص . ولم تشب أية شائبة قط اخلاصه العميق لأخيه الملك ، بل انتظر صابرا طيلة ربع قرن من الزمان قبل أن يخلفه على العرش . وكان صريحا مخلصا يسهل الوصول إليه ، ولكنه كان شديد الكلف بمكانته وسلطانه إلى حد لم يكن معه شعبيا ، وكان صديقا يقيم على الود ، وعدوا عنيدا لايغتفر الاساءة . وكان ذا جلد على العمل الشاق ولكنه لم يكن متوقد الذكاء . وكان يأبى النصح والمشورة أيما إباء .

وكان يحتل المركز الثانى فى البلاط ، جورج فليردوق بكنجهام الثانى . وكان ابن محظية جيمس الأول التى لقيت حتفها ، ومن ثم قاتل إلى جانب شارل الأول فى الحرب الأهلية ، ومع شارل الثانى فى وورسستر ، وعينه الملك الذى استرد العرش عضوا فى مجلسه الخاص وكان بارعا ذكيا أنيسا كريما ، ولذلك سيطر فى البلاط بسحره وفتنته لبعض الوقت ، وكتب « ملهاة » رائعة . « التجربة » ، وتلهى بالكيمياء القديمة والعزف على القيثارة إلى حد ما . ولكن وجهه وثراءه جلبا عليه الدمار . انه تنقل من امرأة إلى أخرى ، وانغمس فى عبث مخزشائن . وبدد ضيعته الهائلة . وكان يتوق إلى الظفر بكونتيس شروزبرى ، فتحدى زوجها لمبارزته ، وتنكرت هى فى زى خادم ، وأمسكت بجواد بكنجهام أثناء المبارزة ، وصرع بكنجهام الكونت ، وعانقت الأرملة السعيدة الدوق المنتصر الذى كان لايزال مضرجا بدم زوجها ، وعادا ظافرين إلى قصر الفريسة(١٠٥) . وعزل بكنجهام عن منصبه (١٦٧٤) ، وانصرف إلى اللهو والعبث ، ومات فقيرا معدما يجلله الخزى والعار .

وكان ينافس بكنجهام فى المكانة والذكاء والقصف والعربدة والانحلال

جون ولموت أرل روشستر الثانى ، حصل جون على درجة الأستاذية من أكسفورد فى سن الرابعة عشرة (١٦٦١) وهو أمر لايصدق ، وإلتحق بالبلاط فى السابعة عشرة. وأصبح المشرف على حجرة الملك. وكان فى حاجه إلى المال وهو فى سن التاسعه عشرة ، فتودد إلى وريثه ثرية تباطأت فى تحقيق بغيته ، فاختطفها ، ومن أجل ذلك زج به فى السجن ، فرق قلبها له ، ثم حظى بالزواج منها ، ثم بثروتها ، وكم من مرة أبعده شارل عن الحاشيه وأعاده إليها ، مستسيغا فطنته وذكاءه . وكان روشستر - مثل بكنجهام - خبيرا فى التقليد والمحاكاة ، وكان يسر بالتنكر فى زى حمال أو متسول أو تاجر أو طبيب ألمانى ، وكان يوفق فى هذا التمثيل والمحاكاة إلى حد ضلل أو خدع معه أوثق أصدقائه صلة به. وزعم بوصفه طبيبا أنه يبرىء من الأدواء المستعصية عن طريق علمه بالتنجيم. وجذب إليه مئات من المرضى ، وشفى عددا منهم ، وسرعان ماقصدت إليه سيدات البلاط لعلاجهن. وعجز أولئك الذين عرفوه حق المعرفة ، عن التعرف عليه(١٠٦) وفى كل هذه التنكرات تقريبا كان يطارد السيدات ، دون أى اعتبار لمكانتهن. وكن هن يتعقبنه كذلك. وتسلى جون بكتابة قطع من الهجاء البذىء الداعر . وقضى على حياته بالخمر والفجور. وكان يفخر بأنه كان ثملا مخمورا لمدة خمس سنوات بلا انقطاع - ومات فقيرا نادما فى سن الثالثه والثلاثين .

وكان فى الحاشية رجال كثيرون من أمثال ولموت ، حتى أن بيبز نفسه ، وهو غيرها و للزنى تسائل: ، « ماذا ستكون نهاية كل هذا الشراب وهذا السباب وهذه العلاقات الغرامية الفاجرة(١٠٧) » وعبر بوب عن هذه الحالة فى « بحث فى النقد » ، ولكنه لم ينصف الملك كل الإنصاف ، فهو يقول :

« إذا كانت المهمة الهينة اللينة للملك هى العشق والغرام ، فقلما نراه فى مجلس الحكم ، ولا نراه أبدا فى ساحة الوغى ، فان الدولة يحكمها النساء الحائثات بالعهد اللاتى يتنقلن من حب إلى حب ، أما رجال الدولة والسياسة فيكتبون المسرحيات الهزلية الساخرة ولا يستفاد بذوى المواهب ،

والوردات الشبان اليافعون خلو من الذكاء والفطنة ، .... ولم تعد المروحة المتواضعة المحتشمة ترفع ، وعلت الابتسامة وجوه العذارى لما كانت وجناتهن تحمر له حياء وخجلا من قبل(١٠٨) .

وكان من الأمور المسلم بها أن الزوجات — مثل الأزواج — تعوزهن الأمانة والاخلاص ، فان الرجال لم يتطلبن الأمانة والإخلاص إلا فى عشيقاتهم(١٠٩) . إن مذكرات كونت فيليبرت دى جرامونت التى دونها بالفرنسية أخو زوجته ، أنطونى هملتون ، كانت ، أحيانا ، عبارة عن قائمة بالمغرورين المختالين، أو سلسلة من الديوثين الذين لايغارون على زوجاتهم وهم يعلمون انهن يأتين الفاحشة ، كما رآهم الكونت فى منفاه السعيد فى بلاط شارل الثانى .

وكم كانت الساعات تقضى وتخصص للرقص وسباق الخيل وصراع الديكة ولعب البليارد والورق والشطرنج ، والألعاب الأرضية والحفلات التنكرية للرحة ، ثم كما يقـــول بيرنت « يطوف الملك والملكة وكل أفراد البلاط ، وهم جميعا متنكرون ، بالبيوت غير المعروفة ، حيث يرقصون ويعبثون ويلهون فى صخب فاجر(١١٠) » وكانت المراهنات على مبالغ طائله . يقول ايفلين « فى هـذه الليله ، افتتح جلالة الملك الحلبة ، كما هى العادة ، فألقى « الزهر » بنفسه فى القاعة الخاصة ، . . . وخسر مائة جنيه . (وكان قد كسب فى العام الماضى ١٥٠٠ جنيه) . وأقبل السيدات كذلك على اللعب اقبالا شديدا(١١١) » وحذت الطبقات العليا حذو الحاشية فى القمار والدعارة . وتحدث ايفلين عن شباب انجلترا الفاسق الفاجر الذى فاقت إلى حد كبير دعارته للذهله ، حماقات سائر الأمم المتحضرة مهما كانت(١١٢) . وانتشر اللواط ، وبخاصة فى الجيش . وكتب روشستر رواية عنوانها « سودومى » (نسبة إلى سودوم قرية قوم لوط) مثلت أمام الحاشية . والظاهر أنه كان فى انجلترا عدد من المواخير لهذا الاختلاط الجنسى الشاذ(١١٣) .

وكان عدد الزيجات القائمة على الحب يتزايد . وهناك أمثلة رائعه ، منها زواج دوروثى أو زيورن من وليم تمبل ، الذى ثبت أنه زواج سعيد ، ولو أن دوروثى كتبت تقول . « ليس الزواج القائم على الحب تصرفا معيبا ملوما ، إذا كنا لم نر من بين ألف من الزوجين الحبيبين الذين يقدمون عليه ، زواجا واحد يمكن أن يتخذ مثلا على أنه يمكن اتمامه دون ندم عليه فى المستقبل »(١١٤) » . وكتب سويفت إلى سيدة شابة فى موضوع زواجها فتحدث عن الشخص الذى اختاره أبواها ليكون زوجا لها . وأضاف « أن زواجك كان قائما على الحكمة والحصافة والتدبر والشعور الطيب المتبادل ، خاليا من عوائق الانفعال السخيف فى الحب الرومانتيك(١١٥) ». ويذكر كلارندون : « إن رغبتى الأولى فى الزواج لم تتعلق إلا بضيعة ملائمة مريحه(١١٦) » .

ومن الناحيه النظرية كان للزوج كل السيطرة على زوجته ، كما يتحكم حتى فى الصداق الذى أتت به إليه . وفى كل الطبقات كانت مشيئة الزوج قانونا . وفى الطبقات الدنيا استعمل الزوج حقوقه المشروعه فى ضرب زوجته ، ولكن القانون حرم عليه استعمال عصا يجاوز سمكها سمك ابهامه(١١٧) . وكان انضباط الأسرة أو نظامها قويا ، اللهم إلا فى الطبقات العليا فى لندن ، حيث شكا كلارندون من أن الوالدين ليس لهما أى سلطان على الأبناء ، كما أن هؤلاء لايذعنون للاباء ولا يطيعونهم . بل « ان كل انسان يتصرف كما يحلوله »(١١٨) . وكان الطلاق نادرا ، ولكن يمكن اجازته بقرار من البرلمان . ورأى الأسقف بيرنت — مثل لوثر وملتون — أنه يمكن السماح بتعدد الزوجات فى حالات معينة ، وعرض هذه الفكرة على شارل الثانى ، بسبب عقم الملكة ، ولكن الملك رفضها ، تحاشيا للتمادى فى اذلال زوجته(١١٩) .

وهددت الجريمة الأرواح والممتلكات بشكل مستمر . وكان اللصوص والنشالون يتجمعون فى عصابات ويسطون فى جنح الليل . وكانت المبارزة

محرمة بحكم القانون ، ولكنها بقيت امتيازا للسادة الأماجد ، فإذا صرع مبارز غريمه وفقا للقواعد ، نجا المنتصر عادة بسجن قصير مريح . وسعى القانون جاهدا ليكافح الجريمة عن طريق ما يبدو الآن عقوبات وحشية. ولكن ربما كانت الاجراءات الصارمة لازمة لغزو العقول المتحجرة أو المتبلدة . وكان التعذيب والموت عقوبة الخيانة العظمى . وكان الشنق عقوبة القتل أو الجناية أو تزييف العملة . وكانت الزوجة التي تقتل زوجها تحرق حية . أما السرقات الخفيفة فكانت عقوبتها الجلد ، أو قطع احدى الأذنين ، وضرب أى فرد من حاشية الملك يعاقب بقطع اليد اليمنى . أما التزوير والخداع وغش الموازين والمقاييس فكانت عقوبتها التعذيب فى المشهرة ، أحيانا مع دق الأذنين كلتيهما بالمسامير فى آلة التعذيب ، أو ثقب اللسان بقضيب من الحديد المحمى(١٢٠) . وكان الناس عادة يستمتعون بمشاهدة مثل هذه العقوبات(١٢١) ، ويحتشدون ، وكأنهم فى يوم عطلة ، ليشهدوا سجينا على حبل المشنقة . وضمت السجون فى عهد الملك السعيد عشرة آلاف سجين من أجل الديون ، وكانت السجون قذرة ، ولكن كان من الممكن أن يقدم الحراس بعض التيسيرات مقابل رشوة . كانت العقوبات أشد صرامة وقسوة منها فى فرنسا المعاصرة ، ولكن القانون كان أكثر تحرراً . ولم تكن فى انجلترا « أوامر مختومة » (لا لقاء أى شخص فى السجن دون محاكمة) ، بل كان فيها نظام التحقيق فى قانونية الاعتقال . إلى جانب نظام المحلفين .

وشاركت الأخلاقيات الاجتماعية فى الانحلال العام . وتزايدت أعمال البر . ولكن ربما كان الواحد والأربعون ملجأ فى انجلترا مجرد وجه آخر لجشع الأقوياء ، وكان كل فرد تقريبا يعمد إلى الغش أثناء لعب الورق(١٢٢) ودب الفساد فى كل الطبقات بمعدل أكبر من المستوى العادى . ومن مذكرات بيبز تفوح رائحة الفساد فى مختلف الأعمال ، فى السياسة وفى البحرية وفى بيبز نفسه . من ذلك أن المؤسسات والمصانع زادت فى اسهمها دون زيادة مقابلة فى رأس المال ، وزورت فى حساباتها ، وتقاضت من

الحكومة أثمانا فادحة (١٢٣) . وكانت الاعتمادات التى يقرها البرلمان للجيش أو الأسطول يتحول جزء منها إلى جيوب الموظفين ورجال البلاط . وباع موظفو الدولة — حتى ولو كانت رواتبهم كافية تدفع بانتظام — الألقاب والعقود والبراءات والتعيينات وأوامر العفو ، إلى حد « بات معه الراتب الأصلى يشكل الجزء الأصغر مما يدخل إلى جيوبهم (١٢٤) » . وأثرى كبار رجال الحكومة مثل كلارندون ودانبى وسندرلند — أثروا فى سنوات قليلة واشتروا أو بنو ضياعا لا تتناسب قط مع رواتبهم . وباع أعضاء البرلمان أصواتهم للوزراء ، بل حتى للحكومات الاجنبية (١٢٥) وفى القرارات انتزع مائتا عضو من صفوف المعارضة ، نتيجة لأن الوزراء اشتروا أصواتهم (١٢٦) . وفى ١٦٧٥ قدر أن ثلثى أعضاء مجلس العموم كانوا مأجورين من قبل شارل الثانى ، والثلث الباقى من قبل لويس الرابع عشر (١٢٧) حيث وجد العاهل الفرنسى أنه من الميسور أن يرشو الأعضاء ليصوتوا ضد شارل إذا حاد بشكل مزعج عن سياسة البوربون . أما شارل نفسه فكم من مرة تسلم أموالا طائلة من لويس ، حتى يلتزم الدوران فى فلك فرنسا فى السياسة أو الديانة أو الحرب ، وهكذا كان المجتمع الانجليزى أكثر المجتمعات استهتارا وفساداً فى التاريخ .

٦ — العادات

حاولت العادات أو أساليب الحياة هنا أن تعوض عن النقص فى الآداب — كما فى فرنسا — ، وأن تضفى كياسة متكلفة على الملابس المزركشة الأنيقة والأدب الفاجر ، والحديث الدنس . وكان شارل نفسه مثالا لأسلوب الحياة وتسرب إلى الطبقات العليا ماتجمل به الملك من ظرف ولطف ومجاملة وسحر وفتنة ، وترك كل أولئك بصماته على الحياة فى انجلترا . فتبادل الرجال القبلات عند اللقاء . وقبلوا يد المرأة إذا قدموا إليها . وفى لندن — كما كان فى باريس — استقبلت السيدات الرجال فى الفراش ، فكان هناك صراحة

منعشة واحتقار النفاق فى الأدب وفى المسرح وفى البلاط . ولكن الصراحة أطلقت فيضامن الخشونة على المسرح وفى الحديث اليومى . وكانت البذاءة فى انجلترا بغير مثال . وفى هذا كان شارل من بين الشواذ الخارجين على القاعدة ، حيث كان لا يتجاوز فى السباب « عبارته المفضلة Odds Fish وكان البيوريتانيون الباقون ينأون بأنفسهم عن فحش القول إلا إذا هاجوا خصومهم وسخروا منهم . أما السكويكرز فامتنعوا عن الحلف

وبز الرجال النساء فى الأزياء الغربية ، من الشعر المستعار للضمخ بالمساحيق لأجل التبرج ، إلى الجوارب الحريرية والأحذية ذات « الابزيم » وكان الشعر المستعار بدعه أخرى مستوردة من فرنسا . وكان الفرسان والمختالون وغيرهم ، ممن كان شعرهم قصيراً ، أو ممن يخافون أن يخطئهم الناس على أنهم من البيوريتانيين ذوى الرؤوس المستديرة الذى كانوا يقصون شعورهم قصا قصيرا جدا ، تقول ان هؤلاء وهؤلاء كانوا يغطون قصر شعرهم بشعور أجنبية مستعارة . أما الرجال الذين أبيض شعرهم أو مال إلى الشيب فقد وجدوا فى الشعر المستعار وسيلة ناجحة لاخفاء أعمارهم . وكان كل الرجال تقريبا يحلقون اللحى آنذاك . وكان هذا الشعر المستعار يصلح من شأن بشرة الملك الأسبانية وأنفه الضخم . وجعل بيبز من أول شعر مستعار وضعه مسألة خطيرة ، ورثى لشعره المحبب إليه الذى كان لزاما أن يقص ليفسح الطريق « للباروكة — الشعر المستعار » ويزود بالشعر رأس إنسان آخر (١٢٨) ، وكان لزاما أن يتم تنظيف شعره المستعار من القمل فى أوقات منتظمة (١٢٩) — واختفى الآن طوق الرقبة المكشكش المتيبس الذى كان سائدا فى عهد اليزابث وجيمس الأول . كما اختفت السترة الضيقة والعباءة الطويلة ليحل محلهما الصدرية والمعطف . ووصلت الصدرية على آية حال إلى ربلة الساق . وكانت تشــد إلى الجسم بحزام . وتوقفت « بنطلونات » الركوب عند الركبتين . وتدلت السيوف إلى جوانب الأرستقراطيين أو الأغنياء . وساعد المخملات والمخرمات والأشرطة والأهداب وكشكشة الثياب

على استكمال الظرف والكياسة ، وربما استخدم الناس لتدفئة اليدين في الشتاء ، « الموقه » وهي غطاء أنبوبي طويل مكسو بالفراء ، يعلق في العنق .

أما نساء الطبقات العليا الأنيقات (طبقا لآخر طراز) فكن يضمخن شعورهن بالمساحيق والعطور ، ويمشطنها في خصلات فوق جباههن ، وزدن عليهن خصلات مستعارة مرفوعة على أسلاك خفية ، وكسون قبعاتهن بالريش النادر ، ووضعن على خدودهن أو جبهاهن أو أذقانهن « لصوقات تجميلية » (و وهي قطع صغيرة جداً من حرير أسود يلصقها النساء كوسيلة لاخفاء العيوب أو للتبرج) ، زيادة في إغراء الرجال بمطاردتهن . وكشفن عن أكتافهن وعن أجزاء كبيرة من نهودهن ، وهكذا جلست لويز دي كيروال أمام الرسام للي ليصورها وأحد نهديها عار تماما ، وبزتها نل جوين في ذلك . وكانت النساء تحجبن سيقانهن بشكل مغر . وتزايد الطلب على أدوات التجميل الأنيقة . فكانت المرأة بالفعل شيئا معقدا استخدم الإنسان كل براعته في تشكيله وصنعه ، حتى صورتها احدى الروايات في فترة عودة الملكية ، في شيء من المغالاة والإغراق في الوصف .

« صنعت أسنانها عند ناظم اللالىء (في بلاك فرايرز) ، وحواجبها من خيوط أو أسلاك مجدولة (في استراند) ، وشعرها في شارع « الفضة » ، فإذا آوت إلى الفراش نزعت عن نفسها كل ما عليها لتضعه في عشرين صندوقا . حتى إذا نهضت من نومها ظهر اليوم التالي ، ركبت كل شيء في مكانه على جسمها من جديد . وكأنها ساعة حائط ألمانية ضخمة(١٣٠) » .

وكان التبذير واجبا حتميا ، لقد أصبحت الحياة مظهرية متكلفة من جديد ، ومن ثم اقتضت تجهيزات معقدة مفصلة . وكان لزاما استئجار عدد كبير من الخدم . فكان منهم لدى والد ايفلين نحو خمسين وكان لدى بيبز طباخ ومديرة للمنزل ووصيفة وخادمة . وكانت وجبات الطعام مروعة

ضخمة . أنظر إلى غداء بيبز في ٢٦ يناير ١٦٦٠ قبل أيام الطيش والغرارة بزمن طويل :

« أعدت زوجتي غداء شهيا جدا : أعني طبقا من « عظام النخاع » ، وفخذا من الضأن ، وقطعة من لحم العجل ، وصحنا من الطيور ، وثلاث دجاجات ، واثني عشر زوجا من القنبر على طبق واحد ، وكعكة ضخمة محشوة بالمربى والفاكهة المطبوخة (تورتة) ، ولسان بقرة ، وطبقا من السمك الصغير « الأنشوجة » ، وطبقا من القريدس (الجمبرى) والجبن » .

وكانوا يتناولون الوجبة الرئيسية في الساعة الواحدة . وكان المطبخ إنجليزيا . وعندما أوضح شارل الثاني لجرامونت أن الخدم كانوا يقدمون الطعام للملك ، وهم ركوع ، رمزا للاحترام والإجلال ، قال جرامونت (أوروى أنه قال) : « أشكر لجلالتكم هذا الإيضاح ، فقد ذهب تفكيري إلى أنهم إنما كانوا يلتمسون المغفرة لتقديمهم طعاما رديئا(١٣١) » .

ولم يكن تناول المشروبات الروحية مجرد مظهر اجتماعي . فقلما كان الناس ، حتى الأطفال ، يشربون الماء(١٣٢) ، وكانت « البيرة » أيسر منالا من الماء الصالح للشرب . ومن ثم تناول كل الناس من مختلف الأسنان ، البيرة ، وأضاف الموسرون إليها الويسكي أو استوردوا النبيذ . وتردد معظم الناس على الحانات مرة واحدة في اليوم ، وتناول كل الأفراد من جميع الطبقات الخمر من حين إلى حين .

ودخل البن من تركيا حوالى ١٦٥٠ . وحتى ١٧٠٠ كان معظم البن يستورد من اقليم مخا في اليمن . وفي القرن الثامن عشر نقل الهولنديون زراعته إلى جاوة والبرتغاليون إلى سيلان والبرازيل ، والانجليز إلى جامايكا . وساعد استخدام القهوة في التغلب على الخمول والكسل وفي شحذ الذهن ، على انتشارها وإقبال الناس عليها . وافتتحت لندن أول مقهى فيها في ١٦٥٢ ، وما وافى عام ١٧٠٠ حتى كان بها ٣٠٠٠ مقهى(١٣٣) واتخذ كل فرد مهما كانت مكانته ، أحد المقاهي محلا مختارا لمقابلاته بانتظام ، حيث يلتقي بأصدقائه

ويستمع إلى آخر الأنباء والخازى . وحاول شارل الثانى أن يحد من انتشار المقاهى ومن نشاطها باعتبارها مراكز لإهاجة المشاعر السياسية والمؤامرات ، ولكن شهوة الحديث والشراب والاستمتاع برائحة التبغ أحبطت مساعيه . ومن بعض المقاهى نشأت الأندية التى لعبت دوراً فى سياسة القرن الثامن عشر ، ثم أصبحت آنذاك ملاذاً ومهرباً من أحادية الزواج ، واختلفت المقاهى عن الأندية التى ظهرت متأخرة عنها ، لا لمجرد أن القهوة كانت هى المشروب المفضل فيها ، بل لأن الحديث كان يلقى تشجيعاً فيها . كما أن مشاهير الأدباء مثل دريدن وأديسون وسويفت وجدوا فيها منابرهم (فى المقاهى) . كما أن حرية الكلام فى انجلترا انتعشت وازدهرت هناك .

وجاء الشاى إلى انجلترا من الصين حوالى ١٦٥٠ ، ولكنه كان غالى الثمن . إلى حد أنه لم يحل محل البن فى الحياة الانجليزية إلا بعد قرن من الزمان . وحسب بيبز أنه انما كان يقوم بمغامرة حين تناول أول فنجان من الشاى(١٣٤) . وفى نفس الوقت استورد حب الكاكاو من المكسيك وأمريكا الوسطى . وحوالى ١٦٥٨ استحدث شراب جديد بإضافة « الفانيليا » والسكر إلى إلى الكاكاو . وأصبحت « الشكولاته » الناتجة عن هذا المزيج شراباً محبباً مألوفاً فى فترة عودة الملكية ، وكان يقدم فى كثير من المقاهى .

وفى تلك الآونة دخنت التبغ كل الطبقات ، بما فى ذلك كثير من النساء وبعض الأولاد ، فى أنابيب طويلة دوما . وظن النساء أن لهذا التبغ بعض الفائدة فى التطهير وقاية من الطاعون . وربما نشأت عن هذه الفكرة عادة « السعوط » فى تلك الأيام ، أى نشوق التبغ المسحوق .

والآن وقد تخلص الناس من كابوس البيوريتانية ، فقد ازدهرت الألعاب وأسباب التسلية واللهو . واستمتع الفقراء من جديد بمسرح العرائس وعروض السيرك وصراع الديكة ومطاردة الدببة والثيران ، وألعاب البهلوان على الحبال والمصارعة ، والشعوذة والملاكمة والسحر ، وانغمس الموسرون

فى الصيد بنوعيه : صيد النساء وصيد الحيوان . وظل شارل الثانى يمارس لعبة التنس حتى بلغ الثالثة والخمسين . أما ايفلين فقد أحب لعبة البولنج على الأرض الخضراء ، التى لا تزال منظراً محبباً إلى الانجليز حتى اليوم . وكانت لعبة الكريكت قد بدأت تكون وسيلة لقضاء وقت الفراغ فى الأمة بأسرها ولأول مرة فى ١٦٦١ يرد ذكر قطعة من الأرض مخصصة لهذه اللعبة ، ففى تلك السنة خططت حدائق فوكسهول على الضفة الجنوبية للتيمز ، وسرعان ما أصبحت منتجعاً أنيقاً على أحدث طراز . وافتتح شارل الثانى للجمهور متنزه سان جيمس . وأقيمت آنذاك حدائق هايد بارك حيث يقصد إليها فى الامسيات الظريفة ، علية القوم وعلى رأسهم الملك والملكة . إن « المجتمع » بدأ آنذاك يستشفى فى مياه باث المعدنية .

وتنقل الناس — فيما خلا أفقر الطبقات — فى عربات تجرها الجياد ، التى كانت قد بدأت تؤدى خدمة بريدية منتظمة لقاء بنس فى ١٦٥٧ ، ثم استخدمت لنقل الركاب فى مواعيد منتظمة فى ١٦٥٨ ، وكانت هذه العربات قد استخدمت لنقل السلع والتجارة داخل المدينة منذ ١٦٢٥ . وتنقل كبار الأغنياء فى عربات تجرها ستة جياد . وكانوا يصطحبون ثلاث فرق من الجياد ، لا لمجرد العرض وحب الظهور ، ولكن لتجر العربة فى الطريق الموحلة . وكانت الماشية المحلية فى بعض الأحيان تربط أمام الجياد لتشد العربة وتسحبها من المستنقعات العميقة . لقد كانت الطرقات مغطاة بالأتربة أو الأوحال . إن الحانات والانزال على جانبى الطريق ، بالخليط العجيب من نزلائها من سائقى العربات والمسافرين والمشائين والبائعين واللصوص والبغايا ، كانت تهيىء السبيل أمام هؤلاء جميعا للاسهام فى الأدب فى انجلترا وهكذا كانت تتشكل انجلترا الخشنة المحببة الى النفس والمفعمة بالحيوية ، التى عرفها دكنز فى شبابه .

٧ — الدين والسياسة

استمر الصراع بين المذاهب الدينية ، وتجدد النزاع القديم بين الملك والبرلمان ، وسط تفتح الناس وتوافر أسباب الحياة لديهم وتكاثرهم . وأحزن الملك المبتهج أن يرى مجلس العموم ، بعدما أظهر من اذعان وامتثال فى شهر العسل ، يغار من سلطة الملك وقوته ، ويقبض عنه الاعتمادات . لقد كان الملك رقيق القلب ولكنه حازم صلب العود . فولى وجهه شطر ملك فرنسا ليحصل منه على قروض خاصة ، ووعد ، وواضح أنه رغب — فى التخفيف من ويلات الكاثوليك الانجليز ، كما وعد بتأييد سياسة لويس الرابع عشر ضد الأراضى الوطيئة ، وبيع ثغر دنكرك على القنال الانجليزى لفرنسا ، وكان جنود كرومول قد استولوا عليه . والحق أن الدفاع عنه كان يكلف أموالا طائلة ، وكان شوكة فى جنب فرنسا . فتخلى شارل عن دنكرك (١٦٦٢) مقابل خمسة ملايين فرنك بالاضافة الى اعانات سرية من البووربون ، استطاع بها لبعض الوقت أن يتجاهل أو ليجاركية الأرض والمال التى تحكمت فى البرلمان آنذاك

ان هؤلاء الأوليجاركين ، على أية حال ، رأوا أن أموال الحكومة ينبغى أن تستخدم فى شن حرب مربحة أخرى ضد الهولنديين . ان نفس المنافسة على التجارة ومصايد الأسماك التى أدت الى الحرب الهولندية الاولى من قبل فى ١٦٥٢ هى التى عززت فكرة الحرب الثانية ١٦٦٤ . وقاوم شارل هذا الاتجاه الى الحرب ، لأطول مدة ممكنة ، لأنه آثر المحبة والمودة إيما ايثار . وكتب لأخته يقول : لم أر قط مثل هذه الشهوة الجامحة للحرب فى الريف والحضر كليهما ، وبخاصة لدى رجال البرلمان . إنى لأجد أننى الرجل الوحيد الذى لا يريد الحرب فى مملكتى(١٣٥) » .

لقد ساءت الأحوال . وحارب الأسطول الإنجليزى ببسالة على الرغم من سوء تغذيته وضآلة ملابسه وذخائره ، ولكنه خسر بقدر ما انتصر ،

وفى الوقت الذى حمى فيه وطيس الحرب ، ترك الطاعون والحريق لندن موحشة مقفرة ، كما ترك انجلترا مفلسة ، وفى أخريات عام ١٦٦٦ فتح الهولنديون باب للمنازعات لعقد الصلح وسر الملك بقرب التوصل إلى تفاهم ، فأرسل مندوبين إلى بريدا . ووثوقا منه بأن الإتفاق كان وشيكا ، ومذ رأى أن أمواله على وشك النفاد ، فإنه نحى جانبا من أسطوله فى «مدواى» ، وسمح للبحارة بالاشتغال على السفن التجارية . فما كان من « دى رويتر » إلا أن قاد أسطولا هولنديا إلى التيمز ومدواى ودمر معظم السفن الإنجليزية التى خلت من الرجال . ويقول بيبز أنه فى تلك الليلة « كان الملك يتناول العشاء مع ليدى كاسلمين عند دوقة مونموث ، وقد شغل الجميع إلى حد الجنون باصطياد فراشه مسكينة(١٣٦) » وعندما وصلت أنباء الهجوم إلى لندن ، دعى كل رجل مفتول العضلات إلى حمل السلاح . ولكن الهولنديين كذلك رغبوا فى الصلح ، لأن الفرنسيين كانوا قد أغاروا على إقليم فلاندرز . وأنهت معاهدة بريدا فى ٢١ يوليه ١٦٦٧ ، الحرب الهولندية الثانية بشروط لم يرتح لها الجميع .

وأضعف هذا الإخفاق التام وتلك الكوارث التى توالت على لندن ، مركز الملك إلى حد أن بعض الإنجليز فكروا فى خلعه . وطالب البرلمان بفرض رقابة برلمانية على مصروفات الحكومة . وأذعن الملك ، لأنه كان خالى الوفاض ، ولأن خطوة أخرى قد اتخذت نحو سيادة البرلمان الذى طالب كذلك بعزل كلارندون ، لسوء معالجته للشئون الخارجية . ولم يكن شارل يكره عزله ، لأن مستشاره كان يعارض تحركه فى إتجاه التسامح الدينى ، وينتقد إنغماسه مع الخليلات ، ولم يكتف مجلس العموم باستقالة كلارندون ، فقدم إقتراحا بمحاكمته بتهمة خضوعه الذليل لفرنسا . فاستمع كلارندون لنصيحة للملك ، ولاذ بالفرار إلى القارة . وكانت خاتمة محزنة قاسية لرجل حفل سجل حياته بالخدمات . وكرم الشيخ الهرم منفاه بتدوين أجل مؤلف تاريخى أخرجه الأدب الإنجليزى حتى ذاك اليوم . ووافته المنية فى روان

(على السين فى شمال فرنسا) فى ١٦٧٤ ، وهو فى الخامسة والستين .

وعين الملك شارل (١٦٦٨) خمسة رجال ليحلوا محـل كلارندون : توماس كليفورد ، إرل آرلنجتون ، ودوق بكنجهام ، ولورد آشلى (الذى أصبح على الفور إرل شافتسبرى الأول) وإرل لودرديل . وكونت الحروف الأولى من أسمائهم لفظة « كابال Cabal » التى سميت بها الوزارة الجديدة . وكان كليفورد يعلن عن كثلكته، وكان آرلنجتون ميالا إلى هذا المذهب، وكان بكنجهام خليعا فاسقا ، وكان شافتسبرى متسامحا شكاكا ،أما لودرديل فكان من « رجال المواثيق » السابقين ، وهو الذى فرض النظام الأسقفى بالنار والسيف ، على مواطنيه الاسكتلنديين . واستمع شارل إلى أرائهم أو مشوراتهم المتعارضة . ولـكن تزايد ، على مر الأيام اعتماده على نفسه والتزامه برأيه الخاص .

وكان للملك هدفان أساسيان : تجـديد الملكية المطلقة وإقامة الكاثوليكية ورفع شأنها فى إنجلترا . ونظر بعين الأمل إلى أن الذى سيخلفه على العرش هو أخوه الكاثوليكى جيمس ، وتبادل الرسائل مع زعيم اليسوعيين فى رومه ، وأستقبل سرا مندوبا بابويا قدم إلى لندن من بروكسل(١٣٧) . وفى يناير ١٦٦٩ أبلغ أخاه وكليفورد وآرلنجتون ولورد آرندل أنه يرغب فى المصالحة مع كنيسة رومه ، وفى إعادة كل الإنجليز إلى المذهب القديم(١٣٨) . أن أخته هنريتا لم تـكف يوما عن أن تحضه على أن يعلن الملأ فى جرأة وشجاعة عن إرتداده إلى الكثلكة .

وفى مايو ١٦٧٠ أرسل لويس الرابع عشر هنريتا إلى إنجلترا وفى معيتها عدد من الدبلوماسيين الدهاة ، ليعاونوها على ربط شارل بسياسة فرنسية كاثوليكية . وفى أول يونية ١٦٧٠ وقع كليفورد وآروندل وآرلنجتون باسم إنجلترا معاهدة دوفر السرية . ووافق ملك فرنسا على أن يدفع لشارل ١٥٠ ألف فرنك عند إعلان إرتداده إلى الكثلكة . وتزويده ، عند الاقتضاء ، بستة آلاف جندى تتولى فرنسا الانفاق عليهم ، وكان على شارل أن يدخل الحرب إلى جانب فرنسا ضد المقاطعات المتحدة عندما يطلب

إليه ذلك . على أن يتسلم من فرنسا ٢٢٥ ألف جنيه طيلة قيام الحرب ، وكان لشارل أن يستولى على بعض الجزر الهولندية ويحتفظ بها ، كما كان عليه أن يؤيد مطالب لويس الرابع عشر فى أن يرث أسبانيا(١٣٩) . وامعاناً فى خداع البرلمان والشعب فى إنجلترا ، بعث شارل بدوق بكنجهام إلى باريس ليصوغ معاهدة صورية زائفة وقعت فى ٢١ ديسمبر ١٦٧٠ ونشرت على الملأ ، تعهدت فيها إنجلترا بالاشتراك فى الحرب ضد الهولنديين ، ولكن لم يرد ذكر العقيدة الدينية .

وتلكأ شارل نحو خمسة عشر عاما فى اعلان تحوله الى الكثلكة . ولو أن أخاه أعلن تحوله إليها صراحة فى ١٦٧٠ ، ولكن ارل أرلنجوت نفسه ، وهو الذى يؤيد الكاثوليكية ويميل اليها ، حذر الملك من اعلانه التحول الى هذا المذهب — كما فعل أخوه — قد يعجل بقيام ثورة . ومهما يكن من أمر ، فان شارل تحرك نحو هدفه بأن أصدر فى ١٥ مارس ١٦٥٢ ، إعلان التسامح الثانى ، « لذوى الضمائر الرقيقة » يوقف فيـــه العمل » بكل قوانين العقوبات ، أيا كانت ، فى الأمور الكنسية ، ضد المنشقين أو المتمردين والمخالفين وفى الوقت نفسه أخلى سبيل كل من كانوا أودعو السجون بسبب مخالفتهم لتشريعات البرلمان فى المسائل الدينية . وبذلك أطلق سراح مئات من المنشقين ، من الكويكرز . وأرسل زعماؤهما وفدا عنهم لتقديم الشكر للملك . وصعق المشيخيون والبيوريتانيون حين رأوا أن الحرية الجديدة التى منحت لهم امتد نطاقها لتشمل الكاثوليك وأنصار تجديد العماد ، كما فزع الأنجليكانيون من « أن البابويين والفرق الدينية ذوات المذاهب المختلفة » يجتمعون علنا فى لندن . ولمدة عام كامل نعمت انجلترا بالتسامح الدينى أو شقيت به .

وفى ١٧ مارس ١٦٧٢ شنت انجلترا الحرب الهولندية الثالثة . وتلك مسألة كان الملك والبرلمان كلاهما على اتفاق فيها . واعتمد البرلمان ٢٥٠,٠٠٠ ر ١ جنيه للحرب . على أن يسلم هذا المبلغ للحكومة على أقساط كان من الواضح أنها تعتمد على استرضاء الملك البرلمان وموافقته على تشريعاته الدينية وأعلن مجلس العموم « أن قوانين العقوبات فى المسائل الدينية لا يمكن ابطال العمل

بها الابة نون يسنه البرلمان . وأرسل الى الملك طلبا بسحب اعلان التسامح ومذ كان لويس الرابع عشر يتوق الى أن يرى انجلترا صفا واحدا كالبنيان المرصوص ، تأييدا للحرب ضد الهولنديين ، فانه نصح الملك شارل بالغاء اعلان التسامح حتى تنتهى الحرب بالفوز ، وأذعن شارل ، وألغى الاعلان فى ٨ مارس ١٦٧٣ .

ومن المحتمل أنه فى هذا الوقت ، ترامت الى زعماء البروتستانت أنباء معاهدة دوفر السرية أو أشتموا رائحتها ورغبة فى الحيلولة دون تحول الملك الى الكثلكة ، سن المجلسان كلاهما « قانون الاختبار » الذى ينص على أنه يجب على كل أصحاب الوظائف المدنية والعسكرية فى انجلترا أن يقسموا علنا على تخليهم عن النظرية الكاثوليكية التى تقول بتحول خبز القربان والخمر الى جسد المسيح ودمه وأن يتناولوا الاسرار المقدسة طبقا للطقوس الانجليكانية وكافح كليفورد هذا المشروع بضراوة ، وبعد اقراره استقال من الحكومة ، وآوى الى ضيعته ، وما لبث حتى مات منتحرا كما يظن ايفلين . أما شافتسبرى فقد عضده بكل قوة ، وعزل من الوزارة ، فجعل من نفسه زعيما « لحزب الريف » الذى ناهض ، بعنف يقارب الثورة ، « حزب البلاط » الذى كان يؤيد الملك . وبذلك قضى على الوزارة « الكابال » (١٦٧٣) . وأصبح أرل دنبى كبير الوزراء .

واعتزل جيمس كل مناصبه الحكوميه . وخفف من حدة المعارضة ضده بعض الشىء ، أنه على الرغم من أن زوجته الأولى إرتضت الكثلكة مذهبا من قبل ، فإن إبنتيها — الملكة مارى والملكة آن فيما بعد — نشأتا على المذهب البروتستانتى . لكن زواجه آنذاك (٣٠ سبتمبر ١٦٦٣) من أميرة كاثوليكية أثار ضده حملة من أقسى الإتهامات . تلك هى الأميرة مارى مودينا التى دمغت بأنها « كبرى بنات البابا » ، والمفروض أنها لابد أن تنشىء أولادهما على الكاثوليكية . وفى الحال قدمت إلى البرلمان مشروعات قوانين تقضى بتنشئة أبناء الأسرة المالكة على المذهب البروتستانتى .

إن تطور الأحداث على هذا النحو أثار سخط انجلترا على الحرب ضد المقاطعات المتحدة وجعلها تحس بالمرارة ، فلو أن ملك انجلترا كان كاثوليكيا لانحاز إن عاجلا أو آجلا إلى جانب فرنسا وأسبانيا فى تدمير الجمهورية الهولندية تدميرا ، تلك الجمهورية التى لم تبد الآن منافسا تجاريا ، بل بدت معقل البروتستانتية فى القارة ، فإذا سقط هذا الحصن الحصين فكيف يتسنى للبروتستانتية الإنجليزية أن تثبت وأن تقاوم ؟ وفوض شارل عن طيب خاطر ، سير وليم تمبل فى توقيع صلح منفرد مع الهولنديين . وفى ٩ فبراير ١٦٧٤ وقعت معاهدة وستمنستر التى أنهت الحرب الهولندية الثالثة .

٨ – (المؤامرة البابوية)

وأعقبت هذه الأحداث فترة كادت أن تتسم بالصفاء والتعقل . وحيث تسلم شارل من لويس الرابع عشر مبلغا اضافيا قدره ٥٠٠ ألف كراون ، فإنه عطل البرلمان المتعب إلى أجل ، وعاد إلى عشيقاته . ولكن السياسة لم تتوقف . فان شافتسبرى وغيره من زعماء المعارضة أسسوا فى ١٦٧٥ « نادى الوشاح الأخضر » . ومن هذا المركز نشر « حزب الريف » دعايته دفاعا عن البرلمان والبروتستانتية ضد ملك يتآمر مع فرنسا الكاثوليكية ، ووريثه الذى زف علنا إلى زوجة كاثوليكية . وفى ١٦٨٠ أطلق على رجال حزب الريف اسم Whigs ، وعلى المدافعين عن سلطة الملك اسم Tories(*) وبدا للملك شارل أن شافتسبرى « أضعف الرجال وأخبثهم(١٤١) » . وقال عنه بيرنت « أن علمه سطحى هزيل ، وأن غروره سخيف ، وأن

(*) من الواضح ن هويج اختصار لكلمة « هويجامور » ، وهذا اسم عصبة من الاسكتلنديين نشطت فى مقاومة شارل الأول (١٦٤٨) . أما تورى فهى لفظة أيرلندية معناها لص . وقد أطلقها تيتس أوتس على « حزب البلاط » لأول مرة (١٦٨٠)(١٤٠) .

عقليته تافهة(١٤٢) » ولكن جون لوك الذى عاش مع شافتسبرى لمدة خمسة عشر عاما رأى أنه مناضل باسل جرىء عن الحرية المدنية والدينية والفكرية أو الفلسفية. وقال عنه بيرنت أنه يدين بالرهوبية (مذهب طبيعى يقوم على العقل لا على الوحى) وقد يحق لنا أن نرتاب فى ديانته من قوله هو نفسه « ليس للعقلاء من الرجال إلا دين واحد » ، فلما سألته احدى السيدات ، وما هو ، كان جوابه « أن عقلاء الرجال لا يفصحون عنه قط »(١٤٣).

وخفت حدة التوتر الدينى بعض الشيء فى ١٦٧٧ ، حين تزوج وليم أورنج من مارى البروتستانتية كبرى بنات دوق يورك . فإذا ظل جيمس دون عقب ذكر ، فان مارى سوف تخلفه ، فى وراثة العرش ، ومن ثم ترتبط انجلترا بهولنده البروتستانتية بحكم المصاهرة ، ولكن فى ٢٨ أغسطس ١٦٧٨ مثل تيتس أوتس أمام الملك وأعلن أنه أكتشف « مؤامرة بابوية : ذلك أن البابا وملك فرنسا ورئيس أساقفة أرماج واليسوعيون فى انجلترا وأيرلنده وأسبانيا كان يدبرون قتل شارل وخلع أخيه ، وفرض الكاثوليكية فى انجلترا بحد السيف ، وأن ثلاثة آلاف سفاح سيتولون ذبح زعماء البروتستانت فى لندن ، وأن لندن نفسها ـ قلعة البروتستانتية ـ كانوا يدبرون احراقها عن آخرها .

كان أوتس ، وهو آنذاك فى التاسعة والعشرين من العمر ، ابن أحد أنصار تجديد العماد . وكان قد أصبح قسيسا أنجليكانيا ، ولكنه فصل من وظيفته الكنسية لسوء سلوكه(١٤٤) . ثم قبل — أو تظاهر بقبول — التحول إلى الكثلكة . وكان قد درس فى الكليات اليسوعية فى بلد الوليد (أسبانيا) وسانت أومر حيث فصل أيضا . آخر الأمر(١٤٥) . وفى نفس الوقت ، زعم الآن أنه كان قد اطلع على خطط الجزويت السرية لغزو انجلترا. واعترف أنه شهد فى ٢٤ أبريل ١٦٧٨ مؤتمرا يسوعيا فى لندن نوقشت فيه

وسائل قتل الملك. وعدد أسماء خمسة من النبلاء الكاثوليك ، على أنهم مشتركون فى المؤامرة هم : أروندل ، بويس ، بتر ، ستافورد ، بللاسيس. وعندما أضاف أوتس أن بللاسيس هذا كان سيعين قائدا عاما لجيش البابا ، ضحك شارل ساخرا ، حيث كان بللاسيس طريح الفراش بداء النقرس. وخلص للملك إلى أن أوتس لفق القصة كلها أملا فى الحصول على مكافأة ، وصرفه من حضرته .

ولكن المجلس المخصوص ارتأى أنه من الحكمة أن يفترض بعض الصدق فى الاتهامات ، واستدعى أوتس ليمثل أمامه فى ٢٨ سبتمبر. وخشى أوتس أن يزج به السجن ، فقصد إلى قاضى الصلح سيراد موند برى جودفرى وأودعه اعترافا خطيا مقرونا بقسم ، فصل فيه المؤامرة تفصيلا. وأصدر المجلس ، متأثرا بهذه الأدلة ، أوامره بالقبض على عدد من أنصار البابوية الذين تضمنهم اعتراف أوتس . وكان من بينهم أدوارد كولمان الذى كان لعدة سنوات (حتى عزل بأمر من الملك) سكرتير الدوقة يورك. وأحرق كولمان بعض أوراقه قبل القبض عليه ، ولكن الأوراق التى لم يكن لديه متسع من الوقت لاحراقها أوضحت أن كولمان والأب لاشيز قسيس لويس الرابع ، تبادلا من الرسائل مايعبر عن أمل الطرفين (شارل ولويس) فى أن تصبح انجلترا كاثوليكية فى أسرع وقت وفى هذه الرسائل اقترح كولمان أن يرسل إليه « لويس الرابع عشر أموالا ليكسب بها أعضاء البرلمان إلى جانب قضية الكثلكة » ثم أضاف « أن نجاحنا سوف يكون ضربة شديدة للعقيدة البروتستانتية ، لم تتلق مثلها منذ نشأتها .... تلك هى تحول ثلاث ممالك. ومن ثم ، فربما كان فى هذا القضاء التام على هذه الهرطقة الوبيلة[١٤٦] إن اعدام كولمان لمعظم أوراقه حدا بالمجلس إلى الاعتقاد بأن كولمان على علم بالمؤامرة التى وصفها أوتس ، وربما كان شريكا فيها . واستنتج شارل نفسه من تلك الرسائل ، وجود مؤامرة حقيقية بشكل ما .

وفى ١٢ أكتوبر اختفى القاضى جودفرى ، وبعد خمسة أيام وجدت جثته فى أحد الحقول فى الضواحى . وبات من الواضح أنه قتل بيد عملاء مجهولين ، ولأسباب غير معروفة حتى الآن ، ولكن البروتستانت نسبوا القتل إلى الكاثوليك الذين كانوا يأملون فى الحيلولة دون نشر اعترافات أوتس . ويبدو أن هذا الحادث أكد الاتهامات . وفى هذا الجو الذى سادته الريبة وعدم الثقة ، الذى خلقته معاهدة دوفر السرية ، والخوف من اعتلاء جيمس عرش انجلترا ، كان طبيعيا أن تصدق انجلترا البروتستانتية آنذاك كل ماجاء على لسان أوتس من اتهامات ، وأن يعتريها نوبة من الجنون بدامعها أن حماية البروتستانتية تتطلب اعتقال كل من أورد أوتس ذكرهم فى المؤامرة ، إن لم يكن اعدامهم .

وبدأت فترة من حكم الإرهاب امتدت لنحو أربع سنوات . وفر جيمس إلى الأراضى الوطيئة وتسلح أهالى لندن استعدادا لمقاومة أى غزو متوقع . ونصبت المدافع فى هويتهول . واتخذ الحراس أماكنهم فى الأقبية والسراديب تحت مبنى البرلمان بمجلسيه ليحولوا دون « مشروع بارود » آخر لنسف المبنى . وأقر البرلمان قانونا لطرد الكاثوليك من مجلس اللوردات ، وكرم أوتس بوصفه « مخلص الأمه » وكافأه بتخصيص معاش سنوى له قدره ١٢٠٠ جنيه لمدى الحياة ومنحه مسكنا فى قصر هويتهول . وسرعان ما ازدحمت السجون باليسوعيين والكهنه غير المنتسبين إلى رهبنات ، والكاثوليك العلمانيين الذين أورد ذكرهم أوتس أو وليم بدلو الذى ظهر مدعيا العلم بأشياء تؤكد صحه اتهامات أوتس .

وفى ٢٤ نوفمبر وضع أوتس أمام المجلس اتهاما جديدا مروعا ، ذلك أنه كان قد سمع الملكه تبدى موافقتها على قتل زوجها بالسم ، بيد طبيبها الخاص . وهنا أخذه شارل بهذه الكذبه الصارخه . وفقد ثقته فى أقواله كلها ، وأمر بالقبض عليه . ولكن مجلس العموم أمر بالإفراج عنه ، وبالقبض على ثلاثه من خدم الملكه . واقترع على اصدار بيان يطالب

بعزلها . وقصد الملك إلى مجلس اللوردات ودافع عن إخلاص زوجته وولائها، وأقنع اللوردات بالامتناع عن الموافقة على بيان النواب . وفى ٢٧ نوفمبر حوكم كولمان وكاثوليكى علمانى آخر ، وثبتت إدانتهما وأعدما . وفى ١٧ ديسمبر أعدم ستة من اليسوعيين وثلاثة من الكهنة المنتسبين إلى رهبنات . وفى ٥ فبراير ١٦٧٩ شنق ثلاثة رجال بتهمة قتل جودفرى . وثبت فيما بعد براءة هؤلاء الاثنى عشر .

وتزايدت الحملات إقترابا من الملك ، ففى ١٩ ديسمبر ١٦٧٨ تلقى البرلمان من باريس أنباء تفيد أن دانبى كان قد تسلم من لويس الرابع عشر مبالغ طائلة من المال . ورفض الوزير إيضاح أنها كانت إعانات فرنسية للملك . ووجه مجلس العموم الإتهام إلى الوزير . وخشى الملك الحكم على مستشاره الملكى بالاعدام ، فحل ، فى ٢٤ يناير ١٦٧٩ « برلمان الفرسان » الذى كان قد التأم على فترات متقطعة ، لمدة ثمانية عشر عاما ، أى أنه كان أطول من « البرلمان الطويل » .

ولكن برلمان « الهويج » الذى اجتمع فى ٦ مارس ، كان فى عدائه للكاثوليكية وللملك ، أشد إندفاعا وتحمسا من البرلمان السابق . واتهم مجلس العموم دانبى بالخيانة العظمى ، ولكن اللوردات أنقذوه بزجه فى سجن لندن ، حيث قضى فيه ، فى هدوء وقلق ، السنوات الخمس المضطربة التالية . وبناء على نصيحة سير وليم تمبل ، عين شارل مجلسا جديداً من ثلاثين عضوا ، بينهم — رغبة فى تخفيف حدة المعارضة — زعيما حزب الهويج : شافتسبرى وجورج سافيل ، مركيز هاليفاكس وبناء على توصية الملك اختير شافتسبرى رئيسا للمجلس . وسعيا وراء المزيد من تهدئة العاصفة ، عرض الملك على البرلمان تسوية بديلة لاستبعاد أخيه عن العرش : ألا يسمح لأى كاثوليكى بمقعد فى البرلمان أو بتولى منصب قيادى يتطلب الثقة ، وألا يكون للملك حق التعيين فى المناصب الدينية ، وأن يخضع تعيين القضاء لموافقة البرلمان . وان يكون للبرلمان حق الرقابة والاشراف

على القوات البرية والبحرية(١٤٧). ولكن البرلمان أحس بشيء من الارتياب وعدم الثقة فى موافقة جيمس على مثل هذه الاتفاقية. وفى ١١ مايو قدم شافتسبرى نفسه أول مشروع قانون لاستبعاده (جيمس) فى عبارة واضحة جلية لا لبس فيها «إسقاط حق دوق يورك فى وراثة التاج الامبراطورى لهذه المملكة». وكان موضع فخر وشرف للبرلمان أنه فى ٢٦ مايو توسع فى حق التحقيق فى قانونية الاعتقال: بمعنى أنه يمكن الإفراج بكفالة عن أى سجين، فيما عدا المتهمين بالخيانة أو بجناية، وفى مثل هذه الحالة ينبغى أن يحاكم المتهم فى الدورة التالية للمحكمة، وإلا أطلق سراحه. وكان على فرنسا أن تنتظر ١١٠ سنوات حتى تنعم بضمانات مماثلة ضد الاعتقالات التعسفية. وفى ٢٧ مايو خشى الملك إقرار «مشروع قانون الاستبعاد» فحل البرلمان.

ولم يكن حق التحقيق فى قانونية الاعتقال مجديا بالنسبة لأنصار البابوية الذين اتهمهم أوتس، لأنهم حوكموا مع شىء من التباطؤ، حتى إذا أدينوا بالخيانة أعدموا فى سرعة غاضبة، وحشد الكثير منهم إلى المقصلة أو ساحة الإعدام طيلة عام ١٦٧٩، وكانت محاكمتهم سريعة جداً لأن القضاة الذين روعتهم صيحات الجموع المتعطشة للدماء خارج المحكمة، أدانوا كثيرا من المدعى عليهم دون تمحيص الأدلة أو مواجهة الشهود بعضهم ببعض. وهب الشهود المزيفون الذين أغراهم ما أغدق على أوتس من مكافأة، وكأنما هبوا من مرقدهم، وأقسموا بأغلظ الأيمان على ما يقولون: فروى أحدهم أن جيشا من ثلاثين ألفا كان قادما من أسبانيا، وقال آخر أنهم وعدوه بخمسمائة جنيه وبضمه إلى قائمة القديسين إذا هو أطاح برأس الملك، وذكر شاهد مزيف ثالث بأنه كان قد سمع أحد رجال المصارف الكاثوليك الأثرياء يأخذ على نفسه عهد بأن يقوم بمثل هذا العمل(١٤٨). ولم يسمح للمتهم بأى محام أو مستشار قانونى. ولم يبلغ بما نسب إليه إلا فى يوم المحاكمة. وكان يفترض أنه مذنب حتى يستطيع أن يثبت براءته(١٤٩). وحتى تسهل

بالإدانة أحيوا قانونا قديما كان معمولا به فى عهد اليزابث : وهو أن وجود أى كاهن فى إنجلترا جريمة عقوبتها الإعدام . وكانت الجموع المحتشدة حول مبنى المحكمة تصرخ وتولول فى وجوه شهود الدفاع استهجانا ، وتقذفهم بالحجارة ، ويهتفون ويهللون فرحا عند إعلان الحكم بالأدانة(١٥٠) .

فت كل هذا فى عضد شارل ، وكان إمتحانا قاسيا للملك الذى غمرته يوما البهجة والفرح ، والذى رأى الآن كل آماله تنهار ، وسلطاته تنتقص ، وزوجته تعانى الاذلال ، وأخاه يبوء بالاحتقار والازدراء وينحى . وفى ذروة العاصفة خر شارل مريضاً مرضا خطيراً حتى توقعوا موته بين ساعة وأخرى . واستدعى هاليفا كس جيمس من بروكسل ، ولكن زعماء الهويج أمروا الجيش بالحيلولة دون عودته . واتفق شافستبرى وموعوث ولورد رسل ولورد جراى على أنهم — فى حالة وفاة شارل — ، سيتزعمون عصيانا مسلحا لمنع أخيه من إرتقاء العرش(١٥١) ، وتيسر لجيمس أن يدخل البلاد متنكرا ، وشق طريقه إلى جوار الملك . وتظاهر شارل بأنه أبل من مرضه ، وابتسم للمخاوف التى ساورت حتى أعداءه الذين توقعوا موته . والحق أنه لم يبرأ من علته قط .

وبقى العداء للكاثوليك على أشده حتى تخبط أوتس أثناء محاكمة سير جورج ويكمان طبيب الملكة . ففى شهادته أمام المجلس كان قد برأ الطبيب ، ولكنه فى المحاكمة اتهمه بتدبير دس السم للملك . واكتشف هذا التناقض فى الأقوال . قاضى القضاة سكروجز الذى سبق له أن تولى محاكمة الكاثوليك بمنتهى الشدة . وصدر الحكم ببراءة ويكمان ، ومن ثم صارت شهادة أوتس تسمع فى مزيد من التدقيق ، وامتنع الشهود المزيفون الذين كانوا يعززون أقواله ، عن مساندته . وكان إعدام أوليفر بلنكت رئيس أساقفة آرماج الكاثوليكى ، آخر إجراء تم فى حركة الارهاب التى قامت ضد الكاثوليك (١ يوليه ١٦٨١) .

ولما خفت وطأة الرعب والانفعال تأكد لدى بعض عقلاء الرجال أن

أوتس ، عن طريق الريب التي لا تستند إلى أساس من ناحية ومن ناحية أخرى عن الأكاذيب ، عجل بإرسال كثير من الأبرياء إلى الموت قبل الأوان . وانتهوا إلى أنه لم يكن ثمة تدبير لقتل الملك أو ذبح البروتستانت أو إحراق لندن . ولكنهم أحسوا بأنه كانت هناك مؤامرة حقيقية ، كاثوليكية ، وأن لم تكن « بابوية » : تلك هي أن أركان الحكومة دبروا ، أو راودهم الأمل ، بمساعدة أموال (أو جنود إذا لزم الأمر) من فرنسا ، أن يقضوا على عجز الكاثوليك وعدم أهليتهم الشرعية في إنجلترا ، ويحولوا الملك إلى الكاثوليكية ، ويثبتوا حق أخيه الذي تحول فعلا في ارتقاء العرش ، ويستخدموا كل الوسائل لتدعيم الكثلكة دينا للدولة ، وفي النهاية للشعب . والواقع أن كل هذا تضمنته معاهدة دوفر السرية التي وقعت من قبل في ١٦٧٠ وكان شارل قد تراجع عن هذه الإتفاقية . ولكن رغباته لم تتبدل ولم يتخل عنها قط ، وظل مصمما على أن يعتلي أخوه عرش إنجلترا ويكون ملكا عليها .

٩ ـ خاتمة الملهاة

أما شافتسبري فقد وطد العزم على نقيض ما يبتغيه الملك . لقد اعترف كولمان أثناء محاكمته بأن جيمس علم أمر المراسلات المتبادلة بينه وبين الأب لاشيز ، وأقرها(١٥٢) . وأحس شافتسبري بأن ارتقاء جيمس عرش انجلترا لابد أن يحقق المرحلة الأولى من « المؤامرة البابوية » وعرض أن يساند شارل ويقف إلى جانبه إذا هو طلق الملكة العقيم وتزوج من بروتستانتية قد ينجب منها ابنا بروتستانتيا . وأبى شارل أن يدع كاترين دي براجانزا تكرر الدور الذي لعبته كاترين أوف أراجون . فولى شافتسبري وجهه شطر دوق مونموث الإبن غير الشرعي للملك ، الذي لم ينفر قط لأبيه خداعه وابعاده عن العرش بتقصيره في الزواج من أمه . ونشر شافتسبري فكرة أن شارل كان بالفعل قد تزوج من لوسي والتر ، وأن دوق مونموث

هو الوريث الشرعى للعرش . فما كان من شارل إلا أن كذب هذا بإعلانه أنه لم يتزوج قط إلا من كاترين أوف براجانزا ، وإذ وجد أن شافتسبرى خصم عنيد ، فإنه أقصاه عن المجلس المخصوص (١٣ أكتوبر ١٦٧٩) .

وأثناء توالى الأزمات والمحن على هذا النحو كاد شارل أن يبدل من خلقه ومن شخصيته،فودع حياة البهجة والدعة. وباع اسطبلاته ، وانصرف بكليته إلى الإدارة والسياسة ، وحارب أعداءه بتراجع محكم التدبير ، حتى جاوزوا حدودهم فانتهوا إلى الفشل إن الملك فى سنواته الخمس الأخيرة أبدى من قوة العزيمة والمقدرة ما أدهش حتى الأصدقاء. وإذ عاودته الطمأنينة والثقة فقد دعا برلمانه الرابع .

واجتمع البرلمان فى ٢١ أكتوبر ١٦٨٠ . وأقر مجلس العموم فى شهر نوفمبر « مشروع قانون الاستبعاد » الثانى ، وقدم إلى مجلس اللوردات . وهنا تحول هاليفاكس الذى كان يصوت حتى تلك اللحظة إلى جانب « حزب الهويج » تقول تحول الآن إلى جانب الملك ، وبدأ يحظى بلقب « القلب الحول » ويزهو ويختـــال به . إنه كان يبغض جيمس ويرتاب فى الكاثوليكية ، ولكنه اتفق مع شارل فى ضرورة الإبقاء على مبدأ الملكية الوراثية . كما خشى أن يقود شافتسبرى انجلترا إلى حرب أهلية ثانية[١٥٣] . ومن ثم فإنه بفصاحته ومنطقه فى المناقشة الطويلة التى جرت بشأن « مشروع قانون الاستبعاد » أقنع اللوردات برفض المشروع . ورد مجلس العموم على هذا ، برفض الموافقة على أية اعتمادات مالية للملك، وحظر على التجار وأصحاب المصارف . اقراضه أية أموال . وحاكم هاليفاكس وسكروجز وفيسكونت ستافورد وهو أحد اللوردات الخمسة المعتقلين فى سجن لندن . وحكم على ستافورد بالإعدام بناء على شهادة أوتس ، وضرب عنقه فى ٧ ديسمبر . وفض الملك البرلمان فى ١٨ يناير ١٦٨١ .

وبدلا من أن يضحى شارل بأخيه بسبب حاجته إلى المال، اعتزم شارل أن يحول الحكومة بأن يصبح من جديد أسيرا للملك الفرنسى لويس الرابع

عشر . وارتضى أن ينظر فى شىء من التجلد ورباطة الجأش إلى سياسة فرنسا العدوانية ، مقابل ٧٠٠ ألف جنيه(١٥٤) — وهو مبلغ يغنيه لمدة سنوات عن إهانات البرلمان واعتداداته . فلما أحس بالقوة دعا برلمانه الخامس . ولكى يحرمه من تأييد جمهور لندن وقوات الطوارىء فيها ، فإنه ، أى الملك أمر باجتماعه فى أكسفورد . وهناك إلتقى الجمعان مدججين بالسلاح : شارل مع عدد كبير من حرسه ، وزعماء الهويج مع أتباعهم حاملين السيوف والمسدسات رافعين أعلاماً كتب عليها « لا بابوية ولا عبودية » وأقر مجلس العموم فى الحال « مشروع قانون الاستبعاد » الثالث ، ولكن قبل أن يصل المشروع إلى مجلس اللوردات حل شارل البرلمان (٢٨ مارس ١٦٨١) .

وتوقع كثير من الناس أن يلجأ شافتسبرى الآن إلى الحرب الأهلية . أما الرأى العام الذى استرجع فى ذاكرته أحداث ١٦٤٢ — ١٦٦٠ فقد تحول عنه وانحاز إلى صف الملك . ودافع رجال الكنيسة الأنجليكانية دفاعا مجيدا عن حق جيمس الكاثوليكى فى ارتقاء العرش . وعندما حاول شافتسبرى أن يعيد تنظيم صفوف النواب المشتتين فى ميثاق ثورى(١٥٥) ، أمر شارل باعتقاله ، ولكن هيئة المحلفين برأته (٢٤ نوفبر) وعلى الرغم من أنه كان آنذاك مريضا بدرجة لا يكاد معها يقوى على المشى ، فإنه انضم إلى دوق مونموث فى ثورة علنية(١٥٦) . وأمر الملك باعتقالهما كليهما وهرب شافتسبرى من سجن لندن ، وفر إلى هولنده ، وهناك وافته منيته (٢١ يناير ١٦٨٣) بعد أن أنهكته الأحداث ، ولكنه خلف وراءه صديقه لوك ، ليتابع فى مجال الفلسفة ، المعركة التى لم يكتب لها لبعض الوقت التوفيق فى ميدان السياسة .

وصفح شارل عن مونموث ، ولكنه لم يغتفر قط للمحلفين فى لندن تبرئتهم لشافتسبرى . والآن وقد تحول الملك النشوان إلى شخص آخر ، وكان متطرفا فى تحوله هذا ، فإنه عقد العزم على تحطيم استقلال المدن التى ترعرت فيها فكرة الهويج (الأحرار) بل الفكرة الثورية ، فأمر

بمراجعة المواثيق والعهود والقوانين التى هيأت للأجهزة البلدية الخروج على الارادة الملكية ، ووجد بالفعل فى هذه بعض النقص والخلل من الوجهة التشريعية ، فأعلن إلغاءها جميعا ، وصدرت عهود وقوانين جديده تنص على أن يكون للملك حق الاعتراض وحق عزل كل الموظفين الذين ينتخبون لهذه الهيئات البلدية (١٦٨٣) . وخضعت الآن حرية الكلام وحرية الصحافة لقيود جديدة ، وبدأت موجة اضطهاد المنشقين — لا الكاثوليك : لأن معظم المنشقين كانوا من الأحرار (الهويج) . وفى اسكتلنده قاد جيمس حملة التعذيب بنفسه ، وبدا أن انتصار حقوق الملك على اصلاحيات البرلمان بات انتصارا ساحقا كاملا ، وأن انجازات الثورة الكبرى كان واضحا أنه ينبغى التضحية بها فى نكسة أو رد فعل تؤيده أمة تخشى تجدد الحرب الأهلية . وعكس هاليفاكس شعور البلاد حين تخلى عن شافتسبرى ، وانحاز بحكمته المعتدلة البعيدة عن التطرف إلى جانب الملك ليكون فى خدمته (١٦٨٢ — ١٦٨٥) فكان حامل الأختام الملكية .

وقام أتباع شافتسبرى بمحاولة أخيرة . ففى يناير ١٦٨٧ ، اجتمع دوق مونموث وإرل اسكس وإرل كارليل ، ووليم لورد رسل والجرنون سدنى فى دار جون همدن (حفيد بطل الحرب الأهلية) ورسموا الخطط لتطويق جيمس والتغلب عليه ، وقتل شارل إذا لزم الأمر . وراود سدنى أمل التقدم إلى خطوة أبعد ، وهى إعادة إقامة الجمهورية الانجليزية . وكان حفيد أحد أخوة سير فيليب سدنى « رئيس الفروسية » ، وحارب فى صف البرلمان أثناء الحرب الأهلية وجرح فى مارستن مور ، وعين عضوا فى اللجنة التى شكلت المحاكمة شارل الأول ، ولكنه رفض العمل بها على إعتبار أن الشعب لم يمنح اللجنة سلطة محاكمة الملك . وألقى نفسه فى القارة حين عادت الملكية ، فظل بها ، مشغولا بدراساته وأبحاثه ، وتدبير المؤامرات ضد شارل الثانى . وفى الحرب الهولندية الثانية حرض الهولنديين على غزو إنجلترا ، وعرض خدماته على الحكومة الفرنسية ليشعل نار الثورة فى إنجلترا إذا أمدته الحكومة الفرنسية بمائة

ألف كروان(١٥٧) . وفى ١٦٧٧ سمح له شارل بالعودة ليشهد وفاة والده ، وبقى فى إنجلترا وانضم إلى « حزب الريف » (الأحرار ، الهويج) . وفى كتابه « مقالات عن الحكومة » (الذى كتب ١٦٨١ ولم ينشر إلا فى ١٦٨٨) دافع سدنى عن المبادىء شبه الجمهورية ، واستبق لوك فى مهاجمته دفاع فلمر عن حقوق الملوك الإلهية ، وأكد حق الشعب فى محاكمة الملوك وخلعهم . ومن الواضح أن سدنى ورسل ، كليهما تسلما أموالا من الحكومـــة الفرنسية التى كان يهمها أن يظل شارل مشغولا بمشاكله الداخلية(١٥٨) .

وصح عزم « مجلس الستة » على أسر الملك . وكان معروفا أنه سيشهد سباق الخيل فى شهر مارس فى نيوماركت . وكان لابد له ، لدى عودته إلى لندن من أن يمر « براى هاوس » فى هودزدون فى شمال المدينة ، فتقرر أن تسد عربة محملة بالحشائش الجافة الطريق فى هذا المكان ، ومن ثم يمكن أسر الملك وربمـا أسر أخيه معه كذلك ، حيين أو ميتين . ولكن فى ٢٢ مارس شب حريق فى ميدان السباق ، وانتهت المسابقات قبل موعدها المقرر بأسبوع ، وعاد الملك سالما إلى لندن قبل أن يعد المتآمرون عدتهم . وخشى أحدهم افتضاح الأمر وراودة الأمل فى العفو ، فأفضى بسر المؤامرة إلى الحكومة (١٢ يونية) . وقبض على كارليل فأكد الاعتراف وعفوا عنه . واحتج مونموث بأنه برىء ، وعلى الرغم من أن شارل علم علم اليقين أن ابنه كاذب فيما يقول ، فإنه ألغى أمر إعتقاله . أما رسل فحوكم وثبتت إدانته وأعدم (٢١ يوليه ١٦٨٣) . وانتحر اسكس فى السجن . وعندئذ قال الملك « ما كان له أن يقنط من الرحمة ، فإنى مدين له بحياة(١٥٩) » فقد مات أبوه من قبل من أجل شارل الأول . وشنق عدد من صغار المشتركين فى « مؤامرة راى هاوس » وأخذ سدنى بجرم لم يقم عليه دليل كاف من الناحية القانونية ، ودافع عن نفسه دفاعا مجيدا ، وقابل الموت بصدر رحب (٧ ديسمبر) . وكان شعاره « يدى هذه هى عدوة الطغاة » . ولكنه كان قد اختار سيفا

ذا حدين . ونطق وهو على المشنقة بكلمات تستحق الذكر : « إن الله ترك للشعوب حرية إقامة الحكومات كما تشاء(١٦٠) » . ورفض أية طقوس دينية قائلا أنه فى سلام مع الله فعلا .

لقد انتصر شارل ولكنه كان مشرفا على النهاية، ونعم ، مع جهد مضن، بشعبية جديدة ، وكانت إقتصاديات إنجلترا قد ازدهرت فى عهده ، أما الآن، والبلاد تتطلع إلى هدوء سياسى ، فقد ركنت إلى ملك كان يمثل بقاء الأمة ونظامها ، ولو كان معنى هـــذا ، لفترة من الزمن « ملكا كاثوليكيا » . وغفرت إنجلترا لشارل أخطاءه ، حين رأته ينهار ويذبل قبل الأوان . واتفقت معه ، بعض الشيء ، على أن الحكومة الإنتخابية ـ لا الملكية الوراثية ـ مدعاة للاضطراب والهرج اللذين يصاحبان انتخاب الحاكم عندما يحين موعده . واحترمت فيه اخلاصه لأخيه ، حتى فى الوقت الذى حزنت فيه لنتيجة هذا الإخلاص ، ورأت جيمس منتصرا ، ورأته ثانية قائدا أعلى للأسطول ، يتعقب أعداءه ليثأر منهم . وفى يناير ١٦٨٥ رفع جيمس دعوى مدنية ضد تيتس أوتس يطالبه فيها بتعويض قدره مائة ألف جنيه . وكسب جيمس القضية . ولما كان أوتس عاجزاً عن الدفع فقد أودع السجن . وقال شارل فى حزن بالغ « لست أدرى ماذا سيفعل أخى عندما ينتهى الأجل وأفارق الحياة . أخشى ما أخشاه أنه عندما يأتى ليضع تاج الملك على رأسه ، أن يرغم على العودة من حيث أتى . على أنى سأعنى العناية كلها بأن أترك له مملكة يسودها السلام ، وكل أملى أن يحتفظ لها بهذا السلام لأمد طويل . ولكن هذا يثير كل مخاوفى ، ولست أؤمل فيه كثيرا ، بل لا يكاد أمل يدور بخلدى أنه سيتحقق(١٦١) » . ولما اعترض جيمس على تجول شارل حول لندن راكبا عربته دون حرس ، أمره شارل أن يهدىء من روعة : « لن يقتلنى أحد ليجلسك أنت على العرش(١٦٢) » .

ولا بد أنه اعترض على الأطباء . فإنه فى ٢ فبراير ١٦٨٥ أصيب بحالة تشنج واضطراب شديدة ، شوهت وجهه ، وجعلت فمه ، يرغى ، وأجرى

له دكتور كنج عملية فصد بشق أحد الأوردة . وكان لهذا نتيجة طيبة . ولكن مرافقى الملك استدعوا ثمانية عشر طبيبا آخرين ليشخصوا الداء ويصفوا الدواء . وطيلة خمسة أيام فى عذاب أليم ، استسلم الملك للحملة التى جردوها عليه مجتمعين . فبزلوا أوردته ، ووضعوا كئوس الحجام إلى كتفيه . وقصوا شعره ليزيلوا البثور والقروح من جلدة رأسه ، ووضعوا على باطن قدميه لصوقا من القارووث الحـــام . وقال مؤرخ طبيب « ولكى يزيلوا النزوات من مخه نفخوا فى أعلى خياشيمه الخربق (وهو عشب جميل الزهر) ثم جعلوه يعطس . ولكى يتقيأ صبوا فى حلقة الأنتيمون وسلفات الزنك . ولتنظيف أمعائه أعطوه مطهرات قوية ، وعددا من الحقن الشرجية فى تعاقب سريع(١٦٣) » .

ونادى الملك الذى يحتضر زوجته التى عاشت فى شقاء عقيم ، ولم يكن يدرك أنها جاثية فى أسفل الفراش تدلك قدميه . وفى ٤ فبراير قدم له بعض الأساقفة الأسرار الدينية الأخيرة وفقا للطقوس الأنجليكانية ، ولكنه رجاهم أن يكفوا ، ولما سأله أخوه ، هل يريد كاهنا كاثوليكيا أجاب « نعم ، نعم ، من كل قلبي(١٦٤) » فأرسلوا فى طلب الأب جون هدلزتون الذى كان قد أنقذ حياة شارل فى معركة وورسيستر ، كما أن شارل كان قد أنقذ حياة الأب جون أيام « الارهاب البابوى » وأعلن شارل إعتناقه المذهب الكاثوليكى ، واعترف بذنوبه وخطاياه ، وعفا عن أعدائه ، وطلب المغفرة من الجميع . ومسحوه مسحا تاما بالزيت المقدس ، وتلقى الأسرار المقدسة . وطلب الصفح والعفو ، بخاصة من زوجته ، ولكنه كذلك أوصى أخاه خيرا بالسيدة لويز كيرووال وأبنائه (منها) « لاتترك نللى المسكينة تتضور جوعا(١٦٥) » واعتذر لمن حوله عن أنه قضى مثل هذا الوقت الطويل بشكل غير معقول ، وهو يعانى سكرات الموت(١٦٦) .

وعند ظهر اليوم السادس من فبراير ، كان دوق يورك ملكا .

الفصل العاشر

الثورة الجليلة ١٦٨٥ - ١٧١٤

١ — الملك الكاثوليكى : ١٦٨٥ — ١٦٨٨

من ذا الذى كان يستطيع أن يتخيل حين يقع بصره على الصورة(١) التى رسمها فانديك فى اللونين الأزرق والذهبى لدوق يورك وهو فى الثانية من عمره ، أن هذا الطفل البرىء الحيى سيقضى قضاء مبرما على أسرة ستيوارت ، ويكمل آخر الأمر ، فى « الثورة الجليلة » انتقال السلطة من الملك إلى البرلمان ، وهو ما كان أبوه قد بدأه بشكل مخز من قبل ؟ ولكن فى الصورة التى رسمها ريلى(٢) للشخص عينه تحت اسم جيمس الثانى ، نجد أن الحياء قد انقلب إلى ذهول وارتباك . وأن الحساسية تغيرت إلى عناد وتصلب ، وأن البراءة تحولت بين أحضان العشيقات المذعنات الطيعات إلى لاهوت جامد لاينثنى . فما كان إلا أن حدد هذا الخلق لصاحبه مصيرا قاجماً ، وفيه ، وكما يحدث فى كل التراجيديات أو المآسى الكبرى ، كان كل فريق يناضل من أجل ما يبدو له هو أنه حق ، ومن ثم يستحق منا بعض العطف .

لقد أوردنا من قبل ذكر بعض فضائل جيمس الثانى ، فكم من مرة عرض نفسه لخطر الموت فى عمله فى البحرية . ووازن الناس بينه وبين أخيه ، موازنة مرضية ، فى النشاط الحكومى والإدارى ، والاعتدال فى الإنفاق ، وفى ارتباطه بكلمته . أنه استمسك بما أوصاه به شارل وهو يحتضر ، من العناية بأمر نل جوين ، فسدد ديونها ، وخصص لها ضيعة تكفل لها رغد العيش . وبعد ارتقائه العرش ظل لبعض الوقت على علاقته مع آخر عشيقاته كاترين سدلى . ولكنه بناء على اعتراضات الأب بتر أجزل لها العطاء على

خدماتها وأقنعها بمغادرة انجلترا ، لأنه اعترف بأنه إذا وقع بصره عليها ثانية فإنه لا يملك فكاكا من سلطانها عليه(٣) . إن الأسقف بيرنت الذي ساعد على خلعه ، حكم عليه بأنه « صريح مخلص بطبيعته ، ولو أنه في بعض الأحيان متلهف محب للانتقام ، صديق ثابت على العهد ، إلى أن أفسدت عقيدته الدينية مبادئه وميوله الأولى(٤) » وكان مقتصدا ينمي ثروته بسرعة ، ولم يعمد قط إلى غش العملة ، كما كان رحيما بالشعب في موضوع الضرائب(٥) . إن ماكولي بعد أن دون ثمانمائة صحفية عن حكم جيمس الذي لم يدم لأكثر من ثلاثة أعوام ، انتهى إلى « أنه تحلى بمناقب كثيرة ، إلى حد أنه لو كان بروتستانتيا ، لا بل كاثوليكيا معتدلا ، لكان عصره عصرا زاهرا مجيدا(٦) » .

وتفاقمت أخطاؤه بنمو سلطانه . وكان مغرورا متعجرفا حتى قبل اعتلائه العرش ، ينظر إلى معظم الناس باحتقار ، لا يفتح قلبه إلا لقلة منهم ، وتمسك تمسكا حرفيا بنظرية أبيه ، وهي أنه ينبغي أن يكون للملك مطلق السلطة ، ولم يكن له المزاج الواقعي الذي كان لأخيه والذي أدرك به الحدود العملية لهذه السلطة المطلقة . ويجدر بنا أن نقدر حق التقدير غيرته الدينية ، ورغبته في منح إخوانه الكاثوليك في انجلترا حرية العبادة والمساواة في الحقوق السياسية . وكان مخلصا لأمه وأخته الكاثوليكيتين ، وكان طوال الخمسة عشر عاما السابقة محاطا بالكاثوليك في بيته ، وكان موضع استغراب عنده أن الديانة التي أنجبت مثل هذا العدد الكبير من أفاضل الرجال وفضليات النساء ، يضع الانجليز أمامها العراقيل ويبغضونها ويحدون من انتشارها . ولم يشاطر البروتستانت ما تناقلوه من ذكريات حية في أذهانهم عن مؤامرة البارود ، أو خوفهم من أن يولى عليهم ملك كاثوليكي ، يميل عاجلا أو آجلا ويقتنع ، بانتهاج سياسة ترضى البابا الايطالي . ان انجلترا البروتستانتية كانت تشعر بأن أي ملك كاثوليكي لابد أن يعرض للخطر استقلالها الديني والفكري والسياسي .

إن تصرفات جيمس الأولى بعد ارتقائه العرش خفضت من هذه المخاوف شيئا قليلا : أنه عين هاليفاكس رئيسا لمجلس الملك ، وسندرلند وزيرا ، وهنرى هايد (أرل كلارندن الثانى) حاملا لأختام الملك ، وكل هؤلاء من البروتستانت . وفى أول خطاب له فى هذا المجلس وعد بالابقاء على نظم الكنيسة والدولة ، وعبر عن تقديره لتأييد كنيسة انجلترا لاعتلائه العرش ، ووعد بأن يوليها عناية خاصة وعند تتويجه أدى اليمين المألوفة لدى ملوك انجلترا الحديثين ، بالمحافظة على الكنيسة الرسمية وحمايتها . وحظى الملك جيمس الثانى لمدة شهور بشعبية لم تكن متوقعة .

وأول اجراء مؤيد للكاثوليكية اتخذه جيمس ، لم يكن يحمل عدوانا مباشرا على البروتستانت . أنه أمر بالإفراج عن كل المسجونين بسبب رفضهم تأدية قسم الولاء والسيادة . وبهذا أفرج عن آلاف من الكاثوليك ، بل أخلى معهم سبيل ألف ومائتين من الكويكرز وكثير من المنشقين غيرهم . ومنع إقامة الدعوى بعد ذلك فى المسائل الدينية . وأطلق سراح دانبى واللوردات الكاثوليك الذين أودعوا السجن بناء على اتهامات تيتس أوتس . وحوكم أوتس من جديد وأدين بتهمة الأيمان الكاذبة التى أدت إلى إعدام عدد من الأبرياء ، وأعربت المحكمة عن أسفها لأنها لم تستطع الحكم عليه بالإعدام ، وحكمت عليه بغرامة قدرها ألفان من الماركات ، وأن يربط خلف عربة ويجلد بالسياط مرتين علانية ، الأولى من أولدجيت إلى نيوجيت ، والمرة الثانية بعد الأولى بيومين ، من نيوجيت إلى تايبيرن ، وأن يوضع فى آلة التعذيب ، المشهرة ، خمس مرات سنويا طيلة بقائه على قيد الحياة . وعاش أوتس بعد هذا التعذيب ، وأعيد إلى السجن (مايو ١٦٨٥) وطلبوا إلى الملك اعفاءه من الجلد للمرة الثانية ، ولكنه رفض .

وتحطمت الهدنة المزعزعة بين الشيع الدينية بثورة مزدوجة . ذلك أنه فى مايو نزل أرشيبالد كامبل ، إرل أرجيل التاسع ، فى اسكتلنده ، وفى

يونية رسا جيمس دوق مونموث على الشاطىء الجنوبى الغربى لانجلترا ، فى مسعى مشترك لخلع الملك الكاثوليكى . وأصدر مونموث بلاغا وصم فيه الملك جيمس بأنه غاصب طاغية سفاح ، كما اتهمه بإحراق لندن والمؤامرة البابوية ، ودس السم لشارل الثانى ، وتعهد الغزاة ألا يضعوا السلاح أو يكفوا عن القتال حتى يخلصوا البروتستانتية وحريات الشعب والبرلمان . ومنى أرجيل بالهزيمة فى ١٧ يونية ، وأعدم فى ٣٠ يونيه ، وبذلك أخفق الجناح الشمالى للثورة . ولكن أهالى دورستشير — وهم بيوريتانيون شديدو التمسك بمذهبهم — رحبوا بمونموث وحيوه مخلصا ومنقذا لهم . وانضم تحت لوائه عدد كبير جدا من الناس ، إلى حد أنه فى ثقة وجلال ومهابة ، اتخذ لقب جيمس الثانى ملك انجلترا . ولم يقدم له الأشراف والطبقات الغنية أى عون أو تأييد . وهزم جيشه المختل النظام على يد القوات الملكية فى سدجمور (٦ يوليه ١٦٨٥) وهذا آخر حرب جرى فيها القتال على تراب انجلترا قبل الحرب العالمية . ولاذ مونموث بالهرب ، وتوسل إلى الملك أن يعفو عنه فأبى ، وضرب عنقه .

وتعقب جيش الملك ، بقيادة برس كيرك ، فلول الثوار ، وشنق الأسرى دون محاكمة . وشكل جيمس لجنة يرأسها قاضى القضاة جفريز ، لتذهب إلى المنطقة الغربية لتحاكم الأشخاص المتهمين بالإنضمام إلى الثورة أو التحريض عليها . وسمح للمحلفين بالاشتراك فى المحاكمات ، باعتبار أن هذا من حق المتهمين ، ولكن جفريز قذف فى قلوب المحلفين الرعب ، حتى أن قلة قليلة من المتهمين هى التى أصابت شيئا من الرحمة لدى هذه « المحكمة الدمويه » (سبتمبر ١٦٨٥)(*) . وشنق نحو أربعمائه ، وحكم على ثمانمائه بالعمل الإجبارى فى مزارع جزر الهند الغربيه(٢) . وكانت اليزابث فى ١٥٦٩ وكرومول فى ١٦٤٨ ، قد اتهما قبل ذلك بمثل هذه الأعمال الوحشيه ،

(*) Assizes الجلسات الدورية للمحاكم العليا فى كل مقاطعة

ولكن جفريز تفوق عليهما فى إرهاب المتهمين والحلفين والتجهم والعبوس ، وصب اللعنات على ضحاياه ، والتحديق فى وجوههم فى كثير من الخبث ، والإدانة لمجرد الشك ، إلا إذا ساعدت رشوة مجزية على إقناعه بالبراءة[٨] . وبذل جيمس جهودا متواضعة ليضع حدا للوحشية ، ولكن ما أن تمت الإبادة الكاملة وخمدت النار المحرقة حتى رفع جفريز إلى مرتبة النبلاء ، وعينه رئيسا لمجلس اللوردات (٦ سبتمبر ١٦٨٦) .

وأسهم هذا الاجراء الانتقامى فى إبعاد النبلاء عن الملك . وعندما طلب من البرلمان إلغاء « قانون الاختيار » (الذى يقضى باقصاء الكاثوليك عن الوظائف ومقاعد البرلمان) وتعديل قانون « حق التحقيق فى قانونية الاعتقال » وإنشاء جيش دائم تحت امر الملك ، لم يستجب البرلمان لشىء من هذا . فعطله جيمس (٢٠ نوفبر) وأخذ يعين الكاثوليك فى وظائف الدولة . ولما اعترض هاليفاكس على امتهان البرلمان على هذا النحو ، عزله جيمس من المجلس . وأحل محله ، رئيسا للمجلس ، سندرلند الذى أعلن تحوله إلى الكاثوليكية على الفور (١٦٨٧) . وحين امتدح جيمس إلغاء لويس الرابع لرسوم نانت[٩] استنتجت إنجلترا أنه لو تمتع جيمس بمثل السلطة المطلقة التى يتمتع بها البوربون ، لما تردد فى إتخاذ خطوات مماثلة ضد البروتستانت فى إنجلترا ولم يخف جيمس إعتقاده بأن سلطته الآن باتت مطلقه بالفعل ، وأن لويس الرابع عشر فى نظره هو المثل الأعلى للملك . وقبل الاعانات من لويس لفترة من الزمن ، ولكنه أبى عليه أن يملى سياسة الحكومة الانجليزية . فتوقفت الاعانات .

وكان لويس أكثر تعقلا فيما يتعلق بانجلترا منه بالنسبه لبلاده . وعلى حين أنه أضعف فرنسا باضطهاده الهيجونوت ، نراه يحذر جيمس من مغبه التسرع فى تحويل إنجلترا إلى الكاثوليكيه . كما أن البابا إنوسنت الحادى عشر زود جيمس بمثل هذه النصيحه . وعندما أرسل إليه الملك الانجليزى يعده بقرب إنضواء إنجلترا تحت راية الكنيسه الكاثوليكيه فى رومه[١٠] ،

نصحه البابا بأن يقنــع بالحصول على التسامح الدينى للـكاثوليك الانجليز ، كذ حذر هؤلاء أن يــكفوا عن الأطماع السياسية ، ووجه رئيس الجزويت لتعنيف الأب بترولومه على القيام بمثل هذا الدور الخطير فى الحـكومة(١١). إن البابا أنوسنت لم يخفف من غيرته الـكاثوليكية ، ولـكنه كان يخشى قوة لويس الرابــع عشر التى تبتغى التطويق والسيطرة ، كما كان يأمل فى إمــكان تحويل إنجلترا من مجرد تابع أو خادم ذليل للسياسة الفرنسية ومشروعاتها إلى قوة متوازنة ضدها . وأوفد البابا مبعوثا بابويا — للمرة الأولى منذ عهد مارى تيودور — ليوضح لجيمس أن أى تصدع فى العلاقة بين البرلمان والملك لابد أن يضر بالـكنيسة الـكاثوليكية(١٢) .

ولم يستفد جيمس من هذا النصح . إنه أحس ، وكان فى الثانية والخمسين حين اعتلى العرش ، أنه قد لايتيسر له فسحة من الأجل لتنفيذ التغييرات الدينية التى ينشدها والتى يجيش بها صدره ، ولم يؤمل كثيرا فى أن ينجب ابنا ، وهنا قد تخلفه ابنته البروتستانتية ، وتقلب عمله رأسا على عقب ، إلا إذا أقيم هذا العمل على أساس وطيد راسخ قبل موته . وطغت آراء الأب بتر والملـكة وسلطانهما على كل نصح بالتروى والتريث . ولم يــكتف الملك بالذهاب إلى القداس ، تحفه الجلالة والمهابة الملـكية ، بل طلب كـذلك إلى مستشاريه أن يلحقوا به لحضور القداس . وتــكاثر الأساقفة حول الحاشية ، وعين الـكاثوليك فى المناصب العسكرية ، وحرض القضاة (الذين كان له حق تعيينهم وعزلهم) على توكيد حقه فى أعفاء هؤلاء المعينين من العقوبات التى فرضها عليهم « قانون الاختبار » . وجند ، تحت أمرة ضباط أغلبهم من الـكاثوليك ، جيشا قوامه ثلاثة عشر ألف رجل لا يخضعون إلا لأوامره هو ، وواضح أن مثل هذا الجيش كان يهدد استقلال البرلمان . وعطل العمل بالقانون الذى يفرض العقوبات على حضور العبادة الـكاثوليكية علانية . وأصدر فى يونية ١٦٨٦ مرسوما يحرم على رجال الدين القاء عظات فى الخلافات المذهبيه . ولمـا خطب الدكتور جون شارب فى « دوافع

المرتدين » أمر جيمس بوصفه الرئيس الشرعى للكنيسه الإنجليزية ، هنرى كمبتون أسقف لندن ، بفصل شارب مؤقتا من سلك رجال الكنيسه الأنجليكانيه ، فرفض كمبتون . فعين جيمس ، متجاهلا قانونا صدر فى ١٦٧٣ ، « محكمه كنسية » جديدة ، سيطر عليها سندرلند وجفريز ، وحاكمت كمبتون بتهمه شق عصا الطاعه على التاج ، وعزلته من وظيفته . وبدأت الآن الكنيسه الأنجليكانيه ، التى كانت قد التزمت من قبل بالطاعة المطلقه ، نقول بدأت تقلب للملك ظهر المجن .

أن الملك جيمس كان يأمل فى كسب الكنيسه الأنجليكانيه إلى جانب المصالحه والتراضى مع رومه ، ولكن تصرفه المتهور قضى الآن على هذه السياسه . وبدلا من ذلك انتهج سياسه التوحيد بين الكاثوليك والمنشقين ضد الكنيسه الرسميه . ان وليم بن الذى وجد طريقه إلى قلب الملك وأحرز ثقته ، نصحه بأنه يستطيع أن يظفر بالتأييد الحار من جانب كل البروتستانت الانجليز ، فيما عدا الأنجليكانيين إذا هو بجرة قلم ألغى القوانين التى تحرم العبادة العلنيه على فرق المنشقين وفى ٤ أغسطس ١٦٨٧ أصدر جيمس أول « إعلان للتسامح » فى عهده . ومهما تكن دوافع الملك ، فإن هذه الوثيقه تحتل مكانا فى تاريخ التسامح الدينى . إنه ألغى كل قوانين العقوبات فيما يتعلق بالديانة ، وأبطل كل الاختبارات الدينيه ، ومنح الحرية الدينيه للجميع ، وحظر التدخل فى شئون الاجتماعات الدينيه المسالمه . وأخلى سبيل كل المسجونين بسبب الخلافات الدينيه • أن هذا الاعلان ذهب إلى أبعد مما ذهبت إليه إعلانات التسامح فى عهد شارل الثانى ، التى كانت قد أبقت على الاختبار الدينى لمن يتولون الوظائف ، وسمحت بالعبادة الكاثوليكيه داخل الدور الخاصه فقط • وأكد للكنيسه الرسميه أن الملك سيواصل حمايته لها فى كل حقوقها القانونيه • ومما يدعو إلى الأسى والأسف أن هذا الاجراء قدر له أن يكون إعلانا ضمنيا للحرب على البرلمان ، الذى كان قد سن من قبل كل القيود وعدم الأهليه التى ألغيت الآن • ولو سلم

البرلمان بسلطة الملك فى إلغاء التشريعات البرلمانية لكان لزاما أن تنشب الحرب الأهلية من جديد .

ودخل هاليفا كس الذى كان فى هاتيك الأيام ألمع عقلية فى انجلترا ، المعركة بكتيب لايحمل اسم المؤلف بعنوان « رسالة إلى منشق » (أغسطس ١٦٨٧) — « أكثر النشرات توفيقا فى هـذا العصر[١٣] » حث فيه البروتستانت ان يكونوا على يقين من أن هذا التسامح الذى قدم إليهم الآن قد صدر عن ملك موال لكنيسة تدعى العصمة من الخطأ ، وتنكر التسامح صراحة . وهل يمكن أن يكون ثمة انسجام دائم بين حرية الفكر والتعبير وبين كنيسة لاتخطىء ؟ وكيف يطمئن المخالفون إلى أصدقائهم الجدد الذين دمغوهم بالأمس القريب بأنهم هراطقة ؟ « كنتم بالأمس أبناء الشيطان ، وأنتم اليوم ملائكة النور[١٤] » . ومن سوء الحظ أن الكنيسة الأنجليكانية كانت قد اتفقت مع رومه فيما يتعلق بأبناء الشيطان ، وأنها فى السنوات السبع والعشرين الأخيرة أخضعت مخالفيها لألوان من الاضطهاد والتعذيب تمنعهم من قبول الحرية حتى على أيد كاثوليكية . وأسرع رجال الدين الأنجليكانيون إلى التماس التصالح مع المشيخيين والبيوريتانيين والكويكرز ، وتوسلوا إلى هؤلاء جميعا أن يرفضوا التسامح الراهن ، ووعدوهم على الفور بتسامح يحظى بموافقة كل من البرلمان والكنيسة الرسمية . وبعث بعض المخالفين بخطابات شكر إلى الملك ، ولكن الأغلبية نأت بجانبها فى تحفظ . وعندما حانت ساعة الفصل نبذ الجميع الملك .

وتابع جيمس خطواته . لقد تطلبت جامعات انجلترا لمدة سنوات عدة من أساتذتها وطلبتها الالتزام بمذهب الكنيسة الأنجليكانية ، ولم يستثن من ذلك إلا منح درجة الطالب لوثرى ، ومنح درجة فخرية لدبلوماسى مسلم . على أن القساوسة الأنجليكانيين رأوا فى أكسفورد وكمبردج هيئات وظيفتها الرئيسية اعداد الرجال لقبول المذهب الأنجليكانى ، وتقرر ألا يلتحق بهما أى كاثوليكى . ورغبة فى كسر هذا القيد أرسل جيمس ، إلى نائب رئيس

جامعة كمبردج رسالة يلزمه فيها بأن يستثنى من الأنجليكانى راهبا بندكتيا يسعى للحصول على درجة الأستاذية . ورفض نائب رئيس الجامعة فقصل بأمر من لجنة المحكمة الكنسية . فأرسلت الجامعه وفدا من بين أعضائه ايزاك نيوتن ، ليشرح للملك موقف الجامعه . ولكن الراهب حل المشكلة بالانسحاب (١٦٨٧) . وفى نفس العام رشح الملك لرياسه كلية مجدلن فى أكسفورد ، رجلا لايتمتع بغزارة العلم ، ولكنه ذو ميول كاثوليكيه ، فرفض الزملاء انتخابه ، وبعد نزاع طويل اقترح الملك مرشحا ليس عليه إلا اعتراض أيسر من سابقه ، وهو باركر أسقف أكسفورد الأنجليكانى ، ولكن الزملاء الذين يشكلون الهيئه الانتخابيه رفضوه كذلك ، ففصلوا بأمر من الملك ، وعين الأسقف باركر قسرا .

واشتدت وطأة الاستياء عندما ارتمى الملك أكثر فأكثر فى أحضان مستشاريه الكاثوليك . وكان إعجابه بالأب بتر شديدا إلى حد الإلحاف على البابا برسمه أسقفا ، بل كاردينالا ، ولكن أنوسنت أبى . وفى يوليه ١٦٨٧ عين جيمس الجزويتى القدير ، ولكن المستهتر ، عضوا فى المجلس المخصوص (الملكى) ، فاحتج كثير من الكاثوليك الإنجليز بأن هذا تصرف طائش ، ولكن جيمس كان فى عجلة من أمره ليصل بالنضال إلى غايته . وكان فى هذا المجلس الآن سته من الكاثوليك ، مكنت لهم حظوتهم لدى الملك من السيطرة والغلبه(١٥) . وفى ١٦٨٨ عين أربعه من الأساقفه الكاثوليك لإدارة شئون الكنيسه الكاثوليكيه فى انجلترا ، وخص جيمس لكل منهم راتبا سنويا قدره ألف جنيه ، والواقع أن الكاثوليك شاركوا الآن الأنجليكانيين فى أنه أصبح لكل من الفريقين كنيسه تساندها وتعاونها الدولة .

وفى ٢٥ أبريل ١٦٨٨ جدد جيمس نشر « إعلان التسامح » الذى مضى على صدوره عام واحد ، وأكد فيه من جديد عزمه على توفير حرية الفكر والضمير » لكل الانجليز إلى الأبد . فمن الآن فصاعدا لابد أن

يعتمد التعيين فى الوظائف والترقى فيها على الجدارة الشخصية لا المذهب الدينى . وتنبأ بأن الاقلال من الخلافات الدينية لابد أن يفتح أسواقا جديدة للتجارة الانجليزية ، ويزيد من ازدهار الأمة ورخائها . وتوسل إلى رعاياه أن يطرحوا جانبا كل الأحقاد ، وينتخبوا البرلمان الجديد دون تمييز بين المذاهب الدينية ، وللتحقق من انتشار هذا الاعلان للوسع على أوسع نطاق ممكن ، أصدر مجلس الملك توجيهاته إلى كل الأساقفة ليرتبوا مع كل رجال الدين أمر تلاوته فى كل كنيسة فى الأقاليم فى انجلترا ، يوم ٢٠ أو ٢٧ مايو . واستخدام رجال الدين على هذا النحو ، وسيلة للاتصال بالجماهير ، أمر له سوابقه الكثيرة فى انجلترا . ولكن لم تكن الرسالة قط يوما بغيضة إلى الكنيسة الرسمية إلى مثل هذا الحد . وفى ١٨ مايو رفع سبعة أساقفة أنجليكانيين إلى الملك ظلامة أوضحوا فيها أنهم لم ترتض ضمائرهم أن يوصوا قساوستهم بتلاوة الاعلان ، لأنه يخرق قرار البرلمان بأنه لا يجوز إلغاء تشريع برلمانى إلا بموافقة البرلمان نفسه ، فأجاب جيمس بأن رجال اللاهوت هم الذين كانوا يلحون على عظاتهم وخطبهم دوما على ضرورة الامتثال للملك وطاعته بوصفه رئيسا للكنيسة ، وأنه ليس فى الاعلان ما يخدش أو يسىء إلى كرامة أحد . ووعد بأنه سوف ينظر فى ظلامتهم ، ولكنهم إن يتلقوا منه ردا فى الغد فعليهم أن يذعنوا لأمره .

وفى صبيحة اليوم التالى بيعت آلاف النسخ من هذه الظلامة فى شوارع لندن ، فى الوقت التى مازالت فيه قيد البحث عند الملك . وأحس جيمس بأن هذا يجافى قواعد اللياقة ، وعرض الظلامة على القضاة الاثنى عشر فى المحكمة الملكية ، فأشاروا بأنه تصرف فى حدود حقوقه المشروعة . ومن ثم أغفل الرد على الظلامة . وفى ٢٠ مايو تليت الظلامة فى أربع كنائس فى لندن ، وتجاهلوها فى الكنائس الست والتسعين الباقية . وشعر الملك بأن سلطته قد امتهنت ، وأمر الأساقفة السبعة بالمثول أمام المجلس . فلما جاءوا أبلغهم بأن عليهم أن يخضعوا للمحاكمة بتهمة نشر طعن أو قذف فيه تحريض

على الفتنة ، وعلى أية حال فإنهم لـكى يتفادوا السجن فى الحال ، يمكن أن يقبل الملك منهم وعدا كتابيا بالحضور عند استدعائهم . فأجابوه بأنهم بوصفهم من أشراف المملـكة ، ليسوا فى حاجة إلى تقديم أى ضمان سوى كلمتهم . وأحالهم المجلس إلى برج لندن (السجن) وحياهم الأهالى وهتفوا لهم على الجانبين عند نقلهم عبر نهر التيمز .

وفى يومى ٢٩ و٣٠ يونيه حاكم الأساقفة السبعة ـ أمام محكمه الملك ـ أربعه قضاة مع هيئه المحلفين . وبعد يومين من مناقشات حادة فى قاعه يحيط بها عشرة آلاف من أهالى لندن المهتاجين ، أصدر المحلفون حكما بعدم الإدانة . وابتهجت كل انجلترا البروتستانتيه ، وقال أحد النبلاء الـكاثوليك « لم تع ذاكرة الإنسان قط مثل هذه الصيحات والهتافات ودموع الفرح التى حدثت اليوم(١٦) » وتوهجت الشوارع بالمشاعل والنيران التى أضرمت فى الهواء الطلق . وسار الناس فى موكب خلف شخوص من الشمع تمثل البابا والـكاردينالات والجزويت ، أحرقت وسط احتفالات صاخبه . إن هذا الحـكم كان يعنى عنـــد البسطاء من الناس أنه لاينبغى التسامح مع الـكاثوليكيه ، وعند ذوى الادراك الأوسع أو العقل الأنضج كان يعنى تثبيت حق البرلمان فى سن قوانين ليس للملك أن يبطلها ، وأن انجلترا ، فى الواقع ، حتى ولو لم تـكن من الناحيه النظرية ، ملـكيه دستورية ، لاملـكيه مطلقه .

على أن جيمس الذى عراه الاكتئاب والحزن بسبب الهزيمه ، أخذ يتعزى بالطفل الذى وضعته له الملـكه فى ١٠ يونيه ، قبل الموعد المتوقع للولادة بشهر ، وفى مقدوره أن ينشىء هذا الولد النفيس تنشئه قوامها الولاء والاخلاص للـكاثوليـكيه ، وكان يمـكن للوالد والولد ، فى وجه أيه معارضه أو معوقات ، أن يقتربا يوما بعـد يوم خطوة من الهدف المقدس ـ ألا وهو الملـكيه القديمه ، تعيش فى وئام ووفاق مع الـكنيسه ، فى انجلترا يسودها الهـــدوء والسلام والتراضى ، فى أوربا نادمه على

ارتدادها عن عقيدتها ، موحدة فى ظل هذه العقيدة الحقه الوحيدة العالميه .

٢ — الاطاحة بالعرش والملك فى المهد

ربما كانت هذه الولادة التى جاءت قبل الأوان هى التى جلبت الكارثه على رأس الملك المتهور . واتفقت انجلترا البروتستانتيه مع جيمس فى أن هذا الولد قد يواصل السعى لاعادة الكثلكه ، ومن ثم يمكن القول بأنها خشيته لنفس السبب الذى أحبه الملك من أجله وأنكرت انجلترا البروتستانتيه فى أول الأمر ، بنوة الطفل للملك . واتهمت الجزويت بأنهم دسوا إلى مخدع الملكه وليـــدا اشتروه ، كجزء من مؤامرة أرادوا منها إبعاد الأبنه البروتستانتيه مارى عن وراثه العرش . وانعطفت انجلترا أكثر فأكثر نحو مارى ، على أنها أمل البروتستانيه الانجليزيه ، ووطنت النفس على القيام بثورة أخرى لاجلاس مارى على العرش لتكون ملكه انجلترا .

ولكن مارى كانت آنذاك زوجه وليم أورانج الثالث ، رئيس الدولة فى المقاطعات المتحدة . ماذا يقول وليم المزهو بنفسه فى أنه مجرد زوج الملكه ؟ لماذا لايعرض عليه الاشتراك فى الحكم مع مارى ؟ وفوق كل شىء ، أنه هو أيضاً يجرى فى عروقه الدم الملكى الانجليزى . أن أمه كانت مارى أخرى ، وكانت ابنه شارل الأول . وليس فى نيه وليم على أية حال أن يلعب دور الزوج للزوجه الملكه . ومن الجائز أن الأسقف بيرنت — الذى كان قد اتخذ سبيله إلى القارة هربا ، عند إرتقاء جيمس العرش — أقنع مارى ، بايعاز[١٧] من وليم ، أن تتعهد بالطاعه التامه لوليم « فى كل الأمور » أياكانت السلطه التى تخولها التصرف فيها ، فوافقت على « أن يكون الحكم والسلطه فى يديه هو ، لأنها لاترغب إلا فى أن يعمل هو بالوصية التى تقول : أيها الأزواج أحبو زوجاتكم ، كما تعمل هى بالوصيه التى تقول : أيتها الزوجات أطعن أزواجكن فى كل شىء[١٨] » وتقبل وليم الطاعه ، ولكنه تجاهل التلميح الرقيق إلى علاقتـــه بعشيقته السيدة

فلبير[١٩] ، فان الحكام البروتستانت أيضا ، يجوز لهم فوق كل شيء ، أن يخدعوا أو يخونوا زوجاتهم .

إن وليم الذى يحارب لويس الرابع عشر حفاظا على استقلال هولنده والبروتستانتية ، راوده الأمل لبعض الوقت فى كسب والد زوجته (جيمس) فى تحالف ضد ملك فرنسا الذى كان يحطم توازن القوى والحريات فى أوربا ، ولما خاب فأله ، عمد إلى التفاوض مع الإنجليز الذين تزعموا حركة للمقاومة ضد جيمس . إنه تغاضى من قبل عن الحملة التى إنتظمها مونموث على الأرض الهولندية ضد الملك جيمس ، وسمح لها بالإقلاع من أحد الثغور الهولندية دون عائق[٢٠] ، وخشى بحق أن يكون جيمس قد دبر خطة لإعلان عدم أهليته لوراثة عرش انجلترا . ومتى ولد للملك ابن فمن الواضح أن يسقط حق مارى فى العرش . وفى أوائل ١٦٨٧ أوفد وليم افرهارد فان ديكفلت إلى انجلترا ليقيم علاقات ودية مع زعماء البروتستانت . وعادت البعثة برسائل مبشرة من مركيز هاليفاكس ، وأرسل شروزبرى وأرل كلارندون (ابن رئيس اللوردات السابق) ومن دانبى ، والأسقف كمبتون وغيرهم . وكانت الرسائل غامضة مبهمة إلى حد لاينم عن خيانة صريحة ، ولكنها انطوت على تأييد حار لوليم فى نضاله من أجل العرش .

وفى يونيه ١٦٨٧ أصدر كاسبار فاجل ، الحاكم العام ، رسالة أوضح فيها بصورة جازمة آراء وليم فى التسامح . إن وليم يريد حرية العبادة للجميع ولكنه يعارض إلغاء « قانون الاختبار » الذى يقصر حق تولى الوظائف العامة على أتباع المذهب الأنجليكانى[٢١] . أن هذا البيان الرسمى المتحفظ أكسب وليم تأييد الأنجليكانيين البارزين . ولما قضى مولد ابن لجيمس على فرص وليم فى أن يخلفه (جيمس) قرر زعماء البروتستانت دعوة وليم للقدوم والاستيلاء على العرش عنوة . ووقع الدعوة (٣٠ يونيه ١٦٨٨) إرل شروزبرى الثانى عشر ، دوق ديفونشير الأول ، إرل دانبى ، إرل سكاربره ، وأمير البحر ادوارد رسل (ابن عم وليم رسل الذى أعدم فى

١٦٨٣)،هنری سدنی (أخو الجرنون) ، والأسقف كمبتون. أما هاليفاكس فإنه لم يوقع متذرعا بأنه يؤثر المعارضة الدستورية . ولكن كثيرين غير هؤلاء ، من بينهم سندرلند وجون تشرشل،وكلاهما آنذاك فى خدمة جيمس) بعثوا إلى وليم يؤكدون مساندتهم له(٢٢) . وكان الموقعون يعلمون علم اليقين أن دعوتهم خيانة ، ولكنهم وضعوا حياتهم على أكفهم عمدا ، ونذروا أموالهم للمغامرة ، من ذلك أن شروزبرى الكاثوليكى السابق الذى تحول إلى البروتستانتية ، رهن ضياعه نظير أربعين ألف جنيه ، وعبر البحر إلى هولنده ليساعد فى توجيه الغزو(٢٣) .

ولم يكن فى مقدور وليم أن يتخذ أى اجراء فورى . لأنه لم يكن على ثقه من شعبه . كما كان يخشى أن يجدد لويس الرابع عشر هجومه على هولنده فى أيه لحظه . وخشيت الولايات الألمانيه كذلك مهاجمه فرنسا لها ، ومع ذلك لم تبد هذه الولايات اعتراضا على غزو وليم لانجلترا ، لعلمها بأن الهدف الأسمى لوليم هو كبح جماح ملك البوربون . أما حكومتا آل هبسبرج فى النمسا وأسبانيا فقد نسيتا كثلكيتهما فى بغضهما للملك لويس الرابع عشر ، وأقرتا خلع ملك كاثوليكى يصادق فرنسا بل أن البابا نفسه منح الحمله بركته ورضاءه السامى . ومن ثم أصبح يأذن من الدول الكاثوليكيه أن يأخذ وليم البروتستانتى على عاتقه الإطاحه بجيمس الكاثوليكى وتعجل لويس وجيمس كلاهما الغزو ، وأعلن لويس أن روابط «الصداقه والتحالف» القائمه بين انجلترا وفرنسا تحتم عليه أن يعلن الحرب على كل من يغزو انجلترا . ولكن جيمس الذى خشى أن يؤدى هذا البيان إلى توحيد صفوف رعاياه البروتستانت ضده بشكل أقوى ، نفى وجود مثل هذا التحالف ، ورفض مساعدة فرنسا له . وانتصر غضب لويس الرابع عشر على استراتيجيته ، فأمر جيوشه بمهاجمه ألمانيا ، لاهولندة (٢٥ سبتمبر ١٦٨٨) ، ووافقت الجمعيه العموميه للمقاطعات المتحدة ، التى تحررت لبعض الوقت من الخوف من فرنسا ، على أن يقود وليم حمله قد تؤدى بإنجلترا إلى الدخول فى

تحالف ضد فرنسا .

وفى ١٩ أكتوبر تحرك الأسطول — خمسين سفينة حربية ، وخمسمائة سفينة نقل ، وخمسمائة فارس ، وأحـد عشر ألفا من المشاة ، بما فيهم عدد كبير من الهيجونوت اللاجئين من الاضطهاد فى فرنسا . وصدت الرياح الأسطول ، فانتظر حتى يهب « نسيم بروتستانتى » (مؤات) ، وأقلع ثانية فى أول نوفمبر . وخرج أسطول إنجليزى ليعترض سبيله ، ولـكن مزقته العاصفة . وفى ٥ نوفمبر ، وهو يوم عطلة وطنية احتفالا بذكرى « مؤامرة البارود » ألقى الغزاة مراسيهم فى « ثورباى » ، وهو منفذ على المانش على شاطىء دورستشير . ولم يلق الغزاة أية مقاومة ، ولـكنهم كذلك لم يلقوا أى ترحيب . فإن الناس لم يـكونوا قد نسوا جفريز وكيرك . وأصدر جيمس أوامره إلى جيشه بالتجمع فى سالسبورى تحت أمرة لورد جون تشرشل ، ولحق الملك به هناك ، ولـكنه وجـد القوات يعوزها الولاء والاخلاص ، يخيم عليها الفتور إلى حد الإرتياب فى اشتراكهم فى معركة ، فامر بالتقهقر ، وفى تلك الليلة (٢٣ نوفمبر) إنحاز تشرشل واثنان من كبار الضباط فى جيش الملك إلى وليم مع أربعمائة رجل(٢٤) . وبعد ذلك بأيام قلائل انضم جورج الدنمركى ، زوج الأميرة آن ابنة جيمس ، إلى جماعة الخارجين على الملك ، والذين يتزايد عـددهم ، ووجد الملك التعس ، لدى عودته إلى لنـــدن ، أن ابنته آن وسارا جنجز زوجة تشرشل قد هربتا إلى نوتنجهام . وتحطمت روح الملك الذى كان يوما مزهوا مختالا ، حين وجد أن إبنتيه كلتيهما قد انقلبتا ضده . فأوفد هاليفاكس للتفاوض مع وليم وفى ١١ ديسمبر غادر الملك نفسه عاصمة ملـكه . ولما عاد هاليفاكس من الجبهة ، وجد الأمة بلا رئيس ولا زعيم ، فعمد جماعة من النبلاء إلى تنصيبه رئيسا لحـكومة مؤقتة . وفى يوم ١٣ تسلموا من جيمس رسالة تقول بأنه وقع فى أيدى الأعداء ، فى فافرشام فى كنت . فأنفذوا بعض القوات لانقاذه ، وفى يوم ١٦ عاد الملك الذليل إلى قصر هويتهول وأرسل

وليم أثناء تقدمه نحو لندن ، بعض حراس هولنديين زودهم بتعليمات بأن يحملوا جيمس إلى روشستر ، وهناك يسهلون له طريق الفرار . وقد كان ، ووقع جيمس فى الفخ الذى نصب له ، وغادر انجلترا إلى فرنسا (٢٣ ديسمبر) . وعمر ثلاثة عشر عاما بعد سقوطه ، ولكنه لم ير انجلترا ثانية قط .

ووصل وليم إلى لندن فى التاسع عشر من ديسمبر . واستغل انتصاره فى حزم وحذر واعتدال ممتاز ، ووضع حدا للشغب الذى آثاره البروتستانت فى لندن وسلبوا فيه منازل الكاثوليك وأحرقوها . وبناء على طلب الحكومة المؤقتة ، دعا اللوردات والأساقفة وأعضاء البرلمان السابقين للاجتماع فى كوفنترى . وأعلن « المؤتمر » الذى انعقد هناك فى أول فبراير ١٦٨٩ أن جيمس اعتزل العرش بفراره . وعرض المجتمعون أن يتوجوا مارى ملكة ، ويرتضوا وليم نائبا لها . فقبلا (١٣ فبراير) . ولكن المؤتمر قرن هذا العرض « باعلان الحقوق » الذى سنه وأصدره البرلمان من جديد فى ١٦ ديسمبر على أنه « وثيقة الحقوق » ، وأصبح (بالرغم من عدم موافقه وليم عليه صراحة) جزءا حيويا أساسياً فى قوانين المملكه :

حيث أن الملك السابق جيمس الثانى .. سعى جهده آن يدمر ويستأصل العقيدة البروتستانتية وقوانين وحريات هذه المملكه من جذورها :

١ — بانتحاله لنفسه وممارسته سلطه التحلل من القوانين وإلغائها ، أو تنفيذها دون موافقه البرلمان . .

٣ — بانشاء « محكمه خاصه بالقضايا الدينيه » .

٤ — بجباية أموال من أجل الملك وليستخدمها هو ، بحجه الامتيازات والحقوق الملكيه ، فى غير الوقت ولغير الغرض اللذين أقرهما البرلمان .

٥ — بتجنيد جيش ثابت والاحتفاظ به دون موافقه البرلمان .

٧ — باقامه الدعوى أمام « محكمه الملك » فى مسائل وقضايا هى من إختصاص البرلمان وحده .

وكل هذا يتعارض تماما ، وبطريق مباشر ، مع قوانين هذه المملكه

وشرائعها المعروفه . ولما كانوا (أعضاء البرلمان ـ المجتمعون) على ثقه تامه من أن .. أمير أورانج .. سوف يحميهم من إهدار حقوقهم التى أثبتوها هنا ، ومن أية محاولات أخرى للاعتداء على حقوقهم الدينيه وحرياتهم ، فإن اللوردات والآباء الروحيين والنواب المجتمعين فى وستمنستر ، يقررون أن يعينوا وليم ومارى ، أمير وأميرة أورانج ، ملكا وملكه على إنجلترا وفرنسا وأيرلنده ، وأن يقسم اليمين المذكورة بعد ، كل الأشخاص الذين يتطلب القانون منهم أن يقسموا يمين الولاء ..

« أقسم أنا (س من الناس) أن أمقت وأبغض وأنبذ من كل قلبى على على أنها كفر وهرطقه ، تلك النظرية الدنسه اللعينه .. التى تقول بأنه يجب أن يخلع أو يقتل ، بيد رعاياه أو غيرهم أيا كانوا ، كل أمير يصدر ضده البابا أو أية هيئه فى المقر البابوى فى رومه ، قرارا بالحرمان من الكنيسه أو من العرش .. كما أعلن أنه ليس ، ولا ينبغى أن يكون . لأى حاكم أو فرد أو مطران أو دولة أو عاهل أجنبى ، أية ولايه أو سلطه أو سيادة أو سلطان .. فى هذه المملكه . أسألك العون على هذا يارب » .

وحيث ثبت بالتجربه أنه لايتفق مع سلامه هذه المملكه ولا مع مصلحتها أن يحكمها أمير مناصر للبابا ، أو ملك أو ملكه متزوجه من أحد أشياع البابا ، فإن اللوردات والآباء الروحيين والنواب المذكورين يرجون فوق ذلك أن يسن تشريع يقضى بأن كل شخص أو أشخاص يذعنون أو سيذعنون للبابا أو الكنيسه فى رومه ، أو تكون أو ستكون لهم علاقة بهما ، أو سيدينون بالمذهب البابوى ، أو يتزوجون من نصيرات البابا والمشايعات له ، يجب استبعادهم وحرمانهم إلى الأبد من وراثه أو إمتلاك أو التمتع بتاج وحكومه هذه المملكه(٢٥) .

أن هذا الإعلان التاريخى عبر من النتائج الجوهرية لما أسمته انجلترا البروتستانتية « الثورة الجليلة » : وهى الاعتراف الصريح بالسيادة التشريعية للبرلمان ، التى طالما نازع فيها أربعة ملوك من آل ستيوارت ، وحماية للمواطن

ضد السلطة التعسفية للحكومة ، واستبعاد الكاثوليك من تولى عرش انجلترا أو المشاركة فيه . ويلى هذه النتائج فى الأهمية ، هو ادماج سلطة الحكومة فى الارستقراطيه مالكة الأرض ، لأن الثورة بدأها كبار النبلاء ، وسار بها إلى غايتها صغار الملاك الممثلون فى مجلس العموم . وواقع الأمر أن الملكية « المطلقة » المتمسكة « بحق الملك الإلهى » تحولت إلى أوليجاركية اقليمية أو ذات علاقه بالملكيه الخاصه للأرض . وهى أوليجاركيه تميزت بالاعتدال والجد والبراعه فى إدارة دفه الحكم ، متعاونة مع ملوك الصناعه والتجاره والمال ، كما أهملت بصفه عامه أمر الحرفيين والفلاحين . إن الطبقات المتوسطه العليا أفادت من الثورة بصورة فعليه . واستردت مدن انجلترا حريتها ، لتحكمها أوليجاركيات التجار المستغلين . أن تجار لندن الذين أحجموا من قبل عن مساعدة جيمس ، أقرضوا وليم مائتى ألف جنيه فيما بين وصوله إلى العاصمه ، وتسلمه اعتمادات البرلمان لأول مرة(٢٦) . إن هذا القرض عزز اتفاقيه غير مسطورة : فالتجار يتركون لملاك الأرض حكم انجلترا ، على أن توجه الارستقراطيه الحاكمه سياسه البلاد الخارجيه نحو المصالح التجارية ، وتحرر التجار أكثر فأكثر من النظم الرسميه .

وثمه عناصر مخزيه غير كريمه كانت فى « الثورة الجليله(٢٧) » . فما يبدو أنه مدعاة للأسف أن تضطر انجلترا إلى استدعاء جيش من هولندة ليصلح من أخطاء الإنجليز أنفسهم ، وأن تساعد الإبنه على خلع أبيها عن عرشه ، وأن ينحاز قائد جيشه إلى الغزاة ، وأن تشارك الكنيسه الوطنيه فى الإطاحة بملك سبق لهذه الكنيسه أن بررت وقدست سلطته الإلهيه المطلقه فى وجه أيه ثورة أو أى عصيان . كما كان مدعاة للأسف أن يكون تثبيت سيادة البرلمان على حساب مناهضه حريه العبادة . ولكن السيئات التى اقترفها هؤلاء الرجال والنساء طويت فى الأحداث مع رفاتهم ، أما حسناتهم التى أدوها فقد بقيت بعدهم وآتت أكلها . أنهم حتى فى إقامه الأوليجاركيه وضعوا أسس ديمقراطيه كان لابد أن تنشأ مع توسيع القاعدة الإنتخابية .

وجعلوا من دار الرجل الانجليزى قلعته ، آمنا نسبيا من « عجرفة الحكم » و « أخطاء الظلم » وأسهموا إلى حد ما فى هـذا التوفيق الذى يدعو إلى الاعجاب بين النظام والحرية ، وهذا هو قوام الحكومة الانجليزية اليوم . إنهم فعلوا هذا كله دون اراقة قطرة من الدم ، اللهم إلا ما نزف من أنف الملك المنزعج للنهوك الأخرق الذى تخلى عنه الجميع فى ساعة العسرة .

٣ — انجلترا تحت حكم وليم الثالث ١٦٨٩ — ١٧٠٢

عين الملك لمجلسه الخاص : دانبى رئيسا ، وهاليفاكس حاملا للأختام الملكية ، وإرل شروزبرى وإرل نوتنجهام وزيرين ، وإرل بورتلاند رئيسا للخاصة الملكية ، وجلبرت بيرنت أسقف سالسبورى .

وكان أبرز هذه الشخصيات وأكثرها نفوذاً هو جورج سافيل مركيز هاليفاكس . ولما كان ابن أخى لورد سترافورد الذى أعدمه البرلمان الطويل من قبل ، فإنه — أى هاليفاكس — كان قد فقد جزءاً كبيراً من ممتلكاته فى الثورة الكبرى ، ولكنه كان قد أنقذ ما يكيفيه لعيش رغيد فى فرنسا أيام حكم كرومول . وهناك عثر عـلى « مقالات » مونتانى ، وأصبح فيلسوفا . وإذا كان المركيز قد ارتقى فيما بعد من السياسة إلى فن الحكم ، فما ذاك إلا لأن الفرق بين السياسة وفن الحكم هو الفلسفة أى القدرة على رؤية اللحظة العابرة والجزء الصغير فى ضوء الزمن الخالد ، والكل الذى يضم كل الأجزاء ، ولم يكن هاليفاكس ليرضى قط بأن يكون كله رجل أعمال وكتب يقول : « إن حكومة العالم (يعني حكم الشعوب) عمـل عظيم ، ولكنه شاق خشن جداً كذلك ، إذا قورن برقة المعرفة التأملية(١٢٨) » . فقد كان على السياسة فى بعض الأحيان أن تتعامل مع الجماهير وهو ما أزعج هاليفاكس . إن فى الجمع من الناس قساوة مشتركة ، على الرغم من أنه ليس بينهم فرد واحد بالذات ردىء الطبع .... ان الغمغمة الغاضبة فى حشد

من الناس من ألعن وأسوأ الضوضاء فى العالم »(٢٩) . لقد عاش من قبل فى ظل « الارهاب البابوى » حين كانت الجماهير تقذف الرعب فى المحاكم . ومذ رأى كثيراً من المذاهب الدينية للولعة بكسب الأنصار ، طرح معظم اللاهوت ، إلى حد أنه ، كما يقول بيرنت « تحول إلى ملحد جرىء ثابت العزم ، على الرغم من أنه كان غالبا ما يحتج لى بأنه ليس كذلك ، وأنه قال أنه يعتقد أنه ليس فى العالم رجل ملحد . واعترف بأنه لم يستسغ كل مافرضه رجال الدين على العالم . وكان مسيحياً ، امتثالا ، وآمن قدر طاقته » (٣٠)

وعندما عاد إلى انجلترا استرد ممتلكاته ، وبلغ من الثراء حداً استطاع معه أن يكون أمينا . وخدم شارل الثانى حتى علم بأمر « معاهدة دوفر » السرية . ودافع عن حق جيمس فى عرش انجلترا ، ولكن عارض فى إلغاء « قانون الاختبار » ، وتطلع إلى حكم بروتستانتى بعد فترة حكم كاثوليكى قصيرة . وحقق آماله حين لعب دوراً قيادياً فى انتقال الحكم بطريقة سلمية من جيمس الثانى إلى وليم الثالث . والتزم هاليفاكس بما يعتقد هو أنه حق ، وما كان لينحاز إلى أى حزب . وكتب فى « أفكار وتأملات » : « ان الجهل يقود معظم الناس إلى الانضمام إلى حزب ما ، والخجل يحول بينهم وبين الخروج منه » (٣١) . ولما هوجم بسبب خروجه على اتجاهات الحزب ، دافع عن نفسه فى كتيب مشهور « شخصية الحول القلب »

إن اللفظة البريئة (قلب حول) لا تعنى أكثر من أنه إذا كانت مجموعة من الرجال فى قارب . ومال به قسم منهم إلى جانب ، فلا بد أن يميل الباقون بنفس القدر إلى الجانب الآخر ، ويحدث أن يكون هناك رأى ثالث لأولئك الذين يرون أنه يكفى أن يكون القارب مستويا أو متعدلا (٣٢) .

وكان فى بعض الأحيان عديم الضمير ، فصيحاً دائماً ، ذكياً بشكل خطير ولما اجتاح صائدوا المناصب الذين ادعوا مساعدة الثورة ، بلاط وليم الثالث ناصبوه العداء لأنه قال : « إن الأوز أنقذ رومه ، ولكنى لا أذكر أن

هذه الأوزات حيث فى مناصب القناصل » (٣٣) (١)

ولا بد أن هاليفا كس ابتسم ساخراً عندما حول « المؤتمر » نفسه الى برلمان ، ثم عمد إلى ما حسبه أول ما تحتاج إليه الحكومة — ألا هو قسم جديد للولاء والطاعة لوليم الثالث ، لا بوصفه رئيساً للدولة فحسب ، بل للكنيسة الرسمية كذلك . انها لإحدى مهازل التاريخ المضحكة ، إن الكنيسة الأنجليكانية وهى التى ظلت لمدة قرن من الزمان تضطهد الكلفنيين (البرسبتريانز ، والبيوريتانز وغيرهم من مخالفيها) تقبل الآن رئيساً لها كلفنيا هولنديا .

إن أربعمائة من رجال الدين الأنجليكانيين المتمسكين بنظرية « حقوق الملوك الالهية » ومن ثم ينازعون حق وليم فى الحكم ، رفضوا أن يؤدوا القسم الجديد . وعزل هؤلاء الرافضون »من وظائفهم الكنسية ، وشكلوا شعبة أخرى من المنشقين أو المخالفين . أما الذين أقسموا اليمين فإن كثيراً منهم فعلوا ما فعلوا مع « تحفظ عقلى »(٣٥) ربما أضحك الجزويت الباقين فى انجلترا . ويرى بيرنت « أن مراوغة الكثيرين ومواربتهم فى موضوع بمثل هذه القدسية أسهم إسهاماً غير قليل فى تدعيم الالحاد الآخذ فى التفاقم(٣٦) « وصعق الأنجليكانيون من ذوى المشارب والأمزجة المختلفة ؛ حين ألغى وليم — إذعاناً للشعور السائد بشكل طاغ فى اسكتلندة — ألغى هناك النظام الأسقفى الذى كان آل ستيوارت قد أقاموه قسراً . وحزن كثير من الأنجليكانيين حين ألغوا وليم يجنح إلى التسامح الدينى .

إن وليم الذى نشأ فى أحضان الكلفنية الجبرية المؤمنة بالقضاء والقدر لم يطق تعاطفاً مع وجهة النظر الأنجليكانية التى تقضى بإقصاء البرسبتريانز عن الوظائف العامة أو مقاعد البرلمان . انه شجع بالفعل التسامح فى المقاطعات

---

(١) ان قأقأة الأوز المقدس المترعرع فى الكابيتول أيقظت الحامية الرومانية لتصد غارة ليلية قام بها الكلت فى ٣٩٠ ق م (٣٤)

المتحدة ، ولم يكن يسمح بأى تمييز دينى فى صداقاته . إن الكلفنية الجبرية كانت قد أصبحت بالنسبة لوليم ثقة فى النفس وكأنها عامل من عوامـــل القدر . وفى ظل هذه الثقة ينظر ، دون ما تعصب ، إلى الانشقاق الدينى على أنه فى حد ذاته أداة من أدوات تلك « القوة الخفية » أكثر منها شخصية التى سماها تارة « الحظ » وتارة « العناية الالهية » وأخرى « الله »(٣٧) . ورأى فى الخلافات الدينية فى انجلترا قوة تمزق الأمة اربا إذا لم يحد التفاهم والمحبة من مثل هذه القوة .

وكانت خطوة بارعـة من جانب المجلس المخصوص (أو مجلس الملك) أن يمهد بتقديم « قانون التسامح » الذى أعده ، إلى البرلمان ، إلى نوتنجهام الذى عرف بأنه ابن غيور بار للكنيسة الأنجليكانية . وأبطل دفاع نوتنجهام عن هذا القانون أمام البرلمان حجة المعارضين للمتشددين وجردهم من سلاحهم وهكذا أقر المجلسان أول انجازات العهـــد الجديد دون معارضة تذكر (٢٤ مايو ١٦٨٩) . وسمح هذا القانون بحرية العبادة العلنية لكل الفرق التى سلمت بمبدأ التثليث وبأن الكتاب المقدس نزل به الوحى ، والتى نبذت صراحة تحول خبز القربان والخمر إلى جسد المسيح ودمه ، وسيادة البابا الدينية . وسمح لأنصار تجديد العهاد بتأجيله إلى سن البـــلوغ . وبمقتضى « قانون تثبيت التسامح » الذى صدر فى ١٦٩٦ سمح للكويكرز باستبدال وعد قاطع بالقسم سالف الذكر . واستثنى التوحيديون والكاثوليك من التسامح . وقام وليم ومجلسه فى مشروع « قانون التسامح الشامل » الذى قدم فى أواخر ١٦٨٩ ، بمحاولة للسماح بدخول كل طوائف المنشقين إلى الكنيسة الأنجليكانية ، ولكن لم تتم الموافقة على هـــذه الخطوة . وظل المنشقون محرومين من الجامعات ومن مقاعد البرلمان ومن الوظائف العامة إلا إذا تلقوا الأسرار المقدسة وفقاً للطقوس الأنجليكانية ، وجدد فى ١٦٩٧ العمل بقانون يقضى بعقوبة السجن على من يهاجم أية نظرية مسيحية أساسية . ولم يصدر بعد ذلك أى تشريع بالتوسع فى الحرية الدينية فى انجلترا حتى ١٧٧٨

وعلى الرغم من ذلك كان التسامح هنا أكبر منه فى أية دولة أوربية أخرى بعد ١٦٨٥ ، باستثناء للقاطعات المتحدة . والواقع أن التسامح اتسعت دائرته فى انجلترا بازدياد قوة انجلترا إلى الحد الذى تحررت معه من مخاوفها من أن تغزوها أية دولة كاثوليكية أو تعمل على تخريبها فى الداخل .

إن الكاثوليك أنفسهم نعموا فى عهد وليم بأمن متزايد . وأوضح الملك أنه ليس فى مقدوره أن يحتفظ بالأحلاف مع الدول الكاثوليكية إذا هو صب العذاب والظلم على رؤوس الكاثوليك فى انجلترا(٣٨) . وظل القساوسة الكاثوليك لعشر سنوات يقيمون القداس فى دور خاصة .وما كان أحد ليتحرش بهم لو تستروا فى شىء من الحزم والحكمة ، أمام الجمهور . وفى أخريات عهد وليم (١٦٩٩) ، حين كان المحافظين (أنصار السلطة الملكية المطلقة) والمتشددين ، الغلبة فى البرلمان ، شددت القوانين ضد الكاثوليك ، فتعرض لعقوبة السجن مدى الحياة أى كاهن يدان باقامة القداس أو أداء أية مهمة كهنوتية أخرى إلا فى دار أحد السفراء . وتنفيذا للقانون كانت ثمة مكافأة قدرها مائة جنيه لمن يدبر الإدانة . ونص القانون على نفس العقوبة لأى كاثوليكى يقوم بالتعليم العام للصغار . وما كان يجوز للوالدين أن يرسلوا أولادهم إلى الخارج لتلقى العلم وفق للمذهب الكاثوليكى. وما كان يجوز لأى فرد أن يشترى أو يرث أرضا إلا بعد أداء القسم على أن الملك رئيس الكنيسة ، وعلى أنه لا يؤمن بتحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه . وصودر من أجل الحكومة ارث أى فرد امتنع عن أداء القسم(٣٩) . وفى ١٦٨٩ عفا وليم عن تيتس أوتس وأجرى عليه معاشا .

وجلب الكاثوليك فى أيرلنده على أنفسهم اضطهادا مجددا بتنظيمهم ثورة تهدف إلى إعادة جيمس الثانى إلى العرش . ذلك أن ريتشارد تاليوت جمع جيشا قوامه ٣٦ ألف رجل ودعا جيمس للقدوم من فرنسا ليتولى قيادته . وكان لويس الرابع عشر قد أسكن الملك المخلوع أحد قصوره فى سان جرمان ، وخصص له ستمائة ألف فرنك سنويا ، وجهز له الآن أسطولا

و لى ميناء برست ، وودعه بكلمات مشهورة : « أن أحسن ما أرجوه لك ألا يرى الواحد منا الآخر ثانية أبدا (٤٠) » . وفى ١٢ مارس ١٦٨٩ ألقى جيمس مراسيه فى أيرلنده مع ألف ومائتى رجل ، ورافقه تالبوت إلى دبلن ، حيث دعا برلمانا أيرلنديا ، وأعلن حرية العبادة لكل الرعايا المخلصين . واجتمع البرلمان فى ٧ مايو وألغى « قانون التسوية » الذى صدر فى ١٦٥٢ ، وأمر بإعادة الأراضى التى انتزعت من أصحابها منذ ١٦٤١ إلى ملاكها السابقين . وأرسل وليم قائده الهيجونوتى شومبرج إلى أيرلنده على رأس عشرة آلاف جندى . ورد لويس الرابع عشر على ذلك بإرسال سبعة آلاف من الفرنسيين المحنكين لمساعدة جيمس . وعبر وليم بنفسه إلى أيرلنده فى يونيه ١٦٩٠ . فلما ألتقى الجمعان فى معركة بوين (أول يوليه) فر جيمس من الميدان مذعورا ، ولو أنه اشتهر بالبسالة يوما ، حين رأى قواته تنهزم . وسرعان ماعاد أدراجه إلى سان جرمان .

وربما ابتهج وليم بعقد الصلح وإقرار السلام مع الأيرلنديين على أساس الوضع الراهن . ولكن الزعماء والقوات البروتستانتية الذين كانوا تحت أمرته ، طالبوا بالقضاء التام على العناصر الثورية ، وبالاستيلاء على المزيد من أراضى أيرلنده . وعاد وليم إلى انجلترا تاركا جيشه تحت قيادة جودرت دى جنكل ، إرل أتلون آنذاك ، وكان شومبرج قد قضى نحبه فى انتصاره فى بوين . وأوصى الملك جنكل بإصدار عفو عام دون قيد أو شرط ، وإطلاق حرية العبادة ، وبالإعفاء من أداء القسم بعدم الاعتراف بسيادة البابا ، وباسترداد الثوار لضياعهم شريطة أن يضعوا السلاح (٤١) . وعلى أساس هذه الشروط ضمن جنكل استسلام جولواى وليمرك وبمقتضى معاهدة ليمرك (٣ أكتوبر ١٦٩١) وافق الثوار الأيرلنديون على التسوية التى عرضها وليم . وفى مارس ١٦٩٢ صدر بيان ملكى يعلن انتهاء الحرب مع أيرلنده .

واستنكر البروتستانت فى أيرلنده هذه المعاهدة على أنها استسلام

ذليل الباديين ، ولجأوا إلى البرلمان الأنجليزى • ووضع هذا البرلمان على الفور (٢٢ أكتوبر ١٦٩١) قانونا يحرم من عضوية برلمان أيرلنده ، كل من يمتنع عن أداء يمين السيادة وإعلان رفضه لفكرة تحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه . ورفض البرلمان الأيرلندى الجـــديد ، وكان بروتستانتيا تماما ، الاعتراف بمعاهدة ليمرك . وعلى حين كان وليم منهمكا فى كـكتيل أوربا ضد لويس الرابع عشر ، سن برلمان دبلن سلسلة جديدة من قوانين العقوبات ضد الكاثوليك فى أيرلنده ، تنقض صراحة الصلح الذى وقعه وليم ومارى من قبل ، ونصت هذه القوانين على عدم شرعية المدارس والكليات الكاثوليكية ، وعلى أن القساوسة الكاثوليك معرضون للترحيل خارج البلاد ، وعلى أنه ليس للكاثوليكى أن يحمل سلاحا ، أو يمتلك حصانا تزيد قيمته على خمسة جنيهات ، وعلى مصادرة أملاك أية وريثة بروتستانتية تتزوج من كاثوليكى(٤٢) . واستمرت مصادرة أراضى أيرلنده حتى « لم يعد هناك فى الواقع أرض تصادر »(٤٣) . وكاد يكون من المستحيل أن يكسب كاثوليكى أيرلندى قضية فى محكمة أيرلندية ، وقل أن صدرت عقوبة على من يقترف جريمة ضد الكاثوليك . واستكمالا لخراب أيرلنده قضت قوانين برلمان إنجلترا قضاء تاما على صناعة الصوف التى كانت قد نمت إلى حد منافسة صناعة الصوف فى انجلترا ذاتها ، حيث حظرت هذه القوانين تصدير الصوف من أيرلنده إلى أى بلد آخر سوى انجلترا ، وخنقت حتى هذه التجارة نفسها بما وضع من تعريفات جمركية معوقة عمدا (١٦٩٦) . ومن ثم انتشر الفقر والتسول والمجاعة والتمرد على القانون فى الجزيرة ، خارج نطاق « البـــال » الانجليزى (قسم فى شرق أيرلنده حول مدينة دبلن) . وفى الستين عاما التى أعقبت الثورة الجليلة هاجر من أيرلنده نصف الكاثوليك الذين كان عددهم يقرب من المليون فى ١٦٨٨ ، أى أن أزكى الدماء وأطيب العناصر نزحت إلى البلاد الأجنبية .

وازدهرت آنذاك كل الطبقات الاقتصادية فى انجلترا فيما عدا طبقة

الكادحين (البروليتاريا) وطبقة الفلاحين . وعانى عمال النسيج من المنافسة الأجنبية ومن الاختراع . وفى ١٧١٠ أضرب عمال الجوارب بسبب ادخال أنوال الجوارب واستخدام الغلمان لتشغيلها لقاء أجور منخفضة(٤٤) على أن الانتاج القومى كان آخذا فى الارتفاع . ويمكن أن نحكم على هذا الارتفاع من زيادة متوسط ايرادات الحكومة من ٥٠٠ ألف جنيه فى القرن السادس عشر إلى سبعة ملايين ونصف المليون من الجنيهات فى القرن السابع عشر(٤٥) . وقد ترجع الزيادة إلى حد ما إلى التضخم ، ولكنها نتجت أساسا من التوسع فى الصناعة وفى التجارة الخارجية .

ومع هذا لم يكن الدخل كافيا ، لأن وليم كان يجند الجيوش لمحاربة لويس الرابع عشر ، فارتفعت الضرائب إلى حد لم يسبق له مثيل ، بل اشتدت الحاجة إلى مزيد من المال . وفى يناير ١٦٦٣ أحدث شارل مونتاجو — إرل هاليفاكس الأول — بوصفه وزير الخزانة تغييرا أساسيا فى مالية الحكومة ، باقناع البرلمان بطرح قرض عام قدره ٩٠٠ ألف جنيه ، ووعدت الحكومه بدفع ٧ ٪ فائدة سنويه عنه . وفى أخريات ١٩٦٣ ، حين زادت النفقات عن الإيرادات ، اتفق جماعة من أصحاب المصارف على اقراض الحكومه مبلغ مليون ومائتى ألف جنيه بفائدة قدرها ٨ ٪ تحصل من رسم اضافى على السفن . وكانت فكرة القروض المتحدة (الجماعية) هذه ، قد اقترحها وليم باترسون قبل ذلك بثلاثة أعوام . وجاء الآن مونتاجو فعززها من الناحية الرسمية . وأقر البرلمان هذه الخطة . واتباعا للسوابق التى جرى عليها العمل فى جنوه والبندقية وهولنده ، عمد المقرضون إلى تنظيم أنفسهم فيما يسمى « حافظو وشركة بنك انجلترا » الذى صدرت براءة تأسيسه فى ٢٧ يوليه ١٦٩٤ . واقترضوا هم النقود من مصادر مختلفة بسعر ٤½ ٪ وأقرضوها للحكومه بسعر ٨ ٪ ، وجنوا أرباحا اضافية عن طريق القيام بكل الأعمال المصرفية. وهكذا نشأ بنك انجلترا ، وقدم للحكومه قروضا أخرى . وفى ١٦٩٦ حصل من البرلمان على حق احتكار مثل هذه القروض.

وبعد تقلبات كثيرة مر بها هذا البنك، أصبح العامل الرئيسى فى استقرار الحكومة الانجليزيه المشهور منذ اعتلاء وليم ومارى عرش انجلترا حتى يومنا هذا. ومنذ ١٦٩٤ أصدر البنك أوراقا نقديه تضمنها الودائع، قابلة للدفع بالذهب، عند الطلب. وتداولها المتعاملون على أنهـا مال قانونى، فكانت أول عملة ورقيه حقيقيه غير زائفه فى انجلترا(٤٦) .(*)

واشتهر عهد مونتاجو فى وزارة الخزانه بعمل ممتاز آخر، هو اصلاح العملة المعدنية. ذلك أن العملة الجيده التى سكت فى عهدشارل الثانى وجيمس الثانى اختزنت أو صهرت أو صدرت. أما العمله المشوهه أو التالفه منذ أيام اليزابيث وجيمس الأول، فقد طرحت للتداول والاستعمال، وفقدت فى القوة الشرائيه جزءا لايستهان به من قيمتها الاسميه. ودعا مونتاجو أصدقاءه جون لوك واسحق نيوتن وجـون سومرز ليعدوا لانجلترا عمله أكثر استقرارا فصمموا قطع نقد جديدة ذات حافه مسننه تتحدى التشويه. واشتروا العمله القديمه وسحبوها من التداول بقيمتها الاسميه، وتحملت الحكومه الخسارة الناجمه عن ذلك. وصار لانجلترا نقد ثابت صحيح، كان مثار لحسد أوربا، ومثالا تحتذيه. وفى ١٦٨٩ فتحت بورصه الأوراق الماليه فى لندن، وبدأت فترة مضاربة مالية، سرعان ما أنتجت «شركة البحر الجنوبى»(١٧١١) وانفجار «فقاعتها» (١٧٢٠). وفى ١٦٨٨ أقام إدوارد لويد فى أحد مقاهى لنـدن شركة للتأمين تعرف الآن بـكل بساطه تبعث على الفخر باسم «لويدز» وفى ١٦٩٣ أصدر أدموند هالى أول نشرة وفيات معروفه. وأكدت هذه التطورات الماليه ووسعت دور المصالح القائمة على المال فى شئون إنجلترا، وحـددت بداية الأهمية المتزايدة

(*) صدرت أول عملة ورقية معروفة فى القرن السابع الميلادى فى الصين على عهد أسرة تانج. ورأى ماركو بولو مثل هذه العملة فى الصين ١٢٧٥، وحاول عبثا ادخال أسلوب التعامل هذا الى ايطاليا. واستخدمت السويد أوراق العملة فى ١٦٥٦ ومستعمرة ماساشوست ١٦٩٠.

للرأسماليين ـ الذين يعدون برأس المال والذين يديرونه ـ فى بريطانيا .

وفوق الاقتصاد الآخذ فى التوسع احتدمت المعركة السياسية حول النزاع على السلطة بين المحافظين (التورى) مالكى الأرض وبين الأحرار (الهويج) جامعى الثروات ، وبين الإنجليز والاسكتلنديين ، وصحب هذا مؤامرات لقتل وليم ، ومشروعات لاعادة جيمس إلى العرش . ولم يكن وليم مهتما بالشئون الداخلية فى إنجلترا ، انه غزاها أساساً ، ليجمع بينها وبين هولنده (موطنه الأصلى) ودول أخرى ، لتقف جميعاً فى وجه لويس الرابع عشر ، أو كما قال هاليفاكس من قبل : «أنه استولى على انجلترا وهو فى الطريق إلى فرنسا(٤٨) » ولما اكتشف الإنجليز أن هذا هو شغله الشاغل أوالشعور المستولى عليه فقد كل شعبيته ولم يعد ملكا محبوبا . وقد يقسو دون مبالاة ، كما حدث حين أمر باستئصال عشيرة مكد ونالد فى جلنكو لتأخرهـــا فى إعلان ولائها له (١٦٩٢) ، وكان « صموتا فظا غليظا فى المعاشرة » لأنه كان يتكلم الانجليزية بصعوبة . ولم يعن كثيرا بالسيدات . وكان سلوكه على المائدة يدعو إلى الاشمئزاز ، حتى أطلق عليه سيدات المجتمع فى لندن « الدب الهولندى الوضيع(٤٩) » وأحاط نفسه بحراس ورفاق هولنديين ، ولم يخف رأيه فى تفوق الهولنديين تفوقا عظيما عـلى الإنجليز فى المقدرة الإقتصادية والتفكير السياسى والأخلاق وعلم أن كثيراً من النبلاء يفاوضون جيمس الثانى سرا . ووجد الفساد يستشرى حوله إلى درجة تلوثه هو نفسه ، واتجر فى شراء أصوات أعضاء البرلمان . وكان الخير كل الخير فيما يمكن عمله لكبح جماح فرنسا الهائجة المتحفزة .

وحيث ترك وليم الشئون الداخلية لوزرائه ، فقـــد بدأ عهد الوزراء الأقوياء (١٦٩٥) و « الوزارات » المتضامنة فى المسئولية والعمل ، والتى يسيطر عليها رجل واحد ، هو فى العادة وزير الخزانة . وفى ١٦٩٧ جاء أعداؤه المحافظون (التورى) أثر انقلاب إنتخابى ، ومن ثم حدوا من سلطانه ونازعوه سياسته الخارجية ، إلى حـــد أنه فكر فى الاعتزال

(١٦٩٩) . ولكنه حين رقد رقدته الأخيرة (٨ مارس ١٧٠٢) وقد أنهك الربو والسل جسمه ، كان يمكن أن يتعزى عن هزائمه فى الداخل حين يدرك كل الإدراك أنه هيأ لانجلترا مشاركة أكيدة فى « الحلف الأعظم » (١٧٠١) الذى استطاع بعد اثنى عشر عاما من الصراع ، أن يخضع ويذل الملك البوربونى العظيم ، وينقذ استقلال أوربا البروتستانتية ، ويطلق يد انجلترا فى بسط نفوذها على العالم .

٤ — إنجلترا فى عهد الملكة آن : ١٧٠٢ – ١٧١٤

بعد وفاة الملكة مارى ١٦٩٥ أصبحت أختها آن وريثة العرش . ومذ نشأت آن وسط الخطر والشغب ، أصبحت بنتا مخلوعة الفؤاد ، قويمة الخلق ، بسيطة التفكير ، قوية الشعور ، تلتمس العزاء والسلوى والجرأة فى صداقة خاصة متواضعة مع رفيقة صباها ساره جننجز الضاحكة الوفيه الشكاكة الواثقة من نفسها المفعمه بالحياة والنشاط . وفى ١٦٧٨ تزوجت سارة التى كانت تكبر آن بخمس سنين من جسون تشرشل ، وفى ١٦٨٣ تزوجت آن من الأمير جورج الدنمركى . وحالف التوفيق الزيجتين كلتيهما . ولكنهما لم تمسا العلاقه الوثيقة بين المرأتين . وتخلت آن عن كل الشكليات والرسميات ، فاطلقت مازحه على سارة (التى كانت آنذاك وصيفه مخدعها) « مسز فريمان » وأصرت على ألا تناديها سارة « بالأميرة » بل « مسز مورلى » ولما تخلى الزوجان عن الملك جيمس وانحازا إلى وليم ، كان أمام آن أن تختار بين أمرين أحلاهما مر : بين الوالد والزوج ، ولكن حبها لزوجها ولصديقتها أوجب عليها السفر إلى نوتنجهام (٢٨ نوفبر ١٦٨٨) . وفى ١٩ ديسمبر عادة هى وسارة إلى لندن وإلى ملك أجنبى غريب عنهما .

لم تأخذ آن قط نفسها بحب وليم ، ولقد ما أحست بالامتهان والأذى والألم ، حين منح أحد أصدقائه ضيعة أبيها التى كان لها نصيب فيها . وكانت فى ١٦٩١ تتطلع إلى عودة أبيها إلى عرشه . واشتبه وليم ، بحق ، فى أن

تشرشل (إرل مالبرو آنذاك) وزوجته سارة تحيكان له الدسائس مع الملك المخلوع . وأمرت الملكة ماري أختها آن بطرد سارة من بطانتها ، ولكن الأميرة رفضت . وفي صباح اليوم التالي (يناير ١٦٩٢) عزل مالبرو من مناصبه الرسمية ، وأبعد هو وسارة عن الحاشية ، وبدلا من أن تفترق الأميرة عن صديقتها ، تحدت الملك والملكة (وليم وماري) وغادرت قصر هويتهول لتعيش مع سارة في « سيون هاوس » . وفي ٤ مايو أودع مالبرو سجن لندن . وكثيرا ما كانت سارة تزوره هناك . وعرضت أن تنهي صداقتها للأميرة آن لتهدىء من غضب الملكة . ولهذا كتبت آن لسارة تقول :

« في آخر مرة كان هنا وورستر ، أبلغته أنك عرضت على عدة مرات أن تبتعدي عني ... وإني لاتوسل إليك ، من أجل يسوع المسيح ، ألا تعودي إلى مثل هذا الحديث ثانية . وإني لأؤكد لك أنك ان أقدمت على مثل هذه الجفوة القاسية ، فإني لن أنعم بلحظة من الهدوء والراحة بعد ذلك . فإن فعلت دون موافقتي ، (ولو قدر لي أن أوافق لما كان لي أن أرى وجه الله قط) فلسوف أعتزل الحياة ، ولا أرى العالم بعد ذلك ، وأعيش حيث ينساني البشر جميعا(٥٠) » .

ولما لم يقم أي دليل حاسم على اشتراك مالبرو في أية مؤامرة لاعادة جيمس إلى العرش ، ولما كان وليم في مسيس الحاجة إلى قادة مهرة . فإنه أخلى سبيله وأعاده إلى سابق مكانته ونفوذه .

ولما أصبحت آن ملكة ، وكانت آنذاك في سن الثامنة والثلاثين ، بدل وغير إيثارها الخلق الكريم والأمانة والإخلاص والعزلة ، من طبيعة البلاط الانجليزي ، فلم يجد المولعون بالقصف والصخب واللهو والفجور إليه منفذا . وآووا ساخطين ناقين إلى المقاهي والمواخير . وحل رجل الأخلاق أديسون محل روشستر المستهتر الخليع . وكتب ستيل « البطل المسيحي » . وكان لتجنب الملكة آن التردد على المسرح ولنموذج حياتها ، بعض الأثر في تحسين أسلوب المسرح الإنجليزي . وعبرت الملكة عن ورعها

وتقواها بأن حولت إلى فقراء رجال الدين فى الكنيسة الرسمية نصيب العرش فى « بشائر الثمـــار » والعشور الكنسية (١٧٠٤) ، ولا تزال الحكومة البريطانية تدفع « منحة الملكة آن » هذه . وأنجبت الملكة أطفالا فى كل عام بانتظام تقريبا ، ولكنهم ماتوا فى سن الطفولة عدا واحدا . ولم يبق على قيد الحياة بعدها منهم أحـد . ولشد ما أظلمت حياتها وتحطم قلبها لكثرة ما شيعت من جنازات .

ولو كان فى مقدور الملكة الآن أن تحدد هى السياسة القومية لعقدت الصلح مع فرنسا ، واعترفت بما طالب به أخوها من أبيها المتوفى ، أن يتربع على العرش تحت اسم جيمس الثالث . ولكن وليم الثالث بارادته القوية كان قد أدخل انجلترا فى « الحلف الأعظم » كما أن الرجل الذى غلبت آراؤه ومشورته على كل ما عداها ، والذى كانت قد رفعته فور اعتلائها العرش من إرل إلى دوق مالبرو ، تقول أن هذا الرجل أغراها بأن تشقى فى حكمها لمدة أكثر من عشر سنوات بحرب داميه باهظه التكاليف . وكانت لا تزال واقعه تحت تأثير صديقتها ، وهى آنذاك دوقه والمشرفه على ملابس الملكة ، وعلى أموالها الخاصه . وكانت سارة تتقاضى ٥١٠٠ جنيه سنويا . واستغلت تأثيرها الذى كاد يكون مغناطيسيا على الملكه ، فى زيادة ثراء زوجها ، فعين مالبرو قائدا عاما للقوات البرية . كما عين بناء على اقتراحه (صديقه سدنى جودولفين وزيراً للخزانة لأنه كان أمينا بشكل شاذ ، كما كان قديرا فى الشؤن الماليه كما كان يمكن الاعتماد عليه فى تحويل الأموال فورا إلى قادة الجيش الذين كان جنودهم يبدون من الشجاعه بقدر مايقبضون من نقود . وقد يشوقنا أن نسجل أن جودولفين مات فقيراً ، بعد أن قضى نصف عمره يضطلع بشئون الخزانة ، وذهبت دوقه مالبرو المنيدة إلى أنه « خير من عاش من الرجال »(٥١) ومهما يكن من أمر فإنه قضى وقت فراغه فى صراع الديكه وسباق الخيل والميسر ، وهى رذائل معتدلة تعتبر مقاربه للفضيلة .

أن تجرد آن من الذكاء والفطنه سمح لوزرائها بالاستحواذ على قدر

كبير من السلطة وحقوق المبادرة التى كان البرلمان قد تركها للتاج ، ومن ثم نشبت المعارك السياسية (فيما عدا فترة حكم جورج الثالث) بين البرلمان والوزراء، لا بين البرلمان والملك . وفى ١٧٠٤ دخل الوزارة شخصيات جديدة : روبرت هارلى وزيرا للدولة ، وهنرى سانت جون وزير للحرب. ومس كلا الرجلين تاريخ الأدب مسا خفيفا : فان هارلى كان يستخدم ديفو وسويفت ، كما كان سانت ــ بوصفه فيسكونت بولنجبروك فيما بعد ــ ذا تأثير على بوب وفولتير ، كما أنه هو نفسه مؤلف أبحاث كانت يوما مشهورة . « أبحاث فى دراسة التاريخ » و « فكرة عن ملك محب لوطنه . وكان كلا الوزيرين يد من الشراب ، ولكن هذا لم يكن ميزة فى انجلترا فى ذاك الزمان . وكلاهما تولى منصبه بعون من مالبرو ، ولكنهما انقلبا ضده بتهمة اطالة أمد حرب الوراثة الأسبانية دون مبرر يدعو إلى ذلك .

ولد سانت جون (١٦٧٨) فى عهد شارل الثانى ، وتوفى (١٧٥١) فى أول سنى « دائرة المعارف » ، ومن هنا مثل تمثيلا دقيقا عبور أوربا من عودة الملكية إلى عصر الاستنارة فى فرنسا ، وتلقى أيام صباه تعليما دينيا كثيرا ، وأهدر قدرا كبيرا منه أيام كان رجلا . وأنه ليروى لنا : « كنت أرغم حين كنت صبيا على قراءة تعليقات دكتور مانتون الذى كان يفخر بأنه ألقى ١١٩ عظة عن المزمور رقم ١١٩[٥٢] » وفى ايتون وأكسفورد سعى جون وأحرز قصب السبق فى الذكاء والتكاسل الخالى من الهموم ، والانغماس فى الملذات والادمان على الشراب فى لباقة . وكان يفاخر بأنه يتناول أكبر قدر من الخمر دون أن يثمل . وبأنه يخادن ابهظ العاهرات نفقة فى المملكة[٥٣] . وفى لحظة أراد أن يكتفى فيها بواحدة تزوج من وريثة ثرية . ولكنها سرعان ماهجرته لخياناته ولكنه استمر ينعم بضياعها ، مع بعض فترات انقطاع يسيرة . ووجد فى ١٧٠١ أن الانتخاب للبرلمان لايكلف كثيرا ، نسبيا . وهناك حظى فى مجلس العموم بنفوذ عظيم نتيجة لوسامته وسرعة بديهته وبيانه المتدفق . ودخل الوزارة ولما يجاوز

السادسة والعشرين من العمر .

وكان أبرز انجازات هذه الوزارة هو توحيد برلمان انجلترا واسكتلندة، فإن البلدين على الرغم من خضوعهما لمليك واحد، كان لهما برلمانان منفصلان. واقتصاديات متعارضة ومذاهب دينية متنافرة ، وشنت كل منهما الحرب على . الأخرى ، زد على ذلك أن التعريفة الجمركية التى أملاها الحقد والحسد بين البلدين عوقت تجارتهما. وفى ١٦ يناير ١٧٠٧ وافق البرلمان الاسكتلندى، وفى ٦ مارس صدقت الملكة ، على بنود « الاتحاد » التى بمقتضاها أصبحت المملكتان — على حين احتفظت كل منهما بمذهبها الدينى المستقل — « المملكة المتحدة » لبريطانيا العظمى ، ولها برلمان بريطانى واحد ، مع حرية مطلقة فى الاتجار . على أن يختار ١٦ نبيلا اسكتلنديا لمجلس اللوردات، وينتخب ٤٥ عضوا فى اسكتلنده لمجلس العموم ، وينضم صليب سان جورج وصليب سانت أندرو فى علم جديد واحد . «اتحاد جاك » ولم يرحب أهالى اسكتلنده بالاندماج، ولمدة نصف قرن من الزمان تفاقمت العداوات القديمة. ولكن ما جاءت ١٧٥٠ حتى اعترف الجميع بأن الاتحاد كان خيرا وبركة. وتخلصت اسكتلندة من نفقات مزدوجة ، وانطلقت طاقتها الفكرية لتبدع فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر باكورة نتاج مشرق من الأدب والفلسفة .

وعزل هارلى وسانت جون عن الوزارة أثر فوز الأحرار (الهويج) فى أكتوبر ١٧٠٧ ، ولكن استمر تأثير نفوذ هارلى على الملكة عن طريق ابنة عمه « مسز أبيجيل ماشام » وكانت دوقة مالبرو قدمت هذه السيدة إلى الملكة آن من قبل . تخفف هدوؤها ولين عريكتها ورقة مزاجها عن الملكة التى أرهقت مسئولياتها الجديدة أعصابها كما أزعجتها نظرات سارة وصوتها المنيف . ورحبت سارة لبعض الوقت بتحررها من مداومتها على البقاء فى البلاط ، ولكنها سرعان ما فزعت حين اكتشفت تضاؤل نفوذها لدى الملكة : وكادت آن تكون بالطبيعة « محافظة — تورى » تقية محبة السلام ، على حين كانت سارة « متحررة — هويج » ضعيفة الإيمان ،

تسخر صراحة من حقوق الملوك الالهية على أنها تدجيل على الشعب وخداع له . وكم ألحت على الملكة فى تأييد مشيئة مالبرو فى شن الحرب على فرنسا حتى يتم القضاء عليها . وكشفت آن عن شىء جديد من قوة العقل والتفكير بعد أن تقلص ظل سارة . وعندما ثارت ثائرة ساره عليها بشكل وقح طردتها من الحاشية (١٧١٠) ، وصرحت الملكة آنذاك بأنها تحررت من أسر طال أمده .

وفى نفس السنة عاد فوز «المحافظين» فى الانتخابات ، بهارلى و بولنجبروك إلى الحكم ، وحل هارلى محل جودولفين فى وزارة الخزانة ، وتولى بولنجبروك وزارة الحربية ، وأصبح جوناثان سويفت كاتب الكراسات والنشرات ، البالغ الأثر ، لهما . وعين هارلى إرل أكسفور (١٧١١) وحظى سانت جون بلقب فيكونت بولنجبروك (١٧١٢). وابتهجت موسسات لندن حين سمعن بنبأ ترقية بولنجبروك ، قائلات : «أنه يحصل على ثمانية آلاف جنيه فى العام ، وكلها لنا(*)» وقدمت الأغلبية «المحافظة» إلى المجلسين (١٧١١) مشروعا ينص على أنه يشترط للترشيح للبرلمان امتلاك أرض ذات دخل سنوى لايقل عن ٣٠٠ جنيه لممثلى المدن ، وستمائة جنيه لمندوبى الريف(٥٤) . لقد بلغت الارستقراطية مالكة الأرض ذروتها آنذاك فى انجلترا .

واعتزمت الوزارة الجديدة — على حين رفض مالبرو — انهاء الحرب بعقد صلح منفرد مع فرنسا . وفى ١٧١١ قدم هارلى إلى مجلس العموم اتهاما بالاختلاس ضد مالبرو . فتذرعوا بأن الدوق كان يجمع ثروة خاصة طائلة بوصفه القائد العام للقوات البريطانية ، وعن طريق مهام أخرى يتولاها ، وأنه بالاضافة إلى رواتبه السنوية التى تصل إلى نحو ٦٠ ألف جنيه . كان يقبض ستة آلاف جنيه سنويا من سيرسولومون مدينا متعهد توريد

(*) من رسالة مؤرخة ٢٤ أبريل ١٧٦٩ ، لفولتير ، وهو فى الغالب كاذب .

الخبز للجيش . وأنه اقتطع لنفسه خاصة ٢½ ٪ من المبالغ التى كان يتسلمها من الحكومات الأجنبية لدفع رواتب القوات الأجنبية التى كانت تحت امرته . ولم توق عمارة قصر بلنهيم الضخم لأحد إلا لعين مهندسه . وكان مالبرو يشيد هذا القصر فى وودستوك قرب أكسفورد . وكانت الملكة قد أمرت أن تتولى الحكومة الانفاق على بنائه . وشرعوا فى البناء ١٧٠٥، ولم يتم فى ١٧١١ إلا نصفه الذى تكلف ١٣٤ ألف جنيه بالفعل(٥٥) ، وكان اتمامه يستلزم مبلغ ٣٠٠ ألف جنيه دفعت الحكومة أربعة أخماسه(٥٦) .

ودفع مالبرو بأن المبلغ المقتطع (٢½ ٪) كان مسموحا به بحكم العادة والعرف القائد للصرف منه — دون تسجيل على فى الحسابات — على الخدمات السرية وأعمال التجسس التى أتت بأحسن النتائج . وأبرز ترخيصا موقعا من الملكة تجيز له الاقتطاع ، كما أكد الحلفاء الأجانب أنهم أيضاً فوضوه فى الاقتطاع ، وزاد ناخب هانوفر على ذلك أن هذا المال استخدم بحكمة ، وأدى إلى كسب معارك كثيرة(٥٧) ، أما عن المنحة التى كان مالبرو يتقاضاها من مدينا فإن دفاعه كان غير مقنع . وأدانه المجلس بأغلبية ٢٧٦ صوتا ضد ١٧٥ . وعزلته الملكة من جميع مناصبه (٣١ ديسمبر ١٧١١) ، فغادر انجلترا إلى المنفى الذى اختاره لنفسه بنفسه ، وعاش فى هولنده أو ألمانيا حتى نهاية العهد . وعين الوزراء جيمس بتلر دوق أورمند الثانى ليتولى قيادة الجيوش البريطانية ، وفوضوه فى اقتطاع نفس النسبة من عقود توريد الخبز ومن الأموال الأجنبية ، وهو ما أدانوا به مالبرو(٥٨) . ولكن الشعب البريطانى تقبل سقوط مالبرو على أنه خطوة على طريق السلام .

وتفجر النزاع من جديد بين حزبى المحافظين والأحرار حول موضوع الوراثة الأسبانية . ذلك أنه فى ١٧٠١ حين مات آخر من بقى على قيد الحياة

من أولاد الملكة آن ، أقر البرلمان ـ رغبة منه فى احباط عودة أسرة ستيوارت إلى الملك مرة ثانية ، قانونا للتسوية ينتقل عرش انجلترا بمقتضاه فى حالة عدم وجود عقب لوليم الثالث والأميرة آن — إلى الأميرة صوفيا وورثتها من صلبها ، وهم بروتستانت . وكانت صوفيا ، زوجة ناخب هانوفر ، بروتستانتية يقينا ، يجرى فى عروقها بعض الدم الملكى البريطانى لأنها من حفيدات جيمس الأول . وكانت آن قد قبلت هذا التدبير ضمانا للحفاظ على انجلترا بروتستانتية . ولكن الآن وقد آذنت شمس حياتها بمغيب فإن عطفها على أخيها المحروم من حقه فى العرش ، نما واشتد ، ولم تدع مجالا للشك فى أنها لابد أن تساند مطالبة جيمس الثالث بالعرش إذا هو ارتضى نبذ الكثلكة . وأعرب الأحرار «عن تأييدهم التام لوراثة آل هانوفر للعرش ، على حين مال المحافظون إلى وجهة نظر الملكة . وفاوض بولنجبروك جيمس ، ولكن الأمير أبى التخلى عن عقيدته الكاثوليكية . على أن بولنجبروك الذى لم تكن الديانات فى نظره إلا أثوابا متباينة تكسو الموت جلالا وشرفا . حاول بكل الوسائل إلغاء « قانون التسوية » وابقاء وراثة العرش لجيمس ، وعاب على هارلى تباطأه الشديد فى هذه المسألة ، وبناء على اقتراح منه عزلت الملكة آن هارلى وهى كارهة . وبدا لمدة يومين اثنين أن بولنجبروك سيد الموقف .

ولكن فى ٢٩ يوليه انتاب الملكة مرض خطير نتيجة تأثرها وحزنها الشديد للخلافات بين وزرائها . وهنا تسلح البروتستانت فى انجلترا لمقاومة آية عودة للملكية آل ستيوارت ، ونبذ المجلس المخصوص سياسة بولنجبروك ، وأقنع الملكة المترددة بتعيين دوق شروزبرى وزيرا للخزانة ورئيسا للحكومة . وفى أول أغسطس ١٧١٤ فارقت آن الحياة . وكانت صوفيا قد قضت نحبها قبل ذلك بشهرين ، ولكن « قانون التسوية » مازال قائما . وأرسل المجلس إلى ابن صوفيا ، ناخب هانوفر ، يبلغه أنه أصبح الآن جورج الأول ملك انجلترا

أن سنى حكم وليم ومارى وآن (١٦٨٩؟ - ١٧١٤) كانت سنين حيوية بارزة فى تاريخ انجلترا . وعلى الرغم من الإنحـلال الخلقى والفساد السياسى والنزاع الداخلى ، شهدت هـذه السنوات انقلابا أسريا (تغييرا جذريا فى الأسرة المالكة) ، وإقرار البروتستانتيه نهائيا فى انجلترا ، وانتقال سلطة الحكم من الملك إلى البرلمان بشكل لارجعة فية . كما شهدت نشوء الوزراء الأقوياء ، وهذا بدوره أدى إلى الانتقاص من سلطان الملك . وشهدت لآخر مرة فى ١٧٠٧ اعتراض الملك على تشريع البرلمان ، وخطت خطوة أوسع فى اقرار التسامح الدينى وحرية الصحافة . ووحدت بطريقة سلمية بين انجلترا واسكتلنده ، فى دولة أقوى ، هى بريطانيا . وأحبطت محاولة أقوى ملوك العصر الحديث ليجعل من فرنسا الدكتاتور الآمر الناهى فى أوربا ، وبدلا من ذلك جعلت انجلترا سيدة البحار ، ووسعت ممتلكات انجلترا فى أمريكا ، مما كان له نتائج تاريخية بعيدة المدى وشهدت هذه السنوات أيضا انتصارات العلم والفلسفة فى انجلترا فى « مبادىء اسحق نيوتن » ، وفى كتاب لوك « بحث فى التفاهم الإنسانى » . أما سنى حكم آن الوديعة ، وهو حكم قصير لم يتجاوز اثنى عشر عاما ، فقد كان عهد انبثاق فى الأدب — ديفو ، أديسون ، ستيل ، والفترة الأولى من حياة الاسكندر بوب — لم يكن له نظير فى أى مكان فى العالم فى ذاك العصر .

الفصل الحادى عشر

من دريدن إلى سويفت ١٦٦٠ — ١٧١٤

١ — صحافة حرة

ترى ماذا حدا برجل فرنسى أن يكتب في ١٧١٢ بزت « انجلترة فرنسا فى الانتاج الأدبى كما وكيفا وأن مركز الحياة العقلية والفكرية . . انتقل أكثر فأكثر إلى الشمال حتى قام الإنجليز حوالى عام ١٧٠٠ « بأكبر دور خلاق(١) » إن رجلا انجليزيا نعم بمآثر فرنسا يرد التحية فيقول : إن جزءا من هذا الحافز جاء عن طريق آداب السلوك والعادات التى جلبها شارل الثانى والمهاجرون العائدون ، وأن جزءا آخر نبع من ديكارت وباسكال وكورنيل وراسين وموليير وبوالو ومدموازيل دى سكودرى ومدام دى لافايت ، ومن الفرنسيين المقيمين فى انجلترا مثل سانت أفرموند وجرامونت . وأننا لنرى التأثير الفرنسى فى الملهيات الشهوانية الجنسية وللأسيات البطولية التى ظهرت على المسرح فى عودة الملكية ، وفى الانتقال من غزارة النثر فى عهد اليزابث وتلافيف فترات ملتون إلى النثر المهذب المصقول المنطقى الذى دبجه دريدن وهو يكتب المقدسات وإلى الشعر الذى نظمه بوب : ومضى الآن قرن من الزمان (١٦٧٠ — ١٧٧٠) كان الأدب الإنجليزى فيه نثرا ، حتى ولو كان موزونا مقفى ، ولكنه نثرا فخما واضحا ممتازا من الطراز الأول .

ومهما يكن من أمر فان الأثر الفرنسى كان مجرد استحثاث ، ولكن جذور المسألة كانت فى وسع انجلترا نفسها : فى عودة الملكية المقرونة بالبهجة والفرح والتحرر ، وفى التوسع الاستعمارى ، وفى إثراء الفكر بفضل

التجارة ، وفى الانتصارات البحرية على الهولنديين ، وفى قهرها (١٧١٣) لفرنسا التى كانت قد انتصرت على أسبانيا . ومن ثم انفتح الطريق إلى الامبراطورية شمالا ، وكما أجرى لويس الرابع عشر الرواتب على المؤلفين بوصفها رضيخة أو رشوة تمنح الأنصار ، فان الحكومة الإنجليزية ، بطريقة شبيهة بهذه ، كافأت الشعراء أو الناثرين المحبين لوطنهم أو المشايعين للحكومة — دريدن كونجريف ، جاى ، برير ، أديسون ، سويفت — بالرواتب تخصصا لهم ، وبتناول الطعام على موائد الارستقراطية ، وبحصة على المبيعات من المطبوعات ، أو بالوظائف ذوات الدخل الكبير والجهد اليسير فى الإدارة ، من ذلك أن أحدهم صار وزيرا ، ونظر فولتير فى شىء من الحسد إلى هذه الوظائف السياسية(٢) . ورعى شارل الثانى العلم والجمال لا الأدب والفن . ولم يسكترث وليم الثالث والملكة آن بالأدب . ولكن وزراءهم — حين وجدوا أن الكتاب نافعون فى عصر الصحافة والنشرات والمقاهى والدعاية — أغدقوا المال على الأقلام التى يمكن أن تخدم التاج أو الحزب أو الحرب . وأصبح الكتاب سياسيين ثانويين ، وبعضهم مثل برير Prior ، صار من رجال السلك الدبلوماسى ، وبعضهم مثل سويفت وأديسون برع فى التعيين فى الوظائف وفى المحسوبية وفى التدخل فى شئون السلطة . وأهدى المؤلفون أعمالهم إلى اللوردات وسيدات المجتمع ، تقديرا كريما لما ينتظر أن يحظوا به من خيرات وفضل وعطف ووصال ، فى عبارات اهداء ملؤها المديح والاطراء والتحيات والتمنيات ، مما جعل هؤلاء السيدات وأولئك اللوردات أسمى من أبوللو أوفينوس فى جمال الجسم والقوام ، ومن شكسبير وسافو فى كمال العقل والذهن .

وساعدت الحرية الذهب على اطلاق العنان لفيضان المداد وجريان القلم . وكانت قصيدة ملتون « أريوباجيتيكا » قد اخفقت فى القضاء على « قانون الرقابة » ، الذى تحكمت به الرقابة فى الصحافة فى عهد ملوك أسرتى التيودور وستيوارت ، واستمر القانون نافذ المفعول فى عهد كرومول غير المستقر ،

وبعده فى عودة الملكيه لآل ستيوارت ، ولكن حين بدأت حكومة جيمس الثانى فى إزعاج الأمه ، شرع عدد أكبر فأكبر من كتاب الكراسات والنشرات يتحدون القانون ويدخلون السرور على قلوب الشعب . وعندما اعتلى وليم الثالث العرش ، كان هو وأنصاره « الأحرار » مدينين بأكبر الفضل للصحافة إلى حد أنهم عارضوا تجديد قانون الرقابة ، فانتهى العمل به ١٦٩٤ ، ولم يجــدد ، وتدعمت حرية الصحافة تلقائياً . وربما ظل الوزراء الملكيون يعتقلون الكتاب بسبب هجماتهم المنيفة المتطاولة على الحكومة وظل « قانون التجديف » (١٦٩٧) يفرض عقوبات صارمة على التشكك فى أساسيات الدين المسيحى ، ولكن انجلترا نعمت منذ ذلك الوقت فصاعدا بحرية الأدب التى أسهمت ، على الرغم من سوء استخدامها غالباً ، إسهاماً كبيراً فى نمو الفكر الانجليزى .

وتضاعف عدد الدوريات ، وانتظم صدور الصحف الأسبوعية منذ ١٦٢٢ ، وعطلها كرومول جميعاً ماعدا اثنتين ، ورخص شارل الثانى فى صدور ثلاث منها تحت إشراف رسمى ، أصبحت واحدة منها هى « أكسفورد » وفيما بعد لندن جازيت « الناطقة باسم الحكومة » وكانت تصدر نصف شهرية أو نصف أسبوعيه منذ ١٦٦٥ . وفور إلغاء قانون الرقابة صدرت عدة صحف أسبوعية . وفى ١٦٩٥ أسس المحافظون أول جريدة يومية انجليزية « ساعى البريد Post Boy » والتى لم تصدر إلا أربعة أيام فقط ، حيث عاكسها « الأحرار » فى الحال بصحيفة « البريد الطائر Flying Post » . وأخيراً فى ١٧٠٢ أصبحت The English Gourant هى الصحيفة اليومية المنتظمة فى انجلترا — فرخ صغير من الورق مطبوع على وجه واحد فقط ، تقص الأنباء ولا تدون آراء ، ومن هــذه المبات المتقطعة نشأت عمالقة الإعلان التى نراها اليوم بين أيدينا .

وأتى ديفو بمستوى جديد فى صحيفه « ريفيو » (١٧٠٤ ١٧١٣) وكانت أسبوعية تقدم التعليقات كما تقدم الأنباء . وهى التى بدأت القصة

المسلسلة وتبعه ستيل فى « تاتلر » (١٧٠٩ - ١٧١١) . وسما هو وأديسون بهذا التطور إلى ذروته التاريخية فى « سبكتاتور » (١٧١١ — ١٧١٢) وروع حكومة المحافظين التوزيع الإجمالى وتأثير الصحف اليومية والأسبوعية والشهرية ، ففرضت عليها ضريبة تمغة تتراوح بين نصف بنس وبنس واحد. مما جعل البقاء مستحيلا بالنسبة لمعظم الدوريات . وكانت « سبكتاتور » إحدى الدوريات التى احتجبت . وقال سويفت لبطلته وصديقته ستللا : « لقد دمروا شارع Grub بأسره[٣] (الشارع الذى يقطنه محررو الصحف) . وأصدر بولنجبروك فى ١٧١٠ « اجزامنر Examiner » الأسبوعية ليدافع فيها عن سياسة وزارة المحافظين . ووجد فى جوناثان سويفت رجلا واسع الاطلاع لاذع القدح والطعن ، متوقد الذكاء . لقد وقع المال على أداة جديدة ، وطغى سلطان الصحافة الدورية شيئاً فشيئاً على تأثير المنابر فى تشكيل الرأى العام ، وإعداده للأهداف الخاصة ، ودخلت التاريخ قوة جديدة تنزع عن الناس الصبغة الدينية وتنزع بهم إلى التعلق بالأمور الدنيوية.

١١ — المسرحية فى فترة عودة الملكية

فيما بين عامى ١٦٦٠ و ١٧٠٠ كان ثمة أداة أخرى شكلت أو شوهت أو عبرت مجرد تعبير عن روح لندن المجردة من الحيويه والنشاط . وحيث استطاب شارل الثانى المسرحيه الباريسيه فإنه أجاز فتح مسرحين : الأول للملك وجماعته فى « درورى لين » والثانى لدوق يورك وجماعته فى « لنكولن ان فيلدز » وفى ١٧٠٥ افتتح مسرح الملكة فى هايماركت ، ولكنها نادراً ماشهدت التمثيل فيه وفى أيام شارل الثانى كان مسرحان اثنان يفيان بالحاجه عادة . وظل البيوريتانيون يقاطعون المسرحيه ، أما الجمهور بصفه عامه على أيه حال ، فلم يكن يرخص له بدخول المسارح بين ١٦٦٠ و ١٧٠٠[٤] ولم يقصد إليها فى معظم الأحوال إلا كل مريد ماجن من رجال الحاشيه ، وحثالة الطبقه الأرستقراطيه والمتصلين بها ، والأثرياء المتعطلين الذين

يقضون أوقاتهم فى المسارح والنوادى وسباق الخيل وغيرها . يقول : دكتور جونسون الوقور : « أن المحامى الوقور ليحط من قدره ويمتهن كرامته ، وأن المحامى الناشىء ليسىء إلى سمعته ، إذا غشى بيوت الاباحية المنحلة هذه(٥) » وشكل النساء قسما صغيراً من النظارة على أمن إذا ذهبن إلى المسرح كن يخفين شخصياتهن وراء الأقنعة(٦) . وكانت العروض تبدأ فى الساعة الثالثة بعد الظهر ، حتى إذا تحسنت الإضاءة فى الشوارع (حوالى ١٦٩٠) أجلت إلى السادسة . وكان أجر الدخول أربعة شلنات للمقصورات وللمقاعد الخلفية شلنين ونصف وللشرفات شلنا واحداً . وكانت أجهزة التأثير المسرحى وتغيير المناظر أكثر إتقاناً بكثير مما كانت عليه فى أيام اليزابيث . ولو أن حجرة نوم واحدة وملحقاتها ربما كانت تكفى لمعظم ملهيات عصر عودة الملكية ، وحلت الممثلات محل الغلمان فى تأدية أدوار النساء ، وكن كذلك عشيقات ، من ذلك أن مرجريت هيوز التى مثلت ديدمونا لأول مرة ظهرت فيها امرأة على المسرح الانجليزى (٨ ديسمبر ١٦٦٠) كانت عشيقة الأمير روبرت(٧) . وفى عرض لمسرحية دريدن « الحب الاستبدادى » تعلق قلب شارل الثانى لأول مرة بخليلته نل جوين التى كانت تمثل دور فاليريا(٨) . إن طبيعة جمهور المشاهدين ، ورد الفعل ضد البيوريتانية ، وأخلاق البلاط ، وذكريات روايات عصرى اليزابيث وجيمس الأول (وبخاصة روايات بن جونسون) وأحياء هذه الروايات واستعادة تلك الذكريات من جديد ، وتأثير المسرح الفرنسى والملكيين المهاجرين ، كانت كلها عوامل تجمعت لتشكل المسرحية أيام عودة الملكية .

وكان الإسم اللامع فى «مسرحية المأساة» فى عودة الملكية هو دريدن لنتركه مؤقتاً ، لنتحدث عن مسرحية توماس أوتواى « الحفاظ على فينيسيا » التى عمرت بعد كل روايات دريدن وظلت تمثل حتى ١٩٠٤ . إنها قصة حب مطعمه بمؤامرة أصدقاء كونت دى أوزونا لقلب سناتو فينسيا فى ١٦١٦ . ويرجع ماصادفته من نجاح فى البداية من ناحيه ، إلى الصورة الساخرة التى

رسمتها لإرل شافتسبری الأول (عدو شارل الثانی وصديق لوك) فی شخصيه أنطونيو الذی يحب أن تضربه عشيقته البغی ، ومن ناحية أخری إلى التشابه بين هذه المؤامرة وبين المؤامرة البابويه «الحديثه» ومن ناحيه ثالثه إلى تمثيل توماس بترتون ومسز البزابيث باری ، ولكن الروايه تقف اليوم على قدميها إن مناظرها المنزليه سخيفه مؤذية ، خاتمتها تنشر الموت فی إجماع أقرب شبها بالمسرحيه الموسيقيه (الأوبرا) ، ولكن حبكه الروايه متقنه دقيقه ، وشخوصها مصورة تصويراً مميزاً ، والحركة مسرحيه إلى أبعد حد ، والشعر المرسل فيها ينافس مثيله فی المسرحيه فی عصر اليزابيث ، باستثناء مارلو وشكسبير . ووقع أوتوای فی غرام مسز باری ، ولكنها آثرت عليه معاشرة إرل روشستير ، وبعد كتابه عدة مسرحيات أخری ناجحه أخرج الشاعر سلسلة من الروايات لم يكتب لها النجاح ، وانحدر إلى مهاوی الفقر والعوز وفی روايه أنه مات جوعا(٩) .

إن ذكری المسرحيه فی فترة عودة الملكيه حيه من أجل ملهياتها . فإن ما كان فی هذه الملهيات من مرح وسخريه ، ومحاورات داعرة ، ومغامرات فی الخدع ، بالإضافه إلى قيمتها فی أنها مرآة تعكس حياة طبقه واحدة فی جيل واحد . كل أولئك أكسبها شعبيه جزئيه ، إن لم تكن مختلسه لا تكاد تستحقها . فإن مجالها ضيق إذا قيست بملهيات عصر اليزابيث أو موليير ، وأنها لا تصور الحياة بل تصف عادات المتعطلين المتسكعين فی المدن والحاشيه الخليعه المتهتكه ، وتتجاهل الريف إلا إذا أخذوه هدفا للاستهزاء والسخريه ، أو « سيبيريا » ينفی إليها الأزواج زوجاتهم للتطفلات . إن بعض المسرحيين الإنجليز شاهدوا موليير يمثل أو تمثل رواياته ، واستعار بعضهم شخوصه أو حبكات مسرحياته ، ولكن أحدا منهم لم يبلغ نزعته فی مناقشه الأفكار الأساسيه ، فالفكرة الأساسيه الوحيدة فی هذه الملهيات هی أن الزنی هو الهدف الرئيسی لأعظم عمل بطولی فی الحياة . وكان المثل الأعلى للرجل فيها هو ما وصفه دريدن فی « المنجم المزاح » على أنه « سيد ماجد » رجل ثری

عاطل يغشى النوادى والمقاهى والمسارح والمواخير ، يرتدى أفخر الثياب ، يأكل ويشرب ويفسق ويعاشر البغايا إلى أقصى حد ممكن » . وفى رواية فاركو « خداع العاشقين » جاء على لسان أحد الشخصيات ، وكأنما يقول سيد مهذب لآخر : « إنى أحب جوادا جميلا ولكنى أتركه لرجل آخر ليتولى العناية بأمره ، وإنى كذلك بالمثل أحب سيدة جميلة »(١٠) وهذه لا يعنى أنه لايشتهى زوجة جاره ولا يمد عينيه إليها ، بل أنه يريد أن يستمتع بكل مفاتنها وأطايبها ، على حين ترك لزوجها أن يرعى شئونها وينفق عليها . وفى رواية كونجريف « طريق الحياة الدنيا » يقول ميرابل للمعشوق موضع الإعجاب لزوجة صديقه « يجب أن تشمرى بالاشمئزاز والنفور والكراهية لزوجك بما يجعلك تستمتعين بحبيبك أو عشيقك(١١) » . ويندر أن ترى الحب فى هذه الروايات يرتفع فوق الشهوة الجسدية التى تلتهب بين جوانح الطرفين ، يريدان إطفاءها . وإنا لنتلهف عند قراءتها أن تقع العين على ظل لمعانى النبل والشرف ، ولكننا لانرى فيها ألا أخلاقيات للمواخير وبيوت الدعارة .

إن وليم وتشرلى هو الذى استهل هذا التقليد . وكان أبوه ملكيا من أسرة عريقة تملك ضيعة كبيرة ، وأرسل ولده إلى فرنسا لتلقى العلم ، عندما تولى البيوريتانيون مقاليد الحكم فى إنجلترا ، إصرارا منه على ألا ينشأ الولد بيوريتانيا . ولم يعتنق وليم قط هذا المذهب ، ولكن الأسرة صعقت حين أصبح كاثوليكيا . وسرعان ماعاد إلى البروتستانتية لدى عودته إلى انجلترا ، وهناك درس فى أكسفورد وتركها دون الحصول على درجة جامعية . وإنصرف إلى كتابة الروايات . وجمع ثروة من رواية « حب فى الغابة » (١٦٧١) التى أهداها إلى ليدى كاسلمين . واستقبله فى البلاط الملك الودود اللطيف الذى لم يشك ولم يتذمر حين وجد آن وتشرلى وتشرشل كليهما ، يشاركانه غرام عشيقته كاسلمين(١٢) .

واشترك وليم فى الحروب الهولندية ١٦٧٢ ، ببسالة متوقعة من سيد

ماجد ، وعاد إلى انجلترا ولم يمسسه سوء ، وأحرز نجاحا آخر فى « الزوجة الريفية » (١٦٧٢) . ودعى النظارة فى المقدمة ــ إذا لم تعجبهم الرواية ــ إلى دخول غرفة ملابس الممثلين فى ختامها ، وهناك :

« فإننا عن طيب خاطر ... نتخلى لكم يا شعراءنا ، عن العذارى ، لا بل عن عشيقاتنا كذلك » .

وخلاصة الموضوع أن مستر بنشويف اصطحب زوجته معه لقضاء أسبوع فى لندن ، وأحكم حراستها إلى حد أنها أوقعت فى شرك الغواية تحت سمعه وبصره ، ذلك أن من يدعى مستر هورنر ــ العائد من فرنسا لتوه ، والمتلهف على الوصول إلى الزوجات دون عائق ــ أذاع بين الناس أنه خصى ، ومن هنا يستنتج بنشويف أنه لاحرج فى أن يفتح بيته لمثل هــذا العنين العاجز ، ولــكنه سرعان ما يكتشف أن زوجته تكتب رسالة غرامية إلى هذا الزير المتودد إليها الذى أدعى العنة ، فيرغمها على كتابة رسالة أخرى تكيل له فيها أقذع السباب والشتائم ، وما أن أدار الزوج ظهره حتى أسرعت هى فوضعت رسالتها الغرامية الأولى مكان الرسالة الثانية التى تنم عن الغضب والاستياء . وسلم الزوج المزهو المفاخر بالسيطرة عــلى الموقف الرسالة الأصلية إلى هورنر . وبعد فترة اتجه ظن الزوج إلى أن هورنر أقدر مما ترددده عنه الشائعات ، ففكر فى أن يشغله ، ووافق على أن يأخذ إليه أخته أليثيا . وتتنكر الزوجة حتى تبدو وكأنها أليثيا ، ويحملها زوجها إلى عشيقها . وتختتم الرواية « برقصة الديوث » ، وهورنر هو المنتصر فى النهاية ، ثم تلقى إحــدى الممثلات شعراً توجه فيه اللوم والتقريع إلى الرجال الحاضرين ، لأنهم لايتحلون بقدر كاف من الرجولة .

« وقد يظل الناس على اعتقادهم بأنكم تمتلئون قوة ورجولة ، ولــكننا نحن النساء لاسبيل إلى خداعنا » .

واقتبس وتشرلى كثيراً من « الزوجة الريفية » من رواية موليير « مدرسة الأزواج ومدرسة الزوجات » وفى روايته التالية « التــاجر

الشريف » حول وتشرلى شخصية « ألست » فى رواية موليير « مبغض البشر » إلى شخصية كابتن مانلى الذى لم تتعد فكرته عن التعامل الشريف، مجرد تناول كل الناس والأشياء بلغة بذيئة مقذعة . والغريب المدهش فى الأمر أن سكان لندن ، بل حتى سكان بعض الضواحى ، أحبوا وصف الحياة على أنها سعى متصل وراء شهوة الجسد ، يلطف منه بعض التجديف فى الحديث . وفى إحدى المكتبات فى « تنبريدج ولز » سمع وتشرلى إحدى السيدات تسأل عن كتابه المنشور حديثاً « التاجر الشريف » فغمرته نشوة الفرح ، ولم تكن هذه إلا كونتس دور جيدا ، الأرملة الثرية ، فطلب يدها وتزوجها . ووجد أنها كانت تضعه تحت مراقبة أشد وأكثر مثابرة مما كان يفعل بنشويف ، ولكنها ماتت فجأة فظن أن أموالها لا بد أن تؤول الآن إليه ، ولكن القضايا القانونية التى تشابكت فيها التركة حالت دون ذلك ، فلم يستفد منها شيئاً . وعجز عن تسديد الديون التى كان قد اقترضها ثقة منه بأيلولة التركة إليه ، فأرسل إلى السجن حيث قضى سبع سنين وهنت فيها عزيمته وذبل نشاطه ، حتى جاء جيمس الثانى ، وسدد — قبل إرتداد وتشرلى إلى الكاثوليكية ثانية أو بعده — ديونه وأجرى عليه راتبا . وبلغ وتشرلى أرذل العمر فى شقاء ومعاناه . وظل مع عجزه يلاحق النساء ، ويكتب نظما ، حاول صديقه الشاب بوب أن يحوله إلى شعر . وفى سن الخامسة والسبعين تزوج الفاجر العجوز امرأة شابة ، ولم يعمر بعد الزواج إلا عشرة أيام ، ووافته المنية فى أول يناير ١٧١٦

وكان سيرجون فانبر وألطف من كتب عن الزنى والزناة . وكان « جون بول » (الرجل الإنجليزى النموذجى) يتجسد فيه تماماً ، فهو خشن مرح طلق المحيا ، يحب طعام انجلترا وشرابها ، ولو أن جده لوالده هو جلليس فإن برو ، وهو فلمنكى من مدينة غنت قدم إلى بريطانيا فى عهد جيمس الأول . وكان جون يبشر بحسن المستقبل إلى حد أنه أرسل إلى باريس فى سن التاسعة عشرة ليدرس الفن . فلما عاد فى الحادية والعشرين التحق

بالجيش ، وقبض عليه فى كاليه بتهمة أنه جاسوس بريطانى ، وقضى مدة فى الباستيل ، وهناك كتب المسودة الأولى « للزوجة المغيظة » حتى إذا ماخرج من السجن عكف على كتابة الروايات . وفى ستة أسابيع — كما يروى لنا هو — فكر وتصور ، ثم كتب ومثل رواية « النكسة » (١٦٩٦) ، بمافيها من هجاء مرح للمتأنقين فى لندن ، مثل لوردفوبنجتون وملاك الأرض فى الريف مثل سيرتنبلى كلمزى ، ومس هويدن الشهوانية . وكان سيرتنبلى يضعها تحت الرقابة والحراسة منذ بلغت الحلم ، وفرح وابتهج لبراءتها وطهرها . « يا للبنت المسكينة : إنها ستفزع وتنزعج فى ليلة عرسها ، لأنها ، والحق أقول ، لا تميز الرجل من المرأة إلا بلحيته وبطلونه القصير »(١٤) . ولكن مس هويدن تصف نفسها على نحو آخر : « من حسن حظى ، هناك عريس قادم ، وإلا تزوجت الخباز ، سأفعل ذلك . فما من أحد يستطيع أن يقرع الباب ، ولكن حاليا يجب على أن أختبىء ، وهنا يمكن الكلبة السلوقية الصغيرة تحوم حول البيت طوال اليوم ، إنها تستطيع ذلك » . وعندما يأتى توم فاشون ليطلب يدها ، ويمهله أبوها أسبوعا ، تحتج الفتاة وتقول « أسبوع : ولماذا ؟ إنى أكون عند ذاك امرأة عجوزاً »(١٥) :

ونجحت مسرحية « النكسة » نجاحا كبيرا إلى حد أن فانبرو تعجل إكمال « الزوجة المغيظة » (١٦٩٧) وكانت هذه من أنجح أعمال ذاك العصر . وظل دافيد جارك طيلة نصف القرن التالى يتحف لندن ويمتعها بتمثيله المستهتر لشخصية سيرجون بروت ، وهى أعظم شخصية مشهورة مذكورة بين كل شخوص المسرحيات فى فترة عودة الملكية . وسيرجون هذا وسيم هزلى ساخر يمثل المظاهر الأقرب شبها بالخنزير فى ملاك الأرض الانجليز — يشرب الخمر ، ويتباهى ، ويهدد ويتوعد ، ويستأسد ، ويطن ويشكو من « عصر الالحاد اللعين هذا » . ويفتتح المسرحية برأيه فى الزواج حيث يقول :

«أى لحم متخم هو الحب ، إذا كان متبلا بالزواج ، إن عامين قضيتهما متزوجا قد أفسدا على حواسى الخمس . فكل شىء أراه ، وكل شىء أسمعه ، وكل شىء أحس به ، وكل شىء أشمه ، وكل شىء أتذوقه ، أظن أن فيه زوجة . فاضجر ولد يؤدبه ، ولا بنت ولا رجل بعمل الكفارة ، ولا عذراء عجوز بطهرها وعفتها ، قدر ضجرى بزواجى ويأسى اياه .

ومذ عرفت زوجته آراءه ، فانها تفكر فى ترويضه بأن تجعل منه ديوثا .

ليدى بروت : إنه أساء معاملتى أبلغ اساءة مؤخرا ، حتى كاد يستقر عزمى على أن ألعب دور الزوجة بكل ما فى الكلمة من معنى ، وأجعل منه ديوثا وأخونه ...

بيلندا : ولكنك تعلمين أنه ينبغى علينا أن نقابل الإساءة بالإحسان .

ليدى بروت : ربما كان هذا خطأ فى الترجمة [١٦] » .

وهنا تأتى جارتها ليدى فانسيفل التى تميل إلى ما تميل إليه ليدى بروت ، وتناقش شكوكها ومخاوفها مع وصيفتها الفرنسية التى تجيب بالفرنسية ، وهى هنا مترجمة :

ليدى ف : سمعتى يا آنسة : سمعتى :

الوصيفة : سيدتى ، إذا فقد المرء سمعته يوما ، فلن تعود بعد ذلك تزعجه .

ليدى ف : تبالك يا آنسة ، تبالك ، أن السمعة جوهرة .

الوصيفة : وقيمتها غالية جدا يا سيدتى .

ليدى ف : لماذا إذن ، يقينا أنك لن تضحى بعمرك من أجل متعتك ؟

الوصيفة : إنى فيلسوفة .

ليدى ف : انه لا يتفق مع الشرف (لقاء العاشقين) .

الوصيفة : ولكنه للمتعة ...

ليدى ف : ولكن إذا كان العقل يصلح من شأن الطبيعة .

الوصيفة : عندئذ يكون العقل وقحا ، لأن الطبيعة أخته الكبرى . .

ليدى ف : إذن أنت تؤثرين طبيعتك على عقلك ؟

الوصيفة : نعم ، بكل تأكيد .

ليدى ف : ولمـــاذا ؟

الوصيفة : لأن طبيعتى تغمرنى بالبهجه والسرور ، أما عقلى فيورثنى الجنون(١٧) .

وربمـا كانت هذه الراوية هى التى أثارت غضب جرمى كوليير إلى حد أنه فى العام الذى تلا ظهورها ، نشر هجوما عنيفا على المسرحية فى فترة عودة الملكية ، وعلى فانبرو بصفة خاصة . وكان كوليير كاهنا أنجليكانيا على درجة من العلم ، ومن الشجاعة والتشدد فى عقيدته . وحيث كان قد أقسم يمين الولاء لجيمس الثانى ١٦٨٥ ، فإنه أبى أن يقسم يمين الولاء لوليم ومارى ١٦٨٩ . واستنكر « الثورة الجليلة » ، حتى إلى حد التحريض على التمرد والعصيان . وقبض عليه ، ووجد أصدقاؤه مشقة كبيرة فى اقناعه بأن يسعوا لإطلاق سراحه بكفالتهم . ومنح الغفران للطلق لرجلين كانا على وشك أن يشنقا بتهمة التآمر على ما اعتبر كوليير أنها حكومة اغتصبت الحكم . فأنكر أسقفه عليه تصرفه وأدانه النائب العام ، ولكنه رفض المثول أمام أية محكمة . وعاش طريد العدالة محروما من الكنيسة حتى وافته المنيه . ولكن الحكومه قدرت نزاهته ، ولم تلاحقه بعد ذلك . وعبر وليم الثالث عن تقديره الكبير للمصفة التاريخيه التى قام بها كوليير .

وكان الكتاب الذى نشره كوليير يحمل عنوان « لمحة قصيرة عن الانحلال والدنس فى المسرح الإنجليزى » . وكان يحوى ، كما حوت معظم الكتب ، هراء كثيرا . واستنكرا الراعى الغاضب فى المسرحية الانجليزية أخطاء كثيرة قد تبدو لنا الآن تافهة ، أو أنها ليست أخطاء اطلاقا ، واعترض على أيه اشارة غير كريمه لرجل الدين ، ونشر فى سخاء شديد ، مظلة المصمه

من الخطأ فوق زعماء الوثنية والكهنة الكاثوليك والقساوسة المنشقين .
أدان كثيرا من كتاب المسرح ، من أشيلس إلى شكسبير إلى
كونجريف ودريدن ، حتى ليشعر كل المتهمين ببراءتهم لمجرد حشرهم فى زمرة
هؤلاء العظماء . ولكن كوليير أضعف قضيته فى مجادلته فى أن المسرح العام
يجب ألا يتناول الجريمة أو الانحلال الخلقى مطلقا . ولكنه وجه بعض
ضربات ناجحة لأن الأهداف البراقة واجهته فى كل مكان . فنعى على كثير
من كتاب المسرح فى فترة عودة الملكية ما أبدوا من اعجاب بالاسفاف
فى الزنى والفسق ، وأثر ذلك على جمهور المشاهدين . وظل الكتاب حديث
لندن طيلة عام كامل . ودافع الروائيون عن أنفسهم بأساليب متنوعة ، وتحول
فانبرو عن المسرحية إلى هندسة العمارة ، وانهمك لأكثر من عشر سنوات
فى بناء قصر بلنهيم ، ثم شاد قصر هوارد على طراز عمارة بللاديو الرومانى
الجميل (١٧١٤) . واعترف دريدن بخطاياه ، وأظهر ندمه على ما فعل
وأنكر كونجريف جريمته ، ولكنه أصلح من فنه .

وبلغ وليم كونجريف بمسرحية عصر عودة الملكيه ذروتها ونهايتها
معا . ولد بالقرب من ليدز فى ١٦٧٠ ، فى أسرة كانت عراقتها موضع فخره
واعتزازه وسط كل ما أحرز من فوز ونجاح . وكان والده قائد حامية
انجليزية فى أيرلنده ، ولذلك درس وليم فى مدرسة كلكنى ، وجلس على
نفس المقعد الذى جلس عليه جوناثان سويفت ، ثم فى ترنتى كولدج فى دبلن ،
ثم فى مدل تمبل فى لندن . وسرى فى دمه جرثومة الطموح الأدبى من بيئة
كان فيها الأذواق أنفسهم يؤلفون الكتب . وفى أول سنة كان يدرس فيها
القانون كتب « المستخفية » (١٦٩٢) التى امتدحها ادموند جروس
« لمرحها ودعابتها الخفيفة » ولأنها أقدم قصة طويلة (عن العادات وآداب
السلوك ؟) فى الإنجليزية[١٨] » ، ولكن صمويل جونسون قال عنها «
خير لى أن أمتدحها من أن أقرأها[١٩] » ، وحظى كونجريف بالشهرة من

فقفزة بملهاته الأولى « الأعزب العجوز » ١٦٩٣ ، التي أقسم دريدن - وهو عميد الأدب المعترف به في انجلترا في هاتيك الأيام - بأنه لم ير قط خيرا منها ، باكورة للعمل في مجال الرواية ومذ كان كونجريف غير واثق من أن الرجل الماجد ينبغي أن يكتب للمسرح ، فأنه اعتذر بأنه إنما كتبها « لمجرد التسلية في فترة إبلال بطيء من علة ألمت به » ، ومن هنا قال كولبير « ليس لي أن أتساءل ماذا كانت علته ، ولكن لا بد أنها كانت خطيرة جدا ، وأسوأ من الملاج[٢٠] » . أما هاليفاكس فإنه اتفق في الرأي مع دريدن ، حتى أنه عين كونجريف في منصبين يدران عليه دخلا كافيا يستطيع بفضله أن يحتفظ بمكانته ، سيدا كريما ، وأن يعمل في عالم المسرح .

ولم تلق روايته الثانية « التاجر المخادع » (١٦٩٤) ترحيبا كبيراً ، ولكن اطراء دريدن ، الذي وضع كونجرف مع سكسبير في مرتبة سواء ، شد من أزر المؤلف الناشيء ، وفي ١٦٩٥ ، في سن الخامسة والعشرين ، عاد إلى خشبة المسرح برواية « الحب للحب » التي فاق نجاحها كل ما عرف من نجاح . ولكن كولبير شجب الرواية واتهمها بأنها تؤيد الفسق والفجور وتشجعهما ، وبلغ رد كونجريف عليه من التفاهة حدا انقطع معه عن المسرح طيلة ثلاثة أعوام وعندما عاد إليه برواية «طريق الدنيا »(١٧٠٠) كان قد أفاد من النقد القاسي ، وأوضح أن الموهبة لا تعتمد على قلب الوصايا العشر رأسا على عقب . وكان في هذه الرواية التي قال عنها سوينبرن المغالي أنها « التحفة التي لا نظير لها والتي لا تدانيها رواية أخرى في روائع الملهاة الإنجليزية[٢١] » ، تقول كان فيها بعض أخطاء المسرحية في عصر عودة الملكية ، ولكن ليس فيها شيء من رذائلها ، . وقد ترهقنا عند قراءتها بظرفها المازح الساخر ، وتذكرنا بالتلاعب السخيف بالألفاظ في أعمال سكسبير الأولى ، ولكن إذا مثلت (ونطق بها بترتون ومسز بريسجيردل كما حدث في أول عرض لها) ، فلربما كانت أمتعتنا بما فيها من حيوية وتألق

يقول وتوود « أعرف سيدة تحب الكلام بلا إنقطاع ، ولا تترك أثراً حسناً(٢٢) » وحبكة الرواية بالغة التعقيد ، وقد تتفصى من طول الوقت المطلوب لفهم شجارات ومشروعات الشخوص التافهه الطائشة ، وحل العقدة لايبدو أن يكون سخفا لاحد له . ولكن فى الرواية بعض تهذيب فى اللغة وفى الدعابه ، وتفكير لطيف (ولو أنه غير عميق أبداً) ، مما يمكن أن يدخل السرور على الذهن غير المتعجل ، وليس فيها سخرية لاذعة ، كما هو الحال فى مسرحيات فابرو ، بل فيها تهكم مهذب رقيق ؛ تسرب من قصر فرساى إلى قصر هويتهول وإلى البلاط فى فترة عودة الملكية . وفى الرواية خلق الشخصيات الروائية وتصوير خصائصها . فالبطل ، ميرابل شخص غير جذاب ، ولكنه نابض بالحياة ، صياد التركات والثروات . وجدير بالذكر أنه يسعى للزواج من ميللامانت ، بدلا من إغرائها . ولكن لهما ثروة تساوى اثنى عشر زاليا ، وهى أجمل ما أبدع كونجريف ، ماجنة عابثة تريد ألف عاشق ، وتود الهيام بها لمدى الحياة ، من أجل مفاتن أو جمال لن يدوم إلا لسنوات عشر ، وترتضى الزواج ولكن بشروط :

ميللامانت : ... لاشك ياميرابل أنى سأبقى فى الفـراش فى الصباح كيفما أشاء .

ميرابل : هل من شروط أخرى تفرضينها ؟

ميللامانت : توافه : ـ أن أكون حرة فى تناول طعامى متى أشاء ، وأتناوله وحدى فى حجرة ملابسى ، إذا كنت متعكرة المزاج ، دون إبداء الأسباب . وألا يقتحم على أحد خلوتى . وأن أجلس « امبراطورة » وحدى إلى مائدة الشاى التى لايجوز لك أن تفكر فى الاقتراب منها قبل أن تستأذنى أولا وأخيراً حينما كنت ينبغى عليك أن تطرق الباب قبل الدخول . تلك هى شروطى ، حتى إذا استطعت أن احتملك لمدة أطول ، فقد أتضاءل هينًا فشيئًا حتى أصبح زوجة .

ميرابل : ألست حرا أن أعرض شروطى ؟

ميللامانت : هات أقصى ما عندك ...

ميرابل : أشترط عليك أن تستمرى تحبين وجهك وتعجبين به طالما أحببته أنا أو أعجبت به ، حتى إذا ألفته أنا ، فلا تحاولى قط تشكيله من جديد .. اشترط ثانيا ، أنك إذا حملت .

ميللامانت : آه : لا تذكر شيئاً من هذا .

ميرابل : وهذا هو المفروض ، وليبارك الله فى محاولتنا

ميللامانت : هذه محاولة كريهة قبيحة :

ميرابل : إنى أعترض وأمنعك من إرتداء الملابس المحبوكة التى تشد جسمك لتحتفظى بقوامك حتى لاتشوهى ولدى ويخرج وكأن رأسه قمع سكر(٢٣) ..

وهكذا ، وتلك سفسطة سارة ، وهجاء معقول ، يمر بخفة وسرعة ، فى أمان ، على مظاهر الحياة .

وضرب كونجريف نفسه مثلا لمظاهر كثيرة ، مؤثراً التركيب على المادة ، والتنوع على الوحدة . ولم يتزوج قط ، ولكنه اختلف إلى سلسلة من المعشيقات ، ولم نسمع عن ذرية أشقته أو أسعدته . وكان رفيقا لطيفا فى المقاهى والنوادى . وكانت أكرم العائلات تستقبله ببالغ الترحيب . وكان أكولا ، وكان يدهن قدميه ويعالجهما بانتظام من داء النقرس . وعندما زاره فولتير ١٧٢٦ استنكر كونجريف إطراء الشاعر الفرنسى لرواياته ، وأبدى عدم اكتراثه لها ، على أنها توافه لاتستحق الذكر ، وطلب إلى فولتير أن يعتبره مجرد رجل مهذب . عندئذ أجاب فولتير (طبقا لروايته) « لو كان الأمر كذلك ، وأنك مجرد رجل مهذب ، لما جئت لأراك(٢٤) » .

وفى ١٧٢٨ ، فى رحلة للاستشفاء بالمياه المعدنية فى باث ، انقلبت عربة كونجرف ، وظل يعانى من بعض إصابات باطنية حتى وافته المنية فى ١٩ يناير ١٧٢٩ . ودفن فى كنيسة وستمنستر . وفى وصيته ترك مائتى جنيه لمسز بريسجيردل التى كانت تقاسى الفقر فى شيخوختها ، أما معظم الضيعة ،

أى نحو عشرة آلاف جنيه ، فقد أوصى به لدوقة مالبرو الثانية البالغة الثراء ، ومضيفته الأثيرة لديه ، فحولت المال إلى عقد من اللآلىء . وكانت تضع على الدوام ، فى المكان الذى اعتاد الشاعر أن يجلس فيه إلى مائدتها ، تمثالا من العاج والشمع تدهن قدميه وتعالجهما بانتظام من النقرس(٢٥) .

وقبل موت كونجرف بزمن طويل ، كان المسرح الإنجليزى قد شرع يطهر نفسه ، حيث أمر وليم الثالث مدير الملاهى والمسارح أن يمارس بشكل أشد صرامة ، سلطته فى رقابة الروايات أو منع عرضها . وعززت موجة من الاستياء فى الرأى العام هذه الرقابة . وحرم قانون أصدرته الملكة آن إرتداء السيدات للأقنعة فى المسرح ، وقاطعت النساء اللائى حرمن هذا التستر ، الروايات المجردة من الاحتشام والوقار على وجه اليقين(٢٦) . واتفق سويفت مع الأساقفة على أن مسرح لندن وصمة فى جبين الخلق الانجليزى . وعرض ستيل روايته « العشاق الشاعرون بالاثم » (١٧٢٢) على أنها مسرحية أخلاقية . ونافس أديسون وقار للأساة الفرنسية وجلالها فى مسرحيته « كاتو » (١٧١٣) . وثمة علامة أقدم من هذا ، على التغيير الذى حدث فى المسرح ، ظهرت فى أسلوب رد دريدن على كولبير ، حيث أحس دريدن أن الكاهن غالبا ماحمل على كتاب المسرح دون وجه حق ، وأنه « فى كثير من المواضع .. فسر كلاتى بأنها تجديف وفجور ، وهى بريئة من هذا كله » ، ولكنه أضاف :

لن أتحدث كثيرا عن مستر كولبير لأنه اتهمنى فى أشياء كثيرة ، وله فى هذا كل الحق . واعترفت بذنبى فى كل الأفكار والتعبيرات التى أوردتها والتى يمكن أن توصم بحق بالفحش أو الدنس أو مجافاة الأخلاق الكريمة ، ولابد من سحبها . فإذا كان يناصبنى العداء ، فقد كتب له الانتصار على . أما إذا كان صديقا ، حيث أنى لم أهيىء له فرصة خاصة ليكون غير ذلك ، (لم أسىء إليه إساءة شخصية) ، فإنه سيسر بأنى ندمت(٢٧) .

٣ - جون دريدن ١٦٣١ - ١٧٠٠

كان أبوه من صغار ملاك الأرض ، يمتلك ضيعة متواضعة فى نورثمبتونشير وأرسل إلى مدرسة وستمنستر التى علمه فيها ، هو ورفيق دراسته جون لوك ، الأستاذ الضليع ريتشارد بزبى Buzby كثيرا من اللاتينية والنظام والانضباط . وهناك حصل على منحة دراسية مكنته من الذهاب إلى ترنتى كولدج فى كمبردج . وفى العام الذى حصل فيه على الدرجة الجامعية مات أبوه (١٦٥٤) وورث جون ، بصفته أكبر الأبناء البالغ عددهم أربعة عشر ، الضيعة التى كانت تدر ستين جنيها فى العام . وانتقل إلى لندن وحاول عن طريق الشعر أن يضيف شيئا إلى دخله ، احتيالا على العيش . وفى ١٦٥٩ نشر « مقطوعات شعرية بطولية » تخليدا لذكر كروموِل — وهو شعر تافه غير ذى قيمة بشكل ملحوظ من شاعر فى التاسعة والعشرين من عمره . والحق أن دريدن نضج فى بطء ، وكأنه رجل يتخطى فى جهد جهيد مائة عقبة ليرقى مدارج الثراء فى نجاح . وبعد ذلك بعام واحد هلل الشاعر لعودة الملكية فى قصيدته « عودة النجم » التى قارن فيها نجمة شارل الثانى بنجمة بيت لحم ، وما كاد أحد يتجرأ على اتهام دريدن بالتقلب ، لأن كل الشعراء تقريبا — عدا ملتون — ولوا ظهورهم إلى البيوريتانية وولوها شطر الملكية مع تغيير بارع لأساليبهم .

ولكن دريدن كان أشد اهتماما بالمسرح منه بمجرد نظم الشعر ، حيث أثرى الكتاب المسرحيون على حين حالف البؤس والشقاء الشعراء الجدد . إن دريدن لم يكن به ميل إلى المسرحية ، ولكنه كان يتطلع إلى الحصول على لقمة العيش بانتظام . وحاول كتابة الملهاة فأخرج « زير النساء الطائش » (١٦٦٣) التى وصمها بيبز بأنها « أحقر شىء رأيته فى حياتى تقريبا(٢٨) » . وفى أول ديسمبر ١٦٦٣ تزوج دريدن من ليدى اليزابث هوارد ابنة إرل بيركشير ، وأشرأبت الأعناق دهشا من سيدة ذات مكانة وثراء تتزوج من

مثامر ، ولكنها كانت فى سن الخامسة والعشرين ، وفى خطر من فوات الأوان ، كما كان أخوها سير روبرت هوارد للتلهف على التأليف والكتابة ، قد ضمن تعاون دريدن معه فى رواية « الملكة الهندية » التى أخرجاها ١٦٦٤ ، فى مشاهد بالغة البذخ ، مع نجاح عظيم .

وحددت هـذه المسرحية « للأساة » طورا فى تاريخ الأدب ، حيث تخلت عن الشعر المرسل الذى كان سائدا فى عصر اليزابيث ، واستخدمت المقاطع للقفاة ذات البيتين اللذين يتكون كل منهما من خمس تفاعيل ، أسلوبا منتظما لها . وكان لورد أورى قد تأثر بحلاوة واتساق القافية فى المأساة ، وأدخل هذا الأسلوب فى رواياته . وعاد دريدن إلى الشعر المرسل بعد ١٦٧٥ ، معترفا بأن القافية تفضى إلى تعويق سيل الكلام والتفكير . ولو أنه لقى عناء أكثر فى نظم الشعر لأصبح شاعرا أعظم مما كان .

وواصل نجاحه التعاونى بعمل مستقل ، وهو « الامبراطور الهندى » (١٦٦٥) ، وكان مونتزوما بطل الرواية . وما كاد يجد لمسرحيته مكانا على المسرح الانجليزى حتى داهم الطاعون لندن فأغلقت المسارح أبوابها لمدة عام . ولما زال كابوس الطاعون والحريق احتفل دريدن بخروج انجلترا من هـــذه المحنة المثلثة — الطاعون والحريق ثم الحرب — بقصيدة « سنة العجائب » (١٦٦٦) وهى مكونة من ٣٠٤ مقاطع رباعية الأبيات ، تتأرجح بين الوصف الرائع (المقاطع ٢١٢ — ٢٨٢) والتفاهة الصبيانية (مثل المقطع ٢٩) ولما فتحت المسارح أبوابها من جديد فى ١٦٦٦ عجل دريدن بالعودة إلى المسرحية . ولم ينتج حتى ١٦٨١ غير الروايات . وتميل مأسياته إلى أن تكون كلاما منمقا رنانا طنانا ، ولكنها بدت لأعين معاصريه أسمى منزلة من مأسيات شكسبير(٢٩) — ولما انضم دريدن إلى دافننانت فى إعادة صياغة « العاصفة » كانت النتيجة باجماع المشتركين فيها أن الصياغة الجديدة تنطوى على تحسين كبير للأصل . وربما اتفقت معهم « شركة الملكية » فى هذا الرأى لأنها كلفت دريدن بتزويدها بثلاث روايات فى السنة مقابل

حصة فى الأرباح التى بلغت ٣٥٠ جنيها فى العام . أما ملهيات دريدن ، على الرغم من أنها داعرة فاحشة مثل غيرها ، فإنها لاقت نجاحا أقل من نجاح مأسياته السبع والعشرين ، لأنه فى هذه الأخيرة استطاع أن يثير اهتمام الرأى العام فى الدنيا الجديدة والهمجيين البدائيين المدهشين فيها ، وهكذا يقول المنصور فى « فتح غرناطة » .

« أنا حر طليق مثلما خلقت الطبيعة الإنسان لأول مرة ، قبل أن يظهر قانون الاسترقاق الحقير ، حين هام النبلاء المتوحشون على وجوههم فى الغابات » .

وربما كان نجاح هذه الرواية بالإضافة إلى ما تضمنته رواية « سنة العجائب » من مديح منمق لشارل الثانى ، هو الذى كسب لدريدن منصب مؤرخ الملك وشاعر التاج (١٦٧٠) . وبلغ دخله السنوى آنذاك ألف جنيه فى المتوسط .

وفى خاتمة القسم الثانى من « فتح غرناطة » زعم دريدن تفوق مسرحية فترة عودة الملكية على المسرحية فى عصر اليزابيث . وذهب منافسوه ، على حين قدروا له هذه التحية والمجاملة ، إلى القول بأن فى هذا الإطراء مغاليا لمسرحياته . ولم يشارك المفكرون فى المدينة جمهور المسرح إعجابه وتذوقه اللغة الطنانة الرنانة المسرفة فى مأسيات دريدن ، وأصدر دوق بكنجهام بالاشتراك مع آخرين فى ١٦٧١ هجاء مرحا تحت عنوان « التجربة » سخر كثيرا من المستحيلات والحماقات واللغة الطنانة المنمقة فى المأسيات المعاصرة ، وبخاصة ما كتبها دريدن . وأحس الشاعر بأنها لطمة له ، ولكنه كظم غيظه لمدة عشرة أعوام . وبعدها شهر بالدوق بكنجهام أيما تشهير فى شخصية « زمرى » فى أقوى أبيات رواية « أبشالوم وأخيتوفل » .

وفى الوقت نفسه عملت دراسته لشكسبير على تحسين فنه . وفى أروع مأسياته (كله من أجل الحب) (١٦٧٨) تحول عن راسين والقافية إلى

شكسبير والشعر المرسل . وأفرغ كل جهده وبراعته في أن يبارى ما كان منه فى عصر اليزابث ، بصفة عامة ، وعرض فى ثوب جديد قصة أنطونيو وكليوبترة التى فقدت الدنيا من أجل قصة غرام قصيرة . ولو أن الرواية القديمة لم توجد لحظيت رواية دريدن بثناء وإعجاب أكبر ، ففى مواضع كثيرة منها ترتفع من الكلام الشديد البساطة إلى الشعور النبيل المكظوم ، كما يتمثل فى قدوم أو كتافيا إلى أنطونيو لتعرض عليه صفح أو غسطى عنه(٤٠) . ورواية دريدن محكمة فى ايجاز ، بقصد مراعاة الوحدات ، ولكنه بتضييق الحدث فى أزمة واحدة فى مكان واحد ثلاثة أيام ، اختزل الفكرة الرئيسية البطولية إلى قصة غرام ، وضيع المشهد الكبير الذى رأى فى « أنطونيو وكليوبترة » (لشكسبير) أن هذه القصة الغرامية ليست إلا جزءا من الأحداث التى هزت عالم البحر المتوسط وشكلته .

وأكثر الجوانب امتاعا وتشويقا اليوم فى مسرحيات دريدن هى المقدمات التى قدمها بها مطبوعة ، والأبحاث التى شرح فيها وجهات نظره فى الفن المسرحى . وكان كورنى قد ضرب له المثل ، ولكن دريدن جعل منه مجالا لنثر رائع . وإننا إذ نمر مرور الكرام بهذه الأبحاث الموجزة وهذه الحوادث القوية ، لنلمح أن عصر الخلق والابداع فى الأدب الإنجليزى كان يعبر إلى عصر النقد الذى قد يبلغ ذروته فى بوب . ولكن اجلالنا لتفكير دريدن وعقليته يزداد إذ نراه يسير فى رشاقة ورفق غور أسلوب المسرحية ومعالجة تفاصيلها ، وفن الشعر ، ويقارن فى مقدرة فائقة على التمييز والمقارنة ، بين المسرحين الفرنسى والإنجليزى . وانك لترى فى هذه المقالات والبحوث أن الالتواء المثير فى النثر فى عصر اليزابث ، والجمل الطنانة المتراكبة عند ملتون ، كل أولئك يفسح الطريق لأسلوب أبسط وأسلس وأكثر تنظيما ومنهجية ، أسلوب خلا من التراكيب ، اللاتينية ، وزاده صقلا التعرف على الأدب الفرنسى ، لم يجار الإبانة الفرنسية كل المجاراة قط ، ولكنه أخرج إلى القرن الثامن عشر — قرن النثر — نماذج

من كلام يتميز بالصفاء والروعة والسلاسة وسحر البيان ، وعدم التكلف والقوة . وهنا اتخذت المقالة الإنجليزية شكلها ، وبدأ العصر الكلاسيكى (النموذجى الممتاز) للأدب الإنجليزى .

ولكن إذا كانت مقالات دريدن تبدو الآن أعلى مكانة من الروايات التى كانت سببا فى كتابة المقالات ، فإنه فى الهجاء ساد عصره وأرهبه . وربما وقع حادث أطلق لسانه اللاذع . ذلك أنه فى ١٦٧٩ وزع جون شفيلد إرل ملجريف نشرة مخطوطة بعنوان « مقال فى الهجاء » لاتحمل اسم كاتبها ، هاجمت إرل روشستر ، ودوقة بورتسموث (لويزدى كيروال) ، بلاط شارل الثانى بصفة عامة . واتجه الظن خطأ إلى أن كاتب المقال هو دريدن الذى كان آنذاك يحصل على معظم دخله من الملك . وفى ليلة ١٨ ديسمبر فى « زقاق روز — كوفنت جاردن » هجم على دريدن نفر من السوقه وأوسعوه ضربا بالهراوات ، والمفروض أن روشستر استأجرهم لهذا الغرض ، ولو أن هذا لم يثبت على سبيل اليقين . وكان دريدن رجلا ودودا كريما مستعدا لمد يد المعونة وكيل المديح . ولكن نجاحه وغروره وافراطه فى التحدث عن نفسه وتوكيداته الخلافية ، كل أولئك جلب عليه عداوات كثيرة . واحتمل دريدن لبعض الوقت حملاتهم عليه دون رد علنى منه ، بل أن « كمين زقاق روز » لم يلق استجابة سريعة من قلمه . ولكنه فى ١٦٨١ جمع عديدا من اعدائه فى مرجل واحد وسلقهم بالسنة حداد ، فى ألذع هجاء عرف فى اللغة الإنجليزية .

وتلك هى السنة التى حاول فيها شافستبرى أن يقوم بثورة ليخلف ابن شارل الثانى غير الشرعى أباه على العرش وعندما ظهر القسم الأول من قصيدة « أبشالوم وأخيتوفل » كان شافتسبرى على وشك أن يقدم للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى . وانحاز هجاء دريدن إلى جانب الملك ، وربما كان بإيعاز منه(٣١) . وهزأ الشاعر من شافتسبرى فى شخص أخيتوفل الذى يحرض

أبشالوم (وهو دوق مونموث) على الثورة ضد أبيه داود (شارل الثانى) . ولما كان داود وشارل كلاهما قد أحبا عددا من النساء ، فان القصيدة تبدأ ببحث فى قيمة تعدد الزوجات :

« فى عهد التقى والورع ، قبل ظهور الكهنة وأساليبهم ، وقبل أن يصموا تعدد الزوجات بأنه خطيئة ، وحين تكاثر الإنسان بتعدد زوجاته وقبل أن يقتصر الواحد على واحدة بشكل بغيض . وحين استحثت الطبيعة — ولم يمنع أى قانون — على معاشرة الخليلات والزوجات دون تمييز ، وحين عاش ملك بنى اسرائيل، برضا السماء، على الزوجات والاماء من مختلف الأنحاء ، فى قوة وحيوية ، ونشر صورة خالقه على أوسع نطاق على الأرض ، بأمره » .

ويبتهج دواد بجمال ابنه أبشالوم ٠ وكان مونموث ، حتى قيام الثورة ، قرة عين أبيه الملك السعيد (شارل الثانى) ؛ أما بنو اسرائيل فهم الإنجليز (فى القصيدة) :

جنس عنيد متقلب متذمر ، أرهق النعمة الإلهيه إلى آخر مداها ، شعب الله المدلل الذى انغمس فى الملذات والشهوات ، والذى لم يستطع أن يحكمه ملك أو يرضيه إله (٣٢) .

وأستروفل هو رئيس شياطين الخيانة ، وتتحقق لدن لفورها أنه شافتسبرى :

وكان على رأس هؤلاء جميعا اخثيوفل الكاذب ، وهو اسم ملعون كريه على مر العصور ، أهل لكل التدابير الخفية والمشورات الملتوية ، ذكى جرىء مضطرب الحواس ، قلق ، لايثبت على مبدأ ولا يستقر فى مكان ، غير راض إذا تملك وتسلط ، ضائق صدره إذا تجرد من سلطانه ، يحمل بين جنبيه نفسا محمومة مضطرمة انهكت وأبلت جسم القزم وهى تشق طريقها ، ضاق بها جسده الهزيل . قائد جسور لأخطر الأعمال النيابية ، يطرب للأخطار

حين ترتفع الأمواج . أنه يلتمس الأعاصير والزوابع ، لأنه لايحب الهدوء .
يدنى سفينته من الرمال بفطنته وذكائه ، يقينا أن ذوى المواهب العظيمه
قريبون من الجنون ولا يفصله عنهم إلا حواجز رقيقة ، وإلا ، لماذا —
وهو ذو الثراء العريض والمناصب الرفيعة — يضن على شيخوخته بما تحتاج
من راحة ودعة ؟ .. لايقيم على ود ولا يخلص فى صداقة ، عنيد حقود
فى عدائه وبغضه ، مصمم على أن يدمر الدولة أو يحكمها هو(٣٣) .

ثم يجىء دور الانتقام من دوق بكنجهام و « التجربة » :

ويقف على رأس هؤلاء (العصاة الثائرين) زمرى ، وهو رجل متعدد
الجوانب ، حتى إنك لا تحسبه واحدا ، بل صورة مصغرة لكل بنى البشر ،
جامد الرأى ، مجافى الصواب دائما ، كان يندفع فى كل أعماله ، ولكنه
لايثبت على حال ، وخلال قمر منير واحد ، كان الكيميائى والعازف ، ورجل
الدولة والمهرج ، ثم ينصرف بكليته إلى النساء والتصوير ، والشعر والشراب ،
فضلا عن عشرة آلاف نزوة تموت فى المهد .. وكان تبديد المال فنا خاصا
برع فيه ، أغدق على كل الناس إلا من يستحقون المكافأة ، أفقره الحمقى
المهرجون الذين اكتشفهم بعد فوات الأوان ، وحظى هو بالمرح ،
وحصلوا هم على ماله وضيعته(٣٤) .

ولم تر انجلترا قط من قبل مثل هذا الهجاء اللاذع الذى لا يرحم ،
الذى يركز كل التشويه والتجريح فى سطر واحد ، ويترك جثة ممزقة مهشمة
فوق كل صفحة . وبيعت القصيدة بالمئات خارج نفس المحكمة التى كان
يحاكم فيها شافتسبرى ، مخاطراً بحياته . وقضت المحكمة ببراءته فصك أشياعه
الأحرار (الهويج) « ميدالية » تمجيدا له ، وانبرى عدد من الشعراء
والكتاب يتزعمهم توماس شادويل لإصدار ردود ظافرة على الرجل الذى
أيقنوا أنه باع عقله ، ولسانه السليط وبيانه الكاوى إلى الملك . وعاود
دريدن الكرة بهجاء آخر ، « الميدالية » (مارس ١٦٨٢) سلق فيه شادويل ،
بصفة خاصة ، فى قصيدة « ماكفلكنو » (أكتوبر) . وهنا كان الدم

والقدح أسكى وأمر ، فانحط أحيانا إلى شتائم لفظية صريحة ، لم تتميز ، مثل الهجاء السابق ، بمقاطع فاصلة تنشر السم فى دقة دون اسراف أو اسفاف .

إنا لا نستسيغ اليوم هذا اللون من « الذبح » الأدبى ولم نعد نتذوقه إلا قليلا ، وانا لنرتاب بعد قرون من الجدل والمناقشة ، فى أن هناك بعض الصدق فى كل عاطفة أو هوى ، وأن فى كل خصم أو عدو شيئا محببا .

وما السياسة حتى فى أيامنا هذه إلا حرب بوسائل أخرى ، أكثر بكثير مما كانت حين كان عرش أسرة ستيوارت يترنح على حافة الثورة ، وكان الظهور إلى جانب الفريق الخاسر المنهزم قد يعنى الموت المحقق . وعلى أية حال ، فإن دريدن بذل كل الهمه ، مما أكسبه امتنان الملك ودوق يورك ، ولم ينازعه أحد آنذاك التربع على عرش مملكة الشعر . وكانوا يحجزون له — إذا قصد إلى « حانة ول will » مقعدا إلى جانب المدفأة فى الشتاء ، وفى الشرفة صيفاً ، وهناك رأى بيبز وسمع « أحاديث طريفه ذكية (٣٥) » وصورة سير والتر سكوت ، فى خيال مبدع ، وهو يدخل إلى هذه الحانة ، « رجل عجوز بدين قليلا ، ذو شعر أشيب ، يرتدى حلة سوداء بالغة الأناقة ، محبوكة الأطراف وكأنها قفاز ، تشرق فى وجهه أرق ابتسامه رأيتها فى حياتى (٣٦) » وكان الانحناء تحية لشاعر التاج والاستماع إلى رأيه فى آخر مأساة أخرجها راسين ... يعتبر ميزة ، كما كانت القبضة من علبة سعوطه شرفا كفيلا بأن يربك المتحمس الناشىء . وكان كل العطف بعينه بالنسبة لأصدقائه ، ولكن ما كان أسرعه فى كيل السباب لمنافسيه وخصومه (٣٧) (وما كان لأحد أن يبزه فى اطراء شعره . إن علقه للملك وليدى كاسلمين ولكل أولئك الذين يجزلون له العطاء مقابل الإهداء اليوم ، جاوز الحد المألوف من الاستسلام الذليل فى مهنته فى عصره (٣٨) . ومع ذلك فإن كونجريف بادله التشجيع بمثله حين وصفه بأنه « بالغ الإنسانية والرحمة ، مستعد أن يغتفر الإساءة ، أهل للتراضى بإخلاص مع من أساء إليه (٣٩) » .

والآن ، وقد آذن جسمه بالضعف والانحلال ، بدأ الشاعر يفكر فى الدين بشكل أكثر انعطافا وميلا ، مما كان عليه فى سني القوة والفتوة والزهو والغرور . لقد اندفعت مسرحياته وقصائد هجائه اندفاعا طارئا بين هــذا وذاك من مختلف المذاهب الدينية ، أما الآن ، وقد ربط الشاعر مصــيره بالمحافظين (الملــكيين — التورى) ، فإنه تحول إلى الــكنيسة الأنجليكانية بوصفها ركيزة للاستقرار فى انجلترا ، مستنكراً عدوان العقل المتغطرس على هذا الحرم المقدس ، ألا وهو الإيمان والعقيدة . وفى نوفمبر ١٦٨٢ أدهش أصدقاءه الدنيويين بنشره قصيدة « الدين والدنيا » دفاعا عن الــكنيسة الرسمية . وبدا له أن الــكتاب المقدس المنزل ، بل وكنيسة معصومة من الخطأ تفسره وتــكمله ، دعامتان لاغنى عنهما للمجتمع ولسلامة العقل. وكان على علم بالخلافات وبالجدل بين الربوبين ، وكان رده عليهم أن شكوكهم إنما تعكر صفو النظام الاجتماعى للعقد الذى لا يمــكن أن يدعمه إلا قانون أخلاقى تقره عقيدة دينية .

لأنه لاقيمة ولا فائدة فى تعلم النقاط الغامضة ، أما السلام العام فهو كل مايهم العالم .

وتلك حجة كان يمكن أن تخــدم قضية الــكنيسة الــكاثوليكية أيضاً ، وتابعها دريدن إلى غايتها بتحوله إلى الــكاثوليكية ١٦٨٦ . ولسنا ندرى إذا كان لاعتلاء ملك كاثوليكى العرش فى السنة السابقة ، ولتلهف الشاعر على الاستمرار فى الحصول على رواتبه — نقول لسنا ندرى إذا كان لهذا الأمر أو ذاك دخل فى هذا التحول[٤٠]. على أن دريدن على أية حال ، صب كل فنه — الشعرى ليشرح وجهة النظر الــكاثوليكية فى قصيدة « الأيلة والنمرة » The Hind and The Panther (١٦٦٧) وفيها (أيلة ناصعة البياض » تدافع عن المذهب الــكاثوليكى ، ضد نمرة « هى أجمل النوع المرقط » التى تمثل المذهب الأنجليكانى . وكانت صورة حيوانين من ذوات الأربع يناقشان موضوع الوجود الحقيقى فى القربان المقدس مدعاة للسخرية [٤٢] والتسخيف.

سرحان ماأثارهما ماثيو برير Prior ولورد هاليفاكس فى محاكاة تهكمية تحت عنوان « الأيلة والهرة تنقل إلى قصة فأرة القرية وفأرة المدينة »(١٦٨٧).

وفى ١٦٨٨ فرجيمس الثانى إلى فرنسا . ووجد دريدن أنه يعيش من جديد فى ظل ملك بروتستانتى ، فلزم مذهبه الجديد ، وكان أولاده الثلاثة يعملون فى روما تحت إمرة البابا . كما أن الردة إلى مذهب آخر أمر غير مقبول ، فاحتمل فى شجاعة وجلد فقدانه لمنصب شاعر التاج ولراتبه ولوظيفته « مؤرخ الملك » ، على أن التاريخ ، زاد من أحزانه ، لأنه أضفى كل هذه المناصب والشرف على شادويل الذى توجه دريدن ملكا على المراء ، وصوره نموذجا للغباء . وعاد فى شيخوخته يكسب بقلمه قوت يومه . فكتب مزيدا من الروايات ، وترجم مختارات من تيوكريتس وهوارس وأوفيد وبرسيوس ، وأخرج الأنيادة فى شعر بطولى فى أداء غير محكم ، ولكنه سلس ، ونقل بأوزانه الشعرية الخاصة بعض أساطير هوميروس وأوفيد وبوكاشيو ، وتشوسر . وفى ١٦٩٧ وهو فى السابعة والستين نظم قصيدته المشهورة « وليمة الاسكندر Alexanders Feast » التى حظيت بأعظم الثناء والإطراء .

ووافته المنية فى أول مايو ١٧٠٠ ، وشهدت جنازته اضطرابا شديدا ، وتنازعت الشيع المتنافسة جثمانه ، وأخيرا ووى التراب إلى جانب تشوسر فى كنيسة وستمنستر .

ومن الصعب أن تحب هذا الشاعر ، فكل الظواهر تقول بأنه كان انتهازيا نفعيا متقلبا ، امتدح كرومول فى فترة الحماية ، وكال المديح لشارل الثانى وخليلاته ، وأثنى على البروتستانتية فى عهد ملك بروتستانتى ، وأطرى الكاثوليكية فى ظل ملك كاثوليكى ، والتمس موارد كسب المال بكل الطرق ، وجلب على نفسه عداوة كثير من الناس ، مما لابد معه أن يكون ثمة شىء يكرهه الناس فيه . وجارى كل منافسيه فى إباحية رواياته وتحررها من كل القيود ، وفى تورعه فى شعره . وبلغت قوته فى الهجاء مبلغاً يستدر العطف على ضحاياه ، مثل العطف على الشهداء وهم يحترقون على الخازوق . ولكن

لاجدال فى أنه كان أعظم الشعراء الانجليز فى جيله . وكتب معظم شعره فى المناسبات ، وقلما حفظ الزمن شعرا نظم للمناسبات . ولكن هجاءه لا يزال حيا ، لأن أحداً غيره لم يستطع أن يأتى بمثل هذا الهجاء الذى صور الشخصيات فى ازدراء قارص وسخرية لاذعة . وطور المقطع الشعرى البطولى ذا البيتين إلى درجة من الإيجـــاز المحكم والمرونة ، سيطرت على الشعر الانجليزى طيلة قرن من الزمان وكان أثره على النثر أقوى ، حيث نقاه من التراكيب المزعجة والمصطلحات الغريبة ، وضبطه على درجة ممتازة من الصفاء والسهولة . وكان معاصروه على حق حين كانوا يرهبونه أكثر مما يحبونه . ولكنهم أدركوا أن له الحق كل الحق ، بفضل قوة إرادته وبراعته فى فنه فى صناعة الأدب والكتابة ، وملكا على عرش القوافى ، فكان بن جونسون الروائى ، ودكتور صمويل جونسون الكاتب ، فى وقت معاً فى عصره .

٤ ـــ فى ثبت واحد

والآن نجمع فى قائمة غير نابضة بالحياة بعض الشخصيات الأصغر شأنا الذين أمدوا هذه الفترة بالحياة وبالأدب ، ولكننا لن نستطيع أن نمكث معهم طويلا لنتتبع مجرى حياتهم .

وأعظم قصيدة فى الجانب الوثنى من فترة عودة الملكية كانت ملحمة بيوريتانية ، ولكن أشهرها هى ملحمة هجاء ساخر ضد البيوريتانية : « هو دبراس » (١٦٦٣ — ١٦٧٨) . ذلك أن الشاب الفاجر « صمويل بتلر » قضى عدة سنوات مضنية فى خدمة سير صمويل لوك ، وهو مشيخى (برسبتيريان) متحمس غيور ، ضابط برتبة زعيم فى جيش كرومول ، كان مقره فى « كوبل هو » ، وهى قلعة بيوريتانيه السياسه والعبادة . وعندما عادت الملكيه ثأر بتلر لنفسه بنشر هجاء مرح ، يصور فيه كيف أن سير هو دبراس الفارس المغوار يقودسيده صاحب الأرض « رالفو » إلى حرب

صليبية ضد الخطيئة والإثم . ونستطيع أن نحكم منذ بداية القصيدة عليها .

«حين اشتدت ثورة الغضب والحقد بين الناس لأول مرة وتشاجروا لأنهم لم يدركوا السبب ، وحين أشعلت الكلمات النابية والأحقاد والمخاوف نار الحرب بين الجماعات وجعلتهم يقتتلون كالمجانين أو المخمورين ، من أجل «السيدة : الديانة » وكأنما يقتتلون من أجل عاهرة فاجرة ... وحين أعلن نافخ البوق الإنجيلي يحيط به الرعاع ذوو الآذان الطويلة ، النفير من أجل الحرب ، ودقت طبول المنبر والكنيسة بجماع الأيدي بدلا من العصى . عندئذ غادر السيد الفارس مسكنه وامتطى صهوة جواده متزحما الركب ... وكان كثيرون من الناس يرون ، أنه كما اشتكى مونتانى من أن قطته حسبته ، وهو يداعبها ، حماراً ، فلابد أن القطة تحسب هو دبراس حماراً أو أكثر من حمار ، وإنا لنسلم بأنه على الرغم مما أوتى من ذكاء شديد ، فانه يخجل من استخدامه ، وكأنما يكره أن يستنفذه ويبليه ، ولذلك لم يظهره أو لم يلبسه إلا فى أيام العطلة أو مايشابهها ، كما يرتدى الناس أحسن ملابسهم ... وكان من الملائم ، من أجل عقيدته ، أن يوفق بين علمه وذكائه ، وكان مذهبه مشيخياً صادقا متشددا ، لأنه كان من بين العصبة العنيدة من القديسين الضالين الذين يقر الناس جميعاً بأنهم المناضلون الصادقون عن الكنيسة المجاهدة الذين يبنون عقيدتهم على الرمح والمدفع ، ويحسمون كل الخلافات بمدفعية لاتخطىء المرمى ، ويثبتون صحة نظريتهم بالضربات واللكمات. الرسولية .. فرقة تتمثل أعظم تقواهم فى كراهياتهم الحمقاء الضالة ، الشاذة فرقة تحرص على الخطأ فى يوم العطلة أكثر من حرص سائر الناس على الصواب ، مجمة على الخطايا التى فطرت عليها ، تلعن أولئك الذين لايفكرون فيها(٤٣) .

وهكذا مما آلم البيوريتانيين أنما إيلام وسر الملك كل السرور . ومنح شارل المؤلف جائزة قدرها ثلثمائة جنيه . وامتدح كل الملكيين القصيدة فيما عدا بيبز الذى لم يستطع « أن يتبين موضع العبقرية فيها » ، على الرغم من أنها تعتبر الآن من أحدث طراز من الهزل والسخرية(٤٤) ، وبادر بتلر

إلى الاستزادة من الكتابة (١٦٦٤ — ١٦٧٨) ، ولكن لم يعد فى جعبته سهام ، ولم تسعفه القوافى . وحل النزاع بين البروتستانت والكاثوليك محل النزاع بين الملكيين والبيوريتانيين . ونسى القوم بتلر ، وقضى نحبه مغمورا معدما (١٦٨٠) . وبعد أربعين عاما أقيمت له لوحة تذكارية فى كنيسة وستمنستر ، تحمل هذه العبارة « طلب الخبز فمنح حجرا(٤٥) » .

وخير من هذا الشعر الهزلى المعتل الوزن الذى يتصيد القوافى ، نثر كلارندون الفخم فى كتابه « تاريخ الثورة » الذى ظهر فى ١٧٠٢ على الرغم من أنه كتب فى ١٦٤٦ — ١٦٧٤ — وشهد الناس فى عهد الملكة آن مقدار العناية التى بذلت فى تأليف هذه المجلدات الثمانية ، وروعة أسلوبها ، وكيف كان تصوير الشخصيات أخاذا ، وكيف كانت روح قاضى القضاة الذى ضرب قديما عالية . وبالمثل لعب جلبرت بيرنت دورا ليس بهزيل فى كتابه « تاريخ زمانه » الذى لم ينشر ، بأمر منه ، إلا بعد وفاته ١٧٢٤ . أما كتابه « تاريخ إصلاح كنيسة انجلترا » (١٦٧٩ ، ١٦٨١ ، ١٧١٥) فكان عملا أضخم ، وكان ثمرة بحث طويل ، وظهر فى وقت كانت فيه انجلترا البروتستانتية تخشى إحياء الكاثوليكية . وقدم له مجلسا البرلمان كلاهما الشكر عليه . ووجد فيه الأعداء والمحررون ألفا من الأخطاء . ولكنه لا يزال يحظى عن يشايعه وينتصر له ، وفى بعض الأحيان يكون موضع ذم وطعن . ولكنه يظل أعظم مرجع فى موضوعه ، وحاول بيرنت أن يوسع دائرة التسامح الدينى ، فكسب عداء السوقة .

وسعى ثلاثة رجال آخرين إلى تكبير الحاضر بأن يضيفوا إليه صورا من الماضى . وطاف توماس فولر Fuller بأرجاء الأرض الحبيبة متنقلا من بلد إلى بلد ، حيث جمع كتابه « تاريخ مشاهير الرجال فى انجلترا (١٦٦٢) ، وأحيا أبطاله الأموات بما روى عنهم من فذلكات وحكايات ودعابة وذكاء ، وبما كتب على شواهد قبورهم . وقص أنتونى وود تاريخ أكسفورد ، وجمع ثبتا حوى سير حياة خريجيها ، والمؤلفات القيمة

التى اقتبس منها كثير من المؤلفين خلسة . وجمع جون أوبرى شذرات ممتعة عن نحو ٤٢٦ من مشاهير الإنجليز ، على أمل أن ينسق هذه المادة المجموعة فى تاريخ كامل ، ولكن الخمول والمنية حالتا دون طبع « سير الحياة » قبل ١٨١٣(٤٦) . وقد شجعتنا ذخائره على المضى فى طريقنا . وهناك الكولونيل (الزعيم) جون هتشنسون ، وهو بيوريتانى أيد إعدام شارل الأول ، وزج به شارل الثانى فى السجن ، وما أن أخلى سبيله حتى عاجلته المنية ، وخلدت أرملته لوسى ذكراه فى كتاب « حياة كولونيل هتشنسون » وهو كتاب لطيف رفع من مكانة صاحب السيرة . ولكن لوسى كان يعيبها الوقفات الطويلة فكانت عباراتها أحيانا تمتد إلى صحيفة كاملة أما جون آربوتنوت ، الطبيب البارع ، والصديق المخلص لسويفت وبوب والملكة آن ولكثيرين غيرهم ، فإنه انضم إلى حملة المحافظين لوقف الحرب مع فرنسا ، بأن أصدر فى ١٧١٢ سلسلة من النشرات يهجو فيها الأحرار ، ويصف شخصية خيالية هى « جون بول » الذى أصبح منذ ذلك الوقت رمزا على انجلترا . ويقول جون آربوتنوت عن جون بول :

« أنه شخص أمين شريف صريح فى التعامل مع الناس ، سريع الغضب ، جرىء ، متقلب المزاج ... إذا تملقته ولاطفته كان سلس القياد ، إن مزاج جون يعتمد كثيرا على الهواء ، يبرق مزاجه أو يتكدر تبعا لحالة الجو . وكان جون ذكيا . يدرك مهمته تمام الإدراك ، ولكن ليس على قيد الحياة إنسان أشد منه إهمالا فى إمعان النظر فى حساباته ، ولا أكثر انخداعا بشركائه أو غلمانه أو خدمه . ذلك لأنه رفيق مرح ، مولع بالخمر واللهو والتسلية . والحق أنه لا يوجد انسان أشد عناية ببيته ولا أكثر سخاء فى الانفاق من جون(٤٧) » .

وماذا عسى أن يقول سيروليم تمبل إذا وجد أنه اختزل فى فقرة من فصل بلغ الذروة بسكرتيره ؟ ربما قال — إذا سمحت له آدابه الرفيعة — إن المؤرخين أهملوه لأنه لم يحتفظ بامرأتين تطمعان فى الزواج ، حتى قضت

إحداهما نحبها ، وأنهكت الأخرى ، أو لأنه لم يبع قلمه لوزراء المحافظين استياء من الأحرار ، أو لأنه لم يغمس هذا القلم فى ذم البشر ، ولكن خدم وطنه فى هدوء بدبلوماسية ناجحة ، وفى عصر سادة الفساد والفجور ، ضرب لانجلترا مثلا صادقا غير مصطنع لحياة أسرية تزينها الحشمة والوقار . وظل لمدة سبع سنين يتودد إلى دوروتى أوزبورن التى أصبحت رسائلها الرقيقة إليه قطعا من الأدب الانجليزى (٤٨) وارتضته زوجا لها رغم معارضة أسرتيهما . وتزوجها بعد أن شوه الجدرى جمالها . ودخل تمبل معترك الحياة السياسية ، ولكنه آثر الأعمال التى نأت به عن حمى لندن ، وتجنب « العبودية المضنية التى تثير البغض والحسد ، والتى تحصى فيها الحركات والسكنات ، والتى يطلقون عليها من قبيل السخرية والاستهزاء « السلطة والنفوذ (٤٩) » . وكان من أوائل ، من حذروا من أطماع لويس الرابع عشر التوسعية ، وكان المخطط الرئيسى للحلف الثلاثى الذى وقف فى طريق الملك الفرنسى ١٦٦٨ . وعرضت عليه الوزارة فى ١٦٧٤ و ١٦٧٧ ولكنه آثر منصبه الدبلوماسى فى لاهاى . وأدت مفاوضاته الموسومة بالحصافة والنظر الثاقب إلى زواج مارى ابنة جيمس الثانى من وليم الثالث الذى أصبح ملكا فيما بعد . وهو الزواج الذى مهد الطريق « للثورة الجليلة » . وفى ١٦٨١ اعتزل السياسة وانصرف إلى الدراسة والتأليف فى « موربارك » ، ضيعته فى « سرى » وحسبه سويفت جامدا متحفظا ، ولكن زوجة سير وليم وأخته ، كلتيهما ، أحبتاه إلى حد العبادة ، على أنه ملاك الرحمة والكياسة واللطف . وأهم أبحاثه « المعرفة قديمها وحديثها » (١٦٩٠) ، الذى رفع فيه من ذكر الأقدمين وانتقص من قدر العلم الحديث والفلسفة الحديثة ، فى شخص نيوتن وهوبز وسبينوزا وليبنتز ولوك . وتصيد بنتلى للكاتب خطأ جسيما . فآوى سير وليم إلى حديقته ، وتسلى بابيقور ، ولسوف نلتقى به ثانية .

٥ - إيفلين وبيبز

اتفق جون ايفلين مع تمبل فى « أنه إذا دخلت الأحزاب فى الدولة وتعمقت جـذورها فيها ، فمن الحق عنـدئذ أن يتدخل أفاضل الرجال فى الشئون العامة (٥٠) » ولما بدأت الحرب الأهلية رأى أنه قد آن الأوان للرحيل . وغادر انجلترا فى يولية ١٦٤١ . ولكن وخز الضمير أعاده إليها فى أكتوبر ، وانضم إلى جيش الملك فى برنتفورد ليشترك فى الانسحاب فى نفس الوقت الذى وصل فيه . وبعد شهر من الخدمة فى الجيش آوى إلى ضيعة أبويه فى ووتون فى سرى . وفى ١١ نوفمبر ١٦٤٣ عبر البحر ثانية إلى القارة . وطاف على مهل بأرجاء فرنسا وإيطاليا وسويسرا وهولنده ، ثم قفل راجعا إلى فرنسا . وفى باريس تزوج من فتاة انجليزية . وتنقل لبعض الوقت بين فرنسا وانجلترا ، حتى وضعت الحرب الأهلية أوزارها ، حيث عاد إلى الوطن (٦ فبراير ١٦٥٢ . ورشا حكومة كرومول لتتركه وشأنه . وتبادل الرسائل مع شارل الثانى فى منفاه ، وفى ١٦٥٩ بذل جهدا جبارا للتعجيل بعودة الملكية . وبعـد ارتقاء شارل الثانى عرش إنجلترا أصبح ايفلين شخصية مرموقة فى البلاط ، ولو أنه دمغه بالانحلال والفساد ، وشغل بعض المناصب الحكومية الصغيرة ، ولكنه فى معظم الأحوال آثر أن يغرس الأشجار ويؤلف ثلاثين كتابا فى بيته الريفى . ودون كل شىء من لوكريشس إلى سبتاى زيفى . وعجز كتابه « للبخرة » عن تنقية هواء لندن ، ولكن فى كتابه « أشجار الغابات » دعا دعوة حارة إلى إعادة تشجير انجلترا ، وحث الحكومة على غرس الأشجار فى مختلف أنحاء لندن ، التى تعد أشجارها اليوم من أعظم مفاخرها ومباهجها . أما كتابه « حياة مسز جودولفين » ، فهو مثل أعلى فى فضائل النساء وسط عربدة عودة الملكية وصخبها .

ومن ١٦٤١ إلى ٣ فبراير ١٧٠٦ ، قبل وفاته بأربعة وعشرين يوما ، دون ايفلين فى مذكراته كل ما رأى وسمع فى انجلترا أو فى القارة . وبوصفه

رجلا من ذوى المكانة لم يكن فى مقدوره أن يسجل من الخطايا أو الآراء الشخصية جداً ، مثل تلك التى تغرينا بقراءة « مذكرات » بيبز المسهبة ، ولكن وصفه لمدن أوربا ساعدنا كثيراً على اكتناه ماهية العصر . ففى مذكرات ايفلين صفحات رائعة عن « مر سمبلون (٥١) » وكان فى بعض الأحيان يفصح عن مكنون صدره فى قطع تفيض بالحب والحنان والرقة ، مثلما كتب عن وفاة ابنه وهو فى سن الخامسة . ولم تنشر مذكرات ايفلين إلا فى ١٨١٨ .

إن إشارات ايفلين إلى بيبز فى مذكراته أدت إلى فحص المجلدات الستة المكتوبة بطريقة الاختزال ، والتى كان بيبز قد أوصى بها لكلية مجدلن فى كمبردج . وحلت رموز المذكرات التى بلغ عدد صفحاتها ٣٠١٢ بعد ثلاث سنوات من جهد شاق ، ونشرت فى ١٨٢٥ ، بعد اختصارها وتنقيتها . وهى الآن ولو أنها لم تستكمل ، تملأ أربعة مجلدات ضخمة . على أنها جعلت من بيبز شخصية من أكبر الشخصيات المعروفة فى التاريخ بالصراحة وعدم الصحة . اما من حيث الصراحة ، فمن الواضح أنه قصد أن تنشر المذكرات إذا قدر لها أن تنشر — بعد وفاته ، لا قبلها — ولهذا حوت تفاصيل كان ينبغى كتمانها فى حياته ، ولا يزال بعضها « غير قابل للنشر » . أما عدم صحتها ، فيرجع إلى أنها تتناول حقبة تقل عن عشر سنوات (١ يناير ١٦٦٠ — ٣١ مايو ١٦٦٩) من حياة بيبز ، ولم تورد سردا وافيا لعمله فى أركان حرب القوات البحرية الانجليزية ، حيث تدرج فى أعمال ازدادت أهمية من ١٦٦٠ إلى ١٦٨٩ ، وبعد وفاته بزمن طويل تذكروه وكرموه على أنه رجل إدارة قدير نشيط مجد .

وكان أبوه خياطا (ترزيا) فى لندن ، وكان ابنا صغيرا لأحد الملاك اتجه إلى العمل والتجارة لأن الإبن الأكبر ورث الضيعة طبقاً للقانون . ودخل صمويل كمبردج على منحة ، وحصل على درجتى الليسانس والاستاذية ، ولم تسجل له أية عقوبة ، إلا تأنيب على « لأنه شوهد يوما يحتسى الخمر

بشكل مخز » ، ومرة أخرى لأنه كتب قصة « الحب خداع » التى أعدمها فيما بعد . وفى سن الثانية والعشرين (١٦٥٥) تزوج من اليزابث سانت ميشيل ابنة أحد الهيجونوت . وفى ١٦٥٨ أجريت له عملية « الحصاة فى الكلى » ، ونجحت العملية وظل يحتفل بذكرى نجاحها سنويا بعد ذلك ، تعبيراً عن الحمد والشكر ، كما يظهر من السنوات المسجلة فى مذكراته .

وكانت هناك صلة قرابة بعيدة تربطه بسيرادوارد مونتاجو ، فعين بيبز سكرتيراً له ، (١٦٦٠) ورافقه صمويل فى الأسطول الذى قاده لإحضار شارل الثانى من المنفى . وقبل أن ينصرم هذا العام عين بيبز كاتباً للعمليات فى إدارة البحرية . فثابر على دراسة الشئون البحريه بالقدر الذى سمح له به مطاردته للنساء . ومذ كان رؤساؤه منكبين أيضاً على هذه الرياضة القديمة ، فإنه سرعان ما أصبح أكثر دراية بتفاصيل البحرية من أميرى البحر كليهما (مونتاجو ودوق يورك) ، إلى حد أنهما اعتمدا على معلوماته . وفى أثناء الحرب مع هولنده (١٦٦٥ — ١٦٦٧) نجح نجاحاً مشهودا فى تموين الأسطول ، وعند تفشى الطاعون لزم عمله فى الوقت الذى فر فيه معظم موظفى الحكومة . وفى ١٦٦٨ حين حمل البرلمان على إدارة الأسطول ، وكل إلى بيبز أمر الدفاع عنها ، وبفضل خطابه الذى استمر ثلاث ساعات فى مجلس العموم برئت إدارة الأسطول تبرئه لاتستحقها . وبعد ذلك كتب بيبز لدوق يورك ثلاث مذكرات عرض فيها وجوه النقص والخلل فى هيئة البحرية ، وقد لعبت هذه المذكرات الثلاث دوراً فى إصلاح الأسطول . وبذل بيبز جهداجبارا ، وكان يصحو من نومه عادة فى الرابعة صباحا(٥٢) . ولكنه وجد أنه كان يستعين على راتبه الذى يبلغ ٣٥٠ جنيها فى العام ، بالهدايا والعمولات والمنح التى يمكن أن يسمى بعضها رشوة ، ولكنها كانت فى هاتيك الأيام اللطيفة تعتبر زيادات إضافية مشروعة . وكان رئيسه لورد مونتاجو نفسه قد أوضح له « أنه ليس مرتب أية وظيفة هو الذى يجعل شاغلها غنيا ، ولكن فرصة الحصول على

الأموال وهو يشغلها(٥٣) .

وكل ما ارتكب بيبز من أخطاء مدون بصراحة خالصة تامة نسبيا .
وليس واضحا أمام أعيننا السبب الذى من أجله احتفظ بها بمثل هذه الأمانة .
إنه أخفاها فى حذر وعناية طوال حياته ، ودونها بطريقة الاختزال الخاصة
به ، مستخدما ٣١٤ حرفا مختلفا ، ولم يضع ترتيبا خاصا لنشرها بعد وفاته .
وواضح أنه وجد لذة ومتعة فاستعرض أنشطته اليومية والاضطرابات فى
أعضاء جسمه وشجاراته الزوجية ، ومغازلاته وعبثه ، وعلاقاته النسائية
الشائنة . إنه — إذا أعاد قراءة هذا السجل — بينه وبين نفسه — لابد أن يشعر
بما نشعر به نحن من رضا خفى إذا نظرنا لأنفسنا فى المرآة . وهو يروى
لنا كيف أنه جعل زوجته تحلق له شعره « فوجدت فى رأسى وجسمى .
نحو عشرين قملة » وهذا فى إعتقادى ، أكثر مما وجدت فى هذه السنوات
العشرين(٥٤) . وتعلم أن يحب زوجته ، ولكن بعد مشاجرات كثيرة ،
تميز فى بعضها غيظا ، وكثيراً ، على حد قوله ، ما أساء معاملتها ، وفى إحدى
المرات « جذبها من أنفها(٥٥) » . وفى مرة أخرى « لطمتها على عينها
اليسرى لطمة جعلت البائسة المسكينة تصرخ من شدة الألم ، ولكنها
اهتاجت وحاولت أن تعضنى وتخدشني بأظافرها ، ولكنى تظاهرت بالخجل
مما فعلت حتى أمسكت هى عن العويل(٥٦) » ووضع على عينها ضمادة ،
وانصرف للقاء إحدى خليلاته . وعاد إلى البيت لتناول العشاء ، ثم غادره ،
حيث لقى « زوجة باجول ، فصحبتها إلى إحـــدى حانات الجمة ، وهناك
لاطفتها كثيراً ، ثم افترقت عنها إلى امرأة أخرى حاولت أن أعانقها وأقبلها ،
ولكنها لم ترغب فى شىء من هذا ، مما ضايقنى كثيراً » .

وقد يبعث على العجب والدهشة أن يكون للرجل مثل هذه الطاقة
الحيوية فاستبدل المشيقه كل بضعة شهور ، وطارد النساء حتى صددنه
عنهن بالدبابيس(٥٧) . واعترف بأنه « وقع فى أسر الجمال إلى حد غريب(٥٨) » .
وقال « كنت استمع فى كنيسة وستمنستر إلى عظة ، وقضيت الوقت (سامحنى

الله) عدقا النظر فى مسز بتلر(٥٩) » وكان يتطلع فى شغف خاص ولهف جارف مما يكاد يكون خيانة عظمى — إلى ليدى كاسلمين (عشيقة الملك)، ومذ وقع نظره عليها فى قصر هويتهول « استغرق فى النظر إليها(٦٠) » . ولكنه قنع بثيابها المرصوصه فى صف واحد ، وفى هذا يقول « وكان من الخير لى أن أتطلع إلى هذه الثياب(٦١) » ، فلما « عدت إلى البيت وتناولت العشاء وآويت إلى الفراش ، تخيلت أنى أغازل مسز ستيوارت (ليدى كاسلمين وأعبث معها . فى نشوة غامرة من السرور(٦٢) » . ولكن نفسه لم تهف إلى فاتنات البلاط فحسب . فقدمرت ببابه يوما مسز ديانا ، إحدى جاراته ، فجذبها « إلى البيت وصعدت بها الطابق الأعلى ، وبقيت ألهو وأعبث معها فترة طويلة(٦٣) » . وأخذ مسز لين إلى لامبث (أحد أقسام لندن) « وبعد أن سئمت رفقتها « صممت » على ألا أعود لمثل هذا ماحييت(٦٤) » وضبطته زوجته ذات مرة يعانق فتاة ، فهددت بالانفصال عنه ، فهدأ من روعها بالوعود والأيمان . وإنطلق إلى آخر عشيقاته . ذلك أنه أغوى وصيفة زوجته — ديبورا ويلت — وكان يحب أن تمشط ديبورا له شعره ، ولكن زوجته انقضت عليه أثناء مغامراته مع ديبورا . فعاد يقسم ويعد يتعهد من جديد ، وطردت الوصيفة ، وأخذ بيبز يتردد عليها وكأن زيارتها جزء من عمله اليومى .

وظلت رغبته الجنسية على حدتها حتى حين ضعف بصره . إذ عادة القراءة والكتابة فى ضوء الشمعه بدأت تضعف بصره فى ١٦٦٤ . ولكن فى سنوات العسرة التى تلت ذلك ، بذل فى العمل جهدا شاقاً بصفة خاصة ، على الرغم من تفاقم علته . وفى ٣١ مايودون آخر ما سجل فى مذكراته :

« وهكذا ينتهى ما أشك فى قدرتى على المضى فيه إطلاقا بنور عينى ، ألا وهو تدوين مذكراتى . ومهما تكن النتيجة فليس لى ألا أن أتجلد وأحتمل . ومن ثم اعتزمت أن يدونه من حولى بطريقتهم فى الكتابة العادية ، ولذلك ينبغى أن أقنع بألا يسجل إلا ما هو صالح لأن يعرفوه

ويعرفه العالم أجمع . وإذا كان هناك شيء — وهو ليس بالكثير ، بعد أن ولت كل خليلاتي مع ديبورا ، وقعد بي ضعف بصري عن الاستمتاع بأية ملذات أو مسرات — فلا بد أن أحاول أن احتفظ في كتابي بهامش ، أضيفه فيه ، هنا وهناك ، بعض الملاحظات بخط يدي ، بطريقة الاختزال . وهكذا أروض نفسي على هذه الطريقة التي لاتقل مرارة عن أن أراني محولا إلى القبر الذي يتولى الله العلي العظيم إعدادي له ، ولكل المتاعب والمشاق التي لابد أن تنتابني عندما أفقد نور عيني . صموئيل بيبز » .

وتبقى له من عمره بعد ذلك أربعة وثلاثون عاما . وظل يتعهد في عناية بالغة مابقي له من نور عينيه ، ولم يعم بصره تماما قط ومنحه الدوق والملك أجازة طويلة انقطع فيها عن العمل ، عاد بعدها إليه . وفي ١٦٧٣ عين سكرتيرا لامارة البحر ، وفي نفس الوقت تحولت زوجته إلى الكاثوليكية . ولما وقعت مؤامرة البابا على انجلترا اعتقل بيبز وأودع سجن لندن (٢٢ مايو ١٦٧٩) للاشتباه في أن له ضلعا في مقتل جودفري . ثم دحض الإتهام واخلى سبيله بعد تسعة أشهر قضاها بين جدران المعتقل . وبقي بعيدا عن الوظيفة حتى ١٦٨٤ ، حيث أعيد سكرتيرا لإمارة البحر كما كان ، واستأنف العمل على إصلاح البحرية . ولما أصبح رئيسه (دوق يورك) ملكا على انجلترا — جيمس الثاني — كان بيبز في واقع الأمر على رأس إدارة القوات البحرية ، ولكن عندما هرب الملك جيمس إلى فرنسا ، أعيد بيبز إلى السجن ثم أفرج عنه وعاش أعوامه الأربعة عشر الأخيرة من عمره ، متقاعدا عن العمل وكأنه « مرشد البحرية العجوز » . ووافته المنية في ٢٦ مايو ١٧٠٣ ، وقد بلغ السبعين ، مكللا بالاجلال والاحترام ، مطهرا من الذنوب والآثام .

وكم كان في هذا الرجل من خلال محمودة . لقد عرفنا حبه للموسيقى ، كما أنه تابع الحركة العلمية ، وكان ضليعا في الفيزياء . وأصبح عضوا في « الجمعية الملكية » وانتخب رئيسا لها في ١٦٨٤ وكان منزهوا برجولته ، وكان يقبل

الرشوة ، وضرب خادمه حتى جرح ذراعه(٦٥) وقسا فى معاملته لزوجته ، وكان فاسقا بكل مافى هذه الكلمة من معنى ، ولكن كم كان له فى الملوك والأذواق من أسوة أخزى وأقبح فى مجال الدعارة والفجور ، ومن منا يمكن أن يتمتع بسمعة طيبة لا تشوبها شائبة إذا ترك مثل هذه المذكرات الأمينة ؟ .

٦ — دانيال ديفو : ١٦٥٩ - ١٧٣١

هناك امرأة أفلتت من يد بيبز، تستحق منا هنا انحناءة احترام فى شىء من الحذر ، بوصفها « أم القصة الطويلة » فى فترة عودة الملكية ، وأول امرأة انجليزية تعيش على قلمها . إن افرا بن Aphra Behn جديرة بالذكر من عدة نواح : ولدت فى انجلترا ، وترعرعت فى أمريكا الجنوبية . وعادت إلى انجلترا فى سن الثامنة عشرة (١٦٥٨ ، وتزوجت تاجرا لندنيا من أصل هولندى . وتركت انطباعا قويا فى نفس شارل لدهائها وذكائها . وأوفدت فى مهمة سرية إلى الأراضى الوطيئة ، فقامت بها خير قيام ، ولكنها تلقت أجرا زهيدا إلى حد أنها انصرفت إلى الكتابة ، وسيلة لكسب العيش . وكتبت مسرحيات هزلية فاجرة لاقت نجاحا ملحوظا . وفى ١٦٧٨ نشرت « أورونوكو » وهى قصة « رقيق ملكى » زنجى ، وحبيبته امواندا . وكانت مزيجاً أصيلا من الواقعية والرومانسية أو الخيال . وكان الطريق ممهدا أمام قصة روبنسن كروزو ، والقصة الرومانسية .

كذلك عاش ديفو على قلمه . وكان من أكثر الأقلام تعددا للجوانب والبراعات : وكان أبوه جيمس ديفو قصابا فى لندن، شديد التمسك بمذهب البرسبيتريان . وكان من المتوقع أن يكون دانيال واعظا ، ولكنه آثر الزواج والمنزل والسياسة . وأنجب سبعة أطفال ، وأصبح تاجر جوارب بالجملة . والتحق بجيش دوق مونموث فى الثورة (١٦٨٥) ، ثم انضم إلى جيش وليم فى الإطاحة بعرش جيمس الثانى وفى ١٦٩٢ أفلس وبلغت ديونه

١٧ ألفا من الجنيهات ، ثم دفع لدائنيه استحقاقاتهم كاملة تقريبا فيما بعد ، وفيما هو يكسب ويخسر . أصدر كتيبات فى طائفة من الموضوعات زاخرة بكنز مدهش من الأفكار الأصيلة . ففى مؤلفه « بحث فى المشروعات » عرض مقترحات عملية متقدمة كثيرا عن زمانه ، فى المصارف ، والتأمين ، والطرق ، ومستشفيات الأمراض العقلية ، والكليات الحربية ، والتعليم العالى للبنات . وانتقل إلى Tilbary حيث أصبح سكرتيرا لمصنع للقرميد ثم مديرا ، وفى النهاية مالكا له . ولما قدموه إلى وليم الثالث عينه فى وظيفة حكومية صغيرة ، وأيد سياسة الملك تأييدا كبيرا إلى حد اتهامه بأنه هولندى أكثر منه انجليزى ، فدافع عن نفسه فى قصيدة رائعة ، عنوانها « الإنجليزى الصميم الأصيل » (١٧٠١) ذكر فيها الإنجليز بأن الأمة كلها مختلطة الدماء والأعراق ، ولما كان هو نفسه من المنشقين فإنه فى ١٧٠٢ نشر كراسة غفلا من اسم المؤلف ، تحت عنوان « أقصر طريق مع المنشقين » استبق فيها أسلوب سويفت فى التسفيه والتسخيف عن طريق المبالغة ، وهاجم فيها اضطهاد الأنجليكانيين للمنشقين ، باستحسانه اعدام كل منشق يقوم بالوعظ ، وطرد المنشقين الذين يستمعون إليه من انجلترا . وقبض عليه فى فبراير ١٧٠٣ ، وحكم عليه بالغرامة والسجن وعذب فى الشهر . وأفرج عنه فى نوفبر ، ولكن فى نفس الوقت كان مصنع القرميد قد تخرب وتوقف العمل فيه .

وكان الرجل الذى ساعد فى الإفراج عنه هو الوزير روبرت هارلى الذى تحقق من مقدرة ديفو الصحفية ، ومن الواضح أنه عقد معه اتفاقا لاستغلال قلمه ، ومن ثم إلتحق ديفو بخدمة الحكومة طيلة بقية حكم الملكة آن . وبدأ فور إطلاق سراحه فى إصدار صحيفة ذات ربع صفحات ثلاث مرات فى الأسبوع . اسمها « ريفيو » التى ظلت تظهر حتى ١٧١٣ . وكان معظمها بقلم ديفو .

وفى عام ١٧٠٤ / ١٧٠٥ طاف ديفو بأرجاء انجلترا على ظهر جواد ،

يدعو لمستر هارلى فى الانتخابات . وفى تلك الأثناء جمع مادة كتابه « جولة فى انجلترا وويلز » . وفى ١٧٠٦ — ١٧٠٧ عمل لحساب هارلى وجودولفين جاسوسا فى اسكتلنده ، وحظيت كراساته القوية بكثير من القراء كما جلبت إليه الكثير من الأعداء . واعتقل ثانية فى ١٧١٣ وفى ١٧١٥ ، ومرة أخرى أطلق سراحه بناء على وعد بتسخير قلمه فى خدمة الحكومة .

وكان له قدرة على ابتكار كثير من الموضوعات الأدبية . وفى ١٧١٥ نشر بعض مقتطفات يفترض أن كاتبها من الكويكرز . وفى نفس السنة نشر « حروب شارل الثانى عشر » كما يرويها « استكلندى فى خدمة السويد » . وأصدر فى ١٧١٧ رسائل يظن أن كاتبها تركى ، يندد بالتعصب المسيحى . وأسهم فى تحرير مجلة اسمها بخق الضباب « Mist » بتوقيع مراسلين وهميين . وقلما وقع ديفو كتاباته باسمه . وإلى جانب هذه البراعة فى تمثيل شخصيات مختلفة ، جمع ديفو سمة الاطلاع فى الجغرافيا، وبخاصة جغرافية افريقية والأمريكتين . وظاهر أنه افتتن بكتاب وليم دامبيير « رحلة جديدة حول العالم » (١٦٩٧) ، وفى احدى رحلات دامبيير ألقت سفينته المسماة « الثغور الخمسة » مراسيها فى جزر جوان فرنانديز على بعد نحو أربعمائة ميل إلى الغرب من شيلى . وكان أحد البحارة الاسكتلنديين يدعى اسكندر سلكيرك قد تشاجر مع القبطان ، فطلب إليه أن يتركه فى احدى الجزر الثلاث ، على أن يزوده ببعض الحاجيات الضرورية . وبقى البحار هناك وحيدا لمدة أربعة أعوام ، حيث أعيد إلى انجلترا ، وهناك قص قصته على ريتشارد ستيل الذى كتبها فى عدد « الرجل الإنجليزى The Englishman » الصادر فى ٣ ديسمبر ١٧١٣ ، كما رواها كذلك لديفو ، وزعم أنه أعطاه بيانا مكتوبا عن مغامرته فى الغربة والوحدة(٦٦) . وحول ديفو هذه الخلاصة إلى قطعة من الأدب . وفى ١٧١٩ نشر أشهر قصة فى القصص الإنجليزى .

وألهبت « حياة روبنصن كروزو ومغامراته العجيبة المدهشة » خيال انجلترا . وظهرت منها أربع طبعات فى أربع شهور . وهنا كان مفهوم جديد للمغامرة والصراع — لاصراع الإنسان ضد الإنسان ، ولا صراع الإنسان المتحضر ضد الإنسان المتوحش . بل كفاح الإنسان ضد الطبيعة ، صراع رجل وحيد ، يتملكه خوف حقيق ، لايجد أى عون أو مساعدة ، حتى جاء « التابع المخلص الأمين » ، وبنى حياة من المواد الخام فى الطبيعة . وتلك كانت تاريخ حضارة رجل واحد فى مجلد واحد . واعتبرها كثير من القراء تاريخا ، حيث لم ترو قط فى الأدب من قبل قصة جمعت بين مثل هذه الأشياء التى تحتمل الصدق والكذب فى مثل هذه التفاصيل التى أخذ بعضها بخناق بعض بشكل عارض . إن تمرس ديفو فى الخداع الأدبى رفعه من الصحافة إلى الفن .

وعاش ديفو فى شىء من بحبوحة العيش فى لندن ، ولكنه لم يتخل عن انتاجه الذى لايبارى . فبينما ظل يصدر الكراسات ، أخرج كتبا فى الحجم الطبيعى ، تضم قصص صغيرة . فنشر فى ١٧٢٠ « تأملات جادة فى حياة روبنصن كروزو ومغامراته المدهشة » ، « حياة ومغامرات مسز دنكان كامبل » (وهى ساحرة مشعوذة صماء بكماء) . وبعد ذلك بشهر واحد «مذاكرات فارس» «وبن نروفاتو» وقد حسبه بت الأكبر تاريخا وبعد شهر آخر أخرج « حياة القبطان المشهور سنجلتون ومغامراته وقرصناته » وهو كتاب حوى توقعات مدهشة عن كشوف فى أفريقية . وفى ١٧٢٢ أصدر «هناء وشقاء مول فلاندرز » و « صحيفة عام الطاعون » ، و « تاريخا كولونيل جاك » ، و « الغزل الدينى » ، و « التاريخ النزيه لبيتر الكسوفتش ، قيصر المسكوف الحالى » — وهذه هى المرة الثانيه التى يستبق فيها فولتير فى كتابه سير الحياة . وقصد بهذه المجلدات الضخمه أن توفر سبل العيش لأسرته ، ولكنها بفضل قوة خيال الكاتب وأسلوبه الفياض ، أصبحت أدبا . وفى « مول فلاندرز » اندس ديفو إلى عقل بغى وقلبها ، حتى أفضت إليه بقصتها بشكل يتضح معه صراحتها واخلاصها ويدعو إلى تصديقها

ولو ظاهريا ، حتى تركها فى النهاية راضيه « آمنه مطمئنه فى خير عافية » وهى فى السبعين(٦٧) . أما « صحيفه عام الطاعون » فكانت مدعمه بأدق الوقائع والحقائق والاحصاءات ، حتى اعتبرها المؤرخون تاريخا .

أما عام ١٧٢٤ فلا يثير دهشة كبيرة : ذلك أن ديفو نشر احدى أمهات قصصه « السيدة السعيدة الحظ » المعروفة باسم « روكسانا » وهى المجلد الأول من مجلدين يتناولان جولته فى ربوع جزيرة بريطانيا العظمى ، و « حياة جون شبرد » وهو يوهم بأنه مخطوطة سلمها شبرد إلى صديق له قبل إعدامه . وكانت هذه إحدى السير القصيرة المديدة التى كتبها ديفو عن حياة المجرمين ، ومهدت إحدى سير الحياة واسمها « وغد المرتفعات » (١٧٢٤) الطريق لكتاب سكوت « روب روى » كما مهدت سيرة أخرى ، هى « حياة جوناتان ويلد » الطريق أمام فيلدنج . والحق أن أى موضوع شعبى أسال قلم ديفو ، وأفاض عليه الجنيهات من خزائن ناشرى كتبه ، من ذلك « التاريخ السياسى للشيطان » (١٧٢٦) ، و « خفايا السحر » (١٧٢٠)، و « الكشف عن أسرار الدنيا الخفية »، أو تاريخ حقيقة الأشباح (١٧٢٧ـ ١٧٢٨) أضف إلى هذا كله قصيدة فى اثنى عشر جزءا « العدل الإلهى » يدافع فيها عن الحقوق الطبيعية لكل إنسان فى الحياة وفى الحرية وفى التماس السعادة ووسط هبوط ديفو كثيراً إلى مستوى ذوق الشعب وأخيلته ، نرى أنه أسهم اسهاما مخلصاً فى أفكار جادة : مثل « التاجر الإنجليزى الكامل » (١٧٢٥ — ١٧٢٧) ، و « خطة التجارة الإنجليزية » (١٧٢٨)، والكتاب الذى لم ينته منه « الرجل الإنجليزى الكامل » ، فإنه فى هذه الكتب جميعها قدم معلومات مفيدة ونصائح عملية ، لم تتلاءم فى كل الأحوال مع أخلاقيات الانجيل .

وقد لا نحبذ أخلاقيات ديفو أو سلوكه الأدبى ، ولكننا نملك الاعجاب بعبقريته وجده ، وربما لم يشهد التاريخ قط منذ انجاب رمسيس الثانى ١٥٠ ولدا مثل وفرة ديفو فى الانتاج . والشىء الوحيد الذى يكاد لا يصدق

فى ديفو هو أنه الذى كتب كل ما كتب ، لأننا كذلك يتولانا العجب كل العجب من عبقرية عقل ديفو الذى سخرت فيه قوة الخيال وقوة الذاكرة لهذا العمل الشاق أو الجهد الجهيد ، والذى أخرج هذه الأشياء الوهمية المقبولة شكلا إلى أبعد حد فى الأدب . وأننا لنعترف بعبقرية وشجاعة رجل استطاع مع ضخامة العمل والعجلة فى انجازه ، أن يحتفظ بهذا المستوى الرفيع فى المادة والأسلوب . ففى المائتين والعشرة مجلدات التى أخرجها (إذا صدقنا ماقيل) لا يكاد المرء يقع على صحيفة واحدة مملة باهتة ، وإذا اتفق أن كان ديفو أحيانا بليدا غبياً فإنه كان يفعل ذلك عن عمد ليضيف إلى حكايته شيئاً من احتمال الصدق والكذب . ولم يبزه أحد فى بساطة السرد ووضوحه ، وفى كونه طبيعيا بعيدا عن التكليف إلى حد الاقناع . وهنا كانت عجلته ضربا من ضروب الحظ السعيد له ، حيث لم يكن لديه فسحة من الوقت للتنميق و الزخرف . وأرغمه تدريبه الصحفى ونزعته الصحفية على الإيجاز والوضوح . وكان أكبر صحفى فى زمانه بكل معانى الكلمة ، ولو أن هذا الوصف ينطبق على ستيل وأديسون وسويفت . فإن صحيفته « ريفيو » مهدت الأرض التى أنبتت فيها صحيفة « سبكتاتور » بذورا منتقاة بشكل أفضل . والحق أن هذا شرف أى شرف ، ولكن أضيف إليه الشهرة العالمية الباقية على مر الدهور لقصة روبنصن كروزو ، وأثرها على قصص المغامرات ، حتى على قصة تختلف اتجاهاتها كل الاختلاف مثل « رحلات جاليفر » وإذا استثنينا مؤلف ذلك الإتهام الذكى لبنى الإنسان (سوبقت فى رحلات جاليفر) ، فإن ديفو كان أعظم عبقرية فى رجال الأدب الانجليزى فى عصر زخر بهم .

٧ ـ ستيل وأديسون

يحدد ريتشارد ستيل أكثر من أى إنسان غيره بداية عصر الانتقال فى الأدب ، من عودة الملكية إلى حكم الملكة آن . واتصف فى شبابه

بكل صفات العربدة والصخب والفجور التى سادت فترة عودة الملكية .
ولد فى دبلن ، وكان أبوه موثقا عاما (كاتب عدل) ، وتعلم فى مدرسة تشارترهاوس وأكسفورد وكان حساسا سريع الاهتياج كريما ، وبدلا من الحصول على درجته الجامعية انضم إلى جيش الحكومة فى ايرلنده ، وكان يسف فى شرب الخمر اسفافا ، ويبارز حتى يقارب أن يصرع خصمه . وأكسبته التجربة رصانة عابرة ، فبدأ يحمل على المبارزة ، وكتب مقالا عن « البطل المسيحى » (١٧٠١) جادل فى امكان أن يكون المرء سيدا ماجـــدا مهذبا « جنتلمان » مع بقائه مسيحيا . ووصف الفساد الذى ساد العصر ، وعاد بذاكرة قرائه إلى الكتاب المقدس بوصفه منبع الإيمان الصادق والخلق القويم ، وناشد الرجال أن يحترموا جمال النساء وعفتهن .

وكان فى التاسعة والعشرين ، حين وجد أنه حتى الطبقة الوسطى التى ينتمى إليها ، تتبرم به على أنه واعظ ممل ، فعقد العزم على النهوض برسالته عن طريق الروايات ، وامتدح تنديد جرمى كوليير بالخلاعة والفحش فى المسرح ، فانبرى فى سلسلة من الملهيات يدافع عن الفضيلة يشن حملات صادقة على الأوغاد . ولكن هذا الإنتاج لم يلق نجاحا . فالحق أن المسرحيات حوت مشاهد حية ودلت على ذكاء وموهبة ، ولكن جمهور النظارة تشككوا فى حل عقدة الرواية أو فى نتيجتها ، وطالبوا باللهو والتسلية على حساب الوصايا العشر مهما كان الثمن غاليا ، على حين أن المتدينين الحصفاء الذين قد يتعاطفون مع مشاعره ، قلما كانوا يظهرون فى المسرح . كيف الوصول إلى هؤلاء الناس ؟

وقرر ستيل أن يجرب وسيلة يواجههم بها فى المقاهى . وفى ١٢ أبريل ١٧٠٩ أخذ ورقة من صحيفة ديفو « ريفيو » وأصدر العدد الأول من صحيفة تصدر ثلاث مرات فى الأسبوع ، أطلق عليها « The Tatler » وحررها وكتب معظم مادتها تحت اسم مستعار « ايزاك بيكرستاف » . ووجهها إلى المقاهى ، حيث أعلن : —

« كل ضروب البسالة والكياسة ، والمسرات والتسلية ، تلتقون بها فى « مقهى هوايت للكاكاو » والشعر فى « مقهى ول Will » والعلم والمعرفة تحت عنوان « جريشيان » . والأنباء الخارجية والداخلية من « مقهى سان جيمس » . أما سائر الموضوعات التى سأقدمها فمن عندى أنا .

وكان مشروعا بارعا ، أثار اهتمام رواد المقاهى ، واستقى الأنباء والموضوعات من مناقشاتهم هناك ، وأتاح لريتشارد ستيل أن يعبر عن آرائه دون مقاطعة أو نزاع ، وفى العدد ٢٥ الصادر بتاريخ ٧ يونيه ١٧٠٩ ذكر أنه تلقى رسالة من « سيدة شابة ... ترثى فيها لسوء حظ . . حبيبها الذى أصيب مؤخرا بجرح أثناء المبارزة » واستطرد ستيل ليبين سخف عادة تحتم أن يدعو الشخص الذى أوذى الشخص المسىء ليضيف ضغثا إلى ابالة أو القتل إلى الإساءة ، فماذا تعنى . المبارزة أو التحدى إلا هذا !!

سيدى ، أن سلوكك الشاذ فى الليلة الماضية ، وتطاولك على فى جرأة وحرية طابت لهما نفسك ، كل هذا يدفعنى إلى أن أوجه إليك هذا الإنذار ، لأنك مغرور أحمق غير مهذب .. سألتقى بك فى هايدبارك فى ظرف ساعة ، حاملا مسدسا ، وحاول أن تصوبه إلى رأسى ، حتى ألقنك درسا فى آداب السلوك » .

وهنا كان صوت الطبقة الوسطى يسخر من الأرستقراطية . والحق أن الطبقة الوسطى أساسا هى التى زحمت المقاهى .

وفى مقالات أخرى سخر ستيل من بذخ الأرستقراطية ولغوها ومظاهرها الكاذبة وزينتها وزخارفها وملابسها ، وتوسل إلى النساء أن يرتدين الثياب البسيطة ، ويعتنمن عن الحلى والمجوهرات . فإن عقد اللؤلؤ فوق الصدر لا يضيف شيئاً إلى الصدر العاجى الجميل الذى يحمله(٦٨) » . إن رقته مع النساء كانت تتبارى مع ولعه بالخمر . وألح على القول بأنهن بحق يتمتعن بالذكاء وسلامة البنية . ولكنه إمتدح الكثير من تواضعن وطهرهن ــ وتلك صفات لم تعترف بها ملهاة فترة عودة الملكية . وقال عن

إحدى النسوة « إن حبك لها يعني أنك تتسم بالتحرر فى تعليمك » واعتبر تاكرى «أن هذه العبارة ربما كانت أرق تحية قدمت لامرأة(٦٩)». ووصف ستيل ، فى إحساس عميق ، مباهج الحياة الأسرية ، والوقع الجميل لأقدام الأطفال ، وإقرار الزوج بفضل زوجته المسنة وعرفانه لجميلها :

« إنها فى كل يوم تدخل على قلبى سرورا أكثر بكثير مما عرفت فيها أيام كنت أستمتع بجمالها وأنا فى نضارة الشباب ، إن كل لحظة فى حياتها تقدم لى أمثلة جديدة على تجاوبها مع ميولى ورغباتى ، وحسن تدبيرها بالنسبة لمواردى فى أوقات اليسر والعسر . إن وجهها أجمل بكثير مما رأيته لأول مرة . وليس ثمة ذبول فى تقاطيعه إلا إستطعت أن ألحظه منذ اللحظه التى حدث فيها نتيجه إهتمام شديد قلق بمصالحى ربما يعود على بالخير .. إن حب الزوجه أسمى بكثير من ذلك الهوى التافه الذى يسمونه عادة بهذا الاسم (الحب) ، بقدر هبوط مستوى ضحكات المهرجين العاليه الماجنه عن مستوى المرح الهادىء الرشيق عند الأماجد المهذبين(٧٠) » .

وكان ستيل قد تزوج مرتين عندما كتب هذا ، وإن رسائله إلى زوجته لهى نماذج للاخلاص والحب ، ولو أنها سرعان ما تشتمل على اعتذارات عن عدم الحضور لتناول الطعام فى البيت . إنه أخفق فى أن يكون الرجل البرجوازى الفاضل الذى كان فى نظره نموذجا للحياة ، فإنه سكر كثيراً وأنفق كثيراً وإستدان كثيراً ، وإجتاز الشوارع الجانبية ليتحاشى لقاء أصدقائه الذين أقرضوه المال . وإختفى عن الأنظار تملصا من دائنيه ومراوغة لهم ، ولكنه فى نهاية الأمر أودع السجن بسبب الدين ، وقارن قارئو صحيفته « Tatlor » بين عظاته وتصرفاته . وأصدر جون دنيس نقدا لاذعا لآراء ستيل ، وتناقص عدد المشتركين فى الصحيفه واحتجبت عن الظهور فى ٢ يناير ١٧١١ ، ولكنها تحتفظ بمكانتها فى تاريخ الأدب الإنجليزى ، لان بين جنباتها بدأت الأخلاقيه الجديدة تعبر عن نفسها ، وبدأت القصه

القصيرة تأخذ شكلها الحديث ، كما طور أديسون المقالة الحديثه ، حيث بلغ بها حدا الاتقان والكمال فى صحيفه « سبكتاتور » .

وولد أديسون وستيل كلاهمـــا فى ١٦٧٢ ، وكانا صديقين منذ كانا يدرسان معا فى مدرسه تشارترهاوس . وكان والدجوزيف أديسون قسيسا أنجليكانيا ، أشرب ابنه من التقوى والورع ماقاوم به كل مساوىء ومفاسد فترة عودة الملكيه . وكسبت له براعته فى اللاتينيه منحه دراسيه . وفى سن الثانية والعشرين أعجب إرل هاليفاكس بمواهبه ، إلى حد أنه أقنع رئيس كليه ماجدلن بتحويل الشاب من سلك الكهنة إلى خدمة الحكومة . وقال هاليفاكس « يقولون عنى أنى عدو الكنيسه ، ولكنى لن أعود للإساءة إليها قط ، بعد أن أحتفظ بمستر أديسون بعيدا عنها(٧١) » ولما كانت المقدرة فى اللاتينية غير مقرونة بمعرفه اللغه الفرنسيه ، وكانت الحاجة إلى معرفة اللغة الفرنسية أساسية عند الدبلوماسيين فإن هاليفاكس خصص لأديسون ثلثمائة جنيه سنويا لينفق منها أثناء إقامته فى القارة . ولمدة عامين تجول أديسون على مهل فى أرجاء فرنسا وإيطاليا وسويسرا .

وبينما هو فى جنيف إرتقت الملكة آن عرش إنجلترا فأبعد أصدقاؤه عن مناصبهم ، وانقطع عنه راتبه . ولما لم يبق له إلا دخله الضئيل ، فإنه اشتغل معلما ومرشدا خاصا لسائح إنجليزى شاب ، وطاف معه بأنحاء سويسرا وألمانيا والمقاطعات المتحدة . ولما انتهت هذه المهمة عاد إلى لندن ١٧٠٣ ، وعاش لبعض الوقت فى فقر يستره التعفف وحسن المظهر . ولكنه كان « مغنا طيسا » يجذب الثراء والحظ السعيد . ذلك أنه عندما انتصر دوق مالبورو فى معركة بلنهيم فى ١٣ أغسطس ١٧٠٤ فتش جودولفين وزير الخزانة عن شخص يخلد ذكر هذا النصر شعرا . وأوصى هاليفاكس بأديسون للقيام بهذا العمل ، واستجاب الشاب الموهوب بقصيدة رنانة « الحملة » ونشرت فى نفس اليوم الذى دخل فيه مالبورو العاصمة دخول المنتصر الظافر ، وساعد نجاح القصيدة على أن توطن انجلترا نفسها على

مواصلة القتال . إن جورج وشنجطن آثر الشعر المحلق عاليا الذى كتبه أديسون على سائر القصائد . وإليك أبياتا مشهورة منها :

« ايه يا ربة القريض ، أى شعر ترين أن أنشده القوات التى أشتعلت فى نفوسها نيران الغضب ، المتراصة فى ميدان المعركة ! إنى ليخيل إلى أنى أسمع دقات الطبول الصاخبة وصيحات النصر وأنات الموتى يختلط بعضها ببعض وطلقات المدافع المرعبة تشق أجواز الفضاء ، وصيحات الحرب تدوى مثل الرعد . وهنا أثبت مالبورو العظيم بروحه العالية أنه راسخ كالطود ، لايهتز لالتحامات الجيوش الهائجة ، وفى غمرة الضجة والفزع واليأس ، يشهد كل مناظر الحرب المروعة ، ويشرف على ساحة الموت ثابت الجنان ، يفكر فى هدوء . ويرسل المدد فى الوقت المناسب للفرق المتخاذلة ، وينفخ فى المحاربين المترددين من روحه فيدفعهم إلى الالتحام مع العدو ، ويحـــدد المعركة المتأرجحة أين تشتد وتحتدم . كما لو أن ملكا من السماء ، بأمر من عند الله زلزل أرض الأعداء بريح عاتية (كما حدث مؤخرا لبريطانيا الواهنة) . وفى هدوء ورصانة يسوق مالبورو العاصفة العاتية ، ويطيب نفسا بتنفيذ أمر الله سبحانه وتعالى ، فيمتطى صهوة جواده وسط الرياح الهوجاء ويقود العاصفة ويوجهها كيف يشاء » .

وحقق البيت الأخير والتشبيه الملائكى لأديسون العودة سالما إلى وظيفة حكومية تدر عليه راتبا ، بقى فيها طيلة السنوات العشر التالية . وفى ١٧٠٥ عين عضوا فى لجنة الاستئناف ، خلفا لجون لوك . وفى ١٧٠٦ وكيلا للوزارة . وفى ١٧٠٧ ألحق ببعثة هاليفاكس إلى هانوفر ، التى هيأت لأسرة هانوفر السبيل لارتقاء عرش انجلترا . وفى ١٧٠٨ اتخذ مقعده فى البرلمان ، وبفضل خدماته الجليلة احتفظ به حتى الممات . وفى ١٧٠٩ أصبح السكرتير الأول لنائب الملكة فى أيرلنده . وفى ١٧١١ أثرى إلى حد استطاع معه أن يشترى ضيعة فى رجبى بعشرة آلاف جنيه .

إن أديسون فى أيام الرخاء لم ينس ستيل . فأنبه على أخطائه ولكنه

هيأ له منصبا حكوميا ، وأقرضه مبالغ كبيرة من المال ، وطالبه مرة واحدة أن يسددها(٧٢) . وعندما صدرت صحيفة «The Tatler» غفلا من الاسم ، لاحظ إشارة إلى فرجيل كان قد لمح بها إلى ستيل ، وفى « إيزاك بيكرستاف » عرف ثانية صديقه المترف المفلس وسرعان ما اشترك فى الصحيفة . وفى ١٧١٠ سقطت حكومة الأحرار ، وفقد ستيل وظيفته الحكومية ، وفقد أديسون كل مناصبه باستثناء عضوية لجنة الاستئناف . وإحتفلت صحيفة تاتلر بهذا العام بالاحتجاب عن الظهور . وشارك أديسون وستيل الواحد منهما الآخر آلامه وآماله ، وفى أول مارس ١٧١١ أخرجا أول عدد من أشهر الدوريات فى تاريخ الأدب الإنجليزى .

وظهرت صحيفة « سبكتايور » يومية ـ ماعدا يوم الأحد ، فى فرخ مطوى ذى أربع أو ست صفحات . وبدلا من تحديد المقالات من مراكز مختلفة . ابتدع المحرر المجهول الإسم ناديا وهميا يمثل أعضاؤه قطاعات مختلفة من دنيا الانجليز : سير روجردى كوفرلى سيد من الريف ، سير أندرو فريبورت يمثل طبقة التجار ، ويتحدث الكابتن سنترى باسم الجيش ، أما ول هنيكوم فهو الرجل العصرى المتأنق ، أما المحامى فى دار العدل فيمثل العلم والمعرفة » ويجمع مستر « سبكتاتور » نفسه بين وجهات نظرهم فى إطار من المرح اللطيف والكياسة والذكاء ، مما نفذت معه الصحيفة إلى بيوت الانجليز وقلوبهم جميعاً . وفى العدد الأول وصف مستر سبكتاتور نفسه ، حتى جعل النوادى والمقاهى تحاول الكشف عن شخصيته بالحدس والتخمين :

« قضيت سنواتى الأخيرة فى هذه المدينة حيث يرانى الناس كثيرا فى معظم الأماكن العامة ، ولو أن عدد الصفوة المختارة من الأصدقاء الذين يعرفوننى لا يجاوز الستة ، وسأتحدث عنهم فى العدد القادم بشكل أدق . ولا يكاد يوجد مكان يأوى إليه الناس بصفة عامة إلا وظهرت فيه ، فأحيانا يروننى أدس أنفى فى حلقة من رجال السياسة فى « مقهى ول » ،

مصغيا بأكبر إهتمام إلى ما يدور فى هذه الاجتماعات الدورية . وأحيانا أدخن غليونى ، وعلى حين يبدو أنى غير منصت لشىء إلا ساعى البريد ، فإنى أسترق السمع إلى النقاش الذى يدور على كل مائدة فى الغرفة . وفى أمسيات الأحد أقصد إلى مقهى سان جيمس ، وانضم أحيانا إلى جماعة السياسيين الصغيرة فى الحجرة الداخلية ، بوصفى رجلا يذهب إلى هناك ليسمع ويستفيد . ووجهى كذلك معروف تمام المعرفة فى « جريفان » وفى مقهى « شجرة الكاكاو » « وفى مسارح « درورى لين » و « هاى ماركت » على حد سواء . وكانوا يحسبوننى تاجرا فى « البورصة » طيلة هذه السنوات العشر أو أكثر . وأحيانا حسبوا أنى يهودى من جماعة السماسرة الذين لا يوثق بهم فى « جوناثان » وجملة المقول إنى لا أرى حشداً من الناس إلا حشرت نفسى فى زمرتهم ، ولو أنى لا أنبس بنت شفة إلا فى النادى الخاص بى .

وهكذا أعيش فى هذه الدنيا متفرجا ، لا واحدا من الجنس البشرى ، وبهذه الطريقه جعلت من نفسى رجل دولة وسياسة يطيل التأمل والتفكير ، وجنديا وتاجرا ، وصانعاً ماهراً ، دون أن أمارس العمل فى أى قطاع من قطاعات الحياة . كما أنى على دراية تامة بشئون الزواج والأبوة ، وأستطيع تبين وجوه الخطأ فى الإقتصاد وفى الأعمال وفى الإنحراف ، أفضل بكثير ممن يتولون هذه الأمور بأنفسهم ، لأن المتفرجين يكتشفون أخطاء يمكن ألا تقع عليها أعين المشتركين فى اللعبة . إنى لم أناصر قط حزبا فى اندفاع أو عنف . وإنى فاقد العزم على أن أقف موقف الحياد الدقيق بين الأحرار والمحافظين ، إلا إذا اضطررت إلى إعلان الإنحياز إلى أى من الفريقين بسبب تصرفات غير ودية من الفريق الآخر . وصفوة القول إنى كنت طوال حياتى « متفرجا » وتلك هى الشخصية التى أقصد ألا أحيد عنها فى هذه الصحيفة » .

ويتقدم للشروع ، جمعت « سيكتاتور » بين الموضوعات الاجتماعية

ودراسات العادات والسلوك والأخلاق والنقد الأدبى واستعراض أحوال المسرح . وكتب أديسون سلسلة من المقالات عن ملتون أدهش بها انجلترا حين سما بقصيدة « الفردوس المفقود » فوق مرتبة « الياذة » هو ميروس « وانيادة » فرجيل . وتجنبت المنـــاقشات الخوض فى السياسة التى تثير العداوات والتقلبات ، ولـكن ألحت — واشترك فى هذا أديسوق عن طيب خاطر — على دعوه ستيل إلى الإصلاح الاجتماعى . وظهر من جديد شىء من الروح البيوريتانية هذبته المحنة ، كرد فعل للنـكسة التى اجتاحت فترة عودة الملـكية ، ولـكنها لم تعد الآن انهما كا لاهوتيا كئيبا مفرطا فى التخويف من الشيطان ومن الخطيئة المهلـكة ، بل دعوة إلى الاعتـدال والاحتشام موسومة بالتفاؤل مغلفة بالدهاء والظرف . وعلى هذا النسق بدأ عدد ١٠ نوفمبر :

« إنه لمما يبعث على الرضا والارتياح أن أرى المدينة العظيمة تلح يوما بعد يوم على طلب صحيفتى هذه . وتستقبل مقالاتى الصباحية فى جـدية واهتمام مناسبين . ويقول الناشر أن ثلاثة آلاف نسخة منها توزع يوميا بالفعل . فإذا حسبت أن النسخة الواحدة يتداولها عشرون قارئا ، وهو تقدير متواضع ، لأحصيت من المريدين ستين ألفا فى لندن ووستمنستر ، آمل أن يلحظوا الفرق بينهم وبين القطيع الطائش من أخوانهم الجهلة الغافلين ، ومذ حظيت بمثل هذا العدد الـكبير من القراء فإنى لن أدخر وسعا فى أن يكون ما أزودهم به من علم ومعرفة مقبولا ، ومن تسلية نافعا مفيداً . ولهذا أحاول أن أحيى الأخلاق بالدعاية وألطف الدعابة بالفضيلة ، لعل قرائى يشقون إذا أمكن ، عن هذا السبيل أو ذاك ، طريقهم إلى التأمل فيما يجرى حولهم كل يوم ، رغبة منى فى ألا يكون حظهم من الفضيلة قليلا عابرا ، أو مجرد ومضات متقطعة من التفـكير ، صح عزمى على أن أنعش ذاكرتهم وعقولهم بين الحين والحين ، حتى أخرجهم من ظلمات اليأس والرذيلة والحماقة التى تردى فيها هذا العصر . فإن العقل الذى يخلد إلى الدعة والراحة ولو يوما

واحداً ، يشب على الحماقات والسخافات التى لا يمكن اقتلاعها إلا بالمداومة على تثقيفه تثقيفا جادا مثابرا . ولقد قالوا عن سقراط أنه أنزل الفلسفة من السماء لتسكن بين النـاس على الأرض ، وكم تهفو نفسى أن يقال عنى أنى أتيت بالفلسفة من المخابىء والمكتبات والمدارس والجامعات ، لتستقر فى النوادى والجمعيات ، وعلى موائد الشاى ، وفى المقاهى .

من أجل ذلك أوصى ، بالنسبة لتأملاتى هذه ، وبصفة خاصة ، الأسرات التى ترى النظام والدقة فى حياتها ، أن تخصص فى كل صباح ساعة محددة لتناول الشاى والخبز والزبد ، وأنصحها جديا ، ولخيرها هى ، أن تثابر على شراء هذه الصحيفة ، وتعتبرها جزءا من تجهيزات الشاى » .

واتجهت صحيفة « سبكتاتور » إلى النساء والرجال سواء بسواء ، فعرضت أن تعالج موضوع الحب والجنس ، وتصور « الحب الزائف أقبح وأشد فتاما من . . . الخيانة فى الصداقة أو النـذالة والخسة فى التجارة وسائر الأعمال (٧٣) . وكتب أديسون يقول : « سيكون من أعظم مفاخر هذه المهمة التى أنهض بها أن تهىء هذه الصحيفة بعض الموضوعات التى يخوض فيها بعض السيدات العاقلات المفكرات على موائد الشاى(٧٤) » . وشجعت الرسائل وطبعت ، وكتب ستيل نفسه سلسلة من الرسائل التى تشكو الحرمان من الحب والأحباب ، كان بعضها موجها إلى خليلاته ، وبعضها دبجه المحررون فى أسلوب حديث جداً . وجمعت الصحيفة بين الدين والحب . وزودت باللاهوت المعتدل جيلا بدأ يتساءل عن أثر تخلخل إيمان الطبقات العليا على الأخلاق . وأهابت بالعلم أن يتابع طريقه ، ويدع الكنيسة وحدها حارسا حكيما محنكا على الأخلاق ، فإن حقوق الوجدان ومتطلبات النظام تدل على إدراك الفرد وعقله ، فهو دوما فى دور المراهقة . وخير للأخلاق ولسعادة الإنسان تقبل العقيدة القديمة فى خشوع ، وحضور صلواتها وخدماتها والالتزام بعطلاتها ، والمساعدة على خلق الجو المناسب ليوم العبادة الهادئة فى كل أبرشية .

« إنى لأجـد السرور كل السرور فى يوم الأحد فى الريف ، وكم أعنى لو أن تقديس اليوم السابع والتعطيل فيه كان مجرد نظام إنسانى ، إذن لأصبح أفضل وسيلة فـكر فيها الإنسان لتهذيب الجنس البشرى وصقله وتمدينه ، ومن المؤكد أن أهل الريف سيخطون سريعا إلى نوع من المتوحشين والمتبربرين إذا لم يعودوا دوما إلى زمن محدد تجتمع فيه القرية كلها بوجوه باسمة فى أبهى حلة ليتدارس أهلها فيما بينهم مختلف الموضوعات ، وليوضح لهم ما ينبغى عليهم أداؤه من واجبات ، وليجتمعوا معا لعبـادة الله « الـكائن الأسمى » .

إن يوم الأحد يزيل صدأ الأسبوع كله ، لا لأنه يحيى الأفـكار الدينية فى العقول ، بل لأنه يجمع بين الرجال والنساء . والـكل يبدو فى أحسن صورة(٧٥) » .

أما الأدب الذى كان مطية الأباحية والخلاعة طوال الأربعين عاما الماضية ، فقد انحاز الآن إلى جانب الأخلاق والإيمان . وأسهمت صحيفة سبكتاتور فى انقلاب السلوك والأسلوب الذى استبق فى عهد الملـكة آن ، بقرن من الزمان ، روح أواسط العصر الفـكتورى ، التى قضت بألا يحترم إلا من هم حقا جديرون بالإحترام ، وغيرت مفهوم الانجليز عن السيد الماجد « جنتلمان » من الرجل ذى اللقب الذى يحسن مغازلة النساء ، إلى المواطن المهذب الـكريم النشأة . وفى « سبكتاتور » وجدت فضائل الطبقة الوسطى من يدافع عنها دفاعا مهذبا مصقولا . وكان التعقل وحسن التدبير وعدم التبذير أجدى على المجتمع وأثمن لديه من أناقة الثياب وسرعة الخاطر وكان التجار سفراء الحضارة إلى الشعوب المختلفة . وكانت عائدات التجارة والصناعة عصب الحياة للدولة .

وأحرزت صحيفة سبكتاتور نجاحا ومنزلة رفيعة ليس لهما مثيل فى الصحافة الانجليزية . وكان توزيعها ضئيلا ، لا يكاد يجاوز أربعة آلاف ، ولـكن تأثيرها كان عظيما إلى حد بعيد . وكان يباع من مجموعاتها المجلدة

نحو تسعة آلاف نسخة سنويا(٧٦) ، وكأنما أدركت انجلترا فعلا أنها لون من الأدب . ولكن بمرور الزمن بليت جدتها وخبا بريقها ، وبدأت شخصيات « النادى » تكرر نفسها ، وفترت حيوية الكتاب المنهوكين ونشاطهم ، وأصبحت عظاتهم تبعث السأم فى نفوس القراء . وهبط توزيع الصحيفة ، وزادت المصروفات على الايرادات نتيجة ضريبة التمغة التى فرضت ١٧١٢ . وفى ١٦ ديسمبر ١٧١٢ احتجبت الصحيفة عن الظهور . وواصل ستيل الكفاح فى صحيفة « جارديان ».وأحيا أديسون صحيفة سبكتاتور ١٧١٤ . ولم يطل عمر الصحيفتين كلتيهما ، لأن أديسون كان قد أصبح آنذاك كاتبا مسرحيا ناجحا ، وأعيدت إليه وظائفه ورواتبه الحكومية .

وفى ١٤ أبريل ١٧١٣ أخرج مسرح « دروورى لين » مسرحية « كاتو » لأديسون كتب لها صديقه بوب مقدمة زاخرة بالحكم والأفكار التى عرفت عنه ، مثقلة بالوطنية الثائرة المتفائلة معا ، وأخذ ستيل على عاتقه أن يحشد لمشاهدة المسرحية كل « الأحرار » الغيورين المتحمسين ، فلم يوفق فى ذلك كل التوفيق ، ولكن « المحافظين » انضموا إلى الأحرار فى استحسان وقفة « كاتو » الأخيرة دفاعا عن « الحرية الرومانيه » (٤٦ ق. م.) وتبارت صحيفة المحافظين « اجزامنر » مع صحيفة ستيل « جارديان » فى نشوة الابتهاج والاستحسان . واستمر العرض لمدة شهر كامل مع تزايد عدد المترددين على المسرح لمشاهدتها ، حتى قال بوب « لم يكن كاتو محل إعجاب ودهشة رومه فى زمانه قدر ماهو موضع إعجاب ودهشة بريطانيا فى أيامنا هذه(٧٧). واعتبرت كاتو فى القارة أجل مسرحية « تراجيديه » فى اللغة الانجليزية . وأعجب فولتير بالتزامها بالوحدات ، وعجب كيف أن انجلترا تطيق صبرا على شكسبير بعد مشاهدة رواية أديسون(٧٨). ويهزأ النقاد اليوم بها على أنها خطابة نافهة مضجرة ولكن أحد القراء وجد أن انتباهه مشدود حتى النهاية بفضل الحبكة المحكمة البناء وقصة الحب المدعمة بشكل بارع فى الصراع الأكبر .

وازدادت الآن شعبية أديسون إلى حد قال معه سويفت « أعتقد أنه لو فكر فى أن يختار للجلوس على العرش لـكان من العسير أن يأبى عليه أحد هذه الرغبة(٧٩) » . ولـكن أديسون الذى كان دوما نموذجا للاعتدال ، قنع بتعيينه وزيراً فى الحـكومة ، لشئون أيرلنده آنذاك ، ثم كبير مفوضى التجارة . وكان شخصية محبوبة جداً فى النوادى ، لأن إدمانه على الشراب منعه من أن يكون « الرجل الشاذ البشع غاية البشاعة والشذوذ الذى لا يحبه الناس أبدا » . ورغبة منه فى تتويج مجده وعظمته ، تزوج (١٧١٦) من كونتيسة ، ولم يكن سعيدا فى حياته مع السيدة المتعجرفة فى « هولندهاوس » فى لندن . وفى ١٧١٧ عين ثانية وزيراً ، ولـكن مقدرته كانت محل نزاع وشك . وسرعان ما استقال بمعاش قدره ١٥٠٠ جنيه فى العام . وعلى الرغم من تجلده وأدبه الجم انزلق فى عراك مع أصدقائه — ومنهم ستيل وبوب — الذى هجاه بأنه مترمت اعتاد « أن يلعن الناس بالاطراء الباهت الحقير » فهو :

مثل كاتو يقدم للسناتو الجزيل القوانين ، ثم يتخذ مقعده لينصت إلى ما يكال له مد مديح(٨٠) .

وكانت خاتمة حياة ستيل أقل عظمة وجلالا من أديسون . أنه انتخب للبرلمان فى ١٧١٣ ، ولـكن الغالبية التى تنتمى إلى حزب المحافظين أخرجته بتهمة أن لغته محرضة مثيرة للفتنة . وفاز حزب الأحرار فى السنة التاليـة ، فخلع على ستيل بعدة مناصب إدارية تدر عليه مالا ، وتعادلت لفترة من الزمن موارده مع نفقاته ، ولـكن ديونه طغت ، وطارده دائنوه ، وآوى إلى ضيعة زوجته فى ويلز ، وهناك وافته المنية فى أول سبتمبر ١٧٢٩ ، بعـد شريكه بعشر سنين . أنهما معا : ستيل بأصالته وحيويتـه ونشاطه ، وأديسون بذوقه الفنى المصقول ارتفعا بالقصة القصيرة والمقال إلى آفاق جديدة من الجودة والاتقان ، وأسهما فى ابتعاث الأخلاق من جديد فى ذلك العصر ، وحددا طابع الأدب الانجليزى وشكله لمدة قرن من الزمان باستثناء العبقرية البالغة القوة والعنف فى هذا العصر .

جوناتان سويفت : ١٦٦٧ — ١٧٤٥

كان سويفت يكبر ستيل وأديسون بخمس سنين . ولكنه عمر بعد أحدهما ست عشرة سنة ، وبعد الآخر ستا وعشرين . وكان بمثابة شعلة متأججة سرت من قرن إلى قرن ، من دريدن إلى بوب . ولم يستطيع قط أن يغتفر مولده فى دبلن الذى كان طائفاً مثيراً للغضب فى انجلترا . وكم كان قاسياً عليه أن يقضى أبوه نحبه قبل ولادته ؛ وكان الوالد قهرمان قصر الملك فى دبلن . وعهد بالطفل إلى مرضعة حملته منها إلى انجلترا ، ولم تعد به إلى أمه إلا عندما بلغ الثالثة من العمر ، وربما ولدت هذه المغامرات والمخاطر فى نفس الصبي شيئاً من قلق اليتيم . ولابد أن هذا الشعور ازداد عمقا فى نفسه ، بانتقاله إلى عم له . سرعان ما تخلص منه ، وهو فى السادسة بإلحاقه بمدرسة داخلية فى كلكنى . وفى سن الخامسه عشرة التحق بترنتى كولدج فى دبلن ، حيث ظل بها سبع سنين . وشق طريقه فى الكلية بصعوبة لأنه كان مهملا فى اللاهوت بصفة خاصة . وكثيرا ما قصر وعوقب ، وذاق مرارة الفقر والحرمان عندما تعثر حظ عمه الذى تولى الانفاق عليه ، وأصيب بانهيار عصبى (١٦٨٨) . وعند موت عمه ١٦٨٩ ، وفى غمرة ثورة أيرلنده لنصرة جيمس الثانى ، هرب جوناتان إلى انجلترا ، وإلى أمه التى كانت تعيش فى ليستر على عشرين جنيها فى العام . وعلى الرغم من طول الفراق بينهما ، انسجما معا إلى حد معقول ، وتعلم كيف يحبها ، وزارها من حين إلى حين ، حتى وفاتها (١٧١٠) .

وفى أواخر عام ١٦٨٩ وجد سويفت عملا براتب قدره عشرون جنيها فى العام مع الإقامة والطعام ، سكرتيرا للسير وليم تمبل فى موربارك . وكان تمبل حينذاك فى أوج عظمته ، صديقا ومستشارا للملوك . ويجدر بنا ألا نقسو فى لومه لاخفاقه فى التعرف على العبقرية فى الشاب ذى الاثنين والعشرين ربيعا الذى جاءه ببعض اللاتينية واليونانية ، وببعض اللهجة الايرلندية مع جهل ماكر باستخدام الشوكة والملعقة وعلاقة الواحدة منهما بالأخرى

على المائدة(٨١) وكان سويفت يجلس مع كبار العاملين فى خدمه تمبل ، إلى مائدة سيدهم(٨٢)، الذى لحظ دوما الفرق بينه وبينهم • ولـكن تمبل كان فأرسل سويفت ١٦٩٢ إلى أكسفورد ليحصل على درجه الأستاذية . وأوصى به عطوفا ، وليم الثالث خيرا ، ولـكن دون جدوى .

وفى نفس الوقت كان سويفت يكتب مقطوعات شعرية من ذات البيتين. عرض بعضها على دريدن الذى قال له « ياسويفت ، يابن العم ، إنك لن تـكون شاعرا أبدا » — وهى نبوءة كانت دقتها تجل عن إدراك الشاب وتقديره . وفى ١٦٩٤ ترك سويفت خدمة تمبل ، مع توصية منة . فعاد إلى ايرلنده ، ورسم قسيسا أنجليكانيا (١٦٦٥) وعين فى وظيفة كنسية صغيرة صغيرة ذات راتب فى كلروت بالقرب من بلفاست . وهناك وقع فى غرام جين دارنج التى سماها « فارنيا » ، وعرض عليها الزواج ، ولـكنها أمهلته حتى تتحسن صحتها ويزداد دخله . ولما لم يطق صبرا على هذه العزلة القاتلة فى أبرشية ريفية ، هرب من كلروت ١٦٦٩ وعاد أدراجه إلى تمبل وظل فى خدمته حتى مات هذا الأخير .

وكان سويفت فى عامه الأول فى مورپارك ، قد التقى بأستر جونسون. التى قدر لها أن تصبح « Stella » . وتناثرت بعض الشائعات بأنها نتاج شىء من طيش سيروليم تمبل ، الذى كان نادرا . والأرجح أنها ابنة تاجر من لندن . التحقت أرملته بخدمة ليدى تمبل . وعندما رآها سويفت لأول مرة كانت فى سن الثامنة ، تبعث على السرور والابتهاج مثل سائر البنات فى هذه السن ، ولـكنها كانت أصغر من أن تثير فيه لواعج الغرام والهيام . أما الآن وهى فى الخامسة عشرة ، فقد اكتشف سويفت ، معلمها الذى ناهز التاسعه والعشرين ، أن مفاتنها تثير المشاعر البدائية لدى الـكاهن المحروم ، لها عينان سوداوتان براقتان ، وشعر أسحم ، وصدر منتفخ ، « رشيقه رشاقة غير معهودة فى البشر . فى كل حركة وفى كل كلمة وفى

كل عمل » (هكذا وصفها سويفت فيما بعد) ، « وركبت كل تقاطيع وجهها في أحسن صورة[٨٣] » فكيف لاتفتن هلواز هذه معلمها أبيلاد[*] .

وعندما توفي تمبل ١٦٩٩ ترك لأستر ألف جنيه ولسويفت مثلها . وبعد آمال خائبة في الالتحاق بوظائف الحكومة ، قبل سويفت الدعوة ليكون قسيسا وسكرتيرا لدى أرل بركلي الذي كان قد عين لفوره قاضي القضاة في أيرلنده . وعمل سكرتيرا للرحلة إلى دبلن ، ولكنه هناك فصل عن عمله . فطلب أن يعين رئيسا لكنيسة « درف » وهو منصب كان على وشك أن يشغر . ولكن السكرتير الجديد، لقاء رشوة قدرها ألف جنيه ، خص بالوظيفة مرشحا آخر . واتهم سويفت إرل بيركلي والسكرتير كليهما ، وجها لوجه ، بأنهما « وغدان حقيران » . فعملا على تهدئته بتعيينه قسيسا في « لاراكور » ، وهي قرية على بعد نحو عشرين ميلا من دبلن ، لا يزيد شعبها على خمسة عشر شخصا . والآن في ١٧٠٠ بلغ دخل سويفت ٢٣٠ جنيها ، وهو دخل حسبته جين وارنج كافيا لإتمام الزواج . ومهما يكن من أمر ، فقد مضت أربع سنوات على مفاتحته لها في أمر الزواج ، وفي نفس الوقت كان قد وقعت عينه على استر . فكتب إلى جين يقول أنها إذا تزودت بقسط من التعليم يؤهلها لتكون شريكة صالحة لحياته ، وتعد بأن ترضى عن كل ما يحب ويكره ، وتخفف من متاعبه ودراسته ، فإنه يتزوجها دون نظر إلى وسامتها وجمالها أو إلى دخلها[٨٤] .

ومذ كان سويفت وحيدا في لاراكور ، فإنه كثيرا ما تردد على دبلن . وهناك في ١٧٠١ حصل على درجة الدكتوراه في اللاهوت ، وبعد ذلك في نفس العام ، دعا استر جونسون وصديقتها مسز ربيكا دنجلي ليحضرا ويقيما معه في لاراكور ، فقدمتا واتخذتا مسكنا بالقرب منه . وفي أثناء تغيبه في انجلترا شغلتا مسكنه الذي كان قد استأجره في دبلن وكانت أستر

(*) فيلسوف ولاهوتي فرنسي في القرن الحادي عشر ، تزوج تلميذته وعشيقته هلواز .

(ستيللا) تتوقع منه أن يتزوجها ، ولكنه تركها تنتظر طيلة خمسة عشر عاما ، واحتملت هي هذا الموقف الذى وضعها فيه على مضض ، وانتابها الاضطراب والكآبة . ولكن قوة شخصيته وحدة تفكيره ، أخمدتا جذوتها وكأنما وقعت تحت تأثير تنويمه المغناطيس حتى النهاية .

وتألقت حدة ذهنه بشكل مباغت حين نشر فى ١٠٧٤ فى مجلد واحد « معركة الكتب » و « حكاية حوض الاستحمام » . والأول اسهام موجز لايستحق الذكر فى الجدل حول للزايا النسبية للأدب قـديمة وحديثة . أما الثانى فهو عرض هام لفلسفة سويفت الدينية أو غير الدينية . وقال سويفت عندما أعاد قراءه كتابه هذا فى أخريات أيامه : « ياإلهى : أية عبقرية أملت على هذا الكتاب ؟(٨٥) . وأحبه كثيرا إلى حد أنه فى الطبعات التالية أتحفه بخمسين صحيفة أخرى من الهراء ، على شكل مقدمات واعتذارات . وكان يفاخر ويزهو بأن الكتاب ينم عن أصالة بالغة . ومع أن الكنيسة كانت منذ أمد بعيد قد أكدت أن المسيحية هى « رداء المسيح السليم الذى لاشية فيه » ولكن الإصلاح البروتستانتى مزقه اربا كان أحدا ـ خصوصا كارليل فى Sartor Resortus ـ لم يطعن فى القوة التى لم يسبق لها مثيل التى ردفيها سويفت كل الفلسفات والديانات إلى مجرد أردية تستخدم لستر جهلنا المرتجف أو اخفاء رغباتنا الجامحة المفضوحة :

«هل الإنسان نفسه إلارداء بالغ الصغر أو على الأصح مجموعة كاملة من الملابس بكل زخارفها وزركشتها ؟ . أليست الديانة عباءة ، والأمانه حذاء بلى بالوحل ، وحب الذات معطفا ضيقا غاية الضيق ، والغرور قميصا ، أليس الضمير إلا سروالا (بنطلونا) يستر الخلاعة والقذارة ، ولكن من السهل نزعه لخدمه الخلاعه والقذارة كلتيهما ؟ فإذا وضعت بعض قطع الفراء الرخيص أو الثمين فى موقع معين من الرداء فإننا بذلك نصنع قاضيا وحكما . ومن ثم فان وضع بعض الشاش والأطلس الأسود بعضهما إلى بعض بشكل مناسب يصنع لنا أسقفا(٨٦)» .

وجرت استعارة الرداء هنا بدقة ورقة . أن بيتر (الكاثوليكية) ، ومارتن (اللوثرية والأنجليكانية) وجاك (الكلفنية) تسلموا ، ثلاثتهم ، من أبيهم وهو يحتضر ، ثلاثة أردية جديدة متماثلة (كتبا مقدسة) إلى جانب وصية توجههم كيف يلبسونها ، وتحرم عليهم إبدالها ، أو إضافة خيط واحد إليها أو انتقاص خيط واحد منها ووقع الأبناء الثلاثة فى غرام سيدات ثلاث: «دوقة المال». أى الثراء ، و « آنسة الألقاب الفخمة » أى الطمع ، « وكونتيسة الكبرياء» أى الغرور. ولكن الأخوة الثلاث ، رغبة منهم فى إرضاء هؤلاء السيدات، يعمدون إلى إحداث بعض التغيير فى أرديتهم الموروثة . ولما بدا لهم أن التغييرات تتعارض مع وصية أبيهم ، أعادوا تفسير الوصية بتأويلات صادرة عن علماء ومثقفين . أما بيتر فقد أراد أن يضيف حواشى وأهدابا من الفضة (البذخ البابوى) . وسرعان ما اتضح للعلماء الثقاة أن لفظة « الهدب أو الحاشية » فى الوصية تعنى عصا المكنسة الطويلة . وهكذا اختار بيتر الحواشى الفضية ، ولكنه حرم على نفسه عصا المكنسة الطويلة « السحر؟ ». وفرح البروتستانات (المحتجون) حين وجدوا أقسى الهجاء والنقد يوجه إلى بيتر : إلى شرائه قارة كبيرة (المطهر ـ مكان تطهر فيه نفوس الأبرار بعد الموت بعذاب محدود الأجل) ثم بيعه (أى المطهر) فى أجزاء متفاوتة (صكوك الغفران) المرة بعد الأخرى ، وإلى علاجاته الناجعة الخالية من الآلام مادة (الكفارات) للديدان (أى وخزات الضمير) ـ وعلى سبيل المثال : « الامتناع عن أكل شىء بعد العشاء لمدة ثلاث ليال . وألا تخرج على الاطلاق ريحا من الجانبين دون سبب واضح[٨٧] » ، وكذلك وجه النقد إلى بيتر لابتداع « وظيفة الهمس » (أى الاعتراف) « لخير وراحة المصابين بوسواس المرض أو الذين أرهقهم المغص » و « ووظيفة التأمين » (أى مزيد من الغفران) ، « المخلل البالى المشهور (الكاثوليكى) ويعنى به « الماء المقدس » ، على أنه وقاية من الضعف والانحلال . وحيث تزود بيتر بهذه الوسائل والحيل الحكيمة فإنه ينصب نفسه ممثلا للرب ، ويصف

فوق رأسه ثلاث قبعات ذات تاج عال . ويمسك فى يده بعصا يختال بها ، وإذا رغب الناس فى مصافحته ، قدم لهم « كأن كلب مدرب تدريبا جيدا » قدمه(٨٨) . ويدعو بيتر إخوته إلى الغذاء ، ولا يقدم لهم غير الخبز ، ويؤكد لهم أنه ليس خبزا بل لحما ، ويدحض اعتراضاتهم ويقول « لاقناعكما بأنكما لستما إلا شخصين أحمقين جاهلين عنيدين أعميين حقا » ، لن استخدم إلا حجة واحدة : والله إنه لحم ضأن طيب طبيعى مثل أى لحم ضأن فى « ليدنهول ماركت » ، صب الله عليكما اللعنة الأبدية إذا صدقتما غير ما أقول(٨٩) » . ويثور الأخوان ، ويستخرجان « نسخا حقيقية » من الوصية (ترجمة الكتاب المقدس باللغة الوطنية) ، ويشجبان بيتر على أنه دجال محتال . وبناء على هذا طرد بيتر أخويه من داره ، ولم يستظلا بسقفه منذ ذلك اليوم إلى يومنا هذا(٩٠) » . وسرعان ما دب النزاع بعد ذلك بين الأخوة : إلى أى حد ينبذون أو يغيرون من أثوابهم الموروثة . ويعتزم مارتن ، بعد ثورة غضبه الأولى ، أن يلتزم جادة الاعتدال . ويتذكر أن بيتر أخوه . أما بيتر ، فإنه على أية حال يمزق ثوبه أربا (شيع كالفنية) . ويصاب بمسات من الجنون والغيرة . ويستطرد سويفت ليصف عمليات الريح (ويقصد بها الوحى والالهام) عند العولسيين ـ نسبة إلى عولس إله الرياح « ويعنى بهم » الوعاظ الكلفنيين . ويسخر كثيرا — سخرية لا يجوز نقلها هنا ـ من ألفاظهم الأنفية الحادة ومن نظرياتهم فى القضاء والقدر ، وتقديسهم الأعمى للنصوص المقدسة(٩١) .

وإلى هنا ، لم يصب مذهب الكاتب ـ المذهب الأنجليكانى إلا اليسير من الجراح . ولكن سويفت يسترسل فى القصة ، ويغير الأثواب إلى رياح ، ومن الواضح أنه ينتهى إلى أن كل الديانات والفلسفات ـ لا لاهوتيات المنشقين فحسب ـ ليست إلا أضاليل وأوهاما كاذبة سريعة الزوال .

« إذا استعرضنا الانجازات العظيمة التى تمت فى العالم . .. مثل تكوين الامبراطوريات الجديدة عن طريق الغزو والفتح ، وابتداع ونشر مذاهب

جديدة فى الفلسفة ، واستنباط أديان جديدة ونشرها ، فلسوف نجد أن الذين قاموا بهذا كله ، ليسوا إلا أشخاصا هيأت لهم عقولهم الطبيعية أن يقوموا بانقلابات كبيرة ، بفضل غذائهم وتعليمهم ، ومزاج معين سائد ، بالإضافة إلى تأثير خاص للهواء والمناخ .. لأن عقل الإنسان المستقر فى مخه ، لابد أن ترهقه وتغمره أبخرة ورياح صاعدة من القوى والوظائف الجسدية الدنيا لتسقى المخترعات وتجعلها مثمرة(٩٢) .

ويسترسل سويفت فى تفصيل فسيولوجى لا يمكن ذكره ، لما بدا له أنه مثال رائع لا فرازات داخليه تولد أفكاراً قويه ، من ذلك « المشروع الكبير » لهنرى الرابع : ذلك أن ملك فرنسا لم يوح إليه بشن الحرب ضد آل هبسبرج ويستحثه عليها ألا تفكيره فى الإستحواذ فى طريقه على امرأة (هى شارلوت مونتمورنس) التى حرك جمالها فى الملك عصارات مختلفه « صعدت إلى مخه(٩٣) » وهذا هو بالمثل ما حدث بكبار الفلاسفه الذين حكم عليهم معاصروهم بحق بأنهم « فقدوا عقولهم » :

« ومن هذا الطراز كان أبيقور، ديوجين ، ، أبوللونيوس ، لوكريشس ، باراسلسوس ، ديكارت ، وغيرهم ، ممن لو كانوا على قيد الحياة الآن ، .. لتعرضوا فى هذا العصر المتميز بالفهم ، لخطر واضح ، خطر فصد الدم ، والسياط ، والأغلال ، والحجرات المظلمه والقش (فى السجون) أما الآن فقد يسرنى أن أعرف كيف أنه من الميسور أن نعلل لهـــذه التصورات والأفكار ، .. دون إشارة إلى الأبخرة التى تتصاعد من القوى والوظائف الجسديه الدنيا ، حيث تلقى ظلالا معتمه على المخ ، فتقطر أو تتساقط مفاهيم لم تضع لها لغتنا الضيقه بعد أسماء غير الجنون أو الخبل(٩٤) .

ولمثل « هذا الخلل أو التحول فى المخ بفعل الأبخرة المتصاعدة والقوى والوظائف الجسديه الدنيا » يعزو سويفت كل الانقلابات أو الثورات التى حدثت فى الإمبراطوريه والفلسفه والدين(٩٥) ويخلص إلى أن كل مذاهب الفكر عبارة عن رياح من الألفاظ ، وأن الرجل العاقل لاينبغى له أن ينفذ

إلى الحقيقة الباطنة للأشياء ، بل يقنع نفسه بالسطح أى بظواهر الأشياء ، وبناء على هذا يستخدم أحد التشبيهات الطيفة التى ينعطف إليها دائماً : « رأيت فى الأسبوع الماضى امرأة سلخ جلدها ، ولن تصدق أنت بسهولة إلى أى حد تغير شكلها إلى أسوأ مما كانت(٩٦) » .

إن هذا الكتاب الصغير المخزى الذى وقع فى ١٣٠ صحيفة ، جعل من سويفت فى الحال « سيد الهجاء » — أو كما سماه فولتير : رابليه آخر فى صورة متقنة . إن القصص الرمزى أو المجازات إتسقت إتساقا حرفيا مع معتقده الأنجليكانى التقليدى . ولكن كثيراً من القراء أحسوا بأن الكاتب متشكك ، إن لم يكن ملحداً . أما رئيس الأساقفة شارب فإنه أبلغ الملكة آن أن سويفت لم يفضل الكافر بشىء كثير(٩٧) . وكان من رأى دوقة مالبورو الصديقة الحميمة للملكة ، أن سويفت :

« حول ، منذ زمن طويل ، كل الديانة إلى « قصة حوض الاستحمام » على أنها وباعها دعابة . ولكنه كان قد إستاء من أن « الأحرار » لم يكافئوه بالترقية فى الكنيسة على ما أظهر من غيرة شديدة على الدين بهزله الدنس ، ولذلك سخر الحادة ومزاحه ومرحه فى خدمة أعدائهم(٩٨) » .

كذلك نعته ستيل بأنه كافر ، ووصفه نوتنجهام فى مجلس العموم بأنه عالم لاهوتى « من العسير أن يشك فى أنه مسيحى(٩٩) . وكان سويفت قد قرأ هوبز ، وهى تجربة ليس من اليسير نسيانها . ذلك أن هوبز كان قد بدأ بالخوف ، وانتقل إلى المذهب المادى ، وانتهى بأن يكون « محافظا » يناصر الكنيسة الرسمية .

وكان لرجال الدين قليـــل من العزاء فى أن سويفت أخرج مؤلفاً فى الفلسفة :

« إن مختلف الآراء الفلسفية انتشرت فى أنحاء العالم ، وكأنها أمراض طاعون أصابت العقل ، كما نشر صندوق بندورا (*) الأوبئة التى تصيب

(*) Pandora — فى الأساطير اليونانية — أول امرأة فانية مهلكة أرسلها الآلهة =

الجسم ، مع فارق واحد ، هو أن الطاعون لم يترك شيئاً من الأمل فى القاع إن الحقيقة خافية على الناس ، قدر خفاء منابع النيل ، ولا يمكن وجودها إلا فى « يوتوبيا » (المدينة المثالية)(١٠٠) .

ومن الجائز أن سويفت ، لأنه أحس بأن الحقيقة لم تقصد للبشر ، نبذ فى إصرار شديد كل الفرق الدينيـة التى ادعت أن مذهبها « هو المذهب الصحيح » . وازدرى الرجال الذين زعموا — مثـل بانيان وبعض الكويكرز — أنهم رأوا الله أو كلموه . وانتهى ، مع هوبز ، إلى أنه ضرب من الانتحار الاجتماعى أن نترك لكل انسان الحرية فى أن يصنع عقيدته أو مذهبه بنفسه ، حيث لن تكون نتيجة ذلك إلا عاصفة هوجاء من السخافات يصبح معها « بيمارستانا » أو مستشفى الأمراض العقلية . ومن ثم عارض سويفت حرية الفكر ، على أساس أن « جمهور البشر مؤهل للطيران قدر ما هو مؤهل للتفكير (١٠١) » . واستنكر التسامح الدينى ، وظل لآخر حياته يؤيد « قانون الاختبار » الذى قضى باقصاء غير أتباع الكنيسة الرسمية عن كل الوظائف السياسية والعسكرية (١٠٢) . واتفق مع الحكام الكاثوليك واللوثريين على أنه يجب أن يكون للأمة عقيدة دينية واحدة . وحيث أنه ولد فى انجلترا ، ومذهبها الرسمى هو الأنجليكانى ، فإنه رأى أن الاتفاق العام الكامل على اعتناق هذا المذهب أمر لا غنى له عنه لعملية تمدين الانجليز ونشر سويفت فى ١٧٠٨ بعض القطع : « أحاسيس رجل يتبع كنيسة انجلترا » ، « والدليل على أن الغاء المسيحية فى انجلترا قد يستتبع بعض المتاعب والمشاكل والمزعجات » وكان آنذاك فى طريقه من الأحرار إلى المحافظين » .

وكان أول ارتباط سياسى له — بعد ترك تمبل — مع الأحرار ، حيث

زيوس ، عقابا للبشر على سرقة بروميثيوس للنار . أعطاها زيوس صندوقا فتحته فانطلقت منـه إلى الدنيا كل العلل والأمراض التى تصيب الجسم ، (وفى رواية حديثة أطلقت منه كل نعم الحياة فتبددت وضاعت هباء منثوراً ، ولم يبق إلا مجرد الأمل .

بدا له أنهم حزب أكثر تقدمية ، ومن الأرجح أن يجدوا عملا لرجل أكبر عقلا وأقل ثراءا . وفى ١٧٠١ نشر كتيبا يناصر فيه حزب الأحرار وكله أمل فى الظفر بشىء . ورحب هاليفا كس وسندر لند وغيرهما من زعماء الأحرار ، بانضمامه إلى حزبهم ، ووعدوه خيرا إذا تولوا الحكم . ولكنهم لم ينجزوا ما وعدوا ، ويحتمل أنهم خشوا من أن سويفت رجل لا يسهل قياده ، وأن قلمه سلاح ذو حدين ، وفى رحلة موسعة من ايرلنده إلى لندن فى ١٧٠٥ كسب سويفت صداقة كونجريف وأديسون وستيل . وأهداه أديسون نسخة من « رحلات إلى إيطاليا » وكتب فى عبارة الاهداء « إلى جوناثان سويفت ، أحسن رفيق وخير صديق ، أعظم عبقرية فى زمانه يقدم خادمه الذليل ، المؤلف ، هذا الكتاب (١٠٣) » ، ولكن هذه الصداقة ، مثل صداقة جوناثان مع ستيل وبوب ، لم تدم ، وأتت عليها نيران سويفت المتقدة أو ثورته المتصاعدة .

وفى زيارة أخرى لمدينة لندن ، تسلى سويفت بتدمير منجم دعى . ذلك أن جون بارتريدج ، الاسكافى ، أخرج كل عام تقويما زاخرا بالنبوءات المؤسسة على حركات النجوم . وفى ١٧٠٨ نشر سويفت تحت اسم مستعار « ايزاك بيكرستاف » تقويما منافسا . وكان من بين تنبوءات ايزاك ، أنه فى الساعة الحادية عشرة من مساء يوم ٢٩ مارس سيقضى بارتريدج نحبه . وفى ٣٠ مارس نشر بيكرستاف فى نشوة الانتصار رســالة أعلن فيها أن بارتريدج مات فى ظرف بضع ساعات من الموعد المحدد فى النبوءة ، وذكر فى تفصيل مقنع ترتيبات الجنازة . وأكد بارتريدج لمدينة لندن بأسرها أنه لا يزال حيا يرزق . ولكن ايزاك رد بأن هذا محض افتراء . وأدرك ظرفاء المدينة الخدعة . ورفع مكتب التسجيلات اسم بارتريدج من سجلاته أما ستيل فإنه اختار ايزاك بيكرستاف اسما لمحرر وهمى فى صحيفة « تاتلر » عند افتتاحها فى السنة التالية .

وفى ١٧١٠ غادر سويفت لارا كور مرة أخرى ، موفدا من الأساقفة

الأيرلنديين ليطلب إلى الملكة آن أن تمد يد معونتها إلى رجال الدين الانجليكانيين فى أيرلنده : ورفض جودلفين وسومرز ، وهما عضوان من حزب الأحرار فى مجلس الملكة ، الموافقة على هذا إلا إذا وافق رجال الدين هؤلاء ، على التخفيف من حدة « قانون الاختبار » والارخاء من قبضته . وعارض سويفت بشدة التخفيف المطلوب . وا كتشف الأحرار أنه كان « محافظا » بالنسبة للعقيدة الدينية . واعترف سويفت عمليا بأنه « محافظ » بالنسبة للسياسة أيضا ، حين كتب : « انى كنت أمقت دوما هذا النهج السياسى . . ألا وهو وضع مصالح ذوى المال فى مواجهة مصالح مالكى الأرض(١٠٤) » . ولجأ الى زعيمى المحافظين ، هارلى وبولنجبروك ولقى ترحيبا حارا ، وأصبح بين عشية وضحاها « محافظا » راسخا . وعين محررا لصحيفة المحافظين « إجزامنر » . وأبرز أسلوبه بوضوح عندما وصف نائب حاكم ايرلنده — وهو من حزب الأحرار ، وكان أديسون صديق سويفت ، سكرتيرا له :

« ان توماس إرل وارتون ... يحكم دستور غريب ، فضى بضعة أعوام من سنى اليأس التى تقدم بها عمره ، دون آثار بارزة للشيخوخة فى جسمه أو فى عقله . وعلى الرغم من مقارفته المستمرة لكل الموبقات التى تمتصر الجسم والعقل كليهما ... فإنه يذهب دوما إلى الصلاة . ويتحدث حديث الفسق والفجور والتجديف على باب الكنيسة ، فهو مشيخى فى السياسة ملحد فى العقيدة . ولكنه يؤثر الآن أن يفجر مع البابوية (١٠٥) »

وسر الوزراء « المحافظون بهذا الهجاء اللاذع الذى يشبه القتل ، فعهدوا إلى سويفت بكتابة فذلكة « سلوك الحلفاء » (نوفبر ١٧١١) ، كجزء من حملتهم لاسقاط مالبورو وانهاء حرب الوراثة الأسبانية ، واحتج سويفت بأن الضرائب الاستثنائية التى فرضت لتمويل الحروب الطويلة ضد لويس الرابع عشر يمكن خفضها بقصر اسهام انجلترا فى الحروب على البحر ، وأوضح بأجلى بيان شكوى مالكى الأرض من أن عبء نفقات الحرب

وقع على عاتقهم أكثر مما على عاتق التجار وأصحاب المصانع الذين كانوا يستفيدون من الحرب . أما بالنسبة لدوق مالبورو فقد قال سويفت «هل كان من حسن الرأى شن الحرب ، أو لم يكن ؟ ... واضح أن الدافع إلى الحرب ، هو الرفع من شأن أسرة بعينها ، وبعبــــارة موجزة أنها حرب لحساب القائد ووزارة الأحرار ، وليست حربا لحساب الملك والشعب (١٠٦) وقدر الكاتب رواتب مالبورو وتعويضاته بنحو ٥٤٠ ألف جنيه «وهذا الرقم دقيق (١٠٧)» . وبعد شهر واحد سقط مالبورو وصورت الدوقة زوجته الجريئة الصريحة وهى الوحيـدة فى انجلترا التى كان لسانها حادا لاذعا ، مثل لسان سويفت — صورت فى مذكراتها المسألة من وجهة نظر الأحرار ، فقالت :

«أن السيدين المحترمين مستر سويفت ومستر بريور أسرعا فعرضا نفسيهما للبيع ... وكلاهما من الموهوبين القادرين ، وهما مستعدان لتسخير كل مالديهما لخدمـــة أية فرية مخزية طالما كانت المكافأة مجزية . لأن كليهما لايبالى بحمرة الخجل ولا بالسقوط أو الانزلاق من أجل مصلحة سادتهم الجدد (١٠٨)

وكافأ المحافظون تابعيهما الجديدين . فعينوا ماتيو بريور فى منصب دبلوماسى فى فرنسا حيث أبلى بلاء حسنا . ولم يحصل سويفت على أى منصب ولكنه كان صديقا حميما وثيق الصلة بوزراء المحافظين ، فاستطاع بذلك أن يحصل لكثير من أصدقائه على وظائف تدر مالا وفيرا ولا تقتضى عملا كثيرا . وكان مثال الكرم والعطف على من لم يعارضوه أو يهاجـوه . وزعم فيما بعد أنه أهدى لخمسين شخصا أكثر خمسين مرة مما أهداه إليه سير وليم تمبل(١٠٩) . واقنع بولنجبروك بمساعدة الشاعر جاى Gay وألح على وجوب استمرار الوزارة فى دفع الراتب الذى كان الأحزار يدفعـــونه لكونجريف . ولما طلب بوب جمع بعض التبرعات لمعاونته على ترجمة هوميروس ، أمر سويفت كل أصـدقائه وكل طلاب الوظائف بالتبرع ،

وأقسم « أن المؤلف لن يشرع فى الطبع قبل أن يجمع له ألف جنيه (١١٠) » وغطت شخصيته على مكانة أديسون فى الأندية ، وكان فى كل ليلة تقريبا يتناول العشاء مع العظماء • ولم يكن يطيق من أحدهم أية سمة من سمات التعالى عليه • وكتب يوما إلى ستيللا « إننى مزهو متكبر إلى حد أنى أجعل اللوردات يأتون إلى ••• كان مفروضا أن أتناول العشاء فى قصر أشبيرنهام ، ولكن هذه السيدة المنحطة القذرة لم تعرج علينا لنصحبها فى عربتها ، ولكنها أرسلت فى طلبنا فحسب ، ولذلك أرسلت إليها اعتذارا (١١١) » •

وفى السنوات الثلاث (١٧١٠ — ١٧١٣) فى انجلترا كتب سويفت الرسائل العجيبة التى نشرت فيما بين ١٧٦٦ ـ ١٧٦٨ تحت عنوان « يوميات إلى ستيللا » . إنه كان فى حاجة إلى صديقة حميمة إلى جانبه فى العشاء لدى الأدواق والدوقات ، وفى انتصاراته السياسيه . أضف إلى ذلك أنه أحب المرأة الصابرة ، التى ناهزت الثلاثين آنذاك ، ولكنها ظلت تنتظره حتى يحزم أمره . ولا بد أنه أغرم بها ، لأنه كتب لها أحيانا مرتين فى اليوم الواحد ، وأظهر اهتمامه وتعلقه بكل ما يعنيها ، اللهم إلا الزواج . وما كان ينبغى لنا أن نتوقع من مثل هذا الرجل المستبد المتغطرس ، هذا المزاح الرقيق ، وهذه الألقاب والكنيات الغريبة ، والنكات والتوريات ، والحديث الصبيانى ، مما صبه سويفت فى رسائله التى لم يتوقع نشرها . أنها رسائل زاخرة بالملاطفة والتدليل ، ولكنها خلو من أى عرض أو اقتراح ، اللهم إلا إذا كانت ستيللا قد قرأت وعدا بالزواج فى رسالته المؤرخة ٢٣ مايو ١٧١١ : « لن أطيل الحديث ، ولكنى أتوسل إليك أن تهدئى حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا ، وأن تثقى بأن سعادتك هى غاية ما أصبو وأسعى إليه فى كل ما أعمل (١١٢) » ومع ذلك فإنه فى هذه الرسالة يطلق عليها « الطفلة المزعجة ، الساذجة الفتاة المناجى ، البغى » للمرأة القذرة ، الكلبة المحبوبة » ، وغير ذلك من ألقاب التدليل والملاطفة . وانا لنلمس روح الرجل

حين يقول لها :

«كنت هذا المساء مع الوزير فى مكتبه . وحلت بينه وبين العفو عن رجل اتهم باغتصاب امرأة . وكان الوزير راغبا فى انقاذه ، على أساس فكرة قديمة تقول بأن المرأة لا يمكن أن تغتصب . ولكنى أبلغت الوزير أنه لا يمكن العفو عن الرجل إلا بناء على تقرير مناسب من القاضى . هذا بالإضافة إلى أنه عازف كان عابث ، ومن ثم فهو وغد ، ويستحق الشنق لتصرفات أخرى . ومن ثم لا بد أن يموت شنقا . ماذا ؟ إنى لا بد أن أدافع عن شرف الجنس اللطيف ، حقاً أن الرجل قد ضاجعها مائة مرة من قبل ، ولكن ماذا يعنينى فى هذا ؟ . هل يجب أن تغتصب المرأة لأنها بغى (١١٣) » ؟ .

وقد تعيننا علل سويفت الجسيمة على فهم السر فى رداءة طبعه وسرعة غضبه ، أنه منذ ١٦٩٤ ، وهو فى السابعة والعشرين من العمر ، بدأ يعانى من دوار فى الأذن الداخلية ومن حين لآخر ، وبشكل لا يمكن التنبؤ به ، أصابته نوبات من الدوار وتشويش الذهن والصمم . ونصح طبيب مشهور هو دكتور رادكليف بأن بوضع سائل مركب داخل كيس فى لمة (الشعر الذى يجاور شحمة الأذن) سويفت ، واشتدت به العلة على مر السنين ، وكان من الجائز أن تسبب له الجنون . ويحتمل أنه فى ١٧١٧ قال للشاعر ادوارد ينج ، مشيراً إلى شجرة ذابلة « إنى سأموت مثل هذه الشجرة سأموت فى القمة (١١٤) . » وكان هذا وحده كافيا ليتشكك فى قيمة الحياة ، وليرتاب قطعا فى وجه الحكمة فى الزواج . ومن الجائز أنه كان عنينا ، ولكننا لا نستطيع الجزم بهذا . واعتاد على كثرة المشى اتقاء لهزال جسمه ، فمشى مرة من فارنام إلى لندن : ٣٨ ميلا .

وزاد من شدة مرضه حدة حواسه حدة مؤلمة ، وهى عادة تلازم حدة الذهن وفرط الذكاء . وكان بشكل خاص شديد الحساسية للروائح فى شوارع المدن وفى الناس . فاستطاع أن ينبىء ، بمجرد الشم ، عن صحة من يقابل من

الرجال والنساء ، وخلص من هذا إلى أن الجنس البشرى أصابه النتن(١١٥) .
ولذلك كان مفهوم المرأة الجديرة بالحب والإعجاب عنــــده ينحصر إلى حد ما فى :

« أنها لا يخرج من جسمها النقى هبات كريهة الرائحة تثير الاشمئزاز ، لا من خلف ولا من قدام ، ولا من فوق ، ولا من تحت ، ولا يتصبب منها العرق البغيض(١١٦) » .

أنه يصف « غادة جميلة فى طريقها إلى الفراش » ، ونفس المرأة حين تفيق .

« إن من يرى كورينا فى الصباح يتقيأ ، ومن يشم رائحتها يصاب بالتسمم » .

إن مفهومه عن المرأة الشابة الجميلة مرتبط بحاسة الشم :

« إن أعز رفيقاتها لم يرينها يوما تجلس إلى القرفصاء لتتبول ، والك أن تقسم بأن هذه المخلوقة الملائكية لم تحس يوما بضرورات الطبيعة ، فإذا مشت فى شوارع المدينة فى الصيف لم يلوث ابطاها ثوبها . وفى حلبة الرقص فى القرية أيام القيظ لن يستطيع أنف أن يشم رائحة أصابع قدميها(١١٧) » .

وكان سويفت نفسه نظيفا إلى حد التزمت . ومع ذلك فإن كتابات هذا الـكاهن الأنجليـكانى تعد من أفحش ما كتب فى الأدب الانجليزى . أن تبرمه بالحياة جعله يقذف بأخطائه فى وجه زمانه . ولم يبذل أى جهد فى إرضاء الناس ، ولـكنه بذل كل الجهد فى أن يسيطر ويتحكم ، لأن السيطرة خففت من شعوره الخفى بعـدم الثقة فى نفسه . وقال أنه يكره (أو يرهب) كل من لا يستطيع أن يأمره(١١٨) ، على أن هذا لم يصدق على حبه لهارلى . وكان غضوبا عند الشدة ، متغطرساً فظا وقت الرخاء والنجاح . وأحب السلطة أكثر مما أحب المال . وعندما أرسل إليه هارلى بخمسين جنيهاً أجراً لمقالاته ، رد الحوالة وطالب بالاعتذار ، وكان له ما أراد ، فـكتب إلى ستيللا « لقد استرضيت مستر هارلى ثانية(١١٩) » .
وكان يكره الرسميات ويحتقر النفاق . وبدا له أن الدنيا تميل إلى قهره ،

وقابل هو العداء بمثله صراحة ، وكتب إلى الشاعر بوب :

« إن غاية ما أصبو إليه في كل أعمالي أن أزعج العالم وأضايقه ، لا أن أسليه ، فإذا استطعت أن أحقق هذا الغرض دون أن ألحق الأذى بشخصي أو بثروتي ، لكنت أعظم كاتب لا يكل ولا يمل رأيته أنت في حياتك .. إذا فكرت في الدنيا فأرجوك أن تجلدها بالسوط بناء على طلبي . لقد كنت أبدا أكره الأمم والوظائف والمجتمعات . وكان كل حبي للأفراد ، إني أكره طائفة رجال القانون ، ولكني أحب مستشاراً بعينه أو قاضيا بعينه ، وهكذا الحال مع الأطباء . (ولن أتحدث عن صناعتي) ، والجنود : والانجليز والاسكتلنديين والفرنسيين ، وغيرهم ، ولكني أساساً أكره وأمقت هذا الحيوان الذي يسمى إنساناً ، ولو أني من كل قلبي أحب جون وبيتر وتوماس وهكذا (١٢٠) » .

عند هذا الحد يبدو أن سويفت أقل الرجال جدارة بالحب ، ولو أن امرأتين أحبتاه إلى أن فارقتا الحياة . وأقام في هذه السنوات في لندن قريبا من أرملة غنية تدعى فانهو مراي ، وكان لها ابنان وابنتان ، فإذا لم تتيسر له الدعوة إلى موائد العظماء ، كان يتناول العشاء مع « آل فان » . ووقعت الابنة الكبرى « هستر » في حبه وكانت آنذاك في الرابعة والعشرين (١٧١١) ، وهو في الثالثة والأربعين ، وأفصحت له عن حبها . فحاول أن يصرف النظر عن هذا باعتباره مرحا أو مزاحا عابرا ، وأوضح لها أنه قد كبرت سنه بحيث لم يعد يصلح لها . فأجابت ، يحدوها كل الأمل ، بأنها تعلمت منه في كتبه أن تحب عظماء الرجال قرأت (مونتاني في المرحاض) ، فلماذا لا تحب رجلا عظيما إذا وجدته ماثلا أمامها ؟ فرق قلبه ولانت قناته بعض الشيء فنظم قصيدة من أجل عينيها فقط « كادينوس وفانيسا » قصيدة تجمع بين المرح والمأساة . وكان « فانيسا » اسمه هو عندها ، أما « كادينوس » فكان تصحيفا للفظة « ديكانوس » أي الكاهن الكبير .

ذلك أنه فى أبريل ١٧١٣ عينته الملكة كارهة رئيسا لكاتدرائية سان باتريك فى دبلن . وسافر إلى هناك فى يونيه ليتسلم العمل ، ورأى ستيللا وكتب إلى فانيسا بأنه كاد يموت كآبة وكمداً وإستياءاً[١٢١] وفى أكتوبر ١٧١٣ عاد إلى لندن وشارك فى كارثة حزب المحافظين المفاجئة ١٧١٤ . ومذ فقد السلطان السياسى بعودة الأحرار الذين كان قدهاجمهم ، إلى الحكم فى ظل الملك جورج الأول ، فإنه قفل راجعا إلى ايرلنده الكريهة ، وإلى كاتدارئيته . ولم يكن محبوبا فى دبلن لأن الأحرار الذين تولوا الآن الحكم كرهوه لنقده الساخر العنيف وخطبه اللاذعة ، كما كرهه المنشقون لإصراره على استبعادهم من الوظائف العامة . وانطلقت من الناس أصوات الاستهجان والإزدراء به فى الشوارع ، ورجموه بقاذورات البالوعات[١٢٢] ووصف أحد رجال الدين الأنجليكانيين منظر ردائه فى قصيدة ثبتها بالمسامير على باب الكاتدرائية :

« يستقبل هذا المعبد اليوم رئيساً ذا مذاهب وشهرة غير عادية استخدمها جميعاً فى الصلاة وفى الدنس ، خدمة للرب والشيطان كليهما .. وهو مكان حصل عليه بالدهاء والقصيد وبوسائل أخرى من أعجب الوسائل . وربما أصبح بمرور الزمن أسقفا ، لو أنه آمن بالله[١٢٣] » :

وصمد سويفت للمحنة فى شجاعة واستمر يناصر المحافظين ، وعرض أن يشارك هارلى سجنه فى برج لندن . وقام بواجباته الدينية ، وألقى المواعظ بانتظام . ومنح الأسرار المقدسة ، وعاش عيشة بسيطة ، وتصدق بثلث دخله . وفى أيام الأحد فتح أبواب مسكنه للقاصدين ، وجاءت ستيللا لخدمة الضيوف ، وسرعان ما خفت كراهية الناس له ، وبدأوا يقبلون عليه . وفى ١٧٢٤ نشر تحت اسم مستعار « م . ب . درابييه » ست رسائل يندد فيها بمحاولة وليم وود جمع أرباح طائلة من إمداد أيرلنده بعملة نحاسية . واستنكر الأيرلنديون هذه المحاولة . وعندما إكتشفوا أن درابييه لم يكن إلا سويفت ، كاد الكاهن المكتئب أن يصبح شعبيا محبوبا تماما .

وربما استطاع سويفت أن يحظى بلحظات من السعادة لو أنه كان فى مقدوره أن يحتفظ بالبحر الأيرلندى بين السيدتين اللتين أحبتاه . ولكن فى ١٧١٤ ماتت مسز فانهو مراى ، وإنتقلت ابنتها فانيسا إلى أيرلنده لتستغل بعض الممتلكات التى تركها لها والدها فى سلبردج ، على بعد أحد عشر ميلا إلى الغرب من العاصمة . ولتكون بالقرب من رئيس الكاتدرائية ، استأجرت مسكنا فى زقاق تيرنستيل فى دبلن ، على مسافة قصيرة من مسكن ستيللا ، وكتبت إلى سويفت ترجوه أن يزورها ، وإلا ماتت كمداً . ولم يستطع أن يقاوم توسلاتها ، وفيما بين ١٧١٤ — ١٧٢٣ تردد عليها خفية مراراً وتكراراً . ولما خفت زياراته لها أصبحت رسائلها إليه أشد حرارة وإلتهابا . وقالت له فى إحداها أنها ولدت بهذه « العواطف الجارفة » التى تنتهى كلها إلى شىء واحد : هو حبى لك الذى لا يمكن وصفه أو التعبير عنه » . وأبلغته أنه قد يكون من العبث أن يحاول تحويل حبها إلى حب الله ، « فلو أنى غيـــورة متحمسة فستظل أنت المعبود الذى يجب أن أعبده »(١٢٤) .

وربما فكر سويفت فى الزواج للخروج من هذا المأزق الذى تورط فيه بين المرأتين اللتين أحبتاه ، وربما طالبت ستيللا ، وهى تعلم أن لها منافسة ، بالزواج على أنه عدالة مطلقة وأبلغ دليل على ذلك أنه تزوجها فعلا فى ١٧١٦(١٢٥) وواضح أنه طلب إليها كتمان أمر زواجه . واستمرت تقيم بعيدا عنه . ويحتمل أنه لم يباشرها قط . واستأنف سويفت زياراته لفانيسا ، لا متغازلا ، ولا وحشا بهيميا ، بل المفهوم أن قلبه لم يطاوعه على أن يتركها يائسة بلا أمل ، أو أنه خشى أن تقدم على الإنتحار . وأكدت رسائله لفانيسا أنه أحبها وقدرها فوق كل شىء ، وأنه سيكن لها هذا الحب والتقدير حتى آخر لحظة من حياته . وسارت الأمور على هذا المنوال حتى ١٧٢٣ ، حين كتبت فانيسا إلى ستيللا تسألها فى صراحة تامة عن العلاقة بينها وبين رئيس الكاتدرائية . فأخذت ستيللا الخطاب إلى سويفت الذى ركب لفوره

إلى فانيسا ورمى بالخطاب على مائدتها . وروعها بنظراته الغاضبه • وتركها إلى غير رجعة دون أن ينبس ببنت شفة •

وعندما أفاقت فانيسا من غشيتها، تحققت آخر الأمر من أنه كان يخدعها. واجتمعت خيبه الرجاء عندها إلى نزعه جامحه فى إفناء مابقى لها من أسباب الصحه والحياة ، وقضت نحبها فى بحر شهرين من هـــذا اللقاء الأخير (٢ يونيه ١٧٢٣) وهى فى الرابعه والثلاثين • وثأرت لنفسها فى وصيتها • فألغت وثيقه قديمه كانت قد جعلت فيها سويفت وريثاً لها ، ثم أوصت بكل متاعها لروبروت مارشال والفيلسوف جورج بيركلى ، وأمرتهما أن ينشرا دون تعليق رسائل سويفت إليها ، وقصيدة «كادينوس وفانيسا» • وهرب سويفت فى « رحلة إلى الجنوب » فى أيرلنده ، ولم يظهر فى الكاتدرائيه إلا بعد مضى أربعه شهور على وفاة فانيسا •

وعند عودته إنصرف إلى كتابه أشهر وأقسى هجاء وجه إلى الجنس البشرى . وكتب إلى شارلى فورد أنه مشغول بوضع كتاب « يمزق العالم ويهزه هزاعنيفا بشكل عجيب(١٢٦) » . وانتهى سويفت منه بعد سنه ، وحمل المخطوط بنفسه إلى لندن ،ورتب أمرنشره تحت اسم مستعار ،ورضى بمائتى جنيه ثمناله ، ثم قصد إلى دار الشاعر بوب فى تويكنهام ليستمتع بالعاصفه المرتقبه • وهكذا استقبلت إنجلترا فى أكتوبر ١٧٢٦ «رحلات إلى عدة شعوب بعيدة فى العالم » بقلم لمويل جلليفر . وكان أول رد فعل عام هو الابتهاج بالواقعيه المفصلة فى سرد الأحداث . واعتبره كثير من القراء تاريخا ، ولو أن أسقفاً أيرلنديا (كما يقول سويفت) ذهب إلى أنه مملوء بأشياء بعيدة الاحتمال : أما معظم القراء فإنهم لم يذهبوا إلى أبعد من الرحلات إلى أرض الأقزام Lilliput وأرض العمالقه Brobdinqnuq، وهذا سرد جميل يوضح بطريقه مفيدة النسبيه فى الحكم على الأشياء أو التمييز بينها ، ولم يزد طول الأقزام عن ست بوصات ، ولذلك نفخوا فى جلليفر روحا متزايدة من التسامى . وكان الذى يميز بين الأحزاب السياسيه لديهم هو

الـكعوب العالية أو المنخفضة لأحذيتهم . أما الفرق الدينية فهى فريق الذين يؤمنون بـكسر البيضة من طرفها الـكبير ، وفريق الذين يؤمنون بـكسر البيضة من طرفها الصغير . وكان طول العمالقة ستين قدما ، وقد هيأوا لجليفر مشهدا آخر جديدا من مشاهد البشرية . وحسبه ملـكهم حشرة ، واعتبر أوربا بيتا للنمل . ومن وصف جليفر لأساليب الحياة ، خاص الملك إلى أن « كل مواطنيكم أخبث جنس من الحشرات الطفيلية الصغيرة البغيضة التى تركتها الطبيعة تزحف على سطح الأرض(١٢٧) » . وكانت صدور غادات العمالقة ، وهى صدور ضخمة ، تنفر جليفر (ويشير الـكاتب هنا إلى النسبية فى الجمال) .

وتضعف القصة فى رحلة جليفر الثالثة . إنه يشد بالسلاسل والأغلال فى دلو إلى « لابوتا » وهى جزيرة سابحة فى الهواء يقطنها ويحكمها رجال العلم والمثقفون والمخترعون والأساتذة والفلاسفة ، فان التفاصيل التى جاءت فى أماكن أخرى لتزود القصة باحتمالات كثيرة ، كانت هنا (فى المرحله الثالثه) سخيفة بعض الشىء ، من ذلك أكياس الهواء الصغيرة التى يسد بها الخدم آذان وأفواه المفـكرين العميقى التفـكير ليفيقوا من شرود الذهن الخطير أثناء تأملاتهم . وأكاديمية لاجادو ، بمخترعاتها وقراراتها الوهمية ، ليست إلا نقدا هزيلا لقصة بيـكون « قارة الأطلنطى الجديدة » ، والجمعية الملـكية فى لندن . ولم يكن سويفت يثق فى جدوى اصلاح الدول أو حكمها بواسطة رجال العلم ، وكان يسخر من نظرياتهم ، وفنائها السريع لها . وتنبأ بسقوط كوزمولوجيا نيوتن (آرائه فى الـكون) « إن الأنظمة الجديدة فى الطبيعة ليست إلا أزياء أو أنماطا جديدة قد تختلف من عصر إلى عصر ، وحتى هؤلاء الذين يدعون أنهم يوضحونها على أسس رياضية (تعريضا بـكتاب المبادىء الرياضية ١٦٨٧) لن يـكتب لهم النجاح إلا لفترة قصيرة من الزمن(١٢٨) » .

ثم ينتقل جليفر إلى أرض « الجناجيين Luggnaggians » الذين

لايحكمون على أكابر مجرميهم بالموت بل بالخلود .

« فإذا بلغ هؤلاء المجرمون سن الثمانين وهى السن المعتبرة نهاية الحياة فى بلدهم ، لاتكون فيهم كل الحماقات والسقام والعلل التى فى سائر المسنين فحسب ، بل أكثر منها بكثير ، مما نشأ من توقعاتهم الرهيبة بأنهم لن يموتوا قط ، ولم يكونوا عنيدين شكسين طامعين فيما فى أيدى غيرهم ، مكتئبين عابثين ثرثارين فحسب ، بل كانوا كذلك غير أهل للصداقة ، لايستجيبون لأية عاطفة أو حب طبيعى ، لم يهبط قط عن حضرتهم . وكان الحسد والرغبات العاجزة هى الشعور السائد بينهم ... وإذا رأوا جنازة ولولوا وتذمروا من أن الآخرين ذاهبون إلى دار الراحة التى لايأملون هم أنفسهم فى الوصول إليها ... أبداً وكان هذا أفظع منظر مخز مميت للشهوات رأيته فى حياتى . وكانت النساء أشد ازعاجا من الرجال ... ومن هذا الذى سمعت ورأيت ، خفت كثيرا شهوتى الحادة فى البقاء على قيد الحياة(١٢٩) » .

وفى القسم الرابع نبذ سويفت الهزل والمزاح إلى شجب قوى ساخر للانسانية . فان أرض « الهويهن » يحكمها جياد نظيفة وسيمة بهيجة ، تنطق بالحكمة وتتحلى بكل مظاهر المدنية ، على حين أن الخدم الحقراء فيها ، وهم « الياهو المتوحشون » ، هم رجال أقذار كريهو الرائحة ، جشعون مخموورون ، غير متعقلين مشوهون . ومن بين هؤلاء المنحلين المنحطين (هكذا كتب سويفت فى أيام جورج الأول) :

« كان هناك رجل حاكم من « الياهو » (ملك) » ، أبشع شكلا وأكثر نزوعا إلى الشر والأذى من الآخرين ... وكان لهذا الزعيم عادة شخص مثله محسوب عليه أثير لديه ، عمله الوحيد هو أن يلعق قدمى سيده ... ويأتى بنساء الياهو إلى حظيرته ، ومن أجل هذا كان يكافأ من حين إلى حين بقطعة من لحم الحمار (علامة على النبالة !) ... وكان يبقى عادة فى عمله هذا ، حتى يمكن العثور على من هو أسوأ منه(١٣٠) » .

وبالمقارنة ، فإن « الهويمين » ، لأنهم متعقلون ، كانوا سعداء فضلاء ، ولذلك لم يكونوا فى حاجة إلى أطباء أو محامين أو رجال دين أو قواد جيوش ، وصعقت تلك الجياد المهذبة « الماجنة » ببيان جلليفر عن الحروب فى أوربا . كما ذهلت أكثر فأكثر لسماعها بالخلافات التى أدت إلى الحروب — « هل يكون الجسد خبزا أو يكون الخبز جسدا فى القربان المقدس ، وهل يكون عصير ثمار معينة دما أم نبيذا(١٣١) ، وكانوا يقاطعون جلليفر حين يفاخر بالعدد الكبير عن البشر الذى يمكن نسفه بالآلات العجيبة التى أخترعها قومه .

وعندما يعود جلليفر أدراجه إلى أوربا ، نراه لايكاد يضيق برائحة الشوارع والناس الذين يبدو فى نظره الآن أنهم من « الياهو » .

« استقبلتنى زوجتى وأسرتى بكثير من الدهشة لأنهم كانوا قد قدروا مماتى . ولكن ينبغى على أن أعترف بصراحة أن منظرهم ملأنى بالبغضاء والاستياء والازدراء ... وما أن دخلت البيت حتى احتضنتنى زوجتى بين ذراعيها وقبلتنى ، من أجل ذلك رحت فى اغماءة لما يقرب من ساعة ، لولا أنى معتاد على لمس هذا الحيوان البغيض (الإنسان) لأعوام طويلة . وطيلة السنة الأولى لم أكن أطيق وجود زوجتى وأطفالى معى ، حيث كانت رائحتهم لاتحتمل ... وأول مال أنفقته كان فى شراء جوادين صغيرين احتفظت بهما فى أسطبل مناسب . وكان السائس أعز ما عندى بعدهما ، لأن الرائحة التى تنبعث منه فى الاسطبل كانت ترد إلى روحى(١٣٢) » .

وفاق نجاح « جلليفر » كل توقعات المؤلف وأحلامه وربما خفف من بغضه للجنس البشرى بسبب حاسة الشم . واستمتع القراء باللغة الإنجليزية الواضحة فى غير أطناب ، وبالتفاصيل المريضة ، وبالفحش المرح . وتنبأ آربوثنوت للكتاب « رواجاً عظيماً مثل كتاب جون بانيان — يقصد كتاب « تقدم الحجيج » . ولا ريب أن سويفت يدين ببعض الفضل لهذا الكتاب ، وبفضل أكبر لكتاب « روبنصن كروزو » ، وربما بشىء من

الفضل لكتاب سيرانودى برجراك « التاريخ الهزلى لدول امبراطورية القمر » . أما الشىء الجديد حقا فهو « الكلبية » أو السخرية الرهيبة فى الأجزاء المتأخرة من الكتاب . وحتى هذه وجدت من يعجب بها ، فأن دوقه مالبورو ، وقد بلغت آنذاك أرذل العمر ، غفرت لسويفت هجماته على زوجها ، إلى جانب حملاته على الجنس البشرى بأسرة . وصرحت بأن سويفت أتى « بأدق وصف يمكن أن يكتب للملوك والوزراء والأساقفة والمحاكم . وروى جاى أنها « فى نشوة غامرة من الابتهاج بالكتاب ، ولا يمكن أن تحلم بشىء آخر »(١٣٣) .

وتكدر انتصار سويفت بنشر قصيدة كادينوس وفانيسا ، فان منفذى وصية هستر فانهو مراى أذعنوا لأمرها بنشرها ، ولم يطلبوا من الكاتب ترخيصاً بذلك ، وظهرت فى طبعات مستقلة فى لندن ودبلن وادنبره ، وكانت ضربة قاسية للزوجة ستيللا لأنها رأت أن عبارات الحب والهيام التى كانت قد وجهت يوما إليها ، تكررت لفانيسا ، ولم يمض كبير زمن على افتضاح هذا الأمر حتى مرضت ، وقصد سويفت إلى ايرلنده لعيادتها والتخفيف عنها ، وتحسنت صحتها ، وعاد هو إلى انجلترا (١٧٢٧) ، وسرعان ما ترامت إليه الأنباء بأنها تحتضر ، فأرسل تعليمات عاجلة إلى مساعديه فى الكاتدرائية بأن ستيللا يجب ألا تلفظ أنفاسها الأخيرة فى مقر رئاسة الكاتدرائية(١٣٤) ، وعاد ادراجه إلى دبلن ، ومرة أخرى أبلت ستيللا بعض الشىء ، ولكنها فارقت الحياة فى ٢٨ يناير ١٧٢٨ ، وهى فى السابعة بعد الأربعين ، وانهارت قوى سويفت ، واشتد عليه المرض فلم يستطع تشييع الجنازة .

وبعدها أقام فى دبلن « مثل فأر مسموم فى جحر(١٣٥) » (كما كتب إلى بولنجبروك) . وكان يقوم بأعمال البر والصدقات ، وأجرى راتبا على مسز دنجلى ، ومد يد العون إلى ريتشارد شريدان فى محنة شبابه ، وكان فى ظاهره رجلا قاسياً ، ولكنه تأثر تأثراً بالغاً لفقر الشعب الايرلندى ، وصعق لكثرة عدد المتسولين من الأطفال فى شوارع دبلن ، وفى ١٧٢٩

أصدر أشد مقالاته التهكمية الساخرة ضراوة ولذعاً تحت عنوان « اقتراح متواضع لمنع أطفال الفقراء من أن يكونوا عالة على آبائهم وعلى بلدهم » :

« لقد تأكد لدى كل التأكيد .... أن الطفل الصغير الصحيح الجسم الذى بلغ من العمر سنة ، يصلح لأن يكون طعاما شهياً مغذياً صحياً ، إلى أبعد حد ، مطهواً بالغلى البطىء أو مشوياً أو محمصاً أو مسلوقا ، كما يصلح بالمثل لأن يكون « مفروما محمراً ، أو يخنة كثيرة التوابل » . ومن ثم فانى بكل تواضع ، أعرض على الرأى العام ، أنه من بين المائة والعشرين ألف طفل الموجودين الآن ، يمكن الاحتفاظ بعشرين ألفاً فقط لتربيتهم وتنشئتهم ، على أن يكون ربعهم من الذكور ، أما المائة ألف طفل الباقون فيمكن عرضهم للبيع إلى ذوى المكانة والثراء فى طول المملكة وعرضها ، مع نصيحتى دوماً إلى الأمهات بالإكثار من ارضاعهم فى الشهر الأخير ، حتى تمتلىء أجسامهم ويكونوا سماناً تزدان بهم الموائد الفخمة ، إن الطفل الواحد يمكن أن يكون طعام يقدم للأصدقاء ، أما إذا كانت الأسرة تتناول غذاءها وحدها فان الربع الأمامى أو الخلفى من الذبيحة يكون طبقاً كافياً ، وإذا تبل ببعض الفلفل أو الملح لكان طيب المذاق ...

أما الذين هم أكثر تدبيراً واقتصاداً فيمكنهم أن يسلخوا الجثة ، ويعالجوا جلدها بطريقة خاصة ليصنعوا منه قفازات لطيفة للسيدات ، وأحذية صيفية للرجال الأنيقين ....

إن بعض الذين جزعوا لهذه الظاهرة اهتموا اهتماماً كبيراً بهذا العدد الضخم من المسنين أو المرضى أو المقعدين والمشوهين ، ورغبوا إلى أن أعمل التفكير فى الوسائل التى يمكن أن تتخذ لتخليص الأمة من هذا العبء الثقيل المحزن ، ولكنى لا أتألم كثيراً لهذه المسألة لأن المعروف جيداً أنهم يموتون وتبلى أجسامهم فى كل يوم من البرد والجوع والقذارة والهوام ، بالسرعة المتوقعة بداهة .

وأظن أن مزايا الاقتراح الذى عرضته واضحة متعددة ...

وأولى للزايا ، أن هذا يخلصنا إلى حد كبير من عــدد البابويين (اليسوعيين) الذين يجتاحوننا كل عام ، لأنهم المربون الأساسيون للأمة ، قدير ماهم ألد أعدائنا وأخطرهم ... وثالثها أنه من حيث أن تربية مائة ألف طفل من سن الثانية فما فوق ، لا يمكن أن يتكلف الواحد أقل من عشر شلنات فى العام ، فبهذا الاقتراح سيتوفر للأمــة خمسون ألف جنيه سنوياً ، هذا بالإضافة إلى فائدة اللون الجديد من الطعام الذى يقدم إلى موائد ذوى الثراء والوجاهة ..... الذين يتحلون بالذوق الرفيع » ..

إن نتاج يراع سويفت ، ذلك النتاج الغريب ، والثائر أحياناً ، وبخاصة بعد وفاة ستيللا ، يوحى بأنه قد أصابه مس من الجنون ، « إن شخصاً من ذوى المكانة فى ايرلنده (كان يسره أن ينحنى كثيراً ليدقق النظر فى عقلى) اعتاد أن يقول لى أن عقلى مثل روح مسحورة ، قد يؤذى ويسىء إذا لم أشغله بشىء(١٣٦) » .

وتساءل أحد الأصدقاء : إن مبغض البشرية الكئيب هــذا ، والذى تركته الأخطاء الصارخة فى بيت من زجاج ، بينما هو يسلق البشرية بألسنة حداد من الهجاء ، ألا يغنى فساد الناس ومساوئهم جسدك ويستنزف روحك ؟ » ، « إن غضبه على العالم كان امتداداً لغضبه على نفسه ، فقــد أدرك أنه على الرغم من عبقريته ، معتل الجسم مريض النفس ، ولم يــكن يغتفر للحياة حرمانه من الصحة والأعضاء السليمة وهدوء البال ، والتقدم الذى يتناسب مع قوة عقله .

وكان آخر مظهر لقسوة الحياة على سويفت ، هو اختلال قواه العقلية يوماً بعد يوم . وازداد بخله وجشعه ، حتى وسط أصدقائه وقيامه بأعمال البر . فكان يضن بالطعام على ضيوفه ، وبالنبيذ على أصدقائه(١٣٧) . وازدادت نوبات الدوار عنده سوءا ، فما كان يدرى فى أية لحظة منحوسة ينتابه هذا الدوار ليجعله يترنح ويتلوى من الألم فى هيكله أو فى الشارع .

وكان قد رفض أن يضع النظارات على عينيه فضعف بصره وترك القراءة . ومات بعض أصدقائه ، ونأى بعضهم بنفسه عنه ، اجتناباً لحـــدة طبعه واكتئابه ، وكتب إلى بولنجبروك : « كثيراً ما فكرت فى الموت ، ولـكنه الآن لايغيب عن ذهنى أبداً (١٣٩) » وبدأ يتلهف عليه . واحتفل بيوم ميلاده يوم حـداد وحزن . وقال « ليس هناك رجل عاقل يرغب فى استعادة شبابه (١٤٠) » . وفى أعوامه الأخيرة كان يودع زائريه دوماً بقوله « سعدتم مساء ، أرجو ألا أراكم ثانية (١٤١) » .

وظهرت أعراض الجنون التام عليه فى ١٧٣٨ . وفى ١٧٤١ عين بعض الأوصياء ليتولوا شؤونه ، ويراقبوه حتى لايلحق بنفسه أى أذى فى نوبة من نوبات العنف والجنون التى تصيبه . وفى ١٧٤٢ عانى ألماً شديداً من التهاب فى عينه اليسرى التى تورمت حتى صارت فى حجم البيضة . وأحاط به خمسة من الأتباع ليحولوا بينه وبين فقء عينه بيده . وقضى عاما لاينطق بنت شفة . وآذنت محنته بالإنتهاء فى ١٩ أكتوبر ١٧٤٥ ، وقد بلغ الثامنة بعد السبعين . وأوصى بـكل ثروته البالغة اثنى عشر ألف جنيـــه لبناء مستشفى للأمراض العقلية . ووورى التراب فى كاتدرائيته ، ونقش على ضريحه عبارة اختارها بنفسه :

« حيث لا يعود السخط المرير يمزق قلبه » .

فهرس

الفصل السابع

كرومول ١٦٤٩ — ١٦٦٠

الفصل الثامن ملتون ١٦٠٨ — ١٦٧٤

الفصل التاسع عودة الملكيه ١٦٦٠ ـ ١٦٨٥

الفصـل العـاشر

الثورة الجليلة ١٦٨٥ ـ ١٧١٤

الفصل الحادى عشر

من دريدن إلى سويفت ١٦٦٠ ـ ١٧١٤!

